(المغفور له محمود فهمى مؤلف هذا الـكتاب)

الجـــزء الاول

من البحر الزاخر فى تاريخ العالم واخبار الاوائل والاواخر

تأليف

الهمام البارع والعالم النافع المرحوم محمود فهمى المهندس
المتوفى بجزيرة سيلان فى شهر ذى الحجة سنة ١٣١١ هجرية على صاحبها
أفضل الصلاة والسلام

الطبعة الاولى
بالمطبعـــة الاميريه ببولاق مصر المحميه
ســـنة ١٣١٢
هجريه



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذى قص أحسن القصص المبين على رسوله النبى الهادى الامين الذى لا أول لوجوده ولا آخر لجوده القادر الذى لا تدرك العقول كنه ذاته المقدس فى ذاته وصفاته المنزه عن التغيير والتبديل الذى لا يحوسواه من التحويل المتصرف فى خلقه بالرفع والخفض والمنفرد بالبسط والقبض والنقض والابرام والاعطاء والاحرام والاماتة والاحياء والايجاد والافناء رفع الممالك للسالك وأقام الدول والممالك يؤتى الملك من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الثواب والعقاب واليه المرجع والمآب مبيد القرون السالفة والامم الخالفة ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين وأصلى وأسلم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين المبعوث الى كافة الخلق أجمعين صلى الله عليه وعلى آله الهادين الراشدين وصحابته ومن حذا حذوهم من التابعين صلاة وسلاما متلازمين الى يوم الدين ﴿ وبعد ﴾ فيقول المفتقر الى رحمة ربه المنان محمود فهمى المهندس القاطن بجزيرة سيلان انى لم أزل مولعا بحب مطالعة التاريخ الحديث والقديم ومكبا على مطالعة ومعرفة الحوادث والوقائع التى حصلت فى العصر القديم الخالى والعصر المتوسط والعصر الكريم الحالى وما حصل فى ممالك العالم من النهوض والقيام ثم الاضمحلال والاختفاء تحت شوامخ الآكام ومعرفة الديانات المختلفة والعقائد العديدة فجمعت هذا الكتاب الذى جاء كالدرة الفريدة جمعا على وجه الاختصار وصغته من اللغات الاجنبية فى قوالب لغة أهل الابرار وهو يشمل جميع تواريخ ممالك الكرة الارضية كبيرة كانت أو صغيرة السعة النسبية ذاكرا فى كل مملكة من الممالك مواقعها الجغرافية وحدودها ومساحاتها الارضية ومبدأ منشئها وعقائدها الديانية وما حصل فيها من الوقائع الحربية والارتباكات والقلاقل الثورية وكيف بذلت كل مملكة أو أمة نفسها فى عتق رقابهم حتى انتصبوا أو هلكوا فى مدة أحقابهم فجاء كتابا جامعا فى بابه نافعا لطلابه وسميته ﴿ البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الاوائل والاواخر ﴾ وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يتم المقصود ويرحمنا من فضله حسبما وعدنا بوعده الموعود انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير وأشرع الآن فى المقصود فأقول مستعينا بربنا المعبود

(مقدمة الكتاب)

ينقسم التاريخ الى قسمين أصليين الاول منهما تاريخ أثري وهو ما جاءت به الكتب المقدسة السماوية كالتوراة والانجيل والفرقان والثاني تاريخ بشري وهو ما ألفه الناس في حكاياتهم ومنشأ الامم والممالك وقيامها وتقدمها واضمحلالها وسقوطها وحكوماتها واجتماعها وتفرقها ودمارها وخرابها اذ من المعلوم أن كل شيء موجود تحت الاشعة الشمسية والاجرام الفلكية السماوية معرضة لتغييرات لانهائية وأن نهاية كل أمة أو مملكة وعاقبتها هي مثل نهاية الجنس الانساني وعاقبته لان كل أمة لها سعادة في حالة شبابها مادامت قواها متناسقة ومتى طعنت في السن قليلا وبلغت مبلغ الكهولة قل عنها عظمها وسعادتها وما كانت عليه من النفوذ والتوفيق الداخلي ومتى وصلت الى سن العجز والشيخوخة اضمحلت قواها وعجزت نواياها وحصل فيها شيآن أصليان وهما اما انقراضها بالكلية أو اذعانها لامة أقوى منها في الجسمية والسلطة والسيادة الانسانية ففي المدة الاولى تكون هيئة الاعمال التاريخية والوقائع الحربية هي المقصد الاصلي من التسجيلات والتدوينات التاريخية وفي المدة الثانية تحصر المملكة في تشريع القوانين والاختراعات والادراكات العقلية في الفنون والآداب وفي المدة الثالثة تقع المشاحنات والمخاصمات المختصة بالهيئة الاجتماعية والالفة البشرية المحتاجة اليها الطوائف الانسانية وبذا يقع الارتباك والاختلال بشأن حضارة الامة الواحدة والنظر في انتظام هيئتها وتشييد وانتصاب حكومتها وفي هذه الحالة يعرف الانسان أن أساس سعادة المملكة والامة وعظمها وتقدمها محصور في صداقة حب الوطن وصداقة نعمته له وبساطته في المعيشة الدنيوية وأن أساس الدمار والخراب هو التمتع بحب النفس ووقوع النزاع والشقاق وحب الترفه في المعيشة والاعتكاف على الشهوات وملازمة اللذات

ولما كان أصل منشأ الممالك والامم وانتصابها في حالة الوجود هو قبل اختراع فن الكتابة والقراءة واستعمال هذين الفنين وانه لابد وأن يكون النوع الانساني أجرى حروبات ومبارزات ومناضلات ورتب نظامات داخلية في وطنه ومحل مسكنه من غير أن يدونها في سجلات محفوظة داخل وطنه فتكون نتيجة معرفة التاريخ الاكثر قدما في الاعصر الخالية مأخوذة من أعمال ليست مرتبطة كل الارتباط مع بعضها بدرجة كمال يعول عليها وأن أخبار الامة الواحدة القديمة مأخوذة اما من أشعار أو من مغان وطنية واما مما ينقله أهل الامة من رواياتهم الشفاهية ويضيفون اليها روايات خرافية وأقوال حشوية وتصورات غير عقلية واما أن توجد هذه الاعمال منقوشة على أضرحة وأحجار منحوتة أو تراكيب قبور وشواهد ترب أو على آثار مبان قديمة أو تكون منقوشة على نقود أو عدد أو آلات حربية أو غير ذلك

وعلى هذا فيجب مراعاة التسجيلات التاريخية القديمة جدا المطرزة بتخيلات وهمية ومزينة بزخارف عظيمة بأنها أعمال وهمية وتخيلات خرافية مهما كان علو مقدارها في السجعات الشعرية التي ظهر وجودها في أيام عصر الشجاعة والحماسة اليونانية والفصاحة والبلاغة العربية وانها لاشيء في جانب التاريخ الوصفي لاعمال بني الانسان وانه لاتعويل على التاريخ الا اذا كان المؤلفون له اما معاصرين

للوقائع التي حصلت به والحوادث التي جرت فيه واما أن لا يكونوا بعيدين عنها بعداً زائداً حتى يمكننا التعويل على نتائج أبحاثهم وأعمال تجاربهم التي دونوها ومن تقدم الحضارة والمدنية عرفت الحوادث والوقائع التاريخية الخالية عن الخرافات بواسطة وجود التسجيلات السنوية المدونة بواسطة الكتابة وصار التعويل عليها اسهل وبها عرفت الاختلافات الحاصلة في العالم مع الدقة والضبط الكافي ويطلق على ترتيب وتنظيم الحوادث التاريخية والوقائع الحربية حسب تواريخ حصولها من غير اتصالها بشئ باطني اسم (تاريخ) وأما معرفة الممالك والاراضي والامم اللازم معرفتها بسهولة فهم مطالعة التاريخ فانه يمكن تيسر الحصول على معرفتها بطريق دراسة علم الجغرافيا وأما البلدان والمدائن والمحلات الصغيرة فانه يمكن تيسر الحصول على معرفة محلاتها بطريق دراسة علم الطبوغرافيه وأما تواريخ مدة الوجود والحصول فانه محصور في علم تاريخ المدد والقرون ومع هذا فان حساب الاعصر والقرون مختلف باختلاف الامم وذلك أن تاريخ الامم المسيحية جار من ابتداء مولد المسيح عيسى عليه السلام وتاريخ اليهود من ابتداء خلق الدنيا وتاريخ الوثنيين من ابتداء موت جوتما بودها والتاريخ الاسلامي من ابتداء هجرة محمد صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة وكان وقوع هذه الحادثة وهي الهجرة في سنة ٦٢٢ من التاريخ المسيحي وأما طريقة حساب الجريق أو اليونانيين فانها مختلفة باختلاف الاجناس والحكومات

ثم ان تاريخ العالم ينقسم الى ثلاثة أقسام أصلية هي (أولا) ـ الاعصر الخالية والدهور القديمة البالية وتنحصر في هذه المدة هيآت الحكومة الجمهورية المطلقة وتسلطن العبادة الوثنية (ثانيا) ـ الاعصر المتوسطة وتنحصر فيها أحوال السيادة الالتزامية وشدة تسلط الثلاث طوائف الملوك والوجوه والعوام وقسمة الملة الواحدة الى مدافعين أو محافظين ومعلمين وممهدين داخلا في ذلك الوجهاء والاشراف والقسس والرهبان والتبعة من أهل المدائن والقرى والفلاحين والسلطة البابوية النافذة والبدع الدينية وقد تدمرت هذه السلطة البابوية وكسرت شوكتها النافذة بواسطة الاصلاح الانجيلي الذي حصل في سنة ١٥١٧ من بعد كشف أمريقه في سنة ١٤٩٢ ومن انتشار العلوم والفنون حصلت الزيادة في توسعة حدود سلسلة الادراكات العقلية في الاعصر المتوسطة (ثالثا) ـ الاعصر الاخيرة وهي التي حصل فيها ارتفاع الطوائف المدنية وشوكة الملوك والسلاطين مع قاعدة أسست وأحكمت على وجود جيوش وعساكر ثابتة الى أن قامت الحروب على قدم بخصوص الغاء هذه الشوكة المطلقة المستبدة وبذلك تأسس وجود الحرية الشخصية وعرفت حقوق الوراثة البشرية وأقيمت منازعات ومجادلات قانونية على هيئة الحكومة الحاضرة حتى وصلت الى درجة عالية اشتهرت فيها الثورة الفرنساوية التي وقعت سنة ١٧٨٩ من التاريخ المسيحي وبذلك انحصرت جميع الاعمال الموجودة في هذا العصر الاخير في أربعة أشياء وهي تساوي طوائف أجناس سكان المملكة الواحدة في المدنية والحقوق التبعية واشتراك الامة في الاعمال العمومية لها ومعلومات الصفات الوطنية وحصرها في قانون أو نظام تجري الحكومة العمل بمقتضاه واقامة طرق الموازنة العدلية بين طوائف الامة الواحدة وصارت هذه الاربعة الاشياء هي الاساس الاصلي في المملكة الواحدة ويقال ان الاعصر الخالية هي من ابتداء خلق الدنيا الى حد منتصف القرن الخامس من التاريخ المسيحي والعصور أو القرون المتوسطة هي من ابتداء منتصف القرن الخامس

تقريبا الى نحو مبادى القرن السادس عشر من التاريخ المسيحى وأما القرون الاخيرة أى العصور الحديثة فهى من ابتداء مبادى القرن السادس عشر الى الايام الحاضرة وما هو آت

ومن مقارنة الاختلاف الواقع بين سكان الارض تيسر الحصول على امتياز ثلاثة أجناس أو فروع بشرية تختلف عن بعضها فى الصفات العقلية والشوكة والقريحة الحضرية والصورة الجسمية وفى هيئة الرأس والوجه ولون الجلد ولنذكر هذه الثلاثة الاجناس الاصلية ثم نعقبها بجنسين آخرين ثانويين تابعين لها فى الصفات الانسانية

(أولا) ــ الجنس القوقاسى المشهور بالحرية والسيادة والى هذا الجنس تنسب الامم التى لغاتها ولهجتها اللسان الهندى الجرمانى وهم سكان أوروبا (ماعدا الامة اللابية والفنيون) وسكان آسيا الغربية والهنود وسكان أفريقه الشمالية والامم الذين هاجروا من أوروبا الى أمريقه فهؤلاء على حسب قريحتهم الحضرية أو المدنية يشكلون المقصد الاصلى من التاريخ ويمتازون عن غيرهم بتماثل الاعضاء وهيئة الجسم وجمال الوجه الا أنه يوجد فيهم اختلاف كبير فى لون وبياض أجسامهم بالنسبة لسكان أوروبا الشمالية وهذا الاختلاف هو وجود اللون الاسمر ولون الجلد الاسود وسواد الشعر الحالك عند سكان الجنوب والهنود

(ثانيا) ــ الجنس الاسود الافريقى المنقول بطريق تجارة الرقيق الى أمريقه والى نواحى جهات الهند الغربى وفيه اسوداد كثير أو قليل فى الجسم وتجعد فى شعوره الصوفة وعلو فى القفا والناصية

(ثالثا) ــ الجنس المغولى أو المنغولى فى آسيا الشرقية وفى الاقاليم الشمالية القطبية للعالم القديم والجديد وهم المغوليون والهوانيون والهنود القاصية والصينيون واليابانيون والقلمون والفنيون والاسكيموكسيون وغيرهم ولهؤلاء شعور ناعمة سودا وأنوف فطس ضيقة وعيون واسعة الانفصال وناصية مسطوحة وجلود يختلف لونها من الاصفرار الى الاسوداد الخفيف ويوجد غير هذه الاجناس الثلاثة المختصة بالتقسيمات القديمة للأرض جنسان آخران ثانويان متوسطان فى الهيئة وهما

(أولا) ــ الجنس الملقى (أوستراليا) ولهم شعور ناعمة سود خفيفة التجعيد وحواجب عيون سود ولون أجسامهم كثير الغبوشة أو قليلها أشبه بكونهم منقولين من الجنس القوقاسى الى الجنس الحبشى أو جنس السودانيين والى هذا الاختلاف ينسب سكان هولندة الجديدة وسكان جزائر البحر المحيط الجنوبى

(ثانيا) ــ الجنس الامريقانى ولون جلود أجسام هذا الجنس نحاسى أسمر ولهم شعور مسبولة خشنة ولم تزل هذه الصفة موجودة لحد الآن فى سكان أمريقه الاصليين وكذا فى المكسيكيين والبيروويين ويرى على هيئتهم أن أصلهم محول من الجنس القوقاسى الى الجنس المغولى

ومن أجل أن الامم المختلفة الموجودة على سطح الارض منقسمة الى خمسة أجناس ثلاثة منها أصليان واثنان ثانويان صار الفحص مع الاجتهاد الزائد عن طريقة معرفة عدد اللغات والالسنة المختلفة الموجودة على سطح هذه الارض وظهر من بعد الفحص التام أن عدد اللغات والالسن نحو من ألفى لغة أو لسان وكذا علمت طريقة أصل انفصال جموع هذه الاجناس من بعضها واستكشفت حالة

المشابهة المتسلطنة فيها وكيف كانت هذه الاجناس من أصل واحد وكذا علمت حالة أصل الاتحاد والاتصال الموجودة الآن بين الاجناس المذكورة
فينسب الى الجنس القوقاسي مجموع ثلاث لغات هي (أولا) ـ اللسان الهندي الجرماني وينحصر في هذا اللسان الهنود والفرس ولغات أوروبا ماعدا اللغة الهنكارية والباشكيشية والفلمنكية والاسطونيانية (ثانيا) ـ مجموع اللغات السامطيقية أى المنسوبة الى سام بن نوح عليه السلام وتلهج بها الامم الساميطيقية والحبشية وسكان فينيقية القديمة وسكان قرطاجة (ثالثا) ـ لغات شمال أفريقه وتنحصر فيها لغة قدماء المصريين والقبط وغالب لغات قدماء سكان أفريقه الشمالية ومجموع اللغات الاصلية المنتشرة في آسيا الشرقية الشمالية وفي أوروبا والمنسوبة للقوقاسيين وقبائل المغول هي مجموع اللسان الفَنّيقي التتاري والطوراني ويتكلم بهذه اللغات القبائل الفلمنكية التي لاحصر لعددها ويدخل في عداد هذه القبائل قبائل الماغيار في نواحي هنكاريا وسكان اسطونيا وليفونيا وكذا التتار ويدخل في عدد قبائلها الاتراك العثمانية وسكان قرقيسيا والباشكيريين وكثير من الامم المغولية كالطُّوبخوزيين وسكان قَشْتَقا وغيرهم من الاجناس
ويوجد في آسيا الجنوبية الشرقية مجموع اللغات الصينية الهندية المنسوبة للأمم المغولية المتسلطن وجودها في نواحي الصين وأقصى الهند والتبت وجهات أخرى وأما في يابونيا وجزائر الارخبيل الشرقي فانه يوجد فيها مجموع اللغات اليابونية وأما اللغات الجارى التكلم بها في جزائر البحر المحيط الجنوبي فمن المعلوم أنها منسوبة الى مجموع اللغات الملقبة البوليزيانيه
وأما لغات الجنس النحاسي اللون التي صار تقدير عددها الى نحو خمسمائة لسان فهي وان وجد فيها اختلافات كثيرة غير أنه يوجد فيها مشابهة في أصلها وبهذا يمكن وضعها في قالب مجموع لسان مشترك عام تحت اسم اللغة أو اللسان الامريقي
وعلى هذا المنوال صار معرفة لغات الاجناس المختلفة الافريقية التي ما أمكن حصرها بما أجرته خواص أوروبا من الاجتهادات الكبيرة وتسجلات الأئمة بالنسبة لعدم معلومية داخل هذه الاراضي التي لايمكن جوبها وكان من اللازم علينا التعويل على ماظهر من نتائج هذه الاستكشافات كثيرا أوقليلا حتى بها نعرف مقدار ما يوجد فيها من اللغات القديمة الى أن تيسر لنا الحصول على معرفة ماظهر من دقة الملاحظات والفحوصات التي حصلت في هذا الزمن الحديث العهد وعلمنا علما تاما من الاستكشافات التي أجراها متأخرو سياح الاوروباويين في شأن اللغة الوطنية الجارى التكلم بها في هذه القطعة الارضية التي لم يزل اختلاف اللغات فيها مثل اختلاف تبلبل الالسن في لغة قدماء البابليونانيين ولقد تيسر الحصول على كشف عدة لغات جار التكلم بها الآن عند أجناس السودانيين القاطنين في القسم الشرقي من هذه القارة ويطلق على هذه اللغات اسم اللغات الزنجبارية أو الزنزبارية وهي متسلطنة في جميع أنحاء قطعة أفريقه الجنوبية ونظرا لظرافة النطق بها والاختلاف في لهجتها أمكن عدها في سياق متعادل مع اللغات المدنية الحضرية الاوروباوية وأحسن هذه اللغات وأرقها في الممالك هو اللسان السواحلي وهذا اللسان منتشر في طول سواحل البحر من ابتداء ثغر عدن الى جزيرة مداغشقر ثم انه في الوقت الذي وطن الناس فيه أنفسهم في الجهات المختلفة

من الارض شرعوا سريعا في عمل الوسائل المختلفة الخاصة بمعيشتهم الدنيوية مع توطنهم في محال وجهات دوامية فاما الذين سكنوا البوادي والصحاري الموجود فيها جهات المرعى والكلأ فانهم اختاروا لانفسهم في تلك البوادي العيشة الرعوية وأخذوا في الانتقال والظعن من جهة الى أخرى وصاروا قبائل وعشائر يجوبون الارض مع خيامهم وأنعامهم وما حوته أيديهم ويستبدلون محل راحتهم بمحل آخر حسب الفصول السنوية ووجود محلات المرعى والكلا وأطلق على هؤلاء الامم اسم (القبائل الرحالة النزالة) وانحصرت حالة أشغالهم الدوامية ومعيشتهم الدنيوية في قنية الانعام والماشية وأما الذين قطنوا السواحل البحرية تبعا لموافقتها لهم فانهم انتشروا فيها وكثر عددهم وتيسر لهم الحصول في الوقت على معرفة الفوائد التي يعود منها النفع على ماهم فيه من التوطن والعمارية وجدوا في استعمال طرق الملاحة والتجارة ونالوا بذلك الفوز والنجاح والثروة والفلاح وبذلك شرعوا في تشييد مبان جميلة ومساكن لانفسهم ظريفة وعمروا المدائن وقطنوها وأما الذين سكنوا السواحل العقيمة فانهم عكفوا في عيشتهم العامة المكدرة على صيد الاسماك وكذلك وجه سكان السهول والسواد التفاتهم الى الزراعة والوسائل السلمية وأما المتوحشون أهل القطاعة والخشونة القاطنون في الجبال فانهم عكفوا أنفسهم على صيد الحيوانات الوحشية ورأوا أن سعادتهم محصورة في الحروب والمنازعات وشن الغارات نظرا لما هم عليه من العتق والاطلاق وشدة البأس وبهذه الحالة صارت حرفة التجارة احدى القواعد المهمة القوية في ارتقاء الجنس الانساني الى أقصى درجات المعالي وانتشرت العلاقات التجارية والارتباطات الودية بين الامم المختلفة الجنس وكذا اتخذ سكان السهول المثمرة الذين قطنوها مع موافقة ما في نواحيها من الانهار والغدران وسائل سهلة في مد ونشر تجارة عامة داخل البلاد والاقاليم وصدروا للجهات الاخر وافر محصولاتهم ونالوا بدلا منها نتائج الصنائع والحرف والاعمال التجارية الاجنبية

وتولد من الاجتماعات العديدة للتجارة البرية في آسيا وأفريقيه بالنظر لتصدرها للجهات بواسطة قوافل تجارية أهلية وشحن هذه التجارات والبضائع في أكياس وطرود ونقلها من جهات بعيدة الى جهات أبعد منها وجود الاسباب الموجبة لتشييد المدائن والمراكز التجارية وكذا تولد من مشاق هذه الاسفار وصعوبتها وما هو حاصل فيهما من الاخطار بالنسبة لارسالها الى جهات بعيدة مقطعة في سكك سيرها بصحاري رملية مسكونة في الغالب بطوائف لصوص همجية الزام كثير من الناس على الاتحاد والاتفاق بعضهم مع بعض فيما هم عليه من المشروع العمومي

وكانت الحيوانات الجاري حمل التجارات عليها في هذه الاسفار الشاقة هي الجمال على الاخص المسماة بسفن الصحاري وصار استخدام سكان البوادي والصحاري المعبورة بهذه القوافل التجارية في المحافظة عليها وفي ارشادها على سكك العبور ودروب السير ولما كان من الضروري راحة هذه القوافل التجارية في أثناء عبورها وقطعها مسافات الطرق في نواحي بعض جهات مأمونة مثل معابد وهياكل مشهورة جهاتها مرعية بأنها مقدسة ومحترمة مع ما حولها من الجهات والبلاد المأمونة مراعاة لهذه المعابد الديانية فكان يوجد في يد كل قافلة في الزمن القديم أوامر مقدسة ديانية مرعية العمل تحت حماية ورعاية الهيئة الديانية وبما أنه يوجد في سواحل سكان الشواطئ البحرية خيران وأجوان وخلجان داخلة في الارض وكذا دخلات على هيئة مراسي ومينات فكان هؤلاء يصدرون تجاراتهم

بطريق المياه بحيث يكون سير التجارات قريبا من السواحل على العموم فى الاعصر القديمة وكانوا يبيعون بضائعهم بطريق المبادلة واستمروا على ذلك مددا طويلة يتعاملون فيها بالمبادلات حتى ظهر تقدير قيمة المعادن النفيسة وحصل الاتفاق على ضرب نقود تتعامل بها الامم فى أخذها واعطائها فى التصديرات التجارية والمدخولات والمنقولات البضاعية وكذلما كان سكان السواد الاعظم من الارض المشحونة بالاهل والعمارية محتاجين لمساعدة أنفسهم فى أشغالهم اليومية أخذوا فى تأليف الحيوانات الوحشية وتربيتها واستعمالها فى الاشغال الداخلية اليومية وجدّوا فى حفظ عقاراتهم ومساكنهم وغيطان مزارعهم ومواشيهم وأغنامهم وجعلوا لذلك قوانين ونظامات وشرائع مختلفة حسب عوائدهم وطبائعهم وبهذا العمل صارت غراسة الاراضى وفلاحتها هى الباب الاعظم لمعيشة الجنس الانسانى وحياته الدنيوية وكذا وجه سكان المدائن التفاتهم الى التجارة واخترعوا الاختراعات المفيدة للحياة الدنيا وغرسوا بساتين الفنون ورياض العلوم وبها اكتسب عقل بنى الانسان جميع خواص الاحساسات والافكار والاعمال التدبيرية التى يعود منها النفع على ترفه حياته ودوام لذاته

ومع سريان الوقت ودوران الفلك وتوالى العصور انقسم السكان الموجودون على سطح الارض الى طوائف وملل وقبائل وعشائر متمدنة وغير متمدنة حسب استعدادهم وطرق سير أحوالهم وبما هم مستحوذين عليه من القوى العقلية والادراكات الفهمية والعزلة الموقعية فأما الطوائف والامم غير المتمدنة فهم شعائر وشعوب همجية مجموعون تحت ارشاد حاكم واحد قابض فى يديه زمام حياة كل شخص من هذه العشائر أو قبائل رحالة نزالة تحت قيادة وسلطة رئيس واحد يجرى فيهم اجراآته بطريق الابوية وله عليهم حقوق الولاء والقضاء وله عند رعيته هو والمعبود حق الرعاية والاحترام إلا انه لا يوجد محل فى التاريخ لهؤلاء الاجناس الرحالة النزالة مع حكوماتهم الابوية الرئيسية ولا محل للعشائر الهمجية القاطنين فى الصحارى الرملية من أفريقيه وكذا سكان الجهات الجبلية من آسيا ولا محل لسكان الاورمانات والغابات القديمة فى أمريقه بل يشمل التاريخ فى نفسه الاجناس المتمدنة وهؤلاء انقسموا حسب عوائدهم وطبائعهم وقوانينهم وشرائعهم الى ايالات وممالك كبيرة كانت أو صغيرة وامتزج كل قسم من هذه الاقسام ببعضه حتى صار أمة واحدة ممتازة فى نفسها

ثم انقسمت الممالك أيضا الى حكومات ملوكية وجمهورية تبعا لطرائقهم المختلفة فى الاحكام والنظام فأما الحكومة الملوكية فهى ما كانت السلطة أو الشوكة فى يدى شخص واحد يطلق عليه بالنسبة لسعة امتداد أرضه امبراطور أو ملك أو أمير أو سيد وأما الحكومة الجمهورية فهى نظام تنحصر به السلطة والسيادة فى رجال ممتازين من الامة والشوكة المنفذة مقلد زمامها بأيدى حكومة منتخبة ومن ثم يوجد اختلاف كثير فى تلك الهيآت وذلك انه اذا كانت الحكومة بتمامها مدبرة بقليل من الاشخاص الممتازين بعلو درجة المولد أو الثروة فيقال لهذه الحكومة حكومة الاعيان واذا كان الرؤس الكافلة للحكومة منتخبين بواسطة عموم الامة أو بواسطة مجالس عمومية أو بواسطة طوائف ونفس الامة حائزة السلطة القانونية النيابية فيقال لمثل هذه الحكومة جمهورية وان حصل عند طوائف الامة نفوذ وسطوة زائدة انقلبت الجمهورية الى حكومة مجلسية

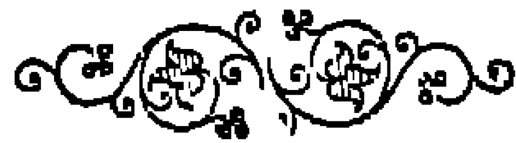
وتعد كل هيئة من تلك الهيآت قانونية عندما تكون المنافع العمومية وما ترغبه الامة فى استتباب راحتها من العدل والانصاف جاريا حسب قواعد أساسية متينة البنيان وتكون الشوكة الحاكمة

معترفة بسلطة القانون وعلو درجته مع معرفة عوائد الامة وطبائعها أيضا ولقد أخذت هذه الشوكة في علو النفوذ شيأ فشيأ حتى محقت العدل والحق وحل محلهما الظلم والاجحاف بالحقوق المرعية وتأسست قوانين وشرائع غير موافقة لعوائد الامة الواحدة وطبائعها اتقرر فيها منافع خصوصية لآخرين وصارت قوانين شرعية على كل واحد من التبعة وأهل المدن

و يقال لهيئة الحكومة الملوكية مطلقة التصرف حالما يعين الحاكم المتولى أمر الامة عماله و يضرب الضرائب والعوائد وينظم الحكومة ويسن القوانين والشرائع من دون أن يستشير في هذه الامور الامة و يقال لها محدودة عندما يصير اجراء ما تقدم ذكره من الاعمال بمساعدة نواب من الامة فالسلطة المحدودة هي التي يكون فيها الملك غير مسؤل و يكون تحت يده وزراء مكلفون بالاعمال ومسؤلون عنها لديه ولدى الامة وهذه يحتمل أن تكون على نوعين وهي ما اذا كان جميع نواب الامة حاضرين كما في السلطة القانونية أو كان الحاضر بعض نواب من طوائف فقط فاذا غيرت أغراض وشهوات الحاكم القانون انقلبت الحكومة المطلقة الى حكومة استبدادية صرفا وكذا اذا كانت سلطة الامة مرعية النفوذ والاعتبار في الشوكة وعلو درجتها في الحكومة انقلبت الحكومة الى هيئة جمهورية

وأما ما يتعلق بالديانات المختلفة والمذاهب والاعتقادات المختلفة فسنشرحه عند ذكرنا كل مملكة أو أمة من الامم في أبوابها المشتملة على تاريخ وجودها ومنشئها

وقد قسمت هذا الكتاب الى سبعة أجزاء تشمل أربعين كتابا وكل كتاب يشمل أبوابا متعددة أو بابا واحدا حسب اتساع تاريخ المملكة الواحدة وما حصل فيها من الحوادث والوقائع الحربية والقيام والسقوط بوجه الاقتصاد فجاءت مرتبة على هذا النسق



الجزء الاول

مــن البحــــر الزاخر

الكتاب الاول

فى التـــاريخ المقـــدّس

أو الاثــــرى

الباب الاول

زمــن النبـــوّة

الخلقة ـ آدم وحواء ـ موت هابيل ـ شيث ـ نوح ـ الطوفان ـ ذرية نوح ـ صرح بابل تبلبل الالسـن ـ هجرة ابراهيم عليه السـلام ـ دخوله فى فلسطين ـ نصرته على كدُرلعومر العهـد أو الميثاق ـ مولد اسمعيل ـ خراب مدائن السهل ـ مولد اسحق ـ اخراج اسمعيل ـ اقامة دين ابراهيم ـ زواج اسحق ـ مولد عيصو ويعقوب ـ صفاتهـما ـ بيع العيص حق البكورية ـ نوال يعقوب البركة ـ هرب يعقوب ـ اقامـة يعقوب عنـد لابان ـ زوجاته وأولاده ـ عوده الى فلسطين ـ ارتباكـه مع أولاده ـ يوسف واخوته ـ بيع يوسف ـ رقه فى مصر ـ صيرورته نائب الملك ـ مدة القحط ـ نزول يعقوب وأهـل بيته فى مصر ـ موت يعقوب

يبدأ التاريخ المقدس بان الله سبحانه وتعالى وهو القادر على كل شئ خلق الدنيا والانسان بقـدرته ولم يذكر فى التوراة تاريخا لهذه الحوادث حتى ما أمكن للعلم اثبات تاريخها بوجه الحقيقة وان الحوادث المختلفة التاريخية التى جرت فى شأن التواريخ القديمة لحالة وجود الانسان هى اختيارية صرفا وليس لها حكم ثابت وأن التوراة لم تذكر لنا تاريخا نعول عليه لمثل هـذه الحادثة بل عرفنا من التوراة ومن الكتب المقدسة بأن الله هو القادر على كل شئ خلق الدنيا والانسان لقصـد معلوم وهو عبادته سبحانه وتعالى وان جنس بنى الانسان متناسل عن زوج أصلى وان أول رجل وأول امرأة خلقهما الله سبحانه وتعالى آدم وحواء

قيل ان المعتمد الصحيح المعوّل عليه ان مبدأ خلق الجنس البشرى ومحل وجوده كان فى قارة آسيا والاكثر احتمالا أنه كان فى قطعة الاقليم الشاسع الواقع بين الجبال التى يأخذ منها كل من نهرى آمو والسـند منبعهما الكائنة فى الناحية الشرقية من الاقاليم والجبال التى يأخذ منها كل من نهرى الدجلة والفرات منبعهما الكائنة فى الجهة الغربية من الاقاليم وفى هذه الارض البهجة الخصبة كان الانسان قائما فى طاعته العظمى لله سبحانه وتعالى ثم كانت عاقبته أن سوّل له الشـيطان فأخرج الله سبحانه وتعالى آدم

وحواء

وحواء من الجنة وعاقبهما أى وحكم عليهما بالاوجاع والآلام ومشاق الاشغال فى مدة حياتهما ثم اعتادا على الاشغال وتمتعا فى حياتهما الدنيوية بها

ولكن الصحيح الحق الذى نثق به ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض فمنهم الاحمر والاسود والابيض وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب فشكله وصوّره وركبه ثم نفخ فيه الروح وعلمه جميع الاسماء وأسكنه الجنة وخلق من نفس آدم حواء ليسكن اليها وقال الله له يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأتاهما الشيطان فوسوس لهما وقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فأخرجه هو وحواء والشيطان من الجنة وأسكن الله سبحانه وتعالى آدم وحواء أرض الهند يتكبدان فيها آلام الشغل عقابا لهما فى حال حياتهما ثم غفر لهما بمنه وكرمه

وكان لآدم وحواء ولدان قين أو قابيل وهابيل وكان الاول منهما زراعا والآخر صاحب ماشية فظهر من ذلك أن هاتين الطريقتين المتخذتين فى الحياة الدنيا موجودتان من القدم مع وجود الانسان ثم حسد قابيل أخاه هابيل على ما هو فيه من العيشة الدنيوية الطاهرة فقتله فكان قابيل أول قاتل وهابيل أول مقتول فى الدنيا على وجه الارض ولما سمع قابيل من خالقه حكم عقابه وعذابه صار مطرودا بأهله على وجه الارض ورحل فى جوبه الى الارض الموجودة فى شرق عدن وبنى فيها مدينة وسماها أنوخ أو حنوك باسم أول مولود له ثم صار لقابيل بنون وبنات واليه تنسب التوراة الفنون الصناعية والآلات الموسيقية وهذه أول واقعة حصلت على وجه الارض واختلف العلماء فى سبب قتل قابيل هابيل اختلافا كثيرا لا لزوم لذكره هنا وهذه الاختلافات مذكورة فى كتب التواريخ العربية المطولة وما قصه الله سبحانه وتعالى فى القرآن الشريف حكاية عنهما قوله تعالى واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لاقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لاقتلك انى أخاف الله رب العالمين انى أريد أن تبوء باثمى واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ففيه القدر والكفاية والله الموفق للصواب

ثم ولد لآدم وحواء ابن ثالث بعد موت هابيل فسماه آدم باسم شيث وكان نبيا واليه ينسب العبرانيون سلسلتهم وعمود نسبهم وصار لشيث بنون وبنات وعائلات عديدة وعاش حتى بلغ من العمر تسعمائة واثنتى عشرة سنة وبواسطة هذه العائلات حفظت الاحاديث المروية والعقائد الدينية المروية عن أسلافهم الى زمن الطوفان

وقيل كانت ولادة شيث بعد مضى مائة وعشرين سنة لآدم وبعد قتل قابيل هابيل بخمس سنين وكان شيث وصى آدم وصارت اليه الرياسة بعده وأمره أبوه آدم أن يخفى علمه عن قابيل وولده لانه قتل هابيل حسدا منه له حين خصه آدم بالعلم ومات آدم فى زمن شيث بعد أن عاش من العمر تسعمائة وثلاثين سنة ولما مرض شيث أوصى الى ابنه أنوش ومات بعد مضى مائة سنة وخمس وثلاثين سنة من عمر آدم. وقام أنوش بعد موت أبيه بتدبير الملك وسياسة قومه وكان جميع عمر أنوش سبعمائة سنة

وخمس سنين وكان مولده بعد أن مضى من عمر أبيه شيث ستمائة سنة وخمس سنين ثم ولد لانوش قينان ومعه بنون وبنات بعد مضى تسعمائة سنة من عمر أنوش وصارت اليه الوصية وولد لقينان مهلائيل وبنون معه وصارت اليه الوصية وولد لمهلائيل يرد أو يارد وبنون وبنات معه وصارت اليه الوصية وولد ليارد أخنوخ وهو ادريس واليه كانت الوصية وولد لاخنوخ متوشلخ وبنون وبنات معه واليه كانت الوصية وولد لمتوشلخ لمك أو لامك وبنون وبنات معه وكانت اليه الوصية وولد لامك نوح النبي عليه السلام

وكان نوح النسل الثامن من ذرية شيث وتمسكت عائلته بعبادة الحق سبحانه وتعالى وأخذ العالم فى زيادة العكوف على الموبقات والمعاصى والفجور وشرب الخمور وأنواع الكبائر والعيوب وصارت حالة الدنيا وعالمها مفزعة مهولة فغضب الله سبحانه وتعالى غضبا شديدا وزعم أهل التوراة أنه ندم وتأسف على ما فعله من خلقه الانسان (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) حيث رأى ما عليه الانسان من فعل الكبائر وارتكاب الفواحش الخبيثة وأراد تطهير الارض من الانسان ونجاسته ودمار وهلاك كل ما فيه روح من المخلوقات الموجودة على وجه الارض ما عدا البعض من كل جنس لبقاء تناسل أجناسهم المختلفة ثانية وكان نوح رجلا عدلا كاملا فى قومه منقادا لطاعة الله فاستثنى من الدمار العام هو وعائلته وأمره الله تعالى بتجهيز فلك أو بيت عوام من خشب الساج على هيئة أنزلت اليه من عند الله وأعلمه بمقصده وانه سيرسل طوفانا عاما على وجه الارض ولما تم عمل الفلك أمر الله نوحا أن يدخل فيه مع عائلته وأن يأخذ معه سبعة أزواج من الحيوانات الطاهرة والنجسة من كل ذى روح وجسد فأطاع أمر الله وأخذ الذكور والاناث وعائلته وما أمره الله به وأدخلهم معه جميعا فى الفلك وأطبقها عليهم ثم بعد ذلك ابتدأ الطوفان فانفجرت العيون الغزيرة من الارض وفتحت السماء أبوابها بماء منهمر واستمر سقوط المطر على وجه الارض أربعين يوما وليلة وازدادت المياه وعمت وارتفعت السفينة على وجه الارض وغطت المياه رؤس التلال والجبال الموجودة تحت السماء وجرت السفينة على وجه الماء وازدادت المياه حتى ارتفعت فوق رؤس الجبال الشامخة بمقدار خمس عشرة ذراعا فهلك جميع ما على وجه الارض من كل ذى روح كان يدب على سطح الارض وكذا الطيور والانعام والحيوانات والحشرات والزحافات والهوام ومات كل ما كان يدب على وجه الارض وكل ما كان يخرج من أنفه نفس حياة من الذى كان موجودا على الارض الجافة ونجا نوح والذين معه فى الفلك وعمت المياه وجه الارض ومكثت مائة وخمسين يوما

ومن بعد مضى خمس شهور هبطت المياه واستوت السفينة على جبال عرارة المسماة بجبال الجودى بنواحى أذربيجان ثم أخذت المياه فى النقص على الاستمرار الى الشهر العاشر وفى أوائل هذا الشهر ظهرت رؤس الجبال وقباتها ثم بعد مضى أربعين يوما فتح نوح طيقان السفينة التى كان صنعها فيها وبعث غرابا يكشف جفاف الارض فذهب الغراب ولم يرجع اليه حتى نضبت المياه من على وجه الارض فأرسل من عنده حمامة أو يمامة لينظر هل الارض جفت من المياه أم لا فطارت الحمامة ولما لم تجد محلا فى الارض تقف برجليها عليه عادت الى نوح فى السفينة لان المياه كانت موجودة على جميع سطح الارض فأخرج يده وجذب الحمامة الى داخل السفينة ومكث سبعة أيام أخر وأرسل

الحمامة

الحمامة ثانية من السفينة فعادت اليه وفي فمها ورقة زيتون فعلم نوح أن المياه انكشفت عن وجه الارض فمكث سبعة أيام أخر وأرسل الحمامة فطارت ولم تعد اليه مرة أخرى

ثم لما جفت الارض ترك نوح والذين معه السفينة فكان أول عمل عمله نوح أن ابتنى لله محرابا وقرب اليه قربانا وأخذ الله عليه وعلى ذريته العهد والميثاق ثم ان نوحا وامرأته وأولاده الثلاثة ساما وحاما ويافثا شرعوا في زراعة الارض وفلاحتها وهكذا عاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة ومات بعد أن بلغ من العمر تسعمائة وخمسين سنة

والذي قاله المفسرون أن نوحا بعث وهو ابن أربعين سنة ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا ومائتين وأربعين سنة

ومن أولاد نوح الثلاثة تناسلت أجناس الامم الذين عمروا الارض وسكنوها بعد الطوفان والظاهر أن الاقليم الذي سكنه أولاد نوح بعد تركهم السفينة هو الجبل الجامع لبخاري الصغرى مع اقليم التبت الغربي الآخذة منه الانهار الكبيرة لا سيما منابعها وهي نهر السند ونهر سيحون ونهر جيحون ثم من بعد مضي بضع من القرون رحل البعض من ذرية نوح بعد أن أخذوا في الزيادة والكثرة مع السرعة الى الجهات الغربية من مساكنهم الاصلية واتخذوا لهم مساكن في السهول الشاسعة التي يرويها كل من نهري الدجلة والفرات في الارض المسماة أرض شنعار وفي هذه الارض ساقهم غرورهم وكبرياؤهم نظرا لما هم عليه من كثرة العدد والقوة الى أن اعتقدوا بأن صارت لهم قوة وقدرة لا يعجزها شيء حتى الله سبحانه وتعالى فشرعوا في بناء مدينة وبرج قصدوا بارتفاعه عنان السماء حتى يمكنهم نجاة أنفسهم من كل حادثة طوفانية يحتمل حصول وقوعها على وجه الارض والى ذلك الوقت كانت لهجة جميع الناس في الالسن واحدة فعاقبهم الله بقبيح أفعالهم فبلبل ألسنتهم الى لغات شتى ولما كانوا لا يفهمون كلام بعضهم التزموا عدم الاستمرار في أشغالهم وتشتتوا شغر بغر وحلت كل عائلة أو عدة عائلات معهم لسانهم الجديد ومن ابتداء ذلك الوقت صار ذلك اللسان هو لسانهم الخاص بهم ومن هنا تكون اللغات والعلوم المتجددة للناس في تبويبها وترتيبها مأخوذة من أصل تلك اللغات وأطلق على البرج الذي لم يتم شغله اسم صرح أو برج بابل أو صرح البلبلة وهذا بسبب أن حصول تبلبل الالسن كان في هذه الجهة وبواسطة هذا الشتات والتفرقة انتشرت ذراري نوح على سطح البسيطة

وأما مدة أعمار من كان بين آدم ونوح وأسماؤهم فهو على حسب ما هو آت

عاش آدم تسعمائة وستين سنة وعاش شيث تسعمائة واثنتي عشرة سنة وعاش أنوش تسعمائة وخمسا وستين سنة وعاش قينان سبعمائة وعشرين سنة وعاش مهلائيل تسعمائة وخمسة وستين سنة وعاش يرد تسعمائة واثنتين وستين سنة وعاش أخنوخ ثلاثمائة وخمسا وستين سنة وعاش متوشلح تسعمائة وتسعا وستين سنة وعاش لامك سبعمائة وسبعا وسبعين سنة

وقد اختلف العلماء في ديانة القوم الذين كان فيهم نوح عليه السلام وأجمع البعض منهم على أنهم ما كانوا على ديانة آبائهم بل على غاية من ركوب الفواحش والكفر وشرب الخمور والاشتغال بالملاهي عن طاعة الله والاصح ما نطق به القرآن المجيد من أنهم كانوا أهل أوثان قال تعالى وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا فلما تمادوا على كفرهم وعصيانهم بعث الله فيهم نوحا يحذرهم بأسه ونقمته ويدعوهم الى التوبة والرجوع الى الحق والعمل بما أمر الله فلبث فيهم ألف

سنة الا خمسين عاما فكانوا يبطشون به ويخنقونه حتى يغشى عليه حتى اذا تمادوا فى معصيتهم وعظمت منهم الخطيئة وتطاول عليه وعليهم الحال واشتد عليه البلاء وانتظر الولد بعد الولد فلا يأتى قرن الا كان أخبث من الذى قبله ولما طال عليه الأمد ورأى الاولاد شرا من الآباء قال رب قد ترى ما يفعل بى عبادك فان يكن لك فيهم مراد فاهدهم وان يك غير ذلك فصبرنى الى أن تحكم فيهم فأوحى الله اليه انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلما يئس من ايمانهم دعا عليهم كما قص الله عنهم فى القرآن فى قوله تعالى وقال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا فأوحى الله اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون فأقبل نوح على عمل الفلك فكان قومه يسخرون منه فيقول لهم ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون ولما تم عمل الفلك أمره الله سبحانه وتعالى أن يدخل فيه من كل زوجين اثنين وأهله الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل فلما اطمأن نوح فى الفلك وأدخل فيه كل ما أمر به وحمل معه من حمل جاء الماء كما قال تعالى ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وكان بين أن أرسل الله الماء وبين أن حمل الماء الفلك أربعون يوما وليلة وكثر واشتد وطمى وغطى نوح عليه وعلى من معه طبقات السفينة وجعلت الفلك تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل منه لانه كان كافرا يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء فقال له نوح لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين وعلا الماء على رؤس الجبال فكان ارتفاعه على أعلى جبل فى الارض خمسة عشر ذراعا فهلك ما على وجه الارض من حيوان ونبات ولم يبق الا نوح ومن معه ومازالت السفينة تجرى بهم حتى انتهت الى جبل الجودى ولما استقرت قيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء أى نشفته الارض وأقام نوح فى الفلك الى أن غاض الماء فلما خرج منها اتخذ بناحية من نواحى قردى من عمل جزيرة العراق موضعا وابتنى فيه قرية سماها قرية الثمانين وقيل ان نوحا لم يولد له ولد الا من بعد الطوفان وكان أولاده ثلاثة سام وحام ويافث فجميع الخلق بعد الطوفان من نوح عليه السلام لقوله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين ولما حضرت نوحا الوفاة أوصى الى ولده سام وكان أكبر ولده وفى نوح وقومه قال بعضهم

عاش نوح يدعوهم وألف عام * غير خمسين لم يجيبوا الدعاء
أهلك الظالمين ربى بماء * أمر الارض أن تفيضه والسماء

ولما انتشرت ذرية نوح على سطح البسيطة كانت ذرارى سام الفرس الذين كان جدهم عيلام والاشوريون الذين تناسلوا من أشور والعبرانيون والعرب الذين تفرعوا من أرفخشذ والليديون وهم ذرية لود والاشوريون الذين تناسلوا من ارم وأما ذرارى حام فهم الحبشة الذين تفرعوا من كوش والمصريون الذين تفرعوا من مصرايم والليبيانيون الذين تفرعوا من فوط والفينيقيون الذين تفرعوا من كنعان وأما ذرية يافث فنهم جامر ومنه تناسل الجرمانيون والسكنديناويون وأهل الغلية (فرانسا) فى أوروبا والارمن فى آسيا وماجوج ومنه تفرع الجنس الطورينانى الكبير وهو مقسوم الى الأغر وقتيش والفروع الدراويديانية ومادى ومنه تفرع نسل الميديين وتوبال ومنه تفرع سكان الوديان القوقاسية وموشوح وهو جد سكان آسيا الصغرى وتراث وهو جد التراثيون

ويافان وهو جد يونان الجريق وهذا الاحصاء الذى عمل على حسب قول موسى عليه السلام مختص بالجنس ذى اللون الابيض فقط وأما الاجناس الأُخر ذوات اللون الاصفر والاحمر والاسود فان موسى عليه السلام لم يذكر عنها شيأ السبب معلوم عنده وكان قصد موسى بذلك هو بالبداهة ذكر نسب العبرانيين وأما ذكر الامم الاخر فهو عرضى البتة

وذكر فى الكامل لابن الاثير عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين أنهم سام وحام ويافث فكان سام بن نوح أبا العرب وفارس والروم وحام أبا السودان ويافث أبا الترك ويأجوج ومأجوج فولد لسام أرفخشذ بعد أن مضى من عمر سام مائة سنة وسنتان وأشوذ ولاوذ وارم وبنون وبنات أخر وكان جميع عمر سام ستمائة سنة فمن ولد لاوذ فارس وجرجان وطسم وعمليق ومن نسل عمليق كانت الجبابرة بالشام وهم الكنعانيون وبعض الفراعنة بمصر وولد لارم بن سام عوض وعابر وحويل وولد لعوض عابر وعاد وعبيل وولد لعابر بن ارم ثمود وجديس وولد لارفخشذ بن سام ابنه قينان بعد أن مضى من عمر أرفخشذ خمس وثلاثون سنة وكان جميع عمر أرفخشذ أربعمائة وثمانيا وثلاثين سنة ثم ولد لقينان شالخ بعد أن مضى من عمره تسع وثلاثون سنة وولد لشالخ عابر بعد أن مضى من عمره ثلاثون سنة وكان عمره كله أربعمائة وثلاثا وثلاثين سنة وولد لعابر فالغ وأخوه قحطان وكانت ولادة فالغ بعد الطوفان بمائة وأربعين سنة وكان عمره أربعمائة وأربعا وسبعين سنة وولد لقحطان يعرب ويقظان وولد لفالغ بن عابر أرغو بعد مضى ثلاثين سنة من عمر فالغ وكان جميع عمره مائتين وتسعا وثلاثين سنة وولد لارغو ساروغ بعد أن مضى من عمره اثنتان وثلاثون سنة وكان عمره مائتين وتسعا وثلاثين سنة وولد لساروغ ناخور بعد ثلاثين سنة من عمره وكان عمره مائتين وثلاثين سنة وولد لناخور تارح وهو آزر بعد ما مضى من عمره سبع وعشرون سنة وكان عمره كله مائتين وثمانيا وأربعين سنة وولد لتارح ابراهيم عليه السلام

وأما يافث فمن ولده جامر وموعع ومورك وبوانه وفوبا وماشج وتيرش فمن ولد جامر ملوك فارس ومن ولد تيرش الترك والخزر ومن ولد ماشج الاشبان ومن ولد موعع يأجوج ومأجوج ومن ولد يافث الروم

وأما حام فولد له كوش ومصرايم وفوط وكنعان فمن ولد كوش نمروذ ومن ولد مصرايم القبط والبربر وكان بين الطوفان وابراهيم عليه السلام ألف سنة ومائتان وثلاث وستون سنة وذلك بعد خلق آدم بثلاثة آلاف سنة وثلاثمائة وسبع وثلاثين سنة وولد لقحطان بن عابر يعرب وولد ليعرب يشجب وولد ليشجب سبأ وولد لسبأ حمير وكهلان وعمرو والاشعر وأنمار ومر وولد عمرو بن سبأ عديا وولد عدى لخما وجذاما

وكان ابراهيم عليه السلام هو العاشر من ذرية نوح من سلسلة سام لانه ابراهيم بن تارح بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام وهو الجد الاكبر للعبرانيين وكان أبوه تارح يسكن أور الكلدانيين مع عائلته وقرابته واتفق البعض من المؤرخين على أن مدينة أور القديمة هى مدينة أورفه الموجودة فى هضبة ميزوبوتاميه (ارم) الجامعة هضبة أرمينية بوادى الفرات ثم سماها جريق اليونان باسم إدسا فى العصور الاخيرة وبينما كان ابراهيم

فاطنافيها اذ ناداه الله سبحانه وتعالى وأمره أن يترك وطنه ويتوجه الى أرض يريها له وعلى هذا الطلب تركت عائلة تارح مدينة أور وانتقلت الى حَرّان أوحاران أوشاران وهذا الاسم الاخير هو الاسم الحقيق لها كما هو مذكور فى الانجيل أى العهد الجديد وهذه الجهة موجودة فى الناحية الشرقية من نهر الفرات وفيها هلك تارح بعد أن أقاموا فيها بضع سنين ولما رأى ابنه ناحور من جودة الارض وخصوبتها ومافيها من المراعى والكلا اتخذها مقراله وموطنا دواميا

وفى غضون ذلك بمجرد مادفن ابراهيم أباه اطاعة لما أمره الله به وناداه مرة ثانية ترك أخاه ناحور واستمر فى سفره مع سارة زوجته وابن أخيه لوط وتوجه على ثقة تامة بما وعده الله به من اقامته فى مستقبله فى أرض يريها له وهى الارض التى قال له أرض سنريك اياها فلما عبر الفرات وفصل نفسه من أرض مسقط رأسه سماه الكنعانيون الرجل العابر أو العبرى أى الرجل الذى عبر نهر الفرات مهاجرا من ميزوپوتاميا وقطع فى سفره صحرة سوريا وتراءى له أن يلبث قليلا فى دمشق فصارت مدينة من ذلك الوقت وتقابل فى هذه الجهة مع خادمه الامين العازر وجعله أمين بيته ثم سار من دمشق متوجها الى الجهة الجنوبية حتى عبر الاردن ودخل الارض الموعودة فكان المقر الاول الذى اتخذه فى وادى شكيم وفى هذا المكان تجلى له الله سبحانه وتعالى مرة أخرى وجدّدله عهده وقال له ان هذه الارض تكون وطنا لذريتك ومايخرج من صلبك فأقام ابراهيم لله تعالى أول محراب أومذبح فى أرض فلسطين

وكانت الارض مسكونة فى هذا الوقت بالكنعانيين وهم من نسل كنعان الابن الرابع لحام بن نوح عليه السلام فاتخذ ابراهيم محل مسكنه فى الكورة الجبلية حتى يحفظ نفسه فيها من الكنعانيين وكانوا مستحوذين على السهول الخصبة الموجودة أسفل منه فأعطوه قطعة كلاء صغيرة ترعى فيها أنعامه ومواشيه ثم مازال يظعن وينتقل نحو الجهة الجنوبية حتى أحوجته ضرورة المعاش أن دخل مصر ولما خشى ابراهيم من ملك مصر بما يطمع فى جمال سارة ويقتله بقصد الاستحواذ عليها جعلها ابراهيم فى صفة أخته وأنها امرأة لازوج لها فأخذها ملك مصر وأدخلها فى حريمه وأفاض على ابراهيم بالاموال والثروة والاكرام فأنذره الله سبحانه وتعالى الملك بما فعله من الذنب والخطا وأرسل عليه آفات أزعجته وأهل بيته فأعاد سارة الى زوجها فى الوقت وأخرجه من مصر بما ناله من الاموال فارتحل ابراهيم راجعا من وسط أرض فلسطين الى مسكنه الاول فى بيت إيل وأقام العبادة لله سبحانه وتعالى وفى هذا المكان كان انفصالهما من بعضهما فبقى ابراهيم قاطنا فى الجبال ونزل لوط السهل الخصب المجاور لسدوم ثم ارتحل ابراهيم الى الجهة الجنوبية الى بلوطات ممرا بالقرب من حبرون ومن هذا الوقت صار هذا المحل موطنه المعتاد

وبعد ذلك بقليل أغار كدرلعومر ملك عيلام وكان رئيس مملكة كبيرة فى آسيا الغربية وغزا فلسطين الجنوبية وفتح مدائن سدوم الخمسة وهى عمورة وادمه وصبويم وبالغ أى صوعر ونفس سدوم وكان أهل هذه المدائن تعصبوا عليه وقاموا ضده وفى هذا الحرب تغلب المنصورون على لوط ومواشيه وجعلوه أسيرا معهم فلما سمع ابراهيم بهذه الواقعة جمع قوة من قومه قدرها ثلاثمائة وثمانية عشر نفسا وقوة من العموريين المتحالفين معه وتبع فى سيره قوى كدرلعومر فانتصر عليهم قريبا من دمشق وهزمهم شر هزيمة وخلص لوطا وأعاد جميع الاسلاب والغنائم التى كانوا أخذوها من الخمس مدائن

ومن بعد مضى زمن قليل من هذه الحادثة أراد الله سبحانه وتعالى أن يأخذ ميثاقا عظيما على ابراهيم

فتجلى

فتجلى باسم يا هو لعبده وجدد وعده بأن يجعل ابراهيم أبا أمة عظيمة فقال ابراهيم الهى وسيدى ومولاى ماترغب أن تعطينى اياه فانا ليس لى ولد وليس لى أحد من بيتى يرثنى من بعدى فأجابه الله سبق فى علمى أن سيكون ذلك الوعد قريبا وانظر الآن الى السماء وأحص لى مافيها من الكواكب والنجوم ان كان لك طاقة على عددها واحصائها فهكذا ستكون بذريتك وذريتك فآمن ابراهيم بوعد ربه ووعده لنفسه من البر والاصلاح

وبما أن هذا الوعد العظيم لابد من ايفائه دخل فيه (أولا) رق العبرانيين فى أرض عزيبة لمدة أربعمائة سنة (وثانيا) يكون خلاصهم مستحوذين على أموال جمة مع أحكام تتوقع على ظالميهم (وثالثا) عودهم الى الارض الموعودة فى الجيل الرابع من ذريتهم عندما تتسلطن الجرائم والخطايا فى هذه الارض الموعودة وكذا من بعد مضى قليل من الزمن جدد الله الميثاق مع ابراهيم وأمره بالاختتان وجعل ذلك سنة فى عقبه

وذكر فى الكامل لابن الاثير أن ابراهيم ولد بالسوس من أرض الاهواز وقيل ببابل وكان مولده فى عهد نمروذ بن كوش فلما أراد الله أن يبعث ابراهيم الى عباده أتى المنجمون من الكلدانيين الى نمروذ وقالوا له انا نجد غلاما يولد فى قريتك يقال له ابراهيم يفارق دينكم ويكسر أصنامكم فى شهر كذا من سنة كذا فحبس نمروذ الحبالى عنده الا أم ابراهيم فانه لم يأخذ خبرا بحبلها وذبح كل غلام ولد فى هذه السنة ولما وجدت أم ابراهيم الطلق انطلقت الى كهف بالقرب منها وولدت ابراهيم فيه وأخبرت أباه تارح وهو آزر فكتم ذلك حتى نسى نمروذ ذكر ذلك ولما شب ابراهيم فى المغارة أخرجه أبوه آزر منها فلما نظر الى الدواب والخلق ولم يكن رأى شيأ منها قبل سأل أباه عما يراه فكان أبوه يقول له هذا كذا فقال ابراهيم مالهؤلاء الخلق بد من أن يكون لهم رب وكان خروجه وقت المساء فلما غربت الشمس رأى كوكبا فقال هذا ربى فلم يلبث أن غاب فقال لا أحب الآفلين ولما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما غاب قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ولما رأى الشمس وعظم نورها قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون وكان أبوه آزر يصنع الاصنام التى يعبدونها ويعطيها لابراهيم ليبيعها فكان ابراهيم يقول من يشترى مالا ينفعه ولا يضره ولما بدا لابراهيم أن يدعو قومه الى ترك ماهم عليه وأمرهم بعبادة الله تعالى دعا أباه الى التوحيد فلم يجبه ودعا قومه فقالوا له من تعبد أنت قال رب العالمين قالوا نمروذا قال بل أعبد الذى خلقنى فظهر أمره وبلغ نمروذا أن ابراهيم أراد أن يرى قومه ضعف الاصنام وصار يتوقع فرصة ليفعل باصنامهم فعلة يقيم بها عليهم حجة ضعف أصنامهم فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم يعنى مطعون ليهربوا منه اذا سمعوا به حتى يبلغ من أصنامهم مايريد ولما خرجوا الى عيد لهم تركوه وسار هو الى أصنامهم وهو يقول تالله لاكيدن أصنامكم فسمعه بعض من ضعفاء القوم وكبارهم ولما دخل فى معبد الاصنام وجد بين أيديهم طعاما كان القوم وضعوه بين أيديهم ليأكلوا حتى يرجع القوم من عيدهم فلما نظر ابراهيم الى مابين أيديهم من الطعام قال لهم ألا تأكلون فلم يجبه أحد قال مالكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين وكسر الاصنام بفأس كانت فى يده وأبقى صنما من الاصنام فربط الفاس فى يده وتركها فلما رجع القوم من عيدهم ورأوا ما حل باصنامهم راعهم ذلك وأعظموا ذلك الامر وقالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين فقال الذين سمعوا ابراهيم يذكر الاصنام قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم أى

يسبها و يعيبها ولم نسمع ذلك من غيره و بلغ ذلك نمروذ وأشراف قومه فقالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون فلما أتى به واجتمع قومه عند نمروذ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون هو غضب من أن تعبدوا هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرها فقالوا له لقد علمت ما هؤلاء ينطقون فيخبرون عن صنع بها وما تبطش بالايدى فنصدقك فى قولك هذا ثم نكسوا على رؤسهم فى الحجة عليهم لابراهيم فأجابهم ابراهيم عند قولهم ما هؤلاء ينطقون أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيأ ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ثم قال نمروذ لابراهيم أرأيت الهك الذى تعبده وتدعو الى عبادته ما هو قال ربى الذى يحيى و يميت قال أنا أحيي وأميت قال ابراهيم وكيف ذلك قال أقتل هذا وأعفو عن هذا فقال ابراهيم ان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت نمروذ ولم يرجع اليه شيأ ثم ان نمروذا وأصحابه أجمعوا على قتل ابراهيم فقالوا احرقوه وانصروا آلهتكم فأمرهم نمروذ بجمع الحطب وأضرموا فيه النار ولما رفعوه فى منجنيق ليرموه فيها رفع رأسه الى السماء وقال اللهم أنت الواحد فى السماء وأنت الواحد فى الارض حسبى الله ونعم الوكيل وقذفوه فى النار فناداها الله تعالى يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم فخرج منها حيا يمشى من دون أن يضره شئ منها فناداه نمروذ يا ابراهيم ان الهك الذى بلغت قدرته أن حال بينك و بين ما أرى لكبير وكف عن ابراهيم ومنعه الله منه وآمن مع ابراهيم رجال من قومه وآمن له لوط بن هاران وهو ابن أخى ابراهيم وكان لهما أخ ثالث يقال له ناخور بن تارح وهو بتويل و بتويل أبو لابان وأبو رفقا امرأة اسحق بن ابراهيم أم يعقوب ولابان أبو ليا وراحيل زوجتى يعقوب وكذا آمنت له سارة وهى ابنة عمه وابنة هاران الاكبر عم ابراهيم وأمره الله سبحانه وتعالى بالهجرة من ديار قومه وكان منه ما ذكر سابقا واقامته فى أرض كنعان

ومن بعد مضى عشر سنوات من اقامته فى أرض كنعان أخذت سارة فى قطع اليأس من أن تكون أم ولد يرث ابراهيم فأشارت عليه أن يأخذ خادمتها هاجر وهى امرأة مصرية أهداها الى سارة ملك مصر لتكون زوجة له فدخل ابراهيم بها فولدت له اسمعيل وقبل ولادة اسمعيل وهى حامل به شمخ أنف هاجر على سيدتها وصارت فى غاية من الوقاحة عليها حتى ان سارة عاقبتها على فعلها القبيح فهربت هاجر الى برية قادش وكانت هذه البرية موجودة فى الجهة الجنوبية الشرقية من مسكن ابراهيم فظهر لها فى البرية ملك من ملائكة السماء من عند الله سبحانه وتعالى وأمرها أن تعود الى سيدتها وشد قلبها وعضدها بأنها ستكون أما لامة كبيرة وأوصاها بأن تسمى ابنها بعد وضعه اسمعيل ومعناه (سمع الله) وأخذ يذكر لها سجايا المولود وصفاته فى الدنيا بالالفاظ والاوصاف الموصوف بها عرب البوادى والصحارى الآن التى صار جدهم الاكبر هو هذا الطفل بقوله لها انه سيكون رجلا همجيا وحشيا يده فوق يد كل انسان كما أن يد كل انسان تكون قائمة عليه وضده وانه يستوطن فى مواجهة جميع اخوانه ومعناه أن أرض ذرية اسمعيل تكون فى شرق الارض المقيمة فيها العشائر والقبائل المتناسلة من الوارث الحقيقى لابراهيم فرجعت هاجر الى سيدتها ووضعت اسمعيل فى الوقت المحدود وكان عمر ابراهيم لما ولد اسمعيل ستا وثمانين سنة فنظر ابراهيم الى الولد بكونه هو الوارث له الذى وعده الله اياه وشغف بحبه وألقى عليه حب الوالد لولده

ومن بعد مضى ثلاث عشرة سنة من مولد اسمعيل وكان ابراهيم بلغ من العمر تسعا وتسعين سنة

تجلى الله له باسم الشد أى ومعناه القادر على كل شئ وجدد عهده معه ووعده بأنه سيكون أبا لامم عديدة ومخلوقات كثيرة وقال الله له انه ربه واله ورب واله ذريته من بعده ومن علامات تجديد هذا العهد اقامة شعائر الختان وأن يقام هذا الشعار من الآن فصاعدا على جميع الذكور من ملة ابراهيم وان الذين لا يختتنون لم يكن لهم حظ فى الميثاق واذا أراد الاغراب الاختتان يسلم لهم ذلك ومن الوجوب على رئيس كل عائلة أو قبيلة أن يجرى هذا الشعار على خدمه كما يجريه على أولاده وأن يجريه على الاطفال فى اليوم السابع من ولادتهم وعلى العبيد مباشرة بعد شرائهم وأن تلقب سارة بالسيدة علاوة فى درجة مقدارها لكونها صارت جدة ملة كبيرة وقد أخبر الله ابراهيم بأن زوجه سارة ستحمل فى وقت معين من السنة التالية بولد له يكون هو الوارث الحقيقى له وأوصاه بأن يسمى الطفل اسحق وأخبره أيضا بأن مواعيد الميثاق ستكون فى اسحق وذريته من بعده أبد الآبدين فلبى ابراهيم فى دعائه لاسمعيل حتى ان الله أكد له بانه سيمطر على اسمعيل الخير والبركة الوقتية و يجعله أبا لملة كبيرة وان البركة الالهية ومواعيد الميثاق محصورة فى اسحق وذريته وفى الوقت ختن ابراهيم نفسه وأجرى هذا الشعار على اسمعيل وكان بالغ من العمر فى هذا الوقت ثلاث عشرة سنة وكذا على جميع الذكور من آل بيته

وروى أن ابراهيم والذين اتبعوه لما أجمعوا على فراق قومهم خرج مهاجرا حتى قدم مصر فكان بينه و بين ملك مصر ما أسلفناذكره وأعطى ملك مصر هاجر خادمة لسارة وكانت هاجر ذات هيئة وجمال فوهبتها سارة لابراهيم وقالت خذها لعل الله يرزقك ولدا منها وكانت سارة قد منعت الولد حتى أسنت فوقع ابراهيم على هاجر فولدت اسمعيل ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم اذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما يعنى ولادة هاجر ثم خرج من مصر الى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين ونزل لوط بالمؤتفكة وهى من السبع مسيرة يوم وليلة ولما ولد اسمعيل حزنت سارة حزنا شديدا فوهبها الله اسحق فاختصمتا وغضبت سارة على هاجر فأخرجتها ثم أعادتها ثم غارت منها وقالت لا تساكننى فى بلد فأوحى الله الى ابراهيم أن يأتى مكة وليس بها يومئذ نبت فجاء ابراهيم باسمعيل وأمه هاجر فوضعهما بمكة بموضع زمزم فلما مضى نادته هاجر يا ابراهيم من أمرك أن تتركنا بارض ليس فيها زرع ولا ضرع ولا ماء ولا زاد ولا أنيس قال ربى أمرنى قالت اذا انه لن يضيعنا فلما ولى قال ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن يعنى من الحزن ثم قال ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم الى آخر الآية فلما ظمئ اسمعيل جعل يفحص فى الارض برجله فانطلقت هاجر حتى صعدت جبل الصفا لتنظر هل ترى شيأ فلم ترشيأ فانحدرت الى الوادى فسعت حتى أتت جبل المروة فلم ترشيأ وفعلت ذلك سبع مرات ثم أتت اسمعيل وهو يفحص الارض برجليه وقد نبعت عين زمزم ولزمت الطير الوادى حين رأت الماء وكانت قبائل مستوطنة بواد بالقرب من مكة فانتقلت جرهم الى مكة من أجل الماء وأقاموا مع هاجر واسمعيل وشب وترعرع اسمعيل بينهم وتزوج اسمعيل من جرهم ثم أمر الله سبحانه وتعالى ابراهيم أن يأتى مكة لبناء البيت فبناه مع اسمعيل وشيداه ثم أمره الله سبحانه وتعالى بذبح ابنه ليمتحنه فى دينه كما سنذكره

ومن بعد مضى مدة من هذه الحوادث كان ابراهيم جالسا فى مساء يوم من الايام على باب خيمته فرأى

على بعد ثلاثة أشخاص آتين فقام اليهم ورحب بهم على عادته الشرقية وحثهم على أن يقيموا عنده هذه الليلة وكان قد وسع الله عليه الرزق فقبلوا ضيافته فخرج الى أهله فجاء بعجل سمين قد حنذه أى أنضجه فقربه اليهم فأمسكوا أيديهم عنه وكان أحدهم جبريل وملكان معه فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط وكان لوط وقومه بسدوم وكان القوم عاكفين على الخبائث والكبائر وفعل القبائح وكان لوط ينهاهم ويعظهم فلم يفدهم فائدة وكانت سارة فى داخل الخيمة عند قول الملائكة انا أرسلنا الى قوم لوط فضحكت لما عرفت من أمر الله ولما نزل من قوم لوط فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب فقالت وصكت وجهها أألد وأنا عجوز الى قوله تعالى حميد مجيد فسمعها الملائكة فعنفها جبريل وقال لها أتعجبين من أمر الله وجددوا لابراهيم وعد الله سبحانه وتعالى وأن سارة لابد أن تحمل منه بولد فى ظرف سنة وقالوا لابراهيم تيقن أن وعد الله حق وانه لا يخلف الميعاد فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى سار معهم فى طريقهم الى سدوم مسافة من الطريق وعلى حسب ما خصه الله من الكرم وانه سيكون أبا لامة مختارة ذهب يجادل جبريل فى قوم لوط وفيما يريده الله سبحانه وتعالى من هلاك ودمار سدوم وعمورة ومدائن السهل عقابا لهم على سوء أفعالهم وركوبهم الخبائث والمنكرات فقال ابراهيم لجبريل أرأيت ان كان فيهم خمسون من المسلمين قالوا وان كان فيهم خمسون من المسلمين لم يعذبهم الله قال وأربعون قالوا وأربعون حتى بلغ وان كان فيهم عشرة قالوا وان كان فيهم عشرة قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين ثم استمرت الملائكة فى سيرهم الى نحو سدوم وأخذ ابراهيم فى الابتهال والدعاء متشفعا الى الله تعالى فى المدائن وأهلها فأوحى الله اليه ان كان فيهم عشرة فانى لا أعذبهم وكان هذا القدر لم يوجد ولما وصلت الملائكة سدوم أنذروا لوطا وأهله وجاء قوم لوط يهرعون اليه فقال يا قوم اتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد ونهاهم ورغبهم وقال هؤلاء بناتى هن أطهر لكم مما تريدون قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد أولم ننهك عن العالمين فلما لم يقبلوا منه قال لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد فلما قال ذلك وجل عليه الرسل وقالوا ان ركنك لشديد وقالوا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك فاسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون ودمر الملائكة مدائن سدوم وأهلها وكلا بها وامرأة لوط وكانوا خمس مدائن هى (سدوم وصبعة وعمرة ودوما وصعوة) ونجى الله لوطا وأهله وسكن لوط مدينة صعوة حيث صفح الله عنها وأهلها بدعاء لوط لهم وأخرب الاربع المدائن الاخر وكانت المدينة العظمى هى سدوم ولما خشى لوط على نفسه من الاقامة فى صعوة هاجر الى أرض الجبل وسكن فى كهف شرقى البحر الميت وخلف لوط فى هذا المكان ابنيه موأب وبن عمى اللذين تناسل منهما الموأبيون وبنو عمون وهم الذين وجدهم موسى ويوشع قاطنين فى الاراضى الكائنة فى شرق نهر الاردن والبحر الميت

ومن بعد خراب مدائن السهل بقليل رحل ابراهيم الى الجهة الجنوبية واستقر فى اقليم جرار الموجود بين مصر وفلسطين وعقد محالفة مع ملك تلك البلاد وكان اسمه أبى مالك بجانب بئر تسمى بئر السبع ومعناه بئر الحلف أو القسم وحالما كان قاطنا فى بئر السبع وضعت امرأته سارة الوارث الموعود به

ابراهيم من مدة طويلة فختنه ابراهيم وسماه اسحق كما أوصاه الله بذلك وكان عمر ابراهيم لما ولد اسحق مائة سنة

ولما انفطم اسحق احتفل ابراهيم في يوم فطامه بوليمة عظيمة صنعها وفي أثناء الوليمة رأت سارة اسمعيل يسخر بابنها ويشينه فقام في وجهها الغضب من شدة ما نالها من الزعل والحنق فطلبت من زوجها طردها جر واسمعيل حتى لا يرى اسحق بعد أحدا ينازعه في مكانه في بيت أبيه وكان ابراهيم مائلا بكليته لحب اسمعيل فتردد في أمره فأوحى الله اليه أن يطيع ما قالته سارة ووعده أنه يبارك في اسمعيل ويجعله أبا لامة عظيمة وأمره أن يأتي به وبأمه مكة فكان ما أسلفنا ذكره

والظاهر أن ابراهيم أقام سنين عديدة في نواحي بئر السبع وفي مدة مكثه فيها وطدا قامة شعائر دينه وأمره الله سبحانه وتعالى أن يأخذ ابنه اسحق ويقربه قربانا الى الله تعالى فولو أنه حصل لابراهيم كدر قليل الا أنه امتثل أمر ربه وأخذ اسحق وتوجه به الى أرض المريا والصحيح أنه الجبل الذي بني عليه معبد أورشليم فيما بعد وبنى ابراهيم في هذا المحل مذبحا واستعد لتقريب اسحق قربانا فأعفاه الله من ذلك وأعلمه بأنه كان يريد امتحانه في دينه وصداقته له ورضي الله سبحانه وتعالى عن ابراهيم بما رآه من دلائل طاعته وفداه بذبح عظيم أي أن ابراهيم قبض على قرني خروف كان في شجر العوسج وقربه قربانا بدل ابنه وجدد الله لابراهيم وعده مكافأة على ما حصل من طاعته له واختلف العلماء في مسئلة الذبيح فمن قائل انه كان اسمعيل ومن قائل انه كان اسحق لا لزوم لذكرها هنا

ومن بعد حصول هذه الحادثة بقليل عاد ابراهيم الى مسكنه القديم في ممرا بالقرب من حبرون وفي هذا المحل توفيت سارة بعد أن بلغت من العمر مائة وسبعا وعشرين سنة فاشترى ابراهيم لها غار المكفيلة من بني حث ودفنها فيه وجعل هذا الكهف مدفنا لعائلته وروي أن ابراهيم بعد دفن سارة عاد الى أرض بئر السبع وكان في هذا الوقت طاعنا في السن وحان أوانه ومن ثم عزم على أن يخطب لابنه اسحق زوجة ولكي تكون ذرية اسحق من نسل طاهر جمع عزمه على أن يزوج ابنه عروسا من أقاربه فمن ثم أرسل اليعازر أمين بيته الى نواحي ميزوبوتامية ووثقه بقسم أكيد أن يختار لاسحق زوجة بمعرفته من عائلته ولما وصل اليعازر الى حيران أو حاران وتقابل مع عائلة بتويل بن ناحور أخي ابراهيم وقع اختياره بالالهام الالهي على رفقا مباشرة وكانت هذه الشابة أجمل بنت في البيت وأصغر من فيه فلما سمعت بما جاء اليعازر من أجله رغبت وسلمت في كونها تترك عائلتها وتصير زوجة لاسحق ابن عمها وصحبت اليعازر ورجع بها عائدا الى أرض كنعان وقابلها اسحق وأبوه ابراهيم مع غاية الاحتفال والابتهاج وكان عمر اسحق يوم زواجه أربعين سنة

ومن بعد مضي مدة من اجتماعهما قدرها عشرون سنة ولدت له عيص ويعقوب توأمين ومعنى عيص أدوم أي الاحمر بسبب احمرار جلده ويعقوب أي المتعقب ومن بعد زواج اسحق تزوج ابراهيم بامرأة أخرى مع أن عمره كان بلغ مائة وأربعين سنة وكان اسمها قطورة فولدت لابراهيم ستة أولاد وهم نغشان وزمران ومدين ومدان ونشق وسرح فكان جميع أولاد ابراهيم مع اسمعيل واسحق ثمانية وكان اسمعيل بكره ومدين هو أبو المديانيين وهم سكان الاراضي الموجودة بين البحر الميت وخليج عيلام (العقبة) من البحر الاحمر الى الساحل النابتياني وأهدى ابراهيم لهؤلاء الابناء الستة

هدايا جليلة وأخرجهم من أرض فلسطين حتى لا يكون لهم تداخل فيما يرثه اسحق ووصى ابراهيم بجميع أمواله الغزيرة الى اسحق ومات وكان موته على المشهور فى بئر السبع بعد أن بلغ أحسن العمر وأجوده وكان عمره مائة وخمسا وسبعين سنة وكان موته بعد ولادة العيص ويعقوب بخمس عشرة سنة ودفنه ولداه اسمعيل واسحق فى غار المكفيلة

واستمر اسحق بعد موت ابراهيم مقيما بجهة بئر لحى روئى من الطرف الجنوبى لارض فلسطين وفيها شب ولداه وترعرعا حتى بلغا مبلغ الرجال فكان العيص همجيا وحشيا طائش العقل صاحب صيد محبا لابيه اسحق وكان خشن البدن كثير الشعر جالبا القلاقل والارتبا كات على والديه ولما بلغ عمره أربعين سنة تزوج امرأتين من بنى حث على غير رغبة من أبيه وبهذا أدخل الارتباطات الوثنية فى العائلة المختارة المصطفوية وأما يعقوب فكان على سكينة ووقار رجلا سلماهادئا فى حركاته وسكناته مدبرا فى أموره مستحضرا الآن ينال بالدهاء ما يرغب أن يستحوذ عليه العيص بالبطش والقوة الجبرية وكان ناعم الجلد محبا لامه مواظبا على الطريقة والسلوك الهادى فى رعى الاغنام والمواشى مكنونا فى الخيمة عند عدم وجود أشغال له

ثم ان العيص جاء يوما من الايام تعبان جهدان جوعان من الصيد فرأى يعقوب يحضر لنفسه أكلة لذيذة من عدس أحمر فطلب عيص من يعقوب قليلا من هذا الاحمر فطلب يعقوب منه أن يبيعه حق بكوريته بهذه الاكلة ولما كان الصياد يرغب فقط فى سد رمق جوعته فى الوقت رضى أن يبيع حق بكوريته ليعقوب مع الطيش وعدم التبصر وتراءى له أن حق بكوريته ثمن بخس فى مثل هذه الاكلة فلهذا لقبه بعض الناس بالرجل الشم والى الدنيوى الذى باع حق بكوريته بلقمة من طعام العدس ومثله بالذين يفقدون نعيمهم الدائمى بلذة وقتية وشهوة دنيوية والظاهر أن عدله فى هذا الحكم أخذه من ملاحظته بيع حق البكورية بثمن بخس مثل هذا وكان العيص بالنظر لحقوق البكورية رأس العائلة وامامها ومليكها ولايمكن أحدا ابطال هذه الخصائص وهذه الامتيازات الا اذا أبطلتها أوامر الهية تنزل من عند الله المعطى الوهاب فضلا عن أن يكون هذا الخير والبركة فى ذريته وعقبه الموجود على وجه الارض وأن يكون رأس العائلة المختارة وتنتقل اليه بركة ابراهيم ومواعيده التى وعده الله بها ولما استخف بحقوق بكوريته وازدرى بها أخرج نفسه من العائلة الطاهرة وصار رجلا شهوانيا دنيويا وتولد مما أجراه يعقوب من الحيلة والدهاء منفعة عادت عليه وحصل معها تغييرات كبيرة كما سنذكره فى سرد تاريخه

وأخيرا فانه لما اقترب عمر اسحق من مائة سنة وأنذره طول حياته وكف بصره بانقضاء أجله قد حان ولا بد له من أن ينقل دعوة ابراهيم وبركته وهى الحكم والنبوة وهى هبة لاتلغى أوصى بها الى العيص وما اعترف العيص لابيه وقال له انه باع حق بكوريته وما كان ليعقوب جراءة أيضا على أن ينال بحيلته التى أجراها فائدة لنفسه وكان أبوهما غير عالم بما أجراه يعقوب من شراء حق البكورية وان له البركة والسعادة فأخبر اسحق ابنه العيص بما يريده من أمره وقال له لما كبر وعمى يا ابنى أطعمنى لحم صيد واقترب منى لأدعو لك ببركة ابراهيم وأنقل الوصاية اليك وكان أبوه كثير المحبة له فخرج العيص الى الصيد بطلب اللحوم اللازمة لابيه وكان كثير المحبة لها وفى مدة غيابه قصت ربقا على يعقوب قصد زوجها وقالت له يا ابنى اذبح شاة واشوها والبس جلدها وقربها الى أبيك وقل له أنا ابنك عيص ففعل

ذلك

ذلك يعقوب فلما جاء قال يا أبتاه كل قال من أنت قال أنا ابنك عيص فسه اسحق فقال المس مس عيص والريح ريح يعقوب فقالت أمه انه عيص فكل فأكل ودعا له أن يجعل الله في ذريته النبوة والملك وقام يعقوب ولما جاء العيص الى البيت كشف خبر الفعلة التي فعلها أخوه التي يستحق عليها المؤاخذة فتوجه الى أبيه وقال له قد جئتك يا أبي بالصيد الذي طلبت فقال يا بني قد سبقك أخوك فخاف عيص ليقتلن يعقوب فقال يا بني قد بقيت لك دعوة فدعا له أن تكون ذريته عدد التراب وأن لا يملكهم غيرهم وأن يكون عيص على طاعة أخيه ولا يتعرض له بسوء بما أن الدعوة سبقت له ولا يمكن رجوعها لغيره

وعزم عيص على قتل أخيه يعقوب من هذا الوقت الا أنه لما كان لا يرغب أن يفجع فيه أباه أخر بطشه به حتى يموت اسحق ولما استيقظت ربقا لذلك حرضت زوجها على أن يرسل يعقوب الى أهلها حفظا على سلامته وكان اسحق على رغبة زائدة في هذا الامر اذ يتيسر الحصول ليعقوب على زوجة من الدم الطاهر فأخذ وارث العهد عصاه في يده وخرج مسافرا الى ميزوبوتاميه سالكا في رحيله الطريق التي دخل منها ابراهيم أرض كنعان ولما وصل الموطن القديم الذي كان ابراهيم قاطنا فيه وهو بيت إيل قضى ليلته فيه وأخذ حجرا وضعه تحت رأسه كوسادة له ومن المحتمل أن هذا الحجر كان أحد الحجارة التي ابتنى بها ابراهيم المذبح فرأى في منامه رؤيا أن الله سبحانه وتعالى زاره ورأى سلما منبرا مرصعا واصلا من الارض الى أبواب السماء صاعدة عليه الملائكة ونازلة يفعلون ما يؤمرون كأنهم مأمورين روحانيين في الارض ذوي شدة وبأس ولهم صور جميلة وهيآت ظريفة عجيبة مجبرين المحافظة على عياله وأن الله تجلى له في المنام وجدد معه الميثاق الذي واثقه مع ابراهيم وأعطاه وعدا خاصا به من المحافظة على حياته فاستيقظ يعقوب من منامه وأقام في هذه البقعة مذبحا وسماه بيت إيل ومعناه بيت الله اعترافا بوجود الله سبحانه وتعالى وتفكر في نفسه مع غاية الخشوع والخضوع أن جميع ما سيعطيه الله له هو بخصوص خدمة خالقه وهذه الحادثة العظيمة التي تولد منها توجه يعقوب الى الحالة الدينية حصلت عندما بلغ عمره سبعا وسبعين سنة

ثم استمر يعقوب راحلا في سيره حتى وصل الى موطن خاله لابان أخي أمه في نواحي فدان ارم فقابلوه مع الرحب والسعة وشغف في الوقت بحب راحيل الجميلة بنت خاله وكانت أصغر بنت في بيت خاله فأخذ يخدم خاله في رعي الاغنام بالاجرة وطلب من خاله زواجه براحيل وأن تكون خدمته له من أجلها مدة سبع سنوات فقبل لابان هذا الشرط وكان أكثرها من يعقوب وانتهز الفرصة وجعل حالة الزواج على حسب عادة البلاد فزوجه ابنته الكبيرة ليا وكانت مصابة بمرض في عينيها فشق ذلك على يعقوب وغضب وأخذ الحنق من فعل خاله هذه الخيانة لكنه كظم غيظه وأخفى أمره والتزم الانقياد لطاعة خاله واتفق أن يخدم لابان سبع سنين أخرى من أجل محبوبته راحيل وفي هذه السبع سنين ولد ليعقوب أحد عشر ولدا وبنت واحدة فكان أولاد ليا روبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساكر وزبولون وولدت راحيل ولدا سماه يوسف وولدت ليا بنتا سماها دينة وكان ليعقوب غير هؤلاء أربعة أولاد أخر من سريتين له وهن بلهة جارية راحيل ولدت له دان ونفتالي وكذا زلفة جارية ليا ولدت له جاد وأشير

ومن بعد ولادة يوسف وكان هو أصغر هؤلاء الابناء اشتاق يعقوب الى العود والرجوع الى بلده فأخبره

لابان بأن يخدمه مدة مّا بأجرة تقدّر له من قطيع الاغنام فقال له يعقوب ان نصيبي من الاغنام ينبغي أن يكون فيه اشارات مخصوصة فشرع لابان في بطلان هذا الرأي بطرائق غير محمودة ومن ثم احتال له يعقوب وكان ماهرا في تربية الاغنام ومواليدها وقنيتها فجعل لنفسه القسم الاكبر من نتاج الاغنام وصار يعقوب بهذه الحالة في ثروة عظيمة من المواشي والخادمات والخدم والجمال والحمير

وبعد أن أقام يعقوب عشرين سنة مع لابان أمره الله سبحانه وتعالى أن يرجع الى أرض كنعان فخشي أن لابان يمانعه فرحل على خفية من لابان ولما عبر نهر الفرات مر من وسط الصحراء من طريق عين پلميرا وهي مدينة تدمر ثم رحل عابرا القسم الشرقي من سهل دمشق وهضبة جبل باشان ودخل في اقليم جلعاد الكائن شرقي نهر الاردن وهو الحد الفاصل بين فلسطين وصحراء سوريا فلحقه في هذا المكان لابان مع قوة كبيرة من قومه وكانت راحيل حملت معها آلهة بيت أبيها وأخفتها بتدبيرها وأنذر الله سبحانه وتعالى لابان أنه لا يضر يعقوب ولا يؤذيه ولما ضل سعيه وخاب أمله وفتش على أصنامه فلم يجدها عمل معاهدة مع يعقوب وكوّموا من الحجارة شاهدة عليه بهذه المعاهدة ثم فتح يعقوب عينيه فرأى جماً من الملائكة جنود الله أرسلت للمحافظة عليه ومعسكرين بالقرب من محل اقامته ولما رأى نفسه قريبا من جبل سعير وكان أخوه عيص فيه رئيسا وصاحب قوة وشوكة أوجس يعقوب في نفسه خيفة من أن عيص ربما يحث على الاخذ بثأر ضياع حق البكورية ويبطش به ويقتله ويقبض على أهله ومواشيه فأرسل له يعقوب رسولا أمينا بالسلم والصداقة فجاء عيص لمقابلته في رأس أربعمائة محارب فارتاع يعقوب من ذلك واستعد لملاقاة الخطر المهدّد له وقسم أهله ومواشيه الى قسمين وقصده بذلك نجاة الثاني ان وقعت الغارة على الاول ثم توجه بالدعاء والابتهال الى الله تعالى وبعد ذلك أرسل هدايا الى أخيه وقضى ليله وقام قبل طلوع النهار من صباح اليوم التالي وأرسل أزواجه وأولاده الى يبوق وبقي هو خلفهم يجهز نفسه بفكره على حدته لما يلاقيه في النهار وبينما هو مقيم في مكانه مشغول بأفكاره اذ ظهر له انسان وتصارع معه حتى لاح الفجر ولما رأى الرجل من يعقوب القوة وأنه غير متيسرة له الغلبة عليه قبض على حق فخذه وخلعه وقت مصارعته اياه وقال له دعني أتوجه لان الفجر انفلق فقال له يعقوب لا أدعك تذهب مالم تدع لي بالخير والبركة فقال له ما اسمك قال يعقوب قال لا تسم نفسك بعد اليوم باسم يعقوب بل اسرائيل لانك حزت الامارة والقوة عند الله وعند الناس فسأله يعقوب أرجوك أن تخبرني عن اسمك فقال له ماهي الاسباب التي دعتك أن تسألني عن اسمي ودعا له بالبركة في هذا المكان وسمى يعقوب هذا المكان باسم (فنيئيل) ومعناه رأيت الله مواجهة وصارت حياتي محفوظة

ولم يشف يعقوب من العرج الذي أصابه في فخذه من قبض الملك عليه وصارت بنو اسرائيل لا يأكلون أعصاب الافخاذ في غالب السنين تذكارا لهذه الحادثة

ولما نزل يعقوب وادي يبوق تقابل مع أخيه عيص فرحب به مع الاشتياق الزائد والمحبة القلبية وصفح العسكري الخشن عما كان في قلبه من مدة طويلة عن أخيه نظير ما فعله معه من الدهاء بخصوص النعمة الالهية التي لا يعادل قيمتها شيء واكتفى بالفوز والنجاح الدنيوي وكان ذلك من قسمته ونصيبه

ومن بعد أن اجتمعا مع بعضهما وتصالحا رجع عيص الى جبل سعير واستمر يعقوب في سيره حتى وصل نهر الاردن فعبره من ناحية سُكُّوت ولما دخل أرض كنعان توجه الى وادي شكيم وكان فيه مدينة

كبيرة

كبيرة من الحوريين واشترى منهم قطعة أرض كانت هي الملك الاول للعائلة المختارة في الارض الموعودة وبنى فيها مذبحا سماه مذبح إيل أي الاله اسرائيل

ومن هذا الوقت ابتدأ يعقوب في مقاساة الاهوال والشدائد في مدة حياته وذلك لحصول شيء لا يليق ذكره بينه وبين شكيم بن حمور أمير الشكيميين وللسبب المذكور انتهز أولاد يعقوب فرصة طرد غفراء الشكيميين حتى سقطوا عليهم غيلة وذبحوا جميع ذكورهم وسلبوا مدينتهم وساقوا نسوانهم وأطفالهم ومواشيهم وأنعامهم وأغنامهم فغضب يعقوب غضبا شديدا من هذا الفعل الفظيع وخشي من الكنعانيين ربما يأخذون بثأر ذبح اخوانهم ويبطشون به فارتحل بأهله وأمتعته الى بيت إيل ومنه سار الى الجهة الجنوبية نحو حبرا وكان أبوه اسحق في هذا المكان على قيد الحياة وماتت زوجته الودودة راحيل في نواحي بيت لحم وقت ولادتها بنيامين ودفنها يعقوب هنالك وقبرها موجود لحد الآن ثم سار يعقوب الى حبرا واتصل به وعاش اسحق بعد ذلك عدة سنين ومات وعمره مائة وثمانون سنة فدفنه ابناه عيص ويعقوب في غار المكفيلة وكان موته بعد بيع اخوة يوسف أخاهم يوسف بثلاث عشرة سنة تقريبا

وكان يوسف الابن البكرى لراحيل محبوب أبيه وله أظهر يعقوب محبته واقباله عليه ولما رأى اخوة يوسف ذلك حسدوه وعظم عندهم ذلك وزاد على يوسف هذا الحسد كونه كان رقيبا عليهم من طرف أبيهم ينقل اليه ما يفعلونه ومع كونه كان غلاما عمره اثنتا عشرة سنة كان يرى منامات عظيمة من جملتها أنه رأى في منامه كأن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر تسجد له فقصها على أبيه فقال له أبوه يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين ثم عبر له رؤياه فقال وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث وقيل ان يوسف قص هذه الرؤيا على اخوته أو أن امرأة يعقوب سمعت ما قال يوسف ليعقوب من الرؤيا وما قاله يعقوب من التعبير فلما جاء أولاد يعقوب من الرعي أخبرتهم بالرؤيا فازدادوا حسدا وكراهة له وقالوا لها ما أراد بالشمس غير أبينا وما أراد بالقمر غيرك وما أراد بالكواكب غيرنا ثم تآمروا بينهم أن يفرقوا بينه وبين أبيه وقالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة ان أبانا لفي ضلال مبين اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين قال قائل منهم وهو روبيل وكان أفضلهم وأعقلهم لا تقتلوا يوسف فان قتل أخيكم عظيم وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة وأخذ عليهم عهدا بذلك واجتمعوا سوية ودخلوا على أبيهم فلما رآهم قال ما حاجتكم قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون أي حافظون أرسله معنا غدا الى الصحراء يرتع ويلعب وانا له لحافظون فقال لهم يعقوب انه ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون فقالوا له بنوه لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون فلما سمع ذلك يعقوب اطمأن اليهم وقال يوسف يا أبت أرسلني معهم قال أو تحب ذلك قال نعم فأذن له فلبس ثيابه وخرج معهم وهم له مكرمون فلما برزوا في البرية أظهروا له العداوة وصاروا يضربونه حتى كادوا يقتلونه وهو يصيح فقال لهم روبيل أو ليس قد أعطيتموني عهدا وموثقا أن لا تقتلوه فانطلقوا به الى الجب فأوثقوه كتافا ونزعوا قميصه وألقوه فيه ثم عادوا الى أبيهم عشاء يبكون قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب فقال لهم

أبوهم بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل وأقام يوسف فى الجب ثلاثة أيام ثم جاءت سيارة فأرسلوا واردهم وهو الذى يتقدم الى الماء فأدلى دلوه فى البئر فتعلق به يوسف فأخرجه من الجب وقال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة ثم جاء روبيل بطعام ليوسف فلم يره فى الجب فنظر فرآه عند مالك فى المنزل فأخبر اخوته بذلك فأتوا مالكا وكان رئيس السيارة وقالوا هذا عبد أبق منا وخافهم يوسف فلم يذكر حاله وشروه من اخوته بثمن بخس وذهبوا به الى مصر فكساه مالك وعرضه للبيع فاشتراه فوطيفار أو فيطفره وهو من ضباط جند ملك مصر المنوه عنه فى الكتب المقدسة بلقب فرعون فلما اشترى هذا الضابط يوسف أتى به الى منزله وقال لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكانت امرأته حسناء ناعمة فى ملك ودنيا فلما خلا من عمر يوسف ثلاث وثلاثون سنة اتاه الله العلم والحكمة قبل النبوة وراودته المرأة عن نفسه وغلقت الابواب عليه وعليها ودعته الى نفسها فقال معاذ الله انه ربى يعنى ان زوجك أحسن مثواى انه لا يفلح الظالمون يعنى ان خيانته ظلم فلم تزل به حتى همت به وهم بها فاذا هو بصورة يعقوب قد عض على اصبعه يقول يا يوسف أتواقعها فلما رأى برهان ربه قام هاربا يريد الباب فادركته قبل خروجه من الباب فجذبته من قميصه من قبل ظهره فقدته وألفيا سيدها لدى الباب وابن عمها معه فقالت ما جزاء من أراد بأهلك سوأ الا أن يسجن أو عذاب أليم قال يوسف بل هى راودتنى عن نفسى فهربت منها فأدركتنى فقدت قميصى قال ابن عمها بيان ذلك فى القميص فان كان قد من قبل فصدقت وان كان قد من دبر فكذبت فلما رأى قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم وقال زوجها ليوسف أعرض عن هذا أى لا تذكره لاحد وقال لزوجته استغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين وتحدث النساء بأمر يوسف وأمر سيدته وبلغ ذلك سيدته فأرسلت اليهن وأعتدت لهن متكأ تتكئن عليه أى وسائد فحضرن وقدمت لهن أترجا وأعطت كل واحدة منهن سكينا لقطع الاترج وكانت أجلست يوسف فى مجلس غير المجلس الذى هن فيه وقالت له اخرج عليهن فخرج فلما رأينه أكبرنه وأعظمنه وقطعن أيديهن بالسكاكين ولا يشعرن وقلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين فاختار يوسف السجن على معصية الله تعالى فقال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ثم بدا للضابط من بعد ما رأى الآيات من القميص وغيره أن يضعه فى السجن سبع سنين ولما حبس يوسف كان فى السجن فتيان من خدم فرعون اتهموا بثورة كانت حصلت فى سراية فرعون أحدهما كبير شرابه والآخر كبير طعامه. ولما دخل يوسف السجن حبب الله عليه قلوب جميع من كان فى السجن والسجانين وحكام السجن وقال انى أعبر الاحلام فقال أحد الفتيين للآخر هلم فلنجربه فقال كبير الطعام انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه وقال الآخر انى أرانى أعصر خمرا فقال لهما يوسف أما أحدكما وهو الذى رأى أنه يعصر الخمر فيسقى ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه فلما عبر لهما قالا ما رأينا شيأ قال قضى الامر الذى فيه تستفتيان ثم قال له رئيس الشراب وهو الذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك الملك وأخبره أنى محبوس ظلما فنسى ذلك وتحققت تعبير رؤياهما وصار الصفح والعفو عن كبير السقاة وأعيد الى وظيفته وقتل كبير الطباخين واستمر كبير السقاة على نسيانه حتى مضى على ذلك سنتان ولما رأى

الملك

الملك رؤيا هالته أزعجته وهي أنه رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ورأى سبع سنبلات خضر وأخر يابسات جمع السحرة والكهنة وغيرهم من أرباب المعارف وقص عليهم رؤياه فقالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين وقال الذى نجا منهما وادّكر بعد أمّة أي حين أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون فأرسلوه الى يوسف فقص عليه الرؤيا فقال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون فان البقرات السمان سنين خصبة والبقرات العجاف سنين قحطة وكذا السنبلات الخضر واليابسات فعاد الى الملك فأخبره فعلم أن قول يوسف حق فقال ائتوني به فلما أتاه الرسول ودعاه الى الملك قال له ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهنّ فلما رجع الرسول من عند يوسف سأل الملك أولئك النسوة فقلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ولكن امرأة العزيز أخبرتنا أنها راودته عن نفسه فقالت امرأة العزيز أنا راودته عن نفسه ذلك أي انما رددت الرسل ليعلم سيدى أني لم أخنه بالغيب في زوجته فلما ظهر للملك براءة يوسف وأمانته قال ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما جاءه الرسول خرج معه واغتسل ولبس ثيابه وقصد الملك فلما وصل اليه وكلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين فقال له يوسف ان رؤيا الملك من الانباآت الغيبية وانها من عند الله تنذره بحصول ما سيقع من سني الخصب وسني القحط واني أحث الملك على أن يستعد لسني القحط بعمل أشوان لمحصولات الغلال في مدة سني الخصب في نقط وفي محلات معينة من مملكته لملاقاة سني القحط

وكانت مملكة مصر في ذلك الوقت مقسومة الى مملكتين وهما مصر العليا المعروفة بالصعيد كانت محكومة بملوك من الوطنيين المصريين ومصر السفلى وكانت محكومة من قرون مضت بفاتحي الكنعانيين المعروفين بالرعاة أو الهكصوص وكان هؤلاء استحسنوا العوائد المصرية ولغتهم وكان الملك الذى أرسل ليوسف أحد العائلة الهكصوصية واسمه أبوفيس أو أبيي وحصل له من تعبير يوسف رؤياه خوف شديد وارتباك فقال ليوسف ماذا يكون الامر في ذلك فقال له يوسف اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم فولاه عمل مصر وسلمه ختمه وقضيبه وجعل الامر والنهي بيده وأصدر الملك أوامره بانقياد الاهالي وطاعتهم له وشرع في بناء الاشوان والمخازن في كل جهة من جهات المملكة ولقبه المصريون باسم ظَفْنات فَعْنِيح أي مغذي مصر وتزوّج بزوجة اسمها إسْنان بنت فُوطيفارِعْ كبير قسس هليوبوليس المسماة بالمطرية أو عين شمس وولدت له ولدين منَسَّا وإفرايم فلما ولي يوسف خزائن أرضه ومضت السنون السبع المخصبات وكان جمع في مدتها الطعام في سنبله ودخلت السنون المجدبة وقحط الناس كان عنده في أشوانه من الغلال والذخائر ما يقوم باحتياج أهل مصر وما يبيع منه للبلاد المجاورة لمصر التى ربما يصيبها القحط فكان يبيع لاهل مصر بالاثمان الباهظة بشروط قوية صعبة ويطلب منهم أن يسلموا الرواتب المضروبة على الارض اللازمة لوقاية حياتهم وضرب عليهم خمس محصول الزراعة أجرة الفلاحة والارض زيادة عن الخراج الملوكي المرتب عليهم من قبل وما كان هذا القانون جاريا على القسس لانهم كانوا مستحوذين على طلباتهم واحتياجاتهم من الاشوان العمومية

وانتشر هذا القحط حتى وصل قسم فلسطين وكان يعقوب مقيما فيه فبعث بنيه الى مصر وأمسك

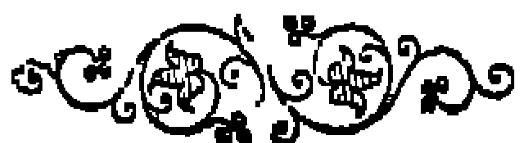
بنيامين أخا يوسف لامه فلما دخلوا على يوسف عرفهم وهم له منكرون وكان انكارهم له لبعد عهده
عنهم وتغيره لالباسه الملوكية فلما نظر اليهم قال ما شأنكم قالوا نحن من أرض فلسطين جئنا نمتار
الطعام وأخذ يسألهم عن أبيهم وأخيهم الاصغر بنيامين ثم قال لهم ائتونى به أنظر اليه فان لم تأتونى
به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون قالوا سنراود عنه أباه وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم أى ثمن الطعام
فى رحالهم لعلهم يرجعون وكان يوسف حين رأى ما بالناس من الجهد قد آسى بينهم فكان لا يحمل
للرجل الا بعيرا واحدا فلما رجعوا الى أبيهم بأحمالهم قالوا يا أبانا ان عزيز مصر قد أكرمنا كرامة
لو أن بعض أولاد يعقوب ما زاد على كرامته وقال أوتونى بأخيكم فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى
ولا تقربون قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل فلما فتحوا متاعهم وجدوا
بضاعتهم ردت اليهم قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير
قال يعقوب ذلك كيل يسير فقال يعقوب لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به الا أن
يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل ثم أوصاهم أبوهم وقال يا بنى لا تدخلوا من
باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه وعرفه وأنزلهم منزلا وقدم
لهم الطعام وأجلس بجانبه بنيامين أخاه ولما أكلوا قضوا ليلهم فى منزله ولما جهز يوسف ابل اخوته
من الميرة جعل الاناء الذى يكيل به الطعام فى رحل أخيه فلما ارتحلوا أذن مؤذن أيتها العير انكم
لسارقون قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الارض وما كنا سارقين لانا رددنا ثمن الطعام الى يوسف
فلما قالوا ذلك قال فما جزاؤه ان كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه تأخذونه لكم
فبدأ بأوعيتهم ففتشها قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه فقالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من
قبل يعنون يوسف ولما استخرجت السرقة من رحل الغلام قال اخوته يا بنى راحيل لا يزال لنا منكم
بلاء فقال بنيامين بل بنو راحيل ما يزال لهم منكم بلاء وضع هذا الصواع فى رحلى الذى وضع الدراهم
فى رحالكم فأخذ يوسف أخاه بحكم اخوته وقالوا يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه فقال
معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده فلما استيأسوا من خلاصه خلصوا نجيا لا يختلط بهم غيرهم
فقال كبيرهم وهو شمعون أو روبيل ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله أن نأتيه بأخينا الا
أن يحاط بنا ومن قبل هذه المرة ما فرطتم فى يوسف فلن أبرح الارض حتى يأذن لى أبى بالخروج وقيل
بالحرب فارجعوا الى أبيكم فقصوا عليه خبركم فلما رجعوا الى أبيهم وأخبروه بخبر بنيامين وتخلف
روبيل قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا يوسف وبنيامين
وروبيل ثم أعرض عنهم وقال واحزناه على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم أى ملىء من
الحزن والغيظ فقال له بنوه تالله لا تزال تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين فأجابهم
يعقوب انما أشكو بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ثم ان يعقوب أمر بنيه الذين قدموا
عليه من مصر بالرجوع اليها وتجسس الاخبار عن يوسف وأخيه فرجعوا الى مصر فدخلوا على يوسف
وقالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة أى قليلة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا
برد أخينا فلما سمع كلامهم غلبته نفسه وسكبت عبراته وعرفهم بنفسه بعد قوله لهم هل علمتم ما فعلتم
بيوسف اذ أنتم جاهلون قالوا أئنك لانت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا بان جمع
بيننا فاعتذروا وقالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين قال لا تثريب عليكم أى لا أذكر لكم

ذنبكم

ذنبكم يغفر الله لكم ثم سألهم عن أبيهم فقالوا لما فاته بنيامين عمى من الحزن فقال اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين فقال روبيل أنا أذهب به لانى ذهبت اليه بالقميص ملطخا بالدم وأخبرته أن يوسف أكله الذئب فأنا أخبره انه حى فافرحه كما أحزنته وكان هو البشير ولما فصلت العير عن مصر قال يعقوب انى لاجد ريح يوسف لولا أن تفندون فقال له من حضره من أولاده تالله انك من ذكر يوسف لفى ضلالك القديم فلما أن جاء البشير بقميص يوسف ألقاه على وجه يعقوب فعاد بصيرا وقال ألم أقل لكم انى أعلم من الله مالا تعلمون وقال يعقوب للبشير كيف تركت يوسف قال تركته ملك مصر قال ما أصنع بالملك على أى دين تركته قال على دين الاسلام فقال الآن تمت النعمة فقال له من حضر من أولاده يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا قال سوف أستغفر لكم ربى ثم ارتحل يعقوب وولده فلما دنا من مصر خرج يوسف يتلقاه ومعه أهل مصر ولما دخلوا مصر رفع أبويه يعنى أباه وخالته على العرش أى الكرسى وخر له يعقوب وخالته واخوته سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وعند نزول العائلة المختارة فى مصر تم وعد من المواعيد التى وعدها الله سبحانه وتعالى ابراهيم ومنحهم ملك مصر الاراضى الكائنة فى اقليم غسان أوجسان من مديرية الشرقية فى أرض مصر فأقاموا فيها

ومن بعد مضى سبع عشرة سنة توفى يعقوب فى مصر بعد أن بلغ من العمر مائة وسبعا وأربعين سنة واستغفر لاولاده ودعا لهم بالبركة والخير وهو على فراش موته وأخبرهم بان أولاد يهوذا يرثون المواعيد الالهية التى أعطيت لابراهيم وأن يكونوا رأس العائلة المختارة وأن روبيل وشمعون ولاوى أولاد يعقوب الكبار فصلوا أنفسهم من الوراثة بسبب ما حصل منهم من الجرائم والذنوب وبعد أن مات يعقوب صبرت جثته مثل عادة المصريين وحمل فى محفل عظيم مع يوسف واخوته وقوة عظيمة من خفر العساكر المصرية الى فلسطين ودفن فى قبر ابراهيم فى حبرون ثم بعد ذلك عاش يوسف خمسين سنة متمتعا بالسرور وعلو الرفعة والاجلال محافظا على عائلته حتى مات بعد أن بلغ من العمر مائة سنة وعشر سنين بعد أن عقد محالفة مع اخوته وهو على فراش موته بحمل جثته الى أرض كنعان عند خروج الاسرائليين من مصر

قيل ان اسم شعيب يثرون أو يثروو ان الله تعالى أرسله الى أهل مدين وهم أصحاب الايكة ومعناها الشجر الكثيف الملتف وكانوا أهل كفر بالله وبخس للناس فى المكاييل والموازين وافساد أموالهم وكان الله وسع عليهم فى الرزق وبسط لهم فى العيش فقال لهم شعيب يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط فلما طال تماديهم فى غيهم وضلالهم ولم يزدهم تذكير شعيب وتحذيره اياهم عذاب الله الاتماديا ولما أراد هلاكهم سلط عليهم يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم وذلك أن الله بعث عليهم وقدة وحرا شديدا فاخذ بأنفسهم فخرجوا من البيوت هاربين الى البرية فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس فوجدوا لها بردا ولذة فنادى بعضهم بعضا حتى اجتمعوا تحتها فأرسل الله عليهم نارا فأهلكتهم فهذا عذاب يوم الظلة



﴿ الباب الثاني ﴾

خروج الاسرائيليين من مصر واضلالهم في وادي التيه

شبوب الامة الاسرائيلية في مصر ـ أحوالها في وادي غسان ـ طرد الهكصوص من مصر ـ قيام العائلة التاسعة عشرة ـ الظلم والجور الشديد الذي حصل للعبرانيين ـ مولد موسى عليه السلام ـ تربيته وتهذيبه كامير مصري ـ هجرته من مصر ـ حياته أو معيشته في جبل سينا ـ التهاب العوسجة ـ دعوة موسى لان يكون قائد قومه ـ توجهه الى سراية فرعون ـ عدم قبول طلبه ـ آيات مصر وآفاتها ـ ترتيب ونظام عيد الفصح ـ الخروج ـ عبور البحر الاحمر ـ السير أو التوجه الى سينا ـ تشريع الشريعة ـ ترتيب الامة ـ الشروع في السير ـ رجوع الجواسيس ـ عصيان الاسرائيليين ـ هزيمتهم بواسطة الكنعانيين ـ ضلالهم وجولانهم في الصحراء ـ موت هارون ـ التقدم الى الارض الموعودة ـ التغلب على الاراضي الموجودة في شرق الاردن ـ هزيمة المو آبيين ـ موت موسى عليه السلام

لم يبتدئ التاريخ الحقيقي للاسرائليين بأنهم كانوا أمة الا من بعد رحيلهم من مصر وأما ابراهيم وذريته فكانوا رحالة نزالة على الارض الموعودة لا يملكون فيها شيأ

ومكث الاسرائيليون في الارض الخصبة من وادي غسان مدة مقدارها اثنان وخمس عشرة سنة وفي هذه الجهة حصل لهم النجاح والفوز حتى بلغوا الى درجة عظيمة وذلك أن العائلة التي كانت مركبة من سبعين شخصا ودخلت مصر مع يعقوب عليه السلام نمت وشبت وصارت أمة كثيرة العدد بلغ احصاؤها نحوا من ثلاثة ملايين نسمة وجعلوا أنفسهم أمة قائمة بنفسها على حدة من المصريين مع لغتهم وعوائدهم وعباداتهم الدينية وحكومة نبوية بينهم ومن المحقق أنهم لم يعبدوا الله حق عبادته بل كانوا على بقايا من عبادة اله ابراهيم واسحق ويعقوب الا أنهم لم يقبلوا الدخول في الشعائر الوثنية التي كانت جارية في عبادة المصريين وكانوا محكومين بامراء من أنفسهم مسؤلين مباشرة لدى الحكومة المصرية في جمع الضرائب والعوائد المقررة على المستعمرة العبرانية

وفي أثناء هذه المدة نجح الملوك القبلية الموجودون في الصعيد وطردوا عائلة الرعاة ومدوا حكمهم على مصر السفلى حتى صارت مملكة مصر واحدة وكانت هذه العائلة الوطنية على غاية من المجد والافتخار لم تحكم مصر عائلة مثلها قبلها وكان ملوكها يكرمون المستعمرة العبرانية ويحترمون وجوهها وأجلاءها

ثم تغير هذا الموضوع وانقلب الحال عندما حكمت العائلة التاسعة عشرة من العائلات المصرية واستلمت زمام الشوكة والسلطنة وذلك أن هؤلاء الملوك رأوا أنه يتولد من العبرانيين الضرر الاكبر والخطر الاعظم بسبب ما هم عليه من كثرة العدد والتبوء فأبلوهم بالظلم القاسي والجور الشديد وقصدهم بذلك نقص شوكتهم وهلاك أنفسهم وكان الملك الذي شرع في هذا الامر اسمه رعمسيس وكان رجلا حربيا مستبدا في حكمه ذا شدة وعنف فحمل الاسرائيليين أثقل الاحمال من الاشغال الصعبة وألزمهم أن يكونوا في أشغالهم تحت ملاحظين ومراقبين ذوي بأس شديد وكلفهم بالاشغال في بناء المدائن والهياكل ولما رأى الملك أن ما أجراه من الاعمال على الاسرائيليين بغير فائدة من تحملهم المشاق

والمتاعب

والمتاعب وأنهم لايزالون مستمرين في النمو وكثرة العدد غضب غضبا شديدا وأمر بقتل الذكور من أطفال العبرانيين وقت ولادتهم واحياء الاناث ليكن زوجات للمصريين وبذا عشم الملك في انقراض كامل هذه الملة

وكان عمران وهو رجل من سبط لاوى متزوجا بوحانذ امرأة من عين السبط فخلف منها طفلين سمى أحدهما هارون وبنتا سماها امريم وبعد ولادتهما بقليل انتشر الامر القاسى من الملك وهو فرعون فولدت يوحانذ ابنا آخر أخفته مدة ثلاثة أشهر من مأمورى الملك وقيل أجمع فرعون وكبار قومه على أن يبعث رجالا يقتلون كل مولود في بنى اسرائيل وأمر القبط أن يخرجوا بما اليكهم من الاشغال ويجعلوا بنى اسرائيل بدلهم في الاشغال فذلك قول الله عز وجل ان فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم فجعل لا يولد لبنى اسرائيل مولود الاذبح ولما ضاقت أم موسى ذرعا وخافت عليه بعد أن أرضعته ثلاثة شهور ألهمها الله فاذا خفت عليه فألقيه في اليم وهو نهر النيل ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين فوضعته في تابوت وطلته بالقار وألقته في اليم وقالت لاخته مريم قصى أثره فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون فأقبل الموج بالتابوت حتى أدخله بين أشجار وحلفاء عند مساكن فرعون فخرجت بنت فرعون مع جواريها يغتسلن في النيل فوجدن التابوت فأخذنه وأدخلنه على امرأة فرعون فلما فتحته ونظرت الى الطفل الموجود فيه وقعت عليها رحمته وأحبته وأخبرت به فرعون فقال لها انى أخاف أن يكون هذا من بنى اسرائيل وأن يكون هذا الذى على يديه هلاكنا كما أخبرنى بذلك المنجمون فذلك قوله عز وجل فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وأرادوا له المرضعات فلم يأخذ من أحد من النساء فذلك قوله تعالى وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت أخته مريم وكانت حاضرة في الوقت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون وانطلقت الى أمها وأخبرتها الخبر فجاءت اليه فلما أعطته ثديها رضع منها وسموه موسى لانه وجد بين الماء والشجر فذلك قوله تعالى فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن وأمرتها امرأة فرعون أن تلتفت الى تربيته أشبه بكونه ابن فرعون ولما شب موسى وترعرع أخذته أمه الى امرأة فرعون فأمرت بتهذيبه وتعليمه كواحد من العائلة الملوكية وبهذا صار عالما ماهرا في علوم الحكمة المصرية والعلوم العسكرية وكان يركب مركب فرعون ويلبس ما يلبس ويدعى موسى بن فرعون وروى أن موسى عندما بلغ مبلغ الرجال تقلد وظيفة عالية في الجند المصرى في غزوة كانت حصلت بين المصريين والحبشيين ومع ما كان فيه موسى من الكرم والسعادة في سراية فرعون كان عبرانيا في الحقيقة وامتنع به بنو اسرائيل ولم يبق قبطى يظلم اسرائيليا خوفا منه لانه كان لا يرغب الذل والاهانة لاهل قومه ولا يريد بهم الجور والاعتساف وعدم الانصاف ومر يوما في المدينة وهى مدينة عين شمس فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته أى اسرائيلى وهذا من عدوه أى من القبط فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فغضب موسى ووكز القبطى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين ثم قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له انه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين فاصبح في المدينة خائفا يترقب أى أن يؤخذ فاذا الذى استنصره بالامس يستصرخه قال له موسى انك لغوى مبين ثم أقبل لينصره فلما نظر الى موسى وقد أقبل نحوه ليبطش بالرجل الذى يقاتل الاسرائيلى

خاف أن يقتله من أجل أنه أغلظ له فى الكلام قال أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالامس ان تريد الا أن تكون جبارا فى الارض وما تريد أن تكون من المصلحين وبلغ الخبر مسامع فرعون فطلبه وأراد قتله فجاء رجل فاخبره وقال له ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك من الناصحين فخرج من المدينة خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين فهام على وجهه فى الطريق وقال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل فسار به ملك حتى انتهى به الى أرض مدين فما بلغ مدين حتى سقط خف قدمه وكان يتغذى من نبات الارض فلما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان أى تحبسان غنمهما وهما ابنتا شعيب فلما رآهما موسى سألهما ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى موسى لهما ثم قصد شجرة هنالك يستظل بها فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير فلما رجع البنتان سريعا الى أبيهما سألهما فأخبرتاه الخبر فأعاد احداهما الى موسى تستدعيه فأتته وقالت له ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فقام معها فمشت بين يديه فضربت الريح ثوبها فظهرت عجيزتها فقال لها امشى خلفى ودلينى على الطريق فلما أتى شعيبا وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين قالت احداهما وهى التى أحضرته يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين وقصت عليه ما وقع بينه وبينها فى الطريق فقال له أبوها انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى نفسك ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك فقال له موسى ذلك بينى وبينك أيما الاجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل فأقامه عنده يومه فلما أمسى أحضر شعيب العشاء فأكل معه موسى وازدادت رغبة شعيب فى موسى وزوجها بنته صفورا وأمرها أن تأتيه بعصا فأخذها موسى ليرعى بها وكانت من عوسج لها شعبتان وفى رأسها محجن ولبث موسى عند شعيب عشر سنين فتم بها العمر موسى أربعون سنة وفى أثناء هذه المدة طغى فرعون وحمل العبرانيين أثقل الاحمال زيادة عما كان جاريا فى مدة سلفه فشكى العبرانيون بث أحزانهم وما هو حاصل من آلامهم وظلمهم الى الله الههم لاجل مساعدتهم على خلاصهم مما هم فيه فسمع الله سبحانه وتعالى دعاءهم

وبعد أن أقام موسى المدة المذكورة عند شعيب سار بأهله فى زمن شتاء وبرد فلما كانت الليلة التى أراد الله عز وجل لموسى كرامته وابتدأه فيها بنبوته وكلامه أخطأ فيها الطريق حتى لا يدرى أين يتوجه وكانت امرأته حاملا فأخذها الطلق فاخرج زنده ليقدح لاهله نارا ليصطلوا ويبيتوا حتى يصبح ويعرف وجه طريقه فأصلد زنده وقدح حتى أعيا فرفعت له نار فلما رآها قال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر فان لم أجد آتيكم منها بشهاب قبس لعلكم تصطلون فحين قصدها رآها نورا ممتدا من السماء الى شجرة عظيمة من العوسج فتحير موسى وخاف حين رأى نارا عظيمة بغير دخان وهى تلتهب فى شجرة خضراء لا تزداد النار الا عظما ولا تزداد الشجرة الا خضرة فلما دنا منها نودى منها فلما سمع النداء استأنس فعاد فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن بورك من فى النار ومن حولها يا موسى انى أنا الله رب العالمين فلما سمع النداء ورأى تلك الهيبة علم أنه ربه تعالى فخفق قلبه وكل لسانه وضعفت قوته فشد الله قلبه فلما رجع اليه عقله نودى اخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى ثم قال له تسكينا لقلبه وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى أى أحمل عليها المزود والسقاء قال له ألقها يا موسى فألقاها موسى فاذا هى حية

تسعى عظيمة الجثة خفيفة الحركة فلما رآها موسى ولى مدبرا ولم يعقب فنودى ياموسى لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون أقبل ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى (عصا) فلما أقبل قال خذها ولا تخف وأدخل يدك فى فيها فأدخل موسى يده بين لحييها فعادت عصا كما كانت ثم قال له أدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء (برص) فأدخلها وأخرجها بيضاء من غير سوء مثل الثلج لها نور ثم ردها فعادت كما كانت فقيل له هذان برهانان من ربك الى فرعون وملئه انهم كانوا قوما فاسقين قال رب انى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردأ يصدقنى أى يبين لهم عنى ما أكلمهم به فانه يفهم عنى مالا يفهمون قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون وأخبره الله سبحانه وتعالى بما يشاء من خلاص الاسرائيليين مما هم فيه من رق العبودية عند المصريين وسوقهم الى الارض التى كان وعدها ابراهيم بانها تكون أرضا لذريته وأن يكون موسى هو القائد الاكبر والسفير الالهى المسخر فى هذه الحركة العظيمة وقال الله له ان هارون هو المتكلم عنه عند ملك المصريين وعند العبرانيين وعرف موسى جميع مايريده القادر جل جلاله وأمره أن يقصه على شيوخ بنى اسرائيل وأمره أيضا بالعود الى مصر وليجمع شيوخ العبرانيين ويقص عليهم ماجاء به لهم فاذا تحقق من طاعتهم يذهب الى فرعون ويطلب منه الاذن فى خروج بنى اسرائيل من مصر وقال الله له ان لم يسمع فرعون بذلك فانى أريه قدرتى وقوتى على مصر

ثم ان موسى رحل فى الحال عائدا الى مصر وفى طريق سفره قابل أخاه هارون وكان الله أوحى اليه بالخروج من مصر لمقابلة أخيه فقال موسى ياهارون ان الله قد أرسلنا الى فرعون فرجع الأخوان الى مصر وطلبا شيوخ بنى اسرائيل ووضعوا أمامهم بلاغ الحق جل جلاله واتفق القوم على الخضوع والتسليم لما أمر الله به ووعدوا أن يؤدوا مع الذمة والصداقة جميع وصايا الرب الههم

ولما أحكم موسى وهارون ارتباط قومهما عزما على التوجه الى فرعون ليطلبا منه الاذن والرخصة باسم الرب سبحانه وتعالى اله اسرائيل لقومهما ليعملوا عيدا لهم فى البرية فلما دخلا عليه قال له موسى انى رسول من رب العالمين فعرفه فرعون فقال له ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين قال فعلتها اذا وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما يعنى نبوة وجعلنى من المرسلين فقال له فرعون ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذاهى ثعبان مبين قد فتح فاه فوضع الفك الاسفل فى الارض والاعلى على القصر وتوجه نحو فرعون ليأخذه فخافه فرعون ووثب فزعا وناشده فرعون بربه تعالى أن يرد الثعبان فأخذه موسى فعاد عصا ثم أدخل يده فى جيبه وأخرجها بيضاء كالثلج لها نور يتلألأ ثم ردها فعادت كما كانت عليه وأوحى الله الى موسى وهارون أن قولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ولما غضب فرعون من موسى أراد قتله فقال مؤمن من آل فرعون لفرعون وملئه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات وقال الملأ من قوم فرعون أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم ففعل وجمع السحرة فوعدهم فرعون وتعددوا يوم عيد كان لفرعون فصفهم فرعون وجمع الناس وجاء موسى ومعه أخوه هارون وبيده عصاه حتى أتى الجمع وفرعون فى مجلسه مع أشراف قومه فقال موسى للسحرة حين جاءهم ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب فقالوا

له لنأتينك بسحر مثله وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون وقال له السحرة ياموسى اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين قال بل ألقوا فألقوا حبالهم وعصيهم فاذا هي في رأى العين حيات أمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا فأوجس موسى في نفسه خيفة فاوحى الله اليه أن ألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا فألقى عصاه من يده فصارت ثعبانا عظيما واستعرضت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم وجعلت تلقفها وتبتلعها حتى لم تبق منها شيأ ثم أخذ موسى عصاه فاذا هي في يده كما كانت فخر رئيس السحرة ساجدا وقال ما هذا بسحر وتبعه السحرة أجمعون وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون قال فرعون آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم في جذوع النخل فقطعهم وقتلهم وهم يقولون ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين

ولما رأى فرعون قومه قد داخلهم الرعب من موسى خاف أن يؤمنوا به ويتركوا عبادته فاحتال لنفسه وقال لوزيره هامان ياهامان ابن لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وانى لاظنه كاذبا فأمر هامان بعمل الآجر وشرع في البنيان وارتفع ارتفاعا لم يبلغه بنيان فشق ذلك على موسى واستعظمه فأوحى الله اليه أن دعه وما يريد فانى مستدرجه ومبطل ما عمله في ساعة واحدة فلما تم بناؤه أرسل الله سبحانه وتعالى جبريل فخربه وأهلك كل من عمل فيه من صانع ومستعمل فلما رأى فرعون ذلك من صنع الله أمر أصحابه بالشدة على بنى اسرائيل وعلى موسى وصار لا يقبل كل أمر يجىء فيه موسى اليه وكلفوا بنى اسرائيل من العمل ما لا يطيقونه وصار الرجال والنساء في شدة وكانوا يعودون من أشغالهم بأسوء الحالات فشكوا ذلك الى موسى فقال لهم استعينوا بالله واصبروا ان العاقبة للمتقين وان الله يستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون .

وجدد موسى وهارون الطلب عند ملك المصريين فرعون فلم يقبل منهما شيأ وأهانهما وضاعف فرعون الاثقال على بنى اسرائيل فلاموا موسى وعنفوه بسبب ما حصل لهم من الذل والاهانة وكثرة المصاعب والآلام التى تراكمت عليهم فاشتكى موسى الى الله أن سعيه لم يجلب على بنى اسرائيل الا الهموم والغموم فعضده الله سبحانه وتعالى وشد عزمه بما أوحاه اليه من حيث ان فرعون لم يقبل طلبكما مع عناده وضاعف الاشغال مع العناد أيضا على العبرانيين فانى سأهشم كبر عناده وألزمه الرضا رغم أنفه بسفر الاسرائليين وخروجهم من مصر وكان بالضرورة وقوع هذا الاختلاف بين فرعون وبين الحق جل جلاله ليس لاجل معاقبة الملك من أجل تعذيبه العبرانيين فقط بل كان أيضا دليلا كافيا للعبرانيين على أن الله قادر على وفاء وعده لهم وانه أقوى شوكة وأعظم عزة من جميع آلهة مصر الكاذبين وكذا بما أن العبرانيين هم في مجاورة من مدة طويلة لديانة المصريين فكان مشروع الحق سبحانه وتعالى ضروريا حتى تتحقق بنو اسرائيل من أن لا حقيقة ولا شوكة لاصنام بلاد النيل

وكرر موسى وهارون طلباتهما من الملك وأبى فرعون وقومه الا الثبات على ما هم فيه من العناد فعاقبهم الله من عدم قبول الملك بان أرسل على أرض مصر عدة آيات هائلة وآفات مزعجة وكان الملك وقومه يطلبون موسى وهارون عند حصول كل آية ليطلبا من ربهما كشف البلية عنهم وهذه الآيات هي

الاولى ـ صيرورة مياه النيل وهو النهر المقدس عند المصريين ورئيس منبع مياههم المحتاجين لها حمراء مثل الدم عفنة مضرة مكروهة عند المصريين حتى التزموا أن يحفروا آبارا بطول شاطئ النهر لاخذهم منها مياه الشرب واستمر ذلك سبعة أيام حتى كشفها عنهم موسى بطلب من فرعون وقومه على أنهم يؤمنون له ويرسلون معه بني اسرائيل

الثانية ـ الضفادع وكان لا يحصى عددها أقلقت أهل مصر وكدرت عيشتهم وانتشرت على الارض وحصل منها الضرر المهول للمصريين

الثالثة ـ ضروب القمل وهذه غطت الارض وتسبب منها مضار مؤلمة للناس والحيوانات وكانت من ضمن النجاسات الدنيوية والدينية

الرابعة ـ سحائب الذباب والجعارين وكانت أكبر من الجعارين الموجودة من الاصل في مصر غطت الارض ودخلت أسرابا في البيوت وأكلت الزروع والاشجار وكان الجعران أحد المعبودات المصرية فكانت هذه الجعارين عليهم أشد بلية وأشد ضررا ولو أنها كانت آلهة لهم

الخامسة ـ داء الاسكربوط وهذا تسلط على الحيوانات وأهلك ما وجد من الحيوانات في مصر

السادسة ـ علة الجرب والجذام وظهر هذا على أبدان أهل مصر وحيواناتهم وقال بعض الحكماء الظاهر أن هذه الآية كانت هي البرص الاسود وهو داء مهول مخيف من أنواع داء الفيلة وباق ظهوره لهذا الآن في مصر وكان هذا أيضا من ضمن النجاسات الدينية المصرية

السابعة ـ عواصف ولواقح مشحونة بالبرد مصحوبة بالرعد والبرق كنست الارض وأهلكت الزرع والناس والحيوانات

الثامنة ـ أسراب الجراد وهذه انتشرت على الاراضي وأكلت كل ما تركه البرد

التاسعة ـ انتشار ظلام خارق للعادة غشي أرض مصر واستمر في غاية من القتامة والكثافة ثلاثة أيام حتى صار لا طاقة للناس أن يشاهد بعضهم بعضا أو يؤدوا شيأ من أشغالهم ولم يحصل شئ من هذه الآفات والمصائب في أرض غسان المقيم فيها العبرانيون لانها كانت مستثناة من وقوع هذه الآيات فيها لكي يرى بنو اسرائيل مع الخوف وفاء المواعيد الالهية بعذاب المصريين وكثيرا ما كان فرعون يرتعد ويخضع ويرسل لموسى وهرون ويتضرع اليهما أن يطلبا من الله كشف هذه الآيات عنه وعن قومه الا انه بمجرد كشف المصيبة الواحدة عنهم يرجع الى كبره وعناده ويمتنع من أن يأذن للعبرانيين في الخروج من مصر

ولما يئس موسى من فرعون وقومه دعا موسى عليهم وأمن هرون فقال ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم فاستجاب الله لهما وأوحى الله الى موسى اني منزل على أرض مصر آية الدمار والخراب وأمر موسى أن يسن عيد الفصح وأن يكون هذا العيد دلالة على ابتداء التاريخ المخصوص بالملة العبرانية كما انه يكون أول سنتهم وأمره بعمل احتفالات لهذا العيد لا يجوز وقوع أدنى ضرر فيها ولا أذى وأن تجرى هذه الاحتفالات سنويا بالعيد الفصح وتذكارا دواميا على خلاص الملة العبرانية من رق العبودية المصرية . وقد أخبر الله موسى وهرون بما يريده من هلاك وموت كل مولود بكري من أهل مصر وأن يأمر العبرانيين أن يضعوا على منازلهم علامات وهو أنهم يرشوا أو يطلوا

حلوق أبواب بيوتهم بدم الحيوانات التى تذبح لعشاء عيد الفصح لان جميع البيوت المعلمة بهذه العلامة لا تقربها ملائكة الهلاك وأن يأمر العبرانيين بالاستعداد للرحيل بوجه السرعة وأن يكون رحيلهم بمجرد الامر بالرحيل وكانت جميع هذه الاجراآت حاصلة فى النور فى أرض غسان اذ كان لا يوجد بها ظلام

وعند غروب الشمس من اليوم الثالث من أيام الظلام فى مصر ابتدأ العبرانيون فى تحضير عشاء عيد الفصح ولما تم العشاء انتظروا أمر الله مترددين فيه مع الوجل الشديد وفى منتصف الليل أمات الله كل مولود بكرى فى كل بيت من بيوت مصر من ابتداء سراى الملك الى آخر عشة حقيرة وكل بكرى من جميع حيوانات مصر فكان لا يوجد بيت الا وفيه ميت فالتزم فرعون قهرا عنه بما حصل له من هذه الرزية العظيمة أن يرسل فى الحال فى طلب موسى وهرون ولما حضرا عنده حثهما بالعجلة على أن يأخذا قومهما ويخرجا من أرض مصر من دون حصول أدنى عائق وأمر موسى العبرانيين أن يستعيروا من المصريين حليا من الجواهر والفضة والذهب وليشوا على طلبهم فأسرع المصريون فى اجابة طلبهم وأعطوهم ما يلزم لهم اذ كانوا على تلهف زائد فى خروج العبرانيين من البلاد لانهم كانوا على وجل شديد من أن يحصل منهم أدنى تأخير فيعود عليهم بالضرر والاذى

ولما أمر موسى العبرانيين بالشروع فى رحيلهم أخذوا معهم جثة يوسف المصبرة وكان عددهم ٦٠٠٠٠٠ ستمائة ألف رجل غير النسوان والاطفال وبلغ هذا العدد مع الجم الغفير المختلط الذى تبعهم وكانوا من دون ريب ذرية من أهل آسيا نزلوا مصر فى ظعنهم واقامتهم وكانوا على غاية من السرور فى كونهم انتهزوا فرصة نجاتهم الى أن صار مقدار عدد العشيرة العبرانية نحوا من ثلاثة ملايين وكان رحيلهم جميعا تحت قيادة موسى الا أن انتخاب طريقهم فى أثناء سيرهم كان باذن الله سبحانه وتعالى وذلك أنه سخر لهم فيها سحابة بيضاء كانت تسرى أمامهم بالنهار وعمودا وسحابة من نور يدلهم على الطريق بالليل

ومن الضرورى أن رحلة عالم جسيم مثل هذا تكون بحركة بطيئة فاستمروا فى سيرهم نحوا من ثلاثة أيام حتى وصلوا رأس البحر الاحمر أو خليج السويس وكان ممتدا كثيرا الى الجهة الشمالية زيادة عما هو عليه الآن وفى غضون ذلك رجعت لفرعون قوته وشجاعته وندم على تفريطه فى أمره للاسرائيليين بالرحيل والسفر من أرض مصر وعزم على اتباعهم وقهرهم على الرجوع ثانيا الى أرض مصر فرحل فى رأس جيش كثيف وجدّ فى سيره حتى أدركهم وهم معسكرون بالقرب من البحر الاحمر وكان موقع الاسرائيليين على حسب الذوق العسكرى على غاية من الخطر لان البحر كان أمامهم وعلى يمينهم سلسلة جبل عتاقة الصعبة وعلى يسارهم وخلفهم ملك مصر مع تباجنده وقاطعا عليهم طريق نجاتهم وانهم من دون مساعدة الهية صاروا مستعدين لهلاك أنفسهم فقال أصحاب موسى انا لمدركون ياموسى أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا أما الاول فكانوا يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا وأما الآن فيدركنا فرعون فيقتلنا قال موسى كلا ان معى ربى سيهدين فأمر الله موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وفتح الله طريقا لبنى اسرائيل يعبرون منها البحر الى ساحل بلاد العرب ولما رأى جيش المصريين حركة عبورهم تبعهم فى الحال فعادت مياه البحر باذن الله فى الوقت وأهلكت جيش المصريين وقال فرعون حين أدركه الغرق آمنت أنه

لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل فقال له آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين وأما التوراة فانه لم يذكر فيها أكان الملك غرق مع عسكره أم لا ولا تحقق منها ما يستدل به على الحقيقة وعلم لنا من التاريخ المصرى القديم أن الذى غرق هو قسم الجيش الذى ساق خلف العبرانيين وأن الملك لم يغرق وأن منفطه وهو الذى كان خرج مع فرعون عاش سنين عديدة بعد هذه الواقعة ومات من مرض حصل له لكن الحق ما قاله الله تعالى فى القرآن العظيم فأغرقناه ومن معه جميعا

وعلمنا من الحوادث التاريخية أن سنة ١٤٩١ قبل ميلاد المسيح كانت هى تاريخ الخروج وبمجرد وصول العبرانيين الى الساحل المقابل للبحر الاحمر ارتحلوا الى داخل بحيث (جزيرة سينا) نحو جبل سينا فلو أراد القادر سبحانه وتعالى سوقهم من مصر الى الارض الموعودة على الفور لساقهم اليها من الطريق المستقيم الواقع فى طول ساحل البحر المتوسط المارة بالعريش وغزة وبهذا يكونون عرضة لخطر مهلك يقع عليهم من جيش المصريين المتعود على استعمال هذه الطريق فى محاربانه فى آسيا حتى لو خلصوا من هذا الخطر لوقعوا فى حروب مستديمة مع قبائل الكنعانيين القاطنين على ساحل البحر الابيض المتوسط فلاجل وقايتهم وحمايتهم من هذه الاخطار والمهالك اختار لهم طريق البحر الاحمر وقد يوجد دليل أقوى من ذلك على اختيار الله سبحانه وتعالى لهم هذه الطريق وذلك أن الاسرائيليين ما كان فيهم قابلية للدخول على الارض الموروثة لهم لانهم كانوا محتاجين لطرائق تعليم وتهذيب ونظام حتى يكونوا ملة حقيقية أصلية قبل دخولهم الارض الموعودة فانهم كانوا على غاية من الجهالة بالشرائع الدينية والنظامات المدنية الداخلية والخارجية المنحصرة فيها شوكة الملة الواحدة وسلطتها ويعرفون بواسطتها حقوق سلامة أنفسهم وملتهم وانه يلزمهم أن يخرجوا ما هو مكنون فى قلوبهم وما كانوا عليه من مجاورتهم المصريين وتطبعهم بعوائدهم وطبائعهم ويجعلوا أنفسهم أمة قائمة بنفسها ممتازة عن باقى الامم الذين يلزم أن يكونوا فى مجاورتهم ومحيطين بهم وأن يكونوا متمسكين بهذه الاعمال حتى يكون لهم طاقة بها يتيسر الحصول لهم على حفظ خصائص ملتهم فى المستقبل الى الابد وأن لا توجد طريق يمكن اختيارها لهم الا هذه الطريق التى سلكوها ولا يوجد لهم جهة لتحصين أنفسهم واقامة ملتهم فيها بالنسبة للسلامة والنظام أحسن من برية سينا فلهذا اختارها الله لهم وتوجهوا اليها

وأعد الله سبحانه وتعالى لهم ما يلزم من الاحتياجات الوقتية وأعذب لهم المياه المرة التى كانت موجودة فى الوادى الذى سلكوه وأنبع لهم المياه من الصخور وذلك انه أمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا لكل سبط عين وظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى كان طعاما لهم فكان الطعام فى الابتداء على صورة السلوى أى السمان ثم على هيئة المن وكان هذا المن ينزل مع الندى فى وقت الصباح فى محل معسكرهم وكان لا يرخص لهم فى جمعه الا ما يلزم لقوت يوم واحد فقط ماعدا اليوم السادس فانهم كانوا يجمعون فيه طعام ما يلزم ليومين مراعين فى ذلك عدم الشغل فى اليوم المقدس واستمر نزول هذا الطعام من السماء كل يوم مدة أربعين سنة أو جميع المدة التى أقامها الاسرائيليون فى برية سينا

ولما وصلوا فى رحيلهم رفيديم والصحيح أنه وادى فيران الموجود الآن هجم العماليق على الاسرائيليين ليصدوهم عن تقدمهم فى داخل البحيث (جزيرة) وكان جيش العبرانيين تحت قيادة يوشع بن نون

الذى فتح فيما بعد فلسطين فكان منصورا

ثم رحل بنو اسرائيل من وادى رفيديم الى جبل سينا وعسكروا فى السهل على غدران ومجارى سيول فى ضواحى الجبل المقدس

ثم ان الله سبحانه وتعالى أمر موسى أن يصوم ثلاثين يوما ويتطهر ويطهر ثيابه ويأتى الى الجبل جبل طور سينا ليكلمه ويعطيه أوامره ففعل موسى ما أمره الله وسار الى الجبل واستخلف أخاه هارون على بنى اسرائيل ثم أوحى الله اليه أن يصوم عشرة أيام أخر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ففى تلك الليالى العشر افتتن بنو اسرائيل وذلك أن السامرى صاغ لهم عجلا من حلى جمعها منهم فى ثلاثة أيام وجعل له جوفا فكان الهواء يدخل فيه فيخور فلما رأوه قال لهم هذا الهكم واله موسى نسيه موسى وتركه ههنا وذهب يطلبه فعكفوا عليه يعبدونه فقال لهم هارون يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى فأطاعه بعضهم وعصاه بعضهم فأقام بمن معه ولم يقاتلهم ولما ناجى الله تعالى موسى قال له ما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثرى قال فانا قد فتنا قومك من بعدك يا موسى وأضلهم السامرى فقال موسى يا رب هذا السامرى قد أمرهم أن يتخذوا العجل فمن نفخ فيه الروح قال أنا قال فأنت اذا أضللتهم ثم ان موسى لما كلمه الله تعالى أحب أن ينظر اليه قال رب أرنى أنظر اليك قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى فتجلى الله للجبل فجعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين وأعطاه الالواح فيها الحلال والحرام والمواعظ وهى العشر وصايا المذكورة فى التوراة وعاد موسى فلما وصل الى قومه ورأى عبادتهم للعجل ألقى الالواح وأخذ برأس أخيه ولحيته يجره اليه قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى فترك هارون وأقبل على السامرى وقال ما خطبك يا سامرى قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى قال فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لا مساس ثم أخذ العجل وبرده بالمبارد وأحرقه وطلب بنو اسرائيل التوبة فأبى الله أن يقبل توبتهم وقال لهم موسى انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم وأمر موسى سبط لاوى الذين لم يعبدوا العجل فقتلوا منهم جما غفيرا وقام موسى وهارون يدعوان الله فعفا عنهم وأمرهم بالكف عن القتال وتاب عليهم ثم ان موسى اختار من قومه سبعين رجلا من أخيارهم وقال لهم انطلقوا معى الى الله فتوبوا مما صنعتم وصوموا وتطهروا وخرج بهم الى الجبل للميقات الذى وقته الله له فقالوا اطلب أن نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ودخل فيه موسى وقال للقوم ادنوا فدنوا حتى دخلوا فى الغمام فوقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى ويأمره وينهاه وأنزل عليه الاوامر التى تدونت فيما بعد فى شريعة موسى واشتملت على الاحكام الدينية والمدنية الخاصة بالملة العبرانية ولما فرغ انكشف عن موسى الغمام فأقبل اليهم فقالوا لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وماتوا جميعا فتضرع موسى حتى رد الله اليهم أرواحهم ولما رجع موسى مع أخيار قومه ومعه التوراة أبوا أن يقبلوها ويعملوا بما فيها للاثقال والشدة التى جاءبها فأمر الله جبريل فقلع جبلا من فلسطين على قدر عسكرهم ورفعه فوق رؤسهم مقدار قامة الرجل مثل الظلة وبعث نارا من قبل وجوههم وأتاهم البحر من خلفهم فقال لهم موسى خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا فان قبلتموه وفعلتم ما أمرتم به

والا

والارض حتى يتكم بهذا الجبل وأغرقتكم في هذا البحر وأحرقتكم بهذه النار فلما رأوا ذلك قبلوها وسجدوا على شق وجوههم وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود وقالوا سمعنا وأطعنا

ثم ان رجلا من بني اسرائيل قتل ابن عم له ولم يكن له وارث غيره ليرث ماله وحمله وألقاه في موضع آخر ثم أصبح يطلب دمه عند موسى من بعض بني اسرائيل فجحدوا فسأل موسى ربه فأمرهم أن يذبحوا بقرة فقالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين فقالوا له ماهي قال انها بقرة لافارض ولابكر أي لا كبيرة ولاصغيرة عوان بين ذلك أي نصف بين السنين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهي ان البقر تشابه علينا قال انه يقول انها بقرة لاذلول تثير الارض ولاتسقي الحرث مسلمة لاشية فيها أي لابياض فيها قالوا الآن جئت بالحق وطلبوها فلم يجدوا الابقرة رجل بار بأمه فاشتروها فغالى بها حتى أخذ ملء جلدها ذهبا فذبحوها وضربوا القتيل بلسانها وقيل بغيره فحيي وقام وقال قتلني فلان ثم مات

ولبث الاسرائيليون في سينا احد عشر شهرا وعشرين يوما وفي أثناء هذه المدة عملوا الاحتفال الثاني لعيد الفصح وترتبت فيها الاشغال الجليلة والنظامات المفيدة لحياة الامة وذلك أنهم كانوا أمة أوباشا عواما لانظام لهم ولاشرائع عندهم ولاديانة بل كانوا يجهلون الههم ولايعرفون طريقة دينية يعبدونه بها فصار هؤلاء الاوباش مدة اقامتهم في سيناء على غاية من الاتحاد ببعضهم حتى صاروا أمة واحدة لهم قانون من الشرائع تداول بين قرون وسلاسل بني الانسان واستمر العمل جاريا عليه الى انقراض الامة العبرانية وكذا أقيمت في خلال هذه المدة المظلة أو الخيمة المقدسة على صورة أنزلت من عند الله ورتبت فيها جميع تفاصيل الشعائر الدينية مع الاحكام ورتبت الاحبار وتم نظام الترتيبات في توارث الوظائف المقدسة

وكانت القاعدة الاساسية لجميع طرق السياسة والديانة محصورة في السلطة العالية المعدة لله سبحانه وتعالى على الملة العبرانية وكان الله في كل معنى سيدهم ومالكهم وأما الاحكام الخاصة بكل من السياسة والنظام فكان الحال مفوضا فيها الى الله تعالى وأما الاحكام الاخر التي شرعت وسنت من قبل الله لادارة الاعمال على حسب شريعته فليست من خصائص أحكام القسس من ذرية هارون ولامن سبط لاوي فانه صار ترتيبها في وظائف مختلفة تختص بالديانة العمومية ورتب لكل سبط حكامه الادارية وان حصل اختلاف رجعوا الى المحكمة العالية المركزية المحفوظ لها حقوق أعمالها في كافة الاسباط وأن اتفاق مجالس الملة فوق الجميع وهذا المجلس مؤسس بخصوص الديانة والعبادة والاحتفالات التي تجري سنويا بشأن المواسم وهي عيد الفصح أو عيد الفطيرة تذكارا للخروج من مصر وعيد العنصرة أو عيد الخمسين تذكارا لاظهار اقامة الشريعة وعيد المظلة أو الخيمة المقدسة تذكارا للاقامة في البرية وكانت الخيمة المقدسة معدة لتقريب القربان موضوعا فيها التابوت وصورة العهد الذي عمل بين الله سبحانه وتعالى والامة وهي أيضا مركز الاعمال السياسية والديانية

ولما تم ترتيب جميع هذه النظامات وانتظمت الامة العبرانية شرع موسى بأمر من الله سبحانه وتعالى في مقدار واحصاء نفوس الذكور من الامة من سن عشرين سنة فصاعدا القابلين لحمل السلاح وكان ابتداء هذا التعداد في أول يوم من الشهر الثاني من تاريخ الخروج وهو أيار ــ مايو سنة ١٤٩٠ من

قبل ميلاد عيسى فبلغ مقدار نفوس المحاربين ٦٠٣٥٥٠ نفس وقسم موسى هذا الجيش الى أربعة معسكرات وضع كل معسكر منهم فى جهة من الجهات الاربع من الخيمة المقدسة وبهذا صارت الخيمة فى وسط معسكر الاسرائيليين

ولما رتب موسى الامة والجيش بهذه المثابة فك الاسرائيليون معسكرهم فى اليوم العشرين من سنتهم الثانية أى فى ٣٠ مايو سنة ١٤٩٠ قبل الميلاد وشرعوا فى سيرهم يدلهم عمود من نور وكان هذا العمود دليلهم من عهد ليلة الخروج حتى أوصلهم الى حدود الارض الموعودة وبهذا الدليل الالهى توجه بنو اسرائيل الى برية فاران

وبعد أن استراح الاسرائيليون عدة استراحات فى سيرهم وصلوا الى قادش برنيع بالقرب من حدود فلسطين وأرسل موسى من هذا المحل اثنى عشر نقيبا من كل سبط واحدا الى فلسطين ليكشفوا له أرض فلسطين ويأتوه بأخبار أهل البلاد وأوصافهم وطرق مدافعاتهم وصلابة مدائنهم وقوتها وعدد نفوسهم وعلى حسب الشروط التى عهدت الى هؤلاء الجواسيس غابوا أربعين يوما وفى هذه المدة كشفوا الاراضى من ابتداء البحر الميت الى منحدرات جبل حرمون ولما عادوا الى قادش برنيع أخبروا موسى وقواد الاسرائيليين بان الارض كثيرة الخصوبة الا أن فتحها بالاسرائيليين غير ممكن لأن أهلها ناس جبارون هائلو الخلقة ساكنون فى مدائن مستحكمة قوية فحصل من هذا القول المكدر تأثير كبير فى القوم وهالهم ذلك وامتنعوا عن السير الى أرض فلسطين فقال لهم موسى يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين قالوا ياموسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون قال رجلان وهما يوشع بن نون وكالب وكانا من ضمن الجواسيس الاثنى عشر وكانا من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون قالوا ياموسى انا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون فغضب موسى فدعا عليهم فقال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين

وفى صباح اليوم الثانى انفجرت فيهم ثورة وأعلنوا عزمهم على انتخاب رئيس لهم منهم يوصلهم بالثانى الى مصر فسقط موسى وهارون على وجوههما على الارض أمام القوم وكان مافعلاه لاثمرة فيه وصار يوشع وكالب يكرران لهم القول بالنجاح والظفر ويحثانهم على عدم عصيانهما لهم فازداد القوم عتوا وأخذوا الاحجار وأرادوا أن يرضخوا بها موسى وهارون ويوشع وكالب وصاروا على هياج وثورة من قتلهم فظهر مجد الله سبحانه وتعالى من الخيمة المقدسة بعد أن تمكنت القسوة فى القوم وقال الله تعالى لموسى فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الارض وأنه يحرمهم من وراثة الارض المقدسة ويختار أمة من ذريته موسى فتوسل موسى عند الله فى الشفاعة لقومه ولم يزل يتضرع حتى نال الشفاعة لهم الا أنه عند الصفح عنهم قال الله لموسى انه سيجزى هذه الامة العاصية بعصيانها وانه لايمكن احدا من رجالها من عمره عشرون سنة فصاعدا ماعدا يوشع وكالب أن يدخل الارض الموعودة وأن يموتوا جميعا فى البرية ومن بعد أربعين سنة تدخل أولادهم فى الارض الموعود وراثتها لهم

ومن هذا اللوم والتعنيف اشتاق الاسرائيليون لسوقهم الى أرض كنعان وأخذهم الحنق

والانقباض

والانقباض الا أنه قضى الامر الالهى الذى لا غالب له وأصر القوم على عزمهم واجتهدوا فى أن يغتصبوا طريق سيرهم من معبر جبل كان محفوظا بكل من جيوش الكنعانيين والعمالقة فانذرهم موسى بعدم التوجه ووعظهم ودخلت الحمية فى رؤسهم فلم يلتفتوا لقوله فتقاعد عنهم ولم يصحبهم فصد الكنعانيون والعمالقة الاسرائيليين ووقعت بينهم واقعة دموية انهزم فيها الاسرائيليون مع تلفيات جسيمة وارتدوا على أدبارهم الى البرية

ولبث بنو اسرائيل مدة ثمان وثلاثين سنة رحالين نزالين هائمين على وجوههم ضالين فى الصحراء الواقعة فى شمال بجيث جزيرة سينا المسماة باسم وادى التيه أو تيه بنى اسرائيل وكان ضلالهم فى البرية الممتدة من قادش برنيع فى الجهة الشمالية الى رأس خليج عيلان أو خليج العقبة فى الجهة الجنوبية بحيث لا يحصل لهم أدنى تشويش ولا تكدير من أى القبائل المجاورة لهم وفى خلال هذه المدة مات رجال القوم من عشرين سنة فصاعدا وصارت الذرية التى تسلسلت منهم على غاية من التربية والتعود على الاتعاب والمشاق والحروب وصاروا أرباب شجاعة وتمسكوا فى أنفسهم بحرية النفس وصاروا نسلا أعلى وأعظم من النسل الذى أراد العود والرجوع الى رق العبودية المصرية مع أنه كان تجرع أنواع الغصص والآلام من هذه العبودية

وفى مبادى السنة الاربعين من سنى الخروج مات هارون أخو موسى ورئيس أحبار الملة وكان موته فى ناحية مصيرة فى جبل حور بعد أن بلغ من العمر مائة وثلاثا وعشرين سنة ودفن هنالك وكان جبل حور هو الحد الفاصل بين أرض الادوميين ذرية عيص فطلب موسى من الادوميين طريقا سالكا من وسط أراضيهم لعبور العشائر الاسرائيلية على شرط أن لا يقربوا من أملاك الاهالى وأن يدفع قيمة المياه اللازمة لاحتياجات قومه فلم يقبل الادوميون هذا الطلب وأمر الله سبحانه وتعالى موسى والعبرانيين بعدم الغارة على أقاربهم فشرعوا فى الرحيل الى الجهة الجنوبية حتى وصلوا الى رأس خليج عيلان أى خليج العقبة ولفوا حول سلسلة الجبال ورحلوا بالثانى الى الجهة الشمالية شرقى أرض أدوم فأخذ كنعانى عراد فى سد الطرق على بنى اسرائيل فهزمهم الاسرائيليون وسمح الادوميون بالعبور من وسط أرضهم من دون أن يقع لهم منهم أدنى ضرر وأمرهم الله سبحانه وتعالى بعدم الغارة على المؤابيين وبنى عمون الذين هم من ذرية لوط

ووصل العبرانيون فى رحيلهم الى نهر أرنون وهو نهر صغير يصب فى البحر الميت من جهة الشرقية وهو الحد الجنوبى لمملكة جديدة كان سيحون وهو رجل فارس مخاطر من بنى عمون تغلب عليها من بنى عمون والموآبيين ويبوق هو الحد الشمالى لهذه المملكة وأقام سيحون عاصمة مملكته فى حشبون فأرسل موسى رسولا الى سيحون يطلب منه طريقا خالصا من وسط أرضه لعبور بنى اسرائيل ووعده أن يحفظ قومه حال مرورهم فى الطريق العمومى ويدفع له قيمة كل ما يحتاجونه فلم يقبل سيحون منه هذا الطلب وسار مع العظمة والكبرياء فى رأس جيشه ليغير على الاسرائيليين فهزمه الاسرائيليون شر هزيمة وتغلبوا على عاصمته بالقوة والاقتدار واستحوذ العبرانيون على مملكته ثم ان عوجا الجبار ملك باشن وكانت أرضه ممتدة من جبل يبوق الى جبل حرمون وكان هو أيضا من شجعان بنى عمون نجح فى تغلبه على هذه المملكة خرج الى ميدان الحرب ليأخذ بثار سيحون فهزمه الاسرائيليون وقتلوه وتغلبوا على مملكته وبهذه النصرات صار الاسرائيليون أساتذة جميع البلاد الموجودة فى الجهة

الشرقية من نهر الاردن من ابتداء جبل حرمون الى البحر الميت

وعسكر جيش الاسرائيليين فى السهل الخصب تجاه مدينة أريحاء فتكدّر عيش بالاق ملك موآب من وجود ملة ذات شوكة معسكرة على حدود أرضه فعقد معاهدة ضدهم مع المديانيين ولما رأى بالاق من نفسه أن لا طاقة له على الهجوم على القادمين فى نواحى أرضه اجتهد فى كونه يحث بلعاما وهو رجل مشهور مجاب الدعوة فى بلاد بنى عمون بالدعاء على الاسرائيليين ولعنهم ووقوع الفناء بهم فقلب القادر سبحانه وتعالى لسان بلعام بالدعاء لبنى سرائيل وحصول البركة فيهم وأن ينبئ بالاق بما يحصل له من الغلبة فى المستقبل ولما خاب بالاق فى مشروعه هذا أخذ يفسد على الاسرائيليين دينهم ويحرضهم على أن يشتركوا مع قومه فى عبادة بعل وفيما هم عليه من الفجور والفساد فاستمروا فى فعلهم هذا حتى ان موسى التزم باعادة الاجراات والاوامر الشاقة الواجب بها منع هذا الفعل الشنيع وقتل جميع العبرانيين الذين ارتكبوا هذه الموبقات ووقع فى المعسكر طاعون هلك فيه نحو من ٢٤٠٠٠ نفس

وشرع موسى فى الغارة الثانية على المديانيين فهزم جيوشهم وأخذ أرضهم وغنم منهم غنائم جمة

وشرع موسى بعد ذلك كله فى عمل احصاء جديد فوجد أن عدد الرجال المحاربين فى العشيرة العبرانية نحو من ٦٠١٧٣٠ نفس

وبما أن الاراضى التى فتحت شرق نهر الاردن خصبة جدا وصالحة لاجتناء الثمرات المقصودة منها وحصل لكل من سبط روبين وسبط جاد ونصف سبط منشا الرغبة فيها سألوا الرخصة من موسى فى أن يعطيهم هذه الاراضى نظير ما يرثونه حيث انهم أكثر أنعاما ومواشى فعنفهم موسى على هذا الطلب وقال لهم لم تتسببون فى بذر بذور الامة وانفصالها من بعضها ومن حصول مكالمات سلم لهم فى هذه الاراضى على شرط أن يوطنوا فى هذا الوطن الجديد عائلاتهم ومواشيهم وأن تعبر محاربو رجالهم نهر الاردن مع الاسباط الاخر ليساعدوهم على فتح الارض الموعودة فأعطى سبط روبين القسم الجنوبى من الارض الكائنة شرق الاردن من ابتداء نهر آرنون الى حد جبل جلعاد وأعطى سبط جاد الاراضى الكائنة فى شمال هذا القسم الداخل فيها جبل جلعاد الى نهاية الجهة الجنوبية من بحر شيتروث أو بحر غليلى وأعطى نصف سبط منشا الاراضى الكائنة فى شمال جاد الى حد جبل حرمون وتعاهد السبطان ونصف مع اخوانهم وعقدوا معاهدة ذمتية بينهم على كونهم يؤدّون معهم خدمات عظيمة بشأن فتح الاراضى الواقعة فى الجهة الغربية من نهر الاردن

ومن ابتداء هذا الوقت تم عمل موسى حيث جلب بنى اسرائيل الى حدود الارض الموعودة فى محل يمكنهم الدخول فيها منه بسهولة وأنذره الله تعالى باقتراب أجله فجمع موسى قومه على مسمع منهم وأسمعهم الشريعة التى أنزلت عليه ودعا لهم بالبركة والخير وأنبأهم بحوادث مستقبلهم واستخلف عليهم يوشع بن نون من بعده ونصح القوم على أن يكونوا على وثوق تام مع الله سبحانه وتعالى فان ذلك من أهم الامور فى سعادة الامة العبرانية فقابله القوم على ذلك بما هو أهله من الثناء والاجلال ثم توجه بأمر الله تعالى الى جبل دبتو وعلى هذا الجبل أراه الله تعالى جميع الارض التى ستكون وطنا للعبرانيين

ومات عبد الله موسى فى أرض موآب حسبما وعده الله بذلك ودفن فى وادى أرض موآب تجاه بيت فعود ولم يعرف أحد من الناس قبره الى يومنا هذا وعاش موسى مائة وعشرين سنة لم يكل بصره ولم تنقص قوته ولبث بنو اسرائيل ينعون موت قائدهم الاكبر مدة ثلاثين يوما

الباب الثالث

فتح كنعان والقضاة

استخلاف يوشع بعد موسى ـ عبور نهر الاردن ـ احتلال الارض الموعودة فى زمن الفتح ـ وصف فلسطين ـ التغلب على مدينة أريحا وعاى وشكيم ـ هزيمة الخمس ملوك الكنعانيين ـ تقسيم أرض كنعان بين الاسباط ـ موت يوشع ـ المضار التى وقعت عقب موته ـ مدة الحكم الفوضوى القضاة ـ وصف وظيفة القضاة ـ مشروعات ـ هزيمة باراق سيسرا ـ نصرة جدعون ـ عالى الحبر الاعظم ـ خباثة أولاده ـ مولد شمسون ـ مشروعاته وموته ـ مولد صاموئيل ـ دعوته لوظيفة النبوة ـ هزيمة بنى اسرائيل بواسطة الفلسطينيين ـ التغلب على التابوت ـ موت عالى ـ صيرورة صموئيل قاضى بنى اسرائيل ـ سلطنته ـ طلب بنى اسرائيل ملكا لانفسهم ـ انذارات صموئيل ـ انتخاب طالوت ملكا على بنى اسرائيل

وكان ختام الثلاثين يوما نعيا على موت موسى عليه السلام هو بوجه الدقة تمام الاربعين سنة من ابتداء خروج وسفر بنى اسرائيل من مصر ثم ان الاسرائيليين فكوا خيام معسكرهم من سهول موآب وساروا الى ناحية الاردن تحت قيادة يوشع بن نون وكان الاحبار فى رأس القول حاملين لتابوت العهد وكان نهر الاردن فى أعلى زيادة مياهه وغير ممكن لجيش بنى اسرائيل خوضه ولما نزل الاحبار فى النهر حاملين للتابوت المقدس انقسمت المياه بقدرة الهية كما انقسمت فى البحر الاحمر وانفتحت لهم طريق واسعة فعبر الجيش منها الى الجهة الغربية من النهر ودخل الجيش فلسطين فى ابريل سنة ١٤٥١ قبل الميلاد وعسكر بنو اسرائيل فى تلك الليلة فى الجلجال على سهول مدينة أريحاء وهنا انقطع نزول المن عليهم ومن هذا الوقت صارت معيشة القوم من محصولات الاراضى التى جاؤا لفتحها ووراثتها

ومن الموافق الآن أن نذكر نبذة فيما يختص بوصف الامة التى توجهت اليهم جيوش العبرانيين وذلك أنه فى زمن النبوة كانت الارض الموعودة مسكونة بعدة قبائل من أصول الكنعانيين وهم ذرية كنعان الابن الرابع لحام بن نوح وان لفظة كنعانى معناها فى الحقيقة الخفض أو السفل وكانت تستعمل أحيانا المعنى خاص بقبيلة ساكنة فى قطعة تما من أرض فلسطين لكنهم أطلقوا معناها العام على جميع سكان الارض المقدسة ويدخل فى هؤلاء السكان سبعة أمم مختلفة هى

أولا ـ الكنعانيون وهم سكان الاراضى المنخفضة القاطنون على السهول الكائنة على الاردن الاسفل وهذه السهول أخصب الاراضى وأجلها

ثانيا ـ هؤلاء يظهر أنهم من بعد الكنعانيين فى عظم العشيرة ومحلهم فى القسم الجنوبى من الارض الموعودة

ثالثا ـ الحيثيون أولاد حيث وهم قبيلة صغيرة فى حبرون ومنهم اشترى ابراهيم عليه السلام غار المكفيلة

رابعا ـ الاموديون وهم عشيرة أصلية احتلت فى الابتداء التخوم العالية الغربية من البحر الميت وفى هذا المحل أطلق على هذه العشيرة اسم غنجيدى ثم انتقلوا الى الجهة الغربية من ناحية حبرون

وفى زمن الفتح عبروا الاردن وسكنوا القسم الخصب المحدود من جهة الشمال بنهر يبوق ومن جهة الجنوب بنهر أرنون ومن جهة الغرب بنهر الاردن ومن جهة الشرق بالبرية

خامسا ـ الحويون وكانوا قاطنين فى زمن رجوع يعقوب الى الارض الموعودة فى نواحى شكيم وفى زمن الفتح استوطنوا الحدود الشمالية لفلسطين الجنوبية

سادسا ـ اليبوسيون وهم قبيلة صغيرة كانوا متوطنين فى نواحى يبوس أى أورشليم واستمروا قاطنين مع أولاد يهوذا و بنيامين مدة طويلة من الزمن

سابعا ـ الجرجاشيون وهم الذين مساكنهم اندثرت وانقرضوا بالكلية حتى صارت مواطنهم غير معروفة أبدا

وفى أثناء لبث الاسرائيليين بمصر حصل عدة تغييرات خطيرة فى طبائع وعوائد سكان أهل فلسطين وفى محلات مساكنهم وثبوتهم أيضا وذلك أن الامة الساحلية فى فينيقية الواقعة مباشرة فى شمال فلسطين شبت ونمت بسرعة زائدة مع الهدو والسكون وصارت أمة ذات خبرة و بصارة وثروة فى عالم الدنيا القديم وما كانت فينيقية بلغت ذروة أوج فلاحها ونجاحها وشوكتها فى زمن فتح الاسرائيليين فلسطين وما كانت وصلت لهذه الدرجة الحسنة ١٠٥٠ قبل الميلاد وفى زمن دخول بنى اسرائيل فلسطين أحكم الفينيقيون أراضيهم الواقعة فى طول الساحل الشمالى من البحر الابيض المتوسط بقوة قوية اذ كانت أراضيهم داخلة فى حدود الارض الموروثة للاسباط وحفظوها بطرق تحفظية جيدة من الذين جاؤا اليها وكان ساحل البحر الابيض المتوسط من الارض الموعودة الاصلية الموجود فى الجهة الجنوبية من فلسطين مسكونا بالفلسطينيين وهم قوم ذوو شوكة ومهارة فى الحرب مختلفون فى الاحكام والقوانين و بعض الناس نسبهم فقال انهم من ذرية حام والبعض الآخر قال انهم من ذرية سام والاصح أنهم من ذرية حام وقال الذين نسبوهم الى ذرية حام انهم جاؤا فلسطين من مصر وقال الذين نسبوهم الى ذرية سام انهم جاؤا فلسطين من جزيرة كريد والمعول عليه أنهم دخلوا كنعان قبل أيام ابراهيم عليه السلام وفى مدة اقامته فى أرض كنعان كانوا قبيلة رعاة فى ضواحى جرار وفى زمن النبوة وزمن اقامة بنى اسرائيل فى مصر ترك الفلسطينيون عادة معيشتهم الرعوية الرحالة النزالة وأقاموا أنفسهم مقام أمة ذات شوكة قوية واستوطنوا السهل الخصب المحدود بساحل البحر وسموه باسم فلسطية فكانت المحصولات العظيمة المستخرجة من هذا السهل الخصب هى سر ثروتهم وفلاحهم وفى مدة الفاقة والقحط كانت ترجع اليهم جميع الامم المجاورة لهم فى طلب الغذاء والطعام ويأخذون منهم ما كان يلزم لهم وكانت الاراضى الواطية التى استوطنوها صالحة لتقدمهم فى الشوكة العسكرية والحركات الحربية اذ بواسطة هذه الاراضى وسهولتها كان لهم قدرة كافية على تحريك عساكرهم بسهولة وحركة سريعة وكانت هذه الاراضى أيضا صالحة لحركات وسير عربات الحرب أى الطوبجية القديمة وكانوا بها على قوة تحفظية عظيمة على الدوام ومن المعتمد أيضا انهم كانوا مستعدين على عمارة بحرية لان مؤرخى التاريخ البشرى يذكرونهم فى تواريخهم دائما فى الوقائع البحرية والغزوات الساحلية وكانت مدينتا غزة وعسقلان هما المينتان البحريتان لهذه الامة وشيد الفلسطينيون فى السهول مدائن عديدة جيدة الاستحكام وكذا شيدوا حسب ما هتف بخواطرهم محطات ومراكز

تجارية

تجارية ومعاقل حربية

وبهذه المثابة كانت حالة الامتين الشامختين القاطنتين فى فلسطين فى زمن الفتح بالاسرائيليين فكان الفينيقيون فى الجهة الشمالية والفلسطينيون فى الجهة الجنوبية ومن الموافق أن نذكر هنا أن الارض الموعودة ممتدة من صحراء العرب الى البحر الابيض المتوسط ومن صحراء سينا الى مدخل حماة وأن القسم الشمالى منها أوفينيقية لم تستوطنه الاسرائيليون مطلقا وكان سهل فلسطين ميدانا للنزاع والشقاق والحروب المستمرة وما كان استحواذ الاسرائيليين عليه بحالة تحفظية سلمية بل كانت الارض التى استحوذوا عليها ممتدة من ذين فقط فى الجهة الشمالية الى أرض السبع فى الجهة الجنوبية ـ وأما بالنظر الى الارض نفسها فكانت مقسومة الى عدة أراض مشهورة غير متناسبة السعة بالنسبة لاهميتها فى التاريخ فأما أرض فلسطين فكانت أقل الاراضى فى السعة ونهاية طولها من الشمال الى الجنوب ١٨٠ ميلا وعرضها نحو من خمسة وأربعين ميلا فتكون مساحة أرضها نحو من ثمانية آلاف ميل وهى واقعة بين ٤٠َ ٣٠ْ و ٢٦َ ٣٣ْ من العرض الشمالى وبين ٤٥َ ٣٣ْ و ٤٨َ ٣٥ْ من الطول الشرقى ومحدودة من جهة الشمال بسوريا ومن جهة الشرق بنهر الاردن والارض المعروفة بارض حوران ومن جهة الجنوب بصحراء التيه ومن جهة الغرب بالبحر الابيض المتوسط وهى واقعة فى آسيا الغربية وفى شمال مصر وفى جهة الشرق وجهة الشمال من صحارى بلاد العرب ـ وهى فى الحقيقة عبارة عن أراضى جبلية لا يوجد بها سلاسل جبال أصلية بل تمتاز عن الاراضى الاخر بعلو جبالها وعظمها ويوجد فى كل جهة من الاراضى العالية تموجات كثيرة أو قليلة فالكور الجبلية تشغل وسط الارض وهى محدودة على كل من جهتيها الشرقية والغربية باراض منحطة ممتدة من ذيل الارض العالية الى حدود فلسطين ففى الجهة الغربية تنبسط هذه الاراضى المنخفضة ويحدث عنها سهلان عظيمان هما سهل فلسطين وسهل شارونه يمتدان من ذيل الجبال الى ساحل البحر وأما من الجهة الشرقية فان الجبال محدودة بالمهابط والانخفاضات الوعرة لوادى نهر الاردن وهذه متصلة أيضا بالمهابط العميقة للبحر الميت وأرض الغور وان هذه المهابط المشكل عنها حواجز قوية وخيران وأخاديد عميقة تجرى فيها تيارات مائية منحدرة من هذه الجبال تستعمل وصلة أيضا بين موازنة الارض العالية والارض المنحطة وهذه الثلاث هيآت وهى الجبال والسهول ومجارى المياه هى الهيئة الاصلية الطبيعية الموصوفة بها الارض المقدسة

وينقطع السهل على مسافة أقل من نصف المسافة الى البحر انقطاعا فجائيا بفرع سلسلة جبلية يخرج من الجبال الوسطية ويسير الى الجهة الشمالية الغربية للبحر وينتهى بالرأس الكبير المسمى برأس جبل الكرمل ويطلق على هذا الفرع اسم جبل الكرمل ثم يبتدئ السهل فى الجهة الشمالية من جبل الكرمل مرة ثانية ويفصل الجبال عن بعضها ويسير عابرا من فلسطين حتى يصل وادى الاردن وهذا هو سهل إِسْدرُلُون أو عَسْدرُلون أو سهل يَزْرَعِيل أو الميدان الاكبر لما حصل من الوقائع فى فلسطين ثم تتقابل الجبال فى شمال هذا السهل مرة أخرى أولا فى التلال الواطية لوادى غليلى ثم تأخذ فى العلو حتى تصل الى كل من جبال حرمون ولبنان ثم تتجه الى البحر وتنتهى بالرأس الابيض أو رأس نخوره وفى شمال هذا الرأس توجد فينيقيه القديمة

ويوجد للوادى الجبلى هيئة علو منتظمة فى طول سيره والمقدار المتوسط لهذا العلو يختلف من ١٥٠٠ قدم الى ١٨٠٠ قدم فوق موازنة سطح البحر الابيض المتوسط وعلى حسب هيئة هذا العلو يشكل هضبة صعبة جدا لا يمكن أحدا من الناس وصفها حتى ان الاراضى السهلة الموجودة بين التلال وكثرة وجود التلال الجبلية الموجودة خلاف بعضها او بين بعضها تظهر للناظر من ساحل البحر أو من السهل الساحلى الغربى كأنها سور تام ومع هذا فان المنظر الذى لا تتغير حالته يمزق على مسافات بارتفاعات عظيمة تشكل هيآت عالية على امتداد البصر وان منابع مياه هذه الاراضى واقعة بين هذه النقط المرتفعة وان مجارى تيارات المياه الكثيرة العدد تجرى فى الجهة الشرقية الى وادى الاردن وفى الجهة الغربية الى البحر الابيض المتوسط وأن الوديان الشرقية هى مهابط وعرة جدا وعلى الخصوص الوديان الموجودة فى الجهة الجنوبية وفى النواحى المتوسطة من الاراضى غير أن الوديان الموجودة على السفوح الغربية آخذة فى الانحدار على التدريج وذلك ناشئ من أن موازنة السهل الساحلى أعلى من موازنة وادى الاردن وقلة الهبوط والانحطاط بسبب طول بعد المسافة الواقعة بين الجبال والبحر زيادة عما بين الجبال والاردن وكما يوجد فى الجهة الشرقية كذلك يوجد فى الجهة الغربية فان الوديان فى كل من الجهتين تشكل طرق المواصلات بين الجبال والسهول وأن جميع المسالك والمعابر من ابتداء التخوم الى داخل الارض واقعة فى طول هذه الوديان وهذه المعابر والمسالك الجبلية على ماهى عليه الآن جاعلة لفلسطين هيئة خاصة بها فانه فى الازمان القديمة كانت لها أهمية عظيمة فى كونها كانت صعبة المرور والعبور وكان يتشكل منها موانع وعوائق لقوة جيش ما سائر بحملته وعرباته فان المعابر الغربية ولو كانت أسهل من معابر الحدود الشرقية الا انها لم تزل صعبة ولا يسهل لعدو اجراء الاشغال اللازمة التى يتيسر له الحصول منها على الدخول فى أرض الاسرائيليين ولما أحكم الاسرائيليون منعة جبالهم وحصونها صاروا فى أحسن راحة وأجودها لا يكدرهم ارتياب أمة أخرى ولا يزعجهم هجوم أحد وقتما كانت مدائن السهل الكائنة أسفل منهم جاريا التغلب عليها أو استردادها بالقوى المتحاربة من مصر وآسيا ولما كان سهل اسدرلون أو عصدرلون ميدانا عظيما لحروبات ووقائع جارية فى فلسطين كانت الجبال خالية بالكلية من هذه الحروب

ويشكل نهر الاردن الحد الشرقى للارض الموعودة وهو أحد الانهار المشهورة فى عالم الدنيا ويأخذ منبعه من سفوح ومهابط جبل حرمون ويجرى فى مهبط كبير يعرف بوادى الاردن ويمر من بحيرة حوليج ومن بركة طبرية أو بحر غليلى ويصب فى البحر الميت وعلو منبعه عن سطح البحر الابيض المتوسط نصف قدم وفمه منحط عن سطح هذا البحر بقدر ١٣١٧ قدما فيكون الانحدار الكلى للنهر ٣٠١٧ قدما وطوله ٢٠٠ ميل واذا كانت مسافة القياس على خط مستقيم كان طوله ٦٠ ميلا وهو نهر غير قابل للملاحة وكان يجرى عبوره فى الازمان القديمة بواسطة مخاضات كائنة فيه ولم تنشأ عليه قناطر للعبور الا فى زمن الفتوحات الرومانية وما كان يوجد على شاطئيه مدائن ولا قرى وأما مدينة أريحاء والمدائن الاخر فكانت على مسافة بعيدة من شاطئيه الى جهة الداخل فى الاراضى

وكان أول شغل واقع على أكتاف بنى اسرائيل بعد دخولهم أرض فلسطين هو فتح مدينة أريحاء الحصينة والتغلب عليها وكانت هذه المدينة واقعة مباشرة تجاه محل عبورهم من النهر ومطلة على وادى الاردن وبما أن الاسرائيليين ما كان لهم دراية ولا خبرة بطرق وضع الحصار على المدينة تجلى الله

سبحانه وتعالى لمساعدتهم وسقطت أسوار المدينة بآية من عند الله ودخل بنو اسرائيل هاجمين فوق أطلال استحكامات المدينة ووضعوا في أهلها السيف وخربوا المدينة ولم ينج من المذبحة العمومية الا عائلة واحدة فقط وهي عائلة راحاب لانها كانت قابلت الجواسيس الذين كان أرسلهم يوشع الى المدينة قبل التغلب عليها أعظم مقابلة ودية وأغدقت عليهم بالاكرام والكتمان فوعدوها بالامان هي وأهل بيتها وتزوجت باحد الجواسيس وصارت جدة داود ولما تقدم يوشع في وادي الاردن سار الى جهة شماله وتغلب على مدينة عاي المدينة القريبة من بيت أون أو بيت إيل وكان تغلبه عليها بالخداع والحيلة ثم سار من هذه المدينة على عجل الى شكيم وتغلب عليها بغير طعن ولا ضرب وغرس نفسه في قلب أرض فلسطين

ثم انكشف عن الكنعانيين ما كان بهم من الهول والروع والاستغراب الذي رماهم به سرعة نجاح حركات بني اسرائيل وعقدوا اتحادا عاما ضد هؤلاء الذين جاؤا لفتح بلادهم فهزم يوشع القوى المتحدة لملوك الكنعانيين ومزقهم كل ممزق في واقعة عظيمة حصلت في نواحي بيت أون وروى ان هذا اليوم استطالت مدته بآية من عند الله حتى انتهز الاسرائيليون فرصة تمام نصرتهم وأسر يوشع الخمس ملوك حكام الامم الكنعانية وحبسهم ثم صلبهم وأعقب هذه النصرة تغلب بني اسرائيل على مدائن مقيدة وليتنه ولخيش وعجلون وحبرون ودبير وقتلوا سكان هذه المدائن وبواسطة هذه الظفرات العظيمة صار بنو اسرائيل أساتذة فلسطين الجنوبية

ثم عقد الكنعانيون اتحادا ثانيا ضد الاسرائيليين اجتمع فيه جميع قبائل فلسطين الشمالية وكان قائدهم يابين ملك حاصور فمزق يوشع تلك القوى وشتت شملها على شواطئ بحيرة ميدوم وهي الآن بركة حوليح وأسر يوشع يابين وقتله ووقعت جملة مدائن من فلسطين الشمالية في أيدي الاسرائيليين فقتلوا أهاليها ونهبوا ما فيها ثم هجموا الى عتكيم من فلسطين الجنوبية ودمروها وفي ظرف ست سنوات أو سبعة تغلب بنو اسرائيل بواسطة هذه الفتوحات على الارض الموعودة وصاروا أساتذتها وذلك من ابتداء ذيل جبل حرمون الى تخوم أدوم الا أنه مازال في أيدي الكنعانيين مدائن حصينة ومعاقل رصينة في وسط هذه الارض التي تغلب عليها العبرانيون وضبط الفلسطينيون ساحل البحر الابيض وما حصل في فينيقيه ارتباك ولا تكدير لحد هذا الوقت

ولما كبر يوشع وصار طاعنا في السن عزم على توقيف غاراته وتغلباته وأن يجعل ما بقي من شيء عمره في تشييد قومه وتوطيدهم في الاراضي التي تغلبوا عليها فأمر بتقسيم الارض الموعودة بالقرعة بين التسعة أسباط ونصف لان السبطين ونصفا أخذوا نصيبهم في شرقي نهر الاردن من موسى عليه السلام وأنه لم يكن للاويين أرض تخصصت لهم وأن خروجهم من عدد الاسباط هو السبب اختصاصهم بخدمة الله سبحانه وتعالى فكان خروجهم من الاسباط سببا في تقسيم سبط يوسف الى سبطين هما سبط افرايم وسبط منشا وبهذه الطريقة تقسمت الارض بين الاسباط ودخل فيها كثير من الجهات والمحلات المسكونة بالكنعانيين والفلسطينيين وترك يوشع لكل سبط الاعمال اللازمة لخضوع الجهات الداخلة في حدود قسمه الى الطاعة والانقياد

فأخذ سبط يهوذا الارض الجنوبية التي حدها الجنوبي يحف أرض الادوميين والصحراء وحدها الشمالي خط مرسوم من فم نهر الاردن متجه نحو الغرب الى البحر ويمر هذا الخط بالجهة الجنوبية

لاورشليم (بيت المقدس) فصارت أورشليم داخلة فى أرض بنيامين والحد الشرقى نهر الاردن والحد الغربى البحر الابيض المتوسط ودخل فى هذا القسم جزء شاسع من سهل فلسطين وأخذ أولاد يوسف القطعة الكائنة فى وسط الارض من نهر الاردن الى البحر الابيض المتوسط فأخذ افرايم من هذه الناحية الجزء الجنوبى وكان حده الجنوبى مرسوما من الاردن فى طول الجهة الشمالية لسهل أريحا الى حديث ايل ودخل فيه حزام متجها جنوبيا الى بيت حورون ومن هذه النقطة سار الخط ثانيا الى أن وصل الى البحر بالقرب من يافا ومر الحد الشمالى مغربا من الاردن تجاه مصب فم نهر يبولئ ومارا بالمكفيلة الى فم نهر قانه ويشتمل على وادى شكيم المقدس والسهل الساحلى لشارونة وأخذ نصف سبط منشا الكورة الواقعة فى شمال افرايم لحد سلسلة جبل الكرمل وسهل يزرعيل من الاردن الى البحر وأخذ بنيامين الكورة الجبلية الكائنة فى شمال يهوذا وفى جنوب افرايم من الاردن الى غربى أورشليم وأخذ دان الكورة الكائنة بين افرايم من جهة الشمال ويهوذا من جهة الجنوب وبنيامين من جهة الشرق والبحر الابيض المتوسط من جهة الغرب وهذه الكورة كانت مسكونة وحدها بالفلسطينيين فمن أجل هذا السبب وكذا من كون أراضيهم كانت قليلة جدا عليهم رحل قسم من سبط دان الى الجهة الشمالية وتغلب على مدينة لشم فى نواحى منابع الاردن وسموها مدينة دان واستحوذوا على أراض شاسعة مجاورة لها وصارت هى الحد الاكبر الشمالى للارض الموعودة وبما أن أرض بئر السبع كانت هى الحد الجنوبى لها صارت جملة الارض من دان الى بئر السبع هى القطعة المستعملة فى العادة لوصف جميع امتداد الارض الموعودة من الشمال الى الجنوب وأخذ سبط شمعون أرضا موروثة خارج أرض يهوذا ولكن هذا السبط القسم الجنوبى الغربى من ساحل البحر المحدود بالصحراء من بئر السبع الى غزة ويمتد ساحله البحرى الى شمال عسقلان وأخذ يساكر وادى يزرعيل الكبير الجيد الخصوبة ويسمونه أحيانا وادى عصدرلون وأخذ زبولون السلسلة الجبلية المحدودة لسهل عصدرلون من الجهة الشمالية وشكلت فى الازمان الاخيرة القسم العلوى من غليلى الواطية وأخذ أيضا حزام ضيق على ساحل البحر فى شمال جبل الكرمل داخلا فى حده الشرقى بحر غليلى وأخذ أشير السهل الموجود فى طول ساحل البحر الابيض المتوسط فى شمال جبل الكرمل الى نحو الجهة الشمالية داخلا فيه قسم كبير من فينيقيه ولم يحصل من بنى اسرائيل عزم ولا اجتهاد أبدا فى التغلب على القسم الفينيقى ضمن الارض الموروثة لهم فكان الحد الشمالى لأشير فى الحقيقة الحد الفينيقى من جنوب مدينة صور وكانت أرض أشير ممتدة نحو الشرق قاطعة أرض فلسطين على نصف مسافتها وأخذ نفتالى الارض الكائنة فى شمال زبولون الى جبل حرمون بين الاردن وملك أشير

وأما السبطان ونصف الموجودة أراضيهم فى الجهة الشرقية من نهر الاردن فانهم تنازلوا عما يخصهم من هذه الغنائم وعادوا مع الشكر والثناء الى أرضهم خلف الاردن

ولما أحس يوشع باقتراب أجله جمع عموم نواب الامة العبرانية وكبارها فى مدينة شكيم ومن بعد أن أسمعهم ما أسبغ الله سبحانه وتعالى عليهم من النعم التى أفاضها عليهم حثهم وحرضهم على أن يكونوا متمسكين على الدوام بطاعة الله ومحافظين على عبادته وعلى شريعة موسى عليه السلام وأن يستمروا فى اجراء الحروب على الكنعانيين حتى يطردوهم من كل الارض الموعودة لانه تولد من ارتكاب

الكنعانيين الجرائم واعتكافهم على الفواحش والآثام أن القادر سبحانه وتعالى دمرهم بذنوبهم وجعل لهذا الامر بنى اسرائيل على الخصوص فذكرهم يوشع بهذا الذكر وأنبأهم أيضا بما سيحصل من المصائب لقومه لو تركوا دينهم أو نسوا ما يلزم اجراؤه ضد الكنعانيين أو خالطوهم فعهد القوم الى يوشع بالثبات والطاعة والتمسك بعبادة ربهم وجددوا ميثاقهم وعهدهم معه سبحانه وتعالى وبعد هذا قام يوشع من محل الجمعية وعمل أثرا من الاحجار وجعله شاهدا على ما أنذره القوم من عهد مستقبلهم ومات يوشع بعد ذلك بقليل بعد أن بلغ من العمر مائة وسبعا وعشرين سنة وحكم في بنى اسرائيل خمسا وعشرين سنة ونعت الامة موته وحزنوا عليه حزنا شديدا

ومن سوء حظ بنى اسرائيل أن يوشع لم يجعل خليفة من بعده عليهم وترك القوم بغير رئيس ففي المدة التى كان فيها الشيوخ المعاصرون ليوشع على قيد الحياة تمسك القوم وقارالهم بالقوانين الشرعية المنزلة عليهم وعبدوا الله حق عبادته ولما انقرض هؤلاء الشيوخ ابتدأ الانفصال والشقاق يزحف بين الاسباط ويبعدهم عن بعضهم ولم يحصل منهم أدنى سعى ولا التفات فيما يختص بفتح المدائن الباقية فى أيدى الكنعانيين وابتدأ الاسباط الموجودون فى الجهات الشمالية أن يظهروا المحالفة الجنسية وعقدوا معاهدات بشروط قوية على قدر ما أمكنهم مع الكنعانيين القاطنين بينهم وكذا ضعفت مساعى الاسرائيليين عن فتح أراضى الفلسطينيين واستمرت المدائن الساحلية باقية فى حوزة الملة الفلسطينية الحربية وصار هذا الاستحواذ عند الاسرائيليين والفلسطينيين حكما قانونيا ونشأ من تداخل الاسرائيليين مع الكنعانيين نتائج تولد منها الفساد والضرر على العبرانيين وكان المركز الاكبر الديانى للعبرانيين فى مدينة شيلوه ومنصوبا فيها الخيمة المقدسة وبها التابوت وأخذ بنو اسرائيل فى ترك تقريب القربان لله سبحانه وتعالى وتركوا عبادته وفشت فى القوم العبادة الوثنية الكنعانية ودخل بين الاسباط البغضاء والعداوة وأدى ذلك الى حروب وقعت بينهم حتى صار سبط بنيامين على شرف الدمار والهلاك مما حصل له من الاسباط الاخر وصارت حالة بنى اسرائيل موصوفة بهذه الالفاظ * لا يوجد الآن ملك فى بنى اسرائيل * وكل يفعل ما يراه صوابا أو يختاره لنفسه * وبهذا صار لا يوجد حكومة سياسية ولا ادارة داخلية تنفذ أحكامها على هؤلاء الاسباط ومع كون الله سبحانه وتعالى هو المالك لهم حسب القاعدة الاساسية لطريقة شرع بنى اسرائيل الا أن الديانة الوثنية أخذت حدها فى الانتشار وعلا مجدها فى الاقطار حتى ان العهود التى عهدها العبرانيون لمالكهم صارت نسيا منسيا وتركت فى زوايا الاهمال بالكلية وتولد من ذلك الشقاق والضعف بين العبرانيين فلما رأى الكنعانيون والفلسطينيون هذا اهتموا مع العجلة فى أن يأخذوا بثارهم وينتقموا من الاسرائيليين نظير ما جلبوه عليهم من الدمار والخراب ويلزموهم بالطاعة والانقياد لهم وسلط الله سبحانه وتعالى على بنى اسرائيل شوكة أعدائهم فظلموهم وعذبوهم وبهذا قضى عليهم العدل الالهى لانهم صاروا خاطئين ولما وقع العذاب الاكبر والجور الاحجر على بنى اسرائيل استيقظوا وأحسوا بما هم عليه من الجرائم والآثام تابوا من ذنوبهم وتضرعوا بالبكاء والتحبب الى ربهم وطلبوا منه مساعدتهم فسمع دعاءهم وجعل خلاصهم على يد أشخاص ذوى قوة منهم فتكوا بظالميهم وأقاموهم فى حالة استقلالية ثانيا وبمجرد كشف العذاب والاهوال عن بنى اسرائيل رجعوا الى غيهم وطغيانهم وعكفوا على العبادة الوثنية التى نجوا منها بواسطة تضرعات وخضوع جديد الى الله تعالى

وكان يطلق على الاشخاص الذين خلصوا بنى اسرائيل من أعدائهم بأمر الله تعالى اسم القضاة وبعد مايخلصون الامة من أعدائها او يقيمون بنيانها يصيرون حكاما عليها ويجرون طرائق أحكامهم بواسطة الهام أووحي من عند الله سبحانه وتعالى حسبما يشاء ويختار فقادوا الجيوش الى المحاربات والوقائع وأدوا واجبات الاعمال العمومية مع الامن واستتباب الراحة وما كان موقع القاضى أو مركزه كموقع ملك من الملوك ولا شوكته كشوكته بل كان منصبه سامى القدر قليلا عن عموم الامة ولا كانت وظيفته وراثية بل كان يجرى تعيين القاضى الواحد بوحى أو الهام من الله سبحانه وتعالى اما لنفسه أولآخرين وكانت اجراآت أحكامه متعلقة برضا الامة وما كانت سلطته عامة على سائر بنى اسرائيل واذا حصل تعيين القاضى مرة أقام فى وظيفته مدة حياته وكان لايختار ولا ينتخب خليفته مباشرة من بعد موته بل كانت تمضى مدة طويلة أو قصيرة حتى يتعين من عند الله وتكون الامة فى هذه المدة بغير حاكم أو تكون رعية خاضعة لواحد من المتغلبين عليها والذين تولوا حكم بنى اسرائيل خمسة عشر قاضيا استمر فيهم حكم القضاء عدة قرون غير أن أحوالهم التاريخية وأحكامهم السياسية غير محققة ولا معلومة والحوادث التاريخية والوقائع الداخلية التى حصلت فى تلك الاحقاب لا يمكن الحصول عليها ولا الاعتماد على ماهو مذكور فى شأنها

وفى زمن حياة النسل الذى جاء عقب الفتح مد ملك من ملوك ميزوبوتاميه الغربية اسمه (كوشان اشعتايم) مملكته من ابتداء نهر الفرات الى حدود أرض كنعان وأخضع بنى اسرائيل حتى صاروا رعية له ودفعوا له الخراج عن يدوهم صاغرون وامتد حكمه عليهم مدة ثمان سنوات وكلفهم فى هذه المدة مالا يطيقون من الاعمال وأذاقهم وبال الجور وعسف فيهم وعذبهم حتى أرسل الله فيهم عُتنئيل ابن أخى كالب الذى كان فى عصر موسى ويوشع فهزم عتنئيل المتغلبين وأخرجهم من ديار قومه وأعاد استقلالية أهل بلاده ومكثوا على ذلك أربعين سنة لايشوبهم فيها كدر ولا يمسهم فيها تنغيص

وفى آخر هذه المدة عقد (عجلون) ملك موآب معاهدة مع بنى عمون والعمالقة وعبر الاردن وهزم بنى اسرائيل وأقام سلطنة نفسه بالقرب من مركز مدينة أريحا القديمة واستعبد الاسرائيليين مدة ثمان وعشرين سنة وفى آخر هذه المدة نجم (أهوذ) من سبط بنيامين فى قتله عجلون وقت ما كان يقدم له الخراج المطلوب من سبطه ومن بعد أن قتله هرب ونجا بنفسه وجمع بنى اسرائيل وهزم الموابيين وطردهم خلف نهر الاردن بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة نحو من ١٠٠٠٠ نفس ومن هذه النصرة حصل لاحزاب فلسطين فترة فى الحروب مقدارها أربع وعشرون سنة غير أن هذه الفترة ما كانت عامة فى جميع بلاد بنى اسرائيل

وان (شمجر بن عناة) وهو ثالث قضاة بنى اسرائيل سار فى رأس شرذمة من الشغالة متسلحين بآلات من آلات الزراعة وهزم قوة من الفلسطينيين وقتل منهم بيده نحو من ٦٠٠ نفس بمهاميز يقال لها مهاميز البقر

ومن بعد موت أهوذ عكف بنو اسرائيل على المعاصى فسلط الله عليهم (يابين) الكنعانى ملك حاصور وهو من نسل الملك الذى هزمه يوشع وكان مثل جده رأس اتحاد كبير فى فلسطين الشمالية وكان فى جيشه ٩٠٠ عربة حربية من الحديد والمناجل تحت قيادة واحد من شجعانه اسمه (سيسرا) فتغلب على شمال فلسطين وأخضع هذه الجهة وأدخلها فى رق العبودية واستمر بنو اسرائيل فى الرق

والعبودية

والعبودية نحوا من عشرين سنة
ولما ضجرت (دبوره) من ظلم قومها وكانت امرأة ملهمة تدبر أمور بني اسرائيل في هذا الوقت بالعدل والانصاف وكان محلها تحت أيكة نخل بين الرامة وبيت إيل في جبل افرايم دعت (باراق) بن أبي نوعم من نواحي قادش في نفتالي ليكون رأسا في خلاص الامة من رق العبودية وبشرته بنصر الله له على الاعداء فأجاب باراق دعوتها بعد أن عقد معها موثقا أن تصحبه في حربه وأخبرته أنه لا ينال فخرا ولا شرفا في هذه الواقعة لان الله سبحانه وتعالى سيهلك سيسرا على يد امرأة تقتله فجمع باراق القوى من نفتالي وزبولون ويساكر مع رجال قليلين من افرايم ومنشا وبنيامين وكان جميع ما جمعه نحوا من ١٠٠٠٠ نفس واتخذ موقعه في جبل طابور وسار في الحال سيسرا لملاقاته في جيش يابين فهجم باراق على شواطئ نهر قيشون وساعده الله بآية من عنده وذلك أن النهر فاض وأهلك قسما من جيش الكنعانيين وشتت شملهم بخسارات جسيمة وهرب سيسرا ماشيا على أقدامه والتجأ الى خيمة (حابر) القيني من فلسطين الشمالية فقتلته (ياعيل) امرأة حابر وهو نائم عندها ووفت دبوره بما أنبأت به ثم تغلب باراق على مدينة الحاروشيين بالسيسرا ثم على حاصور عاصمة يابين وقتل الملك ولما أتته الامداد والنجدة من الاسباط الاخر استمر في الحرب حتى خلص جميع البلاد وحررها وتولد من هذه النصرات استتباب راحة مدة أربعين سنة لم يحصل فيها حروب ولا وقائع

ثم ان العذاب التالي لما ذكر الذي أنزله الله على بني اسرائيل كان عقابا عظيما وعذابا أليما وذلك أنهم لما عكفوا على عبادة الاوثان وتركوا عبادة الله سلط الله عليهم (المديانيين) وهؤلاء تعاهدوا مع العمالقة وقبائل عرب البوادي القاطنين في الجهة الشرقية فازحموا فلسطين وكرروا عليها الغارات وأنواع الهجومات ونهبوا البلاد وسبوا النسوان والاولاد وأنزلوا على العبرانيين عذابا ماله من راد وحملوا جميع الاشياء التي قدروا على حملها ودمروا ما لا طاقة لهم على حمله فالتزم الاسرائيليون أن يخفوا أنفسهم مع مواشيهم وغلالهم في كهوف تحت الارض ويستوطنوا في مدائن مستحكمة واستمرت عليهم هذه الاحوال القاسية والشدائد الصعبة مدة سبع سنوات وفي آخر هذه المدة خضع القوم وتابوا الى الله وتضرعوا اليه بالبكاء وابتهلوا اليه بالدعاء وسألوه خلاصهم مما هم فيه من المصائب والاهوال فسمع الله سبحانه وتعالى دعاءهم وأرسل فيهم (جدعون) بن يواش من سبط منشا ليكون رأس حركة خلاصهم ووعده بالنصر وحصول الظفر فهدم جدعون محراب بعل وجمع قوة مقدارها ٣٢٠٠٠ نفس من بني اسرائيل وكان المديانيون ومحالفوهم تحت قيادة الوجوه من رؤسائهم المشهورين بتدبير الامور فساروا في الحال الى ميدان الحرب لتمزيق هذه الثورة وأخذ (جدعون) موقعه في مرتفعات جبل جلبوعة وأمسك قبائل الاعراب وادي يزرعيل الاسفل ولما كان جدعون واثقا بالنصر من عند الله أذن لجميع رجاله بأن كل من رغب الرجوع فليرجع فرجع ٢٢٠٠٠ نفس وبقي معه ١٠٠٠٠ نفس لاجل مقابلة العدو ولما أراد القادر سبحانه وتعالى أن يري بني اسرائيل أن خلاصهم كان بيده لم يأذن لهذا القدر في مقابلة العدو وأمر (جدعون) أن ينتخب ٣٠٠ محارب من العشرة آلاف من المجربين في الحروب ويجعل الباقي من قوته مددا لهم ونقسم جدعون الثلاثمائة محارب الذين انتخبهم الى ثلاثة كراديس أو ثلاث فرق وهجم على عسكر المديانيين ليلا وكانت رجال جدعون حاملة أبواقا ومشاعل من نار مخبوءة في قدور من فخار ولما أعطى جدعون رجاله اشارة الهجوم نفخ كل

رجل منهم في بوقه وكسر قدره وأخرج شعلته وصاح بقوله سيف الله (وجدعون) فقامت الاعداء من نومها مرعوبة ووقع فيهم الفزع والارتباك وأوقعوا السيوف في بعضهم وتركوا معسكرهم وهربوا نحو الاردن فتبعهم الباقي من جيش جدعون وأخذوهم بالسيوف وبددوا شملهم عن آخرهم ولم ينج أحد من نهر الاردن الاقليلا منهم وهذه النصرة كسرت شوكة المديانيين بتمامها وحررت الاسرائيليين وخلصتهم من المديانيين فعزم كبار بني اسرائيل على أن يجعلوا جدعون ملكا عليهم الا انه رفض قبول لبس التاج وحكمهم عدة سنين يدبر أمورهم كقاض وما كان حكمه خيريا على جميع بني اسرائيل لان عبادة الاصنام فشت عيانا فيهم بواسطته وهو الذي قوى شعائرها ومن بعد موته جعل أحد أولاده المسمى (أبيمالخ) نفسه ملك شكيم والبلاد المجاورة لها وبعد أن ملك ثلاث سنوات قتلته امرأة بينما كان يحاصر مدينة لم يقبل أهلها طاعة حكمه

ثم دبرهم من بعده (طولع) أو (فولغ) ثلاثا وعشرين سنة وخلفه (ياسير) الجلعادي دبر أمرهم اثنتين وعشرين سنة وكانت مدة سلطنتهما خالية الوقائع والحوادث ومع هذا فالمعلوم لنا أن عبادة الاصنام والاوثان فشت في بني اسرائيل في هذه المدة حتى ان الله سبحانه وتعالى سلط عليهم أعداءهم ثانيا وذلك أن بني عمون أخضعوا الاسباط الموجودين في شرق الاردن لطاعتهم واستعبدوهم ثماني عشرة سنة وفي هذه المدة عبروا الاردن عدة مرار وخربوا أرض يهوذا وبنيامين وافرايم فانتخب القوم الموجودون في شرقي الاردن قائدا لهم اسمه (يفتح) رئيس طائفة ليست على شريعة قاطنة في جبل (جلعاد) فهزم بني عمون شر هزيمة في واقعة كبيرة حصلت بينه وبينهم وخلص منهم البلاد وأنقذ من ظلمهم العباد وفي مبادي حربه نذر أنه اذا نصره الله على الاعداء يقرب له أول مخلوق يقابله على باب داره عند عوده من حربه الى بيته فلما عاد الى بيته كان أول من قابله بنته فافتكر (يفتح) نذره وأنه لابد من أن يوفيه بكونه يقرب بنته قربانا لله سبحانه وتعالى فلم تعارضه بنته في مشروعه وسألته تأجيل نفسها المدة شهرين فقط فسمح لها بذلك وفي آخر هذه المدة وفى يفتح بنذره وقرب بنته فكان هذا القربان مخالفا بالكلية لشريعة موسى ومنه يظهر أن الاسرائيليين الذين كانوا في الجهة الشرقية من نهر الاردن كانوا على عوائد وطبائع مخالفة لشريعة موسى عليه السلام ودبر (يفتح) أمور بني اسرائيل كقاض لهم ست سنوات بعد نصرته على الاعداء ومات ودفن في جبل (جلعاد) ثم دبر بني اسرائيل من بعده (آبصان) من نسل (زبولون) فتعالى هذا القاضي الى درجة كبيرة بواسطة تداخله مع الامم المجاورة له بكونه زوج أولاده برجال ونساء منهم وحكم بني اسرائيل سبع سنين ثم خلفه في القضاء (علوان) وكان من نسل (زبلون) أيضا وكانت مدة حكمه عشر سنوات خالية من الوقائع والحوادث ثم خلفه في القضاء (عبدون بن هليل الفرعطوني) فدبر أمر بني اسرائيل ثمان سنوات كانت خالية الوقائع والحوادث وقال بعض المؤرخين انه هو (قدن) الذي عده (شمويل) من ضمن القضاة ومن المحتمل أن توالي القضاة وفوزهم كسر شوكة الكنعانيين لاننا ما عدنا نسمع لهم خبرا ولا حليلة أثر ثم لما عكف بنو اسرائيل على المعاصي وارتكبوا الجرائم والفواحش سلط الله عليهم عدوا جديدا أشد قسوة وأكثر ظلما وهي الامة الفلسطينية الحربية وهم سكان ساحل البحر الابيض المتوسط من فلسطين الجنوبية فمدوا شوكتهم على فلسطين الجنوبية وأخضعوا بلاد (شمعون ويهوذا وبنيامين ودان) الى طاعتهم وكان هذا الاستعباد في غاية من الشدة والقسوة واستمر بنو اسرائيل فيه نحوا من أربعين سنة

وكان في هذا الوقت قاضي بني اسرائيل (عالي) من بيت (عطمار) وهو الابن الاصغر (لهارون) ولم نعرف متى انتقلت رياسة القسوسية من بيت (علطار) الى بيت (عطمار) أوما هو السبب في التغيير والظاهر أن هذا كان محنة الهية عقابا للبيت (عالي) بسبب وقوع هذا البيت في ارتكاب الجرائم والآثام وأما نفس (عالي) فكان رجلا صديقا وقدوة في الورع والزهد وكان مقره في (شيلوه) مع الخيمة المقدسة وكان حكمه مقررا بواسطة جميع الاسرائيليين وكان أولاده على غاية من الفجور وارتكاب الفواحش وكانت أفعالهم غير محمودة عند الاحبار الأأن (عالي) بالنسبة لضعفه ووهنه رخص لاولاده في بقائهم في وظائفهم المقدسة فأرسل الله تعالى له نبيا أنذره بأن الله سيعاقبه على ضعفه ووهنه ويقتل أولاده وتخسر عائلته الوظيفة المقدسة التي لا يعرفون مقدار قيمتها ومع هذا فان (عالي) لم ينصح أولاده ولم يرشدهم لما فيه الخير وطريق الصواب بل جعلهم مستمرين على ما هم فيه من الخطايا وفعل المنكرات

وفي مدة (عالي) رفع الله سبحانه وتعالى منار رجاية بني اسرائيل وجعلها في نفس (شمسون وشمويل) وذلك أن (شمسون) كان من نسل سبط دان القاطن في الناحية الغربية من يهوذا وكان مولده بنبا من ملاك من عند الله لوالديه وأوصاهما بان يربيا الطفل منذورا لله ويحفظاه من الاطعمة النجسة والاشربة المسكرة ويحذرا من وضع الموسى على رأسه لاجل حلق شعره وأنه عندما يبلغ هذا الطفل مبلغ الرجال يفعل أفعالا عظيمة يعود منها النفع على قومه ضد الفلسطينيين وبلغ (شمسون) مبالغ الرجال في الوقت الذي اشتد فيه جور الفلسطينيين وظلمهم على بني اسرائيل وكان بين بعضهم حروب مستمرة وكان شجعان المحاربين من سبط (دان) معسكرين في معسكر حصين بالقرب من قريات (يريم) وأخذ (شمسون) في الحركة وأعطاه الله قوة في الجسم وطاقة على الاتعاب والمصاعب وعدم الخوف من وقوعه في الاهوال والمخاوف ولما كان واثقا ومعتمدا على ما أعطاه الله تعالى من القوة والحيل عزم على فتح باب للمنازعة مع الفلسطينيين ولهذا طلب أن يتزوج بامرأة من (تمنة) وعند توجهه لرؤيتها اقتل في طريقه أسدا بأن قبض عليه من فمه ومزق شدقيه من رأسه ورمى رمة الاسد في ناحية من الطريق ولم يقل لاحد على ما فعله وعند عوده بعد قليل من هذه الطريق رأى سربا من النحل اتخذ خليته في الرمة فأكل العسل الذي وجده فيها ولم يقل لاحد عليه وفي وليمة زواجه جعل ذلك لغزا لثلاثين شخصا دعاهم في الوليمة وقال لهم على هذا اللغز وشرط ان حلوه في ظرف أسبوع فلهم ثلاثون قميصا وثلاثون حلة من الثياب ولما قرب انقضاء المدة توعد هؤلاء الشبان زوجة (شمسون) وأهلها بالحرق ان كانت لا تسأل زوجها عن جواب هذا اللغز وتخبرهم به وبما أن (شمسون) كان مطيعا لما تطلبه منه زوجته مالت بكليتها اليه وطلبت منه جواب اللغز فأخبرها مع ميله لها بالجواب وهي قالته لاقاربها وفي اليوم الموعود حل الشبان اللغز ولما ظهر (لشمسون) الخديعة قال الذي حرث على عجلتي فلك حذورتي وجعل خديعة الفلسطينيين ومكرهم في أسنانهم وترك لهم المدينة وتوجه ناحية عسقلان وقتل ثلاثين رجلا من أهلها وأرسل ثيابهم الى أولاد بلدهم الذين حلوا اللغز ورجع عائدا الى بيته فتزوجت امرأته رجلا من أخص أصدقائه ولما عاد اليها وسمع بخبرها لم يقبل أن ينظر اليها وأخذ ثاره من القوم بكونه حرق أجران المحصولات الموجودة عند الفلسطينيين فانتقموا منه بكونهم

أحرقوا امرأته وأباها فانتقم منهم أيضا بكونه هجم عليهم وقتل منهم مقتلة كبيرة جدا ثم هرب منهم الى أرض يهوذا ومن هذا الوقت استمرت الحروب بين (شمسون) والفلسطينيين فأظهر (شمسون) ماعنده من الشجاعة وما أعطاه الله من القوة والعزم وقتل منهم في واقعة ألف نفس من رجالهم وما كان معه سلاح بل كان في يده فك حمار وفي مدة بقائه على عهد نذره كان يخلص من كل شرك يقع فيه لكنه سلم أخيرا نفسه لأشياء أضعفت قوته الالهية وتولد منها دماره وذلك أنه تزوج بامرأة اسمها دليلة كانت قاطنة في وادي (سورق) فجعل الفلسطينيون لها جعلا على أن تغدر به فتوسلت اليه بكليتها وتدللت عليه بمحبتها ليخبرها عن سر قوته فأخبرها بأنها موجودة في شعره فاذا قطع شعره زالت منه قوته وبينما كان نائما بين يديها اذ سقط عليه بعض أعدائه وقطعوا شعره وأسروه وقلعوا عينيه وجدعوا أنفه وأوثقوه في الاغلال وساقوه الى غزة وألزموه الشغل في مهنة حقيرة وهي أن يطحن في طاحون الحبس وعاقبوه بأليم العذاب لكن الله تعالى لم يدعه فانه بمجرد ما طال شعره عادت اليه قوته وبعد ذلك اجتمع أمراء الفلسطينيين وقوادهم في محفل كبير في هيكل داجون في غزة وكان ذلك يوم عيد الهم وأخرجوا (شمسون) من الحبس وألزموه أن يضحكهم بما يفعله من قوته في لعبه وأمروه أن يقف بين عمودين حاملي سقف الهيكل وكان الهيكل غاصا بازدحام الناس وكان فيه نحو من . . . ٣ نفس فتضرع (شمسون) الى الله سبحانه وتعالى في أن يقويه ليهلك نفسه مع أعدائه وقبض هذا الشجاع الاعمى على العمودين بذراعيه وضغط عليهما وجذبهما مرة واحدة فسقط الهيكل على ما فيه وقتل (شمسون) وسائر الحاضرين في الهيكل ومات معه موته هذا عالم كثير أزيد ممن كان يقتلهم في حياته وأخذ قومه جثته ودفنوه مع آبائه وكان (شمسون) معلوما أنه الثالث عشر من قضاة بني اسرائيل الا أن حكمه لم يظهر أنه امتد على غير سبطه

وكان (شمويل) وهو الخامس عشر من القضاة وآخرهم مثل (شمسون) طفلا منذورا لله سبحانه وتعالى وكان أبوه القانة من ذرية مورة وأحد رؤساء سبط لاوي قاطنا في (رمثايم) صوفيم وله زوجتان في أعظم ما يكون من الطبائع والصفات الجيدة في ذلك الوقت فأما احداهن فننة فكانت أم أولاد وأما الاخرى حنة وهي زوجته المحظية فكانت عاقرا ثم ان (القانه) توجه بعائلته الى (شيلوه) حسب العادة الجارية عندهم لاقامة شعائر دينهم ففي أثناء جلوسهم جميعا على أكل الوليمة القربانية مال (ألقانه) بكليته على حنة وأظهر لها علامات المحبة فغارت منها فننه وعابتها وذمتها بسبب كونها عاقرا وقالت لها ألفاظا موجعة حتى ان حنة تركت الاكل وقامت تجري ودموعها على خدودها ومما حصل لها من الغضب والزعل ذهبت وقعدت على باب الخيمة المقدسة وصارت تدعو في قلبها أن يرزقها الله ولدا تجعله نذرا له سبحانه وتعالى فنظر اليها عالي الحبر الاعظم ورأى شفائفها تلعب فظن أنها سكرانة من الاكل فأوجعها بالكلام المؤلم فأطلعته على أمرها وأكدت له حقيقة خبرها وانها امرأة حزينة القلب مكسورة الفؤاد وأنها تشكو بثها وحزنها الى الله فلاطفها عالي في الكلام مع الشفقة والرأفة ودعا لها بالبركة وابتهل بالدعاء الى الله أن يهبها ابتغاءها فعادت الى منزلها مغمورة بالسعادة وولدت شمويل في الوقت الموعود فأخذت في تربيته حتى بلغ العمر الكافي لانفصاله منها وأخذته الى شيلوه وقدمته مع الوقار والاجلال الى خدمة الله سبحانه وتعالى وتركته عند الحاخام الاكبر ثم ولدت لزوجها ثلاثة أولاد وبنتين وشب شمويل وترعرع في خدمة الخيمة المقدسة ونال كرم الله وكرم خلقه ومن دلائل

كرم الله عليه أن أنعم الله عليه فى حال شبوبيته بان قال له فى الليل انه سيهلك بيت عالى ويأخذ الخاخامية منه عقابا على ما يفعله أولاده من الخطايا والجرائم وعجزه عن تنفيذ حكمه عليهم ومن هذا الوقت صار شموئيل نبيا ومانقص شئ مما أنبأ به وازدادت شهرته ونفوذ كلمته على الامة كلما كان يتقدم فى السن

ومن جملة وصايا الله اشموئيل انه يقوى بنى اسرائيل ويشجعهم فى اعتقادهم ان الله يساعدهم على عتقهم من الفلسطينيين ومن ثم حملوا السلاح لكن حصلت لهم الهزيمة فى جبال بنيامين القريبة من شمال أورشليم فجلب حفنى وفنحاص ولدى عالى التابوت من شيلوه الى معسكر بنى اسرائيل معتقدين انه بواسطة انتهاك حرمة التابوت ينالون النصر من عند الله فعاقبهم الله على انتهاك هذه الحرمة بان أذن للفلسطينيين بهزيمة الاسرائيليين فسقطوا عليهم وفتكوا بهم وقتلوا منهم نحوا من ٣٠٠٠٠ نفس وقتل حفنى وفنحاص وتغلب الفلسطينيون على التابوت ووصلت أخبار هذه المصيبة الى عالى وهو جالس على مقعد أمام باب الخيمة المقدسة فلما سمع بفقد التابوت وقتل أولاده سقط من فوق مقعده فانكسرت رقبته وخرجت روحه من جثته

وحمل الفلسطينيون التابوت الى بلادهم مع النصر والظفر فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم آية عذاب شديد فأرسلوه الى بيت شمس فحصل لناس من أهالى بيت شمس غيرة وفتحوا التابوت ونظروا ما فيه فأرسل الله عليهم طاعونا بشأن انتهاكهم هذه الحرمة فأهلك منهم ٥٠٠٧٠ نفس ولما خاف الموجودون على قيد الحياة من أهل بيت شمس من مثل هذه المصائب أرسلوا التابوت الى قريات يعاريم فأخذه أهل قريات يعاريم الى مدينتهم وبقى فى بيت أبى ناداب من سبط لاوى الى أن حمله داود الى أورشليم وخلف شموئيل عالى فى وظيفة القضاء وكان حكمه عاما على بنى اسرائيل وفى ظرف عشرين سنة من بعد فقد التابوت اضمحل بنو اسرائيل وخمدت قواهم مما وقع عليهم من أثقال الفلسطينيين وفى آخر هذه المدة دعا شموئيل الامة وبذل جهده فى خلاصهم وعتقهم من الفلسطينيين ولاجل استعدادهم لهذه الحركة عقد جمعية عظيمة فى مذبح وأمر بنى اسرائيل بالصوم والطهارة والتوبة مما هم فيه من المعاصى وجدد عهدهم وميثاقهم مع الله سبحانه وتعالى فلما بلغ الفلسطينيين خبر عقد هذه الجمعية أرسلوا جيشا عظيما لاجل اخمادها وحطمها فشجع شموئيل الامة على الاغارة على هذه القوة والهجوم عليها وساعد الله بنى اسرائيل بان أرسل على جيش الفلسطينيين زعازع شديدة من السماء هلك فيها قسم عظيم من جيش الاعداء فهرب الفلسطينيون وأعقبهم الاسرائيليون بالذبح والقتل فتولد من هذه النصرات كسر شوكة الفلسطينيين على بنى اسرائيل وأقيمت حكومة شموئيل مع الثبات ونشر العدل فى ادارة البلاد بين الامة العبرانية وعين ولديه يوئيل وأبياب لمساعدته وتمتع بنو اسرائيل تحت حكم شموئيل باعظم مدة سلمية لم يروها قبل الآن .

ومع ذلك كانوا على غير رضا عنها واعتقدوا فى أنفسهم ان احتياجهم لحكومة مركزية وهى هذه الحكومة الجارية منبع لما حصل لهم من المصائب والبلايا الماضية وخافوا أن يصيروا فيما بعد عرضة لمثل هذه المصائب والبلايا ونسوا أن السبب الاصلى فيما حصل لهم من الاوجاع والاكدار هو كفرانهم بعبادة الحق سبحانه وتعالى فلجوا فى طلبهم ملكا عليهم وقالوا ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا قالوا ومالنا أن لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فيما وعظهم به شموئيل وذكرهم اياه أن الله هو ملكهم وانه هو الحافظ لهم وانهم ان أصروا على انتخاب

ملك وقعوا فى أشد العذاب بما عصوا الله وعدم قبول أوامره فلازالوا يتضرعون و يبتهلون الى الله حتى سمع دعاءهم ومنحهم سؤالهم وأمر الله سبحانه وتعالى شمويل أن يتم طلب القوم فعلى حسب الاوامر الالهية والتعليمات الربانية دهن شمويل طالوت بن قيش من سبط بنيامين ليكون ملكا على بنى اسرائيل وكان ذلك فى سنة ١٠٩٥ قبل الميلاد

الباب الرابع

فى المملكة الواحدة

وصف طالوت — عدم رضا الاسباط — خلاص جلعاد — اقرار الامة العبرانية على طالوت — اغتصاب طالوت حكم الحاخامات — مشاحنته مع شمويل — الحروب مع الفلسطينيين والامم الاخر — تدمير العمالقة وانقراضهم — قتل شمويل اجاج — دهن داود ليكون ملكا — ميل طالوت لداود — موت جالوت — بحث طالوت على قتل داود — هرب داود — مخاطرته وجرأته — ذبح طالوت الحاخامات — واقعة جبل جلبوعة — موت طالوت ويوناثان — صيرورة داود ملك يهوذا — حرب داخلى — صيرورة داود ملكا على كافة بنى اسرائيل — فتح أورشليم — فتوحات داود — امتداد مملكته — أحكامه الداخلية — خطيئته — عصيان أولاده — موت داود — جلوس سليمان — مجد سرايته وزخرفتها — تجارة العبرانيين — الصفات الشخصية للملك — طريقته — المعبد — اضمحلال شوكة سليمان — خطيئته — موته — يربعام خليفته — ثورة الاسباط الشمالية وتعصبهم

ومن المحتمل ان طالوت الملك الجديد كان عمره نحو أربعين سنة وقت جلوسه على أريكة سلطنة بنى اسرائيل وكان موصوفا بشرف النفس وعلو الهمة وحسن السجايا والطباع وكان أطول انسان فى بنى اسرائيل وكان ذا هيبة ووقار حتى ان شمويل عندما قدمه للامة أهلوا ورحبوا به وصرخوا بصوت واحد مع الابتهاج والسرور وعلو الصوت قائلين حفظ الله الملك حيا الله الملك وكان مستحوذا على شجاعة أبناء جنسه وبسالتهم ومهارتهم

ويولد من كون انتخاب الملك من الاسباط الدنية أن قالوا لشمويل بعد أن قال لهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا ما كنت قط أكذب منك الساعة ونحن من سبط المملكة ولم يؤت طالوت سعة من المال فنتبعه فقال لهم شمويل ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ولما رأى شمويل ما هو حاصل عند الاسباط من الكراهة والبغضاء دبر بحزمه أن يؤخر الجلوس العام لطالوت على الكرسى حتى تنقشع هذه الاختلافات وفى هذا الوقت أغار ناحاش ملك العمونيين على أراضى جلعاد وهى الاراضى الموجودة فى شرق نهر الاردن فأسرع طالوت وجمع قوة من بنى اسرائيل وهزم العمونيين وبدد شملهم وخلص جلعاد فتولد مما ناله من الشجاعة والمهارة التى حازها فى الحرب تسكين المخالفات التى كانت حاصلة ضده وتقررت حكومته وسلطنته مع الحمية والحماس على كافة الامة العبرانية واستمر (شمويل) فى تنفيذ سلطته الكبيرة على أعمال القوم واعتبر الملك مجرد قائد حربى فقط من دون أن

يكون له شوكة يتداخل بها فى النظامات والشرائع القديمة وكان ذلك مغايرا لما عليه حالة ملوك الامم المجاورة للامة العبرانية فقضى (طالوت) مدة من الزمن بهذا الانقياد واستمر خاضعا لاوامر (النبى) وأحكامه الا أنه بسبب عنفوانه وشدة قوته لم يمكث مدة طويلة على هذه الحالة فابتدأ فى أن يبطل ما هو واقع عليه من الحجر والصد الذى وضعه عليه شمويل و بذل جهده فى أن يكون ملكا بالفعل والاسم

وذلك أنه من بعد تقليده مع الاحتفال الزائد فى نواحى الجلجال بعد رجوعه من حرب العمونيين صرف عساكر بنى اسرائيل الى بلادهم وأبقى معه قوة مقدارها ٣٠٠٠ نفس فى ميدان المحاربة فجهز منهم ٢٠٠٠ نفس تحت خاصة أوامره وجعل الالف الباقى تحت امرة ابنه (يوناثان) وكان شابا حسن الخلق والصفات فهجم يوناثان بهم على مدينة (جبعة) الحصينة من مدائن الفلسطينيين الواقعة فى أرض بنيامين وخلص هذا السبط من الارتباكات والاضطهادات الدائمة التى كانت واقعة عليه من الفلسطينيين وشرع الفلسطينيون فى الحال فى ترتيب جيش كثيف وأبرزوه فى ميدان المحاربات فطلب طالوت قوى بنى اسرائيل واجتماعهم فى الجلجال و يلحق به شمويل فى هذا المحل لاجل تقديم القربان الى الله سبحانه وتعالى افتتاحا فى انتشاب الحرب فاجتمع القوم فى الوقت المعين الا أن شمويل لم يحضر فانتظره طالوت سبعة أيام ولما قلق القوم وعيل صبرهم عزم طالوت على أن ينتهز الفرصة فى مدة غياب شمويل ويقضى ما كان مصمما عليه من مدة طويلة وهو أن يخلع حكم شمويل و يأخذ لنفسه سلطة الحاخامية فقرب القربان بنفسه وأعلن لنفسه سلطة القسوسية والملك وبعد ذلك بقليل وصل شمويل وعرف فى هذا الوقت من دلائل الاعمال التى أجراها طالوت أن مقصده الاصلى هو وضع العبرانيين تحت سلطته على قواعد وقوانين الامم المجاورة وأن تكون له الشوكة السامية والسيادة العالية على الاحكام الروحانية والاحكام المدنية الداخلية للامة العبرانية فوبخ شمويل طالوت وعنفه على ما فعله وقال له باسم الله ان الاعتبار والوقار الالهى زال عنه من هذا اليوم وانه عند موته لابد من انتقال السمو الملوكى الى عائلة أخرى غير عائلته

وفى هذا الوقت زادت أثقال الاستعباد والرق الحاصل من الفلسطينيين على الاسباط الموجودين فى الجهات الجنوبية ومنعوا صناع المعادن والحديد من الشغل فى تجاراتهم فمن ثم قل وجود الدروع الحربية حتى ان طالوت لم يجد الا ٦٠٠ درع درع بها ستمائة نفس من هذه الجمعية الكبيرة التى وردت عليه فى الجلجال من بنى اسرائيل ومع هذا فانه سار بهم الى الجهة الشمالية من نواحى (مخماس) لملاقاة العدو وعندما وصل اليها هجم (يوناثان) ابنه بما كان معه من العساكر على معسكر الفلسطينيين وأوقع فيهم الفشل والارتباك فأداروا سلاحهم فى بعضهم وفروا هاربين وتبعهم طالوت فى الحال ولحقه كل اسرائيلى أمكنه أن يجد لنفسه سلاحا وسار مع السرعة فى رأس ١٠٠٠٠ مقاتل وسار معقبا للعدو الى (بيت أون) وأوقع فى عساكر العدو التلفيات المهولة و بهذا انسحب الفلسطينيون الى بلادهم واستمر واعدة سنين لا يحصل منهم أدنى سعى ضد بنى اسرائيل وفى هذا الوقت صد (طالوت) غارات العمونيين والموآبيين والادوميين وسوريى صُوبَة وكانت غاراتهم وهجماتهم متوالية الاجراء على ممالكه وفى نفس هذه المدة تغلب الاسباط الموجودون فى الجهة الشرقية من نهر الاردن على قبيلة العرب الرحالة من أرض هجر ومدوا أرضهم الى نحو دمشق ولما تيقن طالوت ان حفظ مملكته متعلق بمهارة مدافعته الاعداء عنها بذل جهده فى ترتيب جيش ثابت ومع أنه كان

قليل العدد الا انه كان من متدربى الرجال المتعودين على الحروب والمتاعب وجعله فى أعظم درجة من درجات الكمال وعهد قيادته الى ابن عمه (أبى نير بن نير)

ولما شاخ (شمويل) وقرب انتهاء أجله جاء عند طالوت فى يوم من الايام وأمره أن يشعل حربا مفنية على العماليق المتأصلة عداوتهم من قديم الزمان للعبرانيين فسار طالوت فى الحال اليهم وهزمهم وكان مأمورا من طرف شمويل أن يخرب ويدمر كل ما تغلب عليه فلم يفعل طالوت ما أمره به شمويل وجلب معه غنائم عديدة وصفح عن أجاج ملك العمالقة وساقه معه أسيرا حتى يتيسر له الحصول على فداء نفسه من الاسر والقتل

ولما تقابل شمويل مع طالوت فى الجلجال عند عوده من الحرب لامه على ذلك وفى هذا الوقت ذبح شمويل الملك أجاج بيده

ثم ان شمويل انفصل من طالوت وانسد الخرق الذى كان مفتوحا بينهما من أجل الاختلافات الواقعة من كل منهما وأمر شمويل بالتوجه الى بيت لحم وأن يدهن داود ليكون ملكا على بنى اسرائيل فأطاع شمويل الامر وما زال مسافرا حتى دخل بيت (إيشى) وكان رئيس المدينة ودهن داود ومع الاحتفال العظيم بالزيت المقدس وكان داود أصغر أولاد إيشى وهو هدية من الله سبحانه وتعالى وملك جديد من نسل نحشون الذى كان رئيسا أو أميرا على سبط يهوذا فى البرية ويعد من ضمن أجداد داود رحاب وروت الجميلة وكان داود بلغ سن الرجولية وظهرت عليه دلائل الشجاعة بكونه حفظ مرارا العديدة مواشى أبيه وأنعامه من اللصوص والحيوانات الكاسرة الموجودة فى جهة الاقليم القاطن به أبوه وما ل طالوت الى داود بكل محبة وولع به وأغدق عليه بالانعام والاكرام وجعله حامل سلاحه

وفى هذا الوقت انتشبت حرب مع الفلسطينيين والتقى الجيشان جيش الفلسطينيين وجيش الاسرائيليين فى جنوب فلسطين وجلب الفلسطينيون معهم رجلا شجاعا اسمه جالوت من أهل مدينة (جت) فلم يتجاسر أحد من الاسرائيليين على ملاقاته حتى ان داود هم لمبارزته وكان مصطحبا مع جيش طالوت فاجتهد طالوت فى ابعاد داود عن عزمه هذا الا انه لما وجد عليه دلائل الظفر والنجاح فى ازالة هذا الخطر الشديد رضى بخروج داود لملاقاة الجبار جالوت وكان داود متسلحا بمقلاعه الذى كان يستعمله لغنمه فاستعمله أيضا فى هلاك هذا الجبار وقتله وقطع رأسه بسيفه فوقع الرعب والارتباك فى جيش الفلسطينيين عند قتل شجاعهم فهرب الجيش بتمامه وتبعهم قوى (طالوت) يقتلون ويأسرون الى أبواب مدينة (جت وعكرون) ففرح طالوت وتهلل وجهه من شجاعة داود وزوجه بابنته (ميكال) ووقع حب داود فى قلب يوناتان وبعد ذلك بقليل حصل لطالوت الحسد والغيرة من داود زوج ابنته على ما سمعه من الثناء والشكر فى حقه من عموم الامة من أجل نواله الظفر والنصر على جالوت ومن هذا الوقت شرع طالوت فى التدبير على دماره وفقد حياته

ولما علم داود بذلك انجبر على الهرب من سراى طالوت والتجأ عند ملك (جت) ظاهرا عليه الخوف والرعب لينجو من بطش الفلسطينيين ثم بعد قليل صار عند الملك قائد شرذمة من ناس لا شريعة لهم ولا نظام وقطن مدة من الزمن فى (موآب) ثم وطن نفسه فى الاقليم الصعب الوصول اليه الموجود فى برية

يهوذا

يهوذا الواقع فى أرض يهوذا وفى هذا الوقت مات شمويل فى (الرامة) بعد أن تقدم جدا فى السن ونعته الامة الاسرائيلية وحزنت عليه حزنا شديدا

ومن بعد موت شمويل قبض طالوت على زمام حريته وانبع غى شهواته النفسية وأوقع بجميع معضدى الشريعة الموسوية وعسف فيهم وقتل الحاخام الاكبر (أبيمالخ) وخمسة وثمانين حبرا معه وجميع أهالى مدينة (نوب) التى كان يسكنها الحاخام الاكبر وهرب أحد أولاد (أبيمالخ) المسمى (أبى عثار) وكان ولى عهد الحاخامية الكبرى ونجا من دمار أهل جنسه وسار الى داود عم السلامة

ثم ان طالوت وجه جيشه على داود وطارده فى فلسطين الجنوبية واستحوذ داود مرتين على حياة الملك وهو فى داخل شوكته وجيشه الا أنه لم يقتله كرامة وفضلا وذلك أنه كان يدخل عليه خفية وهو نائم ويضع سهما عند رأسه ورجليه ثم يتركه فلما يستيقظ طالوت من منامه ويرى السهام يحصل عنده أشد الغضب واضطر أخيرا داود للالتجاء عند أخيش ملك جت فأعطاه مدينة صقلغ فأقام فيها داود بضع سنين وهو يشن الغارات وأنواع الهجوم على العمالقة الذين هم العدو المشترك لبنى اسرائيل والفلسطينيين ثم انتشبت الحرب بين الفلسطينيين وبنى اسرائيل مرة أخرى فأمر الملك أخيش داود أن يلتحق بجيش الفلسطينيين ويسير نحو طالوت فالتزم طاعة الامر الا أنه من سعادته ارتاب قواد الفلسطينيين منه وأقنعوا الملك فى كونه يأمره بالعود الى صقلغ وتقابل جيش الفلسطينيين مع جيش بنى اسرائيل فى نواحى جبل جلبوع فانهزم بنو اسرائيل وقتل يوناثان وجرح طالوت جرحا مهلكا فقتل نفسه بنفسه خشية من أسر أعدائه له وكان ذلك فى سنة ١٠٥٥ قبل الميلاد بعد أن استمرت سلطنته على بنى اسرائيل أربعين سنة .

وبمجرد أخذ داود خبر موت طالوت ويوناثان عاد الى بلاده وأقام نفسه فى حبرون واعترف له سبطه بالملك وهو سبط يهوذا الا أن الاسباط الاخرا تجهوا بطاعتهم نحو ايشبوشت وهو الابن الاصغر من أولاد طالوت وأمر أبى نير بتتويجه فى محنايم فأعقب ذلك حربا دمويا داخليا استمر سبع سنوات وكانت نتيجة هذا الحرب أن مال أبى نير الى داود وأما ايشبوشت فانه ذبحه اثنان من خائنى خدمه ومن ثم أقر عموم الاسرائيليين لداود بسلطنته وصار ملكا مع الاحتفال فى حبرون

وكان عمر داود ثمانيا وثلاثين سنة عند ابتداء سلطنته على كافة المملكة الاسرائيلية فكان أول مشروع شرعه هو فتح أورشليم والتغلب عليها من اليبوسيين وجعل داود هذه المدينة عاصمة مملكته ومركز الديانة الاسرائيلية وجلب اليها التابوت واستوطنها ورتب فيها جيشا ثابتا وأنشأ فى عاصمته الجديدة هذه سراية المفتخرة لنفسه ولحريمه وأدخل فيها الابهة الملوكية التى كانت غير معروفة عند بنى اسرائيل لحد هذا الوقت وعكف نفسه مع الصداقة التامة على عبادة الله سبحانه وتعالى وجعله الله نبيا وملكا وأنزل عليه الزبور وعلمه صنعة الدروع وألان له الحديد وأمر الجبال والطير يسبحن معه ولم يعط الله أحدا مثل صوته فى الالحان وكان كثير الاجتهاد فى العبادة

وكان داود أعظم ملك وأقوى شوكة ملك الامة العبرانية وكان سعيدا مظفرا بالنصرات فى حروبه فكسر شوكة الفلسطينيين ودهم مملكتهم وتغلب عليها الى حد جنوب غزة وأخضع موآب ولم يترك

من سكانها من الدمار والخراب سوى الثلث فقط وألزمهم بدفع الخراج وكذا تغلب على العمونيين والممالك السورية المختلفة الكائنة بين الاردن ونهر الفرات وصار نهر الفرات حد المملكة داود وخضعت له أيضا أدوم وامتدت أراضى العبرانيين الى البحر الاحمر والى الحدود المصرية وعقد داود معاهدة مع حيرام الملك الفينيقى فى مدينة صور فكانت هذه المعاهدة من أجل الاشياء لانها عادت على المملكة بالمنافع الجمة وأرسل حيرام خشب الصنوبر أو حور لبنان والانفار الشغالين والصناع الماهرين لشغل السراى المزخرفة التى ابتناها داود فى أورشليم

واشتهر داود فى مملكته بين الامم المجاورين له بالمهارة والحكمة وجودة العقل وجلب الى مملكته ما يعود منه النفع عليها ونظم جيش الاسرائيليين فى كافة احتياجاته وجعل أحكام الادارة الداخلية والاحكام المدنية تحت نظارته ومباشرته ورتب المصالح والوظائف لادارة الاشغال العمومية ونظر فى القوانين الديانية وشعائر العبادة الاسرائيلية وجعلها على قواعد أساسية سارت على موجبها بعد ولما كان داود نادر الوجود فى ضرب آلات الموسيقى والاقوال الشعرية أسس الاحتفالات المفتخرة والشعائر الظريفة لعبادة العبرانيين وقرأ عليهم المزامير العجيبة الجارى الترنم بها الى الآن وكان جل قصده ورغبته أن يشيد معبدا فاخرا فى أورشليم لله فامره الله سبحانه وتعالى أن لا يفعل ذلك بما أن يده ملطخة بالدماء

ثم بعد ذلك قضى الله رغبته وأمره سبحانه وتعالى أن ابنه وخليفته يكون سالما من الدماء وأنه هو الذى يبنى المعبد فمن ثم بذل داود جهده فى مشترى الارض اللازم بناء المعبد فيها وجمع الادوات اللازمة لبنائه ثم ان داود وان كان فى درجة عالية من عبادة الحق سبحانه وتعالى الا أنه امتحن بحب الجميلة بتشبع زوجة أوريا الحثى أحد أمرائه وصمم على الاستحواذ عليها وكانت هذه محنة من الله سبحانه وتعالى وكان أوريا فى ثغر من الثغور فبعث داود الى صاحب الثغر أن يقدم أوريا فى الحرب فقدمه فقتل فلما قتل تزوج داود امرأته فولدت له ولدا مات ثم ولدت له ولدا ثانيا كان خليفة داود وهو سليمان عليه السلام

وبينما كان داود فى المحراب مشغولا بعبادته وقد أغلق على نفسه الباب اذ دخل عليه ملكان أرسلهما الله اليه من غير الباب فراعه ذلك فقالا لا تخف نحن خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب أى قهرنى وأخذ نعجتى فقال داود للآخر ما تقول قال صدق انى أردت أن أكمل نعاجى مائة فأخذت نعجته فقال داود اذا لا ندعك وذلك فقال الملك ما أنت بقادر عليه قال داود فان لم ترد عليه ماله ضربنا منك هذا وهذا وأومأ الى أنفه وجبهته قال يا داود أنت أحق بذلك حيث لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا الا امرأة واحدة فلم تزل به حتى قتل وتزوجت امرأته ثم غابا فعرف داود ما ابتلى به وما وقع فيه فخر راكعا كما قال تعالى فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب فغفرنا له ذلك ومن بعد ذلك تكدرت أبهة سلطنة داود بثورتين كان سببهما كثرة تعدد الزوجات التى أدخلهن داود سراياته وفى مملكته وذلك أن أولاده المولودين له من أمهات مختلفة أضروا بسنى آخر عمره بغيرتهم من بعضهم وما وقعوا فيه من الجرائم والخطايا ومنهم اثنان ابشالوم وأدونيا قاما فى وجه أبيهما بالسلاح وتعصبا عليه وبسبب هذه العصابة ذهب داود من أورشليم والتجأ الى الاراضى الشرقية من نهر الاردن ودعا ابنه

لنفسه الناس فكثرت أتباعه من أهل الزيغ من بنى اسرائيل ولما تاب الله على داود انتهت الحالة بهزيمة ابشالوم وموته وكان استلم زمام الابهة الملوكية بواسطة خاله يواب قائد جيش داود وتاب أدونيا من جريمته فى حال حياته وبسبب عصيانه جعل داود الخلافة فى سليمان وأشرك معه أدونيا مدة حياته ومن بعد أن حكم داود أربعين سنة منها ثلاث وثلاثون سنة أقامها فى أورشليم مات فى سنة ١٠١٥ قبل الميلاد بعد أن بلغ من العمر ثمانيا وسبعين سنة تاركا لقومه الذكر الجميل والثناء الجليل فى تاريخهم

وابتدأت سلطنة سليمان مع الوقار والاحترام وجلس على أريكة بنى اسرائيل وآتاه الله مع الملك النبوة وسأل الله أن يؤتيه ملكا لا ينبغى لاحد من بعده وكان أبوه يستشيره فى حياته ويرجع الى قوله فمن ذلك ماقصه الله فى كتابه العزيز فى قوله وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين وذلك أن غنما دخلت كرما فأكلت عناقيده وأفسدته فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان أرى غير ذلك أن يسلم الكرم الى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان وتدفع الغنم الى صاحب الكرم فيصيب منها الى أن يعود كرمه الى حاله ثم يأخذ كرمه ويدفع الغنم الى صاحبها فأمضى داود قوله وقال تعالى ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وانتشر الامن واستتباب الراحة فى جميع أنحاء مملكته الشاسعة وكانت أحكامه وأوامره مطاعة يعمل بموجبها فى كل جهة وعقد محالفة مع مصر لكونه تزوج بابنة رجل من الفراعنة من العائلة الحادية والعشرين وعقد محالفات تجارية ذوات فوائد جمة مع حيرام ملك صور صديق داود ورضى سليمان فى هذه المعاهدة أن يكون له حصة فى أرباح التجارة الفينيقية وأخذت ثروة الملك وغناه فى الزيادة حتى صارت لا تحصر بواسطة ماورد من المعادن النفيسة ومواد الزخرفة الى فلسطين

وشيد عمارة بحرية فى البحر الاحمر وجعل بحريتها من الصوريين واشتغل الاسرائيليون بالتجارات وبيع البضائع وشرائها مع البلاد الكائنة فى طول سواحل هذا البحر وبهذا صار لسليمان طاقة على أن يتمع حياته بزيادة زخرفة سرايته فبنى لنفسه سراية أكبر زخرفة وأعظم سعة وزينة من السراية التى بناها داود حتى صار لا يعادلها سراية أخرى فى تاريخ ملوك الشرق ووضع فيها كرسى سلطنته مرصعا بأنواع الاحجار النفيسة ونشر العدل فى رعيته ونال منهم الاحترام والوقار ووردت عليه سفراء الدول المجاورة له ونوابهم فأغدق عليهم بالاجلال والاكرام وكانت صفاته الشخصية منحصرة فى هذه الابهة العالية وأماشرفه وجودة أخلاقه وتصرفه فى أمور الاحكام فكان نادر الوجود فى أيامه وكان مستحوذا على جميع علوم عصره وأعطاه الله الحكم والعلم فعدل فى قومه وامتاز الخبيث من الطيب وأخذت كتابته وتدويناته بمجامع العقول وصارت متداولة من سنين عديدة وأحقاب مديدة

وكان أجل عمل مشهور عمله فى مدة سلطنته هو بناؤه معبد الهو بيت الله على جبل موريا فى أورشليم وبتولد من معاهدته مع حيرام ملك صور طرق سهولة لاجراء هذا العمل الخطير وجلب له البحرية من الفينيقيين أخشاب السدر والصنوبر والخور من لبنان الى يافا ومنها نقلوها الى أورشليم لاجل تشغيل الاخشاب اللازمة لعمارة البيت ورسم معماريو الفينيقيين وبناؤوهم صورة المعبد ودكوا أساساته دكا محكما وأقاموا عليها بنيان بيت المقدس ونفس المعبد فكان هذا المعبد أبدع بناء وأعظم عمارة فى عصره وتوجهت اليه سائر الصناع وأرباب الفنون ومن لهم خبرة ودراية بفن جر الاثقال وبذلوا جهدهم فى تشييده وكان

البدء فى بنائه فى السنة الرابعة من سلطنة سليمان أى سنة ١٠١٢ قبل الميلاد واستمر العمل جاريا فيه نحوا من سبع سنوات ونصف وكمل بناؤه فى الشهر الثامن من السنة الحادية عشرة من سلطنة سليمان أى سنة ١٠٠٥ قبل الميلاد ووضع فيه التابوت وخصص البيت المقدس لله سبحانه وتعالى ورتب العبادة فيه باحتفالات جليلة فقبل الله ذلك بحضور جميع الامة العبرانية بكونه أنزل نارا من السماء أكلت ما قربه سليمان من القربانات لله تعالى وسطع النور الالهى فى البيت المقدس حتى ان الاحبار والناس ستروا وجوههم من شدة ضياء النور الالهى وكذا وسع سليمان فى أورشليم وأتقنها وأحكمها بأسوار مستحكمة وبنى أيضا عدة مبان عمومية نافعة فى الاشغال العامة للامة فى محال وقرى كثيرة مختلفة من مملكته وشيد فى وسط الصحراء العظيمة السورية فى منتصف الطريق بين دمشق والفرات مدينة تدمر المفتخرة التى اشتهرت فيما بعد باسم بالميرا

وجاءت اليه (بلقيس) ملكة سبأ وأسلمت به وسبب مجيئها على ما قص فى القرآن الشريف أن سليمان طلب الهدهد فلم يره فقال لاعذبنه عذابا شديدا أو لاذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ولما عاد الهدهد الى سليمان قال له أين كنت فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم أى سرير أو تخت مرصع بالجواهر وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله فقال له اذهب بكتابى هذا فألقه اليهم فأخذه الهدهد وطار حتى وصل الى سبإ وألقى كتاب سليمان فى حجر بلقيس فأخذته وقرأته وأحضرت رؤساء قومها وقوادها وقالت لهم انى ألقى الى كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا على وأتونى مسلمين ثم قالت لهم يا أيها الملأ ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين قالت انى مرسلة اليهم بهدية فان قبلها فهو ملك فنحن أعز منه وأقوى وان لم يقبلها فهو نبى من عند الله فلما جاءت الهدية الى سليمان قال للرسل أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ولما رجع الرسل اليها سارت اليه وأخذت معها قوادها وأمراء قومها وقدمت عليه فلما قاربته قال سليمان لاصحابه أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك يعنى الوقت الذى تتوجه فيه الى بيتك للغداء قال سليمان أريد أسرع من هذا فقال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك وقال له انظر الى السماء وأدم النظر فلا ترد طرفك حتى أحضره اليك فلما أتى به قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر اذ أتانى به قبل أن يرتد الى طرفى أم أكفر اذ جعل تحت يدى من هو أقدر منى على احضاره فلما جاءت بلقيس قيل لها أهكذا عرشك قالت كأنه هو ولقد تركته فى حصون وعنده جنود تحفظه فكيف جاء الى هنا فقال سليمان للجن ابنوا الى صرحا تدخل على فيه بلقيس فبنوا له صرحا من قوارير خضر وجعلوا له طوابق من قوارير خضر فبقى مثل الماء وجعلوا تحت الطوابق مثل دواب البحر وقعد سليمان فيه على كرسى ثم أمر بها فادخلت بلقيس عليه فلما أرادت أن تدخله ورأت صور السمك ودواب البحر حسبته لجة ماء وكشفت عن ساقيها لتدخل فلما رآها سليمان صرف نظره عنها وقال انه صرح ممرد من قوارير قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين وأحبها سليمان حبا شديدا وردها الى ملكها باليمن

وفى هذه المدة كانت مملكة بنى اسرائيل فى أعلى درجة من المجد والسعادة الا أنه مع ما كانت عليه من عظيم الشوكة حل الدمار والخراب فى مملكة العبرانيين بما حصل فيها من نجاح ثورة (رزون) ملك دمشق بما انه كان عزم على تجديد اقامة استقلالية (أروم) الا انه من بعد نجاحه انهزم فى أعماله وهرب الى مصر وصار كل من سبطى افرايم ومنشا على شرف العصيان ولما انكشفت الاخبار والاغراض عن ذلك التزم (يربعام) قائد الثورة بالهرب والالتجاء الى مصر ولما مات سليمان عليه السلام حصل فى المملكة ارتباكات واضطرابات حتى أشرفت على الفناء والدمار ومات فى سنة ٩٧٥ قبل الميلاد بعد أن تسلطن أربعين سنة على بنى اسرائيل

وخلف سليمان ابنه (رحبعام) وما كان له ولد غيره وكان عمره أربعين سنة عندما جلس على أريكة السلطنة وفى مبادى سلطنته طلب الاسباط الشماليون وكانوا على شرف ثورة من الملك الجديد تغيير بعض أشياء كانت فى عهد والده فلم يقبل رحبعام هذا الطلب وتوعدهم بأنه سيزيد فى أثقال أحمالهم زيادة عما كانوا عليه قبل فتولد من ذلك أن خلع الاسباط الشماليون بيعة طاعتهم لبيت داود وحملوا السلاح وأسسوا مملكة جديدة وجعلوا عاصمتها فى شكيم وجعلوا (يربعام) قائدهم ملكا عليهم فشرع الملك رحبعام فى اخماد هذه الثورة بالقوة والحرب فمنع هذا الحرب الداخلى بأمر من الله سبحانه وتعالى وأمرهم بعدم الغارة على بعضهم وبهذا تم انفصال الاسباط من بعضهم واستبدلت مملكة داود وسليمان ذات الشوكة القوية والابهة والمجد والسلطة الداودية بمملكتين فى فلسطين ليس فى واحدة منهما ما كانت عليه حالة المملكة الاولى من الرونق والمجد وأطلق على المملكة الشمالية اسم اسرائيل وعلى المملكة الجنوبية اسم يهوذا وبما أن مدة المملكة الشمالية أقل بكثير من مدة مملكة يهوذا رأينا أن الاجود نسرد تاريخ المملكة الشمالية قبل تاريخ المملكة الجنوبية أى مملكة يهوذا

الباب الخامس

﴿ تاريخ المملكة الشمالية ﴾

وصف مملكة اسرائيل ــ سلطنة يربعام ــ تمام الانفصال ــ سلطنة بعشة ــ الحرب مع دمشق ــ صيرورة عمرى ملكا ــ بناء مدينة سامرا ــ أخاب وايزبل ــ سلطنتا أخاذيه ويهورام أو يهورام ــ موت ايزبل ــ سلطنة ياهو ــ خضوع مملكة اسرائيل لآشور ــ يربعام الثانى ــ الملك الاكبر لاسرائيل ــ الملك شالوم ــ غارات الاشوريين ــ فتح مملكة اسرائيل وجعلها خراجية لمملكة الاشوريين ــ فتح ماوراء نهر الاردن من الاراضى بواسطة الاشوريين ــ شلمنصار الرابع وغزوة اسرائيل ــ التغلب على مدينة سمارية ــ نقل الاسرائيليين الى آشور ــ نهاية مملكة اسرائيل ــ استيطان المملكة واستعمارها بواسطة ملك الاشوريين

أقام الاسباط الشماليون مملكة اسرائيل تحت حكم (يربعام) وكانت واصلة من الحد الشمالى لاراضى بنيامين الى حدود دمشق داخلا فيها جميع أراضى ماوراء نهر الاردن بما فيها أراضى موآب

وما كانت هذه المملكة على غاية من السعة فقط بل كانت أيضا زاهية عامرة كثيرة الخصوبة عن مملكة يهوذا وكانت هذه المنافع والفوائد معادلة للانحطاط والخمول الذى وقع فى عاصمة الاسرائيليين فى مدينة (أورشليم) وانقلب الملك يربعام والامة على رضا منهم الى التمسك بالعبادة الوثنية والاعتكاف عليها وتركوا عبادة الحق سبحانه وتعالى وذكر فى التاريخ العبرى أن الله سبحانه وتعالى أرسل منهم رسلا وأنبياء عديدة ينذرونهم وعد الله وشدة عقابه واجتهدوا فى وعظهم وتذكيرهم ما أسبغ الله تعالى عليهم من نعمته وأرادوا أن يزيلوا عنهم هذه الشوائب وما هم عليه من عبادة الاوثان ورجوعهم الى عبادة الله فلم يزدادوا الا تمسكا بهذه العبادات الباطلة وتمكنت منهم العبادة الوثنية وصاروا كأنهم كانوا أمة أصلية من أممها وما أمكن الانبياء والرسل أن يردوا الامة لعبادة الله سبحانه وتعالى وفشت فيهم الافعال الخبيثة الشيطانية وازدادت مع تقدم الايام والزمن فكانت تأثيراتها ونتائجها على الاصلاح السياسى مضرة كبيرة ووخامة جسيمة وتولد منها أن المملكة صارت صيدا سهلا للغاغين من الاشوريين من بعد مضى قرنين

وكان يربعام أول ملك من ملوك اسرائيل توظف بأمر الله سبحانه وتعالى فانقرض تحت حكمه الثوران والعصيان وتأسست سلطنة المملكة واجتهد فى حصول الانفصال النهائى بين المملكتين ولاجل المساعدة على ذلك أقام معبدين للامة أحدهما فى دان والآخر فى بيت ايل وشحنهما بتماثيل من الاصنام والاوثان ورتب طائفة جديدة من القسس والاحبار لمضارة أحبار اللاويين ومعاكستهم فغضب اللاويون من هذا الفعل القبيح وكدر عليهم وعلى المنتمين اليهم عيشتهم فى جميع الجهات المختلفة من المملكة الشمالية حتى التزموا بالرحيل منها الى مملكة يهوذا واستمرت سلطنة يربعام عشرين سنة مضت فى حروب مستمرة مع مملكة يهوذا ومات يربعام سنة ٩٥٤ قبل الميلاد وخلفه ابنه ناداب وبه انقرضت عائلته فحكم سنتين وقتله بعشة قائد جيشه وقتل أيضا جميع بيت يربعام وجعل نفسه ملكا على بنى اسرائيل فى سنة ٩٥٣ قبل الميلاد ونقل بعشة عاصمة المملكة الى طرسة وعكف على عبادة الاوثان وأما الذين بقوا متمسكين على عبادة الله فى بنى اسرائيل فانهم تركوها ورحلوا الى مملكة يهوذا فى نحو السنة الثالثة عشرة من سلطنته وكان الذى جذبهم الى مملكة يهوذا رفق الملك أسا ورحمته فأوقد بعشة حربا على يهوذا لاجل منع هذه المهاجرة وارتداد الذين هاجروا الى مملكته واجتهد فى محاصرة الحد الجنوبى لمملكة يهوذا ثم التزم العود الى الجهة الشمالية بواسطة ما وقع من غارة السوريين على مملكته وكان السوريون تحت قيادة بنهداد ملك دمشق وكان الملك أسا حالفه واشترى منه هذه المحالفة لاجل ابتعاد بعشة عن مملكته ومن بعد موت بعشة خلفه ابنه ايلة فى سنة ٩٣٠ قبل الميلاد فذبحه زمرى وهو فى حالة سكر سنة ٩٢٩ قبل الميلاد وجعل زمرى نفسه ملكا الا أن الجيش لم يقر بملوكيته على المملكة وأقام الجيش عمرى قائده ملكا فأعقب ذلك حربا داخليا استمر سبعة أيام ولما انهزم زمرى دخل فى سرايته وأغلقها عليه وعلى عائلته وحرقها على رأس نفسه وهلك فى لهيب نارها وابتدأت سلطنة عمرى فى سنة ٩٢٩ قبل الميلاد وكان له خصم اسمه تبنى معضد فى دعواه بنصف الامة فانتصر فى حركته وتسلطن الى حد سنة ٩١٨ قبل الميلاد وبنى مدينة ساميرا الحصينة وجعلها مقر عاصمة مملكته وأنشب حربا على الدمشقيين لكنه انجبر أخيرا على

عقد صلح مهين

ثم خلفه ابنه اخاب وهذا قوّى نفسه بزواجه بإزابل بنت أثبعل ملك صور ورئيس قسس أسطارطه فتولد من ذلك الارتباط ادخال الفينيقيين الوثنيين في مملكة اسرائيل وفي نحو تمام القرن أرسل الله سبحانه وتعالى الياس نبيا الى بني اسرائيل لينذر الملك والامة عقاب الله لهم من أجل اعتكافهم على المعاصي وارتكابهم الجرائم فلما لم يسمعوا ما وعظهم به أرسل الله عليهم ثلاث سنين قحطا وكشفه الله عنهم بعد أن تابوا ورجعوا عما كانوا عليه من المعاصي والجرائم الى انقيادهم لطاعة الله سبحانه وتعالى وعبادته وقرب الياس القربان لله على جبل الكرمل وذبح قسيس بعل وأنشب اخاب في السني الاخيرة من سلطنته حربا مظفرا مع الدمشقيين فكان هذا الحرب سببا في عود استقلالية مملكة اسرائيل وأعقب ذلك صلحا استمر ثلاث سنوات وفي نحو سنة ٨٩٧ قبل الميلاد جدد اخاب الحرب مع سوريا واجتهد في الاتصال مع يهوشفاط ملك يهوذا ايضا أن ضبط القلعة الثغرية المسماة (راموث جلعاد) ومات اخاب في هذه الواقعة التي حصلت وتشتت الجيش المتحد

وخلف اخاب ابنه أحزيا وفي مدة سلطنته القصيرة التي كانت أقل من نصف سنة عصت موآب ثم خلف احزيا أخاه يحورام أو يهورام فاستمر يحورام في المعاهدة مع يهوذا وكان أحسن من اخاب وأحزيا لانه أبطل عبادة بعل ولو أنه عكف على العبادة الوثنية اختراع يربعام وأنشب حربا على موآب بما كانت عصت على أخيه وانضم بواسطة هذه الغزوة الى يهوشفاط وملك أدوم عبد ملك يهوذا وأرسل الله سبحانه وتعالى المياه اللازمة لاستعمال الجيش بآية من عنده كما حصل انهزام الموآبيين هزيمة فاصلة بقدرة الله وأعقب يهورام هذه النصرة بخراب أرض موآب بالنار والسيف وأشهر نصرته بما أجراه من الشدائد والفظائع فمن ثم غضب ملك يهوذا وعاد الى بلاده ومن المحتمل أنه عاد في السني الاخيرة من سلطنته عن عبادة بعل وجدد الحرب مع سوريا على راموث جلعاد فانجرح في حربه مع السوريين وتوجه الى اسرائيل لمداواة نفسه وعاده فيها صديقه أحزيا ملك يهوذا وفي مدة غيابه عن الجيش أقام العسكر (ياهو) ملكا وسار الى اسرائيل وقتل (ياهو يهورام وأحزيا) وأمر برمي العاهرة ارملة أخاب من فوق أسوار المدينة وأهلك جميع بيت اخاب

وابتدأت سلطنة ياهو في سنة ٨٨٤ قبل الميلاد وكان أول عمل عمله أن أبطل عبادة بعل بيد قوية الا أنه أبقى العبادة الوثنية التي اخترعها يربعام ثم ان (حزايل) الدمشقي اغتصب منه أقاليمه الموجودة فيما وراء نهر الاردن وآل أمره الى أن دفع الخراج الى سلطنة الاشوريين وكانت زهت وشبت على الأفق الشمالي وصارت ذات شوكة قوية في آسيا ثم خلفه ابنه (يهواحاز) في سنة ٨٥٦ قبل الميلاد وضعفت تحت حكم هذا الملك شوكة المملكة نوعا بواسطة ما حصل من غلبة الاشوريين حتى ان ملك الاشوريين ألزم يهواحاز بأن يعين نهاية ثابتة لقوة جيشه الثابت ثم خلفه ابنه (يهواش) في سنة ٨٣٩ قبل الميلاد وكان ملكا جبارا شجاعا حازما في حروبه بتجدادملك دمشق ثلاث دفعات متواليه ابن حزايل واستحوذ على قطع الاراضي التي كانت فقدتها اسرائيل وهزم (أمصيا) ملك يهوذا ودخل أورشليم أشبه بكونه فاتحا لها ثم خلفه ابنه (يربعام) الثاني في سنة ٨٢٥

قبل الميلاد وفى مدة سلطنته وصل الاسرائيليون الى أقصى درجة من درجات السمو والافتخار والشوكة وانه لم يسترد جميع الاراضى التى فقدتها اسرائيل الكائنة فى شرق نهر الاردن فقط وفتحه موآب وعمون بل وهجم على دمشق نفسها وكانت اضمحلت شوكتها ونفوذها بسبب ما حصل فيها من الغلبة والنجاح للاشوريين وأضاف (يربعام الثانى) قسما عظيما من أراضى سورية الى مملكة اسرائيل

ثم خلف (يربعام الثانى) اما مباشرة واما من بعد مدة ابنه (زكريا) فى نحو سنة ٧٧٢ قبل الميلاد وذبح (شالوم زكريا) من بعد مضى ستة أشهر وبموته انقرض بيت (ياهو)

وتسلطن (شالوم) أقل من شهر وذبح فى نوبته واستخلف بدله قاتله (منحيم) فشرع منحيم فى الغارة على الاراضى الاشورية الكائنة فى الجهة الشرقية من نهر الفرات وتغلب على (تفصح) وتولد من هذه الغارة أن انتقم منه ملك الاشوريين وهزمه وجعل مملكته خراجية للاشوريين وفى سنة ٧٦٢ قبل الميلاد خلف منحيم ابنه (فقحيا) فذبحه (فقح) أحد قوّاده وجلس على كرسى ذبيحته فى سنة ٧٦٠ قبل الميلاد وتسلطن ثلاثين سنة مشحونة بالمصائب والاهوال وعمل محالفة مع (رصين) ملك دمشق مؤملا فى ذلك حفظ مملكته من غوائل الاشوريين وغاراتهم والتغلب على يهوذا وغارت القوى المتحالفة على مملكة يهوذا وأبلتها بالمصائب والدمار ثم ان تغلاتغلاسر الثانى ملك الاشوريين سار لمساعدة يهوذا وأرغم فقح بعقد الصلح وأغار الاشوريون غارة ثانية على اسرائيل وخربوا الاراضى الكائنة فيما وراء نهر الاردن وساقوا أهلها أسرى الى أشور وكان ذلك مبادى انقراض مملكة اسرائيل ثم ان هوشع ذبح فقح واستخلف بدله اما مباشرة أو من بعد مدة فى سنة ٧٣٠ قبل الميلاد وكان هوشع آخر ملوك مملكة اسرائيل التى صارت فى هذا الوقت على عجلة من شرف دمارها وانقراضها وكان أعظم ملوك اسرائيل والظاهر أنه كان من رغبته صيانة نفسه ومملكته عن الفساد الحاصل من التمسك بالعبادة الوثنية الا أن الوقت فات وقضى الله ما كان وما يكون وابتدأ انحطاط مملكته بأن صارت خراجية للاشوريين لكنه رفض فى الحال الانقياد لطاعتهم واجتهد فى عود استقلال بلاده ولهذا الغرض عقد محالفة مع مصر فغار شلمنسار الرابع على اسرائيل وتغلب على البلاد ووضع الحصار على مدينة سمارية فقاومته سنتين ثم حصل التغلب عليها فى السنة الاولى من حكم سرغون وبسقوطها زالت مملكة اسرائيل بعد مدة مقدارها ٢٥٥ سنة فعلى حسب عوائد العصر خلت كافة الاراضى التى حصل التغلب عليها من السكان ورحلت سكانها الى الجهات البعيدة من مملكة الاشوريين

واستمرت الاراضى الاسرائيلية متروكة خالية عن السكان الى حد سلطنة أصرحدون ملك أشور فى القرن السابع قبل الميلاد ثم ان هذا الملك أمر باستعمار هذه الاراضى الخصبة لاجل الانتفاع بها وكثرة الفوائد منها وجلب اليها القبائل والعائلات من بابل وارخاى والسوس وعلماى والفرس ومن الامم الاخرى المجاورة لها وحمل هؤلاء السكان المستجدون أصنامهم وعباداتهم الوثنية الى أرض الله المقدسة فغضب الله سبحانه وتعالى غيرة على أرضه وسلط على سكانها الاسد الكاسرة والحيوانات

المنترسة التي نمت وكثرت مــدة خرابها نصف قرن فاشتكى السكان الى حكامهم ووصفوا لهم ما حل ببـلادهم وعرضوا لملكهم أحوال المصائب والآفات الحالة ببلادهم وقالوا ان هذه أرض الله فأرسل ملك أشور لهم رجلا من أسرى الاحبار فأقام نفسه فى بيت ايل وعلمهم طرائق الخوف والخشوع الى الله تعالى وهو وان كانت تعليماته ممزوجة بقليل من الخطا وعدم الصواب الا أنها كانت خالية بالكلية من عقائد وشعائر الديانة الوثنيــة التى كانت جارية على اجرا آت يربعام ثم ان السكان المستجدين رأوا فى أنفسهم أن لهم الحرية التامة من أجل خدمة وعبادة آلهتهم القديمة فأجروها وأقاموا شعائر دياناتهم القديمة فصاروا مختلفى الديانات بين الحق والباطل وكانوا يخافون الله ويعبـدون آلهتهم وصارت ذرية هؤلاء العشائر معروفة فى التاريخ العبرى باسم الشمـاريين وكانوا ألد الاعداء للجنس العبرانى

الباب السادس

تاريخ مملكة يهوذا

فضائل المملكة الجنوبيــة على خصيمتها الشمـالية ـ سلطنة كل من رحبعام وابيّا ـ سلطنة أسا الطيبة ـ هزيــة المصريين ـ انضمام اللاويين الى يهوذا ـ محالفــة مع دمشــق ـ حروب مع اسرائيل ـ سلطنة يهوشفاط ـ معاهدة مع اسرائيل ـ عثاليــة ـ اعلان يواش ملك ـ سلطنته صيرورة امصيا ملكا ـ التغلب على أدوم ـ خطيئة أوخيا ـ سلطنة احاز ـ صيرورة مملكة يهوذا خراجيــة للمملكة الاشوريين ـ صــيرورة حزقيا ملكا ـ تبدد جيش سنحاريب ـ سلطنة منسا الذميمة ـ أسره وتوبته ـ سلطنة آمون ـ صيرورة مملكة يهوذا خراجية لبابل ـ الثورات ـ تغلب بختنصر على أورشليم ـ الاسر البابلى

كانت مملكة يهوذا ممتدة كثيرا الى الجهة الجنوبية وأقل خصوبة فى الارض المقـدسة ومع أن سـبط بنيامين كان مختصا بشمـال أرض المملكة الا أنه تنازل ليهوذا عن قرعتـه وصار خطه الشمـالى حـدا للمملكة ومع أن مملكة يهوذا كانت صغيرة وقليلة المنافع الا أنها كانت فى الحقيقة أقوى وأجـل من المملكة الثانية وكانت معتدلة الموقع سهلة المحافظة والمدافعة واقعة على مسافة من الطريق المسلوك بكل من الجيوش المتحاربة من آسـيا ومصر الذين يتبعون فى سـيرهم الاراضى السهلة الواقعة فى طول ساحل البحر ويحيدون عن سلاسل الجبال الصعبة المتوطن فيها يهوذا وكان سكانها أهل غـيرة وحمية فى عقائدهــم الدينية حتى صاروا هــم الامة الحقيقية لله سبحانه وتعالى وصاروا لهم حق مواريث العهود التى كانت عهـدت لآبائهم من قبـل وكان لهم شهرة عظيمة فى اين سـيرهم وعودا أنفسهم من الهزيمة الى التغلب وكانت المملكة فوق كل ذلك متمتعــة برعاية الحق سـبحانه وتعالى فى المحافظة والمدافعــة ومن فضائلها أنها كانت خاليــة من الخطايا والجرائم التى كانت عاكـفة عليها المملكة الشمـاليــة وحفظت لملوكها هيئــة الوراثة المتتالية من دون أن يحصل فيها خدش حتى صيرتها شوكتها التى كانت لا تتزعزع عرضة لغارات ملوك الاشوريين والمصريين حتى وجهت اليها المملكة البابلونيــة جميع قواها وحطمتها ودمرتها بعـد أن استمرت مشــيدة البنيان مدة قرن وواحد من بعـد انقراض ودمار المملكة الثانية

وقد ذكرنا أن رحبعام بن سليمان خلف أباه على تخت مملكة يهوذا فتسلطن رحبعام المذكور ثمانية عشرة سنة وكانت مدة سلطنته احدى الرزايا والمصائب على مملكة يهوذا وذلك أنه فى مدة سلطنته أى فى سنة ٩٧٠ قبل الميلاد غار شيشق أو شيشاق الاول ملك مصر على يهوذا وتغلب على مدائنها الحصينة واحتل مدينة أورشليم ونهب المعبد والسراى الملوكية وقفل راجعا بعد أن جعل يهوذا خراجية لمملكته وفى مدة هذه السلطنة أيضا دخل الجم الغفير من الاهالى فى الديانة الوثنية واستمرت الحروب بين المملكة الشمالية ومملكة يهوذا الا انها كانت على درجة غير منتظمة

وخلف أفيا بن رحبعام أباه فى سنة ٩٥٨ قبل الميلاد فأوقد نار الحرب على اسرائيل بشدة عنيفة وهزم يربعام فى نواحى زماريم من جبل افرايم وكانت نتيجة هذه النصرة وقوع بيت ايل ويشنة وافرايم فى يدى أفيا ولما رأى يربعام أن لاطاقة له على استمرار الحرب ومداومته مال الى عمل معاهدة صلحية لمدة عشر سنوات

ثم خلف أسا أباه أفيا سنة ٩٥٥ قبل الميلاد وما كان أسا مثل أبيه بل كان ملكا متواضعا خاشعا لله سبحانه وتعالى فأبطل الديانة الوثنية بيد قوية ووضع بدل ذخائر المعبد التى استباحها شيشاق تحائف أخرى ثمينة من الفضة والذهب وانتهز الفرصة فى مدة السلم مع مملكة اسرائيل وقوى حصانة مدائنه وزاد فى قوة جيشه وفى نحو سنة ٩٤١ قبل الميلاد غزا طيراح الحبشى مملكة يهوذا بجيش قوى تحت قيادته والصحيح انه إصَرْحَدُّون الثانى ملك مصر فهزمه أسا شر هزيمة وشتت شمله فى نواحى مريشة وساق خلفه لحد جرار وقفل راجعا الى أورشليم مثقلا بالغنائم التى اغتنمها من أعدائه ومن المدائن المجاورة الى جرار وحرض النبى عَزَاريا الملك أسا وحثه على أن يجمع مجمعا من الامة فى أورشليم فى السنة الخامسة عشرة من سلطنته أى فى سنة ٩٤٥ قبل الميلاد واتفق الامة فى هذا المجمع اتفاقا جليلا على أن تكون على حق من التمسك بعبادة الحق سبحانه وتعالى وأن تكون على صداقة ووثاق عام لله وكان يوجد كثير من الناس المتمسكين بعبادة الله والخاضعين له سبحانه وتعالى فى المملكة الشمالية منتظرين عقد هذه الجمعية والعود فيها الى عبادة الله فهاجر كثير من عباد الله من مملكة اسرائيل الى مملكة يهوذا تمسكا بدينهم فارتاع لذلك بعشة ملك اسرائيل حتى انه حصن الرامة الموجودة على الطريق السلطانى الموصل بين اسرائيل ويهوذا لاجل صد ومنع مثل هذه الهجرة وأنشب حربا على أسا فخاف أسا وانزعج من وقوع الخطر ومن أن يكتسب فى حياته اثما فى مثل ذلك فاشترى محالفته مع بنحدادا الاول ملك دمشق وجعل لهذه المعاهدة خزائن الهيكل وكنوزه فأغار فى الحال ملك سوريا على مملكة اسرائيل وترك الجيش الشمالى حدوديهوذا وتوجه لملاقاة هذا الكرب ومضى الباقى من سلطنة أسا فى حرب مستمرة ومات فى سنة ٩١٦ قبل الميلاد وخلفه ابنه يهوشفاط فقضى القسم الاعظم من سلطنته فى ازالة الديانة الوثنية وحطمها التى أبطلها أبوه أسا وفى تحصين مدائن مملكته وكذا تحصين ما تغلب عليه أبوه من المدائن الموجودة فى جبل افرايم

وكانت سلطنة يهوشفاط فى مملكة يهوذا خمسا وعشرين سنة أخضع فيها الموآبين والفلسطينيين الى دفع الخراج وعقد معاهدة مع اخاب ملك اسرائيل بكونه زوج ابنه الاكبر يهورام عَزَليا بنت أخاب وعَزَابل فتولد من هذا الزواج ارتباك وقلاقل مزعجة فى مملكة يهوذا وساعد اخاب فى حروبه مع

السوريانيين وكان موجودا معه فى راموث جلعاد التى مات فيها اخاب وتولد من هذه الواقعة المشؤمة تقوية الاعداء القديمة لمملكة يهوذا وهم الموآبيون والادمونيون والعمونيون وغزوا المملكة فى قوة كبيرة فهزمهم الله سبحانه وتعالى بآيات من عنده اجابة لدعاء يهوشفاط وأوقع هذا الخلاص الرعب والخوف فى قلوب جميع الامم المجاورة لمملكة يهوذا وعقد وامعاهدات سلمية لمدة السنين الباقية من سلطنة يهوشفاط وعقد يهوشفاط معاهدة مع أحزيا بن اخاب لاجل تجديد المشروعات البحرية التى كانت جارية فى مدة سلطنة سليمان بن داود فى البحر الأحمر فغرقت العمارة البحرية ليهوشفاط فى نواحى عزيون غبرة عقابا له على ما فعل من معاهدته مع احزيا فترك الملك هذا العزم ومات فى سنة ٨٨٩ قبل الميلاد واستخلف بدله ابنه يهورام وكان اشترك مع أبيه فى الحكم ثلاث سنوات وكانت مدة سلطنة يهورام قليلة مشحونة بالمصائب والارتباكات وتولد من زواجه بعزليا بنت اخاب تلف وفساد الحالة التى كان عليها يهورام حتى أقام عبادة أشطوريث فى مملكة يهوذا بجميع ما كانت عليه من شعائرها القبيحة وقتل جميع اخوته حتى لم يجد له فيما بعد منازعا فى كرسى سلطنته فعاقبه الله سبحانه وتعالى على آثام أفعاله الخاطئة بأن أرسل على مملكته رزايا وبلايا شديدة وذلك أن أروم عصت وكسرت شوكة الملك وخلعت طاعته وصارت مملكة مستقلة تحت حكم وشوكة ملوك من أصلها ومع أن يهوذا أوقدت نار الحرب عليها بعد ذلك الا أنها لم تعد خراجية لها مرة أخرى وأغار الفلسطينيون والعرب الذين كانوا يدفعون الجزية الى يهوشفاط على المملكة وتغلبوا على أورشليم ونهبوها وجلوا جميع نساء الملك ماعدا عزليا وكذا جميع أولاده ما خلا أحزيا ابنه الاصغر

ثم جلس احزيا على الكرسى فى سنة ٨٨٥ قبل الميلاد وعقد معاهدة مع خاله يهورام ملك اسرائيل وأخو أمه عزليا وكان حاضرا معه فى الواقعة التى حصلت بالقرب من راموث جلعاد وجرح فيها يهورام ثم قتله ياهو على الفور فى الثورة التى تولد منها لهذا الرجل الحربى لبس التاج الاسرائيلى فى سنة ٨٨٤ قبل الميلاد ثم خلفته أمه عزليا وقتلت جميع البيت الملوكى لمملكة يهوذا ماعدا يواش لانه كان طفلا فى المهد وكان أصغر أولاد احزيا وجعلت نفسها ملكة يهوذا ثم ان عمة يواش أخفته فى الهيكل وكانت زوجة يهوياداع الحبر الاعظم وتسلطنت عزليا ست سنوات كان يواش مختفيا فيها فى الهيكل

وفى السنة السابعة من سلطنتها قام يهوياداع فى رأس ثورة معضدة بالجيش والامة وأعلن بسلطنة يواش وقتل عزليا فى سنة ٨٧٨ قبل الميلاد وصار يهوياداع نائب المملكة والوصى على الملك وفى مدة الثلاث وعشرين سنة الاولى من سلطنته وهى المدة التى كان فيها يهوياداع على قيد الحياة ورئيس مجلس الملك كان حكم يواش على غاية عظيمة من جودة السير وأخذت المملكة فى الفوز والنجاح ومحا أثر الديانة الوثنية وعاقب أهلها بأشد العقاب وسار بنفسه الى المعبد وأبطل الاجرآت التى كانت جارية من اللاويين فى اسراف وتبذير النقود المقدسة ومن بعد موت يهوياداع غرق يواش فى الديانة الوثنية فهجم حزاييل ملك دمشق على مملكته وأرغمه على مشترى الصلح بشرط أن يسلم له جميع ذخائر السرايات الملوكية والمعبد بما فيهما من الاوانى المقدسة ثم من بعد مضى قليل من الزمن قتله اثنان من خدمه فى سنة ٨٣٩ قبل الميلاد وخلفه ابنه أمصيا وابتدأت سلطنته فى السنة التى ذبح فيها أبوه

فعزم على استرداد أدوم التى كانت عصت فى مدة يهورام وهزم جيش الادمونيين وتغلب على بطرة وقتل فيها من الادمونيين ١٠٠٠٠ نفس الا أن نصرته هذه كانت وقتية ثم تعالى وافتخر بنصرته هذه وأنشب حربا على يهواش ملك اسرائيل فهزمه يهواش شرهزيمة وأخذه أسيرا فى بيت شمس وساقه الى أورشليم مع الطنطنة والفخفخة ونهب يهواش الهيكل والسراى الملوكية وهدم السور الشمالى من المدينة ولما أخذ الرهائن اللازمة لاستتباب حصول السلم فى المستقبل من نحو يهوذا قفل عائدا الى مدينة سمارية وكانت السنون الاخيرة من سلطنة أمصيا مشحونة بالجور والظلم والفساد حتى ان قومه بغضوه وكرهوه وتمنوا زوال ملكه وكانت نتيجة ذلك أن قتله الجيش ثم خلف أمصيا ابنه عزارية فى سنة ٨٠٩ قبل الميلاد وكان ملكا مهيبا شجاعا فابتدأت سلطنته باسترداد مدينة علات القديمة الواقعة فى رأس الجناح الشرقى للبحر الاحمر (أى خليج العقبة) وبنى هذه المدينة واستمرت سلطنة عزارية اثنتين وستين سنة كانت على غاية من الفلاح والنجاح وتغلب على معظم فلسطين وجبى الخراج من عمون وتعالى بنصره وافتخر بظفره واعتدى بكبره وفظاظته على تغلبه على وظيفة الاحبار فابتلاه الله سبحانه وتعالى بالبرص وقت عقده البخور فى البيت المقدس فالتزم على فصل نفسه من الملك وفى مدة الست سنوات أو السبعة التى كانت باقية من سلطنته سلم زمام المملكة لابنه يوثام فتولى يوثام الملك من بعده وابتدأت سلطنة يوثام بعد موت أبيه فى سنة ٧٥٧ قبل الميلاد وكان ملكا ورعا زاهدا ناجحا موفقا فى المملكة الا أنه تزايد فى مدة سلطنته فساد وتعفن أمة مملكة يهوذا وعقائدها الدينية وحصن أورشليم وأرغم العمونيين على دفع الجزية وفى السنين الاخيرة من سلطنته ابتدأ فقح ملك اسرائيل ورصين ملك دمشق فى حرب كانت هائلة وبلية على المملكة واستمرت الى السلطنة التالية ثم ان احاز خلف أباه يوثام فى سنة ٧٤٢ قبل الميلاد فأعاد عبادة بعل مرة ثانية وأفسد فى الامة فسادا كبيرا واشتد الحرب الذى كان ابتدأ فى سلطنة أبيه مع اسرائيل وسوريا وصار فى حالة هائلة فالتزم احاز رغم أنفه أن يتوسل فى المساعدة بملك الاشوريين وهو تغلاثغلاسر الثانى وكان ذا شوكة قوية وجعل نظير مساعدته له أن يكون خراجيا تحت حكمه فأغار ملك الاشوريين على سوريا وتغلب على دمشق وانقرضت مملكة سوريا وعاقب اسرائيل أشد العقاب وألزمهم عقد الصلح

ثم خلف احاز ابنه حزقيا فى سنة ٧٢٦ قبل الميلاد وابتدأ حزقيا فى سلطنته بخلاص عبادته لله سبحانه وتعالى وكسر جميع الاصنام والاوثان وكان ملكا فاضلا لاحاز فافعل ما فيه الصواب عند الله وهزم الفلسطينيين حتى انه تجاسر على خلع طاعة الاشوريين فهذا هجم سنحاريب ملك الاشوريين عليه وأرغمه بعود مملكته خراجية له كما كانت ولم تمض بعد ذلك مدة حتى عاد الى العصيان وعقد محالفة مع مصر

وفى سنة ٦٩٩ قبل الميلاد دخل سنحاريب مرة أخرى يهوذا عازما على هشم وحطم هذه المملكة الصغيرة قبل أن يتوجه لغزو مصر لاجل توقيع العقاب الشديد على عبده ملك مصر نظير مساعدته عصيان خادمه عليه فسار سنحاريب فى طول الساحل الى النهاية الجنوبية لسهل فلسطين وكانت مدائن الاراضى الواطية كثيرة أمامه ولما أخذ أخيرا الجيش وضع الحصار على لبنة وفى أثناء اشتغاله بالحصار أو من بعد غلاق الحصار أرسل رسولا الى حزقيا يطلب منه الطاعة التامة والخضوع الكامل

فاعلن

فاعلن حزقيا بكفره وأن الله أشد منه قوة في خلاصه من بطشه ودوّر حزقيا وجهه لله تعالى وتوسل اليه بالدعاء فاستجاب الحق سبحانه وتعالى دعاءه وعاقب السفيه الكافر سنحاريب بآية من عنده فقتل بواسطتها من جيشه ١٨٥٠٠٠ نفس في ليلة واحدة فارتاع سنحاريب من هذه الحادثة وضعف عزمه من هذه المصيبة وقفل راجعا الى بلاده

وأنزل الله سبحانه وتعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الشريف قصة هذه الحادثة في قوله تعالى (وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض مرتين ولتعلن علوا كبيرا فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا) فهذه المرة الاولى من دخول سنحاريب وأما دخوله في المرة الاخرى فهو قوله تعالى (ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها فاذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا)

ثم استخلف بعد حزقيا ابنه منشا في سنة ٦٩٧ قبل الميلاد فتسلطن خمسا وخمسين سنة وكان أخبث ملك من ملوك يهوذا لم يعهد قبله مثله جلس على كرسي مملكة يهوذا وذلك أنه أعاد كل هيئة من هيئات العبادة الوثنية التي لم يعهد مثلها قبل أبدا في مملكة يهوذا واسرائيل وتولد من فعل هذه الشعائر الرجسة واقامتها قفل الهيكل وتركت الامة شريعة موسى وفضلا عن اقامة هذه الديانة وشعائرها ارتدت الامة عن عبادة الله في نفس أورشليم وقام الانبياء يعظون الامة ويبعدونها عن هذا الارتداد ويخوفونها عقاب الله وكثرت الاحداث فيهم وعامل الملك الانبياء بافظع المعاملات وأشدها والصحيح أن يحيي أول نبي ذبحه منشا من أجل ذلك

وفي سنة ٦٧٧ قبل الميلاد ارتاب ملك الاشوريين في صداقة منشا وبلغه أنه سيقوم في ثورة ضده فخلعه وساقه الى بابل أسيرا فضجر منشا من سوء ما حصل له من عذاب الاسر فتاب الى الله وتوسل اليه بالدعاء فقبل الله توبته واستجاب دعاءه وأعاده ملك الاشوريين الى تخته ومقر ملكه وتسلطن بعد ذلك مدة بذل فيها جهده في محق الديانة الوثنية وأعاد ديانة آبائه وحصن مدينة أورشليم واستحكمها وفي هذا الوقت أمر ملك الاشوريين باستعمار أراضي مملكة اسرائيل

ثم خلف منشا على تخت مملكة يهوذا ابنه آمون في سنة ٦٤٢ قبل الميلاد فاجتهد في عود عبادة الاوثان الا أنه قبل أن يشرع في اجراء مقاصده قتل في سنة ٦٤٠ قبل الميلاد واستخلف بدله ابنه يوشيا وكان طفلا عمره ثمان سنوات وكان أول الاعمال التي أجراها هذا الملك الشاب أن دمر العبادة الوثنية وأعاد هيكل العبادة الربانية وتسلطن احدى وثلاثين سنة وكان أحسن ملوك اليهود وفي مدة سلطنته سقطت مملكة الاشوريين وفي سنة ٦٠٨ قبل الميلاد لما أعلن نخوفرعون مصر حربا على بابل غزا فلسطين وتغلب على المدائن الفلسطينية وسار في طول الساحل حتى وصل جبل الكرمل ومن هناك عبر سهل عصدرلون أو عيزرعيل الكبير وكان متجها في سيره الى جهة الفرات فجمع يوشيا قواه وأسرع في الهجوم عليه وفاء بكونه تحت سلطة بابل وانه خراجي لها فأنذره نخو بالكف عن هذا الهجوم لانه عازم على عدم التعرض له بأي حالة كانت بل غزوه قاصر على بابل فأصر ملك اليهود على ما عزم عليه فقتل في واقعة مجدّة وكان حصول هذه الواقعة في البقعة التي حصلت فيها الواقعة الكبرى المذكورة

وباراق وخلفه ابنه الثانى يهوآحاز وكانت أمه هى السبب فى أن جعلته ملكا وتسلطن يهوآحاز ثلاثة شهور وخلعه نخوّو سلم تاجه الى يهوياقيم وهو الابن الاكبر ليوشيا فى سنة ٦٠٩ قبل الميلاد وتسلطن يهوياقيم أربع سنوات خراجيا لمصر ولما هزم بختنصر ملك بابل نخوّ ملك مصر هزيمة فاصلة فى قرسميش وامتدت ممالك البابليين الى حدود مصر انجبرت مملكة يهوذا على الخضوع وأرسل يهوياقيم بطاعته الى بابل سنة ٦٠٥ قبل الميلاد وسنة ٦٠٤ قبل الميلاد وجل بختنصر كثيرا من شبان العبرانيين وكان من ضمن هؤلاء النبى دانيال الى بابل وتهذبوا فى علوا الكلدانيين وفى سنة ٦٠٢ قبل الميلاد خلع يهوياقيم طاعته لملك بابل وأقام راية العصيان وأخبر النبى أرميا بما يحصل فى سلطنة يوشيا فى نحو سنة ٦٢٩ قبل الميلاد وكانت نبوته فى سلطنة ابنه والظاهر أن عصيان يهوياقيم كان مشروعا فى وقت مناسب وكان موعودا بالمساعدة من مصر وفينيقية وكانتا على ثورة ضد بابل تحت قيادة قواد من صور وفى سنة ٥٩٨ قبل الميلاد أى فى السنة السابعة من سلطنة بختنصر سار بختنصر ملك بابل لاجل اخضاع أقاليمه العاصية ودخولهم تحت طاعته ولما دخل فى فينيقيه وضع الحصار على مدينة صور الا أنه لما رأى نفسه أن لا طاقة له على التغلب على هذه المدينة بسرعة ترك قطعة من جيشه فى الاستمرار على محاصرتها وتحرك بما بقى من الجيش على أورشليم فخضعت له بمجرد قربه منها فقتل يهوياقيم وفعل فى جثته الافعال الغير الموافقة للعوائد الشرقية مع شدة الغضب والاحتقار واستوفى بذلك ما أنبأ به النبى أرميا فيما يختص بشأن هذا الملك

وأجلس بختنصر يهوياقين بن يهوياقيم على كرسى مملكة يهوذا وكان شابا صغيرا فاستمر فى الملك نحوا من ثلاثة شهور ثم ارتاب بختنصر منه فعزله وأرسله أسيرا الى بابل واستبدله بعمه صدقيا أخى يهوياقيم وابن يوشيا واستمر صدقيا فى صداقة طاعته لبابل ثمان سنوات ثم عقد محالفة مع عُوفْريم ملك مصر واتفق على مساعدته بجيش قوى فخلع طاعته وأقام راية عصيانه فى سنة ٥٨٩ قبل الميلاد

وكان حصار مدينة صور والهجوم عليها آخذا فى درجة التقدم فسار بختنصر على أورشليم بنفسه فى جيش جرار وهزم ملك المصريين ثم حالفه بعد أن هزمه وأخذ أورشليم بالهجوم عليها عنوة وهرب صدقيا مع ما بقى من جيشه الا أن بختنصر تغلب عليهم فى سهل أريحا وقطع العساكر قطعا قطعا وأسر الملك وسمل عينيه وأرسله أسيرا الى بابل ودمر بختنصر أورشليم والمعبد وأحرقهما بالنار وقتل جميع أهلها ما عدا قليلا منهم أرسلهم الى كلدة وكانت هذه الواقعة هى مبدأ الاسر البابلى الكبير ووقوع العقاب على الامة الاسرائيلية نظير ما اكتسبوه من الاثم والعدوان وكان ذلك فى سنة ٥٨٦ قبل الميلاد ومع هذا فان بختنصر لم يترك مملكة يهوذا فى حكومة فوضوية بل وضع فيها نائبا من بابل أقام نفسه فى مذبح وبذل جهده فى تحريض اليهود على غراسة الارض وزراعتها وأن يقيموا على حالة سلمية وبعد ذلك بقليل قتل هذا الحاكم فى ثورة ساعدهم عليها النبى أرميا ثم هرب الثائرون الى مصر وأخذوا معهم النبى أرميا وآل أمرهم الى ما آلت اليه عاقبة مصر وأرسل بختنصر الباقين فى مملكة يهوذا أسرى الى بابل وفى نفس هذا الوقت صارت مملكة يهوذا خرابا بلقعا لا أنيس بها ولا ساكن فيها وتم خرابها ودمارها وما تقدم معنى قوله تعالى (ثم بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا)

الباب السابع

من ابتداء الاسر البابلي الى الوقت الحالي

وجود اليهود في بابل ـ سقوط مملكة بابل ـ كيرش أو كيخسرو ـ انعطافه وميله الى اليهود ـ منحه في الترخيص لهم في العود الى فلسطين ـ العود ـ اعادة بناء الهيكل ـ منح دارا الاول لليهود في بناء أورشليم ـ عَزْره ـ تقلبات اسكندر الاكبر ـ صيرورة مملكة يهود اقليما مصريا ـ السبعينية ـ انتقال طاعة يهود الى سوريا ـ ثورة مقابوس ـ مشروعات يوراس مقابوس ـ الحرب مع سوريا ـ مملكة الاسمونين ـ وجود الرومانيين في الشرق ـ تداخلهم في أعمال يهوذا ـ نهب قراصوص الهيكل ـ انقراض مملكة الاسمونين ـ هيرود الاكبر ـ مولد عيسى المسيح ـ صيرورة يهوذا اقليما رومانيا ـ حرب الاستقلال ـ تغلب طيطوس على أورشليم ـ تغلب العرب على فلسطين ـ حروب الصليب ـ تابع تاريخ فلسطين

أمر بختنصر اليهود الذين نقلهم من أرضهم و بلادهم أن يستوطنوا كلدة وفيها جبر الله قلوبهم في حالة أسرهم بمواعيد وعدهم الله اياها على لسان أنبيائهم وذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يرد هلاكهم مثل الامم الاخرى بل أراد عودهم الى أرضهم بعد استيفائهم العقاب والعذاب الذي ابتلاهم به وقضاه عليهم

وفي مدة أسر اليهود انقلبت مملكة بابل بواسطة ما حصل من تغلبات كيرش أو كيخسرو وألحق ممالك بابل بمملكة الميديين والفرس الكبيرة فألهمه الله كيرش بوسائط عود اليهود الى بلادهم وأوطانهم وذلك انه في سنة ٥٣٨ تغلب كيرش على بابل ووجد فيها جنس اليهود المجار عليه المظلوم ووجد في ديانتهم مشابهة كبيرة لديانته فمال بكليته الى طالع سعادتهم وانتفع بكثير من معارفهم وعرف أن كثيرا منهم يرغبون العود الى بلادهم فسمح لهم بذلك وبناء على هذه الرخصة رجعت مستعمرة من العبرانيين تعداد نفوسها ٤٢٣٦٠ نفس خلاف خدمهم من بابل الى أورشليم في سنة ٥٣٥ قبل الميلاد تحت امرة زربابل من ذرية سلسلة الملوك القديمة فاستوطن معظمهم في الابتداء محل المدينة المقدسة والضواحي القريبة منها واستمر القسم الاعظم من أمة اليهود مستوطنا في كلدة

وكان أول سعي حصل من اليهود الذين عادوا تحت إمرة زربابل هو اعادة بناء الهيكل وعدد الخدمة القديمة فيه وابتدؤا بالشغل في السنة التي عادوا فيها الا أن السماريين عاقوهم عن أشغالهم وعطلوهم وكان السماريون كما ذكرنا جنسا مختلطا مستوطنا في الاراضي القديمة لافرايم ومنشا وهم من نسل القبائل والعشائر التي كانت استوطنت تلك الاراضي بأمر إِسَرحَدُّون ملك الاشوريين فتعرض هؤلاء القوم لليهود عند حضورهم بكونهم يتحدون مع بعضهم في بناء المعبد وكانوا يرغبون في الاستحصال على تصديق عام من كل من الجنسين وادعوا أنهم من ذرية الاسباط القديمة في اسرائيل فجحد اليهود دعوى السماريين ولم يقبلوا دعواهم في كونهم من ذرية الاسرائيليين وكذا لم يقبلوا أن يكون لهم أدنى نصيب أو حصة في الشغل الجاري بمعرفتهم وبناء على هذا صار السماريون ألد الاعداء لليهود ورأوا بأي حالة كانت عجزهم وصدهم عن بناء الهيكل والمدينة ونجحوا في تأخير الشغل وعطلة مدة من

الزمن وكان ذلك فى سنة ٥٢٢ قبل الميلاد ثم عادوا له ثانية بأمر من داراهستاسب ملك الفرس فى سنة ٥١٩ قبل الميلاد وفى سنة ٥١٥ تم بناء المعبد وزخرفته

ثم ان ما أسداه دارا الاول ملك الفرس لليهود من المعروف والاحسان جعل لهم طاقة فى توطيد أنفسهم مع المكنة والثبات فى موطنهم القديم رغما عما هى عليه الامم المجاورة لهم من الحسد والغيرة والعداوة

ثم ان خليفة دارا وهوا كزرسيس أى أردشير مع أنه كان مائلا بكرمه ومعروفه لليهود الا انه وصل الى أن أشرف على الامر بهلاكهم بواسطة ما قبله من وزيره الاول هامان من مكيدة أجراها الوزير المذكور فى حق اليهود فكشف مردخ هذه المكيدة وكان مردخ يهوديا وعم استير زوجة أردشير الحظية عنده وبذل هذان الاثنان جهدهما فى ازالة هذه المكيدة حتى ان الملك أمر اليهود بالمحافظة على أنفسهم ورخص لهم فى المدافعة والحماية من أعدائهم ثم آلت نتيجة هذه المكيدة بقتل هامان ونجاح حماية اليهود فى سائر أقاليم المملكة وانتهز اليهود الفرصة واستحصلوا على رخصة من الملك فى تدمير وفناء ألد أعدائهم وكان حصول هذه الواقعة فى سنة ٤٧٣ قبل الميلاد ولهذا لحد الآن احتفال فى عيد يعمل سنويا اسمه عيد بوريم

وفى سنة ٤٥٨ قبل الميلاد وصلت مستعمرة ثانية من اليهود الى أورشليم من بابل تحت قيادة حبر اسمه عذرة وكان مشمولا بالكرم الملوكى فجاء فى وقت أبطل فيه عقد الزواج بين قومه والامم المجاورين لها وكانوا فى حالة مشتركة بينهم يربدون بها اطفاء الجنس اليهودى فاشتغل عذرة بعمل نظامات كان اجراؤها ضروريا فى الكنيسة ونظامات تختص بحالة المملكة وفى مدة امرته حصل تهذيب وتنقيح كتب العهد القديم (التوراة) الى أعلى درجة من درجات التنقيح

وفى سنة ٤٥٤ قبل الميلاد وصل الى أورشليم نعيمة اليهودى نديم أرتكزيركس أى أردشير درازدشت وكان نعيمة المذكور صاحب شراب الملك ومعه رخصة من الملك باعادة الاسوار المستحكمة للمدينة ومع ما كان فيه من أمر الملك اجتهدت الامم المجاورة فى توقيف الشغل وتعطيله فصد نعيمة ما هو حاصل من الامم بهمة عالية منه وأمر قومه بالاستمرار فى أشغالهم وهم موجودون تحت السلاح على شرط أن يكونوا مستعدين لصد أى هجوم يقع عليهم فى أى وقت ولما صار اعادة الاستحكامات كما كانت انقسم الناس بين المدينة المقدسة والاقاليم الريفية ومن هذا الوقت صارت يهوذا محكومة فى العادة بحاخام أكبر وفى الاوقات التى يكون فيها رفع الخراج جاريا على وجه الانتظام كان لا تداخل لملوك الفرس فى الاشغال الداخلية لليهود وكانوا فى حريتهم يجرون أشغالهم الداخلية على موجب عوائدهم الملية

وكانت نتيجة الاسر وشدة تأثيره علاجا شافيا لليهود فى بغضهم وكراهتهم الديانة الوثنية وسترى فى سرد جميع تاريخهم أنهم مع ما حصل عندهم من الخطا وعدم الصواب وارتكاب المعاصى كانوا لا يتركون عبادة الله سبحانه وتعالى واجتهد ملوك سوريا وبذلوا جهدهم فى القرن الثانى قبل ميلاد المسيح باقامة العبادة الوثنية بين اليهود بالقوة والاقتدار فقاومهم اليهود مقاومة شديدة عنيفة كانت هيئتها احدى الوقائع المشهورة فى تاريخ اليهود وظهر فى هذا الوقت الشهامة الكبرى والشوكة العظمى من اليهود فى تقدمهم ونجاحهم فى دينهم

ومن

ومن بعد هذا جاء اليهود الذين كانوا في بابل الى فلسطين على التدريج الا أنه بقي منهم قسم عظيم في تلك الاراضي والبلاد وصار بين هؤلاء واخوانهم في يهوذا معاملات ودية وصداقات قلبية تامة واستمرت هذه العلاقات والارتباطات جارية بينهم مددا طويلة

وابثت يهوذا تحت سلطنة ملوك فارس حتى سقطت مملكة فارس أمام جيوش اسكندر الاكبر المقدوني وفتوحاته وروى انه لما كان اسكندر مشتغلا بحصار مدينة صور أرسل رسولا الى أورشليم يطلب من الحبر الاعظم والحاخام الاكبر يدوع تسليمها له فلم يقبل الحاخام هذا الطلب وقال للرسول ان اليهود تحت بيعة صادقة وطاعة تامة لدارا ملك الفرس ومن بعد سقوط صور والتغلب على غزة شرع اسكندر في التقدم على أورشليم ليبطش بالمدينة وأهلها فأمر الله سبحانه وتعالى الحاخام الاكبر يدوع في رؤية منامية رآها في منامه بأن يزين المدينة باكاليل الازهار ويلبس ملابسه المفتخرة ويخرج لملاقاة الفاتح في رأس احتفال جليل مركب من الاحبار والامة وأما اسكندر فانه تقدم في سيره مع جيشه وقواده حتى وقف على كثيب مرتفع يشرف منه على المدينة والهيكل وبمجرد ما رأى الحاخام الاكبر قادما عليه في موكبه خر ساجدا برأسه الى الارض فاستغرب أصدقاؤه وقواده من هذا الفعل وعارضه بارمينو وقال له كيف تسجد لرجل مع أن عالم الدنيا تسجد لك فأجابه قائلا بأنه لم يسجد للحبر الاعظم بل سجد تعظيما للاسم الاعظم المنقوش على صدر درعه وانه عرف فيه خواص كانت ظهرت له في رؤيا رآها في مقدونيا تقوي بها على الشروع في فتح فارس

والمعول عليه ان اسكندر لم يعف عن أورشليم فقط بل أفاض على اليهود امتيازات جليلة وحث كثيرا منهم على الاقامة والسكنى في مدينته الجديدة التي شيدها بمصر فكونوا فيها قسما عظيما من السكان

ومن بعد موت اسكندر صارت فلسطين غنيمة تارة لمصر وتارة لسوريا وفي التقسيم الاخير الذي حصل في مملكة اسكندر الذي وقع عقب واقعة افسوس صارت فلسطين وفينيقية وسوريا الجنوبية من قسم مصر وكان ذلك في سنة ٣٠١ قبل الميلاد

وفي مدة حكم الثلاث بطالسة الاول كان مرخصا ليهوذا أن تجري أشغالها بنفسها حسب عوائدها مادامت على حالة منتظمة من دفع الخراج وكان من النادر تداخل الملوك المصرية مع اليهود في موادهم الديانية أو أحكامهم الداخلية وكان الحاخام الاكبر رأس الامة وكبير ديانة الملة وكانت مدة جميع سلطنة الثلاثة بطالسة الاول محصورة في سلم يهوذا ونجاحها

ثم ان بطليموس الرابع الملقب فيلوپاطور وهو أضعف وأخبث ملك سخط على اليهود وغضب عليهم من أجل كونه اجتهد في نجاسة طهارة قداس القداسة في هيكل أورشليم حيث دخل فيه وانتهك حرمة الديانة وسعى سعيه في ذلك سنة ٢١٧ قبل الميلاد ولما خاب سعيه وضاع أمله أبلى اليهود القاطنين في الاسكندرية بمصر باهوال قبيحة وأفعال ذميمة مع أن هؤلاء لم يحصل منهم أدنى أذى في حقه فغضبت يهوذا وارتاعت من الافعال الفظيعة الجارية من الملك وطلبوا حماية انطاقيوس الاكبر صاحب سوريا ونقلوا اليه بيعة طاعتهم مع اختيارهم ورغبتهم لهذا الملك الكبير

وفي سلطنة بطليموس الثاني الملقب فيلادلف حصلت حادثة من أجل الحوادث وأعظمها في تاريخ

اليهود وفى تاريخ الدنيا أيضا وكانت هـذه الحادثة الكبيرة هى ترجمة الكتب المقدسة العبرانية من اللسان العبرى الى اللسان الجريقى اليونانى وأطلق على هذه الترجمة اسم الترجمة السبعينية بسبب أن المشتركين فى الترجمة كانوا سبعين أو اثنين وسبعين شخصا وروى أن الحامل على هذه الترجمة هو رغبة الملك فى قراءة الكتب المقدسة ومطالعتها بلسان قومه وكان ذلك الا أنه من المحتمل أيضا ان ظهور مثل هذه الكتب المقدسة ونشرها فى لسان تكون به سهلة المطالعة والقراءة فى جميع عموم الدنيا المتمدنة كان له تأثير زائد على اليهود على العصور اذ بهذه الحادثة العظيمة صارت الكتب المقدسة العبرية معلومة ومعروفة عند الدنيا القديمة وكانت واسطة لنشر الديانة المسيحية والديانة الاسلامية وصارت لهما طريقة ممهدة مسهلة

ثم تولد من واقعة بانياس التى حصلت فى سنة ١٩٨ قبل الميلاد اقامة شوكة سوريا على يهوذا فحصل عند اليهود الحزن الشديد والكدر المديد بشأن ما حصل من تغيير ملوكهم واستمر انطافيوس فى مبادى أمره على ما كان عليه المصريون من السياسة والادارة التى كانت جارية بمعرفتهم فى يهوذا ولم يتداخل فى أعمالهم ولم ينظر لاشغالهم لكنه فى نحو غلاق سلطنته احتاج الى نقود كانت ضرورية له فعزم على سلب ونهب خزائن الهيكل وذخائره فامتنع عن ذلك اما بواسطة الهام الهى واما بواسطة ذكاء الحاخام الاكبر ومهارته وكان انطاقيوس الرابع الملقب أبيفانيس غشوما ظالما على اليهود فباع الحاخامية العظمى بثمن غالى القيمة وتسبب فى ايقاع المشاحنة والمخاصمة بين الطالبين لها وادعى بذلك أنهم عاصون عليه وسار الى يهوذا وتغلب على أورشليم بالقوة والاقتدار وأمر بنهب المدينة وذبح أهلها وهتك حرمة الهيكل بأشنع ما يكون من أفعاله وجرده مما كان فيه من خزائنه وذخائره وكانت تبلغ قيمتها نحوا من ١٨٠٠ وزنة وعلى ان كل وزنة عبارة عن ٢٠٠ جنيه ذهبا كان مقدار المبلغ ٣٦٠,٠٠٠ جنيه واجتهد بكل طاقته ووسع شوكته فى أن يرغم اليهود الهلانيين ويجبرهم بكل عزمه وسطوته على الدخول فى الديانة اليونانية وكان هذا الاعتساف والجور من أشد المظالم المعروفة فى تاريخ العالم

وتولد من هذه المظالم اشتعال نار خلاص الامة على يد شخص منهم اسمه القسيس متاتياس وهو المؤسس للعائلة الاسمونية وذلك أنه أقام راية العصيان الا أنه لما كان طاعنا فى السن وليس كفؤا القيادة هذا المشروع سلم أمر توجيه الثورة الى قيادة ابنه البطل الهمام يوداس الملقب مقابوس فنجحت الحركة تحت امرته مع غاية السرعة وذلك أن يوداس هزم فرق الجيش السوريانى مرارا عديدة واسترد أورشليم ما عدا قلعتها الموجودة على جبل زيون وكانت فى قبضة قوة سوريانية وطهر الهيكل وأعاد له خدماته وهزم خمسة جيوش سوريانية عدد كل واحد منها أكبر من عدد قوته بست مرات أو عشرة وشيد لمثل هذه النصرات بناء مستديما مفتخرا له ولابناء جنسه وفى سنة ١٦٤ قبل الميلاد حاصره انطاقيوس الخامس فى أورشليم بقوة تنوف عن ١٢٠,٠٠٠ نفس فعقد معاهدة صلحية مع سوريا الا أن هذه المعاهدة كانت على غش ودخل انطاقيوس أورشليم ونقض عهده فى الحال وهدم أسوار المدينة ثم قفل عائدا الى سوريا وكان توجهه اليها ووجوده فيها ضروريا وفى سنة ١٦٢ قبل الميلاد رفع يوداس مرة أخرى راية العصيان وهزم العساكر السوريانية فى كفرسلامة وانتصر فى السنة التالية نصرة عظيمة فى نواحى عداسة بالقرب من بيت حورون على جيش كثيف من السوريين ثم أرسل رسلا الى رومة بقصد عقد محالفة مع جمهوريتها وكانت هذه المأمورية على غاية من الفلاح الا أنه قبل عود الرسل اليه انقفل

مجدميدانه ونفر عساكره وشجعانه ومات ميتة حربية فى نواحى عليسا فى ميدان حربه وذلك أنه مع ٨٠٠ نفس من رجاله التقى بقوة من السوريين مقدارها ٢٢٠٠٠ نفس مشاة وفرسانا وبواسطة شرذمته القليلة كسر الجناح الايمن من السوريين وطرده من ميدان المحاربة الا أن الجناح الايسر السوريانى أحاط به وقت نصره وذبحوه وشتتوا أتباعه فى سنة ١٦٠ قبل الميلاد وفقدت أورشليم محبها العزيز وحامى حوزتها وحماها وهرب أتباع يوداس مع يوناثان أخيه الى قلعة طاقوة فى برية يهوذا واستمروا فيها حزباحربيا مدة أربعين سنة

ثم تولد من انتشاب الحرب الداخلى فى سوريا بين اسكندر بلاس وديمتريوس أن صارت محالفة اليهود مادة مهمة بين الحزبين المتحاربين وآلت النتيجة أن صار يوناثان مقابوس ملك يهوذا وخاخامها الاكبر وعاد الى أورشليم فى سنة ١٥٣ قبل الميلاد فقتله طريفون فى سنة ١٤٣ قبل الميلاد واستخلف بدله أخوه سيمون وزال عن يهوذا تحت حكمه بعض آلام من آلام الحرب التى كانت ابتليت بها وتمتعت البلاد باستقلاليتها نوعا وفى سنة ١٣٥ قبل الميلاد قتله زوج ابنته وهو بطليموس وقتل أيضا اثنين من أولاد يوناثان وهرب الابن الآخر يوحنا هركانوس ونجا بنفسه ثم خلفه أبوه فأغار عليه انطاقيوس سيديطيس وحاصر أورشليم حصارا استمر سنتين فأجبر هركانوس على الاقرار والاعتراف بطاعة ملك سوريا وهدم ملك السوريين أسوار أورشليم وضرب عليها خراجا سنويا

ومن بعد موت انطاقيوس سيديطيس فى حرب الفرس انقطع تأدية هذا الخراج ولما آلت سوريا الى مملكة صغيرة بواسطة تقلبات الفرس انتهز هركانوس الفرصة فى أن يجعل يهوذا معادلة لها فى الشوكة فأخضع سمارية وهدم معبد السماريين الذى كان على جبل جرزيم وتغلب على أدوميا ثم خلف هركانوس ابنه الاكبر ارسطو بولوس الاول فى سنة ١٠٦ قبل الميلاد وتلقب ارسطو بولوس بلقب ملك يهوذا وأسس مملكة الاسمونيين فاستمرت مدة سبعين سنة ثم مات بعد أن تسلطن سنة واحدة واستخلف بدله أخوه اسكندر يانيوس فى سنة ١٠٥ قبل الميلاد

وامتدت سلطنة اسكندر يانيوس الى سنة ٧٨ قبل الميلاد وكان صدوقى المذهب وارتبكت سلطنته بواسطة عصيان الامة وثورانها تحت مضادة مذهب المجوس ومع انه انهزم فى الابتداء الا أنه حطم هذه الثورة وبطش بأعدائه وانتقم منهم بنفسه ومات فى سنة ٧٨ قبل الميلاد ونصح زوجته اسكندرة فى تدميرها هذه القلاقل والاضطرابات باطاعتها وتحالفها مع المجوس فسارت على هذه النصيحة وتسلطنت ثمان سنوات فى أمن وسلم وبعد موتها فى سنة ٦٩ قبل الميلاد انتشبت حرب داخلية بين ولديها هركانوس وارسطو بولوس واستمر هذا الحرب مدة سبع سنوات وكان غلاقه بدخول الرومانيين فى فلسطين تحت قيادة بومبى الاكبر وتغلب بومبى المذكور على أورشليم وأجلس هركانوس على التخت وحمل ارسطو بولوس أسيرا الى رومة فى سنة ٦٣ قبل الميلاد ومن بعد مضى ست سنوات هرب ارسطو بولوس من رومة وأعاد الحرب فهزمه الرومانيون وأسروه وأجلسوا هركانوس فى وظيفة الخاخامية وجعلوا يهوذا تحت حكم مجلس سموه باسم سنهدريم

ولم يقرب بومبى من ذخائر الهيكل ولم يأخذ منها شيأ بل حفظ الهيكل وقت تغلبه على المدينة المقدسة لكنه أساء اليهود اساءة قبيحة بكونه دخل فى قدس الاقداس وانتهك حرمته بوجوده فيه وتعاضد اليهود بحزب القيصر فى الحرب الكبير بين أعدائهم وفى سنة ٥٤ قبل الميلاد وصل قراصوص

الى أورشليم وكانت سوريا وقعت من نصيبه عند تقسيم الممالك الرومانية بواسطة الحكام الاولية فجرد الهيكل من خزائنه وذخائره وكانت تبلغ قيمتها ١٠٠٠٠ وزنة أو ١٢٠٠٠٠٠٠ دولار أو ٣٠٠٠٠٠٠ جنيه لاجل صرفها فى مصاريف غاراته على الفرس فراعى اليهود أن مصيبة بومبى ومصيبة قراصوص مصائب الهية أرسلت عليهم عقابا لهم على ما فعلوه من انتهاك الحرمة الدينية ثم أفرج القيصر عن ارسطوبولوس عند انتشاب الحرب الداخلى الا أنه عند عوده الى يهوذا قتله أحزاب بومبى وانتهت أحوال الاضطراب التى كانت موجودة فى المملكة فى سنة ٤٨ قبل الميلاد بتوظيف هركانوس فى يهوذا ولقب بلقب شيخ أو رئيس وكان الحاكم فى الحقيقة هو انطيباطر من وجوه أدوم وأشرافها وقضى عشرين سنة فى تدبير الاعمال السامية لليهود وعند عود القيصر من مساعدته حروب المصريين جعله تبعة رومانى ونائب الحكومة الملكية على جميع يهوذا

وفى سنة ٤٠ قبل الميلاد لمامات يوليوس قيصر صاحب القوة والشوكة محب انطيباطر ضبط انطيجنوس ابن ارسطوبولوس تخت يهوذا وتغلب على أورشليم بمساعدة جيش الفرس وتسلطن ملكا ثلاث سنوات وفى غضون ذلك تساعد هيرود حاكم غليلى ابن انطيباطر بصديقه ومحب وطنه مارك انطونى واستحصل على أمر من مجلس أعيان رومة فى تقليده ملك يهوذا وأسرع فى العود الى فلسطين وأخضع البلاد المفتوحة والمدائن المتحفظة بمساعدة الجيوش الرومانية وتغلب على أورشليم عنوة بعد أن حاصرها ستة شهور وأوقع الرومانيون على اليهود أشد العذاب وقت فتحهم المدينة حتى ان هيرود انجبر على التضرع لقائد الرومانيين فى أن لا يتركه ملكا على عاصمة انقرض سكانها وخلت من العمران وحصل القبض على انطيجنوس وأرسل الى رومة وقتل فيها باغراء هيرود وبموته انقرضت مملكة الاسمونيين والله يورث ملكه من يشاء

وصار هيرود سيد يهوذا فى سنة ٣٧ قبل الميلاد وجعل حكومته خراجية لرومة وحاز همة ادراك الملك وشجاعة العسكرية الا أنه كان غشوما جبارا فابتدأ سلطنته بذبح مشاهير اليهود ووجوههم المعارضين له فى أعماله وكان يوجد عضوان أى شخصان على قيد الحياة فى وقت جلوسه على الكرسى من نسل وذرية العائلة الاسمونية وهما ارسطوبولوس ومريامن حفيدا هركانوس الثانى فلاجل ميل اليهود وانعطافهم اليه تزوج هيرود بالجميلة البرنسيسة مريامن وجعل أخاها خاخاما أكبر مع أن عمره كان ست عشرة سنة فانجذبت قلوب اليهود الى الارتباط مع هذا البرنس الشاب بما أنه كان آخر واحد من جنسهم فى الملوكية ثم من بعد مضى مدة قليلة أصدر هيرود أوامره بقتل ارسطوبولوس وكان فى ريبة منه وهى ان البقاء عليه ربما تسبب منه وقائع مضرة بأمر الملك ثم أخذ هيرود الغيرة والحسد من زوجته الجميلة فأمر بقتلها أيضا وكذا أوقع هذه المصيبة بأمها وكانت اسكندرة هذه هى تمام اخماد واطفاء العائلة الاسمونية وانقراضها ومن بعد مضى قليل أمر بقتل ثلاثة من أولاده اتهمهم فى ريبة على خلعه وفى آخر سنى سلطنته انغمس فى الدماء وصار رجلا سفاكا للدماء

وأشهر سلطنته بكونه بنى معبد اليهود على أعظم مثال وأجمل منوال من الزخرفة والاتقان ولم يتم هذا المعبد الا من بعد موته بمدة طويلة وزين أورشليم وأتحفها بالسرايات والمبانى المفتخرة وبذل جهده فى زيادة تقويتها واستحكامها وجعلها حصينة جدا لا يمكن التغلب عليها وصار لا يخشى ولا يهاب صولة

الرومانيين أسيادهم من عمله هذه الاعمال وبنى مدينة قيصرية المفتخرة على ساحل البحر الابيض المتوسط وشيد عدة مبان مفتخرة عمومية فى محلات مختلفة من مملكته وما كان فيه رائحة من روائح اليهود ولو أنه كان يدعى أنه هو الواحد فى عقيدة دينه ودخل فى العوائد الرومانية والاعتقادات الدينية وبدل جميع العقائد الدينية فى سائر أنحاء ممالكه ومات من علة شديدة أصابته فى جسمه فى وسط تقلب قومه فى الاكدار والآلام الحاصلة منه وكان موته فى سنة ٤ قبل الميلاد وانقسمت ممالكه بين أولاده الثلاث وذلك أن أركاوس أخذ يهوذا وسمارية وأخذ غليلى انطيباس وأخذ فيليب الجهة الشرقية من نهر الاردن المسماة طرا كونيطيس

وفى السنة الاخيرة من سلطنته ولد ﴿عيسى المسيح عليه السلام﴾ وكانت ولادته فى بيت لحم وهى مدينة من مدن يهوذا ومسقط رأس مولد داود عليه السلام أيضا ومن الخطا البين أن وضعت الحوادث التاريخية هذه الحادثة المشهورة فى سنة ٤ قبل الميلاد

وما كانت اليهود راضية بأجمعها مطلقا على حكم هيرودس ماعدا حزبا قليلا منهم لان هؤلاء الملوك كانوا فى كراهة شديدة وحقد ضغين على اليهود بسبب أن أصلهم من ذرية الادومونيين وكانوا كالآلات للاغراب الذين يستولون على البلاد وكانوا يقدحون على الدوام فى أمة اليهود ويظهرون لهم ماهم عليه من الضعف والحقارة والاهانة وما كان اليهود يلتفتون لمثل هذه التحريضات مع الرغبة والشوق لانهم كانوا منتظرين انه فى مثل هذا الوقت يأتى اليهم المسيح وكانوا يعتقدون فيه أنه ملك الهى دنيوى يرسل لخلاصهم مما هم فيه ومن أعماله وارشاداته تعود الشوكة القديمة والابهة الجليلة لاسرائيل ولما بلغ هيرود ولادة عيسى عليه السلام فى بيت لحم أمر بقتل جميع أطفال هذه المدينة من عمر سنتين فما دون ذلك لانه رأى أنه يبحث على خلاص نفسه من أمر يرقبه من العدو الالد لاهل بيته وفى الحقيقة ما كانت العائلة الهيرودية المبغوضة عند الامة اليهودية على سلامة الا بواسطة حماية أساتذتهم الرومانيين وذبحوا كل يهودى متمتع بكرم هذه الدولة وجودها

ومع هذا فلم يفد هذا الذبح والقتل فائدة وأخذت المملكة الهيرودية مع السرعة فى الضعف وضياع الشوكة وأخذت تعديات الرومانيين وسلبهم البلاد فى الزيادة وكان أركاوس جبارا غشوما ظالما فى حكم ممالكه حتى ان الرومانيين خلعوه فى سنة ٨ بعد الميلاد وألحقوا يهوذا وسمارية باقليم سوريا وكان رومانيا الا انه ترخص لكل من هاتين المملكتين اجراء حكومة ادارية داخلية تحت حاكم أو نائب من الرومانيين

وفى غضون هذه المدة ترعرع عيسى عليه السلام وشب وبلغ مبالغ الرجال وابتدأ فى مشروع الاشغال العظيمة التى أرسل من أجلها وكان بعثه وصعوده الى السماء أى رفعه فى مدة الحكومة الادارية تحت ولاية بونطيوس بلاطى النائب الرومانى الخامس فى يهوذا

واستمرت يهوذا محكومة بهذه الحالة الى حد سنة ٣٨ بعد الميلاد وفى أثناء ذلك تسلطن هيرود انطيباس ملكا فى غليلى وكان فيليب حاكم بلاد طرانكونيطيس ولما خلا هذان الاقليمان من ملوكهما بعد موتهم أنعم بهما الامبراطور كاليجولا على نديمه هيرود أغريبا الاول حفيد هيرود ومريامن وفى سنة ٤١ بعد الميلاد أعطى أيضا الاغريبا يهوذا وسمارية فاستمر مدة ثلاث سنوات حاكما على

جميع مملكة بعده وما كانت أشغال كالجولا الاموانع وقتية فى الاجرآآت الرومانية لانه كان يقصدبها ابتلاع مملكة اليهود ويدخلها فى المملكة الرومانية وفى سنة ٤٤ بعد الميلاد شرع أغر يبا فى الظلم القاسى والجور الفظيع فى حق المسيحيين وتولد بهذه الافعال الاسباب المحتاج اليها الرومانيون فأخذوا منه يهوذا وجعلوها تحت ادارة حكومة نيابية

ثم صارت الحكام الرومانية على غاية من الشدة والقساوة وازدادوا فى جورهم وتعديهم حتى بلغوا النهاية وصار لا طاقة لليهود على تحمل أحكامهم والصبر عليها وشرع غيسيوس فلوروس وهو السادس من العائلة الجديدة فى سلب ونهب اقليمه من دون رحمة ولا شفقة فقطع اليهود اليأس من أنفسهم وفى سنة ٦٦ بعد الميلاد حمل أمة اليهود باجمعها السلاح لاجل طرد الرومانيين من بلادهم وعود استقلالهم وصار فلوروس هو المسؤل عن اشتعال هذه الثورة الا أن القانون الرومانى لا يجوز دخال الجبار وعلى الخصوص حاكم الاقليم فى مسؤلية أى ثورة كانت ونسبوا لليهود العصيان فى السابق واللاحق وصار لم يكن عند غيسيوس فلوروس سوى أن أسرع للقتال وأظهر فيه الطباع الوحشية والاجرآآت الفظيعة الدنيوية التى ما حصلت قبل من أحد غيره وكانت يهوذا خضعت للحكام الاجانب قبل مجىء الرومانيين الا أن سياسة هؤلاء الحكام كانت مغايرة لسياسة رومة والصحيح أنها ما كانت مخالفة لها بكثير حيث كان القصد هو التغلب على البلاد والمساواة بين الامم ومع ما كانت عليه نتائج الاحوال فاليهود ما سعوا بدمار أنفسهم الامن بعد حصول حرب يحصل لهم فيه اما النصر واما الفناء والدمار

وحيث كان انعقاد حرب الاستقلال والثوران على شروط دينية صار الشروع فيه فى سنة ٦٦ بعد الميلاد ودبر الرومانيون الحرب مع الشدة والعنف وأخضعوا اقليمى غليلى وسمارية وعاقبوا هذين الاقليمين بالسيف والنار وتغلبوا على يهوذا وكان غلاق هذه الحروب التغلب على أورشليم وخرابها بواسطة طيطوس فى سنة ٧٠ بعد الميلاد وفى هذا الوقت تدبر الرومانيون بفكرهم وما عندهم من الاجرآآت الشديدة فيما يجب اجراؤه فى ملة اليهود فرأوا أن خراب وهدم المدينة المقدسة ومنع اليهود من تعصبهم وارتباطهم فى نقطة حصينة مثل هذه فى المستقبل عقاب لهم فى مقاومتهم المملكة الرومانية ودخل طيطوس فى أورشليم وهى مدينة ذات سرايات وأماكن مفتخرة وتركها كوما من الرماد الاسود وحرق الهيكل الجميل وكل بناء موجود ماعدا بعض أبراج فى أسوار الاستحكامات أبقاها لتكون مراصد لمحافظين من الرومانيين وتذكارا باقيا يستدل منه على قدرة الرومانيين وسوى جميع الابنية بالارض ولم يفعل بختنصر فى تخريبه المدينة المقدسة زيادة عما فعله طيطوس الرومانى وكان الحصار على أورشليم خمسة شهور وصارت من بعده احدى المزعجات التاريخية وكان قطع يأس المحاربين الموجودين فيها وتخريب المدينة وفقد الانفس وهول المصائب والشدائد التى حلت بالمحصورين أبوابا مكدرة محزنة فى تاريخ الوقائع الحربية السنوية وقد ذكر أنه هلك فى أثناء هذا الحصار من الانفس نحو من ١١٠٠٠٠٠ نفس وان كان من المحتمل أن هذا العدد كثير الا أنه لا يخلو من أن يكون بعيدا عن الخطا بكثير وأما الذين بقوا على قيد الحياة من بعد الحصار فانهم صاروا أرقاء وصار يوزعهم على المتغلبين وارتحل الكثير منهم الى داخل جرمانيا وايطاليا وأخذوا الهم مستعمرات فى داخل تلك الاراضى والبلاد

ومن بعد غلاق الحرب صار الحاق بهم وذا باقليم سوريا ومن بعد مضى قليل صارت سوريا وفلسطين محكومتين بحاكم واحد من طرف الحكومة الرومانية جعل مقره فى أنطاكية واستمرت هذه الحالة العمومية للاعمال مدة وجود المملكة الرومانية وفى هذا الوقت أخذت الديانة المسيحية فى التقدم بسرعة فى كل من ناحيتى سوريا وفلسطين وتوطد لها قدم راسخ فى هذين الاقليمين قبل تشييدها بمدة طويلة فى سائر أنحاء المملكة الرومانية بواسطة قسطنطين

ثم ان اليهود لم يشفوا ولم يفيقوا من الضربة التى أصابتهم من خراب أورشليم وبها انقرضت الحياة السياسية للامة اليهودية حتى صارت لا تعد مرة أخرى مملكة من ممالك العالم أو أمة من الامم وانتشروا على وجه الارض أغرابا راحلين فى عموم الاراضى وكفر أولاد ابراهيم عن خطايا آبائهم الذين نبذوا المسيح ومملكته وراءهم ظهريا

وكانت خرابات أورشليم وأطلالها مسكونة بمحافظين من الرومانيين فى مدة سلطنة وسباسيان والذين خلفوه مباشرة من بعده ثم ان الامبراطور هادريان عزم على أن يعيد المدينة ويشغلها بقوة من المحافظين الاقوياء لاجل أن تحرم أورشليم من أن تكون مأوى للجنس الاسرائيلى النافر المعدوم الوثاق والعهد فتولد من هذا الفعل حصول ثورة مهولة فى فلسطين من اليهود تحت رياسة بعرة قوشير وادعى أنه هو المسيح واشتعلت نار الحرب مع الشدة والغضب مدة ثلاث سنوات وأخيرا آلت نتيجة الحرب بنصر الرومانيين وتغلبهم وقتل بعرة قوشير وقتل من اليهود فى هذا الحرب ما ينيف عن نصف مليون من النفوس ثم ان هادريان أمر بمحق خرائب أورشليم وآثارها وأن يبنى على محل العاصمة القديمة مدينة جديدة سماها عاصمة إليا فى سنة ١٣٦ بعد الميلاد وصرح للمسيحيين والوثنيين دون غيرهم بالاقامة فيها وأخرجوا اليهود منها قاطبة ثم منح لهم فى القرن الرابع بأن يدخلوها مرة واحدة فى السنة الواحدة فصاروا يدخلونها كل سنة مرة يندبون وينوحون على التغلب عليها وخرابها ومع أنه صار معاملة اليهود بالقسوة وشدة المعلاملات الا انه ترخص لهم بالتوطن فى جهات أخرى من فلسطين وكان رئيسهم يعرف باسم بطريق طبرية اسم محل اقامته وكانت طاعة جميع اليهود الموجودين فى الممالك الرومانية موجهة اليه وتحت قيادته

ولما صار يوليان امبراطور عادت الديانة الوثنية كأنها هى ديانة المملكة ولاجل تكذيب ما جاء به المسيح دعا يوليان اليهود لبناء هيكلهم ومعبدهم فى أورشليم فجاؤا الى المدينة المقدسة أفواجا من جميع أطراف وأكناف المملكة رجالا ونساء وأطفالا واشتغلوا بتنظيف الخرائب والاطلال ثم انقطع شغلهم على حين غفلة بنار شبت من أساسات المعبد بحالة مجهولة واشتعلت مدة النهار جميعه وطردت الشغالين وحرقت عددهم وآلاتهم فالتزموا أن يتركوا العمل وكذا حصل موت يوليان بعد ذلك بقليل ووقف هذا العزم الذى أصله على غير دين ومنتهك للحرمة الديانية

ولما ابتدأ الفرس فى تهديد وازعاج الممالك الشرقية للمملكة الرومانية قواهم يهود فلسطين فى السر وأهلوا مع الشوق والابتهاج بتقدم خسرو الثانى ومجيئه الى بلادهم فغزا خسرو فلسطين فى سنة ٦١٠ بعد الميلاد وقام اليهود بأجمعهم وانضموا الى الفرس وساعدوهم على فتح أورشليم وكانت أورشليم فى هذا الوقت مدينة مسيحية وبمجرد تمكنهم من المدينة وتغلبهم عليها ذبحوا سكانها المسيحيين وأفنوهم عن آخرهم الا أن الامبراطور هرقل المنصور عاقبهم أشد العقاب بعد ذلك بقليل وأوقع بهم ولم يرد ملك

الفرس على أعقابه الى بلاده فقط بل استرد منه اقليمي سوريا ومصر وأعاد قانونها دريان القاضي بعدم قرب اليهود من أورشليم على مسافة ثلاثة أميال

وبينما كانت هذه المبارزات والحروبات جارية بين كل من ملك الرومانيين وملك الفرس اذ شبت شوكة جديدة وقوة من جهة شديدة على حين غفلة في صحراء بلاد العرب وذلك أن ﴿ محمدا صلى الله عليه وسلم ﴾ ابن عبد الله بن عبد المطلب من أهل مكة مدينة من مدائن بلاد العرب أعلن بأنه نبي ورسول من عند الله سبحانه وتعالى ونشر دينه الحق القاضي بقتال الكفار وقتلهم ان لم يدخلوا فيه أو يضعوا الجزية عن يدوهم صاغرون وكان اليهود في ابتداء الامر من جملة الذين كذبوه واجتهدوا في صده ولما لم يفدشئ من انذاره اياهم وجه جيوشه عليهم وتغلب على مدائن اليهود الموجودة في بلاد العرب وكانوا فيها كثيري العدد والشوكة ثم عزم صلى الله عليه وسلم على أن يضيف فلسطين الى ما فتحه من المدائن والجهات العربية فمات قبل أن يتم هذا الامل وابتدأ خليفته أبو بكر رضي الله عنه في غزو سوريا سنة ٦٣٢ بعد الميلاد وتغلبت جيوشه على الاراضي الكائنة في شرق نهر الاردن وهزم قواده الجيش الروماني الذي أرسل لمساعدة سوريا وتغلبوا على دمشق في سنة ٦٣٤ بعد الميلاد وخضعت سوريا كلها لابي بكر ثم بعدها غزا فلسطين وانهزم الجيش الذي كان تجمع لمساعدتها وحمايتها في وقعة حصلت في نواحي نهر اليرموك في شهر نوفمبر سنة ٦٣٦ بعد الميلاد ثم صارت محاصرة أورشليم وسلمت للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سنة ٦٣٦ بعد الميلاد وجعلت المدينة الثانية المقدسة للمسلمين وبنى عمر فيها جامعا مفتخرا محل الهيكل ومن ثم انتقلت فلسطين تحت سلطنة المسلمين وشوكتهم

وكان حكام المسلمين من أعظم المصائب والرزايا على فلسطين وفي سنة ٦٤٩ بعد الميلاد صارت دمشق عاصمة المملكة الاسلامية ومن هذا الوقت أخذت فلسطين في الاضمحلال والهبوط بعد أن كانت من ابتداء تغلب الرومانيين عليها الى أن غزاها المسلمون من أجل التبعة الرومانية وأفلحها وذلك أن حكامها من المسلمين حملوا أهلها ما لا طاقة لهم به من الاحمال وأثقلوهم بالمصاعب والآلام حتى آل أمر مدائنها الى الهرم والدمار واضمحلت أشغال الاهل والسكان وأما أورشليم فانها صارت مدينة لامعنى لها في ذاتها وكذا صارت قيصرية آكام تراب وعمد مكسرة تتطاير فوقها الرمال

وصارت هيئة الاراضي والمدائن من مزعجات الازمان ولما انتقلت دار خلافة الاسلام من دمشق الى بغداد صارت فلسطين ايالة لامعنى لها في ذاتها واقليما سوريا وازدادت خرابا على خرابها

وفي منتصف القرن العاشر تغلب الخلفاء الفاطميون على فلسطين وكانوا احتلوا الاريكة المصرية من عهد جديد فاستمرت فلسطين خاضعة لهم الى حد المدة الاخيرة من القرن الحادي عشر ثم انتقلت تحت حوزة السلطنة التركية وكانوا تغلبوا على آسيا الصغرى واغتصبوا سوريا وفلسطين من نواب الخلفاء الفاطميين حكام مصر في ذلك العصر

وعامل الترك نصارى فلسطين المسيحيين باسوء المعاملات الشديدة حتى ان دول أوروبا الغربية قاموا بأسلحتهم لحمايتها والمدافعة عنها وغزا الاوروباويون فلسطين وانتشب فيها عدة حروب مهولة من جهة تعرف بالحروب الصليبية وسندرج تاريخ هذه الحروب في محل آخر من هذا الكتاب وكانت نتيجة الحرب الاول الصليبي التغلب على أورشليم وتأسيس واقامة مملكة لاتينية في فلسطين سنة ١٠٩٩

بعد

بعد الميلاد وتتوج غودفري بويلزن ملك أورشليم وكانت مملكته محصورة في المدينة المقدسة ويافا ونحو من عشرين قصبة وقرية في الاراضي المجاورة لاورشليم

ولم تلبث مدة المملكة اللاتينية زمنا طويلا وذلك أن النصرات والتغلبات التي نالها يوسف صلاح الدين في القرن الحادي عشر لما صيرته سلطان مصر وسوريا وبلاد العرب بذل جهده وسعيه في طرد المسيحيين من فلسطين ولما تراءى له غزو الارض المقدسة دخل فلسطين في رأس جيش مقداره ٨٠٠٠٠ نفس متسددين في الحروب وهزم غودفري لوسجنان ملك أورشليم في نواحي جبل حطين في يوم ٣ يوليه سنة ١١٧٨ بعد الميلاد وأوقع في جيشه خسارة قدرها ٣٠٠٠٠ نفس وأسره ومن بعد مضي ثلاثة شهور تغلب يوسف صلاح الدين على أورشليم وأشهر نصرته وظفره برأفة وحلم عامل بهما المسيحيين سكان أورشليم وأعقب هذا النصر بطرده جميع اللاتينيين من كامل مدائن فلسطين ماعدا بضع مدن قليلة في طول ساحل البحر

وفي سنة ١٢٢٨ استحصل الامبراطور فرديريق الثاني على عودة أورشليم للمسيحيين بعقد معاهدة مع السلطان يوسف صلاح الدين وكذا أعاد لهم أيضا بيت لحم وناصاري وصور وصيدا وفي سنة ١٢٤٣ غلب التتار المغول على سوريا وفلسطين وأخذوا أورشليم عنوة وذبحوا سكانها المسيحيين وهتكوا حرمة القبر الشريف

ومن بعد ضياع أورشليم صارت عكا الموجودة على ساحل البحر الابيض المتوسط العاصمة المسيحية في أرض فلسطين وتحلت بمبان وعمارات قوية جليلة ومجاري مياه ومينة صناعية وسوري استحكامات خلف بعضهما وكان لسكانها نواب من طرف كل أمة أروباوية حتى قال بعض المؤرخين ان المدينة موجود فيها عدة ملوك من دون حكومة ثم تسلطن فيها فساد وحكومة فوضوية لا يوازيهما شيء في التاريخ فتولد مما حصل من الفظائع والقبائح التي ظهرت من سكانها على سكان جهة من المسلمين القاطنين في القرى المجاورة لها كاغضب شديد من السلطان خليل الاشرف سلطان مصر في ذلك العصر فسار الى عكا مع جيش جرار يبلغ مقداره ٢٠٠٠٠٠ نفس وتغلب عليها بالهجوم عنوة في يوم ١٨ مايو سنة ١٢٩١ بعد الميلاد بعد أن حاصرها وشدد عليها واستمر في حصارها ثلاثة وثلاثين يوما ومن ثم انتقل آخر ملك للمسيحيين في فلسطين الى أيدي المسلمين

وفي سنة ١٤٠٠ بعد الميلاد تغلب تيمور التتاري أو تيمورتن أو تيمورلنك على سوريا وحرق دمشق الا انه لم يظهر من سيره في وسط الاراضي أنه تعرض بسوء الى أورشليم بل كانت باقية في حوزة ملوكها المسلمين

وفي سنة ١٥١٧ بعد الميلاد خضعت فلسطين لجيوش السلطان سليم الاول العثماني ومن ذلك الوقت صارت قسما من المملكة العثمانية التركية

وفي سنة ١٨٣١ بعد الميلاد أرسل محمد علي باشا صاحب مصر ابنه ابراهيم باشا الى سوريا بجيش مقداره ٣٨٠٠٠ نفس بحيلة تأديب عبد الله باشا عكا نظرا احتقاره له واهانته اياه ولكن مراده في الحقيقة ونفس الامر هو التغلب على تلك الايالة وجعلها تحت ادارة الحكم المصري فتغلب ابراهيم باشا على سوريا مع السرعة والعجلة وقاسمتها فلسطين في عاقبة أمرها ثم ان حاكم مصر سولت له نفسه أن يمد حكمه وغلبته على جميع الممالك التركية العثمانية في آسيا الصغرى فدخلت الدول الاوروباوية في هذه

المسئلة فى شهر مايو سنة ١٨٣٣ وأرغموا محمد على باشا على قبول معاهدة أدخلوا له فيها الحكم على جميع سوريا وايالة أدنه فى آسيا الصغرى وجزيرة كريد فى البحر الابيض المتوسط فاستمر هذا الفصل تحت المجادلة والمناقضة الى سنة ١٨٣٩ بعد الميلاد حتى جدد السلطان محمود الثانى العثمانى الحرب وأمر بتسفير اسطوله البحرى بقصد ضرب الاسكندرية وغزا سوريا بجيش مقداره ٨٠٠٠٠ مقاتل فهزم ابراهيم باشا الجيش التركى العثمانى فى واقعة حصلت فى نواحى نذيب هزيمة فاصلة فى يوم ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩ بعد الميلاد وسلم الاسطول البحرى نفسه بطريق الخيانة الى المصريين من دون أن يقع حرب وصارت المملكة العثمانية على شفا جرف من الخراب والدمار بواسطة القوى المصرية لولا أن تداركها الدول الاوروباوية وتداخلوا ثانيا فى أمرها وأرغموا محمد على باشا بعقد معاهدة صلحية ضيعت منه سوريا وفلسطين وجزيرة كريد وأثبتت له مصر فقط ومن هذا العهد استمرت فلسطين قسما من أقسام المملكة التركية العثمانية لحد يومنا هذا وهو ٣٠ يونيه سنة ١٨٩١ بعد الميلاد وهو يوم اتمام تهذيب التاريخ المقدس وتنقيحه على يد مؤلفه الفقير محمود فهمى المهندس القاطن فى جزيرة سيلان

الكتاب الثانى

تاريخ مصر

﴿ من ابتداء الازمان القديمة الى الاوقات الحاضرة ﴾

الباب الاول

﴿ من ابتداء تأسيس الحكومة الى العائلة الثانية والعشرين ﴾

وصف مصر ـ وادى النيل ـ الدلطة ـ مصبات النيل ـ سكان مصر القديمة ـ عوائد قدماء المصريين ـ ديانة قدماء المصريين ـ آلهة المصريين ـ اعتقاد المصريين فى الحالة المستقبلة ـ تصبير الاموات ـ طوائف المصريين ـ الملوك ـ القسس ـ طريقة الكتابة ـ شرائع المصريين وقوانينهم ـ تأسيس المملكة بواسطة مينس ـ عصر العائلات الملوكية ـ العائلة الرابعة ـ دلائل سموّها وعظمتها ـ الاهرام ـ تقدم المدنية والحضارة فى عصر هذه العائلة ـ الفتوحات ـ نموّ سيادة طيوه ـ غارة الرعاة أو الهيكسوص ـ تغلبهم على مصر السفلى والوسطى ـ العائلة الثانية عشرة الطيوية ـ سموّها ورفعتها ـ تغلب الهيكسوص على مصر العليا ـ تدمير المبانى والآثار ـ اخراج الهيكسوص وطردهم من مصر ـ العائلة الثامنة عشرة الملوكية ـ رفعة مصر تحت سلطنة العائلة التاسعة عشرة ـ رعمسيس الثالث ـ عجز السلطنة وهرمها ـ الملوك القسس

قارة افريقية واقعة بأكملها فى المنطقة الحارة وهى أحد الاقسام العظيمة من الدنيا الاشد حرا وحرارة ولما كان القسم الاعظم من سطح هذه القارة غير صالح لسكنى بنى الانسان كانت غير موافقة لنمو الامم العظيمة وترعرعها أو لحياتها ثم ان مصر وقرطاجنه هما المملكتان الافريقيتان اللتان بلغتا

حد الكمال والاهمية في تاريخ العالم وكل من هاتين المملكتين واقع في الجهة الشمالية من القارة وفي داخل حدود المنطقة الشمالية المعتدلة

ومصر هي القسم الاسفل من النيل وتمتد من ساحل البحر الابيض المتوسط الى الشلال الاول من شلالات النيل وطول هذا الامتداد محصور بين ٥٠٠ ميل و ٦٠٠ ميل انكليزي وشاغلة الطرف الشرقي من القارة وهي وان كانت قليلة السعة الا أنها كانت مشتملة على مدائن عديدة جدا وعالم من الانفس لا يحصى عددا وروى أنه كان يوجد في عصر سلطنة أمزسيس أحد فراعنة مصر نحو من عشرين ألف مدينة معمورة بأهلها غاصة بسكانها

ومصر محدودة من الجهة الشرقية بالبحر الاحمر وبرزخ السويس (الآن قنال السويس) ومن جهة الشمال بالبحر الابيض المتوسط ومن جهة الجنوب بالاقاليم السودانية الحبشية ومن جهة الغرب بصحراء ليبيا أو برقة ومساحة الارض الشاسعة المحصورة في داخل هذه الحدود نحو من ٣٩٤٠٢٤٠ ميلا مسطحا وتعداد سكانها الآن على حسب تعداد سنة ١٨٨٢ بعد الميلاد نحو من ٦٨٠٠٠٠٠ نفس ومناخها حار جاف وفيها الاربعة الفصول الصيف والشتاء والخريف والربيع ويندر سقوط الامطار على سطح أرض مصر وفي مدة فصل الشتاء تكثر فيها البرودة وكذا يكثر سقوط المطر بجهة سواحل البحر الابيض المتوسط ومن وسط أرضها يجري نهر النيل وهو نهرها الوحيد من الجنوب الى الشمال في مسافة طولها نحو من مائتي فرسخ فرنساوي وهذه الارض مقفولة من كل من جهتيها بواسطة جبال سائرة بالتوازي للنيل لا تترك مجراه الا في النادر ويوجد بين ذيول هذه الجبال ونهر النيل حزام من الارض لا يزيد عرضه عن أربعة وعشرين فرسخا فرنساويا أو ثلاثة وثلاثين ميلا وربع ميل وأحيانا أقل من ذلك ويزداد هذا الحزام سعة في الجهة الغربية في بعض جهات حتى يصل الى خمسة وعشرين أو ثلاثين فرسخا فرنساويا وأما العرض الاكبر لمصر من مدينة الاسكندرية الى مدينة دمياط على ساحل البحر الابيض فهو نحو من خمسين فرسخا

وكانت مصر في الزمن القديم مقسومة الى ثلاثة أقسام أصلية هي مصر العليا أو طيوة وهو القسم الاكثر وقوعا في الجهة الجنوبية ومصر الوسطى أو هبْطانُوميد ومعناه ذات السبعة أخطاط ومصر السفلى ويدخل في هذا القسم ما يقال له الدلطة وجميع الاراضي الى البحر الاحمر وطول ساحل البحر الابيض الى جبل كاسيوس وكانت مصر جميعها تحت سلطنة الفرعون سزوستريس منقسمة الى ست وثلاثين كورة عشرة منها في طيوه وعشرة في الدلطة وستة عشر فيما بينهما

وكل من مدينة اصوان ومدينة جزيرة الفيلة يفصلان مصر من الاقاليم النوبية السودانية وكانت هاتان المدينتان في عصر الامبراطور أغسطوس حد المملكة الرومانية

وكانت مدينة طيوة التي صار اسمها علما على اقاليم مصر العليا أجل مدن العالم وأفخرها في الزمن القديم وهي مشهورة بأبوابها المائة التي ذكرها عمير في أشعاره وكان سكانها مناسبين لسعتها وقيل انه كان يخرج من كل باب من أبوابها مائتا عربة من عربات الحرب وعشرة آلاف فارس دفعة واحدة وقد ذكر الجريقيون والرومانيون مجد هذه المدينة وعظمها ولو أنهم لم يروا الا أطلالها وآثارها التي بقيت من تلك العصور القديمة الدالة على ما كانت عليه هذه المدينة من المجد والعظمة ولقد استكشف في نواحي طيوه وهي صعيد مصر الآن هياكل ومبان وسرايات لم تزل باقية على ما كانت عليه من

أصلها من العمد والتماثيل والزخرفة والنقوش والالوان التى لم يفقد من لمعانها وصفاء لونها شئ وكانت مدينة طيوه عاصمة القسم الطيوى

وأما مدينة منف أو منفيس فكانت عاصمة القسم الهبطانوميدى أو مصر الوسطى وكان تشتمل هذه المدينة على معابد وهيا كل كثيرة العدد ومن ضمن هذه المعابد معبد أبيس وهو الاله الاكبر معبود المصريين وكانوا يعملون له شعائر واحتفالات خاصة به

وكان فخر مصر ومجدها محصورا فى بناء هيا كلها ومعابدها ومدائنها وقصورها والمسلات والاهرام والبرابى التى صبرت على حوالزمان وبرده ولم تتأثر من الحوادث الجوية ولا الآفات السماوية وأثبتت للمصريين فخر المكنة والطاقة ورفاهية الاحوال ولذة المعيشة فى تلك العصور القديمة فأما المسلة فهى شكل رباعى مسحوب الطرف مركوزة عمودية على سطح الارض ومنتهية من أعلاها بسن مدبب فكان المصريون يضعون هذه المسلات فى الميادين المربعة الموجودة فى داخل المدن لاجل الزينة ويسترون سطوحها الاربعة باشارات أو كتابة القلم الهيروغليفى ومعناه القلم المقدس وقد أقام سيزوستريس فى مدينة عين شمس مسلتين من حجر الصوان الصلب أمر بقطعهما وجلبهما من محاجر مدينة أصوان من حدود مصر كان ارتفاع كل واحدة منهما مائة وعشرين ذراعا أى ثلاثين قامة أو مائة وثمانين قدما ولما تغلب الامبراطور أغسطوس على مصر وجعلها ايالة من المملكة الرومانية أمر بنقل هاتين المسلتين الى رومة فانكسرت احداهما قطعا وصار لا جراءة له على أن يخاطر بعزمه على نقل مسلة ثالثة كانت أعظم وأكبر من الاولين عملت فى عصر سلطنة رعمسيس الملك وقيل ان عدد الشغالة الذين كانوا يشتغلون بقطع هذه المسلة الثالثة ونصبها نحو من عشرين ألف نفس وكان يوجد فى مدائن كل قسم من الاقاليم المصرية كثير من هذه المسلات وكانت جميعها مقطوعة من المحاجر الصعيدية بجهة اصوان وقنا وأسيوط ولم تزل آثار محاجر القطع موجودة لهذا الآن

وأما الهرم فهو جسم ذو قاعدة مربعة الشكل بسعة كبيرة ينتهى من أعلاه بسن مدبب والموجود فى مصر ثلاثة أهرام أشهر من الاهرام الباقية أحدها وهو الاكبر معدود من ضمن عجائب الدنيا السبعة وهو مركوز على مسافة بعيدة من منف وهذا الهرم مبنى مثل باقى الاهرام على صخرة حجرية مربعة الشكل ومشطف على سطوحه البرانية تشطيفات على هيئة درج السلم تعين على الصعود الى رأس الهرم على التدريج وهو مبنى من أحجار ضخمة محكمة الوضع والبناء بصنعة عجيبة مستورة بكتابة القلم المقدس وقال قدماء المؤرخين ان طول كل جهة من جهات الهرم الاكبر ثمانمائة قدم ومثلها فى الارتفاع وان رأس الهرم أو قمته التى تظهر للرائى من بعد أنها نقطة هى سطح ظريف مركب من عشرة أحجار أو اثنى عشر حجرا وطول كل جهة من جهات هذا السطح ستة عشر قدما أو ثمانية عشر قدما

وطول ضلع مربع القاعدة ١١٠ قامة ووجهه مثلث متساوى الاضلاع فاذا تكون مساحة القاعدة ١٢١٠٠ قامة مربعة وبما ان ارتفاع الهرم ٧٧ $\frac{٣}{٤}$ قامة فاذا تكون مساحة جسم الهرم ٣١٣٥٩٠ قامة مكعبة وكان عدد الشغالين فيه نحوا من مائة ألف نفر يتغيرون بمثلهم كل ثلاثة شهور وامتدت مدة تجهيز الاحجار وقطعها عشر سنوات من بلاد العرب أو من جهات النوبة ثم أرسلت الى مصر ثم امتدت مدة بناء هذا الهرم المهول الغريب عشرين سنة وعمل فى داخله قاعات ومجالس ووجد مكتوبا على الهرم بحروف الهجاء المصرية القديمة مبالغ النقود التى صرفت على

ما أكله الشغالة من أصناف الثوم والكراث والبصل والفجل وغيره من مثل هذه الاصناف مبلغ ألف وستمائة وزنة من الفضة وهذا عبارة عن ٢٠٠٠٠ استرلينه أو ٤٠٠٠٠٠٠ فرنك وكان أصل بناء هذه الاهرام قبورا للملوك المصريين

وكذا يوجد في مصر البرابي وهي مبان شيدت وأقيمت مثل الاهرام وبناؤها يدهش العقول ويحير الافكار زيادة عن بناء الاهرام وقد بنيت هذه البرابي في الطرف الجنوبي من بحيرة موريس باقليم الفيوم وكذا بالقرب من مدينة التمساح وما كانت بربة البرابة مركبة من سراية واحدة فقط بل مركبة من اثنتي عشرة سراية محكمة التنظيم جيدة الترتيب بدهاليز وطرق توصل لبعضها ومركبة من طبقتين فالطبقة العلوية تشتمل على ألف وخمسمائة قاعدة مسقفة جميعها بسقف واحد وتلك القاعات منظومة في دائرة اثني عشر محلا ومثل ذلك الطبقة التي هي أسفل منها وهذه الطبقة السفلى كانت معدودة لدفن الملوك والمحافظة على التماسيح المقدسة معبودات الامة المصرية

وكانت بركة موريس (هي بركة باقليم الفيوم) من أجل العمارات وأغرب الاشغال التي اشتغلتها ملوك مصر في العصور القديمة وقال قدماء المؤرخين ان شغلها أجود بكثير من شغل الاهرام والبرابي بالنظر الى كثرة أو قلة اجتناء الثمرات من زيادة النيل وفيضانه ولما كان الضرر الاكبر والموت الاحمر حاصلا من زيادة علو مياه النيل أو من نقصها وبواسطة ذلك كان يؤول أمر البلاد والارض الى الغرق أو الشرق وكلاهما مضر بأرض مصر وأهلها شرع الملك موريس فرعون مصر في عمل طريقة لاجل عدم حصول ضرر احدى هاتين الحالتين وأن يصلح حالة الفيضان بطريقة يعود منها النفع على البلاد وراحة العباد فأمر بحفر بحيرة أو بركة أطلق عليها اسمه وبذل في تشغيلها جهده وكل ما في طاقته وشوكته في اقليم الفيوم وكان دائر هذه البحيرة ثلاثة آلاف وستمائة استادية أو مائة وثمانين فرسخا فرنساويا وعمقها ثلاثمائة قدم وأقام في وسط هذه البركة هرمين من البناء ركب على رأس كل منهما تمثالا ضخما من الحجر جالسا على كرسي رأسه مرتفعة في الهواء بمقدار ثلاثمائة قدم ومثلها تحت الماء ووصل هذه البحيرة مع النيل بواسطة ترعة كبيرة أو خليج ينوف طوله عن أربعة فراسخ فرنساوية وعرضه خمسون قدما وعمل في رأس الخليج من جهة النيل وفي نهايته من جهة البحيرة برابخ وخوخات تفتح وتغلق حسب الحاجة وبلغت مصاريف هذه البرابخ نحوا من خمسين وزنة أي خمسين ألف فرنك وكان يجتني الملك من ثمرات هذه البحيرة أثمان الاسماك التي كانت تخرج منها وتباع وترسل أثمانها الى الخزينة الملوكية كما هو جار لحد يومنا هذا الا أن المنفعة التي كانت خاصة بها في الزمن القديم هي من أجل النيل وجريانه وذلك انه عندما كان يحصل الارتفاع في مياه النيل وتظهر عاقبة ضررها كان يجري فتح الخوخات والبرابخ وتجري المياه الى أن تصب في البركة وبهذه الطريقة صارت مياه النيل لا تغمر أرض مصر الا على حسب الحاجة واللزوم ولا تمكث فوقها الا مدة رسيان الطمي المجلوب معها المعد لاصلاح الزراعة وبعكس ذلك ان كانت مياه النيل منحطة جدا ويخشى القحط على مصر فكانت ترسل المياه اللازمة لاتمام ري الاراضي من البركة بواسطة ترع وخلجان مدبرة لذلك وبما أجراه موريس حصل الاصلاح في عدم انتظام حالة النيل وقت علو مياهه وكانت أرض مصر يتم ريها عندما تبلغ مياه النيل في العلو اثني عشر ذراعا وان بلغت ثمانية أذرع جهد الناس وتيقنوا القحط وحصل الشك في كون مياه البحيرة يحصل منها ارتفاع مياه النيل وقت جريانها في الترع والخلجان أم لا

والنيـل هو الآية الكبرى والعجيبة العظمى لحياة أرض مصر وأهلها لأنه يندر سقوط الامطار فيها فبواسطة هـذا النيـل تسقى أرض مصر لكونه يجلب لها ولاهلها ماهو مرتب عليه سنويا من الجزية والخراج بواسطة زيادته المنتظمة (أى عن مياه أمطار الاقاليم الاخر) المشحونة بالرواسب والمواد الطينية المصلحة لارض الزراعـة وبذلك صارت أرض مصر مقطعة بترع وخلجان وأبحر عـديدة تختلف فى الطول والعرض بنسبة اختلاف المواقع واحتياجات الاراضى وهذا النهر هو الجالب لخصوبة الاراضى وجامع للمدائن بعضها ببعض وللبحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر وطريق التجارة فى الداخل والخارج وحافظ للمملكة من عـدوها ولولاه ما كانت مصر ولا أهلها فهو المغـذى لها والحافظ لحالتها ويأتى للمصريين عند الحاجة ويمضى عند الاستغناء عنه كما قال بعضهم.

كأن النيل ذو فهم ولب * لما يبدو لعين الناس منـــه

فيأتى حين حاجتهم اليه * ويمضى حين يستغنون عنه

وقد أكثر الاوائل والاواخر المدح فيـه ولما كان هو أصلا لحياة مصر وأهلها أتقنوا أشغاله وأحكموا جسـوره وأقاموا مقاييسـه وعرفوا أوقات زيادته وفيضانه وحفروا الترع والخلجان وأنشؤا القناطر والبرابخ لاجـل التحفظ على مياه النيل مدة الرى ومدة التحريق حتى يتيسر الحصول على اجتناء ثمرات المحصولات وعود الثروة على البلاد والعباد وعند حضور النيل الى أرض مصر تسلم اليه فى الحال أرض الزراعة فتفيض مياهه عليها وتظهر المدائن والقرى الموجودة على مرتفعات من الارض للرائى كأنها فى بحر لجى محيطة بها مياه الفيضان من كل جهة كأنها جزائر صغيرة فيها وتسـتمر المياه فوق الاراضى مع الاعتنـاء من السـكان فى التحفظ عليها حتى تتم أوقات الرى ثم يجرى صرفها من على الاراضى والشروع فى بذر حبوب الزراعـة وقد أحكم المصريون سنتهم القبطية ورتبوا شهورها على قواعـد ومواعيـد زيادة النيل وزراعـة الحبوب فى أوان زراعتها ومواعيدها الجارية لحد الآن ونهر النيل قابل للملاحة فى طول مجراه بالمراكب الشراعية أو البخارية الصغيرة

وقد جعل القـدماء منابع النيل فى جبال القمر فى الدرجة العاشرة من العرض الجنوبى الا أن متأخرى السياحين كشفوا هذه المنابع كشفا حقيقيا وأثبتوا وجودها فى الدرجة الثانية عشرة من العرض الشمالى وأن النيل يخرج من ذيل جبـل فى مملكة جويام من أرض السودان من منبعين أصليين أو عينين مسافة ما بينهـما ٣٠ خطوة وسعة كل عين مثـل سعة عين البئر المعتادة وأما زيادته فهى حاصلة من جداول وغدران تصب فيـه ومن بعد جريانه فى الاقاليم السودانية والحبشية يجرى من وسط أرض مصر ثم يفرغ مياهه فى البحر الابيض المتوسط ويوجد فيه سـبع شلالات أى مهابط مياه يسمع صوت خرير المياه النازلة منها على مسافة ثلاثة فراسخ ويوجـد به أيضا موانع طبيعية فى الجهات العالية من مجراه

وأما زيادته وعلو مياهه فانها ناشئة من مياه الامطار التى تسقط سنويا فى الجهات السودانية والحبشية ثم تعلو مياهه فى الجهات السودانية ابتداء ثم فى مصر أخيرا وتبتدئ الزيادة فى مصر فى أواخر شهر يونيه وتستمر فى الزيادة الى آخر شهر سبتمبر ثم يأخذ فى النقص شيأ فشيأ مدة شهرى أكتوبر ونوامبر ثم يعود الى مجراه الاصلى

وأما الدلطة المسماة الآن بالروضة أو مصر السفلى فهى احـدى الاقاليم الاكثر خصوبة وأكثر غنيمة

من أقاليم الدنيا وكانت فى قديم الزمان مرصعة بالمدائن الزاهرة المفتخرة مثل مدينة بلوزة وتنيس وبسطة وصا الحجر ومدينة صان وغير ذلك

والمعروف أن أهل مصر القديمة وسكانها كانوا بالاقل خمسة ملايين أو أزيد من ذلك وأن أصل عمار هذه الارض من جهة آسيا والذين عمروها هم فرع من نسل مصرايم وكانت طبائعهم وعوائدهم على العموم فى غاية من الرقة واللين والخضوع والتمسك بالدين وكانوا نظيفى المأكل والملابس ومن ثم كانوا فى صحة وعافية

وكانت ديانة قدماء المصريين محصورة فى عقائد ومذاهب شتى ومهما كانوا عليه من كثرة المذاهب الديانية فانهم كانوا أهل تعصب فى الديانة وبهذا التعصب صاروا متمسكين بدين قوى فكانوا متمسكين بوحدانية الله سبحانه وتعالى وانه غير مكيف ولا مشاهد وكانت هذه العقيدة أساس ديانتهم وعقيدتهم الا أنهم كانوا متمسكين أيضا بأن الاله يحل فى هيئات وصور ويكيف فى كل منها صفاته وخواصه وله فى كل صورة مجموعة فيها هذه الصفات والخواص اسم دال عليه وهذه الاسماء مجموعة عند القسس وأرباب المعارف فى اسم واحد هو الله وأما الاهالى والعوام فكان لهم عدة عقائد خاصة بهم على حدتها وكان القسس يخفون ديانتهم عن عوام الامة لاعتقادهم أنهم فى غاية من الجهل وعدم الطاقة على ادراكها وفهمها وكان القسس يتضررون ويتألمون من كثرة تعدد الآلهة زاعمين أنه ربما أتى وقت يراعى فيه أنها كانت ديانة الامة وعلى الخصوص عند الاعراب

وكانت الامة المصرية تعترف بثمانية آلهة من الطبقة الاولى واثنى عشر من الطبقة الثانية وسبعة من الطبقة الثالثة وأن الشمس والقمر معبودان ويتصورون أن بعضا من روح الاله حال فى الحيوانات فمن ثم تأسست عقيدة عبادة الحيوانات فظهر أن هذه العقيدة كانت غريبة عند الجريقيين والرومانيين وكذا كانوا يعتقدون أن الاله يحل فى هيئة حيوان أو وهو الغالب المعهود عند المصريين أنهم كانوا يعتقدون كون الاله يحل فى اتصال عجيب وهو رأس حيوان متصل ببدن انسان فعلى هذا كان كل من الثور والبقرة والخروف والقطة والقرد والتمساح والكركى والجعران والخنفساء جميعها معبودات مصرية وكانوا يضعون كل واحد من هذه الحيوانات المقدسة فى هيكل الاله الذين يقدسونه مع غاية الاعتناء والالتفات الى خدمته مدة حياته وبمجرد موته يصبرون جسمه ويحنطونه ولا يلزمنا أن نتصور أن كل حيوان من كل جنس كان مقدسا عند المصريين بل كانوا يفرزون البعض من الحيوانات ويجعلونها على حدتها والمصاريف التى تصرف عليها كانت من طرف المملكة وخدمة تلك الحيوانات من أرباب المناصب العالية أو من أرباب الطوائف العالية ومن اعتقاد كبار الامة المصرية أن آلهتهم حالة فى هذه الحيوانات وأما عوام الامة فكانوا يرون أنها هى الآلهة نفسها وما كانت نفس هذه الحيوانات مقدسة جميعها فى جميع أقسام المملكة لان فرس البحر كان معبودا فى جهة من جهات الاقاليم وكان سكان طيوه يعبدون التمساح بخلاف الاقاليم الأخر فانهم كانوا يصطادونه ويقتلونه ويقولون انه حيوان مضر مؤذ

وكان الاله الاكبر عند مصر هو أمن رَا ومعنى أمن الشمس ومشتركا مع هذا الاله مَوْت أى الام الالهة وكذا شُون وهو ابن أمن ويعتقدون أن أمن هو أب لجميع الآلهة وأن أمن را هو الخالق لاعضاء نفسه وهما الام والابن وهذان صارا الهين اشتركا معه فى الالوهية وقال بعض أرباب

الاستكشافات انه مع ما كان عليه المصريون من عقيدة التثليث وهي الاب والام والابن فالآلهة المعبودة عند المصريين الاكثر سموا ورفعة ومشابهة بالكلية في الهيئة الخارجية للنوع البشرى ثلاثة وهي أُوزُوريس وإِزيس وهُورُوس فكان هؤلاء الثلاثة مصدر للعبادة العمومية في جميع أنحاء اقليم الديار المصرية وكانوا على ماقيل من نسل الاله سبط الذى هيئته الشخصية هى الارض ومن الالاهة أى المعبودة نوط ومعناها قبة السماء وقالوا في بعض روايات أخرى ان أوزيريس حل في هيئة شخصية بشرية وتسلطن في مصر ويعتقدون أن أوزيريس المذكور كان ذبح في مجادلة مع سبط ثم أحيا نفسه أخيرا بنفسه أى بقدرته وقوته وبمعاضدته بابنه هوروس ظفر بسبط وغلبه وانه من ابتداء هذا الوقت صار أوزيريس حاكم الدنيا القابلة وهو المجازى على الطيب والمعاقب على القبيح والخبيث

وكان المصريون يعتقدون في الدنيا الآخرة بان الاجر والعقاب فيها نتائج أعمال الشخص في الحياة الدنيا وان أرواح الاشرار تعاقب بعودها ورجوعها من السماء الى الارض ومن بعد أن تتشكل بكل صورة تعاقب بها تلزم بان تسكن في حيوانات دنيئة الرتبة مدة من الزمن ثم تتلاشى بالكلية وان الموت هو المفنى كل شئ متمتع بالحياة في هذه الدنيا فالملك والعبد تحت قانون واحد وقبل دفن الانسان مع ابائه يعرض محل حياته على محكمة مركبة من اثنين وأربعين قاضيا فان وجدوا حياته طيبة تستحق الدفن عبروا بجثته من فوق البحيرة المقدسة في جمعية أو محفل من المشيعين لجنازته ويدفنونه مع آبائه وان وجدوا حياته قبيحة رجعوا به وسلموا جثته الى أصدقائه المحزونين عليه فيدفنونه مثل العادة الجارية في حق دفن الاشرار في الجهة المقابلة للبركة التى هى مدفن الطيبين وعندما يصير دفن الجسم تسرى الروح في مسارات طويلة وأعمال غريبة تشتغل فيها بالدعاء والاعتراف بما كانت عليه قبل ثم يسوقها هذا السريان الطويل الى محكمة جليلة مركبة من الآلهة جالس فيها أوزيريس مع اثنين وأربعين من الآلهة الاخرى وتوضع الروح في كفة ميزان قابض عليه هوروس وأنوبيس ويزنون معها الحق أو الباطل ثم تراجع نتيجة الميزان بمعرفة الاله طوط

وبعد هذا يجرى الحكم في فصل ما تؤل اليه عاقبة الروح من غير بحث ولا مناقضة فان وجدت مجترحة بما جنته من الذنوب والآثام قضى عليها بالعقاب والعذاب والتلاشى وان وجدت في حالة الكمال وكانت في حياتها على الحق صارمرورها على عدة فحوصات لاجل تكفير الخطايا والآثام التى تسببت من طبيعة حياتها في الدنيا ويساعدها في هذه الفحوصات أوزيريس وبواسطته وقدرته تقوم الروح الى البعث والنشور العام في الآخرة

ومن حالة الاعتقاد في الحالة المستقبلة تولد فعل تصبير الاموات وتحنيطها فكان يجرى التحفظ على المومياء مع الاعتناء التام من أى شئ يضر بها معتقدين أن الروح عند عودها للجسم بعد فناء كل شئ يمكنها أن تجد مسكنها الاول صالحا لقبولها

وكان قدماء المصريين منقسمين الى طوائف ومراتب ممتاز بعضها عن بعض بالحرف والصنائع والمعروف عند متأخرى المؤرخين ثلاث طوائف هى طائفة القسس وطائفة الحربية وطائفة المزارعين ومن ضمن طائفة المزارعين المشتغلون في البساتين والجنائن والملاحون وأرباب الصنائع من كل جنس ورعاة المواشى والاغنام وكان الملك ويلقب فرعون أى الشمس رأس المذاهب الديانية

والسياسة

والسياسة الداخلية وكان نائب الاله أو وكيلا عن شخصه مقدسا ومن وظيفته الصدارة لتقريب القربان وسكب ما يسكب على الآلهة من الزيوت العطرية والروائح الذكية وكان مقيدا فى أعماله حتى فى أفكاره تحت قواعد وقوانين الكتب المقدسة المتضمنة للاجراآت والاعمال الدقيقة التى بواسطة جريه على موجبها يكون على الدوام فى سمو الموقع ورفاهية الحياة وعند موته يوضع جسمه بعد تصبيره على ملا ومشهد من الامة المطلقة الحرية لاجل أن تقيم عليه دلائل ما كان يجريه من الخير أو الشر فان ثبت عليه بواسطة الامة أشراره وخبائثه حرم جسمه من الدفن

وكانت مرتبة طائفة القسس هى الدرجة الثانية بعد الملك وكانوا تحت قوانين شديدة تقودهم الى دماثة الاخلاق وعفة النفس وكانوا فى السيادة والتعليم أصلا لجميع المعارف والعلوم المصرية وكانوا منوطين بالتهديبات الدنيوية والعقائد الدينية للملوك وكانوا مطلقى الشوكة على الاهالى وفى رفعة زائدة من تدريسهم ومطالعتهم العلوم الطبيعية حتى صار لهم بها طاقة على تأسيس الخرافات المزعجة لجميع الخلق وكانوا يدبرون هيئات مهولة بمناظر عجيبة يسحرون بها عقول الامة لاجل اضلال أهلها وكانوا يدعون أن لهم السلطة التامة على قبول بنى الانسان فى آخر حياته أو عدم قبوله وكان قدماء المصريين طبيعيى الدنيا من قديم الزمان ويولد من طريقتهم تصبير الاموات وتحنيطها أن صار لهم دراية تامة بمعرفة العلل والامراض المختلفة النوع التى تقع على الجنس البشرى وكانت معارفهم ركيكة الا أنهم كانوا فائقين على أمم عصرهم وكان وادى النيل يحضر لهم طلباتهم من غير حد ولا صد وكانت طائفة الحربية معدودة بعد طائفة القسس وكانوا مستحوذين على جملة امتيازات منها استثناؤهم من الضرائب والعوائد المضروبة على الاهل والسكان وحينما لا يكون لهم أشغال فى العسكرية يرخص لهم فى البقاء فى بلادهم لاجل زراعة أراضيهم

وكانت طريقة الكتابة الجارية عند المصريين محصورة فى عدة علامات أو اشارات مخصوصة سماها الجريق باسم الهيروغليف ومعناه النقش المقدس ولم يتيسر للجريقيين ولا الرومانيين الحصول على حل هذه الاشارات مطلقا حتى اجتهد المتأخرون من علماء جرمانيا وفرانسا وانكلتره وخصوا الفحص الكلى حتى تيسر لهم الحصول على وجود مفتاح لحل هذه الاشارات وصارت سهلة المطالعة وفتحوا مدرسة فى دار العجائب بمصر القاهرة لاجل تعليم هذه اللغة المصرية القديمة

وأما شرائع المصريين فكانت مشهورة ومن هيئتها ومطالعتها يستدل دلالة قطعية على علو درجة تمدن هذه الامة القديمة وتمتعها تحت شرائعها وقوانينها وقال بعض علماء الافرنج ان مصر كانت منبع كل حكومة طيبة وذلك أن نكث العهد وحنث الايمان كان من أعظم الكبائر مبغوضا عند الآلهة وعند الناس وكان يعاقب على فعله بالموت واذا رأى انسان آخر يدافع عن نفسه قاتله لخلاص حياته ولم يساعده الرائى له على قاتله كان ذلك أيضا من أكبر الجرائم فلو كان الشاهد غير قادر على معاضدة المغلوب لزمه أن يقيم الدعوى على القاتل فى المحاكم العدلية الادارية واذا قذف شخص فى حق آخر بالكذب والبهتان صار عقابه كعقاب الواشى النمام وكان كل واحد من الامة مكلفا بأن يضع تحت يد الحكومة المحلية وثيقة كافية تامة الشروط تشتمل على طرائق تكسبه ومعاشه وكل من أخبر بأخبار كاذبة أو سار فى طرائق غير شرعية حكم عليه بالقتل والقاتل عمدا يقاص بالقتل ولا تقتل المرأة الحامل الا من بعد أن تضع حملها ويقتل القاضى الذى يحكم على برىء بالموت والعسكرى الذى يفر من وظيفته

أولا يسمع أوامر حكامه كان يعاقب بأشد العقاب لا بالموت الا انه مع ما يحصل منه فيما بعد من حسن السير لا يتيسر له الحصول على عود ما كان فيه من الشرف قبل وكانوا يقطعون أيدى الذين يغشون النقود أو ينقصون الموازين أو المكاييل أو يكذبون فى أحوال البيع والشراء وكل رجل هتك حرمة امرأة حرة يعاقب بتشوه صورته وأما الزنا فكان يعاقب عليه الرجل بضربه ألف نبوت وجدع أنف المرأة وكانت تضبط أملاك الشخص على دينه لا الشخص نفسه ويدرأ الدين عن المدين اذا حلف أنه لم يكن طرفه شئ للدائن اذا لم يوجد صك أو كتابة وكان لا يسمح بزيادة أرباح لمبلغ عن أصل رأسه

واستدل من قدماء مؤرخى مصر أن أول من حكم مصر الآلهة ثم أنصاف الآلهة أى الشجعان مدة تنيف عن عشرين ألف سنة ثم ان الآلهة وأنصاف الآلهة والناس خلف بعضهم بعضا ملوكا وحكاما فى مصر ولم يترك لنا منهم القسيس مانيطون الا ثلاثين عائلة وكان مانيطون المذكور قسيسا كبيرا ورئيس دار الكتب والسجلات المقدسة فى مصر كتب تاريخا على مصر زعم أنه استخرجه من كتاب قدماء المؤرخين المصريين وكان تأليفه هذا التاريخ فى عصر بطليموس فيلادلفوس وبوصاية منه

ثم ان تاريخ مصر المعروف يتقدم متقهقرا الى ما بعد التاريخ المسيحى بمدة بعيدة جدا واختلف متأخرو المؤرخين فى مدة قدم هذا التاريخ فقال علماء الفرنساوية ورأسهم ماريت بك الذى كان ناظر دار العجائب بمصر وأثبتوا على أن تشييد الحكومة الملوكية فى مصر كان فى سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد وقال آخرون مثل بوسن ان هذه الحادثة كانت فى سنة ٣٩٠٦ قبل الميلاد وأما علماء الانكليز فيقولون ان تشييد الحكومة الملوكية فى مصر كان فى سنة ٢٧٠٠ قبل الميلاد وهذا الرأى الاخير هو الذى اعتمدنا عليه فى هذا الكتاب وجعلناه أساسا للحوادث المصرية ووقائعها التاريخية

وكانت مصر فى العصور القديمة منقسمة الى عدة كور أو حكومات صغيرة مفصولة عن بعضها فابتلع القوى منها الضعيف على التدريج حتى آلت نتيجة هذا أخيرا الى تشييد ما يعرف فى التاريخ بالمملكة السلطانية وذلك انه قام مينس أى مصرايم بن حام فى سنة ٢٧٠٠ قبل الميلاد وشيد المملكة الاولى فى طنيس من أعمال صعيد مصر وأسس العائلة الاولى على حسب ما ذكره القسيس مانيطون وتغلب على مصر السفلى وأصلح شأنها وبنى مدينة منف أو منفيس وكان عدة هذه العائلة ستة ملوك

وتنحصر مدة التاريخ القديم لمصر فى ٢١٥٨ سنة وتنقسم الى ثلاث مدد أو عصور أصلية

فأما العصر الاول فانه يبتدئ من تشييد السلطنة المصرية بواسطة مينس أو مصرايم بن حام بن نوح فى سنة ١٨١٦ من تاريخ الخليقة أى من سنة ٢٧٠٠ قبل الميلاد وينتهى بانقراض هذه السلطنة بواسطة قمبيز كى لهراسب ملك فارس فى سنة ٣٤٧٩ من تاريخ الخليقة ومدة هذا العصر ١٦٦٣ سنة والعصر الثانى يشتمل على تاريخ مصر تحت سلطنة الفرس والجريق ويمتد الى موت اسكندر الاكبر الذى كان فى سنة ٣٦٨١ من تاريخ الخليقة وهذا العصر عبارة عن مدة قدرها ٢٠٢ سنة والعصر الثالث هو تشييد سلطنة جديدة فى مصر بواسطة بطليموس لاغوس الى حد موت كليوبطره آخر ملكة من الملوك المصرية فى سنة ٣٩٧٤ من تاريخ الخليقة ومدة هذا العصر ٢٩٣ سنة

واتفق المؤرخون عموما على أن مينس كان أول الملوك المصرية وهو الذى شيد المملكة فى سنة ١٨١٦ من تاريخ الخليقة الموافقة لسنة ٢٧٠٠ قبل ميلاد المسيح وأنه هو مصرايم بن حام بن نوح

وذلك

وذلك أن عائلة نوح بعد أن أجهدوا أنفسهم وسعوا سعيا خارقا للعادة فى بناء صرح بابل ولم يتيسر الحصول لهم على طائل ولا نجاح وتبلبلت ألسنتهم تشتتوا على وجه الارض فذهب حام الى افريقية ولا ريب أنه صار الاها معبودا باسم أمون المشترى وكان له أربعة أولاد كوش ومصرايم وفوط وكنعان فأما كوش فانه استوطن الحبشة واستوطن مصرايم مصر وسميت باسمه وسكن فوط قسم افريقية الواقع فى الناحية الغربية من مصر واستوطن كنعان أرض كنعان المسماة باسمه فى نواحى فلسطين وكان مصرايم أول ملك فى مصر أسس عبادة الآلهة وقرب لها القربانات وكان هو المؤسس للعائلة الملوكية الاولى حسبما ذكرهمانيطون وفتح مصر السفلى كما ذكرنا سابقا

وكانت العائلة الثالثة متسلطنة فى منف وكان ملوكها التسعة معاصرين لملوك العائلة الاولى فى مدينة الطينة بعد موت مينس أو مصرايم وكان أول هؤلاء الملوك نخروفيس فعلى ما قيل انه تغلب على نواحى ليبيا وكان آخر ملوك هذه العائلة سيفوريس وقيل وهو الصحيح انه أخضع قبائل بحيث جزيرة طورسينا

وكانت سلطنة العائلة الثانية والرابعة والخامسة فى وقت واحد فالعائلة الثانية فى مدينة الطينة فى مصر الوسطى والرابعة فى منف فى مصر السفلى والخامسة فى جزيرة الفيلة فوق الشلال الاول من صعيد مصر ومن هذه العائلات كانت العائلة المنفية أقوى شوكة وكان من عدم الامكان اتحاد ملوك العائلة الثانية مع ملوك العائلة الخامسة بسبب ما كان بينهما من الدماء وكان ملوك هذه العائلات متقلدين زمام سلطنتهم برخصة من ملوك منف

وكان تشييد العائلة الرابعة فى منف فى نحو سنة ٢٤٤٠ قبل الميلاد وملوك هذه العائلة ثمانية تركوا براهين سموهم ودلائل عظمهم وقدرتهم فى أبنية عديدة مصنوعة من الحجر مشحونة بها مصر الوسطى بين جبال ليبيا والنيل وأعظم هذه المبانى وأجلها الاهرام وكان المؤسس لهذه العائلة سوريس وهو الذى بنى الهرم البحرى فى قرية أبوصير على صخور وجد اسمه مكتوبا عليها وكان الملك الثانى صوفيس الاول أو خوفو وهو الذى لقبه هيرودوط بلقب خيونس وبنى هذا الملك الهرم الاكبر وساعده فى بنائه صوفيس الثانى أونخوفو وكان تسلطن بالاشتراك معه فى الحكومة وأحيادولته مدة ثلاث سنوات وأوقع هذان الملكان الجور والظلم القاسى على الامة وهتكا حرمة الآلهة وأرغما الامة على أشغال شاقة تختص باشغالهما العمومية وقفلا الهياكل وعطلا عبادة الآلهة وقال هيرودوط ان المدة التى لبث فيها بناء الهرم الاكبر ثلاثون سنة وكان عدد الشغالين فيه ١٠٠٠٠٠ نفس يجرى تغييرهم عشالهم كل ثلاثة شهور مرة وكان عزم الملك أن يجعله قبراله وكذا ينسب بعض المؤرخين أبا الهول الكبير الموجود فى الجيزة الى عمل هذه السلطنة ومن المحتمل أن منخريس الملك الرابع كان ابن صوفيس الاول وهذا الملك هو الذى بنى الهرم الثالث بسبب وجود تابوته فيه وكان الملك الخامس راطوزيس والسادس بخوريس والسابع خيرخيريس والثامن طمفثيس وامتد حكم هذه العائلة ٢٢١ سنة

وفى مدة وجود العائلة الرابعة بلغت مصر الدرجة القصوى فى الحضارة والمدنية والتقدم فى الصنائع والاعمال وذلك أن قطع وحمل ونقل ورفع ووضع وتحكيم كتل الاحجار الضخمة فى محلها التى بنى بها

الاهرام تثبت الدرجة العالية لدراية الامة المصرية بالعلوم الميكانيكية وعلوم جر الاثقال ومن وضع كل هرم موجهة سطوحه على حسب جهات الاربع نقط الاصلية لبيت الابرة يستدل على انه كان لهم دراية تامة بالعلوم الرياضية ويظهر من النقوش والكتابة الموجودة على الآثار أن الكتابة كانت أخذت عندهم حد الكمال وأنها كانت مستعملة عندهم من عصور قديمة وكذا كان قلم الغاب وحبر المداد مستعملين في الكتابة المقدسة أى الهيروغليفية وكانوا يستعملون في النقش على القبور الفرشة ذات اليد المصنوعة من الكتان أو من الحلفاء وأمارسم صور الانسان والحيوانات فكانت تعادل ماهى عليه الآن بل كانت أتقن من رسومات العصور الاخيرة وكان توجيه البضائع والتجارة بطرق كما هى عليه الآن كما صار وجود ذلك تحت سلطنة الملوك الرعمسيسية ومع كل هذا فالظاهر أن المصريين فى مدة بنائهم الاهرام ما كانوا خرجوا من حالة الهمجية والبربرة لانهم كانوا أمة أجهدوا أنفسهم فى تقدمات كبيرة وأشغال فى الصنائع مفيدة كان عليها مدار حياتهم ومعيشتهم الدنيوية وكانت المملكة مقسومة الى كور أو أقسام كل واحد منها محكوم بحاكم خاص به وكان كل من طائفتى القسس والحربية ممتازتين ومنوطتين باجرا آت وأعمال مثل الجارية فى هذه الازمنة الاخيرة وان سوريس أول ملوك هذه العائلة تغلب على بحيث جزيرة طورسينا وأسكنها من المصريين بقصد تشغيلهم فى استخراج معدنى النحاس والفيروزا الموجودين فى تلك الناحية

ووجد المعلم بالمير الانكليزى وكان مشتغلا بمسح بحيث جزيرة طورسينا فى سنة ١٨٦٨ وسنة ١٨٦٩ بعد الميلاد وفى وادى المغارة وفى سرابيط الخادم نقوش كتابات على حجارة كثيرة من العائلة الثالثة الى العائلة الثامنة عشرة والعائلة العشرين ظهر له منها أن معادن هذه الجهة كانت من عهد طويل منبع محصول لمصر على الدوام

وتسلطنت العائلة السادسة فى منف بعد العائلة الرابعة فى نحو سنة ٣٢٢٠ قبل الميلاد واستمرت العائلة الثانية متسلطنة فى الطينة أو فى العرابة والعائلة الخامسة فى جزيرة الفيلة وفى هذا العهد قام عائلتان جديدتان وهما العائلة التاسعة والعائلة الحادية عشرة فى مدينة هيراكليو بوليس أى فى اهناس المدينة من اقليم بنى سويف وفى طيوه وصارت مصر منقسمة الى خمسة ممالك وفقدت منف رفعتها وسيادتها وأخذت طيوه على التدريج فى زيادة الشوكة وعلو الدرجة فتولد من الضعف والتجزئة أن صارت البلاد صيد اللقبائل والعشائر الرحالة النزالة من نواحى سوريا وبلاد العرب فأغاروا على مصر من طريق برزخ السويس فى نحو سنة ٣٠٨٠ قبل الميلاد ويحتمل أن يكون أقل من ذلك وكان هؤلاء القبائل هم قبائل الهيكصوص أو ملوك الرعاة فنجحوا فى تغلبهم على مصر من ابتداء البحر الابيض المتوسط الى درجة عرض ٢٩ ٣٠ من الجهة الشمالية وجلوا فى تغلبهم كل طريقة مهولة وحركة فظيعة وذلك أنهم حرقوا المدائن وهدموا المعابد والهيا كل ودمروا الاراضى وقتلوا الذكور واسترقوا النساء والاطفال ومن ثم أقاموا شوكتهم ونشروا سلطتهم على جميع مصر السفلى وعلى قسم من مصر الوسطى وأسسوا عائلتين فكان هذا هو السبب فى تعاضدهما وكانت احداهما وهى الاولى أى العائلة الخامسة عشرة الهيكصوصية متسلطنة فى منف والاخرى وهى العائلة السادسة عشرة متسلطنة فى صايص أو صا الحجر من أعمال الداطه واستمر الباقى من أرض مصر تحت يد العائلات الوطنية فكانت العائلة التاسعة متسلطنة فى اهناس المدينة ومعها الفيوم ووادى النيل

من الجهة الجنوبية لحدهرمو بوليس أو الاشمونين واستمرت العائلة الخامسة قابضة على زمام الصعيد الاعلى ومتسلطنة فى جزيرة الفيلة ثم نبغت مملكة جديدة من مدينة سخا من أعمال الدلتة فى وسط التقلبات الشديدة التى كانت حاصلة من الهيكصوص تحت قيادة العائلة الرابعة عشرة واستمرت مستقلة فى جميع مدة سلطنة ملوك الرعاة

وأخذت طيوة فى زيادة الشوكة والنجاح بسرعة تحت الحكم الشديد الذى كان جاريا من العائلة الثامنة عشرة وكان ملوك هذه العائلة ستة وملكة واحدة كانت آخر سلسلتها واستمرت سلطنتها المتحدة مدة ١٦٠ سنة وفى مدة حكم ملوكها صارت عائلتا اهناس المدينة وجزيرة الفيلة تابعتين لملوك طيوه ولو أنهما كانتا مستمرتين فى الاحكام وامتدت شوكتهم أيضا على عين شمس (المطرية) من تحت مدينة منف وتغلبوا على بحيث جزيرة طورسيناء وحاربوا العرب والحبش وبنى أمونهى وهو مريس أو موريس الثالث بربة فى الفيوم وكان هذا البناء المزخرف المتين يشمل ثلاثة الاف قاعة منها ١٥٠٠ قاعة فوق الارض معدة لدفن جثث الملوك ورمم التماسيح المقدسة وذكر هيرودوط أن السقف كان من أوله الى آخره مصنوعا من حجر مثل الحوائط والاسوار وكانت جميع الحوائط منقوشة بالتصاوير والاشارات وكان كل مجلس محيط بعمد مبنية من الحجر الابيض مجموعة مع بعضها بغاية الدقة والاحكام وحفر هذا الملك أيضا البركة المسماة باسمه فى الفيوم كما ذكرناها آنفا وشيد صيصورتاسن الاول عدة هيا كل وأقام عدة مسلات وكان فن العمارات والصنائع بالغا من هرا وحفروا الخلجان والترع لاجل رى الاراضى وأخذ صعيد مصر فى زيادة الشوكة والنجاح تبعا للظلم والجور والعسف الحاصل من ملوك الهيكصوص فى مصر السفلى

ثم ان العائلة الثالثة عشرة الطيوبة ضيعت جميع ما كانت العائلة الثانية عشرة استحوذت عليه وذلك أن ملوك الرعاة أغاروا عليهم وطردوهم من مملكتهم وأرغموهم على الهرب والالتجاء فى نواحى الحبش ومن ثم تبوأ الهيكصوص صعيد مصر ودمروا مبانى وآثار العائلة الثانية عشرة وامتدت شوكتهم على جميع مصر فى نحو سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد واستمرت سلطنتهم الى سنة ١٥٢٥ قبل الميلاد حتى رغب ملوك طيوة فى العود الى بلادهم وعادت لهم سلطنتهم وصاروا ملوكا خراجية لملوك الهيكصوص والظاهر أن ملوك العائلات الوطنية الاخرى كانوا فى مثل هذه الحالة وأن المدة التى كان موجودا فيها العائلتان السابعة والثامنة المنفية والعائلة العاشرة الاهناسية والعائلة السابعة عشرة الرعاة كانت على غاية من القتامة والظلام فى تاريخ المصريين ودمر الهيكصوص آثار أسلافهم من هذه العائلات ولم يتركوا شيأ يختص بهم فمن ثم لم نجد شيأ من التسجيلات الخاصة بذكر تواريخهم لانه فى ظرف الثلاثمائة سنة التى لبثها ملوك الهيكصوص فى مصر صارت أسماء ملوكهم معدومة بالكلية ومن المعتمد والمحقق أن يوسف وعائلة يعقوب عليهم السلام جاؤا مصر فى عصر سلطنة أحد ملوك العائلة السابعة عشرة الهيكصوصية كما ذكرنا ذلك فى التاريخ المقدس

ثم ابتدأت سلطنة العائلة الثامنة عشرة فى طيوة فى نحو سنة ١٥٢٥ قبل الميلاد وكان مؤسس هذه العائلة أمزيس أو أمص أو عهمص وعادت الى طيوة شوكتها مرة ثانية وطرد أمزيس ملوك الرعاة من

مصر وساق خلفهم حتى عبر وابرزخ السويس الى داخل آسيا ومن ثم خلصت المملكة من ظالميها الاغراب وصارت مصر مملكة ملوكية واحدة عاصمتها مدينة طيوة ودخلت مصر فى أحسن دور بانع من تاريخها واستمرت على هذه الحالة مدة سلطنة هذه العائلة والعائلة التاسعة عشرة والعائلة العشرين وفى غضون هذه المدة بلغت الصنائع المصرية الى أقصى درجات الكمال وكذا وصلت طيوه الى أقصى درجات الفخر والابهة وكان تشييدها كلها وسراياتها الملوكية المفتخرة ومسلاتها الشاهقة منسوبة لهذه المدة وأشعل ملوك هذه العائلة نيران حروب عدوانية اعتدائية وحملت الجيوش المظفرة المصرية على بلاد الحبش والعرب وسوريا حتى وصلوا الى ماوراء الفرات وكان أول ملوك العائلة الثامنة عشرة أموزيس فتسلطن ستا وعشرين سنة ورروى أنه هو الذى أوقع الجور والظلم فى الابتداء على بنى اسرائيل واسترقهم واستعبدهم وحملهم مالا طاقة لهم به من الاشتغال بضرب الطوب اللازم لعمارة المبانى وصناعة المؤن واستخدمهم فى الغيطان والمزارع وكانت جميع الاشغال المضروبة عليهم جارية بغاية العنف والشدة

ومن بعد موت أموزيس خلفه ابنه البكرى أمونوفيس وقيل انه فى مدة سلطنته كان خروج بنى اسرائيل من مصر وغرق وقت عبوره خلفهم فى البحر الاحمر وكان يلقب أمونوفيس الاول وتسلطن احدى وعشرين سنة وتزوج برنسيسة من مدينة طيوة حبشية الدم كانت تلقب بالمرأة الشريفة العفيفة النفس وكان طوطموزيس الاول الملك الثالث ونال هذا الملك نصرات عظيمة على الحبش وأدخل كنعانيي فلسطين تحت طاعته وحكمه والغالب أنهم كانوا سكان السهل الكبير الواقع بجانب شاطئ البحر الابيض المتوسط ومد فتوحاته الى أن عبر الفرات ودخل ميزوبوتامية (العراق) وتسلطن احدى وعشرين سنة ومن بعد موته صارت ابنته أمنسيط أوآميسيس وصية على أولاده الصغار ونائبة عنهم فى الحكم فحكمت سبع عشرة سنة وينسب لمدة سلطنتها المسلتان الكبيرتان اللتان لم تزل احداهما مركوزة لحد الآن فى وسط خرابات الكرنك وأطلاله وكانت سلطنتها زاهرة ناجحة وانتهت بموتها وخلفها أخوها طوطموزيس الثالث وكان عمره بضع سنين وأما طوطموزيس الثانى فانه مات وهو صغير وتسلطن طوطموزيس الثالث مدة تنيف عن أربعين سنة وأنشب حروبا على بلاد الحبش والعرب وسوريا وفى ميزوبوتامية الغربية (العراق) وشيد سرايات ظريفة وهيا كل عجيبة فى طيوه والكرنك والمطرية أى عين شمس وقفط وفى محلات أخر وأشرك معه ابنه أمونوفيس الثانى فى الحكم وكان هو الملك السادس مدة قليلة قبل موته ثم جلس على كرسى السلطنة من بعد وفاة أبيه

وكانت سلطنة أمونوفيس قصيرة خالية من الوقائع والحوادث وخلفه أخوه طوطموزيس الرابع وقال بعض المؤرخين انه هو الذى أمر بتشييد أبو الهول الكبير الموجود بالقرب من الاهرام ثم جلس بعده أمونوفيس الثالث ابنه وخليفته على التخت فى نحو سنة ١٤٠٠ قبل الميلاد وكان أعظم ملوك هذه العائلة وذلك انه ساق حروبات مظفرة على الليبيانيين والحبشيين وكان منهمكا فى تشييد العمارات واقامة الابنية والتماثيل وقيل ان التمثالين الكبيرين المعروف أحدهما باسم فوكال ممنون منسوبان لسلطنته وأمر أيضا بحفر برك وخزانات فى جميع أنحاء المملكة لاجل خزن المياه الكافية لرى الاراضى الزراعية واستمرت سلطنته نحوا من ست وثلاثين سنة وكانت مدة سلطنته مشحونة بارتيابا كات

وقلاقل داخلية حصلت من سعيه الخائب فى تغيير ديانة الامة ثم خلفه ابنه هوروس الوارث له شرعا الا أن مدته كانت فى شقاق ظاهر بين زعماء قاموا عليه والغالب أنهم كانوا اخوانه واخوته واستمر هذا الشقاق والخلاف جاريا نحوا من ثلاثين سنة حتى زادت الارتباكات واشتد هولها وأخيرا انتصر هوروس وتسلطن سبع سنين أخر ثم هلك وخلفه ريزيسطوط وكانت قرابته له غير حقيقية وبه انقرضت العائلة فى نحو سنة ١٣٢٤ قبل الميلاد

وفى نفس هذه السنة أسس رعمسيس الاول العائلة التاسعة عشرة الطيوبية وكان من نسل وذرية الملكين الاولين من العائلة الثامنة عشرة الطيوبية أيضا فحكم أقل من سنتين وخلفه ابنه سيطى الملقب عند الجريق باسم سيزوستريس وما كان ملكا مهيبا شجاعا وأقوى الملوك المصرية شوكة فقط بل كان أيضا أعظم الفاتحين فى الدنيا القديمة وعلى حسب ما ذكره مؤرخو قدماء المصريين أن أباه ألهم بوحى أن يهذب ابنه ويربيه تربية الرجل الفاتح وأن يتبع فى طريق تربيته الشرف والسيادة والهمة العالية الملوكية وذكروا أن أباه أمونوفيس بعد ولادة ابنه سيزوستريس أمر بجمع جميع الاطفال الذين ولدوا فى يوم واحد مع ابنه وأن يرسلوا الى سرايته ومقر حكومته وأمر الملك بتربية هؤلاء الاطفال وتهذيبهم والاغداق عليهم والاعتناء بهم كأنهم جميعا من صلبه من غير امتياز أحد منهم عن الآخر مع ابنه وهو كواحد منهم وقال الملك فى نفسه انه لا يمكنه أن يحصل لابنه على وزراء صادقين له فى خدمته ولا على ضباط فى جيشه أشد غيرة وأكثر حماسا من هؤلاء الذين يتربون ويتهذبون معه من الصغر ورتب لهم المربين ووظف لهم المعلمين حتى ترعرعوا جميعا وشبوا ووصلوا مبالغ الرجال وعودوهم على المشاق والمتاعب واقتناص الصيد وركوب الخيل والفروسية وكل ما يلزم من الادارات الداخلية والاجراآت الحربية

ولما تقدم سيزوستريس فى تهذيبه وتعليمه أرسله أبوه فى غزوة فى بلاد العرب لاجل نواله وتحصيله على معرفة طرائق قيادة الجيوش وسوقها والصبر على تحمل المشاق الحربية وآلام الجوع وشدة الظما والتعود على مثل هذه الاحوال فتغلب سيزوستريس على أمة لم يتغلب عليها أحد قبله وكان معه فى هذه الغزوة الشبان الذين تهذبوا معه وكانوا ملازمين له فى جميع حركاته ولما تعود فى هذه الغزوة على التعب والكد أرسله أبوه ثانية الى جهة الغرب لاجل تجربته فأغار على ليبيا وأخضع القسم الاكبر من تلك الاراضى الشاسعة ومات أبوه فى أثناء هذه الغزوة وتركه على حالة من الصلاح والوفاق لعمل أى مشروع من المشروعات كبيرا كان أو صغيرا فلما جلس سيزوستريس على تخت المملكة ورأى ما هو عليه من الشوكة والقوة عزم على فتح الدنيا والتغلب عليها الا أنه قبل أن يترك مملكته ظن أنه ربما يحصل فيها حاصل وقت غيبته فوطد داخلية بلاده وجلب لنفسه محبة رعيته وأغدق عليهم بكرمه وعدله وأفاض عليهم آلاءه ونعمه فامتزجت محبته بقلوبهم وأبدانهم وصار له عند ضباطه وعساكره محبة زائدة قلبية امتزجت بدمائهم وكان معهم كأنه واحد منهم مقاسم لكل واحد منهم فى آخر قطرة دم تقطر منه فى خدمته واستمر على هذه الحالة مفكرا فى نفسه أنه لا يمكنه أن يتم أى مشروع يشرع فيه الا اذا كان ضباطه وجيوشه ملاصقين له وقريبين منه ومرتبطين كل الارتباط معه بمحبة قلبية خالية من الغش والنفاق ممزوجة بالغيرة والحماس خالية عن الشقاق وعدم الوفاق وقسم المملكة الى ست وثلاثين كورة وعهدها الى أشخاص وأمراء من الذين يعتمد عليهم فى شدته ومحنته ويتحقق صداقتهم

وخلوص طويتهم ونيتهم

وفي غضون ذلك جهز قواه العسكرية وقادهم بأشجع الضباط وأشهرها سمعة وشهرة وكان معظمهم من الذين تربوا معه وكان عنده من هؤلاء الضباط ألف وسبعمائة ضابط كانوا على دراية تامة في أداء ادارة حركة عساكره مع النظام الحبي القلبي والغيرة والحماس في خدمة مليكهم وركب جيشه وشكله ونظمه فكان مقدار المشاة ٦٠٠٠٠٠ مقاتل والفرسان الخيالة ٢٤٠٠٠ فارس غير ٢٧٠٠٠ عربة من عربات الحرب وابتدأ سيزوستريس في غزواته بالغارة على بلاد الحبش الواقعة في الجهة الجنوبية من مصر وجعلها مملكة خراجية له وألزم الامة الحبشية أن ترسل له سنويا مقدارا محدودا من الابنوس والعاج والذهب

وكان سيزوستريس شرع في عمل اسطول مؤلف من ٤٠٠ شراع ولما تم أمره بالسير والتقدم في البحر الاحمر وتغلب على المدائن والجزائر الواقعة في طول سواحل هذا البحر وسار الملك بنفسه في رأس جيشه البرى الى آسيا فأخضع آسيا الغربية بسرعة عجيبة وسار الى الجهات الهندية حتى وصل الى جهات لم يصلها قبله هرقول ولا بخوس ولا اسكندر الاكبر من بعده وذلك أن سيزوستريس أخضع البلاد والاراضي الموجودة في شرق نهر الكنج وسار حتى وصل البحر المحيط ثم ارتد على أعقابه بجيشه وتغلب على السيطين وهم من ذرية يأجوج حتى وصل الى نهر طامس وكذا تغلب على أرمينية وقبدوسية وترك في مملكة كوليخوسية القديمة الكائنة في الجهة الشرقية من البحر الاسود مستعمرة مصرية استمرت على عوائدها وطبائعها المصرية مدة طويلة من العصور وشاهد هيرودوط من بحر الى بحر ومن أرض الى أرض آثار مظفراته وانتصاراته وقرأ في ممالك عديدة كتابة منقوشة بالحفر على عمد من البناء ما صورته (سيزوستريس ملك الملوك وسيد السادات) فتح هذه البلاد وأخضع العباد ودمر أهل الشقاق والعناد وأشفق على النساء والاولاد بقوة جيشه ومكنة سلطانه ووجد مثل هذه العمد في نواحي تراسة من الممالك الشرقية لاوروبا (مقدونيا) وامتدت مملكته من نهر الكنج الى نهر الدانوب أو الطونة وفي غزواته هذه قاومه بعض الامم مقاومة شديدة خشية من ضياع حريتهم والبعض خضعوا له من غير ضرب ولا كفاح وجميع هذه الاحوال أمر سيزوستريس بكتابتها بالقلم الهيروغليفي أي المقدس على أعمدة وأبنية شيدها في الممالك التي تغلب عليها تذكارا بنصراته وعلما ظاهرا على جليل اجرآته وما حواه المصريون من المكنة والسلطان والله المعز لمن يشاء والمذل لمن يشاء وهو القادر على كل شئ

ثم بعد ذلك عاد سيزوستريس الى مصر مثقلا بالغنائم التي ظفر بها من الامم التي تغلب عليها جارا خلفه عددا لا يحصى من الاسرى لابسا حلل المجد والفخر متوجا بتاج الظفر والنصر مشكورا في أعماله بالالسنة والاقلام محبوبا عند الخاص والعام وكافأ ضباطه وعساكره بما يستحقونه من المكافآت الجزيلة والانعامات والمواهب الجليلة التي أفاضها عليهم كل بحسب درجته ورفعته وما استحق عليه في وظيفته من أجل خدمته ثم عزم على أن يتم ما بقي من حياته في الاعمال الواجبة عليه العائد منها النفع على رعاياه والتمتع بالحياة الطيبة بعد التعب والنصب واستتب في ممالكه العدل والراحة وكان ملوك الامم الذين تغلب على بلادهم يأتون لزيارته سنويا ويقدمون له ما يجب عليهم من الخضوع والطاعة فمن ثم رخص له السلم العام بأن يشيد أشغالا ويقيم أعمالا تعود منها الثروة والغنيمة على مصر

خاصة لانها أصل مسقط رأسه ومركز حواسه وتكون هذه الثروة زيادة على مافعله من تخليد ذكر اسمه فى الدنيا فشرع فى عدة أشغال صرف عليها الجم الغفير من مبالغ النقود تقدمت فيها الحرف والصنائع واكتسب أربابها ما أزال فقرهم وأسعد مجدهم وذلك أنه أنشأ هياكل ومعابد للآلهة فى كل مدينة ومثل التماثيل وأقام المسلات وأسبغ على رعاياه ما جعل اسمه مستحق الذكر عندهم أبد الآبدين وكان أعظم عمل صار تشغيله فى مدة سلطنته هو أنه بنى فى كل جهة من جهات مصر وعلى شواطئ نهر النيل عددا كثيرا من الارصفة العالية شيد عليها مدائن جديدة مرتفعة بكثير عن أرض المزارع حتى تقى الناس والحيوانات من زيادة ماء النيل وعلو الفيضان وأمر بحفر خلجان كبيرة من ابتداء مدينة منف الى حد ساحل البحر الابيض فى كل من جهتى شواطئ فروع النيل لاجل سهولة طرق سير التجارة وارسال البضائع والمحصولات ولاجل سهولة المواصلة بين المدن وبعضها وعاد على مصر من هذه الخلجان والترع خلاف منافع التجارة والمواصلة وري الاراضى أن صارت موانع صناعية وموانع حربية لتوقيف وتعطيل فرسان الاعداء الذين يغيرون على مصر وحصن جميع الساحل الشرقى من ابتداء بلوزه (الفرما) لحد عين شمس (المطرية) باستحكامات وموانع صناعية لاجل حفظ مصر من غارات الامم المجاورة لها من العرب والسوريين وبنى المجلس الاكبر من مدينة الكرنك وبنى لنفسه أعظم مدفن بين المدافن الملوكية ولما كبر سنه وكف بصره مات بعد أن تسلطن ثلاثا وثلاثين سنة وترك مملكته على غاية من الغنى والثروة وكان قبل موته أشرك معه فى السلطنة ابنه رعمسيس الثانى الملقب بالاكبر ومن بعد موت أبيه صار ملكا فى نحو سنة ١٣١١ قبل الميلاد

وتسلطن رعمسيس الثانى ستا وثلاثين سنة وفى مدة سلطنته عصت الامم والممالك التى كان أبوه تغلب عليها فسار بالجيوش والعساكر وأخضع ليبيا وبلاد العرب وأخضع الحبشة وساق جيوشه الجرارة المنصورة الى آسيا وسار حتى وصل الى نهر الكنج وقمع البلاد والامم التى عصت على سلطنته ولم يضف أراضى زيادة على الاراضى التى كان أبوه تغلب عليها وعاد الى مصر مظفرا بتاج النصر ولم تزل آثاره موجودة على صخور فى نواحى عدلان بالقرب من صور وفى نواحى نهر الكلب بالقرب من بيروت من أعمال سوريا وحفر خليجا من النيل من فوق مدينة بسطة حتى أوصله الى البحر الاحمر وأوقف فى مصب هذا الخليج من جهة البحر الاحمر الاسطول الذى كان أبوه أنشأه ومقداره ٤٠٠ شراع وبنى الآثار الرعمسيسية فى طيوه وفى مدة سلطنته وصلت الحرف والصنائع الى أقصى الدرجات ومن بعد موته خلفه ابنه أمنفطس أو منفطه وعلى حسب الروايات التاريخية أن منفطه هذا كان فرعون خروج بنى اسرائيل ومدة سلطنته غير محققة ثم خلفه ابنه صيطوس الثانى أو صيطى وبه انقرضت العائلة فى نحو سنة ١٢١٩ قبل الميلاد

ثم قامت العائلة العشرون الطيوية أيضا بواسطة رعمسيس الثالث وكان منهمكا فى العمارات وفاتحا وشجاعا عظيما شيد سراية فى مدينة آبو فى طيوة يستدل من كل عمود منها ومن كل باب ومن كل قاعة ومجلس على استعداد وذكاء هذا الملك وكسر غارة من الليبيانيين كانوا معاضدين فيها بالطوخاريين وهم قوم من الجزائر أو من السواحل الشمالية للبحر الابيض وأشعل واقعة بحرية مع أسطول هؤلاء القوم وساق حربا مظفرا فى اسيا وسار بجيشه حتى وصل ميزوبوتاميه (العراق) الغربية وكان له أربعة أولاد كل منهم اسمه رعمسيس توارثوا الملك بعده على التعاقب ثم جلس على التخت من بعدهم رعمسيس

الثامن فغير الحالة العمومية التى كانت ثابتة فى التاريخ المصرى فى المدة السابقة باشعاله نيران حروب مظفرة ثم جلس على الكرسى من بعده ستة ملوك أو سبعة كل منهم اسمه رعمسيس لبثوا فى السلطنة مدة قليلة من الزمن كانت خالية الحروب والوقائع ومن المحتمل أن انقراض هذه العائلة كان فى نحو سنة ١٠٨٥ قبل ميلاد المسيح

وكانت بلغت درجة ارتقاء المصريين فى الشوكة فى عصر سلطنة العائلة التاسعة عشرة الى أقصى درجات الكمال الا انه تحت حكم العائلة العشرين ضعفت الشوكة الحربية والمتانة أو الرصانة الداخلية وأخذ هبوط المملكة وسرعة اضمحلالها فى الزيادة وخرجت من تحت طاعة الحكومة المصرية فتوحاتها الآسياوية واحدة بعد أخرى وكذا الاراضى والبلاد الموجودة فى جنوب حدودها الطبيعية وفقدت مصر الاتحاد والارتباط الذى مكث مددا من العصور بينها وبين آسيا وكان هذا الاتحاد لازما لشوكتها وقوة منيعة لدولتها وصولتها ودخل فى لسانها بعض ألفاظ من لسان الامم المتولدة من ذرية سام بن نوح ودخل فى الهياكل والمعابد آلهة أخرى أجنبية وكان لا يمكن الوصول اليها ولا القرب منها فى المدة السابقة وفى مدة وجود هذا الاضمحلال العام ظهر سبب آخر تولد منه الضعف الشديد وذلك أن كبار قسس آمن فى طيوة كانت لهم هذه المرتبة أو الوظيفة وراثية من الوالد الى ولده فاجتهدوا وسعوا وبذلوا جهدهم فى أن يستولوا لانفسهم على ما استولى عليه فى الازمان المتأخرة ولاة السراى فى مدة الملوك المروانية ملوك فرانسا واستحوذ قسس آمن فى طيوه على جميع الوظائف العالية ديانية كانت أو سياسية أو عسكرية على التدريج وضيقوا على الحكومة الملوكية وطمعوا فى خلع الملك الموظف عليهم بحسب شرعهم المقدس ومن ثم عاد على مصر قصاص وعقاب ما طمع فيه فانمحو العائلة الثامنة عشرة والعائلة التاسعة عشرة وصار يتساقط طل وندى الاضمحلال والهبوط الداخلى على صلاح الامة وفوزها مدة وجود العائلة العشرين وقامت شوكة القسس وسلطة سيادتهم وصار لهم الكلمة النافذة على كل طائفة من طوائف المملكة من القاصى الى الدانى وكانت هذه حالة منحوسة وعاقبة مشؤمة على تشتت الافكار وتسلطن البلبال وهبوط التقدم وعود الامة بالشدة والعنف الى الهيئات القديمة الديانية وانطفاء رونق العمارات وتجرع الامة غصص الآفات وزالت بهجة المملكة واندثر تشييد العمائر وتركت دراسة الطبيعيات وصارت المملكة فى حالة رق وعبودية مثل الازمان القديمة وكان قصد حزب القسس فى ذلك استمرار جميع الاشياء فى حد محدود ثابت لا يحصل فيه تغيير ولا يقع فيه تبديل ومن هنا صار تحديد حدود التقدم الى درجة أو نقطة معلومة آل أمر المملكة الى العجز والشيخوخة وضعف حالها وصارت الملوك الاخيرة من العائلة العشرين ألعوبة فى أيدى القسس

وفى سنة ١٠٨٥ قبل الميلاد وقت انقراض هذه العائلة قامت سلطنة العائلة الحادية والعشرين التنيسية فى مدينة صان من أعمال الدلتا ولقب ملوكها أنفسهم برؤساء أو كبار قسس آمن وتزيوا بزى القسس واستقر سلطانهم فى صعيد مصر ومصر الوسطى والسفلى الا أنهم ما أقاموا سلطانهم من غير حرب ولا ضرب وكانت سلطنة هذه العائلة الحادية والعشرين محصورة فى سبع ملوك وكانت مدة سلطنتهم لا معنى لها فى الباطن والظاهر وفيها عصت الحبشة واستقلت بنفسها من مصر وضاع من مصر جميع فتوحاتها فى آسيا وقامت السلطنة العاتية لبنى اسرائيل تحت ملوكية داود وشكل داود

سلطنته من البلاد التى كانت خاضعة لحكم مصر وزوّج أحد ملوك تنيس والمحتمل أنه منفطة أو اوصوخور بنته لسليمان بن داود عليهما السلام فكان هذا دليلا قطعيا على أن هذه العائلة كانت تركت كل ما كانت ترجوه من عود شوكتها القديمة فى آسيا وفى نفس هذا الوقت أخذت أشور ألد الأعداء لمصر فى الشوكة والتقدم بسرعة حتى صارت مملكة قوية خلف نهر الفرات

الباب الثانى

﴿من ابتداء العائلة الثانية والعشرين الى انقراض حكومة الفرس بمصر﴾

العائلة الثانية والعشرون ـ احياء السلطنة ـ وجود عاصمة المملكة فى مدينة بسطة ـ العائلة الثالثة والعشرون ـ نقل هذه العائلة عاصمة المملكة الى صايص (أى صا الحجر) ـ مصر وأشوريا عند الحرب ـ واقعة رافية ـ غلبة سرغون على الدلتا ـ نكث مصر طاعة الاشوريين وخضوعها ثانية ـ تضعضع شوكة الامة واضمحلالها ـ عود استقلالية مصر بواسطة بصاميطيقوس الاول ـ اختلال طائفة الحربية ـ اشعال نخو الحرب على بابل وهزيمته بواسطة بختنصر ـ تقدم التجارة المصرية ـ تغلب بابل على مصر ـ عود استقلالية المملكة ثانيا بواسطة أموزيس ـ فتوحاته ـ تغلب قمبيز أوكى لهراسب على مصر ـ جوره وتعدّيه ـ صيرورة مصر اقليما فارسيا ـ عصيان مصر على فارس ـ عقاب أوخوص ملك فارس مصر بسبب عصيانها ومقاصة زعماء الثورة

كان بصوصينيس الثانى أى بشام الثانى هو آخر ملوك العائلة الحادية والعشرين فى سنة ٩٩٣ قبل الميلاد ثم جاء من بعد هذه العائلة العائلة الثانية والعشرون وكان شيشاق الاول أو شيشوق زوج بنت بشام هو المؤسس لهذه العائلة وقال بعض المؤرخين ان هذا الملك كان حفيد بشام الثانى واختاره ليكون وارثاله ومع انه كان فى وظيفة القس الاكبر لا من غير أنه ما كان فى هذا الملك رائحة القسوسية فأقام عاصمة مملكته فى مدينة بسطة من أعمال الدلتا وهرب اليه يربعام فأمنه على نفسه وكان يربعام المذكور هرب من سليمان ملك اسرائيل بسبب ما ظهر عليه من الخيانة والدسائس التى كانت حاصلة منه وسعيه فى تجزئة العبرانيين الى عدة ملوك وحكومات وقطن يربعام مصر ولم يعد الى أورشليم الا من بعد موت سليمان وعند عوده جعل نفسه قائدا لثورة من العصاة وأخذ من رحبعام بن سليمان عشرة أسباط وجعل نفسه ملكا عليهم

وفى السنة الخامسة من سلطنة شيشاق سار شيشاق بجيشه على أورشليم بسبب اكتساب اليهود الخطايا وارتكابهم الموبقات عند الههم وكان جيشه مركبا من ١٢٠٠ عربة حربية و ٦٠٠٠٠ فارس وجلب معهم من العالم ما لا يحصى عددا وكان جميعهم من الليبيانيين والطروغلوديطين والحبشيين وتغلب على جميع المدائن الحصينة من مملكة يهوذا وسار حتى قرب من مدينة أورشليم فخضع ملك اسرائيل وأمراؤه ووجوه قومه لله سبحانه وتعالى وتضرعوا اليه بالدعاء فى حفظهم وسلامتهم من شيشاق فوعدهم الله على لسانه نبى من أنبيائهم بسبب توبتهم ورجوعهم عما هم فيه من الآثام أنه لا يمحقهم ولا يبيدهم حسبما يستحقون الا أنه يلزم أن يجعلهم عبيدا لشيشاق حتى يعرفوا الفرق بين طاعتهم له

وطاعتهم لواحد من عبيده وعاد شيشاق من أورشليم بعد أن نهب خزائن بيت المقدس وخزائن بيت الملك وحمل كل شيء معه حتى انه أخذ ٣٠٠ طارقة حربية مصنوعة من الذهب كان صنعها سليمان عليه السلام فى مدة حياته

وبلغت السلطنة المصرية فى مدة سلطنة شيشاق الى حياة جديدة وعادت لها صفتها الحربية وهيئتها العسكرية وجعلها شيشاق مملكة قوية الشوكة سامية السيادة ولما أقام يربعام مملكة اسرائيل الجديدة دخل شيشاق معه فى معاهدة ومن بعد أن جعل يهوذا خراجية له مات فى سنة ٩٧٢ قبل الميلاد ثم خلفه ابنه أوصورخون الاول وكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة خالية من الوقائع والحوادث ثم خلفه ابنه بيهور فى سنة ٩٥٧ قبل الميلاد ومابقى من ملوك هذه العائلة كانوا ملوكا لامعنى لهم فى ذاتهم وانقرضت سلطنة هذه العائلة الثانية والعشرين فى سنة ٨٤٧ قبل الميلاد وخلفها العائلة الثالثة والعشرون وكان ملوكها أربعة وكانت مدة سلطنتهم خالية الوقائع والحوادث ومقر هذه العائلة كان مدينة تنيس من أعمال الدلتا

وانقضت مدة العائلة الثالثة والعشرين فى مصر فى منازعات وثوران وتجزأت المملكة بين عدة عائلات مختلفة وازدادت الارتباكات والقلاقل ولم يحصل الفصل فى حالة هذه الاعمال الخطرة حتى جلست العائلة الرابعة والعشرون الصاوية وكان مقرها فى صا الحجر فى سنة ٧٥٨ قبل الميلاد وكانت هذه العائلة عبارة عن ملك واحد لقبه كل من مانيطون وهيرودوط باسم بخوريس فنقل العاصمة من مدينة تنيس الى صا الحجر وفى مدة السلطنة المتقدمة دخل ذراح ملك الحبش فى يهوذا وأشعل حربا على أسا ملك يهوذا وكان جيشه مركبا من مليون نفس وثلاثمائة عربة حربية فسار أسا لملاقاته ونظم جيشه صفوفا للحرب على بركة الله معبوده فقال الله له لا احتياج للمساعدة ولا خوف من كثرة العدد اذ لا قوة ولا حول لهذا العدد فدعا أسا وقال اللهم المساعدة يا الله يا الهنا أنت الهنا واله آبائنا عليك توكلنا وبك نستعين على هلاك هذا العدو المبين فانصرنا يا خير الناصرين يا الله أنت الهنا لا تدعنا نخلوق يغضك ولا العدو يكرهك وصار أسا يدعو ويتضرع الى الله بخشوع من قلب حزين ولسان مهين فأنزل الله سبحانه وتعالى فى قلوب الحبشيين الروع والخوف وأوقع فيهما الهول والفزع وفروا هاربين ومن خلفهم بنو اسرائيل معقبين وهزمهم الله شر هزيمة بما ارتكبوا من هذه الجريمة وفى سنة ٧٣٠ قبل الميلاد دخل ضباخو ملك الحبش مصر فى رأس جيش كثيف ودمر سلطنة بوخوريس وقتله وتغلب على مصر وأسس العائلة الخامسة والعشرين السودانية وصباخو الاول هذا هو المعروف فى التوراة باسم صو أوصوع ودخل فى معاهدة مع هوشيا ملك اسرائيل وكان هوشيا عصى على أشور يا فتولد من هذه المعاهدة عداوة ملوك آسيا له وهزمه سرغون فى واقعة رافية فى سنة ٧١٨ قبل الميلاد وقامت سيادة الاشوريين فى الدلتا وتقهقر الحبشيون فى داخل حدود صعيد مصر ثم جلس صباخو الثانى على التخت فى نحو سنة ٧٠٤ قبل الميلاد والظاهر أن الاشوريين كانوا اقسموا الدلتا الى أقسام صغيرة ووظفوا فى كل قسم منها ملكا وجعلوها خراجية لهم وما كان القصد من أعمالهم هذه الا وقوع الضعف والعجز فى الشوكة المصرية على الدوام بتجزئة جهاتها بما بذلوا فيه جهدهم

وامتدت سلطنة ضباخو الثانى الى سنة ٦٩٠ قبل الميلاد حتى خلفه أكبر ملوك الحبش فى مصر وهو

طهراق ويسميه أهل التوراة طراقة وأما الجريق فيسمونه طرخون وفى سنة ٦٦٩ قبل الميلاد أغار اصرحدون ملك الاشوريين على المملكة المصرية وتغلب عليها حتى وصل الشلال الاول وقسم مصر الى عشرين مملكة صغيرة خراجية لمملكة أشوريا وفى السنة التى جاءت بعدها انتهز طراقة الفرصة وقت ما حصل لاصرحدون المرض القاتل وتغلب على جميع وادى النيل مرة ثانية وساعده قسس الآلهة فى كل ناحية من نواحى المملكة لانه كان السبب فى عود ديانة الامة على ما كانت عليه وأخرج ملوك الدلتا من مدائنهم وشيد سلطنته فى هذا الاقليم وفى غضون ذلك دخل أشور بانيبال وكان خلف أباه على ملك أشوريا فى مصر فى راس جيش جرار كثيف لاجل استرداد شوكته فقاومه طراقة مقاومة شديدة مدة سنتين وأخيرا انهزم هزيمة فاصلة وانجبر على القهقرة خلف الشلالات وترك كامل مصر فى حوزة الاشوريين مرة ثانية فقسموا المملكة الى ممالك صغيرة خراجية لهم واستمرت المملكة فى مصائب وأهوال من ابتداء الوقت الذى جلست فيه العائلة الثانية والعشرون وأدخلوا الاغراب معهم فى خدمتهم بالاجرة فى الجيوش المصرية وصار لاهمة العساكر فى حركاتهم واختل نظامهم وتكاسلوا عما استخدمهم فيه ملوكهم وخلت من الجند حاسة التيقظ لحب الوطن ومن ثم صار العساكر والجند غير صالحين لمقاومة الاشوريين وانضاف الى هذا ضعف شوكة الامة ضعفا زائدا لما تسلطنت عليها شوكة الاغراب من سنين مضت وبهذه الاسباب صار من السهل للاشوريين توطيد سلطنتهم واستمرار سيادتهم فى مصر

ومن ضمن العمال الذين أقامهم الاشوريون على الممالك الصغيرة المصرية رجل اسمه نيخو ثم خلفه ابنه بعد موته وكان ابنه هذا مشتركا معه فى الاحكام حال توظفه بواسطة أشور بانيبال وكان ابنه هذا هو بصاميطيقوس الاول فمكث عدة سنين وهو أحد العمال الصغيرة فى مصر وأخيرا انتهز الفرصة عند تضعضع المملكة الاشورية ونكث بيعة طاعته لهذه المملكة فى نحو سنة ٦٣٢ قبل الميلاد ومن بعد أن أخذ نار مقاومات معانديه ومضاديه من العمال الاخر جعل نفسه ملكا على جميع المملكة المصرية وجلس على الكرسى وكان أول ملوك العائلة السادسة والعشرين الصاوية وكان مقرها فى صا الحجر ومن هذا الوقت انتقلت مصر تحت سلطنة الملوك الوطنية المصرية مرة ثانية بعد أن مضى عليها قرن تحت ناف المملكة الاشورية

وقيل ان عساكر بصاميطيقوس كانت مركبة من اليونانيين وغيرهم بالاجرة وبهم استحوذ على مملكة مصر فأغدق على هؤلاء العساكر بانعاماته وأقبل عليهم بكلياته وكان يجلس كبراءهم عن يمينه فتولد من ذلك بغضه عند الطائفة الحربية المصرية حتى ان كثيرا منهم ترك الديار وتوجه الى بلاد الحبش وقيل ان عدد الحربيين الذين تركوا الديار ٢٠٠٠٠٠ نفس فهددهم بصاميطيقوس وتوعدهم ان لم يرجعوا لوطنهم وديارهم فاستحسنوا لانفسهم الاقامة فى الجهات الحبشية وكان بصاميطيقوس ملكا ماهرا فاضلا أحيا العلوم والفنون فى مدته وشيد أشغالا عديدة فى المملكة وشرع فى فتح فلسطين وسوريا والتغلب عليهما الا أنه تعطل فى سيره بواسطة مقاومة مدينة أشدود الفلسطينية له فقاومته هذه المدينة أشد المقاومة فحاصرها وشدد عليها وكابدت مشاق حصاره واستمر بصاميطيقوس محاصرا لها تسعا وعشرين سنة حتى فتحها وأبلى سوريا وفلسطين بحروب شديدة استمرت عليها حتى انها ما رأت مثلها من عهد تغلب الاشوريين عليها وكانت مدينة اشدود احدى المدائن الحصينة الفلسطينية

القديمة جدا وكان المصريون لما تغلب عليها في العهد القديم حصنوها تحصينا زائدا حتى صارت معقلا رصينا لهم في تلك الجهة وما قدر الاشوريون على الدخول في مصر قبل ذلك حتى تغلبوا على هذه المدينة بكل مشقة وصارت تحت حوزة الاشوريين حتى أعادها بصاميطيقوس منهم

وفي أثناء هذه المدة ترك السيطيون سواحل بالوس ميُوطيس وأغاروا على ميديا وهزموا ملك تلك المملكة وهو كيكاؤس الملك وأخذوا منه جميع آسيا العليا واستمرت في حوزتهم ثمانيا وعشرين سنة ثم تحولوا في غلبتهم الى داخل سوريا حتى وصلوا الحدود المصرية وسار بصاميطيقوس لمقابلتهم فارتاعوا ووقع الرعب في قلوبهم وما اجترؤا على التقدم الى مصر وبهذه الوسيلة خلص مملكته من هؤلاء الاعداء المتبربرين

وقال هيرودوط انه لما سلطنته كان المصريون يتوهمون في أنفسهم أنهم أقدم أمة على وجه الارض فرغب بصاميطيقوس أن يثبت لنفسه هذا البرهان فأمر بأخذ طفلين من المواليد الجديدة من أولاد العائلات الفقيرة في المملكة وأن يوضعا في خص يقفل عليهما على الدوام وعهد تربيتهما الى راع من رعاة الاغنام وأن تكون تربيتهما على لبن المعز وأمر بعدم دخول أحد في هذا الخص حتى هو نفسه لا يتكلم بأدنى كلمة مع هذين الطفلين وقيل انه عهد رضاعهما الى مرضعتين قطع لسانهما فصارا لا يتكلمان ومن بعد مضي سنتين دخل الراعي يوما من الايام حسب عادته لاجل أن يعطي الغذاء اللازم للطفلين في الخص فصرخ الطفلان بصوت عال ومدا أيديهما نحو أبيهما المرضع لهما وقالا بيكُّوس بيكُّوس فاستغرب الراعي من كونه سمع لغة جديدة ولسانا ما سمعه قط ولما سمعه منهما مرارا أرسل مخبرا بهذه الحالة الى الملك فأمر الملك بجلب الطفلين عنده حتى يرى صحة ما أخبر به ولما ابتدأ الطفلان بالتلفظ بلفظتي بيكوس تحقق أن الامة في قديم الزمان كانت تستعمل هذه اللفظة ومعناها خبز أو عيش ومن ابتداء هذا الوقت رخص في الاحترام والاكرام للاشياء القديمة جدا وكان المصريون يرغبون من قديم الزمان في تقديسها واحترامها وكان المصريون على رغبة وحمية من قديم الزمان في استحواذهم على هذا الفخر الذي تركوه رغم أنفهم من مدة طويلة وكان بصاميطيقوس محبا للتجارة أيضا وبذل جل سعيه في ربط علاقات ومعاملات بين المصريين والامم الغريبة الاجنبية ونشر اللسان الجريقي في مملكته وحث على تعلمه وكانت عساكره وحكامه غالبهما من الجريق ومن بعد موته خلفه ابنه نخوُ في نحو سنة ٦١٠ قبل الميلاد

وفي نفس هذا الوقت سقطت مملكة الاشوريين وقامت مملكة بابل وكانت قويت شوكتها وعظمت سلطنتها تحت رياسة بختنصر وظهر أن وقوع الاختلاف بين سلطنة بابل ومصر لابد من حصوله وما أسرع وقوعه وذلك أن نخوُ استمر في الحرب الذي كان أبوه شرع فيه من أجل التغلب على فلسطين فهزم يوشيا ملك يهوذا في نواحي مجدُّو وجعل نفسه ملك سوريا الى حدود نهر الفرات وجعل مملكة يهوذا خراجية له ولما تقدم الى قرقميش على شطوط الفرات تقابل مع الجيش البابلي تحت قيادة (بختنصر) فهزمه بختنصر شر هزيمة والتزم العود الى مصر في سنة ٦٠٤ قبل الميلاد

وقال هيرودوط ان البابليين والميديين لما دمروا مملكة نينوى وهبطت مملكة الاشوريين وتقوت

مملكة بابل على ما جاورها من الامم فارتاع بخوّ من هـذا الخطر وتقـدم الى نهر الفرات فى رأس جيش جرار بقصد صد تقدّمات هذه المملكة وكان يوشـيا ملك يهوذا رقيق القلب مشهورا بالصـلاح فلما رأى أن بخوّ لا بد له من أن يمر فى طريقه من وسـط مملكة يهوذا صمم على مقاومة مروره وعدم سـيره ولهـذا جمع جميع قوى مملكته وعسكر فى وادى مجدّو وهى مدينـة على نهر الاردن من أعمال سـبط منشا فأرسل له بخوّ رسولا سلميا ينصحه ويخبره أنه لم يكن قاصدا بجيشه وعمه هذا ضرراله بل له عدوّ آخر يريد مقابلته وأن شروعه فى هـذا الحرب بأمر من عنـد الله تعالى وهو معه وبهذا نصح بخوّ يوشيا فى أن لا يدخل نفسه فى هـذا الحرب خشية من أنه ربما يعود عليه بالضرر وعدم الفائدة ومع ذلك لم يتحرك يوشـيا من مكانه وأحس بان سير مثل هذا الجيش الجرار من أرض يهوذا ربما يخربها ويدمرها وخشى أيضا من أن هـذا المنصور ربما بعد هزيمة البابليين يسقط عليه ويأخذ منه مملكته فسار يوشـيا ودخل مع بخوّ فى حرب شديدة فانهزمت عساكر يوشـيا وجرح هو جرحا بليغا مات منـه بعد أن أوصلوه الى أورشليم

ولما تهلل وجه بخوّ بهذه النصرة استمر فى سيره وتقدم الى الفرات وأوقع هزيمة على البابليين وتغلب على قرقميش وهى مدينـة واسـعة فى تلك المملكة ووطد بخوّ هذه المدينة لنفسه بأن وضع فيها قوّة من المحافظين وعاد الى مملكته بعد أن غاب عنها ثلاثة شهور ولما علم يهوآحاز بسفره الى مملكته أعلن لنفسه بانه ملك أورشليم من غـير أن يستشير مع بخوّ فى مثل هـذا الامر فأرسل له بخوّ رسولا يأمره بمقابلته فى قرية ربلاح من أعمـال سوريا وبمجرد ما وصـل هـذا الملك الشقى الى هـذه الجهـة خلعه بخوّ من ملوكيته وأرسله أسـيرا الى مصر وأقام فيها حتى هلك ومن هذه الجهة سار بخوّ حتى وصل أورشليم وأجلس يهوياقيم ابنا آخر ليوشيا على التخت فى قاعة أخيه وضرب عليه خراجا يدفعه له سنويا ومقداره مائة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب ولما تم لبخوّ ذلك عاد مظفرا الى مصر

ولما رأى ملك بابل أنه من وقت غلبـة بخوّ على قرقميش خرجت مـن تحت يده طاعة سـوريا وفلسـطين وأن شيخوخته وضعفه بالنسبة لكبر سنه لا يجوز له السير بنفسـه ضد هؤلاء العصاة أشرك ابنه بختنصر معـه فى المملكة وأرسله فى رأس جيش قوى الى تلك الاراضى والبـلاد فغلب هذا الامير الشاب على جيش بخوّ بالقرب من نهر الفرات واسترد قرقميش وأخضع الأقاليم العاصية الى طاعته كما أنبأ بذلك النبى أرمياء عليه السـلام وبهذا جرد المصريين من كل ما كانوا يتملكونه من ابتداء حدود مصر من فلسطين الى نهر الفرات وذلك هو سوريا وفلسـطين

وفى مدة سلطنة بخوّ تقدمت التجارة المصرية تقدما زائدا وكثرت الاغراب فى مصر ونبـغ فى المملكة طائفـة جديدة سموها طائفة المترجمين وبواسطة هـذه الطائفـة صارت المعاملة بين المصريين والامم الغريبة سهلة جدا وشرع بخوّ فى أن يعيد فتح الخليج القـديم من نهر النيـل الى البحر الاحمر الذى كان حفره رمسيس الثانى كما تقدم الكلام عليه سابقا وكانت المسافة بينهما ١٠٠٠ استادية وبما أن كل استادية ٢٢٥ قدم (أو ١٢٥ خطوة جغرافية) فيكون طول الخليج ١١٨ ميلا وثلث ميل انكليزى وبعد أن هلك فى حفر هذا الخليج ١٢٠ ألف نفس من الشغالة اجبر بخوّ على تركه بعد أن أخبره الوحى الذى استشاره بخوّ بقوله له ان هـذا الخليج الجـديد يكون فتحه طريقا للمتبربرين الذين يغيرون على مصر وكانت كل أمة عنـد المصريين فى الزمن القديم متبربرة أو همجية ثم شرع

فى مشروع آخر وذلك أنه أمر بانشاء مركب وجعل ملاحيها من الذين لهم دراية تامة بعلم الملاحة من الفينيقيين وأمرهم بكشف ساحل قارة افريقية من طريق البحر فسافروا من رأس البحر الاحمر وعادوا من ناحية عمود هرقول (بوغاز جبل طارق) فى البحر الابيض المتوسط ولبثوا فى سياحتهم ثلاث سنوات وجاؤا معهم بفوائد تجارية وكانت هذه السفرة من الاسفار الخارقة للعادة فى عصر ما كان فيه بوصلة الابرة أو بيت الابرة معلوما وكان قبل واسكودوجما البورتكيزى الذى كشف رأس عشم الخير فى سنة ١٤٩٧ بعد الميلاد بنحو أحد وعشرين قرنا وكان واسكودوجمه تابعا فى سيره الطريق التى جاء منها الفينيقيون الى البحر الابيض حال سفره الى النواحى الهندية

ومات نخو بعد أن تسلطن ست عشرة سنة وخلفه ابنه بصاميس أو بصامطيق الثانى فى سنة ٥٨٨ قبل الميلاد وكانت مدة سلطنته ست سنوات لم يترك لنا التاريخ تذكارا يختص بأحوال هذا الملك سوى أنه أجرى غزوة واحدة على الحبش وخلفه ابنه عوفريس ويسميه هيرودوط عفريس أو الفرعون حفرة فامتدت سلطنته تسع عشرة سنة وقال آخرون خمسا وعشرين سنة وكان فى مدة الخمس سنوات الاولى من سلطنته سعيدا موفقا فى كل مشروع شرع فيه ووجه جيوشه على جزيرة قبرص وتغلب عليها وحاصر مدينة صيدا برا وبحرا وتغلب عليها وجعل نفسه ملكا على كل من فينيقية وفلسطين

ومن بعد جلوس (حفرة) على التخت بقليل أرسل له صدقيا ملك يهوذا سفيرا من طرفه وعقد معه معاهدة وفى السنة التى جاءت بعد نكث صدقيا عهد بيعته الملك بابل وعصى عليه مجاهرة واغتر صدقيا بمعاهدته مع فرعون مصر ولم يلتفت لما وعظه به النبى أشعيا عليه السلام من عدم تداخله مع الامة المصرية بأى حالة كانت وسار بختنصر بجيوشه قاصدا مصر ورد أمامه (حفرة) على أعقابه حتى دخل بلاده ونال من مصر مظفرات قليلة وكان ذلك فى سنة ٥٨١ ثم أغار بختنصر على المملكة ثانية فى سنة ٥٧٠ قبل الميلاد وأخضعها الطاعته وخلع (حفرة) ووضع على التخت ملكا جديدا اسمه أموزيس خراجيا المملكة بابل فى سنة ٥٦٩ قبل الميلاد وتسلطن أموزيس أربعا وأربعين سنة قابضا زمام مملكته فى الاول تابعا المملكة بابل ثم زادنفوذه وعلا سودده وسلطانه بواسطة تزوجه نيطوخريس أخت سلفه ولما أخذت مظفرات بختنصر فى الضعف والاضمحلال نكث بيعة طاعته لبابل وجعل نفسه مستقلا وحلى عاصمته صايص أو صا الحجر بابنية عظيمة فاخرة وشوهدت آثار سلطنته فى جميع أقسام المملكة وزرع العلاقات الودية مع قبرص ومع الاقاليم اليونانية الاخرى وقوى تجار الجريق على الاقامة بمصر والتوطن فيها ثم تغلب على قبرص وجعلها خراجية له ولما ارتاع وخشى من تقدم دولة الفرس وكان الفرس تغلبوا على ميديا وبابل عقد محالفة مع قرص وص ملك ليديا ومع بوليقراط صاحب ساموس مؤملا فى ذلك مقاومة تقدم هذه الامة الفاتحة وكان أموزيس يميل بكليته الى الجريق ومنحهم امتيازات عريضة وصرح لكثير منهم حسب رغبتهم بالاقامة فى مدينة نوقراطيس المشهورة بمينتها البحرية وعقد محالفة مع اصيرنيقيين وتزوج بزوجة منهم وفى مدة سلطنة أموزيس دخل فيثاغورس الفيلسوف اليونانى مصر وكان حضوره فى مصر بوصاية من طرف الطاغى بوليقراط صاحب ساموس وكان أموزيس عقد معه صدق المحبة وحسن العشرة وما أجراه أموزيس من المعاهدات والتحفظات لم يفده فائدة يعود منها النفع على الامة

المصرية

المصرية ومات فى سنة ٥٢٥ قبل الميلاد وخلفه ابنه بصامطيق الثالث وجعل مدينة منف عاصمته
وفى نفس هذه السنة أغار ملك الفرس قبيز أى كى لهراسب بن كيرش أى كيخسرو على مصر فى رأس جيش قوى جمعه من جميع جهات ممالكه فاجتهد بصامطيق فى رده على أعقابه فى واقعة شديدة حصلت بينهما بالقرب من مدينة بلوزه (الفرما) فانهزم بصامطيق والتزم أن يحافظ على نفسه فى منف فهجم كى لهراسب على المدينة وتغلب عليها عنوة وأخذ الملك أسيرا بعد أن تسلطن سنة أشهر فقط ثم أمر قبيز أو كى لهراسب بقتله فى هذه السنة بسبب ريبة حصلت له من كونه سيبذل جهده فى خلاص وعود سلطانه مرة أخرى وبه انقرض الملوك المصرية بعد مدة قدرها ألف سنة
وما تقدم جميعه هو العصر الاول من العصور الثلاثة ومقداره ١٦٦٣ سنة
وابث كى لهراسب فى مصر أقل من ثلاث سنوات يجرى فيها أعماله القبيحة وأوامره الفظيعة حتى دمرها وصارت الامة المصرية لا تنسى غاراته وفظائع حروباته وصار المصريون من ابتداء هذا الوقت فى كراهة ونفور ودسائس وثورات على الفرس ملوكهم وصارت مصر على الدوام متشوشة البال حاملة للقلاقل والاهوال من بين الاقاليم الفارسية وقطعت امال مساعيها من عودها الى استقلاليتها مرة أخرى
وفى مدة القرن الخامس جميعه تقريبا قبل الميلاد استمرت مصر اقليما من المملكة الفارسية العجمية وتمتعت مصر فى مدة قليلة قدرها خمس سنوات أى من سنة ٤٦٠ الى سنة ٤٥٥ قبل الميلاد بدرجة استقلاليتها نوعا تحت حكم وسلطنة العائلة الثامنة والعشرين الصاوية أى التى مقرها كان فى صا الحجر وكانت هذه العائلة محصورة فى ملك واحد ثم أخذ الفرس هذه الثورة واستمرت حكومة الفرس قائمة الى حد سنة ٤٠٥ قبل الميلاد حتى طرحت العائلة التاسعة والعشرون سلطة الاغراب تحت قيادة نفرطيس وهذا أقام عاصمته فى مدينة منديس (اشمون الرومان جريس) واستمرت هذه العائلة قابضة على زمام التخت الى سنة ٣٨٤ قبل الميلاد
وفى آخر هذه السنة دخلت العائلة الثلاثون فى السلطنة تحت رياسة نقطانب الاول وكانت عاصمته سمنود وهذه العائلة تسمى بالعائلة السمنودية فتسلطن نقطانب الى سنة ٣٦٦ قبل الميلاد وخلفه طيوس أو طاخوس وفى مدة سلطنته القصيرة التى هى عبارة عن سنتين دخل فى تحريض وحض على ثوران ونفور عام فى جميع الاقاليم الغربية من المملكة الفارسية فأخذ أردشير بابكان هذه الاختلالات لكن ملك مصر عزم فى الحال على فتح سوريا وبعد أن سار رجع عائدا على أعقابه الى بلاده من أجل ثورة قامت فيها ومن هذه الثورة ضاع ملكه ونجح زعيم الثورة فى أن جلس على الكرسى باسم نقطانب الثانى وفى سنة ٣٥١ قبل الميلاد اجتهد أوخوص ملك الفرس وسعى سعيا ناجحا فى التغلب على مصر ثم فى سنة ٣٤١ قبل الميلاد جدد أوخوص عزمه وأغار فى رأس جيش مقداره ٣٤٤٠٠٠ نفس منه ١٤٠٠٠ نفس من مستأجرى الجريق المتدربين فى الحروب تحت قيادة قواد مجربين فى الحروب أيضا واستعد نقطانب لملاقاته فى رأس جيش مقداره ١٠٠٠٠٠ نفس منه ٢٠٠٠٠ نفس من مستأجرى الجريق فغلب قواد الجريق الموجودون فى جيش أوخوص ملك مصر وهزموا جيشه وتغلبوا من وقتهم على مصر وهرب نقطانب الى الحبش قاطع الرجاء خائب الامل من عوده الى مملكته وخضعت مصر جميعها الى أوخوص فهدم أسوار مدائنها ونهبها كلها ومعابدها

وأفاض على الجريق الموجودين معه الانعامات الزائدة وعاد الى فارس محملا بأثقال الغنائم التى لا تحصى

الباب الثالث

﴿ المملكة الجريقية ﴾

تغلب اسكندر الاكبر على مصر ــ تأسيس الاسكندرية وجعلها العاصمة ــ الحضارة الجريقية فى مصر ــ موت اسكندر ــ تملك بطليموس لاغوس مصر ــ سلطنة بطليموس الاول ــ وصف مملكته ــ بطليموس فيلادلفوس ــ الادراكات العظيمة لمصر ــ دار الكتب فى الاسكندرية ــ الترجمة السبعينية ــ حوادث هذه السلطنة ــ نجاح التجارة المصرية ــ عيوب الملك ــ بطليموس الثالث ــ فتوحاته ــ علاقاته وارتباطاته مع رومة ــ عنف بطليموس الرابع وشدته ــ اضمحلال السلطنة تحت حكم بطليموس الخامس ــ وجود الرومانيين فى مصر ــ تنازل السلطنة فى الهبوط ــ استعداد الرومانيين فى مصر وحكمهم فيها ــ سلطنة البطالسة الاخر ــ سرعة سقوط مصر ــ صيرورة كليوبطره ملكة ــ وجود القيصر يوليوس فى مصر ــ مارك انطونى ــ تغلب الرومانيين على مصر ــ صيرورتها اقليما من الاقاليم أو المملكة الرومية

استمرت مصر اقليما من أقاليم المملكة الفارسية الى ما بعد واقعة عصُوص أو إصُّوس حتى فتحها اسكندر الاكبر وأضافها الى ممالكه وذلك أنه بمجرد ما ظفر اسكندر الاكبر على دارا ملك الفرس وهزمه وجيوشه فى أول واقعة حصلت بينهما فى نواحى عصوص وكان اسكندر فى هذه الواقعة قائدا القوى الجريسية فأرسل عساكره تحت قيادة قائد من طرفه خلف دارا وعساكره وسار هو بنفسه حتى دخل سوريا مصحوبا معه ٤٠٠٠ نفس ووصل الى طرابلس واستحوذ منها على ما يلزم له من المراكب وحرق ما بقى من المراكب الاخرى ونزل هو وعساكره وأقلع فى البحر مباشرة الى نحو جزيرة قبرص ومنها أقلع الى مدينة بلوزة من الاعمال المصرية وهى محل بورت سعيد الآن ودخل عنوة فى هذه المدينة مدعيا انه مرسل من طرف دارا بوظيفة حاكم على مصر بدل سباسيس حاكمها السابق بما أنه هلك فى واقعة عصوص ولما استحوذ على هذه المدينة الجليلة المهمة رفع البرقع عن وجهه ونشر اعلانا عاما للحكومة ذكر فيه أن سبب مجيئه فى مصر هو من أجل طرد الفرس منها فتولد من هذا الاعلان أن الجم الغفير من المصريين الذين كانوا لا يرغبون سوى تحرير أنفسهم من المظالم التى كانوا تحت أثقالها من جهة الفرس هرعوا لمقابلته ومن ثم سار مباشرة على منف عاصمة المملكة فقابله قوة من الفرس لصده ومنع تقدمه فى داخل البلاد فهزم اسكندر هذه القوة حتى ألجأها الداخل المدينة وقفلوا أبوابها عليهم وبعد أن اكتسب اسكندر هذه النصرة تفرقت عساكره خلف الفرس قتلا ونهبا فسقط ما بقى من جيش الفرس على عساكر اسكندر غيلة وقطعوهم مع قائدهم

ومع هذا فان ما حصل من الفرس لم يزدهم الا كراهة عند المصريين زيادة عما قبل ولما ظهر اسكندر فيما معه للامة المصرية هرعوا اليه أفواجا لتقديم طاعتهم اليه وخضوعهم لديه وكان وصوله عندهم فى رأس جيش قوى ولما رأى مازوس حاكم منف من طرف الفرس أن لا طاقة له على مقاومة هذا الجيش الكثير وأن دارا فى حالة لا يمكنه بها مساعدته على حفظ المملكة ووقايتها من أعدائه فتح

أبواب المدينة فى الحال وسلم مفاتيحها للفاتح وقدم له ٨٠٠ وزنة من الذهب عبارة عن ١٢٠٠٠٠ استرلينه وكذا كافة أمتعة الملك وأثاثاته الموجودة بمصر وبهذه الحالة تغلب اسكندر على مصر من غير حرب ولا ضرب

ولما دخل اسكندر منف ووطد نفسه وعساكره فى الديار المصرية عزم على زيارة هيكل جوبيتر أمون الواقع فى وسط الصحراء الرملية من ليبيا (أى برقة) وعلى مسافة اثنى عشر يوما سفرا من مدينة منف وأصل وجود هذا الهيكل وانشاؤه فى هذه الجهة هو أن حام بن نوح عليه السلام أول من سكن مصر وليبيا من بعد الطوفان ولما ابتدأت العبادة الوثنية فى الدنيا بعده بيضع زمن كان هو أول اله وأكبر معبود فى هاتين المملكتين واستمرت ذريته على عبادته وبنوا له معبدا أو هيكلا فى وسط هذه الصحارى على بقعة جميلة من أرض خصبة ظريفة عرضها فرسخان تشبه جزيرة فى بحر رملى وهذه البقعة اسمها الواحات الآن وكان الجريقيون يسمونها جوبيتر والمصريون يسمونها أمون ومن مرور الازمان اتحد الاسمان وصارا اسما واحدا هو جوبيتر أمون وكان السبب فى سفر اسكندر هذه السفرة غريبا وذلك أنه قرأ فى خرافات عمير الشاعر الجريقى وفى الخرافات الاخر القديمة أن كثيرا من شجعانهم قدموا أنفسهم أولادا لبعض الآلهة فنجحوا فى أعمالهم وفازوا بمرغوبهم ولما كان اسكندر عنده من الرغبة الزائدة فى أن يكون فارسا أكبر من المتقدمين رغب أن يقدم نفسه ليكون ابنا لاحد الآلهة ومن ثم صمم فى نفسه على أن يكون أباه هو جوبيتر أمون وشرع فى أن يغمر القسس بالاموال ويفيض عليهم بالانعام حتى يوافقوه على مرغوبه

ثم سافر اسكندر من منف من طريق النيل حتى وصل الى البحر الابيض المتوسط وسار فى طول ساحله حتى عبر مدينة كانوب (وهى أبوقير الآن) فظهر له أمامه جزيرة الفار أو الفنار فوجدها محلا صالحا وقطعة تامة فى ترتيبها وشكلها موافقة لان يبنى فيها مدينة فصمم على بناء مدينة فيها وخطط مسطحها بنفسه وعلم على المحل اللازم بناء المعبد فيه وكذا محلات الميادين الواجب تشييدها فيها وعهد عمارتها وبناءها الى دينوقراطيس المعمارى المشهور عنده وسمى هذه المدينة باسم الاسكندرية وفيما بعد صارت عاصمة المملكة وجعل لها مينة بحرية حسنة الوضع غريبة الشكل حتى صارت هذه المدينة مركزا لتجارات البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر والنيل الواردة اليها من المشرق والمغرب وفى ظرف مدة قليلة صارت احدى المدن اليانعة الزاهرة الموجودة على سطح الارض

ومن بعد أن قرر اسكندر ما يجب اجراؤه فى شأن مدينته الجديدة ارتحل مسافرا بعساكره لزيارة هيكل جوبيتر أمون وكانت مسافة الطريق ١٦٠٠ استادية أو ثمانين فرسخا فرنساويا وطريق السير اليه مارة من وسط صحار رملية فكان العساكر فى اليومين الاولين من السفر على تشوق عظيم ورغبة كبيرة وذلك قبل دخولهم فى داخل الاراضى القفرة الرملية المهولة ولما دخلوا فيها وجدوا أنفسهم أنهم صاروا فى داخل سهول رملية شاسعة مغطاة برمال عميقة وقع فى قلوبهم الرعب وجزعوا من شدة الخوف ورأوا أن هذه السهول المقفرة كأنها فى وسط بحر خلى من المياه فصاروا ينظرون فى جميع جهاتهم على قدر امتداد بصرهم لعلهم يكشفون محلا مسكونا أو شجرة أو يرون أثر قدم انسان أو حيوان يستدل منه على سير آدمى أو مشى حيوان فكانوا لا يرون من هذا شيأ والذى أدهش بالهم وأقلق بلبالهم وزاد فى جزعهم وارتباعهم أن المياه التى كانوا جلبوها معهم فى قرب محمولة على جمال انتهى

أمرها وفرغت منهم حتى ما بقى عندهم قطرة ماء فى وسط هذه الصحارى القحلة المعدومة المياه فأسفوا وندموا على حالتهم هذه وسلموا أنفسهم للموت من كثرة ما حاق بهم من العطش والظما وما حل بهم من وجود الرمال المتطايرة عليهم من كثرة الرياح حتى كادت تدفنهم تحتها وازداد الخطر واشتد الكرب والظمأ حتى ما صار لاحد منهم طاقة على التنفس وقعدوا جميعا على الرمل مسلمين أنفسهم للموت فاتحين أفواههم للهواء والسماء وبينما هم فى هذه الحالة الشديدة اذ أظلم الجو وتكاثرت السحب وتكاثفت فى بعضها حتى حجبت عنهم الشمس وهطلت عليهم الامطار وكان ذلك سببا من عند الله سبحانه وتعالى فى نجاة هذا الجيش وخلاصه مما كان فيه من اشرافه على الموت والهلاك فأخذ العساكر من مياه الامطار احتياجاتهم وصار البعض منهم يتلقى الماء فى فمه ليحييه من كربه وغمه وملؤا قربهم ثم استمروا عدة أيام فى قطعهم هذه الصحارى ولما قربوا من المحل الموجود فيه الهيكل رأوا عددا لا يحصى من الغربان طائرة أمام العلم القدامى فيحتمل أن هذه الغربان اما أنها طارت الى الارض حال سير الجيش فيها بحركة بطيئة واما انها سارت فى طيرانها الى قدام لترشد الجيش أشبه بدليل له على الطريق اللازم اتباعه والسير فيه حتى يصلوا الى هيكل الاله وقال بعض المؤرخين ان من عجائب الامور أن هذا الهيكل وان كان فى وسط قفر لاحد له ولا نهاية لكنه محاط بغيضة كثيرة الظل كثيفة الاشجار لا تؤثر منها الاشعة الشمسية وهذه الغيضة تسقى من عدة منابع أو عيون من مياه عذبة تحفظ لها لون خضرتها على الدوام وروى أنه يوجد بالقرب من هذه الغيضة غيضة أخرى فى وسطها عين ماء تسمى بعين الشمس وان مياه هذه العين تكون فاترة وقت الفجر وباردة وقت الظهر وتأخذ فى السخونة من بعد العصر على التدريج حتى تصل الى درجة الغليان فى منتصف الليل ومن بعد ذلك تقل درجة حرارتها كلما قرب طلوع النهار ولم تزل مستمرة على هذه الحالة

ثم ان الاله المعبود الموجود فى هذا الهيكل ليس له شكل ولا صورة حجرية منقوشة مثل صور وأشكال الآلهة الاخرى الجارى نقشها ورسمها فى تصوير الآلهة بل هو مصنوع من الزمرذ والاحجار الكريمة وهيئته من ابتداء رأسه الى سرته على شكل خروف ولما وصل الملك الى داخل الهيكل أمره رئيس القسس بأن يقدم نفسه ابنا الى جوبتير وقال له ان الاله نفسه هو الذى منحه هذا الاسم فقبل اسكندر مقالته مع غاية السرور والابتهاج واعترف بأن جوبتير أبوه ثم انه سأل القسيس هل أبوه جوبتير أفاض عليه ملك الدنيا عموما فأجابه القسيس قائلا مع التملق وزيادة الفخفخة نعم يلزم أن تملك الدنيا بأسرها ثم سأله أسئلة أخرى يطول شرحها فيما يختص بعلو مقداره وما تؤل اليه حالته فأجابه أن سيكون له مقعد بين الآلهة فقرب اسكندر القربان وذبح الذبائح وأهدى للاله هدايا نفيسة جدا وكذا أفاض على القسيس الذى أجابه بمرغوبه هدايا واحسانات عظيمة

ولما تزين اسكندر بلقب ابن جوبتير وحاز لنفسه علو الدرجة فوق بنى الانسان كما قال له القسيس رجع قافلا من سفره منصورا مظفرا ومن ابتداء هذا الوقت صار اسكندر يوقع على مكاتيبه وأوامره بهذا التوقيع وهو اسكندر ابن جوبتير آمون وبمجرد عوده من الهيكل ووصوله الى بالوس مريوطيس وكانت قريبة من جزيرة الفنار نهض مسرعا لزيارة مدينته الجديدة ورؤيتها وكانت عمارتها أخذت فى التقدم فبذل جهده فى اجراء الطرق الممكنة له فى توطينها واسكانها فدعا اليها الناس من كل فج عميق ومنحهم

بشروط مفيدة لهم وجلب اليها من أورشليم جما غفيرا من اليهود ومنحهم بامتيازات جليلة ولم يتركهم معتوقى الحرية فى دينهم وشريعتهم فقط بل جعلهم على منوال واحد وقدم ثابت من الاحترام مع المقدونيين الذين سكنوها من طرف اسكندر ثم رحل منها الى منف وفيها قضى فصل الشتاء وذكر وارو أن الوقت الذى شيد فيه اسكندر مدينة الاسكندرية ظهر فيه استعمال الورق المعد للكتابة فى مصر

وأصلح اسكندر فى المدة التى لبثها فى منف جميع أحوال الاعمال والادارة الداخلية وتنظيم العساكر فى الديار المصرية وقسم المملكة الى كور وعين فى كل كورة نائبا يجرى اجرا آته حسب الاوامر الصادرة له من نفس اسكندر واطمأن على سلامة عساكره فى هذه المملكة المعمورة وجعل قيادة العسكر لحاكم واحد وأما الحكومة المدنية الداخلية فانه عهدها الى واحد من أمراء المصريين وسلمه زمام الشوكة والحكومة قاصدا بذلك أن مصر يلزم أن تكون محكومة بقوانينها وعوائدها القديمة وكان على رأى أن الوطنى المصرى الذى تعهد اليه الحكومة هو الذى يكون صالحا وأهلا لها زيادة عن كل غريب ومهما كانت درجته وعين لاجل سرعة بناء المدينة الجديدة واحدا اسمه كليومنس ناظرا عليها ومن وظيفته أيضا جمع الخراج اللازم دفعه من طرف البلاد العربية فكان كليومنس هذا أخطأ الخاطئين وأقبح المقبوحين فى ادارته وظلمه وأضر باحوال الامة والتعدى عليها

ولما فرغ اسكندر من توطيده الاعمال وتنظيمه الاحوال فى مصر سافر منها فى فصل الربيع متوجها الى الشرق ضد دارا ملك الفرس وسنذكر تاريخه فى تاريخ الجريس ان شاء الله تعالى

وفى المدة القليلة التى لبثها اسكندر فى مصر غير جميع هيئة تاريخها حتى عوائد الامة المصرية ورمى آساسات سعادة المصريين فى الحال ومجدهم فى الاستقبال وجعل الاسكندرية عاصمة الديار المصرية وأسبل عليها منافع وفوائد الحضارة الجريقية والتمدنات الغربية فانتشرت هذه الحضارة والتمدن بسرعة بين الامة المصرية وبواسطة هذا التغيير دخلت مصر فى دور جديد وأمر أكيد فى المعاملة مع الباقى من عالم الكون وصارت طرق اجرا آتها ووسائلها التجارية مقبولة عند القسم الاعظم من الامم والتزم الجنس المقدونى الجريقى التوطن والاقامة فى داخل الاسكندرية وفيما جاورها من الضواحى واستمر سكان داخل المملكة على ما كانوا عليه من لسانهم ودياناتهم وعوائدهم متمتعين بالاحتلال فى مواطنهم ومساكنهم لا يمسهم فيها نصب ولا يقوم فيما بينهم شغب وصار لهم حواس غريبة وادرا كات ليست بعيدة بل قريبة ومالوا كل الميل الى عالم الدنيا الغربية بسبب اشتراكهم مع الجريق وصاروا تبعة برغبة أنفسهم لا برغم أنفهم لاسكندر والبطالسة من بعده واشتعلت فى قلوبهم نار الغيرة والحمية فى أشغال التجارة ونبتت فيهم مغارس الآداب حتى صيرت الاسكندرية احدى المدائن الكبيرة الباهرة بعلومها وفنونها على وجه الارض

وبمجرد موت اسكندر فى سنة ٣٢٣ قبل الميلاد تخصصت الاقاليم الافريقية لبطليموس لاغوس وقت تقسيم مملكة اسكندر بواسطة مجلس عقد من قواده فاستلم بطليموس لاغوس فى الحال حكومته وكان يتمنى من قبل أن تكون مصر من قسمه ونصيبه فعكف نفسه على سير الادارة فيها ونظم أحوالها وحدد حدودها وكذا حدد فتوحاته الى أقاليم كذا بحيث يتيسر له الحصول على التغلب عليها من غير أن يقع فى مخاطرات جسيمة وبواسطة ما أجراه بطليموس فى مصر من الاشغال والاعمال جعلها حرزا منيعا وحصنا

حصيناوأزال عنهاشبهة الطمع والاعتراض حتى أبعد عنهامبغضيه ورد كيدهم فى نحرهم من جهة ما كانوافيه وكان جل مسعاه وما يتمناه هوأن يجعل مصردولة بحرية وسلطنة قوية وفى هذا الغرض استحصل على ما كان يرجوه وزيادة وحصل له الظفر والنجاح والسعادة ورأى انه لاجل توطيده هذا الامر من الضرورى التغلب على فلسطين وفينيقية لان أهلهافضلا عما يحتاج لهم فى شغل المراكب والاساطيل أمة أشد قوة وأعظم مراسا فى الملاحة من غيرهم ثم من بعد مدة حصل فيها النجاح تارة والخيبة أخرى صار عقد صلح فى سنة ٣٠١ قبل الميلاد عقب واقعة حصلت فى أفسوس فتقرر لبطليموس فى هذا العقد الاستحواذ على فلسطين وفينيقية وأما ما كان جاريا فيه من السعى والاجتهاد فى استحصاله على جزيرة قبرص فانه لم يحصل فيه فصل ومن بعد أن صرف مصاريف جمة من الدماء والاموال تغلب على جزيرة قبرص وجعلها تابعة للملكة المصرية

وكانت المملكة التى أسسها بطليموس سلطنة مطلقة مستبدة وذلك انه لم يغير فيها شيأ من قوانينها القديمة ولا شرائعها التى جرت الاحكام عليها من زمن قديم ولا الطريقة الادارية للمملكة وكانت السلطنة جميعها محصورة فى يد المقدونيين وضباط الجريق وكان الجيش الثابت أيضا مركبا جميعه من المقدونيين والجريقيين

وكان نفس بطليموس محبا صادقا وأخا موافقا غير منافق للعلوم والمعارف فأسس دار الكتب التى كانت مشهورة فى الاسكندرية وحض علماء الدنيا على الحضور عنده والجلوس فى سرايته ونشر العلوم والمعارف وحث على تعلمها والمواظبة على مطالعتها وتدريسها وصارت الاسكندرية تحت ارشاداته العظيمة واجراآته المفيدة الكريمة العدو السامع والبرق المضئ اللامع لأثينة فى الآداب والفنون والعلوم وحلى بطليموس عاصمته بعدة مبان جليلة كان أجلها وأعظمها السراى الملوكية ودار العجائب والفنار الشاهق البنيان المصنوع من المرمر الابيض وجعله دليلا لدخول المينة وكذا القبر الذى دفن فيه جثة اسكندر الاكبر المشهور الآن فى مدينة الاسكندرية بالنبى دانيال وهيكل سرابيس والايدروم وامتدت سلطنة بطليموس لاغوس الى القرن الثالث قبل المسيح ومات فى سنة ٢٨٣ قبل الميلاد بعد أن بلغ من العمر أربعا وثمانين سنة وتسلطن أربعين سنة

وصار بطليموس الثانى الملقب فيلادلفوس ملكا وحيدا فى مصر بعد موت أبيه فى سنة ٢٨٣ قبل الميلاد وكان عمره ستا وعشرين سنة وكان على جودة من التهذيب والتربية بواسطة العلماء الذين جمعهم أبوه عنده فى سرايته ومن ثم صار محبا فاضلا للعلوم والآداب وفى مدة سلطنته فى السنة الاولى منها تمت عمارة برج الفنار المشهور فى جزيرة الفنار بالاسكندرية لحد الآن وكان هذا البرج من ضمن عجائب الدنيا السبعة وذلك أنه كان بناء جسيما مربع الشكل من حجر المرمر الابيض وفوق قمته تشعل النار على الدوام ليلا لاجل استدلال المراكب على خط سيرها ودخولها فى داخل المينة وكانت تكاليف عمارته ٨٠٠ وزنة من الذهب أى ٢٠٠٠٠٠ جنيه استرلينه وكانت جزيرة الفنار مفصولة فى الاصل من أرض القارة بمسافة قدرها نحو من ميل انكليزى فصار توصيلها بالبر الاصيل بواسطة جسر وآثار هذا الفنار موجودة لحد الآن فى نفس الجزيرة واستمرت حتى جعلها السلاطين قايتباى قلعة عظيمة وأحاطها بالاستحكامات والاسوار وأصلح جسرها ثم تخربت واندثرت واستمرت الى زمن محمد على باشا صاحب مصر فصار ترميم استحكاماتها وأصلح الجسر الموصل لها وركب فى داخلها المدافع

والهوانات

والهوانات ولم ينظر الى الفنار بل أمر بانشاء آخر فى جزيرة رأس التين المجعول الآن دليلا للمراكب فى دخولها الى المينة لحد الآن أى سنة ١٨٩١ بعد الميلاد

وفى نحو هذه المدة صار جلب تمثال سرابيس من مملكة بونطوس على سواحل البحر الاسود الى الاسكندرية وكان بطليموس رأى رؤيا منامية حث فيها على طلبه فأرسل رسولا من طرفه الى ملك سينوب من أعمال بونطوس يطلبه منه وكان هذا التمثال محفوظا عنده فلم يقبل ملك بونطوس تسليم التمثال للرسول واستمر الرسول منتظرا تسليمه التمثال اليه مدة سنتين حتى قحط أهل سينوب وأضر بهم الجوع وجهدوا جهدا شديدا من القحط فرضوا بالتنازل عن هذا التمثال لبطليموس وأخذوا بدله أصنافا من الحبوب والغلال يصرفونها فى مأكلهم أرسلها اليهم بطليموس وعند حضور هذا التمثال الى الاسكندرية وضعه بطليموس فى محل مزخرف كان اسمه راكوطيس ثم أطلقوا عليه اسم سرابيس وشيد له بطليموس فى هذا المحل هيكلا مزخرفا من أفخر الهياكل وأعظمها وأطلق على هذا الهيكل اسم سرابيوم وقالوا ان هذا الهيكل كان أجل هياكل الدنيا على الاطلاق ما عدا كابتول رومه وشيد فى هذا الهيكل دار كتب صار لها شهرة وسمعة مع توالى العصور وتبادل الازمان بالنسبة لما كانت محتوية عليه من الكتب العديدة ذات المقدار والقيمة

وكان بطليموس لاغوس فى مدة حياته على نباهة وتيقظ تام من أن يحيى نفسه حياة طيبة ويشهر نفسه بالآداب والعلوم كشهرة اسكندر الاكبر فى الفروسية والحروب الا أن وقته فات وكبر سنه وشاخ لكنه لاجل غرس شجرة الآداب والعلوم فى مملكته المحبوبة لديه أمر بتأسيس دار العلوم فى الاسكندرية وجعلها مقر الجمعية من علماء الرجال عكفوا أنفسهم على مطالعة علم الفلسفة وتدريسها ومطالعة وتدريس جميع العلوم الاخر مثل الحالة الجارية الآن فى مدينة باريس ومدينة لوندره ورتب لهم من أجل ذلك دار كتب جليلة جمعها من الآفاق وزاد فيها خلفاؤه من بعده حتى بلغت الكتب مبلغا جسيما نحو من ٧٠٠٠٠ مجلد

وكان بطليموس أمر بتشييد دار المعارف بالقرب من سرايته الملوكية وفيها دار الكتب وكان العالم ديمتريوس فاليروس أول من قصد بطليموس فلبث عنده فى غاية الجلالة والاحترام وقيل انه هو الذى حضه على فعل ذلك وذكر سطرابو أن ديمتريوس المذكور كان رئيس جمعية الاعلام وناظر الكتبخانة وأنه هو الذى عرض الى بطليموس فى انشائها وكان عرضه له أن قال للملك انه من الاجود اذا تحكم الهيئة تشييد دار كتب تشتمل على آداب ومعارف تختص بالادارات السياسية الداخلية والخارجية ومعارف الحكومة والادارة المتقلد سيادة تحكم زمامها وتشتمل على حكم ونصائح ورقائق تعود منها المنفعة على الملك وتكون هذه الكتب للملك أشبه بجليس معه تعرض له مالا يعرضه أصدقاؤه وأحباؤه اليه وتكون هى المجاهدة الوحيدة فى ادخال الحق على الملوك وتريهم تحت أسماء مستعارة ما يجب عليهم اجراؤه من الواجبات الحقة وتبعدهم عن الاعمال الباطلة المذمومة فالتفت الملك الى هذه النصيحة الجليلة وامتلأ قلبه بالسرور منها ومن عذوبة ما عرضه عليه ديمتريوس وشرع فى الحال فى جمع هذه الكتب وشيد لها دارا مخصوصة فى دار العلوم وكان ديمتريوس المذكور من أكبر علماء وقته ومن أكبر رجال السياسة ومن أجل المقربين عند بطليموس وكان بطليموس على ثقة تامة منه حتى كان يستشيره فى كل أموره فاستشاره يوما فى منح الوراثة والجلوس من بعده على التخت وكان بطليموس لاغوس

قبل ذلك بعد أن تسلطن عشرين سنة فى مصر ملكا وذلك من بعد موت اسكندر الاكبر بتسع وثلاثين سنة تقريبا فرغب أن ينقل رياسة ملكها الى بطليموس فيلادلفوس (محب أبيه) أحد أولاده من برنيس وكان عنده أيضا عدة أولاد من زوجات أخر من ضمنهم بطليموس الملقب سيرونوس أى الصاعقة كان ابن زوجة اسمها عوريديس بنت انطيباطير ملك مقدونيا بعد اسكندر وكان الصاعقة هذا بكرى أولاد بطليموس فيلادلفوس وهو المستحق للتاج والملوكية من بعد موت أبيه الا أن برنيس أم فيلادلفوس وكانت هذه جاءت مصر مجرد صحبة مع عوريديس وقت زواجها ببطليموس لاغوث فلما رأى ما هى عليه من جمال الذات سلبت عقله وأضعفت جسمه فتزوج بها ومال بكليته اليها ورفع مرتبتها وزين حليتها وصار تحت أمرها وطاعتها فولدت له بطليموس فيلادلفوس وأمرته أن ينظر اليه ويغدق بالاحسان عليه زيادة عن أولاد الزوجات الاخر فتأمل فى نفسه ونظر واختار لنفسه ما يكون بعد موته أجل وأشهر ويمنع المشاحنات والحروب التى ربما تقع بعد موته بين أولاده حيث ان حصول ذلك قريب ليس ببعيد لانه كبر فى السن وبلغ من العمر الثمانين وحان أوانه وطار المنون أمام أجفانه وعزم على أن يتنازل عن التخت الى ابنه فيلادلفوس ويتوجه فى حياته حتى لا يكون له منازع بعد

ولما استشار ديمتريوس فاليروس فى تنازله عن تخته لابنه فيلادلفوس نصحه بعدم تنازله وقال له انه لا يمكنه أن يتمتع بحياة طيبة بعد هذا التنازل ووعظه مواعظ جيدة كانت على غير طائل ولما رأى ديمتريوس ما الملك عليه من العزم وأنه صمم على التنازل مطلقا نصحه وأرشده بأن يجرى فى انتخابه من أولاده ما يكون أهلا للخلافة من بعده وأن يكون الابن الاكبر هو المستحق للخلافة حسب الجارى عند جميع الامم بالقوانين الشرعية وبهذا تكون هذه الوظيفة والانتخاب محصورا فى ابن عوريديس زوجته الاولى الا أنه لما كانت برنيس متغلبة على الملك بكليتها آل أمر هذه النصيحة بعد مدة قليلة بالويل والثبور وعظائم الامور على ديمتريوس فاليروس ومات بطليموس لاغوس من بعد مضى سنتين من تنازله عن مملكته لابنه فيلادلفوس وخلف من بعده الثناء الجميل والفضل الجليل والحزم والعدل والرأفة أمثلة قلدوها من جاؤا بعده وعمل لابنه موكبا فى وقت تتويجه فى مدينة الاسكندرية بهر عقول المتفرجين واستغرب من هيئة اجرائه الواردون وكان يوما مشهودا ما رأت الامة المصرية ولا أمة من الامم الاجنبية مثل هذا الموكب وانشحنت بوصفه كتب التواريخ ولا لزوم لذكره هنا

وترك بطليموس عند موته فى دار الكتب نحو من ١٠٠٠٠٠ مجلد وكانت هذه الدار جرى ترتيبها على هذا الوجه المشروح وذلك أنه صار القبض على جميع الكتب التى وردت الى مصر وجلبت الى دار الكتب من أربابها ثم نسخت هذه الكتب بواسطة نساخين مستعدين فى دار العلوم لهذا الصدد وسلمت النسخ الجديدة الى أرباب الكتب وحفظ فى دار الكتب النسخ الاصلية القديمة ثم استعار بطليموس أورغيطيس كتبا ونسخا كانت عند سفوكليس وعوطر بيبديس وعسخلوس وغيرهم من أهل أثينة ومن بعد أن أمر بنسخ هذه الكتب والنسخ بأجود خط على قدر الامكان أعاد لهم النسخ الجديدة وحفظ فى دار الكتب النسخ القديمة وأعطى لهم فى نظير ذلك ١٥٠٠٠ كرون ولما بلغ مقدار عدد الكتب الموجودة فى دار الكتب بدار العلوم نحو من ٤٠٠٠٠٠ مجلد وصارت هذه

الدار غير كافية لوضع كتب أخرى جديدة ابتدؤا في أن يضعوا الكتب الزائدة في هيكل سرابيوم في دار كتب أخرى شيدت من أجل ذلك وكانت هذه الدار الاخيرة تكملة للدار الاولى وبهذا أطلق عليها اسم بنتها أي أن الدار الثانية بنت الدار الاولى وبمرور الازمان عليها وتوارد الكتب اليها تواجد فيها نحو من ٣٠٠٠٠٠ مجلد ثم تولد من حرب القيصر مع أهل الاسكندرية مدة كليوبطره وسنذكره بعد أن سقطت نيران المتحاربين على دار العلوم ودار كتبها بما أنها كانت مجاورة للسراية الملوكية فحرقت دار العلوم ودار الكتب جميعا بما فيهما من الاربعمائة ألف مجلد ولم ينج منها شئ وأما دار كتب سرابيوم فانه لم يصبها شئ واستمرت على ماهي عليه حتى وضعت فيها كليوبطره ٢٠٠٠٠٠ مجلد من دار كتب مدينة برجاموس كان أهداها اليها انطونى وبواسطة هذه الكتب مع ماورد اليها قبل صيرت دار الكتب الجديدة في الاسكندرية أكثر عددا وجلالة من الاولى ثم وقع النهب والسلب فيها والخطف منها في أثناء الفتن والمحن والثورات التي حصلت في مدة غلبة الروماويين على مصر الا أنها ما زالت باقية على رونقها مدة عصور توالت عليها الى القرن السابع بعد الميلاد فذاقت وبال أمرها مع أهل عصرها وحرقها العرب عند ما تغلبوا على مدينة الاسكندرية في سنة ٦٤٢ بعد الميلاد وكان السبب الاصلي في حرقها أن العالم حنا الملقب بالنحوي اتفق أنه كان موجودا في الاسكندرية وقت تغلب العرب على المدينة وكان حنا هذا معتبرا وموقرا عند عمرو بن العاص قائد الجيوش الاسلامية بمصر فتلطف له حنا في الكلام وعرض له أن يمنحه دار الكتب بالاسكندرية اذ لا لزوم لها عندهم فأجابه عمرو بأنه لم يكن له طاقة ولا في يده قدرة على أن يمنحه هذا المطلب المهم الا أنه لا بد من كونه يكتب للخليفة ليأمره بما يجب اجراؤه في شأنها وأنه لا يمكنه أن يجري فيها شيأ مضاد الامره وعلى هذا كتب عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب ما الذي يجب في شأن هذه الكتب فأجابه عمر رضي الله عنه بأنه اذا كان ما في هذه الكتب عين ما في القرآن من الاحكام والعقيدة فلا لزوم لها والقرآن فيه الكفاية لنا وان كان ما فيها مخالفا لما في القرآن فمن اللزوم دمارها وتلاشيها وبناء على هذا الامر أمر عمرو بن العاص بحرقها في لهب النار من دون أن ينظر فيها أو يجري البحث والفحص فيما كانت تحتوي عليه هذه الكتب من المنافع وأمر لاجل سرعة حرقها وتلاشيها بأن يجري توزيعها على الحمامات العمومية الاهلية فمكثوا ستة أشهر يوقدون بها الحمامات بدل الاخشاب وأصناف القمامات

ولما جلس بطليموس فيلادلفوس على كرسي الاريكة المصرية وصار سيدا على جميع الايالات التي كانت تابعة لها وهي على ماقيل فينيقية وسوريا الجنوبية وبلاد العرب وليبيا أي برقة والحبشة وجزيرة قبرص وبمفيليا وصيليصيا وليسيا وكاريه ومجموع جزائر السكلاده وصلت الاسكندرية في مدة سلطنته الى أقصى درجات الكمال في الادراكات العقلية والنقلية وزاد زيادة جمة في دار كتب الاسكندرية ونظم وأصلح دار الكتب الصغيرة التي كانت موجودة في سرابيوم ودعا علماء الرجال الى سرايته من جميع بقاع العالم وشرع في عمل أشغال جليلة المقدار على حسب رغبته وتحت محبته وكان أجل هذه الاشغال وأهمها هو ترجمة الكتب المقدسة العبرانية من اللسان العبري الى اللسان الجريقي وبواسطة ترجمة هذا الكتاب المقدس اكتسب البطالسة درجة علو المقدار في العالم الانساني وكان الشروع في ترجمة هذه الكتب المقدسة في مدة سلطنة بطليموس فيلادلفوس واستمر هذا الشغل جاريا في خلال سلطنات عديدة من خلفائه وهذه الترجمة تعرف بالترجمة السبعينية لما سبب أن مترجميها كانوا

سبعين نفسا أو بسبب كون ترجمتها عهدت لمجلس اليهود الاعلى لاجل تنقيحها وتهذيبها وكان هذا المجلس مركبا من سبعين نفسا وكذا فى مدة هذه السلطنة ألف القسيس المصرى مانيطون تاريخه على مصر باللغة الجريقية واشتهر هذا التاريخ فى البقاع وتيسر للاجانب منه استحصالهم على فوائد تاريخية تختص بمصر وكان فيلادلفوس مغرما أيضا بحب النقش والتصوير بأنواع البويات والالوان والحفر على الاحجار فلى مدينة الاسكندرية مبان مفتخرة ظريفة

لكن لم يرث بطليموس الثانى أباه فى الفطانة العسكرية والادارات الحربية والحركات الوقعية والمهارة فى الفروسية ومن ثم كانت حروبه قليلة وليس لها أهمية مثل حروب أبيه وكان أول حرب شرع فيه من حروبه على مقدونيا لاجل حفظ ووقاية الاتحاد الاخوانى ثم أنشب حربا آخر على أخيه غير شقيقه المسمى ماجاس وكان هذا ملك صيرنيقيه ومحلها الآن سواحل طرابلس وتونس الغرب وكان أخوه هذا انكث تبعته لمصر وأغار على تلك المملكة سنة ٢٦٦ قبل الميلاد ومن أجل هذه الغارة عقد ماجاس معاهدة مع انطيوقوس صاحب سوريا وأغار على مصر مرة ثانية فى سنة ٢٦٤ قبل الميلاد فنع المصريون انطيوقوس من كونه يترك مملكته بكونهم أجروا حركات شديدة على مملكته وصدوا غارة ماجاس وفى سنة ٢٥٩ قبل الميلاد تقرر ماجاس ملكا مستقلا فى صيرنيقية وتزوجت بنته برنيس الابن الاكبر لفيلادلفوس ولما عصت سوريا عليه أشعل حربا مهلكا عليها استمر مدة عشر سنوات فتغلب على قسم عظيم من ساحل آسيا الصغرى ثم عقد صلحا فى سنة ٢٤٩ قبل الميلاد وزوج بطليموس ابنته لانطيوقوس

وبلغت مصر فى عصر سلطنة بطليموس الثانى أرقى درجات الفلاح والنجاح المتجرى وفتح الخليج بين النيل والبحر الاحمر مرة ثانية وكان رمسيس الاكبر فتحه من قبله من مدة ألف ومائتى سنة وعمر مينة أرسينوى فى رأس البحر الاحمر ومحلها الآن مدينة السويس مخصوصة من أجل ملاحات وسفريات البحر الاحمر نظرا لما هو حاصل من الاخطار فى هذا البحر ولما رأى أن هذه المينة الواحدة غير كافية بالنسبة لاخطار الملاحة ومتاعبها أمر بعمارة اثنتين أخريين اسم كل منهما برنيس صار انشاؤهما على ساحل افريقية واحدة منهما على عرض ٢٤° تقريبا والاخرى على عرض ١٣° تقريبا وعمر طريقا سلطانيا من برنيس الشمالية الى مدينة قفط على ساحل النيل بالقرب من مدينة طيوة لاجل سير القوافل التجارية فيها من برنيس الى قفط ومنها تنزل فى النيل الى الاسكندرية وربط علاقات جمة تجارية بين مصر والحبشة وبلاد العرب والهند وصارت هذه مطروقة بالقوافل عدة قرون متعاقبة الى المدائن المصرية النيلية وكانت الاسكندرية مركزا لتوزيع التجارات بين الامم الاوروباوية وكان أغلى هذه التجارات فى القيمة التجارة الحبشية فعادت منافعها على هذه الايالة التى أينعت بالتجارة بخزائن النقود الجمة ورفعة الشأن المهمة

وبلغ مدخول المملكة المصرية فى عصر هذه السلطنة على ما قيل نحو من ١٤٨٠٠ وزنة أو خزنة من الذهب عبارة عن ١٧٧٦٠٠٠٠ دولر وذلك خلاف الخراج المضروب من الحبوب والغلال وهو مبلغ يعادل مدخول المملكة الفارسية فى عصر سلطنة دارا الاول وما كان فيلادلفوس أهلا للادارة والسياسة مثل أبيه فانه بمجرد ما جلس على الاريكة المصرية ورأى نفسه وحيدا فى الملك أمر بالقبض على الفيلسوف ديمتريوس فاليروس من أجل النصيحة التى كان قدمها لابيه وأرسله مع

خفر قوى الى قلعة بعيدة وأمر بسجنه فيها حتى يتم رأيه فى أمره فانتهت هذه الحالة بموت هذا الفيلسوف الذى كان يستحق الجود والكرم ولا يؤاخذ بما انصح به الملك من الذنب فى حال الهرم وكذا أمر بقتل اثنين من اخوته وكان فيلادلفوس متزوجا أرسينوى بنت ليسيماقوس ملك ثراقة فولع بعشق أخته أرسينوى وكانت زوجة أخيه غير شقيقه سيرونوس (الصاعقة) فطلق زوجته الاولى ونفاها الى قفط من أعمال صعيد مصر وتزوج بأخته واستمر ملازما على محبته لها مشغوفا بعشقه اياها مع أنها ما ولدت منه ولدا الا أنه لم يعش بعد ذلك مدة طويلة بل مات بمرض حصل له فى سنة ٢٤٧ قبل الميلاد بعد أن تسلطن ثمانيا وثلاثين سنة ملكا وحيدا فى مصر لا ينازعه أحد فى ملكه

ثم ان بطليموس الثالث الملقب اغورطيس أى المحسن خلف أباه وكان ابن الزوجة الاولى لبطليموس الثانى وكان فيه اقدام وشجاعة زيادة عن أبناء جنسه من الملوك وترك السياسة الدفاعية التى كان جاريا عليها أبوه وجده ودخل فى عدة فتوحات أحيا بها المظاهر القديمة والافتخارات التى كانت مصر فيها مستديمة فأضاف كثيرا من الاراضى والبلاد الى ممالكه وبواسطة زواجه برنيس بنت ماجاس ملك صرنيقية وكانت ولية عهد أبيها من بعده صار ملكا على صرنيقية فى ظرف سنة أو سنتين من بعد جلوسه على التخت وأشعل حربا على سوريا لينتقم من أخته برنيس وكانت خرجت من عصمة انطيوقوس ثم قتلها كيوديسى وفى سنة ٢٤٥ قبل الميلاد سار اغورطيس الى سوريا وتغلب على أنطاكية وبعدها عبر بجيوشه الفرات وأخضع ميزوبوتاميا (العراق) وبابل والسوسة وميديا وفارس وانقادت له الاقاليم الشرقية الى حدود بلخ أى باقطريانه وبينما كان هو مشتغلا بهذه الحروب أخرب اسطوله البحرى سواحل آسيا الصغرى وثراقه ثم رجع اغورطيس قافلا الى مصر على غاية من العجلة بسبب ما حصل فيها من القلاقل والاضطرابات الشديدة وضاع منه فى الحال جميع فتوحاته الشرقية وذلك ان ملك سوريا استردها ثانية لنفسه ولم يبق مع أوغورطيس الا السواحل البحرية لان الشوكة البحرية لبطليموس كانت قوية جدا وبالاسطول البحرى صار له طاقة على ضبطها والمحافظة عليها وكانت جميع مملكته فى هذه الحالة ممتدة فى طول البحر الابيض المتوسط من ابتداء صيرنقيا الى بوغاز الهلسبونت أى الدردانيل وهو حينا قلعة الآن داخل فيها قسم من ثراقة وعدة من جزائر البحر الابيض المتوسط وفى نحو غلاق سلطنته صار ملكا على قسم من الساحل الغربى من البحر الاحمر وقطعة من بلاد الحبش واشترك فى الحروب التى كانت جارية فى الجريس معضدا فى مبادى أمره التحالف الاخوانى الى أن دخل فى شروط مع انطجنوس وقت مساعدته كليومنس صاحب اسبرطة على الاتحاد وفى مدة هذا الحرب هزم الاسطول المصرى اسطول انطجنوس بالقرب من أندروس واستمر اغورطيس فى علاقات ودية مع رومة لكنه لم يقبل من جمهورية رومة المساعدة التى عرضتها عليه الجمهورية المذكورة بخصوص حرب سوريا والظاهر انه كان مرتاعا وخائفا من طمع الرومانيين فيه وكان اغورطيس محبا أيضا للعلوم والفنون ومات فى سنة ٢٢٢ قبل الميلاد بعد أن تسلطن سلطنة سامية استمرت خمسا وعشرين سنة وكان آخر أكابر الملوك المقدونية وعظمائهم فى مصر وبلغت هذه المملكة تحت سلطنته ذروة سنام الشوكة والنجاح وأعاد عليها الثروة والفلاح وكان الذين خلفوه من بعده على غاية من الضعف والرزية وعدم الاهلية وسوء التدبير بالكلية

وخلف بطليموس الرابع أباه وبما انه كان متهما فى قتله لقب نفسه بلقب فيلوباطير أى محب أبيه لاجل

ازالة هذه الشبهة عنه ومع ذلك فانه ابتدأ في سلطنته بقتل أمه وأخيه وعمه وتزوج أخته أرسينوى ثم قتلها من بعد مضى بضع سنين بعد أن ولدت له ولدا وارث تخته وكان ملكا عسيفا فاجرا قليل الادب مرتكب الفساد شهوانى الطباع وكان تدبير المملكة جاريا بواسطة وزيره سوسيبيوس وكان أخبث وأضل من أستاذه في المكر والاعمال الادارية ومن سير الاعمال على هذا المنوال قويت شوكة انطيوقوس الثالث صاحب سوريا وعزم على ارجاع ممالكه واغتصاب فلسطين وفينيقية من تحت يد مصر وأمر بالاستعداد برا وبحرا بقصد انتشاب الحرب بينه وبين المصريين وعهد قيادة اسطوله الى دوغنطيس أميراله وجعل نفسه قائد جيشه البرى ولما رأى ذلك بطلموس استعد هو أيضا وعهد الرياسة الكبرى بجيشه الى قائد اسمه نقولوس مدرب في الحروب والوقائع وأظهر دلائل عديدة في حروب شديدة على استعداده وأهليته لهذه الرياسة وأصدر له أمرا بأن يجرى الاجرا آت الواجبة على الملك في حفظ الاقاليم الجارى فيها الحرب وعهد قيادة اسطوله الى بريفيس وأمره أن يجرى أعماله على العدو حسبما يجب عليه في حفظ وطنه فعين نقولوس مدينة غزة لجمع جميع الجيوش المصرية ونقطة حربية لارسال الذخائر والمؤنات المصرية ولما وصل نقولوس الى غزة واجتمع عليه عساكره سار منها الى جبل لبانوس أو لبنان وأمسك جميع المضايق والممرات والبوغازات والدروب المحصورة بين هذه السلسلة الجبلية وبين البحر الابيض المتوسط اللازم مرور انطيوقوس منها وصمم نقولوس مع الثبات والشدة على انتظار انطيوقوس في هذه المواقع وتوقيف سيره وتقدمه واستمر على ضبط هذه المواقع المستحكمة وأما الاسطولان المصرى والسريانى فكان كلاهما تابعا في سيره حركة جيشه البرى في جهات الساحل وبهذا تقابل الاسطولان والقوى البرية عند المواقع التى كانت مضبوطة بواسطة نقولوس وبينما شرع انطيوقوس في الهجوم على نقولوس من البر اذ اشتغلت نار الحرب بين الاسطولين في البحر وبهذا كان الحرب جاريا برا وبحرا في آن واحد فأما في البحر فان كلا من الاسطولين لم يحصل منه غلبة على الآخر وأما في البر فان انطيوقوس اكتسب الظفر على نقولوس وألزمه القهقرة الى صيدا بعد أن أتلف من عساكره نحو من ٤٠٠٠ نفس قتلا وأسرا فتبعه بريفيس بالاسطول الى صيدا وسار خلفهم انطيوقوس الى تلك المدينة عازما على ضربهم فيها ومحاصرتهم ولما رأى انطيوقوس أن التغلب على هذه المدينة غير متيسر له ويتولد منه مصاعب ومتاعب وتلفيات جسيمة لكثرة ما فيها من العساكر والذخائر صرف النظر عن محاصرتها وأرسل اسطوله الى صور وسار هو نحو غاليلى ومن بعد أن تغلب على هذه الجهة عنوة بالهجوم على مدائنها عبر نهر الاردن الى جلعاد وتغلب على تلك الاراضى والبلاد وأثخن في أهلها ولم تأخذه شفقة في ناسها وسكانها وكانت هذه الاراضى كما ذكرنا سابقا وراثية اسبطى روبين وجاد ونصف سبط منشا الاجداد

ولما رأى انطيوقوس أن الوقت غير صالح للحروب والاطالة فيها عاد من طريق نهر الاردن وعهد حكومة سمارية الى هيبولوخوس وكرياس وكانا فرا من خدمة بطلموس والتجا اليه وأعطاهما ٥٠٠٠ نفس لاجل حفظ واستمرار هذه الاراضى تحت طاعته وسار بما بقى معه من القوى عائدا الى بطلموسية (عكا الآن) فقضى فيها مع عسكره فصل الشتاء وفي فصل الربيع ابتدأ الحرب ثانية فأمر بطلموس بجمع ٧٠٠٠٠ مقاتل من المشاة و ٥٠٠٠ فارس و ٧٣ فيل في نواحى مدينة بلوزه (الفرما) وجعل نفسه قائد هذه القوى وسار بهما من وسط الصحراء الفاصلة لمصر من فلسطين وعسكر في رافية

بين العريش وغزة وبين هاتين المدينتين تقابل الجيشان وكان جيش انطيوقوس فى العدد قليلا عن جيش بطليموس وكانت قوى انطيوقوس مركبة من ٧٢٠٠٠ نفس من المشاة و ٦٠٠٠ فارس و ١٠٢ فيل وعسكر فى مبادى أمره على مسافة عشرة فراسخ من جيش بطليموس ثم تقدم حتى صار على مسافة خمسة فراسخ منه واتفق انه كلما تقارب الجيشان من بعضهما كثرت المناوشات وازدادت الملاطمات والمنازلات خصوصا بين الذين يتوجهون لجلب المياه أو الذين يذهبون لجمع حطب الحريق وكذا بين الذين يرغبون أن يشهروا انفوسهم فى الكر والفر والضرب فى مثل هذا الحرب ثم اتفق أن شخصا اسمه طيودوطوس العيطوليانى كان مستخدما سابقا فى الحكومة المصرية جملة من السنين فدخل طيودوطوس فى معسكر المصريين فى ليلة حالكة ومعه شخصان فقط ولم ينظره أحد من المصريين وسار حتى وصل الى خيمة بطليموس قاصدا قتله واراحة العالم منه وانفضاض الحرب بقوة جسارته فمن سعادة الملك انه ما كان موجودا فى الخيمة فى تلك الليلة فقتل حكيمباشى الملك ظانا انه بطليموس وجرح شخصين آخرين ونجا بنفسه هاربا فى ظلام الليل لما رأى من كثرة الانزعاج والغاغة فلهذا عزم الملكان على فصل حربهما وانفضاض وقائعهما وصفا جيوشهما فى ميدان الحرب وركب كل منهما وطاف فى جيوشه يقويها ويوقع الغيرة والحماسة فيها وكانت أرسينوى أخت بطليموس وزوجته غير منشرحة الصدر من قلة العساكر الموجودة أمامها فى ميدان الحرب لكنها ما تركت زوجها طرفة عين حتى فى أثناء اشتعال لهيب نار القتال ونعيق غراب البين وكانت نتيجة هذه الواقعة أن هجم أنطيوقوس وكان قائد الجناح الايمن لعسكره على الجناح الايمن لعسكر بطليموس فهزم هذا الجناح وكسره وسار خلفه بحركة هجوم شديدة وغيرة وحماسة عتيدة وكذا هجم بطليموس على الجناح الايسر من عسكر انطيوقوس فبدد شمله وهزمه شر هزيمة وأمر قلب جيشه وكان فيه ارطجنوس القائد بحركة الهجوم على قلب عسكر انطيوقوس فانكسر أيضا قلب جيش انطيوقوس وصار لا طاقة للملك على خلاصه أو ارسال مدد له فرأى واحد من الضباط القديمة وكان مع انطيوقوس علو الغبار والقتام فقال لانطيوقوس ان القلب انكسر فصار ينظر الى عساكره ولما لم يمكنه مداواة ما حصل منه من الغلط وقت اجراء حركته ورأى أن الباقى من جيشه شرعوا فى الهرب والفرار اجبر هو أيضا على أن يصلح خط رجعته ثم تقهقر الى رافيه ومنها الى غزة بعد أن فقد من جيشه ١٠٠٠٠ نفس قتيل و ٤٠٠٠ نفس أسير ولما وجد نفسه انه لا طاقة له على البقاء فى تلك الاراضى أمام بطليموس ترك جميع فتوحاته وتقهقر الى نواحى أنطاكية بما بقى معه من عساكره وتغلب على مينة أنطاكية فى سنة ٢١٧ قبل الميلاد

ومن بعد تقهقر انطيوقوس وهزيمته خضعت جميع سوريا الجنوبية وفلسطين مع المحبة والمعزة لبطليموس وانضموا اليه زيادة عن انطيوقوس بسبب أن هاتين الايالتين كانتا من مدد مديدة تحت الاحكام المصرية وامتلأت خيمة الفاتح بازدحام نواب عموم مدائن تلك البلاد ليقدموا طاعتهم اليه وخضوعهم لديه ويقدموا له أيضا ما معهم من الهدايا الجميلة فقابلهم بالمكارم الجليلة وشرح صدورهم وأزال عنهم سوء فكرهم.

ورغب بطليموس فى حصول درجة التقدم فى الاقاليم التى فتحها فزار مدائنها ومن جملتها زار مدينة أورشليم وزار المعبد الموجود فيها وأمر بتقريب القربان الى اله بنى اسرائيل وأهدى للمعبد هدايا

نفيسة جـة ومع كونه دخل فى محال كثيرة من المعبد تفرج فيها لم يدخلها قبله انسان رغب الدخول فى المعبد الاكبر حتى فى معبد قداس القداسة نفسه وكان لا يجوز لاحد الدخول فيه ما عدا الحاخام الاكبر ويكون دخوله فيها كل سنة مرة واحدة فى يوم عيد التكفير الاكبر فتولد من انتشار هذه الحادثة هيجان عظيم فى الامة اليهودية وعرض له الحاخام الاكبر علو مقدار تقديس هذا المكان وأن الاوامر الالهية تحرم دخوله فيه ووقف القسس واللاديون مصادرين له فى جمع كبير منهم ليمنعوه من دخول المعبد الاكبر فصمم على الدخول وتولد من ذلك اضطراب وولولة ونوح فى كافة محال المدينة بسبب ما سيحصل من نجاسة معبدهم وانتهاك الحرمة التى صار هو فى هذا الوقت عرضة لها ورفع يهود المدينة أيديهم الى السماء وتضرعوا الى الله سبحانه وتعالى وابتهلوا اليه فى ازالة هذه المحنة الشديدة وكسر هذه الرأس العنيدة ومع ذلك كانت هذه المقاومات والمنازعات والنوح لم تزد فى رأس بطليموس الا عنادا حتى توجه رغم أنفهم وأراد الدخول فى المعبد وبينما هو داخل فى معبد القداس اذ صرع بانتقام من عند الله أزعجته وأفقدت حواسه وخر على الارض صعقا فحملوه أشبه بالميت وأخرجوه من المعبد وأوصلوه الى دار استقباله فترك هذه المدينة وقلبه مشتعل بالنيران من جهة أمة اليهود بسبب ما ناله وما حصل له وتوعدهم بالانتقام وانه لابد من أن يأخذ ثاره منهم وفى السنة التالية أوقع الظلم الشديد والجور الفظيع على اليهود وبالخصوص على اليهود المقيمين فى الاسكندرية وشرع فى أن يلزم هؤلاء ويجبرهم على الدخول فى عبادة آلهة أخرى كاذبة وترك عبادة الههم

ولما عاد بطليموس الى مصر عكف على شرب الخمور وأدمن على الفجور وارتكاب الفواحش من الامور وترك المملكة لوزيره ومحاظيه حتى تولد من ذلك انتشاب ثورة عامة بين المصريين رعاياه استمرت مشتعلة النيران مدة عظيمة من سنى هذه السلطنة وصرف بطليموس مصاريف جمة من الدماء والاموال فى اخماد هذه الثورة ومع ما كان عليه فيلوپاطير من قبح الصفات كان محبا للعلوم والفنون وعمر هيكلا باسم عميرا الشاعر الحريقى ثم مات بعد أن بلغ من العمر أربعين سنة فى سنة ٢٠٥ قبل الميلاد أضحية لما أفرطه من لذاته فى حياته ومن بعد أن تسلطن سبع عشرة سنة

وقال بعض الرواة ان الرومانيين كانوا يرسلون أحيانا رسلا نوابا عنهم الى بطليموس وكيلوبطره ولا شك أن كيلوبطره هذه هى الملقبة ارسينوى وذلك لاجل تجديد ودادهم وصداقتهم القديمة لمصر ومحبتهم وارتباطهم معها وكانوا يرسلون مع هؤلاء الرسل هدايا للملك والملكة فهدية الملك مقصورة على قميص وجبة من الارجوانى وعلى كرسى مزخرف مصنوع من سن الفيل وأما هدية الملكة فهى قميص مزركش بالذهب ووشاح من الارجوانى ويمكن أن نعبر بلفظ بطليموس لكل ملك حاكم فى مصر وبلفظ كليوبطره على كل ملكة حاكمة فى مصر فى دور السلطنة البطليموسية

وكان لبطليموس فيلوپاطير من زوجته وأخته أرسينوى ولد اسمه بطليموس أبيفانيس جلس على التخت من بعد موته وكان عمره خمس سنوات وقبل موت الملك فيلوپاطير استعفى الداهية سوسيبيوس وزير سلطنته من وظيفته وخلفه فيها طپوليموس وكان شابا حاويا الصفات الجليلة والاخلاق اللطيفة واشتهر فى الجيش بحسن ادارته وعلو مرتبته وتوجهت اليه الاصوات فى المجلس الذى عقد من أجل انتخاب الوزير الاول وتنازل له سوسيبيوس عن ختم الملك وسلمه الختم فى يده وذلك علامة قطعية على دخوله فى الوظيفة فعكف طپوليموس نفسه على تأدية جميع الوظائف الواجبة عليه ودبر أعمال المملكة

واشغالها

وأشغالها فى مدة حياة فيلوباطير ومن بعد مدة قليلة رأى هذا الوزير أن لا طاقة له ولا استعداد على تحمل أعباء هذه الخدمة الكبيرة السامية وكذا رأى فى نفسه انه ليس فيه مهارة ولا نباهة أسلافه من الوزراء الا انه لما كان مباشرا ادارة الماليات المصرية وحائزا فوق رأسه شرف المملكة وعزتها وكان صرف المرتبات وغيرها جاريا بمعرفته صار أرباب الوظائف العالية والسافلة يجلسون معه ويؤدون ما يجب عليهم من احترام خدمته ويرشدونه لما فيه الصواب العائد عليه وعليهم كما أنه كان على غاية من السخاء والكرم للمشتركين معه فيما يرغبه من الاعمال

فمن كثرة ما كانوا يؤدونه اليه من التملقات الخارقة للعادة غلظت آذانه وكبرت نفسه وتشامخ بأنفه على الباقين من أهل المملكة ودخل فى لذاته وسار مع شهواته حتى صار لا منفعة فيه لاحد من رعايا المملكة

ولما تجرع بطليموس فيلوباطير كاس الموت وخرجت روحه كان حاضرا وقت موته أغاسوكليس صهره وأخته زوجة الملك المسماة أغاسوكليه وخدمهما فأخفيا موت الملك مدة ما قدرا مكانهما بقصد أنهما يجدان زمنا لحمل جميع النقود والجوهرات والاشياء الاخر النفيسة الموجودة فى السراى واخفائها وصمما تصميما ثابتا فى قلبهما على استمرار دوامهما على الحالة التى كانا متمتعين بها فى مدة حياة الملك بكونهما يغتصبان الوصاية على الملك الصغير وينوبان عنه فى المملكة وظنا أن هذه الحالة ممكنة الحصول والاجراء ان أمكنهما اخراج طبولينوس من وظيفته وطرده من وزارة المملكة ثم قررا فيما بينهما ما يجب اجراؤه فى عزله من وظيفته وأشهرا موت الملك للعموم فاجتمع فى الحال مجلس من المقدونيين كان حاضرا فيه أغاسوكليس وأغاسوكليه أخته ومن بعد أن سكب أغاسوكليس عبرات دموعه على خدوده عرض متوسلا الى المجلس حماية الملك الصغير الموجود على ذراعيه والمحافظة عليه وقال ان الملك أباه حال الغرغرة عهد اليه الوصاية على أغاسوكليه هذه الموجودة فى المجلس وأن يكون على صداقة تامة ووثاقة أكيدة للمقدونيين ثم عرض متوسلا لارباب المجلس فى مساعدته على طبولينوس الوزير لانه بلغه أنه باذل جهده وصارف همته فى اغتصابه التاج والحكومة من هذا الملك الشاب الصغير وان عنده شهودا يشهدون له بذلك ويمكنه جلبهم أمام أرباب المجلس يشهدون ويثبتون ما هو عليه من الخيانة والتدليس وأخذ فى حض أرباب المجلس على عزل الوزير ونفيه من البلاد وظن فى نفسه أنه بهذه الحيلة القبيحة الضعيفة يمكنه خلع طبولينوس فى الحال ومن بعده يتحصل بسهولة على وظيفة النيابة الا أن هذه الحيلة كانت من الغلطات ومن أنواع الافتراآت فأقسم الامة فى الحال على هلاك أغاسوكليس وأخته وكل عائلتهما حتى خدمهما ونشأ من هذه الفتنة تذكارهما كانا عليه من الجرائم القديمة فقام أهل الاسكندرية جميعا عليهما وأخذوا الملك الصغير من أيديهما وأجلسوه على أريكة المملكة فى الايدروم ولقب بطليموس الخامس ثم جلبوا أمامه أغاسوكليس وأخته وعونتى أمه فأمر بقتلهم الثلاثة وأخذ الاهالى أجسامهم وفعلوا فيها كل كريهة وجروهم فى الشوارع والحارات وطافوا بهم العطف والازقات حتى مزقوهم قطعا وكذا جميع أقاربهم وخدمهم آلت عاقبة أمرهم الى هذه المصيبة ولم ينج منهم أحد دخل فى هذه الجريمة وصاروا عبرة لامثالهم ومن يحذو حذوهم ونوالهم

وكان بطليموس أبيفانيس بن أرسينوى المقتولة فعهدت محافظة شخصه الى سوسيبيوس بن سوسيبيوس الداهية الذى كان وزيرا مدة السلاطين الثلاث السابقة ولم يذكر لنا التاريخ هل كان أبوه

على قيد الحياة الى هذه المدة أم لا الا أن المعوّل عليه أنه عاش عمرا طويلا لانه بلغ ما ينوف عن الستين سنة فى خدمة المملكة وما وجد داهية فى المكر والخداع وارتكاب الجرائم والبدع وأشد فظعا فى الاعمال الادارية والسياسية أكبر منه ونسب اليه أشد الجرائم والذنوب والاهوال والكروب لكونه كان السبب فى قتل ليصيماخوس بن بطليموس وأرسينوى بنت ليصيماخوس وماجاس بن بطليموس وبرنيس بنت ماجاس وبرنيس أم بطليموس قيلوباطير وكليومنس ملك أسبرطه وكان وصل مصر ملتجئا اليها وأخيرا كان سببا فى قتل أرسينوى بنت برنيس ومن العجب أنه مع ما كان عليه من هذه الاحوال الفظيعة فانه استمر متقلدا زمام الحكومة مدة طويلة من الزمن وخرج أخيرا منها فى سلم وسلام محفوفا بالاجلال والاكرام

وفى مدة حياة بطليموس قيلوباطير كان أنطيوقوس ملك سوريا وفيليب ملك مقدونيا على رغبة شديدة فى الغارة على ممالك بطليموس الا أنهما كانا ممنوعين عن ذلك من شدة قيلوباطير وقوته وكانا مساعدين له نفاقا على أعماله وأشغاله ثم لم يمض قليل حتى مات قيلوباطير وترك ابنه طفلا صغيرا لا تجوز الطبائع البشرية ولا الاحوال الدنيوية وقوع الارتباك فى ممالك أبيه فما أسرع كونهما دخلا فى معاهدة جنائية مع بعضهما وحرض كل منهما الآخر على قلب هذا الوارث الشرعى والاستحواذ على ممالكه وتقسيمها بينهما وكان القائم بتدبير المملكة وأعمالها طيبوليموس ومع أنه كان غير لائق كما رأى فى نفسه لتحمل أعباء هذه الادارة الا أنه كان صادقا أمينا ولو لم من الهجوم المتحد الحاصل من سوريا ومقدونيا لتجريد مصر من جميع ايالاتها البرانية ماعدا قبرص وصيرنقيه ولما أرادوا الهجوم على مصر وأحس طيبوليموس بعدم طاقته على محافظة مصر طلب من الرومانيين المساعدة فأرسلوا له فى سنة ٢٠١ قبل الميلاد ليدوس متقلدا زمام الاعمال فى مصر وبواسطة ما بذله ليدوس من الهمة حفظت مصر من التغلب عليها وكان ليدوس على غير رغبة من رجوع الاملاك البرانية التى فقدتها مصر أو كان لا طاقة له على رجوعها وهو الاصح

وبلغ بطليموس الخامس رشده تحت حماية ووقاية أصدقائه الرومانيين من أنطيوقوس وغيره المتلهفين على الغلبة على ممالكه فى سنة ١٩٦ قبل الميلاد عندما وصل سنه الى أربع عشرة سنة ولما رأت الحكومة المصرية والادارة الاسكندرية ما عليه رومة من سرعة التقدم وزيادة الشوكة والغلبة على الممالك الاخر وخشيت وزارة مصر جدا من الخطر والضرر الذى يقع على المملكة من اتحاد فيليب ملك مقدونيا وأنطيوقوس ملك سوريا اللذين اتحدا اتحادا ازداد معه بعضهما فى الغارة على المملكة المصرية وأعمالها والتغلب عليها عرضت تلك الوزارة للرومانيين فى أن تكون المملكة تحت حمايتهم فعلا وقدمت لهم الوزارة الوصاية على الملك والنيابة فى الحكم عنه حتى يبلغ سن الرشد الكافى وقالوا فى عرضهم ان الملك المتوفى أوصاهم عند موته بان يجروا هذا الفعل مع الرومانيين وكان من المنفعة العائدة على الرومانيين عدم وقوع الارتباك فى دولتى فيليب وانطيوقوس وأن لا يمنعاهما من أن يضيفا لممالكهما أقاليم غنية من ضمنها مملكة مصر وقتئذ ورأوا أن لا يصعب عليهم دخولهم فى حرب مع هذين الملكين اذ أنه يوجد بين أحدهما وبينهما اختلافات شديدة وهو فيليب ملك مقدونيا وبواسطة هذه الاسباب ما حصل عند الرومانيين أدنى تردد ولا ريب فى قبولهم الوصاية والنيابة المعروضتين من طرف الوزارة المصرية وعينوا فى الحال من طرفهم ثلاثة نواب أرسلوا واحدا منهم

الى

الى فيليب والآخر الى أنطيوقوس يعلمانهما بما هما عليه من العزم من طرف الرومانيين ويقدمان لهما النصيحة التامة بعدم التعدى ووقوع الارتباك فى ممالك بطليموس الخامس اذان هذه الممالك تحت محافظة الرومانيين مع الملك الشاب وان حصل شئ خلاف هذا ربما تؤل النتيجة الى اشتعال حرب بينهم ويذل الرومانيون جهدهم فى كل ما يجب اجراؤه فى الحماية على هذا الملك

وأما الرسول الثالث واسمه ءمليوس فانه توجه الى مصر ولما وصل الى الاسكندرية تقلد زمام الوصاية والنيابة لبطليموس الخامس باسم الرومانيين وسار فى الاعمال أحسن سير حسب التعليمات التى أخذها من مجلس أعيان رومة بخصوص وظيفته ورتب الاشياء والاعمال وجعلها على منوال ثابت يعود منهما النفع والفلاح على المملكة وعين أريسطومنس الاكارنيانى ملاحظة تهذيب الملك الشاب وتربيته وجعله وزيرا أول للمملكة وكان أريسطومنس هذا أقدمهما فى الحكومة المصرية وتربى فى أعمالها وعرف أشغالها والادارة التى تعود على المملكة بالنجاح والفوز وكان أدى أشغاله بالامنية والصداقة فى الوظائف والادارات التى كان مستخدما فيها سابقا

وفى مدة وزارة أريسطومنس هذا عزم أنطيوقوس على التوجه بنفسه الى سوريا الجنوبية لاجل استرداد ما تغلبت عليه مصر وأخذته منه وذلك أن الرومانيين لما عهدوا الى أريسطومنس تدبير وادارة الاعمال المصرية كان أول شغل اشتغل به هذا الوزير هو التحفظ على نفسه من غارة الملكين فيليب صاحب مقدونيا وأنطيوقوس صاحب سوريا ولهذا الغرض جمع أجود ما يكون من العساكر على قدر امكانه وأرسل من طرفه شخصا اسمه سكوباس الى نواحى عيطوليا من بلاد الجريق بمبالغ جمة من النقود لجمع ما يقدر على جمعه من العساكر من تلك الجهة وكان عساكر عيطوليا فى هذا الزمن أقوى عسكرا وأحسنهم تدريبا فى الحروب وكان سكوباس هذا فى الاصل متمتعا بأعلى الوظائف وأرقاها فى بلاده ومنظورا فيه أنه أمهر وأشجع واحد فى عصره ولما حان أوان وقت سقوطه من علو درجته وطرده من بلاده أعجب بنفسه وشمخ على أبناء جنسه مؤملا أن تدوم له هذه الرتب الجليلة والدرجات العالية الجميلة غير أنه خاب أمله وضاع عمله وتساقطت عليه العيوب فازدادت عليه الكروب حتى التزم أن يترك عيطوليا ويدخل فى خدمة ملك مصر ولما توجه سكوباس هذا لجمع العساكر نجح نجاحا تاما فى أن جلب معه نحوا من ٦٠٠٠ عسكرى من العساكر العيطوليانية وهى تقوية عظيمة للجيش المصرى

فلما رأت حكومة الاسكندرية ان انطيوقوس مشتغل بالحرب فى آسيا الصغرى مع أطالوث ملك برجاموس ندبت سكوباس وأرسلته الى فلسطين وسوريا الجنوبية لاجل خلاص هاتين الايالتين من يد انطيوقوس واعادتهما الى الحكومة المصرية فأشعل سكوباس الحرب فى هاتين الايالتين مع غاية النصر والظفر ورد كثيرا من المدائن واسترجع يهوذا وطرد المحافظين الذين كانوا فى أورشليم وقلعتها ولما قرب عليه فصل الشتاء ارتد قافلا الى الاسكندرية مثقلا بالغنائم الثمينة التى استحوذ عليها فى تغلبه على تلك البلاد وكان سبب هذا النجاح والظفر هو غياب انطيوقوس وعدم مقاومة أهل البلاد وعساكر المستحفظين الموجودين فيها وبمجرد ما وصل انطيوقوس من غيبته الى هذه البلاد تغيرت جميع الاحوال فى الحال وردها الى نفسه فعاد اليه سكوباس من مصر فى رأس جيش كثيف فهزمه انطيوقوس شر هزيمة فى واقعة حصل فيها سفك دماء كثيرة وكانت الواقعة فيها غزيرة وكانت بالقرب

من منبع نهر الاردن ولما فقد الكثير من عسكر سكو باس التزم الهرب الى صيدا فدخلها وأغلق عليه أبوابها مع العساكر الذين كان تركهم فيها ومقدارهم ١٠٠٠٠ نفس فسار انطيوقوس خلفه وحاصر المدينة وشدد عليها وضيق على حصارها حتى فرغت منها الذخائر والمؤن وانجبر سكو باس على تسليم المدينة بما فيها واكتفى بخلاص نفسه ونجاتها من الهلاك ومع هذا فان حكومة الاسكندرية كانت بذلت ما فى طاقتها وقوتها من أجل خلاصه وخلاص المدينة وأرسلت ثلاثة من القواد ذوى اقدام وشجاعة ومهارة مع أجود عساكرها انتخابهم من المملكة لاجل رفع الحصار عن المدينة وخلاص المحصورين فيها الا أن انطيوقوس بذل ما فى قوته فى كسر هذه الارسالية وهزيمتها وانجبر سكو باس على تسليم المدينة والنجاة بنفسه وعاد راجعا الى الاسكندرية عارى الرأس حافى القدم مجردا عن السلاح وصح فيه قول القائل

سافرت سفره يا ندون * بانك تكيد الرجاله طقيتك أخذها التيار * ورجعت راسك عريانه

ثم لم يمض قليل من الزمن حتى شاع الخبر بموت بطليموس أبيفانيس فظن انطيوقوس فى الحال واعتقد فى نفسه أنه صار مالك مصر وسيدها ونزل فى اسطوله قاصدا التوجه اليها والتغلب عليها ونزل فى مبادى أمره فى افسوس وفيها أصدر أمره بجمع جميع المراكب الموجودة وضمها الى أسطوله والاسراع فى السير على قدر الامكان نحو مصر الا أنه عند وصوله الى بطره وردت اليه الاخبار الحقيقية بأن ما أشيع من موت بطليموس لا صحة له وأنه موجود على قيد الحياة فمن ثم عدل عن رأيه وغير فكره وخط سيره وتوجه نحو جزيرة قبرص بعزم التغلب عليها وفى أثناء سيره سقطت على مركبه التلاقيح والرياح واشتدت عليها الفرتونات والنوء حتى أغرقت الكثير منها وهلك الجم الغفير من عساكره ورجاله وخابت جميع اجرا آته وأعماله وعد نفسه من السعداء وقت عوده ودخوله فى مينة سلوقة بما بقى معه من اسطوله ومنها توجه الى أنطاكية ليقضى فيها فصل الشتاء .

وكان أساس اشاعة موت بطليموس ناشئا من ثورة رتبت نظامها وسوّلت الاحوال لزعمائها فقد حياة بطليموس وكان أصل هذه الدسيسة وترتيب الثورة سكو باس وذلك أن هذا القائد لما رأى نفسه (مثل عرابى) فى رأس جميع العساكر الاجنبية وكان الجم الكثير من هذه العساكر هم العساكر العيطوليانيين وهؤلاء أيضا كانوا يتصورون فى أنفسهم أنهم أقوى عسكره وأمهره وأنظمه فى المحاربات وأنه بواسطتهم يمكن لرئيسهم سكو باس اغتصاب السلطنة فى حال صغر الملك فلما عزم سكو باس على هذا الامر أخذ يطرق أبواب عقول اخوانه وأصدقائه وصار لا يهدأ فى نومه ولا يلتذ من أكله وشربه حتى يجد له فرصة فى قيام ثورته فصار يحرض اخوانه ويدس الدسائس ويشعل الوساوس ويوقد النيران ويظهر العصيان حتى اكتشف اريسطومنس الوزير الاول على اجرا آته وتحقق من غيه وثوراته وأنه على شرف القيام والوقوع فى الارتباك العام فأمر بالقبض على سكو باس ومن معه من الناس وأحالهم على المحاكمة أمام مجلس عقده للفصل فى ثورتهم وتوقيع الاحكام عليهم عند اثبات جناياتهم ولما ظهرت على سكو باس ومن معه الجريمة صار قتله ومن معه فى حالة مهينة ولم تنتطح فى ذلك عنزان ولم يقم فيها رجلان ومن هذه الدسيسة والفتنة الخسيسة ضاع اعتماد الحكومة ووثوقها من العساكر العيطوليانيين وكانوا فى هذا الوقت على درجة عظيمة من الثقة عند الحكومة فطردتهم ومن محل خدمتهم أبعدتهم وأرسلتهم الى بلادهم فقنعوا بالفقر والمهنة بعد أن كانوا فى أرغد عيش ونعمة

حسنة ووجد فى مصلحة سكوباس من بعد موته كثير من النقود والكنوز والاحجار الثمينة والفيروز ومن المحقق أنه كان نهبها وسلبها من الاقاليم التى كان حاكما فيها وبما أن سكوباس المذكور فى مدة نصرانه فى فلسطين أخضع يهوذا وأورشليم للمملكة المصرية فكان ولاريب أنه جمع هذه الكنوز من تلك الجهات ثم تركها ومات ولم يغن عنه جمعه شيأ فى الحياة وبعد الممات

وفى السنة الاولى التى تقلد فيها بطليموس الخامس أبيفانيس زمام السلطنة حكم بطريق العدل والسعد حتى نال رضا العموم والثناء عليه والخضوع لديه وذلك أنه كان سائرا فى أحكامه تحت ارشادات اريسطومنس الفحل السيانى وكان له بصفة أب آخر الا أن تملق الحواشى وأرباب الدولة (السم اليومى للملوك) تغلب على الارشادات الزكية والنصائح الفضلية الصادرة من هذا الوزير النبيل وأعرض الملك الشاب عنه حتى صار لا يسمع له كلاما ولا يجل له مقاما ولا يقوم له بأدنى اكرام فكبس الوزير عليه بالنصائح والارشادات التى يعود منها النفع على علو سلطنته وزيادة شوكته فملته طباعه الخبيثة وما هو عليه من عدم طاعته لكلام هذا الوزير الناصح أن دس له السم القاتل ومات هذا الرجل الجليل وخلا الجو لهذا الملك الرذيل من تصديع نصائح الوزير الامين الصادق وترك نفسه بالكلية لاغراضه الشهوية وعيوبه وفجوره ومفاسده الوقتية وغرق فى لهوه ولذاته ودخل فى جميع أصناف الكبائر والعيوب وصار لا يحسب حساب محسوب ولا دليل له فى الادارة والاعمال الا ما يشتهى ويريد من الاوامر والاقوال وعامل رعيته بالجور الشديد والعذاب والظلم المديد حتى صار للمصريين عدم الطاقة ونكثوا العلاقة وصار الظلم والجور يتراكم عليهم يوما فيوما فابتدؤا فى المؤامرة بينهم خفية سوية وعقدوا جمعيات ضد الملك سرية وعلت درجة الظلم والجور الى أعلى نهاية فدخل بعض كبار الدولة فى هذه الثورة وصمموا على عزل الملك ولما صاروا على شرف العمل خاب منهم الامل وانتخب الملك له وزيرا أول اسمه بوليقراط لاجل اخراج نفسه من هذه المتاعب والمصاعب التى أوقع نفسه فيها وارتبكت الامة فى نواحيها وكان بوليقراط هذا رجلا مقداما ماهرا شجاعا ذا ذكاء فى الادارات الحربية والسلمية مجربا فى الحروب ارتقى فى العسكرية الى أعلى رتبة فى الجيش الذى كان تحت قيادة والده وظهرت عليه النجابة والهمة العالية فى واقعة رافية المتقدمة الذكر فكان معظم افتخار النصر فيها له ثم من بعدها توظف حاكما فى جزيرة قبرص ونال طالع السعد فى الاسكندرية عند الكشف على ثورة سكوباس وبمساعدة هذا الوزير البطل أخمد بطليموس الثورة وألزم زعماءها وكانوا من أكابر أعيان المملكة بالتسليم والانقياد بشروط جبرت خاطرهم غير أنه لما تيسر له الحصول على القبض على هؤلاء الزعماء قتلهم أجمعين فتولد من هذا الفعل القبيح ارتباكات جديدة قامت ثانية عليه خلصه منها أيضا بوليقراط

ثم ان بطليموس بعد أن أخمد العصاة فى بلاده عزم على الغارة على سالقوس ملك سوريا ولما شرع فى تجهيز الاستعدادات الحربية لهذا الحرب سأل بعض كبار الدولة واحدا من ضباطه من أى جهة يمكنه أن يجمع نقودا لهذا الحرب فأجابهم أن أحبابه عندهم خزائنه فاستخرج أرباب الدولة من هذا الجواب أنه مادام معتمدا على أكياسهم فانما هى المبالغ الكافية لهذا الحرب ولما رأى أرباب الدولة أنهم على شرف الخراب والدمار من هذا الحرب وأن منعه من هذه الحادثة أجود من طاعتهم له دسوا له السم فى مأكوله ومات هذا الملك المشؤم فى السنة التاسعة والعشرين من عمره بعد أن تسلطن أربعا

وعشرين سنة وكان ذلك في سنة ١٨١ قبل الميلاد وكان متزوجا كليوبطره بنت انطيوقوس وخلفت منه ولدا اسمه بطليموس فيلوميطور وهو بطليموس السادس وكان عمره ست سنوات أو سبعة عند موت أبيه

وخلف بطليموس السادس أباه بطليموس أبيفانس وتقلدت كليوبطره أرملته وأخت انطيوقوس أبيفانس زمام الوصاية والنيابة في أحكام السلطنة نيابة عن ابنها الطفل الصغير بطليموس فلوميطور وأطلقت عنان محافظتها وشهامتها في حفظ مملكتها وساست الادارة والاعمال مع الجودة والاتقان وكانت سدا منيعا وحصنا حصينا من وقوع ارتباكات وقلاقل بين سوريا ومصر بما أنها كانت أم ملك مصر وأخت ملك سوريا فحكمت ثمان سنوات ثم أفلت شمس سلطنتها وماتت في سنة ١٧٣ قبل الميلاد ومن بعد موتها انتقلت الدولة الى أيدى اثنين من الوزراء كانا غير أهل لها مع ما كانا عليه من الفساد وقبح السيرة وهما اليئوس رجل ممتاز بالشرف من بين أهل البلاد وخصى من الخصيان اسمه عولوس تعين لملاحظة تربية الملك وتهذيبه فما كان من هذين الوزيرين الا انهما أوقعا مصر في حروب مع انطيوقوس صاحب سوريا استمرت مدة من الزمان وذلك أنهما أرسلا وفدا من طرفهما الى أنطيوقوس يطلب منه سوريا الجنوبية وفلسطين فتولد من هذا الطلب وقوع المملكتين في الحرب وكانت كليوبطره في حياتها تخشى من حصول مثل هذه القلاقل والارتباكات لكن هذان الوزيران لم ينظرا بعين الاعتبار الى انطيوقوس ولا ارتابا في طلب ما يعتقدان أنه حق ملكهما اذ من المحقق أن الملوك المصرية البطليموسية كانوا مستحوذين على هذين الاقليمين من عهد بطليموس الاول لاغوس الى أن اغتصبهما انطيوقوس الاكبر من بطليموس أبيفانيس ثم تركهما الى صلقوس ابنه وليس له حق آخر فيهما الا الغلبة عليهما وورثهما انطيوقوس هذا من أخيه صلقوس

وادعى المصريون لاجل تقوية طلبهم أنه في عصر التقسيم الاخير لمملكة اسكندر بين الاربعة قواد الذين خلفوا اسكندر من بعد موته وصاروا ملوك كل شيء من بعد واقعة عيصوص وقع هذان الاقليمان من حصة بطليموس لاغوس حتى انه هو وخلفاءه الذين توارثوا التاج من بعده كان تحت حوزتهم هذان الاقليمان من ابتداء ذلك الوقت لحد واقعة بانياس وفي هذه الواقعة ظفر انطيوقوس الاكبر وتغلب على هذين الاقليمين واغتصبهما من مصر وان هذا الملك عهد بعد زواج ابنته الى ملك مصر عود هذين الاقليمين له تطبيرمهر وصداق بنته وكانت هذه المادة هي المادة الاساسية التي عقد عليها الزواج ودخلا في حوزة الحكومة المصرية

وأما انطيوقوس فانه جحد هذين الطلبين بالكلية وادعى خلاف ما تدعيه الحكومة المصرية وقال انه في القسمة العمومية التي كانت حصلت في ممالك اسكندر وقعت جميع سوريا بما فيها سوريا الجنوبية وفلسطين في حصة سلقوس نكاطور (الفاتح) وبهذا صار هذان الاقليمان من تبع هذا الملك ومن ضمن أملاكه في مملكة سوريا وأما من خصوص عقد الزواج الذي من أجله طلب المصريون هذين الاقليمين فانه وهم مطلق وتصور لا أصل له ولما وجد المصريون أنه غير متيسر لهم الحصول على ما يرغبونه بأى دليل من هذين الدليلين رأوا أنه من الضروري تيسر الحصول على ردحقوقهم بواسطة القوة والسلاح

ولما بلغ بطليموس السادس فيلوميطور خمس عشرة سنة من عمره صار اعلان بلوغ رشده وعمل في

الاسكندرية تجهيزات عظيمة واستعدادات كبيرة من أجل تتويجه وجلوسه على الاريكة المصرية حسب العوائد الجارية المحلية فأرسل انطيوقوس أحد كبار دولته واسمه أبولينوس سفيرا من طرفه بحضر تتويج الملك ويهنئه باسم انطيوقوس على جلوسه على التخت وكانت هذه الحالة فى الظاهر وأما فى الباطن فهو من أجل كشف ومعلومية الاشغال الجارية عند المصريين فيما يختص بمسئلتى سوريا الجنوبية وفلسطين وماهى مقاصدهم وتصميمات اجرا آتهم ولما عاد أبولينوس من مصر الى انطيوقوس عرض له أن المصريين شارعون فى استعدادات كبيرة من أجل الحرب اللازم لخلاص الاقليمين المذكورين وقال له انهم فى شغل زائد وهمة كبيرة ولما سمع انطيوقوس من سفيره ماعرضه عليه توجه فى الحال من طريق البحر الى يافا وكشف ثغور مملكته وحدودها وأمر بانشاء المدافعات والتحصنات وعمل التحفظات اللازمة لصد نوع أى هجوم يقع من المصريين على حدود ممالكه ثم تفقد أورشليم وكذا جميع المدائن الموجودة فى سوريا الجنوبية وفلسطين فقابله أهلها بالاحترام ثم عاد قافلا الى أنطاكية

ولما وجد انطيوقوس فى نفسه أن له قدرة كافية على اشعال الحرب من وقت رجوع أبولينوس من مصر صمم عزم على الشروع فى الحرب من غير أن ينتظر وقوعه فى بلاده وممالكه واستصوب أن يجرى حركاته العسكرية فى نفس بلاد عدوه وتصور فى عقله أنه من حيث ان عمر بطليموس ست عشرة سنة وانه محكوم مع رعيته بوزراء ليسوا أهلا للادارة والسياسة يكون له قدرة على التغلب عليه وجعله تحت يده بشروط وعهود حسب رغبته ومن الاتفاق العجيب فى سعد هذا الملك النجيب أن الرومانيين فى هذا الحين وهم حماة المملكة المصرية كانوا مشتغلين بحروب شديدة لايمكنهم معها مساعدة مصر ومدافعتهم انطيوقوس عنها وبذا وجد انطيوقوس نفسه فى فصل صالح له يمكنه فيه فصل الخلاف الواقع بينه وبين المصريين فى شأن هذين الاقليمين ومن ثم جعل نفسه فى رأس جيشه وسار متوجها نحو الثغور المصرية حتى وصل الى جبل كاسيوس بالقرب من بلوزه فالتقى بجيش بطليموس فوقعت هنالك الواقعة واشتبك القتال واشتعلت نيران الحرب فكان النصر فيها لانطيوقوس وانهزمت الجيوش المصرية ونشتتوا داخل بلادهم وعكف انطيوقوس فى الحدود وشرع فى تحصينها زيادة عما كانت عليه لصد كل غارة تحصل من المصريين بخصوص تغلبهم على اقليمى فلسطين وسوريا الجنوبية وكانت هذه أول غزوة له فى مصر ومن بعد أن انتظم مدة فى الحدود ولم يلق كيدا من المصريين سار بجيشه الى صور ليقضى فيها فصل الشتاء وفى المدائن الاخرى المجاورة لها مع جيشه وقضى انطيوقوس فصل الشتاء فى استعداد تجهيزات حربية جديدة لاجل الغارة على مصر مرة ثانية ورأى نفسه أن له قدرة وطاقة بالنسبة لحالة الوقت على الغارة على مصر برا وبحرا وجمع بطليموس لذلك جيشا عظيما وتأهب لملاقاة انطيوقوس الا انه ما كان فيه قوة على دفع انطيوقوس ولما التقى الجيشان تغلب انطيوقوس مرة أخرى على بلوزه وشتت جيش بطليموس فى واقعة حصلت فى الحدود وسار بجيشه فى قلب المملكة المصرية ومن بعد هزيمة هذا الجيش صار لا يلقى كيدا من المصريين وأظهر فى غارته هذه أنه لم يقصد بحربه ضرر أحد من الناس الا ابن أخته فقط ومنع عساكره من القتل والسلب واستمر سائرا بعساكره من دون أن يتعرض لاحد من أهل المملكة بسوء فجذبت هذه الرأفة والشفقة قلوب المصريين اليه ولما تقدم فى داخل المملكة وفد اليه الاهالى أفواجا

يقدمون له طاعتهم وبهذا تغلب على منف بسرعة وعلى جميع ما بقى من المملكة المصرية الامدينة الاسكندرية فانها استمرت على مقاومته وقبض انطيوقوس على بطلميوس السادس وجعله آلة تحت يده لخضوع الامة المصرية له وغضب أهل الاسكندرية لذلك غضبا شديدا وأقاموا أخاه الاصغر بطلميوس فيسكون بدلا عنه ملكا على مصر وتداخل الرومانيون فى هذه المسئلة وأرغموا انطيوقوس على تسليم فتوحاته وانسحابه وعسكره من المملكة واتفق الاخوان على أن يتسلطنا سوية مع بعضهما وتزوج بطلميوس السادس أخته كليوبطره وما كان له أخت غيرها وجدد الاثنان الحرب مع ملك سوريا فتقدم انطيوقوس على قبرص وتغلب عليها وسار نحو مصر فى سنة ١٦٨ قبل الميلاد ولما صار على شرف التغلب على الاسكندرية أرغمه الرومانيون أيضا بالقهقرة والعود الى بلاده ومن بعد مضى أربع سنوات وقع بين الاخوين شقاق فذهب بطلميوس السادس الى رومة وفيها عضد مجلس الاعيان أمره ولما لم يقبل فيسكون ماقرره مجلس الاعيان برومة اشتعل حرب داخلى كان غلاقه تغلب بطلميوس السادس على فيسكون فى سنة ١٥٥ قبل الميلاد وقبض عليه ثم بعده أعتق بطلميوس أخاه ونجى له حياته وأعاد له ممالكه ومن بعد مضى بضع سنين قوى بطلميوس السادس عصيان اسكندر بلاس فى سوريا على انطيوقوس قاصدا بذلك أخذ ثاره من البلاد ومساعدة اسكندر على جلوسه على تخت سوريا ثم حصل من اسكندر بلاس خيانة فى حق بطلميوس فوجه رغبته وميله الى ديتريوس وساعده على اخراج عدوه من المملكة وسقط من فوق حصانه وقتل فى الواقعة الاخيرة مع اسكندر بالقرب من أنطاكية فى سنة ١٤٦ قبل الميلاد

وخلف بطلميوس السابع الملقب عوباطير أباه الا أنه من بعد مضى أيام قتله عمه فيسكون وبمساعدة الرومانيين صار فيسكون ملك مصر وصرنيقية وتلقب بلقب بطلميوس الثامن ومعنى فيسكون المحسن أى فاعل الخير ولهذه اللفظة معنى آخر وهو أبوفرت أى ذو البطن الضخمة وقيل ان كليوبطرة ملكت مصر بعد أن مات زوجها وهو أخوها أيضا واجتهدت فى أن تجعل التاج على رأس ابنها الذى خلفته منه وكان طفلا صغيرا وكان بعض أكابر الدولة له رغبة فى فيسكون أخى الملك المتوفى وكان فى هذا الوقت ملك صرنيقية فأرسلوا اليه بالحضور الى الاسكندرية فأخذت كليوبطره الاحتراسات اللازمة فى المدافعة عن نفسها وأرسلت الى قواد جيوش اليهود فى سوريا لمساعدتها ومعاضدتها وكان موجودا فى هذا الوقت سفير من رومة اسمه ثيرموس فى الاسكندرية فتداخل فى هذه المسئلة ومهد هيئتها وحصل الاتفاق بأن بطلميوس فيسكون يتزوج كليوبطره ويربى ابنها وأن يكون هو الوارث للتخت وأن فيسكون يقبض الآن على زمام التخت مدة حياته ثم من بعد مضى قليل من هذا الاتفاق تزوج فيسكون الملكة كليوبطره واستحوذ لنفسه على التاج وعند زواجه بها قتل ابنها وهو على ذراعيها وتسلطن فيسكون فى مصر سبع سنوات ولم يقص لنا التاريخ شيأ من أخباره وحوادثه فى هذه المدة الا انه كان قبيح الطبع فظيع العمل والعيوب مكروها ممقوتا فى حركاته وسكناته وما وجد ملك قبله كان مثله فى الفجور والدناسة والعنف وسفك الدماء مثله وجميع أوصافه كانت على غاية من الاحتقار والنقص وكان فى أقواله وأفعاله كطفل لا يعقل ما يقول ولا يدرى ما يفعل فمن ثم جلب على نفسه نقصه ورذالته عند رعيته اشمئزازهم منه ولولم يكن وزيره الاول المسمى هيراكس موجودا لخلعته الامة من السلطنة وكان هيراكس هذا من أهل انطاكية وكان فيها من ضمن رجال الدولة فى حكومة

سلطنة

سلطنة اسكندر بلاس وورده مصر بعد وقوع ثورة كانت حصلت فى سوريا ودخل فى خدمة بطليموس فيسكون وصار قائد جيوشه ووزيره الاول وبما انه كان مجربا فى الحروب وحنكته التجاريب ومدبرا ماهرا فى السياسة أجرى ادارة الحكومة المصرية على ميزان العدل وصار يصرف العساكر وأرباب الخدمات من تبابهم شهريا عند أوقات صرفها الهم وكان يدارى عيوب وقبائح أستاذه ويحافظ عليه وعلى تخته واجتهد اجتهادا تاما فى استتباب الراحة وحصول الامن فى المملكة

ومن بعد موت هذا الوزير دخل هذا الملك المجنون فى الاعمال والادارة المصرية فى السنين التى جاءت بعد وسيرها على أقبح محور وأرذل طريق وذلك أن الملك فيسكون أمر بقتل معظم الناس الذين سعوا واجتهدوا فى لبسه التاج من بعد موت أخيه ووضعوه على رأسه وذكر بعض المؤرخين أن هيراكس الوزير كان من ضمن هؤلاء المقتولين الا انهم لم يذكروا زمن قتله وكذا أمر بقتل ونفى كل من كان منتميا الى أخيه بطليموس فيلوميطور والذين كانوا متقلدين وظائف فى مدة سلطنته وأمر عساكره الاغراب بالقتل والسلب فى مدينة الاسكندرية حتى أزعج أهلها وخوفهم وبدد شملهم وهتك عرضهم فانجبر غالب سكان المدينة خشية من عنفه وقبحه على التباعد عنه والارتحال من الاسكندرية الى الممالك الاخرى الاجنبية وخلت المدينة من سكانها وناسها وصارت بلقعا خرابا ولما رأى فيسكون مساكن المدينة خالية من سكانها قائمة على أرجائها نشر من عنده منشورا الى البلاد المجاورة لها بأن كل من جاء وسكن الاسكندرية مهما كانت بلاده ودرجته فانه ينال منحة الفوائد فقبل كثير من الناس هذا الاعلان بما أنهم رأوه صالحا لمنافعهم وتوجهوا الى الاسكندرية وأعطيت لهم المساكن والبيوت التى تركها أهلها وهاجروا منها ومنحهم فيسكون حقوق المدينة وامتيازاتها وتحريرها التى كان متمتعا بها السكان القديمة وبهذه الوسيلة عادت عمارة الاسكندرية كما كانت فى الاصل

وكان من ضمن الذين هاجروا من الاسكندرية عدد عظيم من النحويين والفلاسفة والرياضيين والطبيعيين والذين لهم دراية بالفنون الموسيقية والآلات والمغانى وآخرين من الذين لهم دراية كاملة بالفنون الظريفة ومن هنا بتدأ احياء العلوم والفنون اللطيفة فى الجريس وآسيا الصغرى وفى جزائر البحور وبالجملة فى جميع المحلات والجهات التى أوى اليها هؤلاء الافاضل وكان تولد من الحروب المستمرة بين خلفاء اسكندر الاكبر اطفاء هذه العلوم ومحو آثار الفنون فى جميع تلك الممالك وكان من الممكن ضياعها بالكلية فى تلك الازمان التى كانت مشحونة بالارتباكات وقلاقل الحروب المستمرة لو لم تكن وجدت لها ملجأ ومأوى تحت حماية السلطنة البطليموسية فى مدينة الاسكندرية فان أول هؤلاء الملوك أسس دار المعارف وحشد فيها العلماء من الرجال وشيد دار الكتب الظريفة وجلب اليها رجال علماء الجريس من الفلاسفة ورتب لهم المرتبات وسار الثانى والثالث على قدم ومنوال الاول حتى صارت الاسكندرية أجل مدينة وأعظمها على وجه الارض وغرست فيها الفنون والعلوم التى كانت متروكة فى زوايا الاهمال والنسيان فى الممالك والمدائن الاخرى غيرها وكان معظم سكان هذه المدينة الكبيرة مارسوا ودرسوا هذه العلوم والفنون فى مدة شبابهم حتى انه عندما تساقط عليهم سقف ظلم هذا الطاغية فيسكون انجبروا على أن يجدوا سلامتهم فى البعد عنه فى الممالك الاجنبية الاخرى وبذلوا جهدهم وطاقتهم فى جلب ما تيسر لهم الحصول عليه مما يقوم بمعيشتهم وعكفوا أنفسهم على الاشتغال بتعليم غيرهم ما يعرفونه من العلوم والفنون وفتحوا مكاتب ومدارس لتعليمهم تلك العلوم وبما أن

احتياج المعيشة ضاغط عليهم من كل جهة أرخصوا أجرة التعليم لزيادة عدد الطلبة عندهم وبهذه الوسائل ابتدأ أحياء العلوم والفنون فى جميع الجهات التى توجه اليها هؤلاء الاعلام ومعنى هذا فى الجهة الشرقية من الدنيا وكانت جارية على مثال الطريقة التى أجريت فى نبع هذه العلوم والفنون فى الجهة الغربية من بعد أن تغلب الاتراك على القسطنطينية

وفى نفس هذا الوقت ورد الجم الغفير من الاعراب لاجل عمارة الاسكندرية ثانية وورد اليها اسكيبيو الافريقى ابن سكيبيو موميوس ومعه مطيلوس سفيران من طرف رومة وكان من القواعد عند الرومانيين أن يرسلوا سفراء أو رسلا لمحالفيهم من الامم بقصد تنظيم أحوالهم وملاءمة الاختلافات الواقعة بينهم واتفق فى هذا الوقت أن أرسلت رومة ثلاثة من كبار الدولة الى مصر بسبب ما هو حاصل فيها من الخلاف والشقاق فأمروهم بالتوجه الى مصر وسوريا وآسيا والجريس لينظروا فى الاحوال التى عليها هذه الممالك ويفحصوا عن الطريقة المرعية عندهم فى المعاهدات ويصلحوا كل ما يجدونه من الخطا فأطلقوا زمام سياستهم ومهارتهم فى هذه الارسالية مع العدل والانصاف وجودة التدبير وأدّوا خدمات جليلة للذين أرسلوهم وأعادوا النظام وأصلحوا الاختلافات الواقعة بين الممالك الذين توجهوا اليها وبين رومة ومن بعد أن عاد السفراء الى رومة من هذه الجهات قدّم لهم مجلس الاعيان شكره وثناءه على ما استحقوه من جليل خدمتهم المقبولة لدى مملكتهم

وكان أول الجهات التى توجه اليها هؤلاء السفراء حسب التعليمات التى أعطيت لهم من مجلس الاعيان فى رومة هو الاسكندرية فقابلهم الملك فيها مع غاية التبجيل والاحترام وأحسن ضيافتهم وأنزلهم منزلا جليلا وكان يأكل معهم فى مدة لبثهم فى الاسكندرية ومن بعد أن نظروا فى أحوالها وأصلحوا أعمالها ومهدوا الاعمال التى جاؤا من أجلها سافروا من طريق النيل الى مدينة منف لاجل زيارتها وزيارة المحلات الاخر من المملكة المصرية فرأوا بأعينهم طبق ما تناولوه من الروايات الملقية عليهم فى شأن هذه الجهات عدد الانهاية له من المدائن العامرة الغاصة بالاهالى والعمران المحتوية عليها هذه المملكة ورصانة موقعها الطبيعى وخصوبة أرضها ومنافع أخرى متمتعة بها أهلها ورأوا أنها لا تحتاج لشئ سوى زيادة قوتها واصلاح شوكتها بواسطة ملك ذى حزم وتدبير وعقل وتبصير وعمارة لا تدمير لان فيسكون المتسلطن عليها والحالة هذه لم يستحق أن يكون ملكا على مثل هذه المملكة لانه ليس عنده فكر فى عمارها أو خرابها فهما عنده على حد سواء ولم يقصد بسلطنته سوى احترامانه وتعظيماته التى يقدمها له الاهالى والامة المصرية

ومع ما كان عليه فيسكون من العنف والجور والفظاظة والفجور والانهماك فى اللذات والتوحش والقبائح الاخر كانت العيوب التى فى جسمه معادلة للعيوب الموجودة فى عقله ومخه وبالجملة فما كان فيه شئ ينتفع به من عقل أو ذكاء وكان قصير القامة منتفخ البطن مثل البو حتى لا يمكن أى انسان أن يحضنه بذراعيه ومن كبر بطنه وجسامته القبوه بلقب أبو فرت واستمر بطليموس فيسكون على ما هو عليه من الجور والتعدى ولم تتغير أحواله بل يزداد فظاظة وقبحا كلما طال فى العمر وقد ذكرنا انه عند زواجه أخته كليوبطره وكانت أرملة أخيه أيضا قتل ابنها على ذراعيها وكان ابنها هذا ابن أخيه فيلوميطور ثم غضب على أمه غضبا شديدا ووقع فى غرام وعشق احدى بناتها من أولاد بطليموس فيلوميطور وكان اسمها أيضا كليوبطره فتزوج بها ومن ثم بعد قليل غابه وذمه أهل الاسكندرية

المستجدون الذين كان جلبهم لعمارتها ومنحهم محلات ومساكن الذين هربوا من أفعاله القبيحة وأحواله الشنيعة وتركوا بلاده والتجؤا الى ممالك أخرى ولخوفه من هيجان هؤلاء السكان وازعاجهم وكونهم في حالة يتوقع له حصول الضرر منها عزم على قطع رقاب جميع الشباب الموجودين في المدينة ومن كانت قوة المدينة وشوكتها وعزها وشرفها محصورا فيهم وأمر باحاطتهم بعساكره الاجنبية في يوم من الايام في محل كانت فيه ملاعب واجتمع فيه جميع الناس فأمر بالقبض عليهم وقتلهم فهرع جميع الامة مع الغضب والحنق لحرق سرايته وهو في داخلها وأسرع أهل الاسكندرية بالجرى نحو السراية ولما وصلت اليه الاخبار بذلك ترك السراى قبل وصولهم اليها وهرب في مركب الى قبرص مع زوجته كليوبطره وابنها منفطيس في سنة ١٣٠ قبل الميلاد وبمجرد وصوله الى قبرص أخبروه بأن أهل الاسكندرية قلدوا كليوبطره زمام الحكومة المصرية وكان طلقها قبل ذلك فجمع في الحال عسكرا ليقيم حربا على هذه المملكة الجديدة ومساعديها

ولما خشى في مبادى أمره من أن أهل الاسكندرية ربما يجعلون ابنه ملكا وكان فيسكون عهد الى ابنه هذا حكومة صيرنيقية أمره بالحضور اليه وبمجرد وصوله عنده أمر بقتله في الحال متصورا في ذهنه منع خطر يقع من مدع عليه يقوم بعده فتولد من هذه الفعلة الوحشية والاحوال البهيمية امتلاء كل انسان بالغضب والحنق عليه وكسروا تماثيله الموجودة في الاسكندرية قطعا وداسوها في الارض فاعتقد أن كليوبطره زوجته التي طلقها هي التي حرضت الاهالي على مثل هذا الفعل فلاجل أخذ ثاره منها والانتقام من بدنها أمر بقطع رقبة منفطيس البرنس الشاب الذى كان خلفه منها وكان على غاية من الجمال ومنظورا فيه الذكاء والكمال وأمر بتقطيع جسمه قطعا ووضعه في صندوق مع رأسه حتى تعرفه أمه اذا رأته وأرسله الى الاسكندرية مع واحد من خفره وأمره أن ينتظر الى يوم عيد ولادتها وكان قريب المدة ثم يقدم الصندوق اليها في يوم موسم العيد فأطاع الرجل أمره وسلمها الصندوق في يوم سرورها وفرحها فانقلبت الافراح بالاتراح وأخذوا في العويل والنواح وكان يوما لا يمكن وصفه من شدة الحزن والاسف والانذهال مما حصل من التلف ونظر الناس الى هذا الطاغية بعين العداوة والبغضاء ومما تولد من ارتكابه هذه الجرائم المهولة الوحشية حمل السلاح أهل الاسكندرية وما كان عندهم أدنى فكر سوى صدهم هذا الجبار الطاغى من أن يجلس على التخت مرة أخرى وجندت الملكة كليوبطره جيشا قويا وعهدت قيادته الى واحد اسمه مارثيار وشرعت في أخذ الاحتياطات اللازمة للمدافعة عن المملكة

وجند بطليموس فيسكون أيضا جيشا وعهد قيادته الى هغلوكوس ووقعت الواقعة فكان النصر فيها الى هغلوكوس قائد جيش بطليموس وأخذ مارثيار أسيرا وأرسله مغلولا بسلاسل الحديد الى فيسكون واعتقد الناس كلهم أن هذا السفاح لابد من كونه يقتل مارثيار بمجرد وصوله اليه من بعد أن يذيقه أليم العذاب وشدة العقاب الا أن ما حصل من بطليموس كان بخلاف ما ظنت النفوس وذلك أنه عفا عنه وخلى سبيله وأعتقه لانه رأى من التجارب التى حنكته أن جميع المصائب والرزايا التى حصلت له كان منشؤها من أفعاله الفظيعة وأعماله الشنيعة فابتدأ في اخضاع نفسه حتى يحل محل رسيه وأن يجعل نفسه موقرا مبجلا بواسطة ما يجريه من اللين والرفق فارتاعت كليوبطره عند ما رأت هزيمة جيشها وتشتت حاله وخافت خوفا شديدا فأرسلت في الحال في سنة ١٢٧ الى ديمتريوس

ملك سوريا المساعدتها وجعلت له مكافأة على ذلك زواج بنتها وجلوسه على تخت مصر فأجاب ديمتريوس طلبها في الحال من غير تردد ولا تبصر في المآل وسافر بجميع عساكره وحاصر مدينة بلوزه وشدد عليها في الحصار

وكان هذا الملك مكروها مبغوضا ممقوتا عند أهل سوريا بالنظر لشماخة أنفه وجبروته وظلمه وانهماكه في الفجور مثل بطليموس فيسكون المقهور ولما رأى السوريانيون أنه صار على مسافة بعيدة منهم وأنه مشغول بحصار بلوزه عنهم حملوا السلاح وقاموا ضده وكان أول من قام أهل انطاكيا ومن بعدهم أهل افاميه ثم قام على منوالهم مدائن عديدة من سوريا وانضمت هذه المدائن بعضها الى بعض فانجبر ديمتريوس على العود الى سوريا لاجل خضوع رعيته للانقياد اليه ولما قطعت كليو بطره اليأس من مساعدة ديمتريوس اياها نزلت في مركب حاملة جميع كنوزها وخزائنها وهربت عند بنتها كليو بطره ملكة سوريا وبمجرد ما رأى فيسكون ترك كليو بطره الاسكندرية عاد اليها ودخل فيها وتقلد زمام الحكومة لانه من بعد هزيمة مارثيار وهروب كليو بطره ما وجد لنفسه معارضا ولا مقاوما ومن بعد أن لبث مدة يصلح نفسه ويقوي مملكته شرع في أن ينتقم من ديمتريوس نظير مساعدته كليو بطره فسلط عليه رجلا كذابا اسمه اسكندر زطبناس ابن رجل كان سمسارا في الاسكندرية وتلقب هذا الشخص بلقب الاسكندر بن اسكندر بلاس وادعى لنفسه تاج الملوكية السوريانية عن أبيه وأعاره فيسكون جيشا تحت قيادته وطلباته ولما وصل اسكندر هذا سوريا ورأى أهلها أن من العدل والانصاف عوده الى ملك أبيه انضموا اليه أفواجا وكانوا كما ذكرنا على كراهة من ديمتريوس وأخيرا وقع بينه وبين ديمتريوس واقعة في سوريا الجنوبية بالقرب من دمشق وكانت واقعة فاصلة انهزم فيها ديمتريوس وهرب الى بطليموسية (عكا الآن) وكانت زوجته كليو بطره قاطنة فيها فقفلت في وجهه أبواب المدينة لانها كانت على كراهة منه بسبب زواجه أخرى من العجم فالتزم ديمتريوس الهرب والالتجاء في صور فقتل فيها ومن بعد موت ديمتريوس أخذت كليو بطره قسما من المملكة لنفسها وما بقي من المملكة صار تحت يد اسكندر المدعي أنه ابن اسكندر بلاس

وفي سنة ١١٧ قبل الميلاد مات بطليموس فيسكون ملك مصر من بعد أن تسلطن تسعا وعشرين سنة من ابتداء موت أخيه فيلوميطور وكان موته في الاسكندرية وما رأت الامة المصرية أقبح سلطنة من سلطنته ولا أخبث سيرا من سيره وأراح الله منه البلاد والعباد

وترك فيسكون ثلاثة أولاد بعد موته الاول منهم اسمه أبيون من سرية كانت له وآخران شرعيان من كليو بطره بنت أخته التي تزوجها بعد طلاق أمها وكان أكبرهما اسمه لاثروس والاصغر اسمه اسكندر وكان فيسكون عهد في حياته مملكة صيرنيقية باختياره الى ولده أبيون ومصر الى أرملته كليو بطره وولديها وهي تولي واحدا منهما الملك حسبما تختار الا أن الامة ما كانت ترغب ضرر الولد الاكبر في كونه يفقد حقوق بكوريته فمن ثم ألزموا الملكة بطلبه من قبرص وكانت أمرت أباه بطرده فيها ونفيه من الديار المصرية بحيث تشركه معها على التخت في حكم المملكة ولما حضر فمن قبل جلوسه وتتويجه في منف كما هي العادة الجارية في المملكة ألزمته بطلاق أخته الكبرى وكان مغرما بحبها وعشقها ويأخذ بدلا منها أخته الصغرى سلني وكان لا يميل اليها ولا يشتهي أن يشم لها رائحة لكنه أجرى هذه الاعمال على غير رغبة ومرام منه

وخلف بطليموس التاسع الملقب لاثروس أباه فى سنة ١١٧ قبل الميلاد ولما رأت كليوبطره مطلقة لاثروس قهراعنه زمام أمرها بيدها تزوجت قيزيقوميان وكان اسمه انطيوقوس الملقب قيزيقوميان وهو اسم مدينة قيزيقوم من أعمال ميسيا الصغرى كان تربى فيها وتمذهب على أهلها وهذا أخو انطيوقوس غريبوس ملك سوريا وكان بطليموس فيسكون ساعده على التغلب عليها وزوجه ابنته طريفانه وفى أثناء زواج كليوبطره مطلقة لاثروس بانطيوقوس قيزيقوميان كان هو وأخوه غريبوس مجربين الحرب سوية من أجل المملكة فأعطته كليوبطره جيشا فى مهرها يساعده على أخيه خصمه زوج أختها طريفانه ولما صارت قوى الاخوين متعادلة على وجه التقريب التحما فى القتال فكانت المصيبة على قيزيقوميان انطيوقوس فانهزم وتقهقر الى انطاكيا وترك زوجته كليوبطره فيها ولما رأى أن زوجته صارت فى حرز حصين توجه ليجمع جيشا جديدا لاجل تقوية جيشه واعادة القتال مع أخيه فسار غريبوس انطيوقوس وحاصر المدينة وضيق عليها وشدد على أهلها حتى تغلب عليها قهرا وكانت زوجته طريفانه متلهفة جدا على القبض على أختها وقتلها ولو أنهما كانتا شقيقتين لانها كانت على كراهة وحنق شديد منها بسبب زواجها عدوها وكونها أعطت له جيشا يساعده عليهما وأمرت زوجها غريبوس أن يسلمها اليها كى تفعل فيها ما تشاء فمن ثم هربت كليوبطره فى معبد من معابد انطاكيا واستمر الحرب بين الاخوين ولم تملك طريفانه من أختها ما كانت تؤمله وتبغيه

وأما كليوبطره أمهاتين البنتين فانه ما كان عندها أدنى فكر ولا تبلبل بال من خصوص أولادها بل كانت مشتغلة على الدوام بما سولت لها نفسها من الطمع والشهوة فى قبضها على زمام السلطنة المصرية وجعلها تحت يدها فى حكومة مطلقة مدة حياتها ولاجل تقوية نفسها على ما ترغبه عهدت مملكة قبرص الى اسكندر ابنها الاصغر حتى تحرمه من الاتحاد مع أخيه لاثروس ولربما يحصل من اجتماعهما سوية ضرر يعود عليها فى المستقبل فكانت باذلة جهدها فى عدم وقوع ما يماثل هذا الخطر

وبينما كان الاخوان غريبوس وقيزيقوميان مشتغلين بالحروب الشديدة والمبارزات الطويلة اذ تقوت شوكة يوحنا هرقانوس ملك اليهود وصار لا يخاف من هذين الاخوين ولا يخشاهما وشرع فى التغلب على مدينة سماريه واخضاعها للطاعة وأرسل ولديه ارسطبولوس وانطجنوس لاجل محاصرة تلك المدينة فطلب السماريون من قيزيقوميان انطيوقوس بعد أن صار ملك دمشق نجدة لمساعدتهم فسار اليهم فى رأس جيش فترك الاخوان أولاد هرقانوس حصار المدينة وتقابلا مع قيزيقوميان ووقعت بينهم واقعة شديدة انهزم فيها قيزيقوميان ومن بعد هذه النصرة رجع الاخوان الى حصار مدينة سماريه وشددا عليها فى الحصار وضيقا على أهلها حتى انجبر أهلها مرة أخرى على أن يرسلوا الى قيزيقوميان ربط العلاقة والمعاهدة وبأتى لمساعدة المدينة وخلاصها من أيدى الاعداء ولما لم يجدوا عنده العساكر الكافية لرفع حصار المدينة طلبوا المساعدة من لاثروس ملك مصر فأغاثهم بنحو ٦٠٠٠ نفس فى سنة ١٠٧ قبل الميلاد على غير رغبة من كليوبطره أمه فمن ثم غضبت عليه وعزمت على خلعه من أجل تداخله فى هذا الحرب من غير أن يأخذ رضاها ورغبتها ولما وصل العساكر المصرية المساعدون الى ميدان الواقعة فى سوريا ضمهم قيزيقوميان الى عساكره ومع هذا خشى من الهجوم على الجيش المحاصر مدينة سماريه فاكتفى بتخريب البلاد وسلب العباد

ولما كان ارسال هذه العساكر على غير رغبة من كليوبطره ضمت هذه المسئلة مع مسائل أخرى حصلت من لاثروس فى سلطنتها أغضبتها وأخذت من لاثروس زوجته صلنى بعد أن خلف منها ولدين وألزمته الخروج من مصر وكانت الطريقة التى أجرتها فى ذلك هى أنها أمرت بعض الطواشية المقبولين لديها أن يجرحوا أنفسهم جراحا بالغة وجلبتهم فى جمعية من أهل الاسكندرية وأمرتهم أن يقولوا انه حصل لهم هذا الفعل الفظيع الوحشى من ابنها لاثروس وقت ما حصل منهم الاجتهاد فى المدافعة عنها وقت ما أرادوا حفظها من بطشه وغوائله وأشعلوا قلوب الامة الاسكندرانية بهذه الاقوال الكاذبة وأثبتوا لهذه الجمعية أنه كان يريد قتلها فقاموا جميعا على لاثروس وأرادوا قتله وتقطيع جسمه لولا أنه هرب من المينة فى مركب وأقلعت به فى الحال هاربا من مصر ولما خرج لاثروس من مصر أرسلت كليوبطره فى الحال وطلبت ابنها اسكندر الاصغر من قبرص وجعلته ملك مصر بعد أخيه وألزمت أخاه لاثروس بقبوله مملكة قبرص بعد أن تنازل عنها أخوه اسكندر

ثم ان اسكندر فى سوريا حاصر بطلموسية (عكا) فى أشغال تخص نفسه حصارا شديدا وضيق عليها فأرسلوا يطلبون مساعدة بطلموس لاثروس فتوجه اليهم بنفسه وكانوا وعدوه بان يجعلوه ملكا عليهم فلما تغيرت نياتهم تركهم ودخل فى مخابرات مع اسكندر ولما صار على شرف عقد المعاهدة معه حصلت المخابرة بين كليوبطره فى مصر واسكندر بانها استعدت وافيه بقواها ليضمها الى قواه ويطرد لاثروس من فلسطين وصار اسكندر العدو اللدود لاثروس فعزم لاثروس على ضرره ونزول البلاء عليه بقدر ما يمكنه وفى السنة التالية ما خاب لاثروس من وضع ما عزم عليه موضع العمل وقسم جيشه قسمين جعل الاول تحت قيادة واحد من قواده لاجل حصار بطلموسية وكان على حنق منها وسار هو فى القسم الآخر بنفسه قاصدا اسكندر ومدّ أهل غزة لاثروس بقوة كبيرة من العساكر ووقعت بينه وبين اسكندر واقعة دموية على شواطئ نهر الاردن قتل فيها نحو من ٣٠٠٠٠ نفس من عساكر اسكندر بخلاف المجروحين والمأسورين وفى هذه الواقعة حصل النصر والظفر العظيم للاثروس

و روى أنه حصل من لاثروس بعد نصرته هذه ما تمجه الاسماع وتقشعر منه الابدان من أفعال همجية وأعمال قبيحة بربرية ما جرت قبله ولا بعده ولا سمع فى التواريخ بمثلها وذلك أنه فى مساء اليوم الذى نال فيه النصر على اسكندر توجه بعساكره ليعسكر بهم فى القرى المجاورة لمحل الواقعة فوجدها مشحونة بالنساء والاطفال فأمر باخراجهم وقتلهم جميعا كبيرا وصغيرا وتقطيع أجسامهم قطعا ووضع اللحوم فى قزانات وطناجر وجعلها عشاء العساكر وكان قصده بذلك نشر الاخبار واذاعة الحوادث فى جميع الجهات بان عساكره يأكلون لحوم الآدميين حتى يقع الرعب فى قلوب الناس ويخشوا منه الباس ومن بعد أن هزم لاثروس اسكندر وعساكره وشتت شملهم وصار لا يوجد أمامه فى الميدان عدو وسار فى جميع أرض السهل وخربها ودمر أهلها ونهبها وصار اسكندر ملكها لا يمكنه فعل شئ من غير مساعدة كليوبطره وحصل له الضعف والخذلان مما لا فاه من الويل والخسران وسار لا يرفع له راية أمام عدوه ولا يظهر من مقر سموه

ولما رأت الملكة كليوبطره ملكة مصر أم لاثروس أنه لو صار لاثروس المذكور ملكا لم يعقه شئ عن الدخول فى مصر وسلب ملكها وخلعها عن تختها فدبرت فى نفسها ورأت أنه من الضرورى توقيف تقدماته وهبوط حركاته وجندت لهذا الغرض جندا كبيرا وعهدت قيادته لاثنين من اليهود

وهما

وهما شلسباس وأنانياس وجهزت في البحر اسطولا لنقل عساكرها ونزلت بنفسها في هذا الاسطول مع عساكرها وسارت باسطولها حتى نزلت في فينيقية بعد أن حملت معها جميع خزائنها وكنوزها وجواهرها قاصدة بذلك حفظها لو حصل لها حاصل من مصيبة أو خطر واختارت لوضع هذه الخزائن وحفظها جزيرة كوس وأرسلت في هذا الوقت حفيدها اسكندر بن اسكندر المشترك معها في سلطنة مصر ولما جعل ميثريداطيس نفسه سيد تلك الجزيرة كانت هذه الكنوز موجودة فيها فأخذ البرنس الشاب تحت محافظته ورباه وهذبه تربية الملوك ومن بعد مضى مدة تسلل اسكندر من ميثريداطيس والتجأ الى حماية صيلا فقابله صيلا بالتبجيل والاحترام وأخذه تحت محافظته وأرسله رومة وأخيرا أجلسه على الاريكة المصرية كما سنذكره بعد

وتولد من نزول كليوبطره في فينيقية أن رفع لاثروس الحصار عن بطلموسية وكان لم يزل مستمرا لحين وصولها وتقهقر لاثروس الى سوريا الجنوبية فأمرت شلسباس قسما من جيشها بتعقبه وبواسطة القسم الآخر تحت قيادة أنانياس حاصرت كليوبطره مدينة بطلموسية ولما مات شلسباس في حربه مع لاثروس وكان قائد الفرقة الاولى توقف كل شئ من بعد موته وأما لاثروس فانه انتهز الفرصة في أثناء هذا الارتباك الذى حصل في جيش أمه وسار بجميع قواه الى مصر مؤملا أنه لا يوجد فيها محام ولا مدافع حال غياب أمه عنها لانها أخذت جميع العساكر الشديدة وتوجهت بها الى فلسطين وكان فكره هذا غير صواب اذ العساكر الذين تركتهم كليوبطره في مصر دافعوا عن المملكة حتى أمدتهم كليوبطره بالعساكر من فينيقية وقتما بلغها خبر ما يريده خرمته وانجبر على القهقرة الى فلسطين وعسكر بعسكره في غزة بعد أن حرم من هاتيك اللذة

وأما كليوبطره فانها شددت في الحصار على بطلموسية وأنزلت عليها البليه وضيقت عليها ووصلت بطريق الهجوم عنوة اليها حتى تغلبت عليها ودخلتها وبمجرد قرارها فيها زارها اسكندر وجلب لها معه هدايا ثمينة قيمتها لا تنكر ولما رأى بطلموس لاثروس وهو في غزة أن ماهو حاصل منه من السعي والاجتهاد لا يفيده فائدة في فلسطين ما دامت أمه معاضدة لها ترك ما كان عازما عليه وتوجه الى قبرص وتوجهت كليوبطره أيضا الى مصر وخلصت من الاثنين البلاد وأراح الله منهما العباد

ولما وصلت كليوبطره الى الاسكندرية بلغها أن لاثروس دخل في معاهدة في دمشق مع قيزيقوميان أنطيوقوس فرأت أنه ربما بمساعدته له يستعد في نفسه باستعدادات جديدة لاجل أن يرد لنفسه التاج المصري ففعلت كليوبطره على ضده وزوجت بنتها صلني وكانت أخذتها من لاثروس الى غريبوس أنطيوقوس وأرسلت له في ذلك الوقت عساكر كثيرة ومبالغ نقود وفيرة حتى يتيسر له الحصول بها على استعداد كاف للهجوم على أخيه أنطيوقوس قيزيقوميان بغاية الشدة والعنف فنجحت هذه الاشغال على حسب رغبتها وتجدد الحرب بين الاخوين وكثرت الاشغال والمتاعب على قيزيقوميان في مملكته حتى صار لا يمكنه فيها مساعدة لاثروس فانجبر لاثروس على ما كان عزم عليه وتوجه لحال سبيله مقطوع اليأس خائب الرجاء

وأما بطلموس اسكندر أخو لاثروس فعندما أجلسته أمه على التخت حصل له ارتجاج واضطراب من عنفها وشدة أعمالها الوحشية التي تعدت بها على أخيه لاسيما أخذها زوجته منه وتزويجها بعدوه فلما رأى في نفسه أن كل ما أجراه من الاشغال وان كان على رأيها ورغبتها لا يسلم من بطشها وغوائلها

حتى ولو من غير سبب كما فعلت بأخيه من قلة الادب عزم أن يتخلى عن التخت ويعتزل الى عيشة طيبة رغد لا يخشى فيها طردا ولا نفيا من أم خبيثة وعدوة قبيحة ولما فعل هذه الفعلة تسلطن الغضب عند الامة وصمموا على عوده وقالوا الا يمكن الملكة السلطنة بمفردها وان كانوا يعلمون علم اليقين أنها جعلت لابنها لقب ملك فقط اسما من غير فعل وانها من عهد موت فيسكون قابضة على زمام السلطنة ومن تداخل لاثروس فى أعمال ضدر غبتها احرمته من تاجه وزوجته وطردته من البلاد

وفى سنة ٩٧ قبل الميلاد مات انطيوقوس غريبوس قتله أحد خدامه من بعد أن تسلطن سبعا وعشرين سنة وخلف خمسة أولاد جميعهم تسلطنوا من بعده وفى سنة ٩٦ قبل الميلاد مات بطليموس أبيون بن فيسكون بطليموس وما كان له وارث من بعده فترك مملكته للرومانيين على وصاية منه

وفى نحو سنة ٨٩ قبل الميلاد قتل اسكندر الاول أمه وأعلن بالملك لنفسه ولقب بطليموس العاشر وذلك أن الاحوال اضطربت فى مصر زيادة عن سوريا وصارت كليو بطره لا تطيق أحدا غير نفسها فى علو درجة سلطنتها ولا تقبل اسكندر ابنها معها فى الاشتراك فى شرف التخت وعزمت على خلاص نفسها منه حتى تكون هى الملكة الوحيدة فى مصر دون غيرها فى الحال والاستقبال ولما تحقق اسكندر من رغبة أمه أمر فى الحال بقتلها وكانت امرأة خبيثة الطبع فظيعة الاعمال ما خلص من يديها أحد لا أمها ولا أولادها ولا بناتها وفقدت كل شئ فى مطامع أغراضها فى السلطنة حتى أتاها الموت الذى عجل بروحها الى النار وبئس القرار

وبمجرد ما شاع فى الاسكندرية أن السبب فى قتل الملكة هو اسكندر ابنها حصل الانزعاج والهول وكثر الشغب والثوران وقام الاسكندرانيون عليه وطردوه من الاسكندرية وطلبوا أخاه من قبرص وأجلسوه على تخت المملكة وفى هذه المرة قوى لاثريوس نفسه وتقلد زمام السلطنة حتى مات ثم اجتهد اسكندر وسعى فى الحصول على مراكب وعساكر وأراد أن يعيد لنفسه التخت كما كان الا انه لم ينجح فى مشروعه ومات حتف أنفه فى غزوة جديدة كان شرع فيها

وفى سنة ٨٨ قبل الميلاد من بعد جلوس بطليموس لاثريوس على تخت مصر انفجرت ثورة كبيرة فى صعيد مصر كان منشؤها الغضب على ما حصل ضد اسكندر فهزم العساكر السلطانية العصاة شر هزيمة فى واقعة حصلت بينهم ومن بعد الهزيمة التجأ العصاة داخل مدينة طيوه وحصنوا أنفسهم فيها ودافعوا عن أنفسهم وعن المدينة بكل جهد وأخيرا تغلب العساكر على المدينة بعد أن حاصروها ثلاث سنوات وأخربها بطليموس لاثريوس وقتل زعماء الثورة وصارت المدينة أطلالا وخرابا بعد أن كانت أغنى مدائن الديار المصرية وأحسنها بهجة ومنظرا وعمرانا ومن بعد هذه تسلطن بطليموس لاثريوس سلطنة سلمية هادئة لا حرك فيها ولا نزاع وامتدت لحد سنة ٨١ قبل الميلاد ثم هلك فى هذه السنة بعد أن تسلطن ستا وثلاثين سنة منها احدى عشرة سنة مع أمه بالاشتراك معها على التخت وثمان عشرة سنة فى قبرص وسبع سنين بمفرده فى مصر من بعد أمه

وخلفته كليو بطره بنته وكان لا وارث له غيرها وكان اسمها برنيس وهى بنت صلبى الا أنها لقبت بذلك على حسب الطريقة الجارية عند هذه العائلة أن يلقبوا جميع الذكور باسم بطليموس وجميع البنات باسم كليو بطره

وفى أثناء هذا الوقت كان صيلا هو الآمر الناهى أى مطلق التصرف فى رومة فأرسل اسكندر ليستحوذ

على تخت مصر من بعد موت عمه لاثر يوس حيث انه هو الذكر الوارث الاقرب جدا للمتوفى وكان هو ابن اسكندر الذى قتل أمه الا أن أهل الاسكندرية كانوا أجلسوا برنيس كايو بطره على تخت المملكة واستمرت متقلدة زمام السلطنة ستة أشهر حتى حضر اسكندر من رومة فلاجل ملاءمة هذا الخلاف وعدم وقوع الاضطراب والارتباك ومراعاة لخاطر صيلا سيد رومة حصل الاتفاق حسب الجارى على ان كايو بطره تتزوج باسكندر ويتسلطنان على مصر سوية ولما كان اسكندر لا يرغب ازوجة له ولا يبغى الاشتراك معها فى السلطنة أمر بقتلها من بعد مضى تسعة عشر يوما من عقد الزواج وتسلطن فى مصر وحده مدة خمس عشرة سنة ولقب بطليموس الحادى عشر وفى هذه المدة حصلت حروب داخلية وثورات وقلاقل ارتج منها جميع المملكة المصرية وأخيرا قام الاسكندريون فى سنة ٨٠ قبل الميلاد على ملكهم حاملين السلاح فى وجهه وطردوه من المملكة واستمرت المملكة بعده فى خراب ودمار وثوران وعصيان ولم يكن فيها حكومة سلطانية مدة خمس عشرة سنة وفى أثنائها توجه اسكندر الى القائد الرومانى بومبى وكان فى البلاد المجاورة له وطلب منه مساعدته وعودتاجه اليه فما قبل بومبى التداخل فى مثل هذه المسائل لانها خارجة عن مأموريته وحكومته ولما قطع اسكندر اليأس من بومبى توجه الى مدينة صور ينتظر لنفسه فيها فرجا من عند الله وأخيرا أتاه الفرج ومات بعد ذلك بقليل وقبل موته كتب وصية عن نفسه ما لها أن الامة الرومانية هى الوارثة له فى أملاكه ومخلفاته من بعد موته

وفى سنة ٦٥ قبل الميلاد جلس بطليموس الثانى عشر الملقب أوليطس أى الناياتى لانه كان مغرما بضرب الناى وهو ابن زنا من لاثر يوس وليس ابناشرعيا له على تخت المملكة وأرخ سلطنته من ابتداء موت برنيس الا أنه ما كان ملك مصر فى الحقيقة لحد سنة ٦٥ قبل الميلاد وفى هذا الوقت انفصلت قبرص من مصر وصارت مملكة مستقلة فى حد نفسها تحت حكم المملكة الرومانية ومحافظتها وبما أن سلف بطليموس هذا وهو اسكندر تنازل بوصية عن ممالكه ومخلفاته من بعده للامة الرومانية وجعلها هى الوارثة له لم يحصل من مجلس الشيوخ برومة حكم قاطع يقضى فى هذا الوقت بالاستحواذ على الممالك التى تركها لهم اسكندر فى وصيته الا أن المجلس رأى أنه لا يتنازل عن حقوق الوراثة هذه وعزم على أخذ شئ من مخلفات اسكندر فأرسل نوابا من طرفه الى مدينة صور التى مات فيها اسكندر لطلب مبلغ من النقود كان تركه اسكندر فيها

وما كانت طلبات الامة الرومانية ورغباتها تحت حصر ولا حد بل ولا كانت غير مأمونة العاقبة بالكلية بالنسبة لادخال واقامة أى مملكة تحت حوزتهم يعتقدون أن لهم الحق فى طلبها مالم توجد وسائل بها يمكن رفض هذا الطلب ومن عهد بطليموس الاول كانت ملوك مصر فى وداد ومحالفة مع الرومانيين ومن بعد أن يعلن بطليموس محالفته مع رومة تتأكد له سلطنته وتعترف الرومانيون بملوكيته لكن والحالة هذه كان من أكبر المهمات وأصعب الاحوال وأشقها على بطليموس الثانى عشر هذا الحصول بسهولة على الحالة المؤدية لجلوسه على التخت المصرى بواسطة تصديق الرومانيين ومساعدتهم له ومع هذا فانه لم ييأس من أن يحصل له نجاح فى مشروع يجربه وذلك أنه شرع فى اتخاذ الوسائل والاعمال المؤدية الى غاية مرامه ومقصوده الا انه احتاج لزمن طويل وكان عليه من أشق الاعمال وأضيق الاحوال ولربما كان لا ينجح فى هذا المشروع لو لم يكن قيصر قنصلا فى رومة واعتقد بطليموس

النابانى هـذا صاحب الطمع الاشهى أن كل مايجرى به من الوسائل يمكنه له بها تيسر الحصول على أداء أغراضه فمن ثم وقع فى ديون كثيرة زيادة عن طاقته وقال ان الانسان يدرك أغراضه بالنقود و يتيسر له بها الحصول على مالا يمكن الحصول عليه بالحق الشرعى وعلى هـذا بعث له معاهدة رومة بأثمان باهظة جدا اولد منها اضمحلاله ووقوعه فى الديون التى صرفها فى مشترى هذه المعاهدة كأنه أعطى مثل قيمة ثمنها الى بومبى القائد لانه كان يعتقد أن بومبى ظهره فى هـذه الجهة وانه هو المعوّل عليه فى مثل هـذه الحالة المهمة وفى رضا الاهالى وقبول سلطنته عليهم فكان مقدار الثمن الذى دفعه ٦٠٠٠ وزنة من الذهب عبارة عن ٦٠٠٠٠٠٠ استرلينه بحساب كل وزنة ١٥٠ جنيه استرلينه و بهذا الثمن صدّق الامة الرومانية على معاهدته وصار صديقهم وحليفهم

ومع ان مدخول وايراد هـذا الملك سنويا كان ضعف هـذا المقدار المتقدم الا انه ما كان له طاقة على تحصيل نقود أو جمعها من دون أن يضرب ضرائب باهظة على رعيته فضلا عن كون رعيته كانوا على نفور زائد منه وحقد وكراهة له من أجل كونه لم يعلن بأن جزيرة قبرص تابعة من قديم الزمان لمصر واذا صار رفض هذا الطلب لزمه اعلان الحرب على الرومانيين وكان الرومانيون فى هـذا الوقت تغلبوا على سوريا وما جاور مصر من البلاد والممالك وصارت محيطة بأعدائها ولما وجد الامة المصرية ماهم فيه من المتاعب من كثرة الضرائب التى ضربها بطليموس عليهم أخذهم الغضب الاكبر والنفور الاعظم وقاموا عليه مع الصرامة والعنف حتى ألزموه الهرب ليبقى سلامة نفسه وأخفى عنهم طريق وجوده حتى اعتقد المصريون أن بطليموس مات وهلك فأجلسوا بنته طريفانه و برنيس على التخت فماتت طريفانه من بعد مضى سنة واحدة واستقرت الاخرى فى السلطنة

ولما هرب بطليموس الثانى عشر من رعيته نزل فى مركب وسافر متوجها الى رومة فنزل فى جزيرة رودس وكانت على طريقه الى رومة فأخبروه فيها بأن كاطو وصل الى هنا قبله ببضع أيام وكان كاطو هـذا من أجل أفاضل الرومانيين وعظمائهم فحصل لبطليموس السرور الشديد فى انتهازه فرصة المخابرة معه والمداولة فى أشغاله وأعماله وأرسل له فى الحال يعلمه بوصوله الى الجزيرة وانتظر حضوره لديه وقدومه عليه معتقدا فى نفسه أن كاطو متى أخذ خبرا بقدومه يسرع فى مقابلته و يحضر مباشرة لزيارته الا ان الكبر الرومانى والشماخة المتلبسة به منعته عن ذلك وأمر الرسول بأن يقول لبطليموس ان كاطو منتظر حضوره لديه ان كان يرى لنفسه فى ذلك مناسبة وموافقة فمن ثم توجه بطليموس عنده وما كان كاطو فى الوقت على اعتناء من استقباله بطليموس حال قدومه اليه ودخوله فى قاعته عليه بل سلم عليه سلام انسان معتاد وما حصل عنده أدنى نهضة فى القيام له وأمره بالجلوس وقال له اقعد فارتبك عقل الملك وتشتت ذهنه وفكره من حصول هـذه المقابلة الباردة المزرية بمقامه وأخذه الاندهال من الكبر والعظمة الموجودين فى رجل مثل هـذا فى أبسط ما يكون من العيش والمأكل وزاد استغرابه حال افتتاح الكلام بينهما فقد أخذ كاطو يذمه و يلومه و يعنفه بالقول وقال له كيف تركت أظرف مملكة فى ممالك العالم وأحسنها وجعلت نفسك عرضة لفظاظة الذين لا يقنعون بشئ من كثرة ماهم عليه من البخل والشح والشماخة والكبرياء وتحملت أشق الآلام وأكبر المتاعب التى لاحد لها ولا نهاية فقال له بطليموس ولم يرتب من قوله لو أنى بعت من أجلهم جميع ما فى مصر وسلمتهم أثمانه لم يقتنعوا ولم يستكفوا ولم يكن موفيا لشرههم وطلبهم ثم أشار عليه كاطو ونصحه بأن قال له يلزم أن تعود

فى الحال الى مصر وتربط علاقات محبة نفسك مع رعيتك وتمتزج معهم كل الامتزاج حتى تأمن غائلتهم ويأمنوا غائلتك وانى لابد من أن أصحبك اليها وأدبر أحوالك وأعمالك فيها

وبمجرد ما ختم كاطو كلامه استيقظ بطلميوس من غفلة منامه وظن أن ذلك كانه منام وتعقل جميع ما قاله الفاضل الهمام وظهر له الخطأ من الصواب وندم وحزن على تركه مملكته وكان له عقاب وعزم فى الحال على العود اليها الا أن الاصدقاء الذين كانوا معه لما كانت مكاسبهم من جهة پومبى محصورة فى كونهم يتوجهون به الى رومة أشاروا عليه بالعدول عن نصيحة كاطو وأروه ما يعود منها عليه من الضرر والاذى حتى أداروا عقله ووجد نفسه فى المدينة المتكبرة الشامخة الانف وحضوه على ربط علاقاته مع نواب مجلس الاعيان حتى يكونوا معه عونا على ما أصابه من حوادث الزمان فصار يدور على الابواب مثل رجل من الطلاب وما كان القيصر يوليوس فى هذا الوقت موجودا فى رومة بل كان مشتغلا بحرب مشتعل فى الغلية وكان بطلميوس رمى أساسات آماله وما يبغيه من أعماله على هذا البطل الهمام وبما أن پومبى كان موجودا فى رومة أعطاه محلا فى بيته أنزله فيه وامتنع من أن يأكل معه أو يقدم له طعاما يقربه وكان بطلميوس فضلا عن النقود التى أعطاها لپومبى بالاشتراك مع قيصر غرس صداقته ومحبته لپومبى حينما كان فى يهوذا مجريا الحرب فيها بكونه قدم له خدمات جليلة أثناء حربه مع ميثريداطيس وأخذ على حسابه ٨٠٠ فارس ولما قدم بطلميوس شكواه لمجلس الاعيان فى رومة ماهو حاصل من عصيان رعيته عليه وطلب من المجلس الزامهم بالرجوع والانقياد اليه حسبما وعده المجلس الرومانى من كونه يفعل ويؤدى هذا الطلب بمقتضى نص المعاهدة الممنوحة له من مجلس الاعيان نال من حزب پومبى تمام الرضا والقبول فى اجابة طلبه وتكفل القنصل لنطلوس وكانت وقعت صيليصيا من قرعته وهى مفصولة من مصر بساحل سوريا فقط بأن يعيد بطلميوس ثانيا على كرسى مملكته ويخضع له رعيته الا أنه من قبل خلاص مدة قنصلية لنطلوس أخذ المصريون خبرا بأن ملكهم لم يمت كما كانوا يعتقدون بل انه توجه الى رومة فأرسلوا رسلا خطيرة من أجل عظمائهم الى رومة لاجل تبرئة ثورتهم وعصيانهم أمام مجلس الاعيان وكان عدد هؤلاء الرسل مائة نفس وكان رأسهم أحد مشاهير الفلاسفة ويسمى ديون وكان من أعز المحبين للرومانيين فى رومة فلما بلغ بطلميوس هذا الخبر عزم على اجراء الوسائل اللازمة لهلاك هؤلاء المرسلين اما بالسم أو بالسيف وبهذا وقع الرعب والخوف فى قلوب الذين لا يمكنه التعدى عليهم أو قتلهم حتى خافوا من أن يبرؤا أنفسهم أو يطلبوا المحاكمة من أجل الذين قتلوا لكن بما أن هذه القسوة والاعتساف معلومان فى عموم الدنيا ثبت على بطلميوس أنه أكبر شخص مثير للثورات ومهيج للهيجات كما انه عاجز الرأى ضعيف الحكم فمن ثم ارتبكت أموره وتحير فى أعماله وانتظر المدد الطويلة فى رومة يقاسى مشاق الآلام وطول الكلام وعدم الفائدة من مجلس الاعيان حتى سمح له پومبى فى سنة ٥٥ قبل الميلاد وأعطاه مكاتيب من طرفه الى جابنيوس حاكم سوريا وملحقاتها ليساعده على أعماله ويبلغه مأموله ونواله وكان جابنيوس فى هذا الوقت شارعا فى السير لمساعدة ميثريداطيس ملك فرسيا وكان صار طرده بواسطة الملك أخيه من ميديا وكانت وقعت من قسمه ونصيبه وفى أثناء عبور جابنيوس الفرات بجيشه وافاه بطلميوس بجوابات پومبى محب الطرفين وولى الاثنين وكان صار تعيين پومبى قنصلا فى هذه السنة وناشد پومبى فى هذه المكاتيب جابنيوس ببذل همته ومافى

طاقته في خصوص ما يعرضه له الملك من أجل اعادته على كرسي مملكته ومع ما في ذلك من الاخطار والمتاعب الممكن وقوعها فجميع ما حصل من همة يومبي في ذلك كان منتظرا فيه مكاسب عظيمة أو عزيها الى جابنيوس فابتدأ هذا في حياكة الاعمال اللازمة لجلب هذه المكاسب وكذا حصل من أنطونى أحد القواد الهمة التامة في تأييد شكوى بطليموس وحث جابنيوس على فعل ما رغبه بطليموس لان أنطونى أراد أن يشهر نفسه وكان مائلا بكليته لما رغبه بطليموس لان ما أجراه من المدح له والتملق عنده ملأ ضمائر أنطونى وأخذ بمجامع قلبه وعقله زيادة لشهرة نفسه فأمره جابنيوس أن يصحبه الى سوريا وأن يكون قائد عساكر الخيالة وكان أكبر مشروع وأعظم تدبير هو زيادة فكر جابنيوس في أن يكون له حق في أن يأخذ من بطليموس مبلغا جسيما نظير أتعابه وعساكره في مسئلته ولما لم يجد بطليموس بدا من ذلك صار لا صعوبة عنده في الاتفاق معه على أي شرط يشرطه عليه فقدّم له بطليموس له ولجيشه ١٠٠٠٠٠٠ وزنة من الذهب يعني ٢٥٠٠٠٠٠ ليرة استرلينية يدفع من هذا المبلغ الثلثين معجلا لجابنيوس والثلث الباقي يدفعه عند عود سلطنته له فقبل جابنيوس هذه التقدمة من غير ريب ولا تردد

وأما المملكة المصرية فانها كانت ما زالت مستمرة تحت حكم الملكة برنيس وكان بمجرد جلوسها على التخت أرسل المصريون تقديم التاج و برنيس لانطيوقوس اسياطيقوس في سوريا وكانت أمه في فرع صلبي في القرابة وكان أقرب ذكر وارث للتخت المصري ولما توجه الرسل الى سوريا وجدوه مات من مدة ووجدوا له أخا على قيد الحياة اسمه سلفوس ويلقب سيبيوساقطيس قدموا له هذه التقدمة فقبلها منهم وكان برنس امرأة ذولا منهمكا في الشح والبخل وما كان له فكر في الدنيا الا جمع النقود في خزينته وكان أول عمل أجراه بعد أن قدم مصر هو أمره بوضع جثة اسكندر الاكبر في صندوق من بلور مختوم بالذهب وكان لحد الآن لم يمسه أحد فتولد من هذا الفعل ومن أفعال أخرى هيجان الملكة زوجته مع رعيته فقاموا عليه وخنقوه وعجلوا بروحه الى النار وبئس القرار وكان هذا آخر ملوك الجنس الصلبني ثم تزوجت من بعده الملكة واحدا آخر اسمه أركلوس

ثم ان جابنيوس بعد أن عبر نهر الفرات عبر فلسطين وسار مباشرة الى مصر وكان لا يخشى من شئ في سفره هذا سوى الطريق اللازم عبوره منها حتى يصل الى مدينة بلوزه لان هذا الطريق واقع في أرض سهلة رملية لا نبات بها ولا مياه لمشروب الناس والحيوانات فأرسل جابنيوس على مقدمته أنطونى بعساكر الخيالة فضبط جميع المعابر ودروب المرور وتغلب على مدينة بلوزه مفتاح مصر مع ما فيها من المحافظين وأمن الطريق اللازم لمرور باقي الجيش منها وجعل انطونى لقائده آمالا كبيرة من الظفر والنجاح في هذا الحرب وساق جابنيوس مع أنطونى الجيوش والعساكر وتغلبا على مصر بعد أن دافع عنها عساكرها مدافعة قليلة لم تستمر زمنا طويلا وأخضع الرومانيون البلاد والعباد وألزموا الامة المصرية بقبول بطليموس النايانى ولما استحوذ بطليموس على مملكته وجلس على كرسي سلطنته ترك فيها جابنيوس جملة من العساكر الرومانية لاجل حفظ المملكة والمحافظة على شخص الملك ورجع قافلا الى سوريا بعد أن استلم الثلث الباقي من المبلغ الذي كان تعهد بطليموس بدفعه له وأمر بطليموس في الحال بقتل بنته برنيس لانها لبست تاجه في مدة نفيه وطرده وبعد قتلها خلص نفسه من جميع أغنياء الامة المصرية الذين كانوا في حزبه ضادّ له بكونه أمر بقتلهم وضبط أملاكهم وعقاراتهم

و بيعها فى نظير المبالغ الذى أعطاه لها بنيوس وكونه دخل تحت الديون الكثيرة لاجل تأييد مملكته وتوطيد سلطنته

ومات بطليموس أوليطس بعد ذلك فى حالة مستتبة الراحة والامن والسلم فى المملكة المصرية بعد أن حكم أربع سنوات تقريبا من بعد عود سلطنته اليه وكان موته فى سنة ٥١ قبل الميلاد وأراح الله منه العباد

وترك ولدين و بنتين وأوصى بالتخت لابنه الاكبر وكان عمره ثلاث عشرة سنة وكان اسمه بطليموس أيضا ولابنته الكبرى وكان اسمها كليو بطره وعمرها سبع عشرة سنة وأوصى فى وصية تركها من بعده أن الاثنين يتزوجان ببعضهما حسب العادة الجارية فى هذا البيت ويتسلطنان على التخت سوية وبما أن الاثنين كانا صغيرى السن جعلهما تحت رعاية ووصاية مجلس الاعيان فى رومة

وفى مبادى سلطنة كليو بطره وأخيها التى كان مبدؤها فى سنة ٥١ قبل الميلاد كان أخوها بطليموس صغيرا تحت كفالة الخصى بوتنوس واشيلاس قائد جيشه ولاريب أن هذين الوزيرين استوليا لانفسهما على جميع ادارة الاعمال العمومية والادارات السياسية ومنعا كليو بطره من أن يكون لها تداخل فى الاشغال وحرماها من اسم الملك الذى تركه لها أبوها أوليطس فى وصيته فلما رأت ماحل بها من الضرر والاذى ذهبت الى سوريا وفلسطين لتجمع عسكرا من تلك البلاد قاصدة بذلك اثبات حقوقها بقوة السلاح

ومن الامر الغريب أنه فى أثناء الحالة الجارى فيها الشقاق والنزاع بين الاخ والاخت أن بومبى بعد أن انهزم فى واقعة فارساليا هرب مستخفيا الى مصر فى مركب حتى يجد لنفسه فيها ملجأ أمينا ومأوى حصينا يقيه مما حل به من المصائب والاهوال وكان فى السابق هو المدافع والمحامى عن أوليطس أبى الملك المتسلطن فى مصر فى الحال فكان هذا الملك وهو بطليموس مديونا لسيادة بومبى وشوكته فى عود التخت الى أبيه ومنه وصل اليه وكان فى آمال بومبى أن يجد الولد حامدا شاكرا لفضله معترفا بمنه وعدله وان يكون فى سلطنة ودولة يتساعد بها على قضاء أغراضه فعند وصوله الى الساحل المصرى كان بطليموس موجودا مع جيشه على الساحل فيما بين مدينة بلوزة وجبل كاسيوس من جهة العريش الآن وكانت كليو بطره فى رأس جيشها على مسافة قليلة منه فتداول الوزيران بوتنوس واشيلاس مع طيودوطوس محافظ جسم الملك الشاب ومع بعض آخرين وكان بومبى منتظرا فى هذا الوقت نتيجة أقوال هذا المجلس واختار لنفسه أن يكون عرضة لضربة ثلاثة أشخاص قباح حاكمين الملك أحسن له من أن يؤمن على سلامتها القيصر سيطميوس وهو صهره وأكبر الرومانيين فى عصره فاختلف المجلس فى الرأى فقال البعض باستقباله وقال الآخر بعدم استقباله ويذهب من هذه المملكة و يفتش له على مأوى فى غيرها وأما طيودوطوس فكان رأيه مخالفا لهذين الرأيين وذلك انه قال انه يجب علينا خلاص أنفسنا من هذا الرجل بالكلية لاننا لو قابلناه وقبلناه لم ننس القيصر مساعدتنا لعدوه ولربما يبطش بنا وانا لو طردناه بغير مساعدة ومعاضدة وعادت الاعمال اليه فلابد من كونه ينتقم منا نظير عدم قبولنا اياه ومن هذين الوجهين لم يكن لنا خلاص من ضيق الاقفاص ولا الاطمئنان على أنفسنا الا اذا قتلناه ومن ثم يتيسر لنا الحصول على صداقة القيصر وحرمان بومبى من وصوله بالاذى الينا وقال انه على حسب المثل المشهور أموات الرجال لايحصل منها ضرب الرجال

ولما وقعت هذه المشورة عند المجلس موقع القبول وكانت أعظم سلامة لأنفسهم تكفل اشيلاس وسبطميوس وهما قائدان رومانيان في خدمة ملك مصر وبعض ضباط آخرين بقتل بومبي وتوجهوا في زورق صغير لأجل استقباله وجلبه الى الساحل معتلين بأن المراكب الكبيرة لا يمكن قربها من البر من دون أن يحصل لها خطر واصطفت العساكر على ساحل البحر وفي رأسهم بطليموس يظهرون اجراء الاحتفالات اللازمة عليهم الى بومبي ولما توجه الزورق بجانب المركب مد اللخائن سبطميوس يده الى بومبي باسم الملك استاذه وأمره بالحضور الى ملك صديقه كان يظن فيه بومبي أنه حارسه وابنه فحضن بومبي زوجته كورينليا وكانت في هذا الوقت تسكب عبرات دموعها على خدودها من أجل فقده ومن بعد أن كرر بومبي سجعات سوفوكليس وهي كل رجل دخل في خدمة طاغ صار رقاله توجه الى الزورق وعندما صار الزورق بما فيه على مقربة من الساحل ضربوا بومبي بالخناجر أمام عيني الملك وقطعوا رأسه ورموا جسمه على البر وتركوه ملقى على الساحل حتى دفنه رجل اختيار من الرومانيين كان له معلومية به ولا يخفى في هذه الحالة ما حصل لزوجته كورينليا من ذبح زوجها أمام عينها وكذا ما حصل بالبحريين الذين كانوا في المركب مع بومبي وفي مركبين آخرين كانتا تابعتين لها من البكاء والنوح والسعي في أخذ الثار وازالة العار الا أن التلاقيح والرياح هبت على المراكب فخشوا التلف وساروا من حيث جاؤا .

وأما القيصر فانه بذل جهده وسعيه وكده وأسرع في الحضور الى مصر متأملا من أن بومبي تقهقر اليها وقصدها في هربه والاعتماد عليها وأمّل في نفسه أنه يجده فيها على قيد الحياة وبهذا عزم لاجل أن يمكنه الوصول اليها بسرعة على أن يأخذ معه قليلا من عساكره مقدار ٨٠٠ فارس و ٣٢٠٠ من المشاة وترك الباقي من جيشه في بلاد الجريس وآسيا الصغرى تحت أوامر وقيادة قواده ونوابه وأمرهم بأن يجروا ما يعود منه النفع على نصرته ويقيموا حكومته وسلطنته في أنحاء هذه الممالك وأما من جهة نفسه فانه اعتمد على شهرته وصيته ونجاح جيشه في فارساليا وطد جميع الجهات لنفسه ولم يحصل عنده أدنى شبهة ولا تردد في سيره ونزوله في الاسكندرية مع القليل من العساكر الذين جلبهم معه فكان في هذه المسئلة التي أجراها مع الخفة والطيش على وشك الهلاك بما حصل له من التلبك والارتباك وبمجرد نزول القيصر في الاسكندرية بلغه موت بومبي ووجد المدينة في ارتباك وهيجان وقلقلة كبيرة واعتقد طيودوطوس محافظ جسم الملك الشاب انه فعل فعلا جميلا جاء على حسب رغبة القيصر وقدم رأس الرجل الشهير والبطل الخطير بومبي الملتجئ اليهم فلما رآها القيصر ناح وولول وبكى وأن واشتكى وأدار وجهه حتى لا يرى هيئة أوقعت فيه الرعب والانذهال وأمر بدفنها مع الوقار والاجلال وأن يجرى في دفنها الرسوم الواجبة لمثله ولاجل اشهار معزته لبومبي واحترامه لذكراه في الحال والاستقبال استقبل مع الاحتفال التام والاحسان العام والكرم والشفقة كل من كان منتميا الى بومبي وكانوا موجودين في مصر وكتب الى محبيه في رومة ان كانوا حامدين لنصره وشاكرين لفضله فليحافظوا على حياة من كان حمل السلاح معه وأن يوفوهم بأجل الاحسانات ويمتعوهم بأجل الخدمات ويهنؤهم بالحياة ودوام المسرات

ولما رأى القيصر كثرة ما بالمدينة من الفتن والشغب وكثرة الموتى وأن ذلك أخذ في الزيادة يوما فيوما لان المدينة كانت خالية من القانون والحكومة بسبب عدم وجودها كم فيها ورأى انه من المعلوم أن

العدد القليل من العساكر الذين جلبهم معه غير كاف لارهاب أمة على غاية كبيرة من الوقاحة فى الثورات والهيجان أرسل أوامره للفرق الموجودة فى آسيا الصغرى بالحضور اليه على وجه العجلة حسب الامكان وأما هو فما كان فى طاقته ولا قدرته ترك مصر فى هذه الحالة لان الرياح الدورية مستمرة على الدوام ضاربة سواحل هذه المملكة وحاصل منها تلاقيح ورياح شديدة وتوقع منع جميع المراكب من خروجها من الاسكندرية وسفرها الى الجهات الرومية وكانت هذه الرياح شمالية فاشتغل لاجل عدم ضياع وقته بطلب دفع النقود المستحقة له من أوليطس وشرع فى استقصاء الشقاق والنزاع الواقع بين بطليموس وأخته كليوبطره وكان أوليطس لما اشترى معاهدته من الرومانيين بمبلغ ٦٠٠٠ وزنة دفع منه قسما كبيرا وأعطى بالباقى صكا عليه فمن ثم طلب القيصر باقى المبلغ الذى ما كان جرى دفعه لحد الآن لاجل صرفه فى لوازم واحتياجات عساكره وألح فى طلبه مع العنف والشدة فاستعمل الوزير الاول بوثنوس أنواع الخدائع المكر بة ليزيد فى حدة القيصر زيادة عما هو عليه وأخذ بوثنوس فى سلب الهياكل وتجريدها من ذهبها وفضتها التى وجدها فيها ودس عند الملك وأرباب الدولة الاغنياء أن يأكلون فى أوانى الفخار وقصع الخشب وأشاع بان القيصر استحوذ على جميع الاوانى الذهبية والفضية وقصده بذلك ثوران الاهالى عليه

الا أن زيادة ثوران الاهالى على القيصر وحملهم السلاح فى وجهه كان من جهة أخرى وذلك أن العظمة والشماخة التى ظهرت منه فى كونه جعل نفسه حكما قاضيا بين بطليموس وكليوبطره وأمرهما كتهما وحضورهما بين يديه ليحكم فيما هم فيه من الشقاق والنزاع وقال ان كلا منهما يلزم أن يلقى السلاح ويحضر أمامه لاجل المدافعة عن نفسه ويقبل ما يتوقع عليه من الحكم الذى يصدره فى حقه فهذا هو السبب الذى هيج المصريين عليه وحملوا السلاح وقصدوه لان هذا الامر أوقع عند المصريين أنهم فى موقع الذل والانكسار ووجدوه خسة ونقصا وفضيحة فى شرف السلطنة الملوكية خصوصا وان المملكة المصرية فى حالة استقلالية ليس فوق ملكها ملك وليس لمحكمة الحكم على ملكها شئ فأجابهم القيصر فى أثناء هذه الزعزعة والاضطراب أن ما يجريه من العمل والفصل بين الاخ والاخت هو نص ما هو مدون فى وصية اوليطس أبيهما لانه جعل أولاده تحت رعاية ووصاية مجلس الاعيان والامة الرومانية ومن حيث ان جميع سلطة المجلس وشوكة الامة منحصرة فى شخصه فى هذه الحالة بصفة كونه قنصلا فللوصى الحق فى فصل المشاحنة بينهما وان جميع ما يكلفنى أجراؤه لابد من تنفيذه حسب الوصية ويلزمنى توطيد السلم بين الاخ والاخت ولما اقتنع المصريون من هذا الايضاح استتب فيهم الهدؤ والراحة وجعلوا المسئلة وفصلها على يد القيصر وصار انتخاب المدافعين لاجل المدافعة فى المحاكمة كل عن موكله

ولما كانت كليوبطره عارفة جيدا بركاكة القيصر وضعفه رأت أن حضورها أمامه أنفع صلاحا وأرجح ميزانا لتوطيد أشغالها زيادة عن محامى توكله فى مسئلتها بدلا عنها عند قاضيها فأرسلت تقول له ان جميع هؤلاء الذين توكلهم فى قضيتها عن نفسها لابد من كونهم يغشونها ويخونونها وانها تطلب منه الاذن والرخصة فى قدومها اليه وحضورها بين يديه وذكر بلوطارش أحد المؤرخين ان القيصر هو الذى جبرها على الحضور أمامه لتدافع بنفسها عن أمرها

ولما توجهت الملكة الى القيصر لم تأخذ معها أحدا من أحبابها وأصدقائها سوى ابولودوروس

الصقلى ونزلت فى زورق صغير وسارت به حتى وصلت الى تحت أسوار قلعة الاسكندرية ولما رأت فى نفسها أنه لا توجد طريقة تدخل بها القلعة من غير أن تكون معروفة عند الناس دبرت أمر دخولها بحيلة صنعتها وذلك أنها ربطت نفسها فى داخل حزمة من القماش ثم لفها وأدرجها أبولودوروس فى كساء وربط عليها وحملها على عاتقه ودخل بها من باب القلعة الى محل جلوس القيصر يوليوس فتكدر القيصر من هذه الحيلة الا أنه بمجرد وقوع بصره عليها بهره جمالها وأحرق كبده دلالها وشغف بحبها فى الحال ونالت ما كانت تبغيه من النوال

وفى اليوم الثانى أرسل القيصر الى بطليموس وشدد عليه فى أخذها والاتحاد معها ورأى بطليموس بعين اليقين أن قاضيه صار خصمه وهو الحائف عليه فلما علم بهذه الحالة وتحقق أن أخته كانت فى السراى وفى المحل المعد لجلوس القيصر ترك السراى فى حالة شديدة من الحنق والجنون وصار يجرى فى الشوارع الكبيرة من المدينة وقلع تاجه عن رأسه ومزقه قطعا وصار يجره على الارض ويبكى وينوح ودموع عينيه منهملة على وجهه ويزعق بصوت تقشعر منه الابدان ويقول انغشيت انغشيت وأخذ يقص ماجرى له من الاحوال على الجم الغفير من العالم الذين اجتمعوا حوله ودار وابه وفى أثناء هذا كانت المدينة فى شغب وهياج فجعل نفسه فى رأس الامة وساقهم فى ثورة مهولة ليوقع بالقيصر نظير ماحصل منه من هذا الفعل الذى أجراه معه فقبض العساكر الرومانية الذين كانوا مع القيصر على نفس بطليموس وأخذوه وأما الذين لا يعرفون ماجرى من الفعل فانهم تشتتوا فى الحارات والازقة فى هذه المدينة الواسعة ولولا أن القيصر كان فى محل لا يمكنهم الوصول اليه لكان الاهالى سقطوا عليه وقطعوا جسمه ويديه ورجليه من شدة ما كانوا فيه من الحنق الشديد والخطر المبيد وكان القيصر حاضر العقل حتى أراهم نفسه من جهة عالية من السراى لا يخاف على نفسه منهم شيأ ومن هذا الوقت عرف أن الاهالى فى كدر عظيم وغيظ من أجله أليم من الافعال التى أجراها ولم يضعها فى حقيقة مجراها فمن ثم طلب فى اليوم الثانى بطليموس وكليوبطره فى مجلس عقده من الاهالى ومن بعد أن أمر بقراءة الوصية التى تركها الملك المتوفى على أرباب المجلس حكم بصفة أنه وصى مطلق بان بطليموس وكليوبطره يلزم أن يتسلطنا سوية فى مصر حسب نص الوصية وأن بطليموس الاصغر وأخته ارسينوى الصغرى يلزم أن يتسلطنا أيضا فى قبرص وأضاف هذه المادة الاخيرة من عنده لاجل تسكين الاهالى واخماد ماهم فيه من الغيظ والحنق الشديد لما أن الرومانيين كانوا استحوذوا من قبل على تلك الجزيرة لكنه خشى من تهور الاسكندرانيين وغضبهم وخلاص نفسه من هذا الكرب الذى وقع فيه

وفى سنة ٤٧ قبل الميلاد رضى كل واحد من الامة بهذا الحكم وقبله مع انشراح الصدر ماعدا بثونوس الوزير لانه كان السبب الاصلى فى اتساع الخرق بين كليوبطره وأخيها وتسبب فى طرد تلك الملكة من تخت أبيها ورأى أن ملاءمة الاحوال بهذه الحالة يعود عليه بالتلف والخسران فلاجل صده تنفيذ حكم القيصر يوليوس دس بين الاهالى دسائس جديدة وأشعل فى صدورهم نيران الحمية والغضب وقال لهم ان القيصر من خوفه من وجود القوة أصدر حكمه هذا وانه لم يلبث مدة طويلة حتى يلغيه والغرض الاصلى له هو وضع كليوبطره وحدها على التخت وكان ذلك هو الامر الذى يخافه المصريون اذ ما كان لهم طاقة على تحمل امرأة تحكمهم وحدها ويكون لها السلطنة والشوكة دون غيرها فلما رأى بثونوس أن الاهالى رجعوا الى قوله وصاروا معه على أمر جامع أمر اشيلاس بالتقدم فى رأس

الجيش من مدينة بلوزه لاجل طرد القيصر والذين معه من الاسكندرية ولما قرب الجيش من الاسكندرية وقع الهياج والارتباك زيادة عما كان قبل وبما أنه كان يوجد مع اشيلاس القائد نحو من ٢٠٠٠٠ مقاتل ازدرى هذا القائد بالعدو وقلة ما عنده من العساكر واعتقد في نفسه أنه لابد له من أن يتغلب على القيصر وما معه من القوة بمجرد التحامه معه لكن القيصر رتب عساكره بطريقة جيدة في الشوارع ومخارج وفتحات حارات وأزقة الثمن الذى كان مستحوذا عليه من المدينة حتى صار لا يصعب عليه بأى طريقة كانت تعضيد ومساعدة عساكره وقت حصول أى هجوم يقع من المصريين عليهم في أى جهة من جهات ثمنه ولما وجد اشيلاس وجيشه أن لا طاقة لهم على التغلب على القيصر وعساكره بدّل القائد حركته وسار نحو المينة قاصدا في ذلك التغلب على الاسطول وقطع طريق وصول القيصر الى البحر وحرمانه من وصول أى مدد أو تقوية أو ذخائر تأتى اليه من هذه الجهة الا أن ما أجراه القيصر من أعماله خيب سعيهم وأضعف كدهم وذلك انه أمر بحرق الاسطول المصرى واستحوذ لنفسه على برج الفنار واستحفظه وحفظ طريق مواصلته مع البحر ومن بعد هذا صار لا يخشى أدنى تأثير من أعمال المصريين وفي أثناء حريق الاسطول ارتمى بعض المراكب التى شبت النار فيها على رصيف المينة فأمسكت النار الموجودة فيها بالبيوت والمساكن المجاورة للرصيف ومن هذه الجهة امتدت النيران الى جميع خط بروشيون الموجود فيه دار الكتب المشهورة فامسكت النار فيها وأحرقت هذه الدار بما فيها من الكتب النفيسة كما ذكرنا ذلك في سلطنة بطلموس فيلادلفوس وكانت هذه الكتب أشغال ملوك جمة وعددها نحو من ٤٠٠٠٠٠ مجلد

ولما رأى القيصر نفسه في خطر شديد أرسل الى كافة الممالك المجاورة له في مساعدته وكتب لآخرين من ضمنهم دوميطيوس غالفنوس وكان القيصر تركه قائد العساكر في آسيا الصغرى وبين له ما هو فيه من الشدة والخطر وانه على شرف الهلاك ان لم يسعفه بالامداد والعساكر ففرز هذا القائد فرقتين من العسكر أمر بتسفير احداهما من طريق البحر والاخرى من البر فأما الفرقة التى سافرت من البحر فانها وصلت الى القيصر في الوقت المحدد وأما التى سافرت من البر فانها لم تصل اليه أبدا وكان أعظم معين في هذه المسألة وأكبر مساعد للقيصر في هذا الحرب متريداطيس البرجامنيانى وكان أرسله القيصر الى سوريا وصيليصيا ليأتيه بالعساكر الذين ينجدونه من شدة هذا الخطر كما سنذكره بعد وفي أثناء انتظار القيصر المساعدات التى أرسل من أجلها وكذا لاجل عدم تداخله في محاربة جيش أكبر منه عددا وقوة حتى يأتى له الامداد والاسعاف أمر بتحصين ثمن المدينة الموجود تحت يده تحصينا تاما وأحاطه بأسوار وجاه بأبراج واستحكامات أخرى فكان من داخل هذه الاسوار السراى الملوكية والملعب أى التياترو الموجود بالقرب منها فقلب القيصر كل ذلك وعمله قلعة رصينة استعملها في حربه مع المصريين وكذا حصن الطريق الموصل للمينة وكان في هذه المدة بطلموس تحت قبضة يده ومعه الوزير بتونوس مربيه ووزيره الاول فكان هذا الوزير في مخابرات مع القائد اشيلاس يخبره بكل ما يحصل من القيصر فكتب له يوما من الايام بالذى حصل فيه ويشجعه ويقويه على دفع الهجوم بقوة وعنف فضبط القيصر أحد جواباته وظهرت خيانته له وخباثته فأمر القيصر بقتله ومن بعد قتله ظهر خصى آخر أصله من طواشية السراى اسمه غانيميديس (غانم) حصل بينه وبين القيصر أعمال ومبارزات كبيرة وأفسد عليه المياه الموجودة في داخل المدينة حتى صار لا يجد لنفسه ولا لعساكره

مياهها للشرب بعد فراغ مياه الصهاريج فالجبر القيصر على حفر آبار للشرب منها ولو أن مياهها ليست عذبة مثل مياه النيل ثم ورد الخبر للقيصر بأن الفرقة التى أرسلها غانيموس من طريق البحر وصلت الى ساحل ليبيا أى برقة فأخذ أسطوله وتوجه بجلبها فهجم عليه غانم الطواشى بالاسطول المصرى الا أنه لم يحصل له فى ذلك ثمرة وكان سعيه وكده على غير طائل وجلب القيصر فرقته الى داخل المينة واستمرت المبارزات والاعمال الحربية جارية مدة حتى ان أهل الاسكندرية كلوا وتعبوا وأخيرا لما رأوا أن لانجاح لهم فى ذلك وأن القيصر أخذت قواه فى الزيادة يوما فيوما وجهوا أفكارهم الى السلم وحصول الأمن أو الى أى حالة كانت تحصل بينهم وبين القيصر فى شأن استتباب راحتهم وأرسلوا من طرفهم نوابا عنهم الى القيصر يطلبون منه ملكهم وأوعدوه بأنه متى كان بينهم وفى رأسهم ربما تنتهى هذه الاختلافات وتنفصل هذه المبارزات ولما كان القيصر على دراية تامة من غشهم ومكرهم فما كان على خسارة لو منحهم طلبهم وتبصر فى رده اليهم وقال فى نفسه من نكث فانما ينكث على نفسه وأحضر الملك ومنحه حريته التامة ونصحه فى كونه ينتهز هذه الفرصة ويحض رعيته على السلم واستتباب الراحة ويحثهم على عدم اجراء ما يتولد منه الخراب والدمار على المملكة المصرية وأظهر القيصر لبطليموس حبه وصداقته لابيه المتوفى وما أداه له من الخدمة الجليلة فى استرداد التخت اليه بعد أن كان فقده وكان بطليموس هذا تعلم شيأ من المكر والخداع وصار يبكى ويسيل عبرات دموعه على خدوده أمام القيصر كهانة منه ومكرا حتى يبلغ مأمنه ويتقلد زمام سلطنته ولما انفلت بطليموس من بين يدى القيصر واجتمع برعيته فما أسرع كونه صار فى رأس جيشه وجدد المبارزات والمحاربات زيادة عن الاول واجتهد المصريون بواسطة اسطولهم فى قطع الذخائر الواردة للقيصر بالكلية حتى تولد من ذلك حرب جديد فى البحر فى جهة مدينة كانوب (أبوقير) وعند حصول هذه الواقعة كان ميثريداطيس البرجامنيانى على شرف الوصول بالجيش الذى جلبه لمساعدة القيصر وبمجرد وصول ميثريداطيس وانطيباطير بالجيش من جهة سوريا الى مدينة بلوزه (الفرما) تغلب الاثنان على هذه المدينة بالهجوم عنوة وكان فخر النصر فيها منسوبا الى انطيباطير لانه كان أول مخاطر بعساكره فى الهجوم عليها من الثروم التى فتحت فى أسوارها ومن التغلب على هذه المدينة تقدم الجيش فى سيره حتى وصل الدلتا فانفصل بطليموس من جيشه قسما من العسكر ليصدوا جيش ميثريداطيس من عبور النيل ومن هذا انتشبت محاربة شديدة جعل ميثريداطيس نفسه فيها قائد قسم من جيشه والقسم الآخر جعله تحت قيادة انطيباطير فانكسر فى أثناء الواقعة الجناح الموجود فيه ميثريداطيس وانجبرت عساكره على الفرار وكان انطيباطير هزم المصريين من جهته وسار لمساعدة وخلاص ميثريداطيس وابتدأ الاثنان فى الحرب سوية ثانيا فهزما عدوهما وسار ميثريداطيس وانطيباطير خلف العدو يقتلون ويأسرون وحصل لهم بذلك النصر والظفر وتغلبوا على معسكر المصريين وجبروا ما بقى من عساكر عدوهم على الفرار وعبورهم النيل

ثم من بعد هذا تقدم بطليموس بكافة جيشه قاصدا فى ذلك قهر عدوه وسار قيصر أيضا لمساعدة قواده وبمجرد التحاقه وانضمامه معهم كانت هى الواقعة الفاصلة التى حصل فيها النصر الكبير والظفر الخطير للقيصر وعساكره واجتهد بطليموس فى نجاة نفسه وأراد الهرب ونزل فى قارب فى النيل فغرق فيه ولم يظهر له خبر ولا جلية أثر وبهذا خضعت الاسكندرية وجميع المملكة المصرية للقيصر فاتح

ديارها والقامع لسكانها ثم عاد القيصر الى الاسكندرية ولما لم يجد له فيها مقاوما ولا مضادا لاوامره ألبس تاج المملكة المصرية لكليوبطره وجعل أخاها بطليموس الاصغر مشتركا معها

وكان عمر بطليموس الاصغر فى هذا الوقت احدى عشرة سنة وفى مدة صغره كانت جميع السلطة والشوكة فى يد أخته كليوبطره ولما بلغ عمره خمس عشرة سنة وهو بلوغ رشده حسب شرائع المملكة المصرية صار حاكم نفسه بنفسه وصار له نصيب فى الملك فسمته أخته وقتلته وتقلدت زمام المملكة على حدتها وكان ذلك فى سنة ٤٣ قبل الميلاد وفى هذه المدة قتل القيصر يوليوس بواسطة ثورة قامت عليه كان رأسها بروطوس وكاسيوس فتشكل لاجل الاخذ بثاره من الذين كانوا سببا فى قتله تحالف ثلاثى بين مارك انطونى وليدوس والقيصر أوكطافيانوس وأعلنت كليوبطره نفسها من غير تبصر ولا تردد بدخولها فى هذا التحالف الثلاثى فى سنة ٤٢ قبل الميلاد وأعطت اليانوس نائب القنصل دولابالله أربع فرق عسكرية كانوا من بقايا جيوش بومبى وقراصوص وجندت قسما من العساكر الذين كان تركهم القيصر عندها للمحافظة على مصر وكان عندها أيضا أسطول مستعد للسفر الا انه من كثرة وجود التلاقيح والنوتيا كان للاسطول قدرة على السفر وجعلت كليوبطره كاسيوس القائد على الاربع فرق تابعنها فى المساعدة وعزمت على عدم التوجه بنفسها لكنها من بعد مضى مدة قليلة سافرت بأسطول كثير العدد من المراكب لاجل انضمامها مع أنطونى وأوكطافيانوس فخرج عليها النوّ فى البحر وأغرق الكثير من مراكبها وحصل لها مرض شديد أوجب عودها الى مملكتها

وفى سنة ٤١ قبل الميلاد بعد أن هزم انطونى بروطوس وكاسيوس فى واقعة فيلبى انتقل الى آسيا لاجل اقامة سلطة التحالف الثلاثى فيها فلما وصل اليها وردت عليه ملوك الشرق وأمراؤه وسفراؤه فى زحام كبير يقدمون له احتراماتهم فبلغه فى أثناء ذلك أن حكام فينيقية التابعة للمملكة المصرية أرسلوا كاسيوس مساعدة ضد القنصل دولابالله فطلب انطونى محاكمة كليوبطره ملكة مصر أمامه فى مجلس مركب من أهل المملكة لتجاوب عما أجراه حكامها فى شأن هذه المساعدة وأرسل اليها أحد نوابه ليلزمها بالحضور فى صيلصيا فكان هذا الشغل مشؤما على أنطونى واستمر فى المصائب والبلايا التى حلت به من عشقه كليوبطره وغرامه بها حتى هلك ومات من بعد أن أصابته الآفات وفارقه العقل ولذيذ الحياة .

وذلك أن كليوبطره وطدت تعاويذها وأحرازها فى دلال جمالها ونجحت فى أشغالها وأعمالها كما كانت ألقت ملاحة قوامها وبهجة جمالها على القيصر يوليوس حتى سلبت عقله وأذابت لبه ونالت ما كانت تبتغيه بسحر عيونها وحمرة خدودها وجمال وجهها فكانت فى هذه الحالة أيضا على آمال كبيرة من أنها تأسر انطونى كما أسرت القيصر يوليوس قبله وزيادة لان القيصر يوليوس كان عرفها وهى شابة صغيرة ما حنكتها التجارب الدنيوية وأما فى الحالة هذه المتوجهة فيها للحضور أمام أنطونى فانها فى عمر النساء مع ازدهاء جمالها ورقة خصرها وبياض وجهها وما هى مشتملة عليه من قوى الحذاقة والمهارة ومن كثرة تداخلها فى الاشغال والاحكام والتدبير فى حكم الامراء والعوام وكان عمر كليوبطره فى هذا الوقت خمسا وعشرين سنة فجهزت نفسها بهدايا فاخرة ومبالغ من النقود وافرة وملابس جليلة وزخارف جميلة ومع ذلك فان جمالها ورقة عذوبة كلامها وما هى عليه من الدلال والكمال كان هو مبلغ آمالها زيادة عن ذهبها وملبوسها وشرعت فى سفرها وفى حال سفرها تناولت

عدة مكاتيب من أنطونى وكان فى هذا الوقت فى طرسوس وبعض أصدقائه يحضها ويحثها على السفر وسرعة وصولها اليه فضحكت على تشوقهم وتلهفهم ولم تأخذلها أهمية فى سرعة طلبهم ولما عبرت بحر بمفيليا ودخلت فى نهر سيدنوس سارت مصعدة فى هذا النهر حتى نزلت فى طرسوس وما شوهد مطلقا فى الايام السابقة نظير زورق مثل طقم زورقها لما كان عليه من الابهة والفخر والفخامة والاجلال فكان مؤخر هذا الزورق من الذهب الخالص وشراعاته من الارجوانى ومجاديفه مرصعة بالفضة ومشرع فى مؤخر الزورق مظلة من زركشة ومخيشة بالذهب جالسة تحتها الملكة يضئ لونها مثل كوكب الزهرة محاطة بأجمل العذارى من سراياتها وغالبهن من بنات الجريق وكانت آلات الطرب مثل النايات والمزامير والاعواد والقوانين تضرب بين يديها بدل الطبول وكانت أهوية هذه الآلات الموسيقية فى الضرب موافقة لجر المجاديف فى البحر وكان أرباب المجاديف يرتاحون قليلا لسماعها وجاد حرق البخور وعود الند فى مباخر من الذهب فوق سطح القارب ور وائح هذه العطريات منتشرة على مسافة عظيمة من شاطئ النهر وعلى كل من شاطئ هذا النهر عالم لا يحصى وزحام لا يستقصى جذبهم اليها هذا المنظر العجيب والكوكب الزهرى الغريب ولما أخذ أهل طرسوس خبرا بحضورها هرعوا الملاقاتها من كل فج فج واتفق وقت حضورها أن كان مجلس أنطونى أخذ فى التجمع فخرج أرباب المجلس والمحكمة من عند أنطونى وتوجهوا للفرجة على كليو بطره وتركوا أنطونى وحده مع خدمه فقط وانتشرت الاشاعة فى كل جهة أن المعبودة الزهراء وصلت الى هنا لاجل زيارة بخوس الاله شاكرة له على ما فعله من الطيبات فى آسيا

وعند نزول كليو بطره من زورقها على البر أرسل لها أنطونى مسرعا تهنئة بسلامتها ودعاها الضيافته فى العشاء معه فأجابت نوابه بقولها انها فى غاية السرور والحظ الموفور وقت انشراح صدرها بحضورها بين يديه والتمتع بمشاهدة عينيه لكنها منتظرة حضوره فى الخيمة التى أعدتها ونصبتها بساحل النهر فلم يجد أنطونى مانعا يمنعه من ذهابه اليها فتوجه عندها ولولا خوفه لقبل رجليها بعد أن لثم يديها لما وجده عندها من الاستعدادات والابهة التى كل وصف أنطونى عن شرحها وانبهر على الخصوص من جمالها ورقة خصرها وعذوبة لفظها وتقاطيع وجهها حتى شغف بغرامها وكاد يختل عقله من قوامها وهيئة نظامها وضوء وجهها الذى يجعل الليلة الشديدة الظلام نهارا ساطعا خاليا من السحاب والغمام

وفى اليوم الثانى دعاها أنطونى الى وليمة عظيمة أعدها لها وبذل جهده وطاقته فى استعدادها الا أنه مهما كان من اجتهاداته فما فاق عنها فى تحضيراته واستمر أنطونى مع كليو بطره فى ضيافات وكرامات وأكل وشرب ولذات وصار لا يسأل عما يكون حتى أحاطت عساكر الاعداء بالممالك الموجود هو فيها وأرادوا التغلب عليها فتوجه اليهم وهزمهم ورجع سريعا الى كليو بطره وقدم لها كل ما ترجوه وتبغيه وأمر بقتل أختها ارسينوى عن رغبتها حتى لا يكون لها منازع بعدها واستمرا فى لذاتهما وشرب مدامتهما وبهذا صار أنطونى عبدا لكليو بطره وصار على وجهه غبرة ترهقها قترة ولما رأى أنطونى ما هى عليه كليو بطره من الترفه بالنعم الجليلة والمصاريف والاحوال الجميلة سألها بجدة وحرارة وقال لها ما الذى تريدين أن تضيفيه على ما أنت فيه من هذا المجد والسعد والسودد فأجابته كليو بطره بجواب بارد فى امكانى صرف ما ينوف عن مليون من الجنيهات فى عشوة واحدة لنفسى فقال هذا افتخار وعجب فقط والا فلا يمكن الحصول على ذلك أبدا فعقد الاثنان رهانا على ذلك ولما جلسوا على المائدة فى اليوم

الثانى وأكلوا ككانت الاطعمة على غاية من الافتخار الا أن أنطونى ماوجد فيها شيأ خارقاً للعادة فحسب أنطونى مصروف المائدة وسأل الملكة عن أثمان أوانيها وقال لها مع الاستهزاء والسخرية كأنه هو المنصور وعليها ان ذلك أقل بكثير من مليون فقالت له الملكة انتظر هذا هو المبدأ وانى سأجتهد هل يمكننى أن أصرف على نفسى فقط مليونا من الجنيهات أولا وأمرت بمائدة ثانية لم يكن عليها شئ حسب العادة الجارية سوى كأس ملآنة بالخل فاستغرب انطونى من مثل هذا الاستعداد ولم يتصور فى ذهنه ما الذى سيحصل وذلك أنه كان فى حلق كليوبطره لؤلؤتان من أحسن وأظرف وأفخر اللآلئ وكان قيمة كل واحدة منهما ٥٠٠٠٠٠ استرلينه ففكت واحدة من الاثنتين ووضعتها فى الخل وانتظرت حتى تحللت وأخذتها بيدها وبلعتها وأرادت أن تفعل بالاخرى كما فعلت بالاولى فمنعوها وثبت لها الرهان وغلبت أنطونى

ومع ما كانت عليه كليوبطره من الانهماك فى اللذات وكثرة المصاريف كان لها ذوق وملكة عظيمة فى الآداب والعلوم حتى انها شيدت فى المحل الذى كان فيه دار الكتب القديمة التى حرقت دار كتب أخرى جديدة وكان الفضل فى زيادة كتب هذه الدار لانطونى فانه أهدى لكليوبطره جميع الكتب التى كانت موجودة فى دار الكتب بمدينة برجاموس وكان عددها ينوف عن ٢٠٠٠٠٠ مجلد وما كان جمعها الكتب من أجل الزينة والزخرفة بل كانت تستعملها فى مطالعتها الا انه كان يوجد بعض من الامم المتبربرة وكانت مجبورة على المحادثة معهم بلغاتهم بغير ترجمان فكانت على دراية تامة من اللسان الحبشى والطروغلوديطى والعبرى والعربى والاشورى والفارسى وغير ذلك وكان لها دراية بمعرفة لغات أخرى ما كان للملوك الذين تسلطنوا قبلها فى مصر دراية بها حتى كان البعض منهم لا يعرف اللسان المصرى وكانوا نسوا لغاتهم الاصلية المقدونية

وكانت كليوبطره تدعى أنها هى الزوجة الشرعية لانطونى ولما رأته تزوج أوكطافيا عليها أخذها الاضطراب والروع ونظرت اليها بعين العداوة فسكن انطونى روعها والتزم أن يقدم لها هدايا فاخرة فأهداها ممالك فينيقية وسوريا السفلى وجزيرة قبرص وقسما عظيما من صيليصيا وأضاف الى هذه الجهات قسما من يهوذا وبلاد العرب فتولد من هذه الهدية الكبيرة نقص كبير فى المملكة الرومانية وحصل الغضب من جهة الرومانيين على أنطونى بشأن المكارم العالية التى أجراها مع مثل هذه الملكة الاجنبية

وتولد من شغف أنطونى بحب كليوبطره خفض شرفه وتنازلت درجة مقامه وكان كلما توجه الى حرب أو زيارة فى رومة أولاً عجل أسرع فى الرجوع الى الاسكندرية لاجل التمتع والتلذذ بمؤانسة كليوبطره ومشاهدتها ولم يبال بالاشغال الواجبة عليه تمت أو لم تتم وسنذكر فيما سيأتى ماوقع بين انطونى وكليوبطره عندذكرنا تاريخ رومة فى الجزء الثانى من هذا الكتاب وما بقى علينا الا أن نقول انه فى سنة ٣٠ قبل الميلاد لما تغلب الرومانيون على عاصمة كليوبطره قتلت نفسها بنفسها وصارت مصر اقليما رومانيا وبها انقرضت العائلة البطليموسية من بعد مدة مقدارها ٢٩٣ سنة والله يؤتى ملكه من يشاء وهو القوى العزيز

الباب الرابع

﴿ من ابتداء التغلب الرومانى الى الوقت الحالى ﴾

مصر ايالة رومانية ـ الابهة الآدابية فى الاسكندرية ـ الديانة المسيحية فى مصر ـ ضعف واضمحلال مصر العليا ـ صيرورة زنوبيا ملكة مصر ـ خراب مصر ودمارها ـ انقراض العنصر الجريقى ـ قيام القبط وتحزبهم ـ الجور والتعدى على مسيحى المصريين ـ تشييد الديانة المسيحية تحت سلطنة قسطنطين ـ الاختلافات الاريانية ـ مجلس نقيا ـ الظلم الذى وقع على الاريانيين ـ تدميرهيباكل الاوثان وخرابها ـ هوى الديانة الوثنية على الديانة المسيحية ـ كيريل ـ هباطيه ـ تدمير مصر العليا ـ تغلب الفرس على مصر ـ تشييد الكنيسة القبطية ـ قيام المسلمين ـ فتح عمرو بن العاص مصر ـ أخذ الاسكندرية ـ صيرورة مصر ايالة عربية ـ نشر الديانة الاسلامية ـ قيام الخلفاء الفاطميين ـ تغلبهم على مصر ـ تجزئة المذاهب الاسلامية ـ الحاكم بأمر الله الفاطمى ـ انقراض سلسلة الفاطميين من مصر ـ يوسف صلاح الدين ـ تغلب يوسف صلاح الدين على فلسطين وسوريا ـ المماليك ـ تغلب المماليك على مصر ـ تغلب الاتراك العثمانية على مصر ـ صيرورتها ايالة تركية عثمانية ـ تغلب نابليون بونابارت على مصر ـ محمد على باشا ـ حيلته فى ذبح المماليك وانقراضهم ـ مساعيه فى استقلالية مصر ـ الثورة الجريقية ـ عصيان مصر على الدولة العثمانية ـ مظفرات ابراهيم باشا ـ تغلبه على سوريا ـ تداخل الدول الاوروباوية ـ حصر مصر فى حدودها الاصلية ـ عباس باشا ـ مبادى الاشغال فى السكة الحديدية ـ سعيد باشا ـ مبادى الشروع فى فتح خليج السويس ـ اسماعيل باشا ـ سرعة التقدم فى مصر تحت حكمه ـ المظالم والديون ـ خلعه وخروجه من الديار المصرية ـ محمد توفيق باشا ـ جلوسه على الاريكة المصرية ـ مبادى الثورة الوطنية ـ تداخل انكلترة وفرانسا ـ خروج فرنسا عن التداخل وبقاء انكلترة على حدتها ـ وصول النائب العثمانى ـ ورود الدونمات الانكليزية والفرنساوية بمصر ـ اعلان الحرب من الاميرال الانكليزى ـ تقرير وجوب الحرب بمجلس عقد تحت رياسة الخديوى والنائب العثمانى ـ ضرب الاسكندرية ـ عدم مقاومة العساكر المصرية وتقهقرهم تحت قيادة أحمد عرابى الى كفر الدوار ـ هزيمة أحمد عرابى فى التل الكبير ـ ضبطه مع المنتمين اليه وحبسهم ومحاكمتهم ـ نفيهم الى سيلان بعد الحكم عليهم بالاعدام ـ وصول المنفيين الى سيلان وتوطنهم فيها والحالة التى استمروا فيها ـ الثورة السودانية ـ محمد أحمد الملقب بالمهدى ـ تدمير الجيش المصرى فى السودان ـ تنازل مصر عن السودان ـ تغلب محمد أحمد على الخرطوم وموت غوردون وكسر العساكر الانكليزية ـ هزيمة العساكر الانكليزية فى سواكن وجهاتها ـ هزم العساكر المصرية عثمان دجنه بجهة سواكن ـ هزم العساكر المصرية عساكر المهدى تحت قيادة ابن النجومى بجهة وادى حلفة ـ وفاة الخديوى توفيق باشا وجلوس سمو البرنس عباس باشا على الاريكة الخديوية

ا ـ تميزت مصر ايالة رومانية زيادة عما ينيف عن ثلاثة قرون وكانت تحت حكم الامبراطورات القديمة أرفع جميع الايالات الرومانية وكانت على حالة جيدة النظام من المعاملات ولو أنها كانت محكومة

بأحكام شديدة الا أنها كانت معتبرة فى حد ذاتها أنها احدى الممالك الرفيعة الدرجة فى المملكة الشاسعة الرومانية وكانت مصر منبعا أصليا تجر منه ازومة ما يلزم لها من الحبوب والغلال ومحكومة بعمال من طرف الحكومة الرومانية وكان الملوك الرومانيون يزورونها فى كثير من الاوقات

وفى أثناء هذه المدة كانت الاسكندرية هى المقر الاصلى والمركز الرئيسى لعلوم الدنيا القديمة وآدابها وصنائعها وفنونها وصيرتها كتبخانتها العجيبة ودار معارفها الغريبة وتجمع الحرف والصنائع النادرة الوجود فى غيرها أرقى محل وأجل مقر وأكبر مأوى للعلماء وأرباب الآداب يهرعون اليه أفواجا من كل فج عميق لاكتسابهم المزايا النافعة والتألفات المدنية اليانعة

ولما انتشرت الديانة المسيحية مع السرعة فى عالم الدنيا كانت مدينة الاسكندرية هى مركزها الاصلى ومن هذا الوقت شرع المصنفون من المسيحيين فى أن يكون لهم امعان تام وتنبه عام وتصنيفات عظيمة تعادل أعظم تصنيفات أكبر الفلاسفة الوثنيين

وفى أثناء هذه المدة أخذ سكان مصر العليا فى الضعف وسرعة الانحطاط حتى انه فى سلطنة الامبراطور قومودوس التى كانت من سنة ١٨١ الى سنة ١٩٤ بعد الميلاد صرف سكان مصر العليا ما كانوا يملكونه من الثروة والغنية وتدمرت جمائل تجارتهم وقوافلهم من قفط الى البحر الاحمر وصار لا يأتى لهيا كلها ومعابدها أدنى محصول من أوقاف البلاد المجاورة لها الادون الطفيف وبما أن بلاد النوبة عبارة عن صحارى شاسعة صار القليل من العساكر فى أسوان فيه الكفاية لخفر مصر العليا من غارة الحبشيين والنوبيين وصار لا لزوم لارسال مذنبين أو مجرمين فى جهات واحات سيوه بل صار من الكفاية نفيهم فى الضواحى المجاورة لمدينة طيوه وحصل الضجر والكدر لمصر السفلى من عدم وجود النظامات واختلال الحالات التى أعقبت سلطنة اسكندر صفروش من سنة ٢٢٢ الى سنة ٢٣٥ بعد الميلاد لانه حصل فى أثناء هذه المدة ثورات وهيجان امتد زمنا طويلا بلا حصل منه تغيير واستبدال فى الشوكة الامبراطورية الرومانية فأما القحط الذى كان نادر الوجود فى مصر فانه صار يزورها فى الغالب وصار من أجل أصدقائها وأعز أحبابها وأخذ الفقر مدة فى الزيادة حتى بلغ أقصى النهاية

وفى السنة الاخيرة من سلطنة جاليانوس نكثت زنوبيا ملكة بالميرا (تدمر) صداقتها للمملكة الرومانية وكانت حليفة من قبل لرومة وهزمت الجيوش التى أرسلها جاليانوس لمحاربتها والغارة عليها ثم سارت قاصدة مصر لتأخذها وتضيفها الى ممالكها وكانت ممالكها محصورة فى سوريا وآسيا الصغرى وأعلنت نفسها أنها من نسل كليوبطره الملكة الاخيرة لمصر وانضم اليها قوة عظيمة من المصريين ومع هذا كان كدها وسعيها على غير طائل ثم جددت هذا السعى من بعد موت قلوديوس فى سنة ٢٧٠ بعد الميلاد وفى هذه المرة نجحت فى سعيها وملكت زنوبيا جميع المملكة المصرية وصارت مصر ايالة سورية مدة ما من الزمن واعترف أورليان فى الابتداء بأن زنوبيا رفيقته فى المملكة ومن ثم كانت النقود الجارى ضربها فى الاسكندرية يرسم عليها من جهة رأس أورليان وعلى الاخرى رأس ملكة بالميرا ومن بعد مضى قليل من الزمان سار أورليان مغيرا على زنوبيا وهزمها وأسرها وأضاف مملكتها الى أراضى المملكة الرومانية فبهذا عادت مصر مرة أخرى ايالة رومانية

ثم حصل فى مدة المملكة الرومانية عدة ثورات كانت على غير طائل واستمر أكبر هذه الثورات لمدة تسع سنوات الى أن صار اخماد هذه الثورة المهولة بغاية الشدة والصعوبة بواسطة الامبراطور دوقليطيان

نفســـه وذلك أنه تغلب فى حروبه على المدائن العـديدة من مصر وخربها ودمرها وتغلب على مدينـة الاسكندرية عنوة من بعد أن حاصرها ثمانية أشهر وأحرق قسما عظيما من هذه المدينة وقتل الكثير من أهاليها بالسـيف فى سنة ٢٩٧ بعد الميلاد وقاست مصر من هذه الثورات أشد المصايب والكروب وعلى الخصوص من الثورة الاخيرة فانه بها تم الخراب وعم الدمار وتعطلت التجارات والمعاملات فى عموم وادى النيل وطمت ترع الرى والخلجان المعدة لرى الاراضى وصارت حالة الزراعة فيها من أقبح الاحوال وعدم حصول المنافع واندثرت التجارة وخربت معامل الاشغال الصناعيـة من كل صنف وأخيرا المـا نجات مصر من هذه الثورة الكبرى وكانت المملكة فى اختلاف وشقاق بين أضافها أغسطوس وجعلها أحد أقسام مملكته وصار خلفاؤه من بعده يعتبرونها كأنها احدى الجواهر الثمينة فى تيجانهم وتولد من هذه الارتباكات الداخلية تغييرا آخر وذلك أن عمود الالفة المدنية ارتج وأخذ عدد الجريق فى النقص والقلة الا أنه مازال ثقيلا فى الوزن وما كان حصل من سقوط دولة البطالسة وغلبة الرومانيين تغيير كبير فى المملكة وابتدأ ظهور الايام الساطعـة لمصر حالما كانت مملكـة جريقية فى الزهو والضـياء فى الاسكندرية وانتهت بثورات ضـد كل من جالينوس وأورليان ودوقليطيان وذلك أن وطنى المصريين من قبط وعرب قاموا فى ثورة على وجه الاعلان فقط بسبب ماحل بهـم من الغرق فى داخـل الحضارة الجريقيـة وقامت الطوائف العاليـة من القبط وبطشـوا بهـذه العائلة ذات الاولاد الجالبة عليهم الارتباكات فى وقت وانقضوا عليهم ألوفا ألوفا وألجؤهم الى المعابد والهياكل ومن ذلك انقرض العنصر الجريقى من مصر

ولقـد انتشرت الديانة المسيحية بسرعة فى مصر كما ذكرنا وسمح للمسيحيين من عهد سلطنة جالينوس فى بناء كنائس وعقد جمعيات عمومية وفى هـذه المدة ظهر كثير من الاذكياء والاجلاء من بين هذه الجمعيات وفى سنة ٣٠٤ بعد الميلاد شرع الامبراطور دوقليطيان فى تدمير الدين المسيحى من كافة المملكة بكونه أوقع ظلما وجورا اضطهاديا وما كان هـذا الجور فى مكان أشد مما هو عليه فى مصر وهلك فيه الجم الغفير من المسـيحيين ومع هـذا فانه لم يمنع زيادة تقـدم ونمو هذا الدين الجديد بل أضاف ألوفا من الناس للدخول فيـه ثم انتهت هذه الفظائع فى سـلطنة قسطنطين الاكبر بكونه جعل الديانة المسيحية هى ديانة مملكته وكان المسـيحيون فى اتحاد بينهم حال وقوع الجور عليهم ومن بعد تشييد دينهم بالظفر والغلبة ظهر فيما بينهـم التجزئة والانقسام وساقهـم الى مشاحنات ومخاصمات آلت الى سفك الدماء وقتـل الانفس ومن بعـد أن صارت القسطنطينية عاصمة المملكة فى سنة ٣٣٠ بعد الميلاد صار تاريخ مصر فى ظرف ثلاثة قرون تسجيل مشاحنات ومخاصمات فيما بين أرباب الاديان وكان يتولد من هذه المشاحنات فى الغالب ثوران وهيجان تسـفك فيه دماء كثيرة تجرى كالانهار فى شوارع وحارات الاسـكندرية بين المسيحيين وبعضهم أو بين المسيحيين والوثنيين وبمجرد انفصال المشاحنات مع الوثنيين انقسم المسيحيون فى مصر والاسكندرية الى حزبين فى مسئلة هل الابن من مادة واحدة مع الاب أو من مادة مشابهة لها فقط

وكان أول هذه المشـاحنات هو مجادلة الاريانيين ومخالفتهـم وكـان ذلك قبل بناء القسطنطينية وذلك أن أريوس قسيس كنيسة الاسـكندرية ذكر فى مجلس تدريســه أن الاب والابن ليسا من مادة واحدة الا أن مادة الابن انفصلت من الاب وهى أدون عنها وأقل منها وأن روح القدس خلق بقدرة الابن

لا بقدرة

لا بقدرة الاب فرفض اسكندر أسقف الاسكندرية هذه العقيدة وقرر عقيدة التثليث المقدس فوقع بين الاثنين مشاحنات أدت الى تنافر شديد وخصام عتيد وانقسم عموم أهالى الاسكندرية الى حزبين فبلغ قسطنطين خبر هذه المسئلة فلام الحزبين وو بخ الرئيسين على ما حصل منهما من التنافر العدوانى وفصل الحكم فى عقائد الدين المسيحى بعقد مجلس مركب من أساقفة الكنيسة والبابات وكان اجتماع هذا المجلس فى نيقيا من أعمال بثينيا فى سنة ٣٢٥ بعد الميلاد وقرر هذا المجلس رفض عقائد أريوس وتقرير العقيدة النيقيانية المشتملة على بيان وتوضيح دين الكنيسة وأثبت المجلس ارتداد اريوس ومن تابعه وصار نفيهم جميعا بأمر الامبراطور ثم ان قسطنطين الثانى خالف ما كان جاريا عليه أبوه وعزل اتنثيوس الارثدوكسى أسقف الاسكندرية وحل محله واحدا أريانى أى على مذهب أريوس فجاء عقب هذا الجور الفظيع والظلم الشنيع على المسيحيين الارثدوكسيين ولما صار يوليان المرتد أمبراطورا كان اجتهاده فى احياء العبادة القديمة لرومة فتسبب فى حصول ثورة على حزب عوام الوثنيين من الاسكندرية وقتل فى هذه الثورة المطران الاريانى وأعيد اتنثيوس ثانية أسقفا فنفاه يوليان ثم عاد ثم نفاه الامبراطور فالنس وعين أسقفا أريانيا بدله فى قسوسيته فجدد المظالم والجور العنيف على الارثدوكسيين

وأخذت الديانة الوثنية نهاية قوتها وشوكتها فى مصر مدة سلطنة يوليان المرتد الا أنها كانت قصيرة مع قصر سلطنته وفى سنة ٣٧٩ بعد الميلاد بذل الامبراطور ثيودوسيوس الاول جهده فى قلع هذه الديانة بالكلية وأصدر أمرا بأنه يلزم أن جميع جموع رعيته تتمسك بالدين المسيحى على موجب ما تقرر بدستور العقائد النيقانية وأمر بقفل جميع المعابد الوثنية قاطبة وكانت الاسكندرية فى هذا الوقت مشحونة بالجم الغفير من الوثنيين من جملتهم أعظم العلماء وأجل الناس فى الآداب والعلوم والطلبة فى مدارس الفلسفة فسخط هؤلاء وحنقوا أشد الحنق على الامر الصادر من الامبراطور ومن بعد هذا لم تمض مدة كبيرة حتى أصدر ثيودوسيوس أمرا بكسر الاوثان الموجودة فى المعابد والهياكل الوثنية فتساعد المسيحيون بالعساكر الامبراطورية وهدموا المعابد الوثنية ورموا الاوثان وكسروها وأتلفوا الابنية وأفسدوها وأما المعبد الاكبر الاكثر افتخارا وزينة وأبهة الموجود فيه الاله سرابيس من مدة قرون مضت وكان أشهر مزار فى الديانة الوثنية فانه صار هدمه وسلب ما فى دار كتبه من الكتب وكان لا يمكن حصر قيمة ما كان فيها من الكتب التى كان بلغ عدد نسخها نحوا من ٧٠٠٠٠٠ مجلد بواسطة المسيحيين فهرع الوثنيون الى السلاح للمدافعة عن دينهم وحاربوا محاربات شديدة دموية فى شوارع الاسكندرية وأخيرا نجح العساكر الامبراطورية تحت قيادة محافظ الاسكندرية فى اخماد المقاومات والمدافعات الحاصلة بين المسيحيين والوثنيين وطردوا الوثنيين من المدينة

وصار للديانة المسيحية السودد والسلطنة فى مصر وفى هذا الوقت كان ثيودوسيوس ثالوثيا خالف فى اجرا آته طرق أسلافه وعزل جميع القسس الاريانية واستبدلهم بقسس ثالوثية وأوقع الظلم والجور على الاريانيين وكان ذلك مقبولا بالخصوص عند المسيحيين من المصريين لان غالبهم كان ثالوثيا وساعدوا الامبراطور مساعدة اختيارية خضوعية وفى مدة هذه السلطنة كانت مصر معتبرة أنها أسلم موقعا وأخضع ايالة فى الايالات الامبراطورية

ومما يجب المذاكرة فيه هنا هو حيث ان الديانة المسيحية غالبة على الديانة الوثنية فكيف كان للديانة

الوثنية تأثير على الديانة المسيحية وعلى الخصوص فى المملكة المصرية قيل رداً على ذلك انه من المعلوم
والمعقول أن المصريين بمجرد تمسكهم بالديانة المسيحية صرفوا النظر فى الحال عن جميع شعائرهم الوثنية
الا أنهم مازالوا على عوائد أخرى وهى تصبير أجسام الموتى واجتهد سنت أنطونى فى منع الذين دخلوا فى
الديانة المسيحية عن اجراء هذه العادة وليس ذلك بالنسبة لكون صناديق التحنيط مستورة بنقوشات
وكتابات وثنية فقط بل أثبت لهم مع الجسارة أن أى كتابة صغيرة كانت أو كبيرة أو أى كيفية يعامل
بها جسم الميت خلاف دفنه فى الارض حرام فى التوراة واثم كبير وأثبت سنت أغسطينى من جهة
أخرى فى عبارة يفهم منها جيدا ان أزلية الروح خارج الجسم تشابه قليلا لما يعرفه الجهال وان أزلية
الروح عند المصريين معروفة عندهم بكونها سترجع الى جسمها فبهذا اجرى تصبير الاجسام حسب
هذا الاعتقاد وقال ان المسيحيين ليس هم الذين يعتقدون حقيقة البعث والنشور فقط بعد الموت
بل كان المصريون كذلك وان صور وهيا آت مريم العذراء الواقفة على القمر الجديد أشبه بكونها صاعدة
الى السماء يظهر أن المسيحيين استعاروها من المعبودة ازيس المشابهة هيئتها الى الشعرى اليمانية
تشرق مكتسبة نورها من الشمس بكيفية واحدة حتى ان القناديل الجارى حرقها الآن أمام المحاريب
الرومانية الكاثوليكية هى أيضا كانت مستعملة من الازمان القديمة فى تنوير المحاريب المعظمة عند
قدماء المصريين فى هياكلهم المظلمة وكان يحرق فى هذه المحاريب مقادير وافرة من الشموع فى العيد
السنوى الذى يجرون شعاره كل عام وأما العادة الجارية التى كانت مستعملة فى تفريق الكعك المسكر
وأنواع الحلاوى فى اليوم الخامس والعشرين من شهر طوبة أو فى اليوم العشرين من شهر يناير فانها
تبدلت حتى صارت أربعة عشر يوما من القديم ولم نزل نرى عيدا يفانى أى عيد الاثنى عشرة ليلة لحد
الآن وأما قسمة الامة الى قسس وعوام فكانت هذه القسمة غير معروفة عند اليونانيين والرومانيين
وقد صار ادخالها فى الديانة المسيحية فى القرن الرابع بواسطة المصريين وحالما كان الباقى من الامة
المسيحية يلبسون الملابس المصنوعة من الصوف والكتان كان ذلك هو الملبوس المعتاد عند المصريين
فاختار القسس عموما هذا الملبوس لانه أطهر لما هم فيه من الوظائف والخدمة وقال فى الكتاب المنزل
ان الكتان لبس الاولياء والزهاد وفى نفس هذا الوقت قلد المسيحيون القسس المصرية فى حلق مقدم
الرأس وكان من قبل أن يدعى أسقف رومة بألفى سنة أنه قابض بيده على مفاتيح الجنة والنار ادعى من
قبله قسيس مصرى وقال بصوت عال انه توظف بوظيفة محافظ على بابى السماء فى مدينة طيوه وبهذا
يسهل علينا أن نبرهن أيضا بدلائل أخرى على أن أصل الديانة المسيحية مستخرج من الديانة المصرية
وهى أصل منشئها ومنبعها وقد نبه عبد الشاعر الحريقى على أن طينة النيل مشحونة بالسموم القاتلة
كما انه مشحون بالعلاجات الشافية وماذكرناه هنا مختص بكيفية انتشار الديانة المسيحية فى المملكة
المصرية لكن ماذا يكون لو اتحدت الديانتان وصارتا دينا واحدا نوعا أو صار التوافق بين الحزبين ومن
هذا شك أولو العقل والذكاء فى أن هذه الاعمال هل كانت مساعدة لعيسى المسيح عليه السلام فيما
يجب اجراؤه من أمر تعليم المواد الدينية أو أنها كانت خافية عليه

وفى مدة سلطنة ثيودوسيوس الثانى كان كيريل مطران الاسكندرية وكان متكبرا متغطرفا متعصبا
فى الدين عنيف الاعمال قبيح السلوك والاحوال ولما توظف فى هذه الوظيفة جعل نفسه فى رأس
أغنياء المسيحيين وطرد جميع اليهود من الاسكندرية بعد حرب عنيف دموى وقع بينهم فى شوارع

الاسكندرية رغماعما كانت عليه الحكومة الحامية فى المحافظة عليهم وكان ذلك فى سنة ٤١٤ بعد الميلاد ومن بعد هذه الفعلة هجم المسيحيون على الوثنيين مرة ثانية وأضروا باحوالهم ومنافعهم وكان من ضمن الذين هم أكثر شهرة وأذكى عقلا من معلمى الوثنيين حباطيا الجميلة الشكل العالمة بالعلم وهى بنت طيون الرياضى الاصولى فكانت تعلم علم الفلسفة فى مدرسة بلاطونيق التى كان أسسها وشيدها أمونيوس ومن أدبها واحترامها وغزارة علمها وندرة فصاحتها وعذوبة كلامها والقائها انجذب الى درسها الكثير من طلبة العلم وبما أنها وثنية صارت عرضة للفضائح والقبائح الحاصلة من جهل وغباوة المسيحيين أتباع كيريل فقبضوا عليها يومامن الايام فى شارع الاسكندرية وجروها من عربتها وأسرعوا بها الى الكنيسة المسماة بهيكل القيصر وسلبوها ثم قتلوها

ولما صار للمسيحيين سودد فى مصر ابتدؤا بالخلاف فيما بينهم من أجل تحقيق بعض مواد دينية وكبر الخلاف حتى أشرف على سفك الدماء فعقد من أجل ذلك أخيرا مجلس فى كالثدون فى سنة ٤٥١ بعد الميلاد ورفض هذا المجلس العقائد المتمسك بها غالب المسيحيين المصريين وقال انها جميعها مبتدعة الا أنه لم يفصل الحكم القاطع فى اخماد هذه الاختلافات وتولد من ذلك زيادة الشغب والارتباك حتى انتشبت مبارزات ومناضلات بين أهل الاسكندرية وبين العساكر الامبراطورية المكلفين بتنفيذ الاوامر الصادرة وتقوية العمل والنظام على حسبها وأخيرا التزمت المملكة بطرد المصريين من القسطنطينية حتى انهم صاروا فى حالة يعتبرون فيها أن المملكة عبارة عن ظالم وجائر

وفى أثناء هذه المدة ضعفت مصر العليا وازدادت خرابا على خرابها وتغلب الكثير من النوبيين وقبائل العرب المجاورة لها على مصر العليا وطردوا الديانة المسيحية منها وأهملت أعمال الرى وصار لايزرع من الاراضى الا نصفها على قدر الامكان وأخذ الحزام الخصب الموجود فى طول نهر النيل فى الضيق سنويا واضمحل حال المبانى وآلت الى الخراب وصارت الصحارى تجور وتكبس على وادى النيل من غير توقف ولا اهمال منها ونسفت الرمال على الهياكل والمبانى وردمتها ودفنت التماثيل والصور التى تكسرت أو رميت وسدت المسالك والمنافذ الموصلة الى القبور الملوكية والمدافن الفرعونية ومع ذلك فان هذا الخراب والدمار ما كان بغير فائدة حصلت فيه وذلك أنه تولد من سفى الرمال وردمها المبانى القديمة حفظها من الذين تغلبوا بعد على هذا الاقليم وسلمتها من حصول ضرر أو أذى يحصل لها حتى بقيت الى هذا العصر الحالى ولما صار كشفها على التدريج بواسطة علماء الاستكشافات العصرية كانت شاهدة وقت كشفها على تاريخ أرضها ونجابة وعلو منزلة أهلها

وفى السنة العاشرة من سلطنة الامبراطور انسطاسيوس أى سنة ٥٠١ بعد الميلاد هزم الفرس الجيوش الرومانية وكانوا تغلبوا على سوريا وجهاتها ومروا من مدينة بلوزه (الفرما) ودخلوا مصر وخربوا جميع بلاد الدلتا حتى وصلوا الى أبواب الاسكندرية ثم انجبروا على القهقرة بعد عدة وقائع غير فاصلة الا أن مافعلوه من الخراب والدمار فى بلاد الدلتا قاست منه المصريون مصائب الاهوال وتولد من هذه المصائب ثورات عديدة مهولة فى الاسكندرية

وفى مدة سلطنة يوسطانيان حصل تغيير واستبدال فى حكومة المملكة وذلك أن يوسطانيان وظف مطران ارثدوكسى أى بطريرك فى الاسكندرية وقلده زمام الاحكام السياسية والروحانية وجعله عاملا على الحكومة المصرية فقاوم الاسكندرانيون هذا الاستبدال وبذلوا جهدهم فى عدم تنفيذه وهجموا

على البطريرك فى كنيسته فأغار عليهم بعساكره وأوقع فيهم وأتلف منهم الجم الغفير وأرغمهم على الطاعة والانقياد اليه وفى سنة ٦١٦ بعد الميلاد فى مدة سلطنة الامبراطور هرقل دخل الفرس أيضا فى مصر تحت قيادة ملكهم خسرو الثانى وفى هذه المرة تغلبوا على البلاد وأخضعوا العباد ونالوا المراد وبعدت الامة المصرية جميعها من المملكة الجريقية الشرقية حتى انهم لم يجتهدوا فى مقاومة الفرس بل انقادت الامة المصرية لهم مع السرعة

وما تداخلت الفرس فى المشاحنات الدينية التى كانت جارية بين المصريين ومع هذا فان تغلبهم على البلاد أضعف شوكة الارثدوكس أو الكنيسة الجريقية ومن هذا العهد صارت الكنيسة القبطية لها السودد والسلطة فى البلاد المصرية وانتهى النزاع بين الامم المختلفة الديانة فى مصر واستمر حكم الفرس فى مصر عشر سنوات وفى أثناء هذه المدة كان المصريون محكومين فى الاعمال المدنية بحاكم من الفرس وفى المواد الدينية ببطران من الكنيسة القبطية حسبما يختارونه بانفسهم وكانت هذه المدة من أعظم المدد التى استتب فيها الهدو والسكون فى الديار المصرية من عدة قرون مضت وفى آخر هذه المدة أيضا هجم هرقل على الفرس وطردهم من سوريا وأغار على بلادهم وممالكهم واسترد مصر وعادت شوكة الكنيسة الارثدوكسية الجريقية كما كانت واستمرت الكنيسة القبطية ثابتة الحالة منقادا لطاعتها الامة المصرية وعلى نظام وسياق بعيد من الكنيسة الارثدوكسية

﴿ الدين الاسلامى ﴾

وفى هذا الوقت ظهرت شوكة جديدة فى الصحراء وهى صحراء بلاد العرب وتلك الشوكة هى ﴿ العرب أو الدين الاسلامى ﴾ وذلك انه فى مدة القلاقل والاختلافات الدينية التى سبق ذكرها فى هذا الباب ولد محمد صلى الله عليه وسلم صاحب الشريعة الاسلامية وكان مولده فى مدينة مكة من بلاد العرب فى سنة ٥٧٠ بعد الميلاد ثم هاجر الى المدينة فى ١٦ يوليه سنة ٦٢٢ بعد الميلاد وابتدأ هذا الدين فى التغلب على بلاد العرب تحت قيادة صاحبه محمد صلى الله عليه وسلم وتعين على خلفائه من بعده رضى الله عنهم فى مدة ملكته وانتشار دينه على معظم القسم الشرقى من الدنيا ومن بعد وفاته صلى الله عليه وسلم بويع بالخلافة من بعده لابى بكر وهو عبد الله بن أبى قحافة فاستحوذ على بلاد العرب ونشر الدين الاسلامى فيها بعد أن كانت ارتدت بمجرد وفاة محمد صلى الله عليه وسلم ثم أرسل جيوشه مغيرة على سوريا فتغلبوا عليها ومن بعده وصلت الخلافة ليد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فاستمر على الفتوحات والغزوات حتى تغلب على فارس وجهات سوريا وهزم الجيش العربى جيوش هرقل امبراطور الروم وفى مدة لا تتجاوز ثمان عشرة سنة تغلب الجيوش العربية على العراق وفارس وسوريا أى الشام وفلسطين

ولما رأى هرقل ما حل به من المصائب والاهوال من تغلب الجيوش العربية على سوريا وجهاتها من بلاده عنوة أوجس فى نفسه خيفة على باقيها وعلى الخصوص مصر فعقد هرقل بينه وبين الخليفة عمر معاهدة وحضه على عدم تغلب جيوشه على مصر ويدفع له فى ذلك خراجا سنويا مقررا بينهما فاستمر هرقل على دفع الخراج مدة ثمان سنوات ولما قلت ممالكه من تغلب الجيوش الاسلامية عليها صار لا طاقة له على دفع الخراج الذى قرره لعمر بن الخطاب ولما لم يصل الخراج من عند كسرى وانقطع أمره فى عدم دفعه اعتبر الخليفة فى نفسه أن هذه المعاهدة باطلة لا عمل لها عنده

وكان عمرو بن العاص قائد جيش بسوريا لا يفتر عن حض الخليفة على فتح مصر والتغلب عليها لانه كان ذهب اليها فى تجارة قبل دخوله فى الاسلام ورأى الحالة التى مصر عليها من العظمة والمجد فى أرضها وسكانها فأمره الخليفة عمر بن الخطاب بعد جهد زائد بالتوجه اليها والتغلب عليها وفى سنة ٦٤٠ بعد الميلاد دخل الجيش العربى تحت قيادة عمرو بن العاص قائد الخليفة مصر من جهة فلسطين وتغلب على مدينة بلوزه (الفرما) فقاتل الروم فيها قتالا شديدا ثم تغلب عمرو بن العاص على المدينة بعد حصار استمر ثلاثين يوما ثم تقدم بالجيش حتى أتى بلبيس فتغلب أيضا عليها بعد أن حاصرها شهرا وكان الحاكم فى مصر من قبل الروم فى هذا الوقت المقوقس يوحنا بن قرقت اليونانى ثم سار عمرو ومازال سائرا حتى أشرف على مدينة منف فحاصرها وضيق على أهلها ثم تغلب عليها بعد حصار استمر ثمانية شهور وفى هذا الحصار خربت مدينة منف بالكلية وكانت هذه المدينة على الشاطئ الغربى من نهر النيل فابتنى عمرو مدينة جديدة فى موقع انتخبه واختاره على الشاطئ الشرقى من النهر وكان معسكرا بجيشه فى هذا الموقع قبل حصاره مدينة منف وكان فسطاطه أى خيمته منصوبة فيه فسمى المدينة الجديدة التى أمر بانشائها مدينة الفسطاط وكانت فى تجاه مدينة منف وعلى مسافة ميل أو ميلين من الشاطئ وهى الآن تلال وخرابات معدودة من ضواحى القاهرة

ولما رأى المقوقس ما حصل من عمرو بن العاص وجيشه من التغلب على البلاد طلب مقابلة هذا القائد العربى مقابلة رسمية واتفقا على الصلح فيما بينهما على أمان يعطيه عمرو بن العاص للمقوقس والامة القبطية بشرط أن يدفعوا الخراج الذى يتقرر عليهم سنويا بدون تأخير فرضى عمرو بذلك وحرر معاهدة قوية مع المقوقس والامة المصرية مآلها ان عمرا أعطى أهل مصر الامان على أنفسهم ودمهم وأموالهم وكيلهم وصاعهم ومدهم لا يزيد شئ فى ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم أهل النوبة وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح ومن دخل منهم فى دينار رفعت عنه الجزية ومن دخل فى صلحهم من الروم وأهل النوبة فله مالهم وعليه ما عليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه وكانت الامة المصرية ألد الاعداء الى المملكة الجريقية بسبب ما حل بهم من المظالم والجور الذى أوقعوه عليهم بشأن ما كانوا عليه من اختلاف العقائد الدينية فصاروا يرحبون بالعرب فى كل جهة من الجهات المصرية لانهم رأوهم فى أعينهم أنهم هم السبب الاصلى فى خلاص الكنيسة القبطية وانقاذ الامة المصرية من غوائل المملكة الجريقية والكنيسة الارثذوكسية وتأكد صدق المقوقس والامة القبطية لعمرو بن العاص واتفقوا على دفع جزية سنوية له وأقسموا بيعتهم وطاعتهم له وللخليفة ولما تم الصلح على ذلك كتب المقوقس الى هرقل ملك الروم يعلمه بالامر الذى حصل بينه وبين العرب فكتب اليه يوبخه ويقبح رأيه وقال له فى كتاب أرسله اليه انما أتاك من العرب اثنا عشر ألفا وفى مصر من القبط ما لا يحصى عددا فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية الى العرب فعندك من الروم فى الاسكندرية وغيرها ما يزيد عن مائة ألف معهم العدة والقوة وأنت تعرف وقد رأيت الآن ما العرب عليه من حالة ضعفهم وقلة عددهم وعددهم أفعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم فى الحالة التى صار فيها القبط أذلاء العرب فقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموتوا أو تظفروا عليهم ولا يكون لكم رأى عندى غير ذلك

فلما أتى المقوقس كتاب ملك الروم وقرأه أقبل الى عمرو بن العاص وقال له ان الملك قد كره ما فعلت

وكتب الى أني والروم الموجودين هنا لا نرضى بمصالحتك وأمرنا بحربك ومقاتلتك حتى يظفر وا بك أو تظفر بهم لكني أنا لا أخرج مما دخلت فيه معك وعاهدتك عليه وأمرى على نفسى ومن أطاعني وقد تم الصلح بينك وبين القبط ولم يحصل منهم نقض ولا نقض وانى لم أزل مع القبط على ما تعاهدنا عليه من الصلح وأما من جهة الروم فانا والقبط بريئون منهم فأجابه الى ما طلب بشرط أن يضمنوا له بقاء الجسرين المنصوبين على النيل أمام منف وكان عمرو مر بالجيش عليهما حتى حاصر منف وتغلب عليها كما سبق ويقيموا للجيش الضيافات والاسواق فى طريقه الى الاسكندرية ففعلوا ذلك وصارت القبط أعوانا للعرب فى ذلك

ولما تم لعمرو بن العاص جميع ذلك كتب كتابا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخبره بما تم عليه الرأى بينه وبين المقوقس صاحب مصر من قبل الروم

ثم بعد هذا عبر عمرو بن العاص النيل الى الشاطئ الغربى وأخذ يتقدم الى الجهة البحرية شيأ فشيأ وقابله فى سيره بعض فئات من مهاجرى منف من الروم فى كوم شريك وفى جهات مريوط فهزمهم عمرو وتغلب بجيشه على كوم شريك وعلى مريوط وكان الروم على منعة قليلة فيهما ثم سار حتى وصل مدينة الاسكندرية وكان الروم بالاسكندرية لما بلغهم سير عمرو بن العاص بجيشه اليهم أخذوا فى الاستعداد للدفاع وكانت الاسكندرية عاصمة القطر المصرى الى هذا العهد ومشحونة بالسكان والعمران من الروم فحاصرها عمرو من طريق البر فقط وأما طريق البحر فكان مفتوحا بينها وبين القسطنطينية يأتيها منها كل ما تحتاجه من المؤن والذخائر فقاوم الروم فيها مقاومة شديدة ودافعوا عنها أشد المدافعة واستمر عمرو محاصرا مدينة الاسكندرية نحوا من أربعة عشر شهرا وأوقع الرومانيون فى الجيش العربى خسارة وتلفيات يبلغ مقدارها نحوا من ٢٣٠٠٠ نفس وأخيرا تغلب العرب على المدينة فى سنة ٦٤١ بعد الميلاد وعندها ركب الجريق المراكب فى عدد عظيم منهم وهربوا عابرين البحر الابيض المتوسط وفى مدة الاربع سنوات التى جاءت بعد اجتهد العساكر الامبراطورية عدة مرات فى استرداد الاسكندرية ثانيا الا أن عمرو بن العاص صدهم وردهم على أعقابهم وبذلك تم التغلب على الجهات المصرية وكان دخول عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية يوم الجمعة غرة محرم سنة ٢٠ هجرية أو ٢٢ ديسمبر سنة ٦٤٠ ميلادية وأقام فيها احتفالا عظيما لما أوتيه من الفتح المبين وكتب بهذا الفتح الى عمر بن الخطاب الخليفة

ومن بعد أن تقلد عمرو زمام الاحكام فى يده أخذ فى استجلاب قلوب الامة المصرية وسكان البلاد النيلية اليه ويحكم فى الناس بالعدل والقسط ويجيب طلباتهم فى كل ما يلتمسونه منه حتى أجمعوا الميل عليه والاذعان اليه

وقد شوه مؤرخو الافرنج أعمال هذا القائد المشهور وأعمال الخليفة عمر بانتساب حرق دار الكتب المشهورة التى كانت موجودة فى الاسكندرية فقالوا ان الخليفة عمر بن الخطاب لما كتب له عمرو ابن العاص يستأذنه فيما يجب اجراؤه بشأن دار الكتب أجابه بقوله انى أهنئك بالفوز العظيم الذى أوتيته وأنك أول من ولى مصر من المسلمين أما الكتب الموجودة فى دار الكتب بالاسكندرية فلا يخلو أن تكون كتبها مصدقة لما فى القرآن الشريف فلا حاجة لنا بها أو مناقضة له فهى رجس وضلال وابادتها وحرقها ليس من المحال

فلم يسع عمرو بن العاص الا كونه وزع كتبها النفيسة المنسوخة بخط اليد على ٤٠٠٠ حمام موجودة فى الاسكندرية لاجل تسخين مياهها وكانت هذه الكتب كثيرة العدد حتى كان مدة حريقها ودمارها نحوا من ستة شهور

يقول مؤلف هذا الكتاب محمود فهمى المهندس ان كل ما قيل فى شأن الخليفة عمر بن الخطاب من أنه أمر عمرو بن العاص بحرق كتب دار الكتب بالاسكندرية فعمر رضى الله عنه منزه عنه ومكذوب عليه ولا صحة لما قيل فى ذلك والدليل القاطع على هذا أنه كان يوجد فى مدينة الاسكندرية قبل التغلب الاسلامى عليها ثلاث كتبخانات الاولى شيدها بطليموس لاغوس أول ملوك البطالسة فى دار المعارف التى أنشأها بجوار سرابيه فى خط بروشيون فى مدينة الاسكندرية القديمة وجمع فيها كتبا نفيسة وزاد فيها من بعده ابنه بطليموس الثانى الملقب فيلادلفوس من الكتب حتى بلغ عدد الكتب فيها نحوا من ٤٠٠٠٠٠ مجلد ولما أقام فيلادلفوس هيكلا للاله سرابيس الذى جلبه من مدينة سينوب وزخرفه ووضع هذا الاله فيه وأطلق على الهيكل اسم سرابيوم شيد فيه أيضا كتبخانة كانت هى الثانية من بعد الاولى ولما لم يجد فى الاولى سعة لتخزين الكتب فيها نقل ما زاد عنها من الكتب الى الثانية فى سرابيوم وسماها تكملتها أو بنتها أو كتبخانة سرابيوم واجتمع فى هذه الكتبخانة كتب جمة حتى وصلت فى مدة كليوبطره الملكة نحوا من ٧٠٠٠٠٠ مجلد فأما الكتبخانة الاولى الموجودة فى دار المعارف بخط بروشيون فانها أحرقت وأبيدت فى مدة الحروب التى حصلت بين القيصر يوليوس وبين الاسكندرانيين بشأن الخلاف والشقاق الذى كان حاصلا بين كليوبطره وأخيها بطليموس فهذه انتهى محوها وخاص الخليفة عمر من أمرها ومن بعد حرق هذه الكتبخانة شيدت كليوبطره من بعد أن تقلدت زمام السلطنة المصرية كتبخانة أخرى وشحنتها بالكتب التى أرسلها أنطونى هدية لها من مدينة برجاموس كما ذكره ولما أصدر الامبراطور ثيودوسيوس أمره فى الاسكندرية بمحق وابادة الديانة الوثنية وهدم هياكلها وكسر أصنامها سنة ٣٧٩ بعد الميلاد انقض عوام المسيحين على هيكل سرابيس وهدموه وكسروا الاله سرابيس ونهبوا جميع الكتب التى كانت موجودة فى الكتبخانة ولم يبقوا منها شيأ وهدموا حيطانها وساووها بالارض وهذه أيضا انقضى أمرها وخلص الخليفة عمر من شرها وأما كتبخانة كليوبطره وهى الكتبخانة الثالثة فان كتبها نهبت فى عصر الثورات والفتن الدينية فى مدة المملكة الرومانية ودليلنا على ذلك ان أوروسيوس الرومانى لما زار مدينة الاسكندرية فى سنة ٤١٣ بعد الميلاد دخل فى هذه الكتبخانة ظنا منه انه يجد فيها شيأ من الكتب فقال انه ما وجد فيها الا رفوفا فارغة معششا عليها العنكبوت وكان ذلك قبل مولد محمد صلى الله عليه وسلم بمائة وسبع وخمسين سنة وقبل دخول عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية بمائتين وست وثلاثين سنة فذلك دليل قاطع على كذب المؤرخين فيما ادعوه على الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أمره بحرق دار الكتب بالاسكندرية وهو المعول عليه وان الاسكندرية كانت مجردة عن الكتب بالكلية فى أثناء دخول الجيش الاسلامى بها والله أعلم بالصواب

وفى مدة القرنين اللذين أعقبا التغلب الاسلامى على مصر صارت المملكة المصرية اقليما أو ايالة عربية محكومة بعمال من طرف الخلفاء واستوطنها كثير من العرب ودخل الجم الغفير من المصريين فى الدين الاسلامى وضعف الدين القبطى واضمحل أمره وحل محله الاسلام ومن ثم انتقلت مصر على التدريج

من الديانة المسيحية وصارت مملكة اسلامية وكانت هذه المدة مشحونة بارتباكات وقلاقل مهولة شديدة وظهرت عدة تعصبات عمومية الا انه صار اخمادها واطفاؤها وفي سنة ٨٦٨ بعد الميلاد خلع أحمد بن طولون بيعته للخليفة المعتمد بن المتوكل وكان أحمد بن طولون هذا عاملا على مصر من قبله وجعل مصر مملكة مستقلة استمرت سبعا وثلاثين سنة ثم خضعت ثانية للخلفاء ببغداد وأعقب هذا الخضوع حكومة فوضوية امتدت في مصر زمنا طويلا

وفي غضون هذه الحكومة الفوضوية في مصر كانت جهات القيروان وسواحل بلاد الغرب تحت حكومة دولة مستقلة عن الخلافة العباسية يطلق عليها اسم الدولة الفاطمية وكانوا من قبيلة كتامة بالغرب من مدينة فاس وكانوا يزعمون أنهم من سلالة اسمعيل الامام السادس العلوى أو من سلالة فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وكانوا قد نشروا سلطتهم في الجهات الغربية من افريقية وخلعوا طاعة الخلفاء العباسيين في بغداد وخلفاء بني أمية في الاندلس وأخذ عبيد الله الفاطمي يسعى في تغلبه على مصر فبعد أن تولى كرسي الخلافة بخمس سنين بعث الى مصر أربعين ألف مقاتل فلما علم بذلك الخليفة المقتدر بالله جهز جيشا كافيا لصده ومنعه وحصل بين الفريقين حروب عديدة انتصر فيها جيش الخليفة على جيش الغرب

وفي سنة ٩٧٠ بعد الميلاد لما جلس معد أبو تميم الملقب بالمعز لدين الله بن القائم بأمر الله على دست الخلافة المغربية وكانت قاعدتها مدينة المهدية وسلطنتها منتشرة على امارات الغرب ومالطه وسردينيا وصقلية وأكثر جزائر البحر الابيض المتوسط شرع ينتظر ربه من التغلب على القطر المصرى وعند نهاية حكم كافور الاخشيدى جند جيشا وأرسله تحت قيادة جوهر المكنى بأبي الحسن من بعد أن انتخب الوقت الموافق له في تغلبه على مصر لان المملكة في هذا الوقت كانت في ارتباكات وقلاقل بين الامراء الذين يزعمون التغلب عليها وكانت الاهالى في حالة يرثى اليها مما هو حاصل عندهم من القحط الشديد المتسلطن في البلاد وكان القائد جوهر حمل معه أشوانا كثيرة من الغلال والحبوب على الجمال لهذا القصد ولما احتل الديار أخذ في تفريق هذه الغلال وتوزيعها على الاهالى وجميع الامة المشرفة على الموت من الجوع والقحط فمن ثم نال منهم الطاعة وحسن الانقياد وقدموا بيعتهم وطاعتهم في الاحكام الدينية والدنيوية لخليفة افريقية ووصل جوهر مدينة الفسطاط وعسكر بعساكره في الموضع الكائن عليه مدينة القاهرة الآن وخطب في جامع عمرو بن العاص باسم المعز لدين الله وأزال الشعائر السود العباسية وألبس الخطباء الملابس البيض وأصبحت البلاد المصرية خاضعة للدولة الفاطمية وأمر جوهر أن يزاد عقب خطبة الجمعة اللهم صل على محمد المصطفى وعلى على المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا اللهم وصل على الائمة الطاهرين آباء المؤمنين وأمر في الاذان بحى على خير العمل ومن المعلوم أن خلفاء هذه الدولة جميعهم كانوا شيعة علوية

وشرع جوهر القائد في بناء القاهرة في الموقع الذى عسكر فيه ووضع حوله عليه وابتنى فيها قصرين جعلهما للاقامة المعز عند قدومه الى مصر وتم بناء القاهرة في نحو ثلاث سنوات (آخر سنة ٣٦١ من الهجرة) ووفد المعز لدين الله الفاطمى الى مصر ودخل القصر الذى بناه له القائد جوهر بالقاهرة وعند دخوله خر ساجدا لله ثم صلى ركعتين وصلى معه كل من دخل معه واستقر في قصره بأولاده وحشمه

ومن ثم صارت مصر مملكة مستقلة مرة أخرى ودار خلافة للدولة الفاطمية وصارت مدينة القاهرة عاصمة ممالك هذه الدولة وقويت شوكتها وامتدت سلطتها ورفض خليفة مصر دعوى خليفة بغداد وقال ان خليفة بغداد رجل كذاب لم يكن من نسل محمد صاحب الشريعة بل هو نفسه من ذرية محمد صلى الله عليه وسلم وانه هو الخليفة الشرعي على الامة الاسلامية وخطب الناس بدعواه مع الجد والكد في سائر أنحاء الدنيا الشرقية ومن هذا الوقت تولد التقسيم والتجزئة في المملكة الاسلامية وفي الحال تحولت الجيوش الفاطمية في فلسطين وسوريا وتغلبوا عليها وصارت فلسطين مرة أخرى ميدانا أكبر للمحاربات والوقائع بين الجيوش المصرية والجيوش الشرقية وحكمت العائلة الفاطمية مصر نحوا من قرنين

وكان أشهر هؤلاء الخلفاء الحاكم بأمر الله ابن العزيز فتسلطن من سنة ٩٩٦ الى سنة ١٠٢١ بعد الميلاد وكانت مدة سلطنته خمسا وعشرين سنة ثارت في أوائلها عصبة ادعى زعيمها أنه من سلالة الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان وانتشب من أجل ذلك حروب وحصلت كروب كان النصر فيها متبادلا بين الاثنين وأخيرا صار القبض على زعيم العصاة ووضع في السجن وهرب أتباعه ومازال هذا مسجونا حتى مات

وكان الحاكم تارة مجنونا مثل كاليجولا الامبراطور الروماني وتارة وحشيا عنيف الاعمال قبيح السلوك والخصال وأنشأ في القاهرة دار كتب حمل اليها نفائس الكتب من جميع الجهات وأجلس فيها الفقهاء والعلماء وكان الناس يأتون اليها أفواجا فيكتبون ويطالعون ماشاؤا وكان في مبادي سلطنته غيورا على الدين الاسلامي وافتتح سلطنته بجور شديد وظلم عتيد على الامة المسيحية والملة اليهودية الموجودتين في مصر وأرغم المسيحيين على أن يحملوا في رقابهم صلبانا ثقيلة من الخشب حال سيرهم ومشيهم في الشوارع وأرغم اليهود أيضا بأن يعلق كل منهم على صدره رأس عجل تذكارا لما كانوا عليه من العبادة الوثنية في صحراء سينا ثم أبدل رأس العجل باجراس ثقيلة من الخشب ومنعهم من ركوب الخيل وأن يكون ركوبهم البغال أو الحمير بسروج الخشب وأن لايستخدموا مسلما ولا يشتروا عبدا ولا أمة وهدم الكنائس وأخذ جميع مافيها ومالها من الاوقاف وكتب بذلك الى عماله وهدم كنيسة القيامة في أورشليم وألوفا من الكنائس في سوريا ومصر

وفي سنة ١٠٢٠ ادعى الحاكم بأمر الله ان الاله حل فيه وأمر رعيته بعبادته والسجود له باسم الاله المحيي المميت وفي غضون ذلك ظهر رجل متمذهب يقال له ضرار وتبعه جماعة عرفوا بالضرارية ثم لما هلك ضرار هذا خلفه أحد تلامذته حمزة بن أحمد وكان يلقب بالهادي وآل أمر الحاكم بأمر الله أن صار تحت سلطة حمزة ونفوذه واعتنق عقائده ودينه وتبعه في ذلك نحو من ١٦٠٠٠ نفس ومن هؤلاء شرائع كثيرة منها تعظيم يوم الجمعة والاحتفال بالاعياد واستبدال الحج في مكة بزيارة مقام طالب في اليمن وأباحوا الزواج بين الاخ وأخته والاب وبناته والام وأبنائها وجاؤا بامور تخالف مافي القران الشريف وافتتن الحاكم بهذه الديانة الجديدة ونسي دين أبيه وجده وكان يصعد كل صباح الى الجبل المقطم بدعوى أنه يناجي الله سبحانه وتعالى كما كان يفعل موسى ثم من بعد مدة قليلة رجع عن تعديه على النصارى ورخص لهم ببناء كنائسهم وبناء كنيسة القيامة مرة أخرى على مصاريف من عنده وكان في أحكامه المدنية جبارا ظالما ونهى عن أكل الملوخية والجرجير وذبح الابقار السليمة من العاهات

ومنع الناس من الخروج بعد المغرب فى الطرقات وأمر بكسر أوانى الخمور واشتد خوف الناس
وقويت الشناعات وكثرت الارتباكات وأصدر أمرا بسب السلف وأن لاتخرج النساء فى الطرق
فصار لاترى امرأة فى طريق البتة واذا رؤيت عوقبت بأشد العقاب وأمر بغلق الحمامات دونهن فرأى
ذات يوم من الايام امرأة واقفة على قارعة الشارع المار به متزرة بمئزر أبيض فلما قرب اليها ودنا منها رآها
صورة امرأة مصنوعة من ورق المقوى حاملة فى يدها عريضة مكتوب فيها كتابة تختص بشأن سب أخته
وماهى عليه من الفجور والعهر فغضب الحاكم غضبا شديدا وحنق على أهل مصر وأمر عساكره
وحشمه بالايقاع فى أهل القاهرة فأمر بحرق المدينة وقتل أهلها وذبح منهم جما غفيرا وأمر بالبحث
سرا عما عليه أخته من الفجور فلما علمت أخت الحاكم وقائد جيشه أن الحاكم أمر بقتلهما عمدا على
اغتياله من قبل أن يغتالهما وفى سنة ١٠٢١ بعد الميلاد قتلاه على الجبل المقطم

ومن بعد موت الحاكم هرب حمزة الى سوريا وقرر فى حصون جبل لبنان مذهب الدروز ولايزالون
هؤلاء يزعمون أن الحاكم هو مسيحهم وانقرضت هذه السلسلة الفاطمية من مصر بخلافة العاضد بن
يوسف ومات هذا فى سنة ١١٧١ بعد الميلاد وكان هو والذين جاؤا من بعده على غاية من ضعف
الشوكة خلفاء بالاسم فقط وكانت السلطنة الحقيقية والاعمال الادارية فى أيدى الوزراء وكبار
الامراء فكان يسجن الخليفة فى الجامع أو فى سرايته حسبما تميل اليه طبيعته ويحكم الوزير المملكة
باسمه فتولد من هذا مشاحنات عديدة وارتباكات وقلاقل شديدة أضرت بالخلافة وكانت سببا فى
ضعف المملكة وفى مدة سلطنة الخليفة العاضد دعت اختلافات الاحوال وتباين الاعمال الحاصلة
فى السلطنة أن توسلت الخلافة بالاستغاثة بمساعدة ملك اللاطينيين فى أورشليم وسلطان دمشق على
التوالى وكان كل من هذين الملكين خصما وعدوا للخليفة بمصر فأجاب كل منهما ماطلب منه من
المساعدة مؤملا فى عقله قلب هذه الخلافة واضافة مصر الى ممالكه فقاد ملك اللاطينيين جيشه بنفسه
وكانت عساكر نور الدين سلطان دمشق تحت قيادة شيركوه بن شادى وهو كردى الاصل وكان شيركوه
هذا وأخوه نجم الدين أيوب فى خدمة نور الدين فى سوريا مدة طويلة فاستصحب معه ابن أخيه وهو
يوسف بن نجم الدين وفى أثناء ذلك قصد ملك اللاطينيين بعساكره مصر فخرج عليهم المصريون فغلبهم
ملك اللاطينيين واحتل حصن بلبيس ثم عاد ملك اللاطينيين الى أورشليم على أعقابه من بعد ماتراءى
له عدم النجاح وضاقت فى وجهه البطاح

وسار مع شيركوه السلطان نور الدين نفسه مشيعا جيوشه حتى وصل حدود مصر وقصده من ذلك ايهام
الصليبيين الذين فى طريقه أنه آت لمحاربتهم فانحصروا فى مدنهم وحصونهم ومر جيشه مع الامان والوثوق
بالاطمئنان وتولد مما أجراه شيركوه من النصر والظفر فى ثلاث وقائع حصلت بينه و بين ضرغام
الوزير وكان متقلدا زمام الحكومة المصرية وقتل ضرغام هذا فى تلك الوقائع أن صار شيركوه سيد
البلاد المصرية ومن ثم قلده الخليفة العاضد هذا الرجل المعاضد وظيفة الوزارة العظمى فى مصر وعاش
بعد هذه فى مصر شهرين فقط وهو وان كان قبل هذه الوظيفة الرفيعة التى منحها له الخليفة العاضد
الا أنه مازال كان يعد نفسه على الدوام انه تحت رعاية نور الدين سلطان دمشق وانه نائبه فى مصر ولما
مات أحب العاضد أن يبين ممنونيته وحبه له فولى مكانه ابن أخيه يوسف بن أيوب الملقب بصلاح الدين
ولقبه الخليفة بالملك الناصر وكان شابا وفضل الخليفة الوزراء الصغيرى السن ظنا منه أنهم لايقدرون

على اكتساب ثقة الجند بهم فلا يخاف ولا يخشى من استبدادهم وأمّل العاضد فى نفسه أنه بواسطة صغر سن صلاح الدين ربما يتيسر له الحصول على ردشوكته وسلطته التى فقدت منه ومن بعد مدة رأى أن لا قدرة له على ذلك فاستيقظ صلاح الدين من نومته وقام من غفلته وجعل نفسه فى الحال سيدا على الخليفة ومن والاه من الرجال ونظر صلاح الدين فى الاعمال المصرية وساسها حق السياسة وصار له نفوذ عظيم فى مصر ولم يكن للخليفة العاضد الا الاسم ولم يكن لديه الا السلطة الدينية فقط فلاح لنور الدين أن الاسلام فى غنى عن هذه فأرسل الى صلاح الدين يطلب منه قلب الخلافة الفاطمية واقامة الخطبة العباسية باسم المستضيء بأمر الله الخليفة الثالث والثلاثين من بنى العباس فى بغداد فتردّد صلاح الدين فى ذلك وخشى من أن ما يتولد من ذلك ثورة من الامة تكون عاقبتها مشؤمة عليه وأرسل صلاح الدين يعتذر عن عدم امكانه انفاذ هذا الامر فورا خشية انتشاب حرب فى مصر مع حزب العلويين الذين هم أكثر عددا فدعا صلاح الدين اليه أمراءه واستشارهم فى هذا الامر الذى أرسله اليه نور الدين فقال بعضهم انه أمر الوقوع فيه على خطر وتنفيذه وقاحة ووافق البعض الآخر على نفاذه الا انه لم يتجاسر أحد على مباشرة الامر بنفسه فبهت صلاح الدين برهة من الزمان فقام فى أثناء ذلك أمير فارسى يدعى أمير عالم وحض على وجوب تنفيذ أمر نور الدين وأخذ على كتفه مباشرة العمل بنفسه وفى يوم الجمعة توجه أمير عالم المذكور الى أكبر المساجد بالقاهرة وخطب فى الناس خطبة الجمعة وصلى باسم الخليفة المستضيء العباسى فلم يعارضه أحد من الفاطميين ولم يحصل من ذلك ثوران ولا انتطح كبشان ولما علم صلاح الدين بذلك أمر باعادتها فى الجمعة القادمة فى جميع جوامع القاهرة فقبل الجميع ودخلت مصر فى ضمن الخلافة العباسية الدينية فى بغداد من بعد أن كانت خرجت من قبضتها من مدة قرنين وأما الخليفة العاضد فانه أصيب بمرض شديد أفقده الحياة ومات من دون أن يكون له معلومية بما حصل وما كان أحد من ذريته تجرأ على التفوه أمامه بهذه الحادثة

وبوفاته خلص صلاح الدين من قلاقل كثيرة كان يخشى منها لو بقى العاضد على قيد الحياة فقبض فى الحال صلاح الدين على خزائن المتوفى وكنوزه وحبس أولاده وعائلته فى السراى وباع مماليكه وعبيده وبموته انقرضت الخلافة الفاطمية من مصر وثبت فيها صلاح الدين بمساعدة سلطان دمشق نور الدين محمود وغير صلاح الدين الحرير الاخضر الذى كان على المنابر المصرية بالحرير الاسود زى الخلفاء العباسية وانتهى الشقاق الذى كان موجودا من مدة مائتى سنة فى الجوامع الاسلامية

وفى مدة حياة السلطان محمود نور الدين ملك دمشق كان صلاح الدين معترفا بسيادته وحكمه ولما رأى نور الدين نفسه متسلطنا على سورية كلها وعلى قسم من جزيرة العرب وعلى آسيا الصغرى وجزيرة العراق وضع يده أيضا على مصر وأما صلاح الدين فكان فى نيته استقلال مصر ومن ثم شرع فى تأليف الاحزاب واستعداد القوى حتى يمكنه الاستقلال بمصر ومقاومة نور الدين اذا عارضه فى ذلك فلما علم بذلك نور الدين جند الجنود وحشد العساكر والبنود وشرع فى السير الى مصر لاخراج صلاح الدين منها وبينما هو على ذلك اذ فاجأته المنية من مرض كان حصل له فى الحلقوم ومات بعد أن بلغ من العمر ستين سنة

وبمجرد موت هذا الملك الخطير أعلن صلاح الدين لنفسه بملوكية سوريا ومصر وصدّق على هذا الاغتصاب خليفة بغداد رأس الديانة الاسلامية حامدا شاكرا الموت خصمه خليفة مصر وذلك انه من

بعد موت نور الدين انتقلت مملكته الى ابنه الملك الصالح اسمعيل وكان عمره احدى عشرة سنة فأقيم له وصي نائب وحاول عمال المملكة في استقلال كل واحد منهم بنفسه ومنهم من أراد خلع الملك وحاولوه رمـه وبينما هم في هذه القلاقل اذ ورد لهؤلاء الامراء كتاب صلاح الدين يذكرهم الخضوع التام لخليفة نور الدين وقال لهم في مكتوبه لو علم نور الدين أن فيكم من هو أكثر أهلية وأمانة مني في ولاية مصر لكان نور الدين عهد بها اليه وهي أحسن ولاياته وانه لو كان يعلم بوقت منيته لولاني وصيا على ابنه واعلموا اني سأذهب الى دمشق وأقدم عبوديتي الى هذا السلطان معترفا بالفضل العظيم الذي حملنيه أبوه واني سأعامل كلا منكم بحسب ما في نياتكم فانكم قوم منبع كل ارتباك وفتن وقلاقل في البلاد ثم توجه صلاح الدين عقب ذلك الى سوريا واغتصبها جميعها من أولاد نور الدين حتى خزائنهم وأمتعتهم بعد حروب شديدة ووقائع عديدة

وأصبحت حياة المملكة المسيحية محصورة بين عدوين متقابلين وهما الترك والعرب ولما جمع صلاح الدين هذه الامم تحت جامعة واحدة مد بصره الحاد الطويل المكين الى نواحي فلسطين وظهر له من أجل حجة الحرب وعلته فسخ المعاهدة التي كانت عملت بين المسلمين والمسيحيين وكان عقدها أحد البارونات اللاطينية وأسرع صلاح الدين في جمع جيوشه وقواه وسار حتى عبر نهر الاردن وهزم المسيحيين في واقعة حطين سنة ١١٨٧ بعد الميلاد وكانت واقعة مشهورة وذلك أن صلاح الدين بعد أن عبر نهر الاردن حط رحاله عند بحيرة طبرية على سفح الجبل مؤملا أن المسيحيين اذا بلغهم نزوله يقدمون اليه وكانوا معسكرين في مرج صفورية بأرض عكا ولما لم يتحركوا من معسكرهم سار بتجريدة من عسكره ونازل طبرية وتغلب عليها بعد ساعة من القتال وبقيت قلعة طبرية سليمة لم يتغلب عليها ولما بلغ المسيحيين ما حل بطبرية ساروا نحوها ولما علم صلاح الدين بسيرهم ترك على قلعة طبرية من يحاصرها وعاد لملاقاة المسيحيين فالتقى بهم على سطح جبل طبرية ومن بعد حرب شديد تشتت شمل جيوش المسيحيين الافرقة تحصنت في تل يقال له تل حطين فضايقهم صلاح الدين بعساكره واشتد بهم العطش حتى ألجأهم الى القتال فأسرت مقدمتهم وقتل الباقون وكان فيمن أسر ملكهم جفري لوسنيان وأخوه والبرنس أرناط ومشهورو قواده وأعقب هذه الظفرة التغلب على مدينة طبرية وعكا ويافا وقيسرية وحيفا وصفورية والناصرة ثم سار الى تبنين وهي قلعة منيعة فحاصرها أسبوعا ونصب عليها المنجنيقات حتى فتحها عنوة وسار الى صيدا وتسلمها وكذا تغلب على جميع المدائن المجاورة لاورشليم من كل جهة وناحية فلما تم له ذلك أجمع على التغلب على أورشليم وهي بيت المقدس فشمر عن ساعد الجد وجمع عساكره وكانوا متفرقين في نواح عديدة وسار بهم حتى أتى أورشليم فنزل في الجانب الغربي منها وحاصرها حصارا شديدا ودافع أهلها عنها مدافعة عنيفة ولما رأى المسيحيون ما حل بهم من شدة الحصار والزحف والضرب عليهم بالمنجنيقات طلبوا المخابرة مع صلاح الدين فتمت بتسليم المدينة اليه

وتولد من نصرة المسلمين هذه قيام ممالك أوروبا وشروعها في الحرب الصليبي الثالث ونال صلاح الدين حماية القسم الاعظم من فتوحاته مدة الحرب الطويل الذي انتشب وأخيرا رضي بعقد معاهدة بينه وبين قائد الصليبيين من بعد مداولات ومخابرات ونشرت الاعلانات بأن البلاد الاسلامية والمسيحية واحدة وعادت الصلات والمعاملات الى مجاريها وكذا عادت التجارات وجعل الزائرون يقصدون

الى أورشليم من كل فج وتوجه صلاح الدين الى أورشليم لتفقد أحوالها ومنها توجه الى دمشق وكان فيها أولاده وكان يحب مدينة دمشق كثيرا ويؤثر الاقامة فيها دون غيرها وكان أكثر نجاحا في سلطانه وفي مدة سلطنته امتدت شوكته على بلاد العرب وعلى قسم عظيم من آسيا الغربية فمن ثم عند موته كانت مملكته ممتدة من طرابلس افريقية الى نهر الدجلة ومن المحيط الهندى الى جبال أرمينية

ومات صلاح الدين في فلسطين سنة ١١٩٣ بعد الميلاد وانقسمت ممالكه بين أولاده الثلاث وكان سنه عند وفاته سبعا وخمسين سنة وحكم أربعا وعشرين سنة في مصر وتسع عشرة سنة في سوريا وترك صلاح الدين من الاولاد سبعة عشر ذكرا وبنتا واحدة واقتسم أولاده واخوته وأولادهم مملكته فيما بينهم الا أن حصصهم ما كانت متساوية في القسمة وذلك أن ثلاثة من أولاده أخذوا أكبرها واقتنع الباقي بمقاطعات صغيرة فخص أول أولاد صلاح الدين وكان يسمى بنور الدين ولقب بالملك الافضل بمملكة دمشق والشطوط البحرية وأورشليم والبصرة وبانياس وسورية الغربية وخص أبو الفتح ويلقب بالملك الظاهر غياث الدين بحلب وجميع سوريا الشرقية ومن ضمنها حران وتل باشر وعزاز وخص الثالث وهو الملك العزيز بمصر ومن هؤلاء تشكلت ثلاث دول مختلفة وانفصلت مصر من سوريا مرة أخرى وفي مدة القرن التالي ارتاعت مصر وانزعج أهلها من جيوش الممالك الاوروباوية التي اشتركت مع بعضها في الحروب الصليبية فصد خلفاء صلاح الدين الذين جلسوا على الاريكة المصرية هؤلاء الجموع وغلبوهم وظفروا بهم وكان آخر هذه الهجومات صار اجراؤه بواسطة لويز التاسع ملك فرنسا في سنة ١٢٤٨ بعد الميلاد وذلك أن لويز التاسع ملك فرنسا جرد جيشا من الصليبيين وسار في رأس قوة عظيمة مقدارها ٥٠٠٠٠ مقاتل ووصل بهذه القوة الى دمياط وكان فيها جموع الصليبيين وعند وصول لويز التاسع المذكور لدمياط بعث الى الملك الصالح أيوب بن الملك الكامل كتابا يقول له فيه أما بعد فانه لا يخفى عليك أني أمين الامة المسيحية كما أنك أمين الامة المحمدية وكذا لا يخفى عليك ان عندنا أهل الاندلس يحملون الينا الاموال والهدايا ونسوقهم سوق الحيوانات ونقتل الرجال ونجعل النساء أرامل ونسبي البنات والاطفال واني أبذل لك نصحي في أنك لو أقسمت لي بكل الايمان لكنت واصلا اليك ومقاتلك في أعز البقاع عليك فاما أن تكون البلاد لي فهي أعظم هدية حصلت عندي واما أن تكون البلاد لك والغلبة علي فيدك ممدودة الى عنقي وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك باسياف القضاء

ولما قرئ هذا الكتاب على السلطان الملك الصالح اشتد به المرض وكان به مرض من قبل وبكى واسترجع فكتب القاضي بهاء الدين رد الكتاب وهو بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وأصحابه أجمعين أما بعد فانه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فنحن أرباب السيوف وما قتل منا فرد الاجددناه ولا بغى علينا باغ الادمرناه ولو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الاواخر منكم والاوائل لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولابد أن تزل بك القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك فهنالك تسيء الظنون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون فاذا قرأت كتابي هذا فتكون فيه على

أول سورة النحل أتى أمر الله فلا تستعجلوه وتكون على آخر سورة ص ولتعلمن نبأه بعد حين ونرجع الى قول الله تعالى وهو أصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقول الحكماء ان الباغي له مصرع وبغيك يصرعك والى البلاء يقلبك

وفي هذه الملاحم والوقائع التي حصلت بين الفريقين انهزم لويز التاسع ملك فرنسا شر هزيمة وقتل من جيشه ٣٠٠٠٠ نفس وأخذه المصريون أسيرا

ولما جلس الملك الصالح هذا على الاريكة المصرية جلب عدة من الاسرى من جنكيزخان ورتبهم ونظمهم وجعلهم محافظين على جسمه ونفسه وأطلق عليهم اسم المماليك وصار يضيف اليهم من يوم الى يوم أسرى أخر من نفس التتار حتى أصبحت مصر محيطة ببحر الخزر فكان هؤلاء المماليك زهرة الجيوش المصرية وقد نفذت شوكتهم وتأبدت سطوتهم فخلعوا خليفة الملك الصالح وأجلسوا أيبك الجاشنكير قائدهم سلطانا في محله وكان في ظرف المائة والثلاثين سنة التي جاءت عقب ذلك في مصر قلاقل وارتباكات وصار المماليك في ظرف هذه المدة يولون سلطانا ويقتلون آخر أو يخلعونه حسبما يرغبون ويشتهون وفي غلاق القرن الرابع عشر قام الجراكسة وكان عددهم محصورا فيه قوة المماليك فهزموا المماليك وخلعوا آخر سلطان تولى منهم وهو حاجي بن شعبان وأجلسوا قائدهم وهو الملقب بالملك الظاهر برقوق وأطلق على هذه الدولة اسم دولة الجراكسة

وفي سنة ١٤٨٥ بعد الميلاد وجه الاتراك العثمانية جيوشهم على مصر بعد أن وطدوا أنفسهم في أوربا وجعلوا القسطنطينية عاصمة ممالكهم فاستمر الحرب خمس سنوات كانت نتيجته هزيمة الاتراك العثمانية بواسطة الجراكسة ثم جدد سليم الاول الحرب في سنة ١٥١٦ بعد الميلاد فلما بلغ طومان باي آخر سلاطين الجراكسة بمصر ما عزم عليه سليم زاد في حصون دمياط وغيرها من الحدود السورية وجمع كل ما أمكنه جمعه من الرجال وسار لملاقاة سليم العثماني حتى وصل الصالحية وعسكر بجموعه فيها وأما سليم فانه سار من الشام على سواحل البحر الابيض المتوسط حتى وصل غزة وتغلب عليها وكذا العريش ولما علم بمقر الجيوش المصرية في الصالحية وما هم عليه من عزم النية عرج عن موقعهم بالكلية وترك طريق الصالحية وسار حتى وصل الى الخانقاه أو الخانكاه وهي قرية على مقربة من القاهرة ببضع ساعات فلما بلغ طومان باي تقدم الاتراك العثمانية الى هذا الموقع عاد بجيوشه لاجل الهجوم عليهم من الخلف فانتشب القتال وتطارد الجيشان وهزم العثمانيون طومان باي وجيشه شر هزيمة وكان حصول هذه الواقعة في ٢٢ يناير سنة ١٥١٧ بعد الميلاد وقتل من المصريين نحو من ٢٣٠٠٠ نفس وهرب طومان باي وانكسرت شوكة المماليك الجراكسة بالكلية ومن بعد مضي سبعة أيام احتل سليم مدينة القاهرة من دون أدنى مقاومة وترك فيها المحافظين وسار سليم لاجل فتح الباقي من المملكة والتغلب عليه فجمع طومان باي عددا كبيرا من العربان وأرضاهم بالاموال ومن بعد مضي قليل انقض طومان باي بمن معه من المماليك والعربان وفتكوا بمحافظي الاتراك العثمانيين فأرسل سليم أجود عساكره وأشجع فرسانه للتغلب على القاهرة ثانية فزاد طومان باي في تحصينها واستحكاماتها وحصن القلعة تحصينا جيدا وقفل الشوارع بمتاريس وحمل السلاح كل من يستطيع حمله لاجل المحافظة على الوطن واحتل المماليك المساكن وكركوا البيوت ومن بعد مضي ثلاثة أيام تغلب سليم على المدينة ثانيا الا أنه لما رأى من شدة المماليك وما هم عليه من الحصانة والرصانة

خدعهم ووعدهم العفو التام الذى تعود منه المنفعة عليهم وعلى الرعية ان خضعوا وسلموا وصفوا النية فسلم له منهم نحو من ٨٠٠ نفس فقتلهم جميعا على الفور وأمر بالذبح فى أهل المدينة ممن تبع المماليك فهلك على ماقيل فى هذه المذبحة نحو من ٥٠٠٠٠ نفس أى خمسون ألف نفس وصار القبض على السلطان طومان باى المملوك بعد هذه المذبحة بقليل وأمر السلطان سليم بشنقه فعلقوه تحت رواق باب زويلة بالقاهرة بكلاليب من حديد وفى شنقه قال بعضهم

شنقوه قهرا فوق باب زويلة ✱ ولقد أذاقوه الوبال الأكبرا

يارب فاغفر له عظائم جرمه ✱ واجعل جنان الخلد فيه له قرى

وبشنق طومان باى انقرضت دولة المماليك الجراكسة من البلاد وأراح الله منهم الارض والعباد بعد ان تسلطنوا فى مصر نحوا من ١٣٩ سنة ومن هذا العهد أى من سنة ٩٢٣ هجرية الموافقة لسنة ١٥١٧ بعد الميلاد صارت مصر تحت حوزة المملكة العثمانية وصارت ايالة تركية عثمانية

واستمرت جثة طومان باى مصلوبة ثمانية أيام فأمر السلطان سليم بدفنها الا أنه مع ما كانت عليه دولة المماليك من الحكومة الفوضوية المطلقة التى كانت مستمرة الاجراء فى المملكة المصرية ما كانت جميعها عارية عن التقدم وعدم الصلاح فى مصر بل كان البعض من سلاطين الجراكسة على عقل وحزم وتدبير وحكمة كاملة فى الاحكام السياسية والمواد الدينية ولحد الآن يوجد فى القاهرة دلائل مثل المساجد والقباب والابنية الفاخرة والمارستانات تشهد لسلاطين ملوك الجراكسة بعلو الهمة والاعتناء بالصنائع والعلوم الدينية التى كانت منزرعة فى هذا الوقت وكانت حركات تحصيل العلوم والآداب زاهرة يانعة فى عاصمة المملكة أيضا

ومابرح سليم من مصر حتى جعلها ايالة عثمانية خاضعة لدولته وقررت رسم الادارة والحكومة على هذا الوجه وذلك أنه جعل عليها حاكما يلقب بالباشا يرجع اليه فى حل الامور وعقدها وكان خيربك الجركسى من ضمن الذين ساعدوا سليما فى سوريا وفى التغلب على مصر وكان انحاز اليه لانه كان من كبار رجال قنصوه الغورى فولاه حاكما على مصر ولقبه بلقب باشا وجعل فى مصر ثلاث ادارات كل ادارة تراقب حركة الاخرى فالادارة الاولى ادارة الباشا وهى ابلاغ الاوامر السلطانية لارباب الحكومة وللامة مع مراقبة تنفيذها واجراء العمل على موجبها والادارة الثانية الوجاقات وهى أنه ترك فى مصر ٥٠٠٠ سباهى و ٥٠٠ ينكيجرى وجعل هذه القوة ستة وجاقات أى فرق تحت قيادة خيرالدين باشا وأمره أن يقيم فى القلعة ولا يبرح منها لاى شغل كان ووظائف هذه الوجاقات حفظ النظام العام فى القطر المصرى والمدافعة عنه وجباية الخراج وكان ترتيب هذه الوجاقات حسبما هو آت

(أولا) وجاق المتفرقة وهو مؤلف من نخبة الحرس السلطانى (ثانيا) وجاق الجاويشية وهو مؤلف فى الاصل من صف ضباط جيش السلطان سليم وعهد اليه جباية الخراج (ثالثا) وجاق الهجانة (رابعا) وجاق التفكجية وهم ناقلوا البنادق (خامسا) وجاق الينكيجرية وهم المستحفظون (سادسا) وجاق العزب

وكل من هذه الوجاقات مركب من أفراد يقال لهم وجاقلية وعلى كل وجاق ضابط يلقب بالاغا معه الكيخيا والباش اختيار والدفتردار والخازندار والروزنامجى ويتألف مجلس شورى الباشا من ضباط

من هؤلاء الوجاقات ولا يقضى الباشا أمرا الا من بعد تصديقهم ولهم أن يوقفوه عن الاعمال ويخابروا ديوان القسطنطينية فى ذلك ولهم أن يطلبوا عزله حالما يشتبهون فى مقاصده السيئة وأما الادارة الثالثة فهم المماليك وهم بقايا الدولتين السالفتين ووظيفتهم بقاء الموازنة بين الباشا والوجاقات لانهم أعداء لكل من الحزبين ومن مقاصدهم الانتصار للحزب الاضعف ليمنعوا القوى منهما من الاستبداد وقسم سليم مصر الى أربع وعشرين سنجقية أو كشوفية وجعل على كل سنجق أو مديرية كاشفا من المماليك الذين انتموا اليه فى حروبه وجميع هؤلاء السناجق أو الكشاف تحت قيادة ورياسة الباشا أو الاغا العثمانى المعين من طرف سلطان القسطنطينية وجعل الاحكام الشرعية ومعظم أحكام السياسة الادارية والقضائية فى أيدى مشايخ من العرب فاستحوذ هؤلاء على السلطة والسيادة العالية على طوائف الامة المصرية وكانوا مثلهم من أصل النسل العربى وكان هؤلاء المشايخ بالطبع مرتبطين بواسطة ما هم عليه من الديانة الروحانية ومائلين بكليتهم الى نواحى القسطنطينية زيادة عن ميلهم الى الكشاف

وسار سليم من القاهرة الى الاسكندرية ورتب محافظيها ثم عاد الى القاهرة جاريا فى ترتيب الاعمال والادارات ناظرا فى المصالح والمهمات ومن بعد أن أقام نحوا من عشرين يوما رجع قافلا الى القسطنطينية وحمل معه أحمالا كثيرة من الذهب والفضة خلاف الاسلاب الاخرى التى سلبها والتقدمات وهدايا جمة قدمت له وأخذ معه الخليفة العباسى وهو اذ ذاك محمد المتوكل على الله وكان هو الخليفة الثامن عشر من الخلافة العباسية الثانية بمصر فاسكنه القسطنطينية ورتب له رواتب شهرية وانحصرت الخلافة الاسلامية فى سلاطين آل عثمان وكان أول الخلفاء فيهم سليم هذا

وما التفت سليم الى القبط الذين هم أصل سكان البلاد المصرية الا أن الكشاف والسناجق انتخبوا من هذه الطائفة ومن طائفة اليهود أيضا نوابا عندهم فى الكشوفيات الحاكمين فيها يجمعون لهم العوائد والفرض المفروضة على الامة المصرية ومن ثم صارت القرى محكومة بحكام من نفس القبط وفى ظرف القرنين اللذين أعقبا التغلب العثمانى كانت مصر محكومة بباشوات وسناجق من طرف الدولة العثمانية التركية فأخذت هذه المملكة فى الاضمحلال فى الانفس والاموال وسار هؤلاء الباشوات والسناجق فى طرائق السلب والنهب والطمع وانقادت الامة المصرية الى ما تجريه الدولة العثمانية فى حقهم من الجور والظلم وما تفعله الكشاف من السلب والحطم وانتهاك الحرمات وارتكاب الجرائم والموبقات وانكسرت قوة شوكة قدماء المصريين وضاعت شوكة العرب القديمة بشوكة ظالمة قبيحة

وفى القرن الثامن عشر عصى السناجق والكشاف على الدولة العثمانية وكانت عادت اليهم شوكتهم وقاموا فى عدة ثورات ضد الدولة التركية ونكثوا طاعتهم وأعلنوا استقلاليتهم تحت قيادة قائدهم على بك فى سنة ١٧٦٨ فتمكن على بك المذكور من المملكة واستلم مشيخة القاهرة ثم ثارت عليه أحزابه وكانوا أعداء نخشى على بك على نفسه وهرب من القاهرة الى سوريا فالتجأ الى حاكم أورشليم أى بيت المقدس وكانت بينهما صداقة قديمة ولما علم أعداؤه من الكشاف بفراره شكوه للسلطان مصطفى فأرسل فرمانا الى حاكم بيت المقدس بالقبض على على بك وارساله محافظا عليه الى الباب العالى ولما علم على بك بذلك هرب الى عكا واكتسب فيها صداقة الشيخ ضاهر بن عمر أمير تلك المدينة فأكرم وفادته عليه وسعى

فى تبرئتـه أمام الباب العالى وبمساعدة نصرائه تمكن من نوال العفو عنه من السلطان وأعيد الى القاهرة فى منصبه الاول وفى سنة ١٧٧٢ بعد الميلاد انغش على بك ومات مقتولا مسموما وعادت حكومة السلطنة التركية فى مصر اسما لاجسما ولارسما وأعقب ذلك اختلالات وارتباكات وحروب داخلية امتدت زيادة عن عشرين سنة بين هؤلاء الاحزاب المختلفة وبعضها وآل الامر أخيرا الى أن تقلد زمام الاحكام مملوكان اسمه ابراهيم بك وآخر اسمه مراد بك واقتسما الاحكام فيما بينهما فاقتعين ابراهيم بك للحج وتعيين مراد بك لمشيخة البلاد ورقيا كثيرا من مماليكهم الى رتبة البكوية وقلداهم وظائف مصالح البلاد وظلم العباد ومضى على ابراهيم بك ومراد بك ثلاث سنوات وهما فى حالة ظلم واستبداد ومع بعضهما على سكينة ووفاق يقتسمان ايراد البلاد فيما بينهما بالسوية لايقدمان منها للدولة العثمانية حسابا ولايردان جوابا فوشى بهما والى مصر المعين اسما من طرف الدولة الى السلطان عبد الحميد بما هما فيه من الاستقلال بمالية البلاد والتمس أن يرسل جيشا الى مصر لايقافهما عند حدهما فسار الجيش فى اسطول تحت قيادة قبودان باشا ولما وصل الجيش الى الاسكندرية خاف البكوات خوفا شديدا وائتمروا فيما بينهم على الدفاع وجمع مراد بك عساكره ومماليكه وسار لمقابلة قبطان باشا فهزمه وجيوشه وبددشمله ومازال قبطان باشا سائرا بعساكره ينهبون ويخربون فى البلاد حتى دخل القاهرة ونزل فى بيت ابراهيم بك وهو القصر العينى الآن فعرض جميع أمتعة البكوات المنهزمين للبيع مع حريمهم وأولادهم ومماليكهم وبعد ذلك عكف قبطان باشا على اصلاح الادارة فاصلحها حسبما يوافق ارادة السلطان عبد الحميد ثم عاد الى القسطنطينية بعد أن أقام اسماعيل بك على مشيخة البلاد وهذا عهد امارة الحج الى صديقه حسن بك الجداوى واتفقا معا على اقتسام ايراد البلاد وعادت الامة المصرية والايالة التركية العثمانية فى كرب وهم وحزن وغم ومصاعب وأتعاب ولم تزل خلاصها من هذه الامم الظالمة من باب الى حد سنة ١٧٩٨ بعد الميلاد

وفى مبادى هذه السنة رأى نابليون بونابارت أن فرانسا لابد من أن يكون لها السلطة على مصر فرتب غزوة مركبة من ٤٠٠٠٠ مقاتل عليهم أربعون قائدا اختارهم بنفسه وفئة من رجال العلم بين مهندسين وجغرافيين وغير ذلك ينوف عددهم عن المائة نفس وسار من مينة طولون فى اسطول بلغ عدد مراكبه نحوا من خمسمائة مركب عليها نحو خمسين ألف نفس وفى ٩ يونيه سنة ١٧٨٩ وصلوا الى مالطة ومنها ساروا قاصدين الاسكندرية فأوجست انكلترة خيفة من هذه الحملة فأنفذت نلسون أحد كبار أميرالاياتها فى اسطول ليتبع خطوات الاسطول الفرنساوى فى البحر الابيض المتوسط ولما بلغ بونابارت ذلك أمر بتوجيه اسطوله غربى الاسكندرية ببضع مراحل وأن يكون على حالة دفاعية على الدوام

وفى هذا الوقت كان ابراهيم بك ومراد بك متقلدين زمام الاحكام فى مصر فى حالة استبداد وجور عاسف كما كانت عادتهما من قبل ولما وصل الاسطول الفرنساوى الى ثغر الاسكندرية أرسل أحد قواده لطلب القنصل فتوجه الى بونابارت فى الحال فسأله عن حال المدينة فأخبره بما كان من ورود الاسطول الانكليزى وأن الاهالى فى يقظة واستعداد وكتب بذلك السيد محمد كريم قيم الاسكندرية الى مراد بك يعلمه الخبر وكان هو وابراهيم بك فى القاهرة وقال له ان العمارة التى ظهرت أمامنا فى البحر لايعرف لها أول من آخر فلما قرأ مراد بك الجواب أخذه الغضب والحدة وقصد ابراهيم بك وأعلمه الخبر فأرسلا الى

سائر وجوه البلاد وكبار الدولة وعقدوا مجلساً جامعاً قرروا فيه

أولا – أن يسير مراد بك فى فرقة من الفرسان على الشاطئ الغربى من فرع رشيد من النيل نحو الاسكندرية لتوقيف العساكر الفرنساوية عن التقدم وثانيا ان ابراهيم بك يعسكر بمن بقى معه من الجند على الشاطئ الشرقى عند بولاق لحماية القاهرة وثالثا أن يرسل بكير باشا الوالى من طرف السلطان يستمد الباب العالى

وأما بونابارت فانه أنزل عساكره وسار وتغلب على الاسكندرية من بعد مدافعة خفيفة من أهلها ثم سار بعساكره متوجها الى ناحية القاهرة من الجهة الغربية للنيل ولاقى فى طريقه مراد بك بعساكر المماليك فهزمهم العساكر الفرنساوية وارتدوا على أعقابهم خائبين وفى يوم ٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ هجم طوائف المماليك هجوما باسلا على العساكر الفرنساوية فى الواقعة المشهورة التى حصلت فى نواحى الاهرام فهزمهم الفرنساوية شر هزيمة وأبادوا خيولهم المطنطنة ومن بعد مضى ستة أيام دخل الفرنساوية مدينة القاهرة وفى ظرف سنة تغلب الفرنساوية على كافة أنحاء المملكة المصرية

وفى فصل صيف سنة ١٧٩٩ صار طلب نابليون الى فرانسا بالنسبة لاهمية حالة الاعمال هنالك فترك القائد كليبر خليفة عنه فى ضبط وحفظ المملكة التى تغلب عليها وكان كليبر على غاية من الثبات والاقدام فى هذه المأمورية الا أن أحد الشوام ذبحه فى بيته الذى كان موجودا بالازبكية فخلفه القائد مينو فهجم عليه الجيوش الانكليزية والتركية تحت قيادة القائد أبركرومبى فى نواحى مدينة كانوب (أبوقير) وألزموه بعد بضع أيام قليلة من هزيمته بتسليم الاسكندرية الى الانكليز فرضى بذلك وبالانجلاء عن مصر وعاد بجيشه الى فرانسا فى سنة ١٨٠١ بعد الميلاد ومن ثم أعيدت مصر الى الدولة العثمانية بمساعدة الامة الانكليزية وما أسرع وقوع اختلافات شديدة وحروب داخلية عديدة بين بقايا المماليك مع بعضهم وبينهم وبين الدولة العثمانية كانت نتيجتها أخيرا تعيين محمد على باشا فى سنة ١٨٠٦ بعد الميلاد واليا من طرف السلطان العثمانى على مصر وهو مقدونى المولد وخدم فى الجيوش التركية وأظهر فى خدمته هذه بسالته وشهرة اسمه حتى آل أمره الى أن صار قائدا أحد الاحزاب المتحاربة فى مصر

﴿ محمد على باشا ﴾

نال محمد على باشا المصاعب والمتاعب والعذاب الاليم من المماليك حتى استحوذ على فرمان من السلطان محمود العثمانى بولايته على الديار المصرية وكان قبل هذا الفرمان متقلقل الحركات على خطر من المصائب والآفات المتسلطنة فى مصر من المماليك وحروبهم العدوانية فيما بينهم ولما رسخ قدمه وقويت شوكته سعى بعض الناس فى المصالحة بينه وبين المماليك وكان رجلا ذا قريحة واقدام تام وقدم نفسه لاشغال عود النظام فى مملكته وما كان يرتاب ولا يتردد فى أى طريقة من الطرق يستعملها فى تمام مرغوبه ومقصده فعكف فى مساعيه الابتدائية على خلاص البلاد وخلاص نفسه من جور وفظاعة المماليك وعزم على ابادتهم ودمارهم وتم ذلك فى سنة ١٨١١ بعد الميلاد بحيلة وخديعة أجراها عليهم وذلك أن السلطان كلف محمد على بقهر الوهابى الذى كان استفحل أمره فى بلاد العرب وأمره باخضاع الوهابيين وتخليص بلاد العرب من أيديهم فانتهز محمد على فرصة ما كان يبغيه من دمار

المماليك

المماليك حتى من بعدها يلتفت الى أشغاله وينظم أحواله فأجاب محمد على باشا طائعا مختارا الاوامر السلطان محمود وصار يجمع القوى اللازمة لتلك الغزوة وخشى أنه لو سارت هذه الغزوة قبل اتمام مقصوده ربما لا تكون البلاد فى أمن من المماليك وبعد أن رتب الحملة صورة وجعلها تحت قيادة ابنه طوسون بك أمر بخروج الحملة وقوادها وعسكر بهم فى الحصوة المسماة بالعباسية الآن ودعا جميع الاعيان والامراء والمماليك لوداع ابنه طوسون باشا والاحتفال بخروجه ورجاله الى الغزوة اللازم اجراؤها حسب الفرمان السلطانى وفى أول مارث سنة ١٨١١ اجتمع الناس وورد المماليك الى القلعة أفواجا وصار محمد على باشا يستقبل المماليك ويرحب بهم فى سرايته ويأمر لهم بالقهوة ولما تكامل الجمع وجاءت الساعة الموعودة أمر محمد على باشا بمسير الموكب فسار وكل فى مكانه منه وكان المماليك فى الخلف حولهم الفرسان والمشاة حتى اذا قربوا من باب العزب من أبواب قلعة القاهرة وساروا فى طريق ضيق منحدر بين أسوار عالية أمر محمد على باشا بغلق الابواب وأشار الى الارنؤد فهجموا على المماليك بغتة فارتاعوا وحاولوا الفرار فلم يجدوا لهم ملجأ وسقط المشاة على المماليك من خلفهم ضربا برصاص البنادق فأرادوا الرجوع الى الخلف فلم يتمكنوا من كثرة الخيول وضيق الطريق وقتلوا جميعا عن آخرهم ولم ينج منهم أحد وبواسطة هذه المذبحة الشنيعة انقرضت طائفة المماليك وحصلت الراحة فى البلاد وخلص من ظلمهم وفسادهم العباد

ومن بعد هذه صار محمد على باشا خالصا حرا فى كونه يجرى مشروعه من دون انقطاع فوطد شوكته فى مصر مع الثبات التام وأرسل جيوشه تحت قيادة أولاده وتغلبوا على بلاد الوهابية من أعمال بلاد العرب وأخضعوا تلك البلاد حتى صيروها تحت سلطة أبيهم محمد على باشا

ولو أن تاريخى هذا على غاية من الايجاز الا أنه لا ضرر فى أن أسرد هنا تاريخ الوهابى لانى رأيته لا يستفاد منه شئ فى الكتب العربية فجمعته من اللغات الاجنبية فجاء موفيا بالمراد واسع الامتداد مندرجا فيه كافة ما حصل من الوهابيين وما جرى بينهم وبين العثمانيين

﴿ المذهب الوهابى ﴾

من أعظم الثورات المشهورة وأكبر الفتن المذكورة التى شاهدتها بلاد العرب من عهد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الثورة التى حصلت من الوهابيين وذلك أنهم أثبتوا فى حماستهم العسكرية وشجاعتهم البدوية شجاعة العرب القديمة وتعصبهم فى الدين وسيرهم فى أقوم طريق مبين وكان مؤسس هذه الثورة وصار اسمه لقبا عليها وعلى نفس ما شرعه من العقيدة الدينية هو شخص اسمه عبد الوهاب من نسل قبيلة بنى تميم فى نواحى نجد ومن عائلة اسمها الوهابية وأطلق على ما كان متمسكا به من العقيدة اسم المذهب الوهابى أو الدين الوهابى وكان أبوه شيخ هذه العائلة وكبيرها وكان مولد عبد الوهاب المذكور فى سنة ١٦٩١ بعد الميلاد فى قرية تسمى العينية من اقليم العارض فجاور فى أثناء شبابه بمكة والمدينة ونزل البصرة وبغداد وجاور فى مدارس المدن المشهورة فى الشرق ولما رأى فى أثناء سياحاته العديدة أن الدين الحقيقى للاسلام دخله الفساد الكلى وتسلطت عليه الخزعبلات والمنكرات فى القول والفعل وأن معظم الترك والعجم صاروا من الروافض وأهل البدع عزم وصمم فى نفسه على اصلاح ما أفسده العجم المفسدون والترك المجرمون وكانت أعماله بغاية التؤدة والرزانة وتدبيره وذكاؤه وما هو عليه من العلم والحكمة كان حافظا له احترام أهل بلاده فأدخل فى مذهبه منهم جملة بكونه نشر

عقيدة هذا الدين فى مؤلفات ومصنفات اشتهرت بين أيدى أهل بلاده بالفضل الكامل والقبول الشامل

وكانت ديانة هذا المذهب وسياسته على حد من الايجاز أشبه باصلاح اسلامى مثل الاصلاح الانجيلى عند المسيحيين وأضاف الى هذا المذهب العقائد البدوية ذكر فيها أن قائد الامة أو العشيرة الواحدة تكون له السلطة الدينية والبلدية فى عشيرته أو أمته وكان الوهابيون فى عقيدتهم ومذهبهم على طريق أهل السنة والجماعة والاساس الاصلى لدينهم هو توحيد الله سبحانه وتعالى لا يشركون به شيأ ويعتقدون أن النبى صلى الله عليه وسلم انسان بشر أدى ما يجب عليه من ابلاغ الرسالة الالهية ورفضوا جميع تفاسير القرآن الخرافية المكذوبة وقرروا أحاديث أهل السنة والجماعة وبما أنهم يراعون أن عموم الناس مستوون عند الله رأوا أن الاستمداد والاستغاثة بشفاعة الذين توفوا من الاولياء والصلحاء والانبياء اثم وخطيئة ورأوا أن احترام وتعظيم رممهم البالية وعظامهم الخالية زيادة عن احترام أى بشر من الامور المبتدعة والبدع المخترعة ومن أجل هذا رأوا أن الشواهد والقباب والابنية المصنوعة على مقابرهم هى رجس من عمل الشيطان وأمور مبتدعة من بنى الانسان فحرموا زيارتها والتوجه اليها والاستغاثة عندها وان الحلف أو القسم بمحمد صلى الله عليه وسلم جريمة كبرى ويلعنون الاتراك لعنا مؤبدا ولا يجعلون لمحمد صلى الله عليه وسلم لقب سيد فى صلاتهم عليه ولا يخضعون اليه ولا يحترمونه مثل العبادة الوثنية ويقولون ان العمل بهذا هو عمل عباد الاوثان

وأما فى الآداب فهم على نقاء وصفاء وصلابة فانهم يحرمون الموانع الطيارة وجميع المواد المخدرة ويحرمون كافة أنواع الفجور والفسق والعدول عن العدل والانصاف ومنع الصدقات والعمل بالحيل والخداع والاغتصاب ولعب الشطرنج والنرد والعيوب الاخر المتسلطنة فى المدائن المقدسة وأما فى شهامة التعصب الحقيقى للدين فانهم يغيرون على كل مادة صغيرة مخلة بالدين الحق ويجعلونها مادة كبيرة فى الشرع ومن بعد الحرب الذى وجهوه ضد الاولياء والقبور وجهوا أيضا وغر صدورهم بالخصوص الى الملابس الحريرية والترفه فى المعيشة وحرموا بالكلية لبس الحرير وشرب الدخان وحلق الرأس ماعدا ضفة الشعر التى تركها لهم قدماء المسلمين ومن الاعمال التى لا يجوز فعلها عندهم الصلاة على النبى على السبحة والبكاء والنحيب على الميت وكانوا على اعتقاد الوضوء والحج الى مكة واثم الحجر الاسود ورمى الجمار

ولنسرد الآن على وجه الايجاز تاريخ هذا المذهب وما حصل من أجله من الوقائع فى صحارى بلاد العرب وذلك أنه فى نحو سنة ١٧٤٦ بعد الميلاد عندما صار الزمام عبد الوهاب بأمر من حاكم الحسا أن يترك قريته ومسقط رأسه وكان فيها من نحو ثمان سنوات بصفة شيخ وبث فيها عقائد مذهبه وأدخل فيه كثيرا من الرؤساء المجاورين لقريته فعندما نجا من سيف الذبح توجه الى الدرعية واستحوذ على صداقة مأمنه ومنزله من محمد بن سعود شيخ بنى مقرن وهم فرع من ولد على المنسوب الى قبيلة عنزة فاستمر فى مأمنه هذا يبث عقائده ويلح على التمسك بها حتى استحوذ على قوة كافية لتوسيع نطاق ما هو مصمم على فعله من الاصلاح وأن يكون له طاقة فى استعمال قوة يخضع بها الطاغين المضلين عن السبيل الحق للدين فقدم له بعض القبائل والعشائر المنتشرة فى الصحارى الوسطى لبلاد العرب خضوعهم الاختيارى وطاعتهم وانقيادهم لما يأمرهم به والبعض من القبائل الاخر اتحدوا ضده

ويجمعوا

ويجمعوا على صده ورفضوا الاعتراف بحكمه دنيويا كان أو روحانيا ولاجل زيادة وقوع النشاط فى المصلحين المستجدين عرفهم عبد الوهاب بحكمته وفصاحته وعذوبة لسانه أن المقصود من حمل السلاح هو مجاهدة الملحدين وهلاك الكافرين وارعاب المفسدين الذين يفسدون فى الدين والارض ولا يصلحون فأولئك هم الذين تجب المجاهدة فى سبيل الله فيهم وردعهم حتى يسيروا على الطريق المستقيم ولا يخشوا بدين الله العزيز الحكيم وأضاف انه مما يجوزاهم على حسب الشريعة من سلب ونهب هؤلاء وتقسيم الغنائم التى يتيسر الحصول على اغتنامها من هؤلاء بين المحاربين على موجب ما نص فى القرآن الشريف والشرع المنيف وأشعل فى صدورهم نار الحمية العربية والتعصب فى الدين وحفظ قواعده على طريق متين

ومن المحتمل أن المؤسس الاكبر لهذا المذهب لم يتقلد أدنى وظيفة أخرى سوى أنه كان رسولهم المهدى أو حاكمهم الديانى وكان مقره الثابت فى الدرعية بأرض نجد حتى مات فى سنة ١٧٨٧ ميلادية من بعد أن تقدم فى العمر حتى بلغ خمسا وتسعين سنة واستحوذ على الدرجة العالية من القناعة وأسر القلوب بفصاحة كلامه وعذوبة منطقه وكان له قوام عجيب فى السياسة والحروب وما يحصل من الوقائع والكروب واستمر الى أن بلغ السيادة القصوى بسيفه فى بلاد العرب وكان فيه طوع ولين مثل محمد صلى الله عليه وسلم وتزوج بعشرين من النساء أولدهن ثمانية عشر طفلا

وكان الحامى الحربى للعقائد الجديدة والمؤسس السياسى للحكومة الوهابية والدولة الدرعية النجدية هو محمد بن سعود وكان متزوجا بابنة عبد الوهاب ولما ابتدأ فى أعماله اقب بلقب الامير واستصحب معه ابنه الاكبر عبد العزيز وكانت قوته فى الابتداء صغيرة حتى انه فى مناوشته الاولى مع عدوه كان معه سبعة من الهجن وبينما كان حضرة هذا الرسول المحترم مكلفا بادخال الناس فى دينه فى الدرعية تغلب محمد ابن سعود وابنه على نجد وأغلب العشائر الكبيرة من العرب الذين يأتون كل سنة الى هذه الاراضى فى طلب المرعى وكان أقدم أعدائهما وأشد كراهة لهما هو عرار شيخ الحسا فأرسل عليهما أول جيش فى سنة ١٧٥٧ بعد الميلاد فهزم محمد بن سعود هذا الجيش وبدد شمله فسار عرار بنفسه فى رأس ٤٠٠٠ مقاتل وأربع مدافع برية وحاصر الدرعية فصار صده وطرده والتزم على القهقرة مع الفشل وعدم الانتظام ولما مات ابن سعود فى سنة ١٧٦٥ بعد الميلاد صار ابنه عبد العزيز قائدا بمفرده على الجيش الوهابى وبواسطة شجاعته ومساعيه وأعماله التى لا تكل ولا يتعب منها امتدت مظفرات الوهابيين ونصراتهم الى أقصى أقاليم بلاد العرب وكان مكرامى شيخ نجران عدوا ألد لهم من قبل فصار تابعا خاضعا لهم وكذا انقاد الشريف أبو عريش الى الطاعة والخضوع وبواسطة ما أجراه الوهابيون من مثل هذه الاعمال انتشرت العقائد الجديدة من سواحل البحرين الى تخوم مخا وعدن وبما أن مواشى وأنعام القاطنين فى تلك النواحى سلبها الوهابيون دخل الكثير منهم فى الدين الوهابى لاجل خلاص أملاكهم ومواشيهم وأثبتوا للوهابيين صدق تعلقهم لهم ودخولهم فى دينهم بكونهم أغاروا على جيرانهم وسلبوا أموالهم وأملاكهم

ومن بعد مدة استمرت فى محاربات شديدة ووقائع عنيدة دخل جميع بلاد العرب فى العقائد الوهابية أى العقائد الاصلاحية للديانة الاسلامية وصارت نجد أيضا فى حالة سياسة مدنية جديدة وبدل أن كانت جهاتها منقسمة الى عدة عشائر وشعوب صغيرة منفصلة عن بعضها ومستمرة فى حروب وكروب

بين بعضها صارت مقر دولة قوية وسلطنة سياسية مثل سلطنة الخلفاء القدماء ولرئيس هذه الدولة السلطة فى الاعمال الدينية والدنيوية ومع ما كان عليه الوهابيون من الحروب والمبارزات فى بلاد العرب لم يعتدوا على حقوق الحكومتين المجاورتين لهم وهما حكومة بغداد والحجاز وكانت قوافل الحجاج تمر من وسط أراضيهم من غير أن يحصل لاى قافلة ضرر أو انزعاج وكانوا فى أحوال أخوية وديه مع الشريف سرور شريف مكة وفى سنة ١٧٨١ بعد الميلاد استحصلوا على رخصة منه فى أداء حجهم وطوافهم بالكعبة فتولد من زيادة قوتهم ونفوذ شوكتهم اشتعال نار غيرة الحسد فى قلب الشريف غالب وفى ظرف بضع سنين من تقلده الحكومة وتوظفه شريف مكة بعد الشريف سرور أعلن حربا على الوهابية وكانت طرائق هذا الحرب مثل طرائق حرب البدو متقطعا بهدنات صغيرة قصيرة المدة ولما انتظمت مخابرات الشريف غالب مع الدولة التركية العثمانية لم يهمل أدنى طريقة يمكنه اجراؤها فى تمكين الدولة العثمانية من دخول عساكرها فى بلاد العرب لاجل الوقوع بالوهابيين الاوأجراها وأثبت أنهم من الملحدين الكافرين وأن معاملتهم مع قوافل الحجاج التركية من أقبح الاعمال الفاسدة المضرة بالدين وبمثل هذه الاقوال عرض للدولة العثمانية ولاة بغداد من الباشوات الحكام بما أنهم كانوا يشاهدون فى كل سنة غارة وهجوما على الاراضى المجاورة لبغداد من هؤلاء الشائرين وكونهم ضربوا اسنويا ضرائب وعوائد يجمعونها من قوافل الاعجام الذين يتوجهون للحج نظير مرورهم من أرضهم وخفارتهم فى الصحارى

ولما تراءى أنه لا توجد جهة فى الحد الشرقى أعظم قبولا لتوجيه الحرب فى داخل أرض العدو وأحسن من نواحى بغداد جهز سليمان باشا والى بغداد فى سنة ١٧٩٧ تجريدة مؤلفة من ٤٠٠٠ الى ٥٠٠٠ عسكرى من العساكر التركية للحملة على الدرعية والهجوم عليها وزاد عليهم ضعفهم من البدو المحالفين للدولة العثمانية وجعل الجميع تحت قيادة وكيله وسار الوكيل بهذه القوة فبدل أن يتقدم مباشرة الى الدرعية حاصر قلعة الحسا وكانت قلعة حصينة رصينة فقاومت هذه القلعة أعمال الهجوم التى وقعت عليها زيادة عن شهر حتى وردلها قوة امدادية عظيمة تحت قيادة سعود بن عبد العزيز فألجأ الاتراك لرفع الحصار والقهقرة وفى أثناء قهقرة هذه الحملة سبق أمامهم هذا القائد واجتهد فى توقيفهم وصدهم حتى يهلكوا وذلك أنه جلب جمولا من الملح على ظهور الجمال ورماها فى جميع الآبار التى كانت موجودة فى طريق سيرهم فمن ثم انجبر عساكر بغداد على الوقوف وعدم السير واستقر الجيشان على مرأى من بعضهما مدة ثلاثة أيام من دون أن تحصل أدنى مخاطرة فى عمل هجوم وأخيرا عقدت بينهما هدنة لمدة ست سنوات وتوجه كل من الجيشين بسلام الى بلاده

وكانت هذه الغزوة من أتعس الغزوات على الترك وأشأمها لان الوهابيين عرفوا جيدا الطرق التى بها يكيدونهم وينكؤنهم ثم انفسخ عقد الهدنة وفى سنة ١٨٠١ هجم سعود فى رأس ٢٠٠٠٠ محارب على كربلا وهى مدينة قبر وجامع الحسين بن على بن أبى طالب وكان ولم يزل هذا القبر على غاية من الشهرة والفخامة والاجلال مطروقا من أزمان طويلة بزوار المسلمين من الفرس والترك والعرب فدخل سعود المدينة من بعد مقاومة خفيفة من أهلها وكان سور مدافعة المدينة مركبا من أفلاق نخيل مرصوصة خلف حائط من طين وذبح من أهلها نحو من ٥٠٠٠ نفس وبينما كان سعود فى وسط هذه المجزرة المهولة اذ سمع صراخ رجل متعصب من رأس برج اقتلوا اخنقوا جميع هؤلاء الكافرين

الذين يجعلون مع الله الها آخر ومن شدة ما كان عليه سعود من الحنق والغضب أمر بأن لا يبقى منهم أحدا الا الضعفاء من الشيوخ والنساء والاطفال ثم وجه الوهابيون بعد ذلك حنقهم وتهورهم نحو القبر وكان مشحونا بالاموال والذخائر ونفائس الجواهر الواردة اليه من الترك والعجم وهدموا القبة وكانت جميعها منقوشة من الداخل بالذهب وفي أثناء الهدم سمع السلابون صوت ان الله يغفر للذين يدمرون مثل هذا ويرجمهم ولا يغفر للذين يشيدونه ويعذبهم ووجد الوهابيون خزائن وكنوزا بمبالغ جمة كانت جمعت رويدار ويدا من زوار هذا القبر الواردين اليه من الاعجام والاتراك احتراما وتعظيما للامام الحسين وكان معلقا على القبر لؤلؤة كبيرة مرصوص بالقرب منها عشرون سيفا محلاة جميعها بالاحجار الكريمة وأوان وقناديل ذهبية وفضية وياقوت وفيروز والماس ومواد من الذهب والفضة كل ذلك استحوذ عليه سعود وجرد البيت من أمتعته وأثاثاته الثمينة ووجد فيه نحو امن ٤٠٠٠ شال كشميري و ٢٠٠٠ سيف وكثير من البنادق والاسلحة كل هذا صار تكويمه كوما واحدا وصار توزيعه على العساكر وقت خروجهم من المحل وفي ظرف خمسة أيام جعلوا هذا المحل أثرا من كوم رماد وبينما كان الوهابيون مشتغلين بنواحي شاطئ نهر الفرات اذ دخل الشريف غالب في نجد وتغلب على شعرة قرية صغيرة من أعمال قاسم وكان في حروبه هذه تارة غالبا وتارة مغلوبا فتدبر عبد العزيز في أحواله وشرع في الغارة على الحجاز بأكبر قوة وأعظم شدة ما ظهرت عليه أبدا قبل وكان سعود حمل بجيوش أبيه في وسط القبائل الجبلية الموجودة في تخوم اليمن وكان في ضمن هذه العشائر أبو نقطة شيخ عسير فترك له سعود كفالة الذين اعتنقوا الدين الجديد وأذعن القبائل الموجودة في الناحية الشرقية من مكة الى سعود وعهد زمام حكومة هذه الجهات الى عثمان المضايفي وكان عديل الشريف غالب الا أنه ألد الاعداء له من سنين عديدة مضت وفي سنة ١٨٠٢ حاصر الطائف وأخذها وجعل عاقبتها مثل ما آلت اليه كربلا بعد أن قاومته مقاومة شديدة فتولد من هذا الخلاف كونه أصدر أمرا لعساكره بأن لا يبقوا كبيرا ولا صغيرا الا قتلوه فقتلوا تحت السيف نحوا من ٨٠٠ نفس صبرا لكنهم لم يتعدوا على النساء وراعوا حرمتهن وأحرق الكثير من المنازل بعد أن نهب جميع ما في داخل الدور والاماكن وهدم جميع القبور الطاهرة وكان من ضمن هذه القبور قبر العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم أشهر وأفخر محل يزار في أنحاء بلاد العرب في جماله ونظامه وطهارته وهدم سراى الشريف غالب وبستانه المفتخر وجعلهما خرابا بلقعا الا أن كنوزه وذخائره كانت حملت من قبل الى مكة وتقوى الوهابيون بهذه النصرة العظيمة وكانت أول حادثة في توقيف وتعطيل قوافل الحج

وفي السنة التي جاءت بعد تغلب الوهابيين على جميع أرض الحجاز ومن بعد عدة وقائع مع الشريف غالب عسكر سعود وعثمان المضايفي معسكرهما بالقرب من مكة على مسافة ساعة ونصف منها وهجما على الضواحي الشرقية لمكة وتغلبا عليها وكانوا يغيرون من هذه الجهة على نفس مكة فأما حاكم مكة فانه ما حصل له خوف ولا زعزعة ودافع عن نفسه بشجاعة وبسالة وحفر لغما بالقرب من سراينه صد الوهابيين عنها موقتا ثم حول الوهابيون مجرى المياه العذبة الداخلة في مكة الى جهة أخرى عنها وكانت واصلة اليها من عرفات فقطعوا عن مكة المياه فاضطر الاهالي من بعد حصار المدينة شهرين أو ثلاثة للمؤن والذخائر والمياه وسعرت الكلاب والقطط من الجوع وكانت مخازن المأكولات تحت يد الشريف

وعساكره فقط ولما فرغت هذه المأكولات تقهقر الى جدّة مع جميع عائلته وأتباعه ومتاعه وقبل خروجه من سرايته أضرم النار فيها لاجل حرق ما فيها من الادوات والامتعة التي ما أمكنه حملها معه وبهذه الحالة خلصت مكة من شره وعاقبة أمره وفي اليوم الثاني خرج وجوه أهل مكة وعمدها لملاقاة الوهابي والخضوع اليه وتسليمه مكة لما يعلمون جيدا فيه من حسن النظام واعتمدوا على عدله في عدم ضررهم وخراب أملاكهم وصدرت الاوامر في الحال من رئيس هؤلاء المنصورين للاهالي والسكان بفتح جميع دكاكينهم وكل شئ يطلبه العساكر يباع لهم ويدفع ثمنه في الحال نقدا ولا ريب أن هذه الحركة هي رأس الادارة والسياسة الا أن الفاتح الوهابي المتصنع في أموره نسب ذلك الى كرامة وقال للعلماء في مجلس حافل انه رأى محمدا صلى الله عليه وسلم في المنام وقال له ان أخذت قمحة أو شعيرة من مكة المشرفة جبرا عن أهلها فانه يلزم أن يموت بعد ثلاثة أيام لكنه غضب جيدا من هذه المبتدعات التي هي أشغال عباد الاوثان وغير محترمة في الشرائع الوهابية وأمر في الوقت بهدم ما ينوف عن ثمانين قبة فاخرة البناء كانت على قبور ذراري الرسول صلى الله عليه وسلم وعلمائها مدار رونق مكة وبهجتها وسوّاها جميعها بالارض حتى القبة التي على قبر خديجة رضي الله عنها وأبطل جميع القهاوي والخارات وجميع محال المشروبات والمسكرات وكسر أوانيها وأراق مائعاتها وأمر بجمع جميع الشيش والجوز وعيدان الدخان وأحرقها بحضوره وحرم شرب الدخان والكنيالك وجازى شاربيهما بأشد العقاب فانجبر الاهالي رغم أنفهم على الانقياد لهذا الامر من دون حصول أدنى مجادلة وألزمهم ترك الترفه والتلذذ بالمعيشة وعدم لبس الملابس المزخرفة ودقق في أمر ابطال الدعاء للسلطان في الحرم المكي بعد خطبة الجمعة وقلد زمام حكومة مكة الى عبد المعين أخي الشريف غالب وأرسل بهذا الفتح الجدير بالثناء الى القسطنطينية في مكتوب كتبه وهذا نصه

من سعود الى سليم اني دخلت مكة في يوم ٤ محرم سنة ١٢١٨ وأبقيت على حياة الاهل والسكان وهدمت القبور والقباب المشبهة بعبادة الاوثان وأبطلت الضرائب والعوائد الزائدة عن اثنين ونصف في المائة وقررت القاضي المعين من طرفكم لفصل الاحكام في هذه الناحية بالموافقة والمطابقة لاوامر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وشريعته وأرغب منك أنك في السنة القابلة تصدر أوامرك الى باشوات الشام (دمشق) ومصر (القاهرة) بان لا يرسلوا مع المحامل طبولا ولا زمورا الى مكة والمدينة لان الدين لا نفع له بهذه الاشياء المحرمة والسلام بيننا وسلام الله عليك تحريرا في يوم ١٠ محرم سنة ١٢١٨ موافق ٣ مايه سنة ١٨٠٣

ثم سار سعود بجيوشه من مكة قاصدا جدة فانتهز الشريف غالب فرصة مسافة الطريق واستعد لمقابلته وركب على سور استحكامات جدة مدافع جلبها من مدافع المراكب الموجودة في المينة وحاصر سعود المدينة أحد عشر يوما وقطع المياه عنها فهلك خلق عظيم من أهل جدة مما أصابهم من الظما ودافع أهلها عن المدينة بأجود المدافعة وأعظم الشجاعة والممانعة ولما يئس الوهابي من تغلبه على جدة انجبر على القهقرة الا انه ظهر فيما بعد أنه اختلس نحو من ٣٠,٠٠٠ ريال أو ٦٤٩٦ جنيه و ١٥ شلن حتى رفع الحصار وسار وبينما كان سعود متجها في سيره نحو الصحاري الشمالية من بلاد العرب اذ دخل الشريف غالب مكة وأعاد لنفسه حكومتها ولما تراءى له أنه لا يمكنه المدافعة عن هذه الجهة لاجل تأمين الزمن وعد سعودا بشروط يجريها معه وبالنسبة لسلطته وعلو منزلته استحوذ من سعود

على شروط ومحالفات جيدة لم ينلها أحد غيره من الرؤساء الذين اعتنقوا دينه ودخلوا فيه وكان لذلك منفعة كبيرة فى أرض الحجاز وهى أن قبيلة الحرابى القوية الشوكة والسلطان التزمت الطاعة والاذعان لكن ما كان اذعانها من غير حركة شديدة وأعقب اذعانها خضوع ينبع أيضا

وفى سنة ١٨٠٤ أضاف الوهابى المدينة الى فتوحاته وبما أن أهلها كانوا فى علاقة كبيرة مع الترك زيادة عن أهل مكة عاملهم بالرفق واللين وطلب منهم الخراج الا أن بعض الاملاك لم يحصل لها أذى ولا ضرر وكان أول اعتناء والتفات حصل من سعود هو هدم المزارات وسلب ما فيها من الكنوز والذخائر وفى أثناء حصار الوهابى المدينة سلب حاكمها معظم القسم الاعظم من خزائن مسجد النبى صلى الله عليه وسلم خصوصا الاوانى الذهبية وكان حاكمها فى هذا الوقت شخص اسمه حسن الخلجى زاعما خلاصها من هذا الهول الاعظم لكنه فرقها على أصدقائه ومحبيه وما بقى صار صيدا للقائد الوهابى فانه دخل الحجرة الشريفة وكان من ضمن ذخائرها وكنوزها الكوكب الدرى المرصع باللؤلؤ والالماس وكان معلقا فوق القبر الشريف فرأ الوهابى من بين الستارة والقبر الشريف وبخس بيديه كل شئ موجود وهتك حرمة الحجرة الشريفة وأخذ الكوكب الدرى وما كان موجودا من الاوانى الثمينة المرصعة بالجواهر الكريمة وأخذ حلقا ناوأساور وعقودا ولبا وموادا أخرى نفيسة كانت أرسلت هدايا من جميع أطراف وأكناف الممالك الاسلامية وكان أغلبها مهدى من طرف الحجاج حال وجودهم بالمدينة لاجل زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم وجمع سعود الوهابى كل هذا تحت يده وباع بعضه لشريف مكة وحمل الباقى معه الى الدرعية وكان أغلبه لؤلؤا وعقيقا وصار تقدير قيمة الغنيمة التى اغتنمها فكان ٣٠٠,٠٠٠ دولر يعنى ١٠ شلنج ٦٤٦٨٧ جنيه وهذه القيمة قليلة جدا فى قيمة جميع الاشياء والجوهرات والزخارف التى جمعت من المؤمنين من مدة عصور مضت فانها ولابد كانت مبالغ جمة لايمكن حصرها اللهم الا أن يكون حاكم المدينة وخدمة المسجد وفراشى الحجرة الشريفة سلبوها وصرفوها فى احتياجاتهم ولقد داعتر الوهابى من لمعان بريق الدنيا فى وجهه واجتهد فى هدم القبة الفاخرة الشاهقة البنيان وأصعد الفعلة عليها فرموا كرتها الذهبية والهلال الراكب فوقها الا أنهم لم يتيسر لهم هدم القبة مطلقا بسبب ما كانت عليه من صلابة البناء واحكامه بالرصاص المصبوب فيه والمغطى به وسقط اثنان من فوق سطح القبة من الفعلة فما تافترك الوهابى الهدم وقال الناس فى ذلك ان هذه معجزة من النبى صلى الله عليه وسلم حصلت بخصوص بناء مسجده وترك نفس القبر الشريف من دون أن يوقع به أذى ونهى سعود وحرم زيارته والتوسل به والصلاة عليه صلى الله عليه وسلم لان هذه الاعمال من أعمال عباد الاوثان وحرم جميع الشعائر الاشعائر ومناسك الحج فقط وحرض وحض فى المدينة ومكة على أداء الصلوات فى أوقاتها ودقق فى عدم لبس الحرير وشرب الدخان وأنواع المخدرات وشرب المسكرات ورتب شرذمة من العرب بأيديهم المساوق والنبابيت يطوفون فى الشوارع فى الاوقات المعلومة للصلوات ويسوقون الناس الى صلاة الجماعة من محل أشغالهم وأمر بأن جميع الذكور من بالغى الحلم فصاعدا يلزم أن يكونوا فى الجامع وقت صلاة الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء وكان يعاقب من خالف هذا الامر أشد العقاب وجرسوا وهتكوا امرأة محترمة حرة كانت تشرب فى شيشة تنباك فأركبوها حمارا وطافوا بها الشوارع معلقين الشيشة برقبتها ملفوفة وسطها والمنادى خلفها

واتفق موت عبد العزيز فى المسافة أو المدة التى بين التغلب على مكة والمدينة وذلك انه ذبحه واحد

من العجم في شهر اكتوبر سنة ١٨٠٧ وكان الوهابيون قتلوا واحدا من أقاربه فانتخب الوهابيون سعودا ابنه البكري خليفة من بعده باتفاق الآراء وكان في صفاته وأفعاله اللازمة لقائد دينى فائقا عن أبيه وكان تعلم الحرب من صغره وساق الجيوش الى الوقائع بعد ما بلغ من العمر اثنتى عشرة سنة فقط واستمر سنين عديدة كان هو المدبر فيها للحروب وله ينسب فتح الحجاز ومع ذلك فانه من الوقت الذى ابتدأت فيه سلطنته اشتهر بانه لم يحارب بنفسه في واقعة ولا دخل فيها بل كان هو المدبر لجيشه من وضع الى وضع على مسافة تامّة من خلفه وكان مشهورا بالجمال وكان لطيف الاخلاق والسجايا وله ذقن طويلة خارقة للعادة عن ذقون العرب وشوارب طويلة حتى كان يدعى أبا الشوارب وكان كافة العرب يمدحونه ويثنون عليه بالذكاء وجودة العقل وحب العدل والانصاف والفصل في المخاصمات والمشاحنات حتى أعداؤه

ولبث سنين عديدة من بعد موت أبيه لا يلبس الادرعا تحت قميصه وما كان يتوجه في الخارج الامع خفر منتخب حوله وقسم ممالكه الى عدة أقسام عهد كل قسم منها الى رئيس من الرؤساء من كبار مشايخ العرب ولقبه بلقب الامير فكان من واجبات هذا الامير تنفيذ واجراء العدل العام في قسمه ومساعدة جباية الخراج والعوائد ولم العساكر وجمعها للجيش وتولد من شدة الاحكام التى أجروها في سياسة اداراتهم الرغم في استتباب توطيد الامن والراحة العامة ضد العصيان والثوران وامتنع الاحزاب والعشائر المبغضين لبعضهم من حصول ما يوجب بينهم وقائع ومبارزات تكون سببا في سفك الدماء ولما استقام الهدوّ والراحة في جميع أرض الحجاز وجه الوهابيون غاراتهم وهجوماتهم وحملاتهم على ما جاورهم من الجهة الشرقية والشمالية وبما أن اقليم البصرة كان على غاية من الثروة في الاموال والانعام كانت شواطئ شط العرب ونهر الفرات الى غاية عناب ميادين للغارات والحملات سنويا حتى انه أغار عبد من عبيد سعود اسمه حرق في رأس فرقة قوية من العسكر غارات مختلفة في داخل الصحراء السورية وأوقع الرعب والانزعاج في عشائر العرب الموجودة في ضواحى حلب وفي سنة ١٨١٠ حمل القائد نفسه على سهول حوران وكان على غاية من السرعة في الحركة وما كان يظن فيه حصول حملاته في تلك الجهة فضلا عن كونه لم يحتاج لمدة شهر في مسيرها وحمل في غارته هذه على خمسة وثلاثين قرية فسلبها ونهبها وحرقها بعسكره من قبل أن يحصل من والى دمشق أدنى حركة في المدافعة عنها فضلا عن كونه لم يسمع بهذه الحركة الامن بعد الخراب والدمار بيومين وأما في الجهة الجنوبية فان الوهابيين لم يحصل منهم أدنى تأخير في بث ونشر سلطة جيوشهم على بعض الاقاليم والجهات التى ما كان حصل التغلب عليها وذلك أن أبونقطه شيخ عسير نزل في غلاقسنة ١٨٠٤ بجيش عرمرم مؤلف من العربان القاطنة في الجبال وأذاع الخوف والارتياع في البلاد ونهب كلا من مدينتى لحى والحديدة ثم عاد قافلا الى الجبال وفيها حفظ جميع الحدود اليمانية حتى مات في سنة ١٨٠٩ ومع كل هذا فان صنعاء عاصمة اليمن ما أغار عليها غارة ولا وقع عليها أدنى نوع هجوم مع أن سعودا كان عهد هجوم هذه المدينة الغنية ذات الثروة الى حمود وأبونقطة ولم يأمر أحدهم بالتغلب عليها ومن المحتمل أنه كان حافظا هذا التغلب لنفسه وشرع في مشروعه هذا وتيسر له الحصول على اغتنام غنائم وأسلاب جمة من نواحى الجهات الشاسعة لحضرموت وعمان وكرر عليها الحملات والغارات الى أن مال ملوك هذه الجهات بكليتهم الى طاعته والانقياد لسلطته واتفقوا مع القائد الوهابى هذا على أن يدفعوا له خراجا سنويا الا أنهم من بعد

سنة نكثوا طاعتهم له فساق الى ثلاث الجهات جيوشه واحتلوها مرة أخرى وأخضعوها وكذا دخل فى دين الوهابى جزائر البحرين وقطاع طرق الخليج الفارسى وعسفوا فى سلب ونهب تجارات هذا الخليج فأرسل الانكليز حملة من بومبى منعت هذه الحركة وكانت مهولة على التجارة والتجار

ولو أن الوهابيين كانوا فى عداوة ظاهرة مع الحكومة التركية من ابتداء منع وتوقيف قوافل الحجاج وحرمان الامة من الدعاء فى مساجدهم للسلطان فى الخطبة الا أنه لم يحصل لحد هذا الوقت أدنى حماس ولا نشاط من الباب العالى فى هذه المسئلة الا أن يوسف باشا والى دمشق جهز فى الحقيقة حملة للهجوم فى سنة ١٨٠٩ على اقليم الجوف الا أن هذا مجرد ظهور ورياء فقط لانه لم يحصل الشروع فى هذه الحملة مطلقا ولما رأت الدولة التركية أن الصحارى الواسعة الممتدة بين العواصم السورية والعواصم العربية لا يمكن الحصول منها على نقل المؤن والذخائر الكافية لعساكر مستعدة لحرب منتظم حتى لو عادت السلطنة التركية على المدائن المقدسة العربية فان المساعى والاحتياطات اللازمة لهزم الوهابى لابد من اجرائها من جهة مصر لان أهل الحجاز فى عوز شديد واحتياج أكيد لهذه الايالة بالنظر لجلب ما يحتاجون اليه منها فى معيشتهم وبالنسبة لما كان حاصلا من القلاقل والارتباكات فى مصر من بكوات المماليك صار محمد على باشا لا يمكنه أن يقيم حربا على أى عدو أجنبى فأصدر السلطان العثمانى له أمرا بكونه يمكنه اخضاع الحجاز بقفل مينا السويس والقصير على المراكب العربية التى تأتى اليها فرأى محمد على باشا أنه من مقتضى الفرمان الوارد له من ديوان القسطنطينية امتناعه بالكلية مما كان يتحصل عليه من منافع تجارة البحر الاحمر وكانت فى يده ورأى انقطاع هذه المكاسب والمنافع من تواردها فى صندوق ماليته

وأخيرا حكم الطمع وحب الشهرة على ألم البخل الموجود فى صدر محمد على باشا فرأى من حيث ان الباب العالى يرغب فى خلاص المدائن المقدسة والقبور الشريفة على يده وبهذا يكون له أعظم منقبة وأجل رفعة ومنزلة على جميع الباشوات الموجودة فى المملكة التركية فاستنشط سرورا فى نفسه لهذا الامر ثم ان السلطان أصدر فرمانا آخر يحرضه فيه ويستنفره ووعده بان يمنح ولاية دمشق لاحد أولاده ان أسرع فى حركته وتغلب على المدينة ومكة وخلصهما من يد الوهابى ولما كان محمد على من الضرورى له أن يكون عنده عمارة بحرية أو اسطول تحت طلبه لاجل نقل وارسال عساكره وذخائره أصدر أمره بانشاء ثمانية وعشرين سنبوكا من حمولة ١٠٠ الى ٢٥٠ طونولاته وعين اشغالها ١٠٠٠ نفس من الشغالة تمموها فى ظرف ثلاث سنوات

وفى شهر أغسطس سنة ١٨١١ لما صار الاسطول مستعدا للسفر جعل طوسون بك ابنه الثانى وكان عمره ثمانى عشرة سنة وأظهر دلائل شجاعته واقدامه فى ذبح المماليك المتقدم آنفا قائدا لهذه الحملة وكانت مركبة من قسمين خيالة ومشاة فأما الخيالة فهم مؤلفون من ٨٠٠ حصان أو فارس من الترك وعرب مصر والمشاة مؤلفة على الخصوص من عساكر الارنؤد وعددهم ١٥٠٠ نفس الى ٢٠٠٠ نفس تحت قيادة صالح أغا وعمر أغا ثم وصل الاسطول ينبع فى شهر أقطوبر وسلمت من بعد مدافعة استمرت يومين لان المدينة ما كانت محفوظة بالعساكر الوهابية بل بعساكر من عند الشريف غالب وكان أعلن نفسه أنه دخل فى مخالفة مع سعود وفى دينه أيضا

واستمرت المخابرة مع الشريف غالب عدة شهور لان هذا الشريف لما بلغه الاستعدادات الجارية

المهولة الحاصلة في مصر عند محمد على باشا تبصر في عاقبة أمره ورأى أن يتخابر معه سرا في أن يوصل له الاخبار الكافية عن حالة العدو وقوته ووعده بان يخلع طاعته له عند ظهور أول جيش تركى نزل في أرض بلاد الحجاز ومع ذلك فان طوسون استدل في الحال على أن حالة البلاد ليست كما قال الشريف وظهر له من دلائل الاحوال أن الشريف ليس صادقا في القول والفعل فيما عرضه من المحبة والصداقة وأنه رجل منافق منتظر لمن تكون الغلبة له ويكون معه وكانت الاهالى على غاية من الخوف والانزعاج من شدة سعود وسطوته اذا ثاروا من دون أن يحصل لهم نجاح يخلصهم مما هم فيه وكان عند طوسون قوام كاف لفصل بعض العربان المجاورين الى ينبع من الوهابيين

ولاجل الخلاص من هذه الحركة التى لا فائدة فيها الجارية بينه وبين الشريف عزم طوسون على الهجوم والحملة على المدينة وحكم بعقله وقريحته أن هذه الطريقة أجود له من كونه يسير على جدة أو مكة اذ ربما أن خديعة الشريف غالب تكون مخصوصة عليه وعلى عساكره من غوائل سعود وابتدأ سيره في غزوته في يناير سنة ١٨١٢ بعد أن ترك مقدارا من المحافظين في ينبع فتغلب في طريق سيره على مدينتى بدر والصفراء بعد مناوشة خفيفة وسلك الطريق من عند قرية الجديدة من درب ضيق جدا محصور بين سلاسل جبال وعرة واقفة جدا فسار في هذا الدرب الذى طوله نحو من ساعة ونصف ولما تكامل دخول عساكره في هذا الدرب حصل الهجوم والحملة عليهم بغتة بالقوة المجتمعة من قبائل الحرابى والوهابية فكان عساكر هذه القوة ساترة مهاوى الدرب على كل من جهتيه وكان مقدار هذه القوة ٢٠٢٠٠ مقاتل من المشاة ومن ٦٠٠ الى ٨٠٠ من الخيالة وجميعهم تحت قيادة عبد الله وفيصل ولدى سعود فبدل أن يتقهقر طوسون بجيشه الى قرية الجديدة وربما يمكنهم المدافعة عن أنفسهم فيها هربت العساكر جميعا خيالة ومشاة عند سماعهم أول صوت وقع عليهم من عدوهم فقاطع الوهابيون عليهم من الخلف بسرعة الجرى الخفيف وكبسوهم في طول الدرب وأوقعوا بهم وصب صوت البنادق ورصاصها على صفوفهم التى حصل فيها الفشل وعدم الانتظام وقتلوا منهم ١٢٠٠ نفس وكان من الممكن ابادة جميع الجيش لولا أن الوهابيين اندفعوا نحو الجبال وضبطوا الحملة والمدافع ومع ما كان من هذه الحالة الخطرة والمصيبة العظمى الكبرى فان طوسون لم يفقد شهرة شجاعته واقدامه وبسالته وكان يزعق على خيالته وفرسانه الفارين ودموعه تجرى على خدوده ويوبخهم ويقول لهم هلا كان يقف واحد منكم بجانبى واجتهد اجتهادا كليا في جمع عساكره الا أنه كان على غير طائل فاسرع بالرجوع مع اثنين من خيالة طقمه وغرق في وسط الاعداء بسيفه ليكفهم عن التعقب حتى وصل معسكره وكان موجودا في بدر ووضع النار في المعسكر وأحرق صناديق الذخائر الحربية لعدم وجود ظهور لحملها ثم نزل من أقرب مينة كان راسيا فيها بعض مراكب من مراكبه وسافر الى ينبع ومن بعده مضى بضع أيام التحق به ما بقى على قيد الحياة من عساكره

وتولد من حصول هذه الخسارة الجسيمة ضعف العساكر المصرية بالكلية وترك عربان مصر صالح أغا وعمر أغا وقالوا انه لا يمكنهم الحرب مطلقا في أرض الحجاز فأرسلوا الى القاهرة وحفظ الوهابيون البلاد الى سواحل البحر الاحمر وانضموا مع الشريف غالب نفسه ولما وصلت الاخبار بكسر العساكر المصرية وخسارتهم خسارة جسيمة الى مسامع محمد على باشا لم يهتم بما حصل ولا بالى بما وقع بل لم يصرف أدنى دقيقة من الزمن هباء منثورا وأسرع في الحال بالاستعداد وتجهيز غزوة جديدة وصارت الامداد

والذخائر والمؤن تردبوميا الى ينبع وأرسل محمد على نقوداجة لاجل توزيعها على مشايخ العربان ومن ثم انفصل كثيرمنهم من سعود وفى اقطوبر سنة ١٨١٢ تذكرطوسون أنه صار عنده قوة كافية لعمل اجتهاد ثان فى التغلب على المدينة وفتح له ذهب مصر بوغاز الجديدة الصلب وسار طوسون وجيشه حتى وصل الى أسوار المدينة النبوية من دون أن يقابل فى طريقه أقل مقاومة وكانت المدينة والقلعة مشغولتين بمحافظين من الوهابيين وعندهم المؤن والذخائر الكافية لحصار طويل فتعاظم وتفاخر رئيس الوهابية وعساكره بما حصل لهم من النصر فى الاول واعتمدوا على حصانة ورصانة قلعتهم وتركوا أنفسهم فى تكاسل واهمال مجرم فدخل الشجاع أحمد أغا المدعو بونابارتو مسرعا فى حركته الى الضواحى فلاقى فيها مقاومة ضعيفة وضرب العدو وألجأه الى داخل المدينة واستمر طوسون محاصرا المدينة مدة أربعة عشر أو خمسة عشر يوما لانه ما كان فى جيشه سوى مدافع جبلية صغيرة مقذوفاتها غير كافية لهدم سور استحكامات المدينة فأمر بعمل لغم تحت السور وحشاه بالبارود وبينما كان الناس مشغولين بصلاة الظهر اذ حصل اطلاق اللغم وانكسر السور ودخل عساكر الارنؤد المدينة وهرب الوهابيون منها حال الهجوم عليها وقتل منهم ١٠٠٠ نفس فى الشوارع وهرب ١٥٠٠ نفس الى داخل القلعة فسلط المصريون نيران مدافعهم عليها ونهبوا المدينة فى الحال ومن بعد مضى ثلاثة أسابيع لما وجد محافظوا القلعة أن مؤنتهم فرغت أذعنوا بالتسليم ووعدهم أحمد أغا بونابارتو بالسلامة والاطمئنان لأمنهم وأن يحضر لهم الجمال اللازمة لشيال عفشهم الذى يرغبون حمله معهم الى نجد ومع ذلك فقد فسخ هذا الوعد مع الفضيحة والخجل وبدل أن يعد لهم ٣٠٠ جمل أعد لهم ٥٠ فقط فالتزم المهاجرون ترك معظم مهماتهم وأدواتهم وبمجرد ما بعدوا عن ضواحى المدينة خرجوا خلفهم وذبحوا منهم الكثير على قدر ما أمكنهم وكانت هذه الفعلة من أفعال التتار الهمج المتوحشين ثم جمع أحمد أغا بونابارتو جميع رؤس القتلى من الوهابيين الذين قتلوا فى المدينة وضواحيها وبنى بها أشبه بنوع برج على قارعة الطريق السلطانى الموصل الى ينبع

ومن ضمن الذين امتازوا بشجاعتهم فى جيش الباشا وأظهروا اقدامهم وبسالتهم فى حصار المدينة والهجوم عليها شاب اصقوطلندى عمره عشرون سنة مولود فى مدينة ايدمبورغ عاصمة اصقوطلندى اسمه توماس كيث كان قندجيا فى الالاى ٧٢ من الهايلندر (أرض الجبال) مدة الغزوة الانكليزية فى مصر فأخذ فى هذه الغزوة أسيرا واشتراه أحمد بونابارتو من أحد العساكر وفى مدة خدمته لاحمد بونابارتو غير دينه وأسلم وكان يوجد مملوك صقلى عند سيده مقبول ومعتبر عند أحمد بونابارتو فسفه هذا المملوك يوما من الايام على كيث فجرد كيث سيفه من غمده وضربه ضربة كانت هى القاضية وفر كيث هاربا وكان اسمه فى هذا الوقت ابراهيم أغا واستغاث بحماية الست حرم محمد على باشا أم طوسون وكانت تحبه لما كان فيه من الخفة والنشاط فأوصت عليه ابنها طوسون بك وفى مرة ثانية أيضا حصل منه قلة حياء فى حق سيده حتى غضب عليه بالكلية فأمر طوسون بقتله فحاصر العبيد أودة كيث وأرادوا قتله فقفل باب أودته ووقف فراه شاهرا سيفه وأخيرا نط من الشباك وهرب الى سيدته الشفيقة عليه فسكن غضب طوسون فى الحال والمحقق مما يستحقه ابراهيم أغا من حسن المعاملة وكذا مما حصل من شجاعته جعله رئيس مماليكه وكان كيث هذا أحد الخيالين اللذين كانا واقفين مع طوسون فى درب الجديدة فرقاه الى رتبة ضابط خزندار وهى الدرجة الثانية فى أوردى الباشا وحارب فى المدينة وأظهر شجاعته

وبسالته وكان أول من صعد على السرم ومن بعد أن امتاز فى عدة وقائع أخر وفاق غيره من أقرانه جعله طوسون حاكم المدينة فى سنة ١٨١٥

وتولد من النصر الذى حصل للمصريين فى الجهة الشمالية للحجاز تقوية محمد على باشا وتشجيعه وأرسل ١٠٠٠ فارس خيال و ٥٠٠ من المشاة للحملة على جدة ومكة تحت قيادة صهره مصطفى بك وكان الشريف غالب بالتغلب على المدينة جدد خضوعه واحترامه للمصريين وأرسل نوابا من طرفه يدعون قائدهم للدخول فى جدة ومكة تحت كفالته وبعلاقته هذه ترك المضايفى وكان قائد القوى الوهابية فى تلك الجهة ولما وجد عثمان المضايفى نفسه أن لا طاقة له على المخاطرة فى الحرب تقهقر الى جهة الطائف وصار التغلب على جدة بفرقة قليلة من العساكر ودخل مصطفى بك بالجيش الاصلى مكة فى يناير سنة ١٨١٣ وتحفظ على أملاك المدينة وعدم سلبها بواسطة العساكر كما فعل سعود مع عساكره وانضاف ١٠٠٠ من العربان والعبيد وفى رأسهم الشريف غالب الى قوة الجيش المصرى وهجموا مباشرة على الطائف وتغلبوا عليها وصار ضبط عثمان المضايفى على الفور بواسطة رجال الشريف غالب وصار تسفيره الى القاهرة ومنها استصحبه اسمعيل باشا ابن محمد على باشا وسافر به الى القسطنطينية وقدمه مع مفاتيح المدائن المقدسة الى سلطانه وكذا اقدم هدايا وتقدمات كثيرة ثمينة الى السلطان وأرباب دولته وصدر الامر فى الحال بقطع رأس هذا النبيل ومن ثم فقد المصلحون أعظم مقدام وأكبر ضرغام وأجل حليف كان لهم فى أرض الحجاز

وتولد من تغلب المصريين على هذا الاقليم فتح طريق خالص لقوافل الحجاج وكانت توقفت مدة سنين مضت الا انه لم يحصل من تغلب المصريين كسر شوكة الوهابيين ولا ضعف فى قواهم لان جميع القبائل والعشائر الموجودة فى شرق الجبال الرابطة للصحراء الكبرى بالتوازى لساحل البحر الاحمر لم تزل معترفة بسيادة سعود وسلطته وأن المصريين ما تقابلوا أبدا مع الوهابيين فى ميدان مكشوف من غير أن يهزموهم ولما رأى محمد على باشا أن سير الشريف غالب هو عمل يوطد به ميثاق حلفائه المستنجدين به وخشى غائلته ورأى أن الامور فى مصر صارت فى حالة هادئة من المماليك وارتباكهم وقلاقلهم تبصر فى نفسه فوجد أنه من الضرورى له أن يتوجه بنفسه فى محل الواقعة حتى يتيسر له الحصول على توطيد سلطته على منوال أكيد وقدم ثابت فى أرض الحجاز فعرض بذلك الى الباب العالى ونزل من السويس مع ٢٠٠٠ من المشاة وجمع مثلهم من الفرسان وقطارا من الجمال يبلغ ٨٠٠٠ جمل من البر أما الجمال فلم يعش منهم الا ٥٠٠ ومات الباقى فى الطريق بسبب عدم وجود العلف والمرعى وعند وصول محمد على باشا الى مكة جذب الى نفسه قلوب الاهالى بكونه وزع عليهم هدايا جمة وأمر بترميم المساجد واصلاحها وقابل الشريف غالب فى الابتداء مقابلة ودية صادقة الا انه ارتاب منه بعد ذلك وان كان الاثنان حلفا على القرآن الشريف أن لا يتسبب أحدهما فى ضرر الآخر ولا فى فقد حياته الا أن هذا الحلف لم يستمر مدة من الزمان وكل منهما ارتاب من الآخر واشتغلت فى جسمه حركات الآلات الميكانيكية وشرع محمد على باشا فى القبض على خصمه وحبسه الا انه رأى أنه يصعب عليه هذا المشروع بسبب ما يوجد من سلطة الشريف غالب على المجاورة وحصانة القلعة المقيم فيها وكانت مدخرة جيدا بالمؤنات وبها من المحافظين ٨٠٠ نفس فدبر حيلة وخديعة بها يتيسر الحصول على مقصوده وذلك أنه قبض على الشريف غالب وقت ما كان يؤدى زيارة رسمية الى طوسون وكان ضبطه

بفرقة من العساكر كمنت له فى محل بالقرب من حوش البيت الذى كان طوسون نازلا فيه ومن بعد أن سجنه بعض أيام فى مكة أرسله من طريق القصير الى القاهرة مع أزواجه وحشمه وطواشيته ثم خصص الباب العالى محل اقامته فى سلانيك فمكث فيها قليلا ومات فى طاعون سنة ١٨١٦ فى فصل الصيف فنشأ مما حصل للشريف غالب هيجان وثوران عند جميع رجاله وأحزابه وتولد من ذلك ثورة فى كافة الاعمال الادارية لبلاد العرب فوظف محمد على باشا الشريف يحيى وهو بعيد القرابة للشريف غالب وكان عدوه الالد حاكما على مكة ورتب له رواتب شهرية

ولم يحصل من قبائل وعشائر العربان القاطنين بالقرب من مكة مقاومة ولا مبارزة أشد من المقاومة التى أجراها عربان بجوم القاطنين فى تربة وكان التجأ فيها معظم عساكر الشريف غالب وصارت تربة نقطة تجمع كافة الوهابيين الموجودين فى الجهة الجنوبية كما أن الدرعية نقطة تجمعهم فى الجهة الشمالية وكان قائد هؤلاء العربان فى هذا الوقت امرأة أرملة اسمها غالية كان زوجها أشهر رجال هذه الجهة وكانت على غاية من الغنية والثروة ففرقت جميع أموالها على فقراء العشائر الذين يرغبون المحاربة مع الترك واعتقد المصريون أنها امرأة سحارة وأن لها قدرة على كونها تخفى عن أعين المصريين رؤساء الوهابيين ففى مبادى شهر نوامبر سنة ١٨١٣ سافر طوسون من الطائف ومعه ٢٠٠٠ نفس للغارة والحملة على تربة وعند وصوله اليها أمر عساكره بمباشرة الهجوم عليها وكان العرب محافظين على أسوار المدينة بشجاعة قوية وكانوا مستبشرين بوجود الارملة غالية معهم وهى المقدمة عليهم فصدوا طوسون وعساكره بأسهل طريقة وفى اليوم الثانى شرع طوسون وعساكره فى القهقرة والرجوع فساق العرب بخلفهم من كل جهة وأوقعوا بهم وصاروا يتخطفونهم أينما ساروا فانجبروا على ترك جالتهم وعفشهم وخيامهم وسلاحهم وذخائرهم وفى أثناء رجعتهم قتل منهم نحو من ٧٠٠ نفس ومات كثير منهم من الجوع والعطش وفى الحقيقة كان يلزم موت العساكر جميعها وابادتهم لولا أن الشهير توماس كيث مع شرذمة من الخيالة استردوا مدفعا وصوبوه على العدو وصاروا يطلقون نار المدفع على العربان حتى حفظوا خط رجعة الفارين ومروا من الدرب قبل أن يسرع العدو فى التقدم ويقطع عليهم خط الرجعة ومن بعد مالاقى طوسون أشد المصاعب وأكبر الاهوال دخل الطائف بمن بقى معه من عساكره وتعطلت جميع الاجراآت الحربية مدة ثمانية عشر شهرا ولما رأى محمد على باشا ان كل غزوة تحصل فى داخل بلاد العرب تجىء بالخيبة وعدم الظفر ما عدا غزوة المدينة شرع فى استعداد وتجهيز قوة بحرية مؤلفة من ١٥٠٠ مقاتل وشحن مراكب كثيرة بالذخائر والمؤن تحت قيادة حسين أغا وزعيم أغلى وخرجت هذه الحملة من جدة قاصدة الغارة على قنفدة وكانت قنفدة تحت حوزة الشيخ طامى من مدة خمس سنوات وكان طامى هذا شيخ عرب عسير من بعد موت أبو نقطة وكان لا يوجد فى المدينة مجارى مياه طبيعية للمشروب واحتياج أهلها وكان بها قليل من المحافظين فتغلب عليها المصريون فى شهر مارث سنة ١٨١٤ بعد مدافعة شديدة ومقاومة عنيدة وقتل نفوس وسفك دماء وكانت استحكاماتها وبسطونها مصنوعة من الطين والطوب النى فكانت استحكاماتها مرنة وقت ضرب المقذوفات ودخولها فيها ولم يحصل بها التخريب من ضرب مقذوفات المدافع البرية والبحرية ومن ثم حصل الهجوم ومازال ضرب النار جاريا وتقدم عساكر الهجوم ساريا حتى تقارب الحزبان من بعضهما وصار الحرب يدا بيد وصار منظر الواقعة وهيئتها من أهول الاشياء

وأبشعها وما كانت السيوف والسكاكين تشتغل فقط بل أسنان المتحاربين وأظافرهم في حالة غضبهم الشديد وحنقهم العتيد فقتل في هذه المعركة كثير من المحصورين وقطعوا قطعا ولم يفضل على قيد الحياة أحد من الذين دخلوا في الحرب من أهل البلد ولما يئس الوحش زعيم أغا مما هم عليه من العناد في مدافعتهم عن المدينة أعلن بمكافأة مائتي غرش لكل من يأتيه برأس واحد من العربان أو يأتيه بأذنيه وعساكر الارنؤد على غاية من الطمع انتشروا في كل فج لاجل أن يجنوا حصاد هذه الرزية الدموية وصاروا يجرون ضحاياهم من مكامنهم وأجحارهم ويقطعون رؤسهم وآذانهم والبعض منهم رضي بنجاة نفسه بتشويه وجهه وقطع آذانه ولما تغلب المصريون على هذا المحل صدر لهم أمر من محمد علي باشا بالبقاء فيه وجعله نقطة عسكرية وموقع حرب وكان تغلبهم على هذه المدينة قصير المدة وذلك أنه في شهر مايو صار الهجوم عليهم بجيش مؤلف من ٨٠٠٠ أو ١٠٠٠٠ مقاتل من الوهابية تحت قيادة الشيخ طامي نفسه وانتشر الرعب والخوف في قلوب المصريين الارنؤد وقتل الوهابيون كل من وجدوه من المصريين فوقع فيهم الارتباك وهرب زعيم أوغلي القائد ومعظم عساكره الى المراكب التي كانت راسية في مينة قنفدة ودخل الوهابيون المدينة وقتلوا كل من وجدوه فيها بالسيف وساقوا خلف الفارين حتى عاموا خلفهم في مياه البحر وقتلوا منهم مقتلة عظيمة في الماء تحت نيران المراكب

وكانت هذه مصيبة أخرى أعظم الا أن محمد علي باشا لم يهتم بها ولم يحصل له منها ولا من غيرها أدنى خور ولا ضعف قوة ولا دمار فجعل رأس معسكره في الطائف وعين زعيم أوغلي حاكم جدة وأما طوسون فانه من بعد هزيمته في تربة ورجوعه منها استحق سخط أبيه وغضبه عليه عسكر في مكة ولحد هذا الوقت لم تبلغ الاجراآت الحربية المصرية الى شيء مما يختص بهذه المحاربات والارتباكات المتسلطنة وما وقع من الموت والقتل في الحرب والاسر الحاصل من الوهابيين أوقع الرعب والخوف في قلوب عساكر محمد علي باشا وكذا تأخير صرف مرتبات العساكر شهرين أو ثلاثة وقلة وجود المؤن الادون الطفيف حتى ارتفعت أسعارها وغلت أثمانها وصار لا قدرة للعسكري على مشترى رغيف وبصلة وكان هذا طعامه وغذاءه فقط كل هذا انشر النفور والغضب في وجوه العساكر والخوف والرعب في قلوبهم حتى صار لا يوجد في المصريين أحد الا نفس محمد علي باشا هو الذي لم يقطع اليأس ولا الخيبة من النجاح والظفر وبالنسبة لما آتاه الله من الصبر وساعدته بالنقود من ابتداء استقراره بالطائف اجتهد في فتح علاقات ومعاملات ودية مع العرب فكان ذلك أصل نصره ونجاحه ومن كثرة توزيعه النقود على العرب المجاورين له والبعيدين عنه جذب قلوب معظم العشائر الوهابية فانها اذا لم تكن معه لا تكون عليه وصاروا في حالة الحيادة وأثبت سياسته وادارته مع أهل الحجاز بكونه أبطل عوائد وضرائب كانت باهظة على بعض مواد تجارية وخفف البعض الآخر وبالاخص أصناف البن ومنح هدايا وافرة للمدائن المقدسة وأفاض على الكعبة ما يوجب شكر وثناء أهل الحجاز عليه

وفي أثناء هذه الاشكالات المهولة حصلت مصيبة كبرى عند الوهابيين وهو موت سعود بواسطة حمى تيفوسية أصابته في نواحي الدرعية في ابريل سنة ١٨١٤ وعمره ثمان وستون سنة وبموته فقد الوهابيون قائدا لا يكل ولا يتعب مستحوذا على جميع طرق الحزم والتدبير اللازمة لارتفاع منصبه وشماخة قدره وكان النصر على الدوام بين عينيه وتحت يديه ورجليه وكان دائما في رأس جيشه وبموته

نزلت

نزلت المصائب والاهوال على قومه وقالوا ان آخر ألفاظه التى تكلم بها وصى ابنه الا كبر وخليفته من بعده يا عبد الله لا تدخل فى حرب مع الترك فى ميدان مكشوف أبدا والتزم أنت وعساكرك فى حربهم المواقع الصعبة حتى لا يتيسر لهم النصر عليك وخذ لنفسك الحذر ولا راد من القضاء والقدر وهذه ألفاظ سياسية ادارية حقيقية لو صار السير عليها ما أمكن المصريين التغلب على الحجاز وكان يتسلطن فى أبدانهم الهزاز

وكان عبد الله تربى فى الجيش من صغره وقالوا انه لما بلغ عمره خمس سنوات كان يرمح فرسه وكان مشهورا فى الشجاعة زيادة عن أبيه وكان يحارب وينازل فى كل جهة بنفسه وهذه كانت قاعدة أصلية عنده وكانت صفاته العقلية من أول طبقة وفى مدة ما كان سعود محتل التخت الوهابى كان عبد الله محتل الموقع الثانى من ممالكه وما كان يرخص لاى واحد من اخوانه التداخل فى سلطة الاعمال العمومية ومع ما كان عليه من علو الشهرة فى الشجاعة والاقدام فى الحروب ما كان له دراية تامة بكيفية تدبير العشائر والقبائل تحت ادارته مثل أسلافه حتى أخذت قوته العمومية فى الضعف مما حصل من شقاق مشايخ وكبار العربان ولما شرع فى أخذ الوسائل اللازمة لقمع محمد على باشا وصده ظهر فيه استعداد لاستحواذ التدابير والادراكات والذكاء التى كان أبوه مستحوذا عليها

ومن هذا الوقت ابتدأ فلاح محمد على باشا فى الظهور وأضاء ايله ولاح وأخذت عساكر عرضيه فى الزيادة حتى بلغ مقدار العرضى ٢٠٠٠٠ نفس وزيادة وكان جميع هذا العرضى تحت قيادته موزعا فى الجهات بهذه الطريقة ٣٥٠ نفس فى مكة تحت قيادة ابراهيم أغا والشريف يحيى ومن ٣٠٠ الى ٤٠٠ فى المدينة تحت امرة تزيدان أفندى و ٣٠٠ محافظون فى ينبع وجدة والباقى بعضه تحت قيادة محمد على باشا نفسه وبعضه مع حسن باشا وأخيه عابدين بك مشكلين القره قولات الامامية للجيش من الجهة الجنوبية للطائف و ٤٠٠ عسكرى من البدو وكانوا تحت امرة الشريف راغب أحد أقارب الشريف غالب وكان أشهر قواد الوهابية فى الحجاز الا أنه انحاز الى محمد على باشا

والآن صار يوجد سبب واحد فقط متوقف عليه اجراء الحركات التعرضية فى الوقت وذلك أنه مات جمال كثيرة من المصريين فى أثناء هذه الحروب ومات كثير منها فى الطريق الكائن بين جدة ومكة حتى صارت هذه الطريق منتنة من كثرة الروائح الكريهة الخارجة من رمم الجمال فالتزم أهل تلك النواحى بحرقها بعد جمعها لانه تسبب عن روائحها الكريهة طاعون انتشر فى تلك الناحية وصارت تقدير مامات من الجمال التى كانت تابعة للجيش المصرى فكان عددها ٣٠٠٠٠ جمل وزيادة وذلك فى ظرف الثلاث سنوات التى كان الحرب منتشبا فيها وفى شهر نوفمبر جلبت قوافل الحجاج السورية أو الشامية مقدارا قدره ٦٠٠٠ أو ٨٠٠٠ من الجمال الشامية فكانت هذه مقبولة فى الحركات العسكرية زيادة عن الجمال المصرية

وبينما كان محمد على باشا آخذا فى استعداداته وتجهيزاته كان الوهابيون يوجهون غاراتهم فى غالب الاوقات نحو الطائف على القبائل والعشائر الذين دخلوا مع محمد على باشا واعتنقوا أمره ولاجل قطعهم طريق المواصلة بين جدة ومكة هجموا على المعسكر الموجود فى بحره ونهبوا حاميته ومهماته وأسروا قافلة صغيرة وذبحوا كل من وجدوه من السكان ومن ثم كسروا أنفة المصريين بهزيمة

أخرى أوقعوها على عساكرهم وذلك أن عابدين بك مع عساكر الارنؤد كانوا محتلين فى جهة من اقاليم تهامة نحو عابدين بك البلاد وجعلها قاعا صفصفا على مسافة ٤٠ ميلا من كل جهة حتى يتيسر له بواسطة هذه الصحراء الصناعية منع الغارات الفجائية التى ربما تحصل من العدو ومع مافعل عابدين بك من هذه الاحترازات الوحشية فان الشيخ بكروج فى رأس عربانه وفرقة قوية من عرب الشيخ طامى هجموا بغتة على المعسكر المصرى فى نواحى بعروش فى الفجر الاخير وسقطوا على العساكر النائمة وذبحوا منهم ٨٠٠ نفس من المشاة و ٨٠ من الفرسان الخيالة وساق بكروج خلف الفارين يومين فما كان ينجو من القتل واحد منهم لولا أن تدارك حسين بك مع عسكر الخيالة حفظ خط رجعتهم وكان بمجرد وقوع أى عسكر من العساكر المصرية فى أيدى بكروج مدة سوقه خلفهم كان يعامله بأشنع المعاملات الوحشية بكونه يقطع ذراعيه ورجليه ويلقيه حتى يهلك فى الصحراء بهذه الحالة الغبراء وفى أثناء ذلك ورد من القاهرة امداد من عربان برقة مقدارهم ٨٠٠ خيال وعسكر وافى الطائف ورأى محمد على باشا من حالة ماعنده من الذخائر وكثرة المؤن وكثرة ماعنده من العساكر انه لاريب من قرب نجاحه وظفره وفلاحه فى مدة قريبة فعزم على أن يجعل نفسه فى رأس عسكره ويتقلد زمام جيشه بنفسه ولا يثق بانسان ويتوكل على الله حق التكلان وأن يوجه غزوته وحملته على تربة لينتقم من أهلها نظير ما أوقعوه من الخسائر والاتلافات فى الواقعة التى كان توجه طوسون اليها فمن ثم رتب بطريتين من المدافع عبارة عن اثنى عشر مدفعا بريا من أجود المدافع و ٥٠٠ من عساكر البلطجية لاجل قطع أصول النخيل المخيم على مدينة تربة وجماعة من اللغمجية لاجل عمل الالغام اللازمة لهدم المدينة وشجع العساكر وقوى قلوبهم وقال لهم ماهذه تربة فانها لاتمكث مدة حتى تملكونها وتغنمون مافيها وحسن لهم ذلك بكونه جلب حملا من لب البطيخ من وادى فاطمة ومر به من وسط صفوف العساكر وقال لهم انى عازم على زراعة هذا فى البقعة التى لم تزل لحد الآن مشغولة بالوهابيين وفى غضون ذلك ماكان الوهابيون على وجل من استعدادات محمد على باشا ولا من طنطنته الظاهرة واعتمد بكروج على حصانة موقعه وكتب خطابا الى محمد على باشا ينصحه فيه بالعود الى مصر أو يستعد للمحاربة معه بعساكر موافقة جيدة اذا أراد الحرب

وفى يناير سنة ١٨١٥ ترك محمد على باشا مكة بجميع قواه وجماله وحملته التى أمكنه جمعها وسار نحو قولعطش وكان فيها حسن باشا واحمد بونابارتو وطبوزاوغلى والشريف راغب ورؤساء آخرون واجتمعوا جميعا فيها وأخذوا معهم مؤنات وذخائر لمدة خمسين أو ستين يوما وبينما هم مجموعون فى هذا الموقع اذ وردت عليهم الاخبار بان العدو ضبط موقع بيصل ومعه موقع حصين على خط رجعتهم وبواسطته يمكن العدو قطع خط المواصلة بين قولعطش والطائف وبيصل هذا قطعة مستوية من الارض محاطة بسور من جبال وتلال طبيعية سالك منها عدة دروب ضيقة جدا وعلى رؤس هذه الجبال والتلال عسكر الوهابيين وحشدوا فيها أحمالهم وذخائرهم وكان مجموع قوتهم ٢٥٠٠٠ مقاتل من المشاة و ٥٠٠٠ جمل وقليل من الخيالة مجردين من المدافع وكان من ضمن القواد المعدودة فى هذا الجيش فيصل أخو عبد الله الوهابى والفارسة المقدامة غالية والشيخ طامى مع جميع رؤساء جبال اليمن وبعض من رؤساء القبائل والعشائر القاطنة فى أقصى الجهات الشرقية من حضرموت

ولما رأى محمد على باشا هذه الحالة أمر عساكر الخيالة بالهجوم على الوهابيين فصدهم الوهابيون

ورجعوا مع تلفيات قليلة واستمروا مقيمين فى الجبال لا يخرجون منها وصار المصريون ينتخبون مواقع يضعون فيها مدافع و يضربون بها عليهم وضيعوا يوم الهجوم فى أعمال وحركات جاءت على غير طائل واتفق فى أثناء ذلك أن خيالة الوهابية تركوا محلاتهم فى الجبال وهربوا الى مكة وأذاعوا بموت محمد على باشا وهزيمة الجيش جميعه فحصل من ذلك الاضطراب والقلق بموت الباشا ولما رأى محمد على باشا انه لا يمكن له تيسير حصول الظفر والنجاح على الوهابيين ماداموا محتلين الجبال ورؤس التلال دبر حيلة فى خروجهم من هذه الجبال الى الميدان المكشوف فى الصحراء وأرسل لاجلاب الامداد من نواحى قولعطش وفى صباح اليوم الثانى جدد حركات الهجوم ونبه على ضباط القولات الامامية بانه بمجرد قربهم من مواقع العدو يضربون أول نوبة آتش ثم يرجعون متقهقرين مع غير انتظام وبهذه الحيلة تم مقصوده وذلك أن العرب لما رأوا عدوهم أخذ فى القهقرة والهزيمة بعد ضرب النار وشرع فى الهرب تخيل لهم أن الهزيمة والفشل وقع فى العساكر ووجدوا الانفسهم وقتا سعيدا يبطشون فيه بهم فخرجوا من جبالهم كالجراد المنتشر من دون تبصر ولا ادراك وساروا خلف عدوهم ولما تقدموا مسافة كافية من ملاجئهم القوية دار محمد على باشا بسواريه خلفهم ووجه حذاء آت القولات عليهم ومن بعد محاربة شديدة استمرت نحو خمس ساعات اكتسب محمد على باشا الظفر المتين . والنصر المبين

وحارب محمد على باشا فى هذه الواقعة بنفسه فى الوقت الذى أمر خيالته باللف والدوران خلف العدو ومنعهم من وصولهم الى مواقعهم الداخلة فى الجبال ولاجل محافظته على استمرار النصر فى هذه الواقعة نزل من فوق حصانه وطلب سجادته وفرشها على قطعة مستوية من الارض وجلس عليها بحيث يرى جميع صفوف وحذاآت عساكره وطلب شبق الدخان وقال هاأنا قاعد هنا ولا أتحرك الا قاتلا أو مقتولا وأمر بمكافأة قدرها مائة غرش لكل عسكرى من عسكره يأتيه برأس واحد من الاعداء ففى ظرف بضع ساعات كوّموا أمامه علامة نصر قبيحة المنظر مشكلة من ٥٠٠٠ رأس وهجم عساكر المشاة المصرية على مواقع الوهابيين فى الجبال ودار من خلفهم الشريف راغب بعساكره وسقط عليهم مثل جزار ماهر وألزمهم الهرب وأوقع بهم الكرب وأمسك الوادى الضيق الذى اجتهدوا فى القهقرة منه وخضع منهم فى هذا المضيق ١٥٠٠ نفس فجزروهم وقطعوهم قطعا وكانت حالة القتل والذبح مدهشة مهولة حتى ان ميدان الواقعة صار مملوأ بأجسام وجثث بغير رؤس وأمر الباشا أن يأسروا منهم ٣٠٠ نفس ويبقوهم على قيد الحياة وأمر عساكره بان يعطوهم الامان ولا يكدروا على أحد منهم وعفا عن البعض القليل من العرب وكان باقيا شرذمات قليلة من الوهابية على مرتفعات الجبال فى خفارة الحلة والذخائر الموجودة فدافع هؤلاء عن موقعهم أشد المدافعة وحفظوه الا انه صار الهجوم عليهم أخيرا بالقوة والاقتدار وقتلوهم عن آخرهم وهرب الشيخ طامى مع قليل من أتباعه وكذا هرب كل من فيصل وغالية وتكدر محمد على باشا كثيرا من هرب غالية ونجاتها من يده لانه كان فى اشتياق زائد لارسالها القسطنطينية علامة وشهرة على نصره وظفره وكانت هى أيضا لا تبغى ترك الصحارى العربية ولا عربانها ولا تثق بأحد من الاتراك ولو قدموا لها مهما قدموه واغتنم محمد على باشا معسكر الوهابية بما فيه من الذخائر والمؤن والنساء والجمال وأنعم محمد على باشا على الشريف راغب بخيمة فيصل وما كان فيها من الفرش والامتعة ووجد فيها مبلغ ٤٣٧ جنيه وكانت خسارة محمد على باشا فى هذه الواقعة من ٤٠٠ الى ٥٠٠ نفس وذلك مما أجراه من المهارة والتدبير فى هذه الحركة العسكرية المهولة وفى

الحال سارت الركبان بأخبار هذه النصرة الجليلة الى القسطنطينية والقاهرة وزمزم محمد على نصرته ونخر حركته بأشنع الاعمال وذلك أنه أمر بصلب الثلاثمائة نفس الذين كان أعطاهم الامان فى جهات من مكة فأمر بصلب ١٥ منهم أمام أبواب مكة و ١٢ على قارعة طريق جدة والباقى تحت أسوار مكة وأمر بعدم نزول أجسادهم حتى تنهشها الطيور وتأكلها الصقور

ومن بعد مضى أربعة أيام من الواقعة سار محمد على باشا الى تربة وكان فيصل فيها ولما اقترب منها هرب فيصل وتركها ودخلها محمد على باشا بعساكره وكان لا يوجد بها الا العاجزون من الرجال والنساء والاطفال فسلموه المدينة وتوسلوا اليه فى البقاء عليهم ورعايته اليهم ومن ذلك تولد الارتباك والخوف فى المملكة وصار الجيش المصرى لا يلقى الا مقاومات ضعيفة جدا من الوهابيين ولما رأى محمد على باشا أن القوة الكبرى للعدو موجودة فى الجهة الجنوبية عزم على اختراق البلاد وقطع الصحارى وابادة هذه الطائفة على قدر امكانه

وكان كثير من الرؤساء والفارين الذين نجوا من واقعة بيصل اجتمعوا وعسكروا فى نواحى بيشى وهى بلاد خصبة موجودة فى الجهة الشرقية من جبال اليمن وتجمعوا فيها على عدد عظيم منهم وعزموا عزما ثابتا على الاستمرار فى المقاومة الى آخر نفس أو رمق فيهم وحصنوا أنفسهم ومواقعهم بخطوط استحكامات ومتاريس وفتحوا فيها مزاغل وكرانك لاجل ضرب نيران البنادق منها وأقاموا فى أخصاص وعشش صنعوها من القش والبوص وجريد النخيل فوصل اليهم محمد على باشا بعسكره وحاصرهم وشرع فى ضرب النار عليهم مدة يومين بدون طائل الا أنه اتفق أنه من كثرة ضرب النار وفرقعة الدانات شبت النيران فى أحد الاخصاص ومنه سرت الى الاخصاص والعشش الاخر والتهبت جميعها فتولد من كثرة الدخان وسقوط النيران ضرر كبير للمحصورين والتزموا الفرار فساق خلفهم الخيالة المصرية وكان من ضمن الذين هربوا ونجوا بأنفسهم الفارسة المقدامة غالية المشهورة ولما لم تجد لنفسها مأوى تأوى اليه فى الصحراء ولا مسندا تستند عليه سارت مع أتباعها حتى وصلت الدرعية وأقامت بها وتغلب المصريون على قلعة رانية وعلى قلاع أخرى بالقرب منها

ومع هذا كله فانه ما زال موجودا فى ميدان الحروب أمام محمد على باشا أشد الاعداء وهو الشيخ طامى وكان هذا الشيخ عزم على الاجتهاد فى وقوع واقعة ثانية وجمع لها جيشا كثيفا وراء الجبال الوعرة من أرض عسير وهى على مسافة ١٢ أو ١٤ يوم فى الجهة الغربية من بيصل فعزم محمد على واجتهد فى سيره الى هذه الجهة لكنه عند شروعه فى السير تضرر عساكره من كثرة ما تحملوه من التعب وكان يموت منهم يوميا نحو من مائة حصان وما بقى من العشرة الآف جمل التى كانت معهم سوى ٣٠٠ جمل فقط عليها مدار الحملة فحض محمد على باشا عساكره وحرضهم ونشط قلوبهم ووعدهم الغنائم العظيمة والمبالغ الجسيمة التى يغتنمونها من بلاد اليمن وشرع فى السير معهم وأما الشيخ طامى فانه جمع ٨٠٠٠ أو ١٠٠٠٠ مقاتل فى قلعة جبلية تسمى بالطور وكانت هذه القلعة على ما روى حصينة حتى لا يمكن التغلب عليها ولا الوصول اليها فلما وصل اليها محمد على بعساكره سلط عليها نيران الطوبجية مدة ثلاثة أيام فازعج الوهابيين الموجودين بها وألزمهم التسليم وكانت هذه الواقعة أشد من الواقعة التى حصلت فى بيصل فاستلم محمد على باشا القلعة وما وجده فيها من المؤن الكثيرة والمأكولات الوفيرة سد جوعة عساكره وهرب طامى الا أنه كان آخر من بقى فى الميدان والتجأ الى منزل أحد أصدقائه فغشه هذا

الصديق وسلسله فى القيود والاغلال وسلمه للشريف راغب وكان يجول فى الجبال مع عربه يفتش على الفارين وانهزم أيضا فى هذا الوقت بكروج فى نواحى الظهران وصار غريقا فى وسط النيران فأخذ أسيرا وصار ارسال هذين الشريفين الى محمد على فأذاقهما وبال كاس الموت على ما حصل منهما من الخيانة لسلطانهما فاما بكروج فان محمد على قتله شر قتلة ومثل به أقبح مثلة وصاروا يقطعون جسمه قطعة بعد قطعة وهو لا يتكلم بلفظ ولا يتفوه بكلمة حتى خرجت روحه وقطعت رأسه من الباقى من جسمه وأما الشيخ طامى فانه صار ارساله الى القاهرة وطافوا به فى شوارعها راكبا على جمل معلقا فى كتفه شبكة فيها رأس بكروج ثم بعث به من القاهرة الى القسطنطينية وفيها قطعوا رأسه بمجرد وصوله اليها

ومن بعد أن تغلب محمد على باشا على جميع رؤساء الوهابيين الموجودين فى الجهات الجنوبية رغب أن يغرق فى ثروات بلاد اليمن وأموالها وكنوزها فمن ثم فتح مخابرة مع امام صنعاء الا أن العساكر تألموا من شدة ما لاقوا من التعب والكدر ورأوا أن المسئلة تم أمرها وانقضى نحبها وأظهروا رغبتهم فى العود الى مكة فوطد خاطرهم وبدل أن يسير الى الجهة الجنوبية سار الى قنفذة وتسلمها بعد مقاومة خفيفة من أهلها ثم منها سار الى سكة بما بقى معه من جيشه وهو ١٥٠٠ نفس مجردين من النقود والملابس وهؤلاء بقية جيش كان مؤلفا من ٤٠٠٠ مقاتل ثم زار فى شهر ابريل المدينة وكان طوسون حاكما فيها وذلك لاجل تفقد أحوال الجهات الشمالية من الحجاز والاهتداء الى ما يلزم من الاجرآت اللازمة لتوطيدها فى المستقبل الا أن الاحوال التى فى مصر اقتضت عوده اليها وذلك أن قبطان باشى السلطان كان هجم على الاسكندرية وكذا حصلت ثورة من العساكر الالبانية فى القاهرة بعدم رغبتهم فى الدخول فى التعليمات العسكرية والتدريبات الحربية الجارية على حسب النمط العسكرى الاوروباوى ولما وصل محمد على باشا عاصمته فى شهر يوليه سنة ١٨١٥ بعد أن غاب عنها سنتين وجد كل شئ فى حالة من الارتباك والقلقلة

وفى هذه الحالة ترك محمد على باشا الباقى من حرب بلاد العرب فى أيدى طوسون وبينما كان أبوه مجريا الحركات الحربية فى اخضاع القبائل والعشائر الجنوبية كان طوسون مجريا أيضا أعماله الحربية فى الجهات الشمالية ضد عبد الله بن سعود ولما صارت أخبار محمد على باشا معروفة عند قبائل العرب الموجودين فى حدود نجد هرع مشايخها الى المدينة وقدموا أنفسهم خاضعين الى طوسون وانضموا معه على الوهابيين وارتجت شوكة الوهابيين فى هذا الوقت وتلك حالها فى كثير من الجهات فمن ثم تعشم طوسون بأنه صار له قدرة على التغلب على اقليم نجد كى يقارن شهرته بشهرة أبيه فجمع حملة صغيرة قدرها ٢٥٠٠ نفس ومن بعد أن سار مدة ١٠ أو ١٢ يوم وصل الى مدينة رأس وهى مدينة كبيرة محصنة بسور واستحكامات وهى من أعمال قاسم فتسلم هذه المدينة مع عدة قرى أخرى الا أنه وجد نفسه فى موقع مهدد غير ثابت وظهر له أن ما أجراه من حركته هذه كان على غير رأى وتدبير لان العساكر الخفيفة الحركة للوهابى أحاطوا به من كل جهة وجعلوا له ولعسكره قريتين أو ثلاثة يأخذون منها احتياجاتهم اليومية وضبط الوهابى السكة الموصلة للمدينة فمن ثم أسرع الغيور الفارس توماس كيث وهو ابراهيم أغا فى رأس ٢٥٠ خيال وسار لمساعدة سيده فاحاطت به قوة كبيرة من الوهابيين فقتلوهم وقطعوهم قطعا ولم ينج منهم أحد ولا من يعطى خبرا أو يقص أثرا

وفى غضون ذلك لم يهمل عبد الله فيما يجب عليه بل سار بجيشه ودخل فى اقليم قاسم وجعل

مقر معسكره فى شعنانة على مسافة خمس ساعات من موقع خبرة المعسكر فيه طوسون بعسكره وفى أثناء هذه المشكلة المهولة عزم الخاطر بنفسه طوسون على أن يتم حركته و ينهيهامن غير تردد بوقوع واقعة مهما كانت فلم تقبل الضباط ولا العساكر هذا العزم وقالوا له ان من الحزم والتدبير للناس الذين فى موقع مثلنا التبصر فى الامور فذلك خير من الحرب وزيادة على ذلك فان محمد على باشا كتب الى عبد الله بن سعود قبل تركه أرض الحجاز يحضه على الانقياد والطاعة و يقدم شروط صلح فى عقد يعمله معك (طوسون) على حسب الموافقة بين الطرفين فخابره فى ذلك وتبصر بما فيه الصواب والسلامة

وكذا رأى عبد الله من طرفه أن من الحزم تمام الاعمال الى ما فيه الاصلاح وعدم سفك الدماء ورأى أن هلاك ودمار قوة طوسون القليلة لم يعد منها عليه فائدة وان محمد على باشا ربما يعود عليه بما عنده من الايرادات الكثيرة فى مصر ومن ذا يحصل الضرر الاكبر وعرف أيضا طرائق الغش والرشوة الجارية بمعرفة محمد على باشا حتى انه استحوذ على كثير من أصحابه وأتباعه الذين كانوا معه على جامعة واحدة وصاروا موجودين فى قلب عساكر أعدائه

ومن ثم حصلت المخابرات وعقدت محالفة بين طوسون وعبد الله بن سعود تنازل فيها عبد الله عن كل ما يدعيه بخصوص المدائن المقدسة وجعل نفسه من أذل رعايا السلطان ونال حريته هو و جميع الوهابيين من أى طريق يمرون فيها عند ما يرغبون الحج الى بيت الله الحرام وأعاد طوسون جميع المدائن التى تغلب عليها من أعمال قاسم الى عبد الله وطرد من معسكره جميع مشايخ عرب هذه الجهات الذين كانوا دخلوا تحت رايته وكان اليوم الذى صار التوقيع فيه على المعاهدة يوم عيد ومسرات واحتفالات وزيارات عند الجيشين وكانت مواد المعاهدة التى كتبها رئيس قبائل الصحارى العربية فى خضوعه وطاعته للباب العالى العثمانى هى

الى طوسون أنا واقع على أعتاب أبواب رحمتكم يا استاذى وأطلب من الله ومن سموكم أن تقبلنى فى عداد الرعايا الصادقين الخاضعين للسلطان ومن الآن فصاعدا نكون جميعنا منقادين لاوامره خاضعين لسلطنته داعين لجلالة شخصه كل يوم جمعة على منابر مساجدنا وفوق رؤس شواشى جبالنا وانه لا يحصل من جهتنا عصيان ولا ثوران ولما صارت قراءة هذه المواد على الوهابيين أجابوا جميعا بصوت ملأ الخلاء والفضاء وصرخوا انا نحن طائعون خاضعون ثم زعق جميع عساكر الجيشين يعيش سلطاننا الاعظم وجيوشه المنصورة وأهدى طوسون الى عبد الله اشارة الى طاعته برنسا وسيفا وعدة خيول محلاة بسرو جها وقال وقت تقديمه السيف له خذ هذا محبة فى صداقتك وهو الحامى لك والمدافع عنك مادمت صادقا فى مواعيدك وقولك وان خالفت أوامر مولانا السلطان كان هذا السيف خرابك ودمارك و بعد هذا زعق الجيش بصوت واحد اللهم انصر سلطاننا الاعظم و وعد عبد الله مرة ثانية بالدعاء والخطبة للسلطان فى جوامع بلاد الوهابية

ولما انتهت هذه الاعمال والتأم ارتباك الاحوال واستتب الامن والراحة ترك طوسون بلاد العرب فى مبادى نوفبر وتوجه الى مصر وقوبل فى القاهرة بأجل الاحترامات بالنسبة لدرجته وشجاعته وضربت المدافع ودقت الطبول والبشائر وازدحمت الطرق والشوارع لملاقاة مخلص المدائن المقدسة وأما أبوه فانه قابله بغاية الصقاعة والبرود ومن ثم كانت مدة أجله قصيرة فعينه قائد فرقة من العساكر كانت معسكرة فى رشيد لاجل حماية السواحل ومات فى السنة التالية فى طاعون سنة ١٨١٦ وترك من

بعده ولدا اسمه عباس تولى الاريكة المصرية كما سيأتى الكلام عليه فيما بعد

ومن المعلوم أن محمد على باشا ما كان مصادقا على ما أجراه ابنه طوسون من عقد مثل هذا الصلح ومن ثم وجد له علة وحجة فى تجديد الحروب ووقوع الكروب فى البلاد العربية والعشائر الوهابية وكتب الى عبدالله بن سعود مكاتيب كانت على غاية من الاشكال والاختلاف فى الاحوال والاعمال وذلك أنه كتب يطلب منه استرجاع جميع الكنوز والذخائر والجوهرات التى كان اغتصبها وسلبها أبوه من قبر النبى صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن تكون الدرعية تحت مباشرة حاكم المدينة ورفض تأييد المعاهدة وعدم قبولها والاقرار عليها مالم تتنازل الوهابيون له عن اقليم الحسا فظهر لعبدالله من هذا أن طوسون البرنس الشاب اما ان يكون غشه فى هذه المعاهدة أو ان أباه بالنسبة لطلباته هذه الخارقة للعادة مقصده اذلال جديد يجرى فيه كل ما يفعله ويريده فمن ثم طلب عقد مجلس من أقاربه ومن رؤساء قواده وحكامه استقر رأيهم فيه بالاجماع على أنهم لم يكن عندهم شئ سوى السلاح اذا رغبوا المحافظة على دينهم واستقلال بلادهم وشرعوا فى الاستعدادات الحربية من كل جهة وخزنوا الذخائر والمؤن فى القلاع والقرى والمدن والتزم مشايخ العربان وكبار العسكر على تجديد قسمهم وعهودهم وخطب الائمة خطب الجهاد وحضوا على الحرب ومقاومة الاضداد ولعنوا الترك فيما هم عليه من الغش والخديعة وجمعوا ثلاثين ألفا من العساكر وتعين حكامهم من أهل الحزم والتدبير المتدربين فى الحروب والوقائع وباع الاغنياء أملاكهم وما تحت أيديهم وصرفوها فى المشتروات اللازمة للجيوش وأجروا كل ذلك محبة فى وطنهم مع غاية الحمية والحماس وقالوا ان الله ينصرنا لانا موحدون له بالوحدانية وبعززنا على الذين يشركون معه آلهة أخرى وكشف عبدالله أقاليم مملكته بنفسه وجاء اليه الامداد والعساكر من البحرين والحسا وانضم اليه بعض قبائل من عمان وأرسل له عرب اليمن ٢٠٠٠ مقاتل مساعدة له على عدوه

وأما محمد على باشا فانه أخذ فى الاستعدادات الحربية ولما خمدت الاحوال فى مصر من المماليك أمر بترتيب حملة قوية لارض الحجاز وعهد قيادتها الى ابنه ابراهيم باشا وكان برنسا على غاية من الشجاعة والاقدام وأظهر علو مجده وسيادته فى حربه مع المماليك واستمر محمد على مشغولا بنقل الذخائر والمؤن والمهمات مدة ستة أشهر كاملات وفى سبتمبر سنة ١٨١٦ ترك القائد ابراهيم مدينة القاهرة مع ٢٠٠٠ من المشاة راكبا النيل على قنا على القصير حتى نزل فى ينبع وأرسل محمد على باشا من خيالة عربان برقة ١٥٠٠ خيال من طريق البر الى ينبع وكان فى حاشية ابراهيم باشا بعض من الضباط الفرنساوية والفارس المشهور الشريف راغب العربى وكان أرسل فى السابق الى القاهرة مغلولا فى الحديد والقيود فاستبقى محمد على باشا حياته مؤملا حصول النفع منه فى أثناء الغزوة فى بلاد العرب وكان من الاوامر التى مع ابراهيم باشا من أبيه اجراء الهجوم على الدرعية من طريق المدينة وقاسم فوصل ابراهيم باشا مدينة النبى عليه الصلاة والسلام من بعد نزوله فى ينبع بعشرة أيام ودخل الحجرة النبوية ونذر على نفسه أمام قبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لا يغمد سيفه ولا يشرب خمرا ولا ما حرم الله من المشروبات حتى يمحق أعداء دينه بالكلية ويصب عليهم كل داهية وبلية ومازال مجدا فى سيره من طريق طوسون حتى عسكر فى ناحية اسمها حناقية وصرف فيها عدة أسابيع فى مناوشات ونهب وسلب وانضم اليه بعض من رؤساء العربان ومشايخ القبائل والبلدان ومن ضمنهم غانم شيخ الحرابى

وجلب معه ٥٠٠ نفس من قبيلته وما أمكنه أن يفعل شيأ فى هذا الوقت زيادة عن التقوية والمحافظة لان عساكره قاست من شدة ما حصل فيهم من الوباء الذى انتشر فيهم وسقوط العربان عليهم ليلا لأن هؤلاء العربان وجدوا لهم غنيمة فى العرضى المصرى فكانوا يسرقون منه كثيرا بالليل ويقتلون ويقطعون أرجل الخيول والجمال

وأما عبد الله بن سعود فكان معسكرا فى نواحى عنزة وأضمر فى نفسه على رأى جسورى يفعله وذلك أنه سار مباشرة الى المدينة فى ٣٠٠٠٠ مقاتل من رجاله ونزل أخوه فيصل على مكة وجدة وينبع لاجل توقيف وتعطيل العساكر والذخائر الواردة من مصر فتولد من هذا المشروع حصول ثورة وقعت بينه وبين مخالفيه من مشايخ العربان وهزيمة الجيش الذى كان قائدا عليه بنفسه ومقداره ١٠٠٠٠ نفس وكانت مدينة رأس هى أول مدينة استعدت لحصول مقاومة شديدة ومدافعة عتيدة وقت تقدم ابراهيم باشا وكانت على غاية من الحصانة والاستحكام وأجهد أهاليها أنفسهم فى ظهور شجاعتهم وبسالتهم وكان النساء فى وقت المدافعة يساعدون شجعانهم المدافعين وصار صد المحاصرين فى كل جهة من جهات المدينة ومات من المصريين فى هذه الواقعة ٣٠٠٠ نفس وأخذ الوباء فيهم يوميا فى الزيادة فكان المصريون يظهرون كثيرا من رؤس قتلى الوهابيين لاهل القلعة ومحافظيها ليوقعوا فى قلوبهم الخوف والرعب وعلى أمل خضوعهم وتسليمهم المدينة فما كان يزيدهم هذا الا نفورا وشوقا الى الانتقام من المصريين زورا

ولما رأى ابراهيم باشا نفسه أنه فى موقع صعب والتغلب على هذه المدينة تعب ونصب انجبر على رفع الحصار بعد أن قضى فى الحصار عليها ثلاثة شهور وسبعة عشر يوما وكد نفسه وأتعب أنصاره وأمسه ثم جاء على غير طائل ومع هذا فكان ماوقع له فى هذه المرة عين ماوقع لابيه لان طالعه كان مثل طالع أبيه وجاءه سعده على حين غفلة فصار يتقدم بسرعة من نصرة الى نصرة حتى غسل من دماء الوهابيين العار الذى اكتسبه جيشه تحت أسوار مدينة رأس وذلك أنه تسلم خبرة بعد أن أطلق عليها نيران المدافع بضع ساعات ومثلها عنزة وهرب محافظوها من دون أن ينتظروا شروط التسليم وبهذا الحالة صارت جميع مدائن وقبائل وعشائر نواحى قاسم خاضعة للمصريين وصار عبد الله بن سعود يتقهقر من موقع الى آخر أمام المحاربين له ورأى أن جميع قلاعه القوية وقعت فى أيديهم واستحوذوا على بريدة وشقرة وضرامة بعد أن حاصروا هذه المدائن على التدريج وخربوها وكانت شقرة مدينة تجارية ظريفة معدودة من ضمن القلاع القوية فى المملكة الوهابية وتولد مما حصل من العناد فى مدينة ضرامة فى المدافعة وعدم التسليم انتقام المصريين منهم والبطش بهم وذلك أنهم قتلوا جميع ناسها وسكانها بالسيف وأصدر ابراهيم باشا أمره للعساكر بحرق منازلهم ومساكنهم وفى ظرف ساعتين انتهى شغل هذه المهمة التى صار اجراؤها من غير تبصر فى الامور وعواقب المقدور

وفى هذه الحالة صار لا يوجد أمام ابراهيم باشا شئ لاتمام مظفراته سوى الدرعية فسار اليها بقوة مقدارها ٦٠٠٠ نفس ووصل اليها فى ٦ ابريل وأحاط بها من جميع جهاتها وأقام حولها متاريس بالنقات والتحصينات وعمل جميع الاستعدادات اللازمة لحصارها وهذه المدينة هى العاصمة الاصلية لنجد ومقر سلطنة الحكومة الوهابية وواقعة على مسافة ٤٠٠ ميل من جهة شرق المدينة المنورة وفى واد خصب يقال له وادى حنيفة كثير الثمار والحبوب يسقى بنهر صغير اسمه الباطن يجف فى

فصل

فصل الصيف ويجرى فى مدة فصل الامطار على امتداد عظيم وموقع هذا الوادى فى حد ذاته الطبيعية من أحصن المواقع لان الجبال محاطة به من كل جهة ويتوصل اليه من خور رين الغربى منها مضيق جدا بحيث لا يمكن أن يعبر منه الا جمل جمل وقت السير ويمكن حفظه من هجوم الاعداء باقل عدد من المحافظين وأما المدينة فهى مركبة من خمس قرى صغيرة تسمى بالارباع كل منها محاط بسور ومحفوظ ببسطيونات وضواحى المدينة غير مستحفظة بل مستورة بالبساتين والاشجار المثمرة والمساكن والمنازل مبنية بالخصوص من الاحجار والطوب وسوقها عبارة عن دكاكين مصنوعة من الغاب كى يمكن نقلها مع الخفة والسهولة من جهة الى أخرى وبها ثمانية وعشرون مسجدا للصلاة وثلاثون مكتبا ومدرسة للعلم وقراءة القرآن الشريف الا أنه لا يوجد بها حمامات ولا خانات ولا وكائل لنزول المسافرين وكان تعداد أهاليها المضروب المثل بكرمهم وسخائهم نحو من ١٣٠٠٠ نفس

وقضى ابراهيم باشا خمسة شهور فى حصار هذه المدينة الجليلة وكلا الحزبين على غاية من الشجاعة والبراعة والبسالة والاقدام فى المخاطرات الحربية وعمليات الحصار والمدافعة اليومية وبذل عبد الله ابن سعود مجهوده وما فى طاقته بالقول والفعل والعمل فى تشجيع عساكره وفرق فيهم النقود والمكافأة الجليلة وكان النساء يخترقن صفوف ونيران أعدائهن المحاصرين ويحضرن المياه اللازمة لشرب المجروحين وفى غضون هذه المدة تقدم ابراهيم باشا فى حصاره نوعا فاتفق أن النار شبت فى مخازن الذخائر الحربية على حين غفلة فانكسرت قلوب عساكر عزيزى ابراهيم باشا واعتقدوا خيبة مشروع هذا الحصار وعدم نجاح الغزوة وذلك أن ٢٠٠ برميل من البارود ودانات القنابر فرقعت فى وسط معسكره وصار المعسكر خاليا من المواد الحربية وأمامه وخلفه أعداء الوهابية وموجودا فى صحراء بعيدة عن مصر بمسافة ٥٠٠ فرسخ ومن هنا صار لا يوجد عند المصريين محصول سوى شجاعتهم وسيفهم حتى تأتيهم ذخائر جديدة من المدينة المنورة أو من محافظى المجاورة فأرسل كل من حاكم بغداد وحاكم البصرة قوافل وحملات كبيرة من المؤن والذخائر ووردت الذخائر الحربية وذخائر الطوبجية من القاهرة على التوالى فجدد ابراهيم باشا مشروع الحرب

ولاجل تشجيع عساكره وتقوية قلوبهم أمر بمكافأة خمسين غرشا لكل عسكرى يأتيه برأس أو زوج آذان من عربان الوهابية

وفى أثناء ذلك رأى عبد الله بن سعود أن عاصمته لا يمكن حمايتها مدة مامن الزمن ووقعت الخسارات والتلفيات فيما كان يخرجه من الطلائع خارج القلعة ضد المحاصرين وأسر المحاصرون اثنين من أولاده وقتل واحد منهما ووقعت جميع القلاع الموجودة على الجبال وفى البساتين والموجودة على شواطئ النهر الجاف فى أيدى الهاجمين وسلم ثلاثة من خمسة أخطاط المدينة ومابقى انقطعت عنه المواصلات حتى صاروا لا يتمكنون من مساعدة بعضهم بعضا بالمؤن والذخائر وفى مثل هذا الموقع الخطب المقطوع منه اليأس استمر عبد الله مع ٤٠٠ من عبيده فى غاية المقاومة والمدافعة فى سرايته وعزم على فقد حياته على أطلال مملكته الا أنه اجبر أخيرا بواسطة زمجرة الاهالى وماحصل عندهم من الجزع والخوف على أن يرفع راية المتاركة ويطلب عقد مجلس للمداولة فيه عن عقد هدنة فسمح له ابراهيم باشا بذلك وتوجه عبد الله مع ٢٠٠ من حواشيه وأتباعه الى خيمة ابراهيم باشا وقدم له مواد الخضوع وشروط التسليم فقبل ابراهيم باشا منه ذلك وعرفه أنه لابد من توجهه الى القاهرة

حسب التعليمات والاوامر الصادرة له من أبيه فأوجس عبدالله في نفسه خيفة لكنه رأى أن هذا أقرب الاشياء لتمهيد الاحوال وانتهاء سفك الدماء وزوال المصائب والاكدار فقبل عبدالله السفر بغير مناقضة الى مصر

ولاجل وثوقه واعتماده بالاطمئنان والراحة التي قدمها له ابراهيم باشا وخلاص عائلته وعاصمته من الخراب والدمار ناوله ابراهيم باشا في ذلك منديل الامان فترك سرايته تجرى فيها عبرات ودموع أهله وأصدقائه وسار قاطعا الصحراء مع حاشية قليلة من أتباعه وأعوانه حتى وصل القاهرة وقابله محمد على باشا في ١٧ نوفمبر سنة ١٨١٨ بعد الميلاد مع الاجلال والاعزاز ورحب به وبعد قليل أرسله الى القسطنطينية مع خفر من التاتار ولما وصل اليها لم يجد من يرحمه فيها فطافوا به في القسطنطينية ثلاثة أيام في شوارعها مع اثنين من أتباعه وهما كاتبه وخازنداره ثم قطعوا رؤسهم في ١٩ ديسمبر سنة ١٨١٨ في ميدان جامع آيه صوفيه وكافأ الباب العالي محمد على باشا وابنه بأجل المكافآت وأهدى اليه هدايا ثمينة جليلة

ولما وصلت الاخبار الى الدرعية بموت عبدالله بن سعود انفجر الهياج واختل النظام فأمر محمد على باشا بجمع عائلة عبدالله بن سعود وأقاربه وارسالهم على الفور الى مصر فأرسل نحو من ٥٠٠ شخص منهم اخوانه وأعمامه وأولاده الى القاهرة ورتب لهم محمد على باشا رواتب شهرية تقوم بحياتهم الدنيوية والله يؤتي ملكه من يشاء وهو القوى العزيز

وفي أثناء محاربات ابراهيم باشا في نواحي بلاد العرب نظم محمد على باشا عساكره من الامة المصرية وأدخلهم في سلك قواعد التعليمات والنظامات الاوروباوية ولما تم له شغل الحرب في بلاد العرب عزم على التغلب على بلاد النوبة وسنار فجند فرقة من العساكر مقدارها ٥٠٠٠ نفس وبعض العربان وقليل من المدافع وعهد قيادتها الى ابنه اسماعيل باشا فسار اسماعيل بهذه الفرقة على النيل حتى وصل الى سنار عاصمة كردفان متغلبا على كل ما مر عليه ثم وقع الوباء في رجاله وحاق به رداءة أفعاله فرجع على أعقابه حتى وصل قرية شندى على البر الشرقي للنيل وصار يجمع الاموال والنقود وطلب ملك شندى وتلك البلاد وكان اسمه نمر فطلب منه مالا مع أقاربه فاستعطف له نمر فضربه بشبق دخان كان في يده على وجهه فأضمر له نمر الانتقام وحرقه ليلا مع حاشيته في لهيب النار وهرب نمر الى بلاد الحبش ولم يعد ثانيا الى بلاده فأرسل محمد على باشا صهره أحمد بك الدفتردار فتغلب على الاقاليم النوبية والجهات السودانية

ورتب محمد على باشا جيشا قويا وعمارة بحرية محكمة الوضع والنظام على منوال القواعد الاوروباوية وجعل ضباط كل من العساكر البرية والبحرية من الاوروباويين وعلى الخصوص من رجال الفرنساوية وأنشأ المين والارصنة ومعامل السلاح وورش الملبوسات ومواد أخر في داخل القطر المصري وفتح المكاتب والمدارس لتعليم العلوم والصنائع في جميع أنحاء القطر المصري وجلب المعلمين العسكرية وأرباب السياسة المدنية لتعليم المصريين وحضن محمد على باشا الديار المصرية واعتنقها واعتنى بتربية أولادها كحضانة الام ولدها وصارت البلاد تحت حكمه قوية وتمتعت بدرجة الهدو الداخلية واستتباب الامن والراحة ونجاح عام وفوز تام حتى كأنها ما كانت تعرف الحكومة الفوضوية من قبل ولا الاختلالات والقلاقل الداخلية التي كانت متسلطنة فيها من قرون عديدة مضت

وفي

وفى مدة الاختلالات الجريقية والثورات اليونانية من سنة ١٨٢١ الى سنة ١٨٢٧ أرسل محمد على باشا سنة ١٨٢٥ جيشا مصريا واسطولا بحريا لمساعدة السلطان وكان له نصيب كبير فى وقائع هذه الثورة وسنذكر مفصلات تاريخها فى المملكة الجريقية فى أول الجزء الثانى من هذا الكتاب بعون الله الملك الوهاب الأن الاسطول البحرى أبيد جميعه فى حرب نفرينو فى شهر أقطوبر سنة ١٨٢٧ بعد الميلاد

وكان الغرض الاصلى الحقيقى لمحمد على انتقال مملكته أو ايالته الى مملكة مستقلة وراثية فشرع فى الحال بعد غلاق الحرب الجريقى فى عود أسطوله البحرى زيادة عما كان عليه فى الاصل من العدة والعدد على منوال قوى وطرز بهى وزاد فى قوة جيشه وكانت مملكة السلطان أخذت فى الضعف الشديد مما قاسته من الخسارات والاتلافات التى حصلت فيها من ابتداء فتوح هذا القرن وصار الوقت مساعدا لمحمد على باشا على أغراضه ومقاصده فأنعم عليه السلطان بباشوية جزيرة كريد مكافأة له على ما أجراه من خدماته الجليلة فى الحروب الجريقية فطلب محمد على أيضا من السلطان باشوية سوريا فرفض السلطان محمود قبول هذا الطلب فمن ثم عزم محمد على باشا على التغلب على سوريا واعتل فى ذلك بمشاحنة حصلت بينه وبين عبد الله باشا والى عكا ودخل فى تلك المملكة وذلك أنه أمر بتسفير جيش مؤلف من ٤٠٠٠٠ مقاتل تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا القائد المقدام المتدرب فى الحروب والوقائع فدخل بعساكره ومدافعه فى فلسطين وتغلب على غزة ويافا بعد مقاومة خفيفة ثم سار الى عكا فوصلها فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٣١ بعد الميلاد وحاصرها برا وبحرا وتسلمها فى ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ بعد مدافعات عتيدة ومحاربات شديدة وأسرعت القوى المصرية فى التغلب على فلسطين وسوريا وهزم ابراهيم باشا الجيوش التى أرسلها السلطان لمقاومته وصده وكانت هزيمة هذه الجيوش على التعاقب وذلك أنه تقابل فى حمص من أعمال سوريا العليا فى ٦ يوليه سنة ١٨٣٢ بالجيوش العثمانية تحت قيادة محمد باشا والى طرابلس فهزمها ابراهيم وبدد شملها وتغلب على حمص وكذا فى بيلان (فى صليصيا بالقرب من ميدان الواقعة القديمة التى كانت حصلت فى عيصوص) فى ٢٩ من الشهر المذكور وفى قونيه فى آسيا الصغرى التقى مع رشيد باشا بجيوشه العثمانية فهزمه وشتت شمل جيوشه وأسره وكان رشيد باشا هذا هو الصدر الاعظم فى الدولة التركية العثمانية وبهذا صار ابراهيم باشا أستاذ آسيا الصغرى تقريبا واستعد للتقدم نحو القسطنطينية وكان ولابد من وقوعها فى يده لولا أن تداخلت الدول الاوروباوية وأرغموا محمد على باشا على قبوله الحكم الذى قرره له السلطان بباشوية كريد مضافة الى مصر وأضاف الدول له أيضا باشوية أورشليم وطرابلس وحلب ودمشق وأدنه وعقد الدول بذلك معاهدة فى ١٤ مايه سنة ١٨٣٣ وهى معاهدة كوتاحية وأن يكون محمد على باشا خادما عبدا للباب العالى ووقع الدول على هذه المعاهدة فى ٨ يوليه سنة ١٨٣٣ وكانت هذه نصرة جليلة لمصر واذلال فاضح قبيح للسلطان وصار ذلك تغلبا حقيقيا على جميع الممالك التى تحمل سليم الاول مشاق التعب فى التغلب عليها وأضافها الى الممالك التركية العثمانية

وشرع ابراهيم باشا من هذا الوقت فى اجراء الاحكام ومباشرة الاعمال فى سوريا وفلسطين وجعل مقره فى أنطاكيه وبنى فيها سرايه وقشلاقات عسكرية ووظف اسمعيل بك على حلب وأحمد منكلى باشا على ادنه وطرسوس وجعل القيادة العسكرية لنفسه

ومازال محمد على باشا ثابتا فى أمره عازما فى مقصده على أن يجعل ممالكه سلطنة مستقلة فاشتد الغضب فى وجه السلطان محمود الثانى وكذا رفض محمد على باشا دفع الخراج المرتب سنويا على مصر للباب العالى وتجاسر بقوته وشهامته وطرد الخفر السلطانى من عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم واستبدله بخفر آخر من العساكر المصرية العربية وظهر من فعل هذا أنه خلع طاعته مجاهرة لجلالة السلطان المعتبر أنه خليفة الاسلام والمسلمين وتولد من ذلك أن صارت الحالة فى غاية من الاشكال ومن بعد مخابرات عديدة أرسل السلطان فرمانا لحاكم مصر بأمره باعادة الخفر التركى على قبر النبى صلى الله عليه وسلم وأن يسرع بدفع الخراج السنوى المقرر على مصر ويعترف بعبوديته للسلطان فرفض محمد على باشا مع الشدة والحدة هذه الطلبات وأعلن السلطان بانتشاب الحرب على عبده العاصى فى سنة ١٨٣٩ وقرر المجلس فى الاستانة بتجنيد حملة مؤلفة من ٨٠٠٠٠ مقاتل منهم ٢٥٠٠٠ من عساكر الباشبوزق وأن تكون تحت قيادة حافظ باشا ولما توالت الاخبار الى محمد على باشا باستعداد الباب العالى كتب الى ابنه يحضه على المدافعة فأخذ ابراهيم باشا فى اجراء الاعمال الدفاعية والاستعداد لهزيمة العساكر السلطانية وعبر الجيش التركى نهر الفرات تحت قيادة حافظ باشا وكان على غاية من التطقيم وحسن النظام وتقابل مع القوة المصرية تحت قيادة ابراهيم باشا فى نواحى نزب فى ٢٥ يونيه سنة ١٨٣٩ فترك معظم الايات الجيش العثمانى البيرق السلطانى وتوجهوا مع المصريين ومابقى من القوة التركية فى ميدان المحاربة هزمها ابراهيم باشا وغنم مدافعها ومهماتها وذخائرها وفى ٦ يوليه سنة ١٨٣٩ أمر السلطان بتسفير أسطول من القسطنطينية مؤلف من ست وثلاثين سفينة لاجل الهجوم على مدينة الاسكندرية فوصل الاسطول الى الاسكندرية فى يوم ١٣ من الشهر المذكور وسلم نفسه فى الحال الى المصريين بخيانة قائده

وفى هذه الحالة صارت تركية تحت عفو الحكومة المصرية مرة أخرى وصار لابد من سقوط القسطنطينية لولا أن تداخلت الدول الاوروباوية ثانيا وطردت الاساطيل الانكليزية محافظى المصريين الموجودين فى المدن السورية وساعدت الاساطيل الانكليزية الجيوش العثمانية فى تغلبهم ثانيا على سورية وأرغم الدول محمد على باشا على أن يرد الاسطول العثمانى الى الدولة ويسحب عساكره من كريد ومن آسيا الصغرى وحصل التوقيع على معاهدة عقدت فى لوندره فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ باثبات مصر لمحمد على باشا ومن خلفه مباشرة من صلبه وأن يرد جميع ما تغلب عليه فى حروباته مع السلطان وأن يدفع خراجا سنويا مقررا الى السلطان ويرسل لمساعدته حسب الطلب عساكر برية وعمارة بحرية

واستمر محمد على باشا حاكما فى مصر الى سنة ١٨٤٨ وهو يدير أشغالها وينظم أعمالها وأحوالها الخيرية ومن ذلك انشاؤه القناطر الخيرية فى رأس الدلتا على كل من فرعى دمياط ورشيد وقد وضع أساس هذه القناطر بيده فى سنة ١٢٥١ هجرية أو سنة ١٨٣٥ مسيحية وأحاط مدينة الاسكندرية بالاستحكامات والاسوار القوية وحفر الترع والخلجان للرى وحفر فى سنة ١٢٣٥ هجرية أو سنة ١٨٢٠ ميلادية ترعة المحمودية نسبة الى السلطان محمود واصلة من النيل الى الاسكندرية على أصل الترعة الاشرفية القديمة

ولما بلغ عمره ثمانين سنة أدركه اختلال فى العقل وضعف فى المزاج وازدادت فيه ظواهر الخرف فجعل

ابنه ابراهيم باشا فى محله الا أنه مات من بعد مضى شهرين فى ٩ نوفمبر سنة ١٨٤٨ ميلادية
ثم صار عباس باشا ابن طوسون باشا المشهور فى حرب الوهابية والى مصر بعد عمه ابراهيم باشا وفى حياة جده محمد على باشا وكان حاكم القاهرة تحت ادارة جده وكان حصل منه جرائم عنيفة وأعمال سخيفة أوجبت عليه غضب عمه ابراهيم فلما تولى ابراهيم باشا واليا على مصر فى حياة أبيه أرسل عباس باشا منفيا الى الحجاز وبمجرد ما بلغته الاخبار بموت عمه وتوليته الاريكة المصرية جاء مسرعا من الاراضى الحجازية واستلم أحكام البلاد وفى مبادى حكمه توفى جده فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ ميلادية ودفن بجامعه الذى أنشأه بقلعة مصر القاهرة
وكان عباس باشا مسلما حقا فاجتهد فى ابطال جميع التمدن والحضارة التى شيدها جده وشيد سرايات وقلاعا فى نواحى العباسية والدار البيضاء ونواحى جبل الطور ليقيم فيها المدد التى يغيبها تاركا حكومته وبعيدا عن مصر وألغى مدارس التعليم التى كان شيدها جده وأنشأ بدلها المدارس الحربية المفروزة بنواحى العباسية (لقب عباس) ماعدا مدرسة المهندسخانة ببولاق ومدرسة الطب البشرى التى بالقصر العينى فانه أقامهما ثانية وكنت أنا تلميذا فى مدرسة المهندسخانة هذه وألغى الجيش الاقليلا والورش والمعامل بقصد الاقتصاد والوفر وكان العدو الالد للاوروباويين ورفت جميع من كان مستخدما منهم فى الحكومة واجتهد فى اخراجهم جميعا من المملكة ورفض جميع الرخص والمنح التى تعطى للاوروباويين ماعدا واحدة فقط وهى كونه سمح لشركة انكليزية فى انشاء سكة حديدية من الاسكندرية الى القاهرة الى السويس وحصل الشروع فى العمل
﴿ لطيفة ﴾ كنت أنا فى مبادى الشروع فى السكة الحديدية تلميذا صغيرا فى مدرسة الهندسة التى كانت فى بولاق تحت نظارة على مبارك باشا وكنت جاريا فى تدريس العلوم الاولية من العلوم الرياضية فصدر أمر عباس باشا بأخذ جماعة منا كمهندسين فى السكة الحديدية هذه وكان ناظر عموم المدارس وقتها عبده باشا فوصل الى مدرستنا هذه وانتخب منها عشرة من دون أن يعرف أن كانوا على علم من العلوم الرياضية أم لا وكنت أنا من ضمن العشرة فتوجه خمسة وكنت أنا منهم الى الاسكندرية وبقى خمسة فى القاهرة ومن حيث اننا الخمسة صغار السن وما تعلمنا العلوم الرياضية حتى نكون فى درجة المهندسين مكثنا شهرين وقاسينا العذاب والبرد والجوع وأخيرا صدر أمر عباس باشا بعودنا ثانيا الى المدرسة لاتمام علومنا فأنزلنا محافظ الاسكندرية فى مركب من مينة البوصل بالاسكندرية فوصلنا ساحل بولاق من بعد مضى خمسة وأربعين يوما من نزولنا لان الاوان كان شتاء وبردا وأهوية عربيسية بعد أن ذقنا الويل والعذاب الاكبر
وفى سنة ١٨٥٢ صدر فرمان من السلطان الى عباس باشا بأمره بادخال النظامات فى مصر أو القانون الاساسى التركى ولم يحصل من هذا القانون فائدة مهمة للامة المصرية زيادة عن الفوائد المهمة التى كانوا متمتعين بها من قبل الا أنه منع الحكم الاستبدادى للوالى ومع هذا فما كان لهذا القانون تأثير أبدا لان عباس باشا رفض فى الابتداء قبول هذا القانون الا أنه انجبر أخيرا على الطاعة والانقياد لخلاصه مما كان واقعا فيه تحت المسؤلية لدى السلطان فيما كان يجريه من أعماله العنيفة القطيعة لاهله وأقاربه وتسلطه على عمد البلاد والاكابر والاعيان والاغنياء ونفيهم من بلادهم وارسالهم الى نواحى الاقاليم السودانية والبحر الابيض وجهات سنار وفيزوغلى وبذل انعاماته التى كان يبذلها فى

القسطنطينية وجهز مرضاة لخواطر السلطان وحسب الفرمانات فرقة من العساكر مؤلفة من ١٥٠٠٠ نفس اعانة للجيش التركى فى حرب القرم وأرسل مبالغ جمة من النقود الى الباب العالى ومات فجأة فى سنة ١٢٧٠ هجرية أوفى ١٢ يوليو سنة ١٨٥٤ ميلادية فى سرايته فى مدينة بنها العسل وكان توعد بعض نسية من عائلته بقتلها فمن المعتقد أنه قتله اثنان من المماليك الذين كانوا فى خدمتها ونجا الاثنان بحياتهما ولم يعلم لهما مقر

وتولى زمام الاحكام من بعده محمد سعيد باشا ابن محمد على باشا وكان حازم الرأى أحسن من سلفه وابتدأ فى حكمه بابطال شوكة المديرين ومشايخ البلاد وعدم تسلطهم على العباد ورتب جيشا جديدا أدخل فيه أجود طريقة وهى القرعة العسكرية الا أنه ما كان على رأى ثابت فى بقاء الجيش ولا فى دواوين الادارة بل كان كل يوم فى تغيير وتبديل وانشاء ونقض وابرام والغاء ورتب طريقة عادلة فى ترتيب وتوزيع الضرائب والعوائد ورخص لبائعى المحصولات أن يبيعوا محصولاتهم لمن يشتريها غير الحكومة وشرع فى اصلاحات عديدة مهمة داخلية منها تطهير ترعة المحمودية وكان طم فمها وعلا فيها الطمى والوحل فأمر بنزحها وتطهيرها وعمل على فمها من جهة النيل آلات بخارية ميكانيكية لرفع المياه من النيل فى أيام التحريق ورميها فى الترعة لاجل سهولة سقى المزروعات واعطاء المياه الكافية لاحتياجات مدينة الاسكندرية واستمر فى مد خطوط السكك الحديدية والخطوط البرقية التلغرافية بين القاهرة والاسكندرية والسويس وهو أول من اجتهد وبذل ما فى طاقته فى فتح خليج السويس الموصل للبحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر ومن أجل هذا لقب أحد طرفيه باسمه وهو بورت سعيد نسبة الى محمد سعيد باشا وأنشأ القلعة السعيدية فى السنة الثانية من تقلده زمام الاحكام المصرية تحت القناطر الخيرية فى رأس الدلتا ووضع بيده الحجر الاول من أساسات أسوارها وكان يوما مشهودا وكذا أسس لنفسه قبرا فى داخل هذه القلعة الا أنه لم يتم ولم يكن له نصيب فى أن يدفن فيه وكان جلب لهذا القبر قبة من الحديد من بلاد انكلترة الا أنه لم يصر تركيبها وبقى حديدها مرميا فى أرض القلعة مدة طويلة من الزمن وفى مدة حكمه قامت عربان جهات مديرية الفيوم فى ثورة فأطفأ بعساكره هذه الثورة بعد أن قتل من العرب ناس كثيرون بالمدافع والبنادق وأخضعهم وجلب كثيرا منهم ومن رؤسائهم فى ليمان القلعة السعيدية ثم توجه الى الاقطار السودانية قاطعا صحارى العطمور المسمى عطمور أبو حمد حتى وصل مدينة الخرطوم وتفقد أحوال الاعمال بهذه الجهات وأزال ما وجده من المظالم ثم عاد قافلا الى الديار المصرية وكان على الدوام مشتغلا بلغو الجيش وانشائه وألغى المدارس والمكاتب حتى المدارس العسكرية ومحلات التربية والتعليم واكتفى بترقية ضباط الجيش من العساكر الذين هم تحت رعايته ولو لم يكن لهم دراية بالقراءة والكتابة والعلوم العسكرية فمن ثم تولدت البغضاء والعداوة بين ضباط الجيش الذين هم من أصل المدارس من أولاد العرب ومن الترك والجراكسة وبين الضباط الذين أصعدهم محمد سعيد باشا من تحت السلاح ومازالت هذه العداوة بينهم الى أن ثارت الثورة الوطنية التى سيأتى الكلام عليها فى سرد تاريخ الخديوى محمد توفيق باشا

وفى آخر أيامه زار الحرم المدنى وتبرك بزيارة قبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وزار بلاد فرانسا وسوريا وفى يوم السبت ٢٦ رجب سنة ١٢٧٩ هجرية أو ١٧ ينايرسنة ١٨٦٣ توفى فى الاسكندرية ودفن فى المدفن المعروف بالنبى دانيال وهو قبر اسكندر الاكبر وليس قبر النبى دانيال

وفى

وفى سنة ١٢٧٩ هجرية أوسنة ١٨٦٣ ميلادية خلف اسمعيل باشا عمه محمد سعيد باشا وهو ثانى أبناء ابراهيم باشا بن محمد على وكان تربى أحسن تربية فى مدارس أوربا مع اخوته أحمد باشا الاكبر ومصطفى فاضل باشا الاصغر وكان أحمد باشا مات قتيلا غريقا فى قنطرة كوبرى السكة الحديد بجهة مدينة بنها فى يوم عيد فى مدة حكم محمد سعيد باشا مع جماعة من وجوه الاعيان بمصر وتهذب اسمعيل باشا فى العلوم الرياضية والرسوم الخطوطية وجال فى أوروبا واختبر أحوالها وعوائدها ولما تقلد زمام الاحكام فى الديار المصرية فى ٢٧ رجب سنة ١٢٧٩ أو ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ استمر فى زيادة حركة الاصلاح التى كانت جارية بواسطة عمه وفى مبادى تولايته وفد السلطان عبد العزيز الى الديار المصرية زائرا لها ومتفقدا أحوالها فلاقاه اسمعيل باشا بأجمل ترحاب لم يسبق له نظير ولما كان الحرب جاريا فى غاية التقدم فى نواحى أمريقه وتولد من ذلك ندرة وجود الاقطان فى حركات التجارة انتهز الفرصة اسمعيل باشا وأكثر من زراعة هذا الصنف فى داخل القطر المصرى وحض الامة المصرية على زراعته حتى جعل مصر أحد أسواق القطن المشهورة فى الدنيا وكان أخا صادقا ومحبا نافعا الخليج السويس الذى تم شغله فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ميلادية أوسنة ١٢٨٦ هجرية وفتح بحضور الجم الغفير من ملوك وأمراء ونواب جميع ممالك الدنيا ودفع مبالغ جمة من النقود لينقل قانون الوراثة من الاب الى الابن عند الباب العالى

وفى سنة ١٨٦٦ جهز جيشا مؤلفا من ٣٠٠٠٠ نفس الى الباب العالى لاجل اخماد الثورة التى كانت حصلت فى جزيرة كريد وبعد ذلك بقليل زاد فى مقدار الخراج المطلوب منه بطريقة اختيارية من نفسه وفى سنة ١٨٦٧ استحوذ من الباب العالى على فرمان خول له الحق فى عمل نظامات حسب رغبته فى الادارة الداخلية لمصر وكونه يعقد معاهدات مع الدول الاجنبية مرعية الاجراء فى العمل وطلب من الباب العالى أن ينعم عليه بلقب سلطان أرض مصر فأنعم عليه بلقب خديوى ومن ثم طلب اسمعيل باشا من الباب العالى أن يكون لمصر سفراء ونواب فى جميع دواوين الممالك الاجنبية فرأى الباب العالى أن مقصده الاصلى هو الاستقلال من الممالك التركية العثمانية فرفض طلبه هذا ولم يقبله فأوغر اسمعيل باشا فى صدره الغضب وهدد ديوان الاستانة بأخذ عساكره من جزيرة كريد أو يستحوذ على تلك الجزيرة ان لم تمنح طلباته وصار الحرب بين السلطان وبين عبده اسمعيل على شرف الوقوع وشرع اسمعيل باشا فى اجراء الاستعدادات الحربية وحفظ السواحل البحرية المصرية وأنشأ على السواحل من الاسكندرية الى أبوقير الى رشيد الى دمياط الى بورت سعيد الطوابى والقلاع المستجدة ورمم الطوابى والقلاع القديمة وجلب اليها أنواع المدافع الضخمة من عيار ٤٠٠ و ٣٠٠ و ١٢٠ أوقة من المدافع المسماة أرمسترنج مع جميع عياراتها من القلل والقنابل المختلفة الجنس والذاتات وبذل مجهوده فى أشغال هذه القلاع وصرف عليها المصاريف الجمة وكنت أنا فى هذه الواقعة باشمهندس استحكامات وقلاع الساحل من أبى قير الى رشيد الى نواحى البرلس وصار اسمعيل باشا على غاية من استعداد للحرب مع سلطانه فتداخلت الدول الاجنبية فى عدم ثوران حرب أو حصول كرب وألزموا الخديوى بتنازله عن مطامع أغراضه وأن يخضع وينقاد لحكومة أستاذه وسلطانه

وفى سنة ١٨٦٨ مد اسمعيل باشا سلطته على الممالك الموجودة فوق النيل الاعلى وهى دارفور ونواحيها وذلك انه أرسل عساكره تحت قيادة اسمعيل أيوب وكان حاكم عموم السودان فى هذا الوقت

فتغلب على نواحى بحر الغزال وأخضع قبائلها السودانية وسار منها الى دارفور وتغلب عليها وهزم عساكرها وأسر ملوكها وأمراءها وأرسلهم الى القاهرة فى أسوء حال مع عائلاتهم وأولادهم وأسكنوا القاهرة ورتب لهم الخديوى رواتب شهرية تقوم بحياتهم وفى نفس هذه السنة تخابر فى اقتراض قرض ودعا ملوك أوروبا كى يشرفوا بحضورهم فتح قنال السويس فرأى الباب العالى أن أعماله هذه أعمال ملك مستقل وتولد منها الغضب الاكبر عند السلطان فأصدر له أمرا بتقليل جيشه الى ٣٠٠٠٠ عسكرى وأن يبطل ما هو جار فيه من اعمال المدرعات الزرخ وانشاء القلاع والطوابى واستعداد الاسلحة ومشتراها وكان عقد معاهدتها مع انكلترة وجهات أمريقه وجلب الكثير منها الى الديار المصرية وأن لا يتداخل فى الحال ولا فى الاستقبال فى المواد السياسية الخارجية ولا يقترض مبالغ من الدول الاجنبية وأن يعرض ميزانية مصر وفائه سنويا على الباب العالى لاجل النظر فيها والاقرار على ما فيها فى القسطنطينية فرفض الخديوى اسمعيل هذا الفرمان وأعلن بانه لابد له من قرض مبالغ فى الحال وفى الاستقبال حسب موافقة الاحوال والاعمال فعزم السلطان على أن يرسل له آخر بلاغ يطلب منه أن يختار له واحدة من اثنتين اما الحرب واما الانقياد والطاعة فتداخل فى هذه المسئلة كل من دولتى فرانسا وانكلترة ولما رأى الخديوى معارضة الدول الاوروباوية له فى مساعيه على استقلاليته أعلن فى ٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ بانقياده لمرغوب السلطان وكان منتظرا على الدوام وقت فرصة استقلاليته وفى أثناء المدة اجتهد اسمعيل باشا فى أن يجمع جميع الممالك الواقعة فى جنوب مصر لحد منابع النيل وخط الاستواء تحت سلطته وتنازل له السلطان عن زيلع ونواحيها وبربرة ونواحيها على خراج معلوم يدفعه سنويا عن هذه الجهات الى خزينة الباب العالى وتغلب على نواحى هرر وأرسل تجريدة تحت قيادة محمد راتب باشا الجركسى لاجل التغلب على بلاد الحبش فكانت هذه الحملة على غير طائل وهلك فيها كثير من الضباط والعساكر وأرسل للجهات التى تغلب عليها ما يلزم من الحبوب والبذور لاجل تقدم الزراعة فيها وأنشأ فى داخلها طرق التجارة وضرب على أهاليها كميات وافرة من محصولاتهم من العاج والصمغ والجلد وشمع العسل والذهب ومد خطوط التلغرافات فى عموم الاقطار النوبية والسودانية وشرع فى مد سكة حديد من الشلال الاول الى مدينة الخرطوم فلم ينجح فى مشروعه هذا وبواسطة مد سلطته على البحر الاحمر وخليج السويس صار له قدرة على توطيد الثروة والغنية فى تلك الجهات وورود منافعها ومكاسبها الى الاقاليم المصرية

ولقد باشر اسمعيل باشا بناء مينة مدينة الاسكندرية وأرصفتها حتى تمت ثم سافر لزيارة الاستانة وقوبل فيها بأجل ترحاب من طرف السلطان وفى هذه السنة احتفل بزواج أولاده الثلاثة وهم محمد توفيق باشا وحسين كامل باشا وحسن باشا وكان زواجهم فى شهر واحد ومنحوا رتبة الوزارة معا وتولد من المساعى والاجتهادات التى أجراها اسماعيل باشا فى مصر رضا السلطان عليه مرة ثانية ومنحه فى ٨ يونيه سنة ١٨٧٣ الفرمان السلطانى الذى خول له جميع الحقوق المعطاة لرتبة الخديوية واستبدال موقع مصر من حالة ايالة الى هيئة مملكة سلطانية مستقلة تقريبا ومنح له فيه حقوق الوراثة لابنه البكرى والاستقلال بالاحكام الادارية وعمل النظامات الداخلية وترتيب جميع وسائط المحافظة والمدافعة والنقص أو الزيادة فى عدد العساكر وعقد معاهدات تجارية مع الدول الاجنبية والنداخل فى عقد قروض من الخارج بغير استئذان حسب اللزوم بشرط أن يكون القرض باسم

الحكومة

الحكومة المصرية ومنحه حق التصرف المطلق فى المواد المالية وعمل تنظيمات فيما يختص بحالة الاغراب ومعاملتهم مع الحكومة المصرية وأمتها الا انه غير مرخص بتداخله فى عقد معاهدات دولية وأن لا يكون له نواب أو سفراء فى الخارج وأن النقود والمعاملة التى تضرب فى مصر تكون باسم السلطان وأن تكون هيئة العساكر البرية والبحرية غير مخالفة لهيئة العساكر التركية العثمانية فى البيارق والملبوس وللخديوى أن يرقى فى رتب العسكرية الى غاية رتبة أميرالاى كأسلافه وفى رتب الملكية لغاية رتبة ثانية ولا يرخص للخديوى انشاء مدرعات من الزرخ بغير استئذان وله أن ينشئ سفنا خلافها حسبما يشاء وأن يدفع سنويا من دون حصول أدنى تأخير الخراج المقرر سنويا ومقداره ١٥٠٠٠٠ كيس الى الخزينة السلطانية

وكان لهذا الفرمان تأثير شديد على همة اسماعيل باشا الخديوى فأخذ فى مشروعات الاصلاحات وتنظيم البلاد ومد سكك الحديد والسلوك التلغرافية وبناء الابنية والشوارع والبساتين وكثر فى أيامه توارد الاوروباويين فى مصر وفى سنة ١٨٧٥ اشترت الحكومة الانكليزية أسهم ترعة السويس التى كانت للحكومة المصرية وأمر ببناء دار العجائب القديمة فى بولاق ودار الكتب الخديوية فى درب الجماميز من القاهرة وانشاء محلات التياترات والملاعب فى حديقة الازبكية وبناء السرايات والابنية الكبيرة فى القاهرة والاسكندرية وتداخل فى مشترى الاطيان من الاهالى من الجهات البحرية والقبلية حتى تغلب على نحو مليون ونصف من الفدادين قسمها تفاتيش وأنشأ فيها فوريقات ومعاصر قصب السكر وصرف عليها مبالغ مهولة من النقود وشيد شركة النور والمياه فى القاهرة وفتح المدارس وعمم المعارف وحسن المطبعة الاميرية وأنشأ معمل الورق فى بولاق وبنى الاسماعيلية وزينها بالحدائق وله اجراآت كثيرة وأعمال جسيمة وقعت منها المملكة فى الديون وعادت عليه بالضرر فى الحال وأسقطته من عيون الملوك والعمال

وفى مبادى الحروب التى حصلت بين روسيا وتركيا فى سنة ١٨٧٧ ميلادية أرسل الخديوى فرقة قوية من العساكر المصرية تحت قيادة راشد حسنى باشا وكنت أنا رئيس أركان حربها ومدبر حركاتها العسكرية فى الوقائع الصربية فى جهات بوسنه وهرسك وكذا فى انتشاب الحروب الروسية فى نواحى دوبريجه من أعمال بلغاريا وحزت فى هذه الوقائع نيشان الدرجة الثالثة المجيدى ونيشان الدرجة الرابعة المجيدى ومدالية اليتين فى الحروب الصربية والحروب الروسية وكان مقدار القوة المذكورة ٢٥٠٠٠ نفس مشاة وفرسانا وطوبجية وأخيرا صارت هذه الفرقة تحت قيادة ولده حسن باشا فى نواحى وارنه ولشدة اسماعيل باشا فى توابعه بحسن النظام والزخرفة والابنية كان لا ينظر الى صرف المصاريف الباهظة اللازمة لتنفيذ مشروعاته فى داخل المملكة المصرية ولا النظر الى صرف مرتبات الضباط والعساكر الجهادية فتراكمت الديون الى حد كبير جدا على الحكومة المصرية حتى أوجب قلق الدول الاوروباوية الداخلة فى هذه الديون واتفقت على تعين مجلس سموه مجلس التصفية لاجل حصر مدخول الحكومة ومعرفة مقدار مصروفاتها ولما رأى هذا المجلس حصول العجز الكبير فى مدخول الايراد ألزم اسماعيل باشا الخديوى بتنازله عن أملاكه الخاصة به وأملاك عائلته وسلمت لارباب الدين وأطلق عليها اسم أملاك الدومين وصادق اسماعيل باشا على تعيين ناظر مالى انكليزى اسمه ريفرس ويلسون وآخر للاشغال اسمه دوبلنير فرنساوى ورتب نظارة تحت رياسة نوبار باشا وفى

أثناء ذلك كانت مرتبات ضباط الجهادية والعسكرية موقوفة الصرف مدة شهور عديدة وتقرر فى جلسات النظار توفير ورفت البعض من هؤلاء الضباط والعساكر لقصد الاقتصاد فى المصاريف وكان نوبار وويلسون ودوبلنير متقلدين سوية زمام الحكومة المصرية وليس للخديوى اسماعيل كلمة نافذة فيها ثم أدخل كل من نوبار وويلسون ودوبلنير أحباءهم وأقاربهم وأصحابهم من بلادهم فى خدمات الحكومة ويرفتون من شاؤا ويخدمون من شاؤا وحجروا على اسماعيل باشا وعلى أولاده عن مباشرة الاحكام والحكومة وافتقر ضباط العسكرية حتى آل أمرهم الى السؤال فعرضوا أخيرا عريضة الى اسماعيل باشا يطلبون منه صرف مرتباتهم المتأخرة لاجل مساعدتهم على معيشتهم هم وأولادهم وعائلاتهم فسلطهم فى السر على النظار وكان نوبار رئيس النظار فتواعد الضباط مع بعضهم فى يوم معلوم يجتمعون فيه فى شارع ديوان المالية وقبضوا على نوبار باشا وسقوه الزيت الحار وألزموه بصرف مرتباتهم وأهانوه مع ريفرس ويلسون ناظر المالية وذهبوا الى ديوان المالية شاهرين سيوفهم وكانوا نحو من ٤٠٠ ضابط وحصل اللغط والهياج ووصلت أخبار هذه الثورة الى مسامع الخديوى اسماعيل فاسرع فى الحضور الى ديوان المالية وأخمد هذه الرزية وأمر النظار بصرف مرتبات العساكر فصرفها ويلسون ناظر المالية على الفور وتولد مما حصل لنوبار وويلسون من الاهانة والاحتقار أن استقالا من النظارة وكذا استقال مصطفى رياض باشا من الداخلية وخرج سريعا كما هى عادته الى الاقطار البرانية وولى اسماعيل باشا الخديوى ابنه توفيق باشا رئيس مجلس النظار

وفى ٧ ابريل سنة ١٨٧٩ قلب الخديوى اسماعيل هيئة النظارة وجعلها نظارة وطنية تحت رياسة شريف باشا وأمر بزيادة القوى العسكرية الى نحو ٦٠٠٠٠ مقاتل وأرسل عمر باشا لطفى الى الجهات البحرية لتحصيل نقود ومبالغ ومحمد سلطان الى النواحى القبلية لتحصيل نقود وأموال أيضا فصعب كل هذا على دولتى انكلتره وفرانسا فاجتهدتا فى عزله وخلعه وجبرتاه بواسطة نوابهما فى مصر على تنازله عن الاريكة المصرية وهدده النائبان كل التهديد وكذلك صار تهديد السلطان من جهتى دولتى انكلتره وفرانسا حتى امتثل السلطان لخلعه وكتب بخلعه تلغرافا له فى تنازله عن الاريكة المصرية لابنه محمد توفيق وصدر الامر التلغرافى السلطانى باثبات محمد توفيق باشا الخديوى الحالى على الاريكة المصرية من يوم ٦ رجب سنة ١٢٩٦ هجرية أو ٢٥ يونيه سنة ١٨٧٩ بعد الميلاد

وفى ٣٠ يونيه سنة ١٨٧٩ سافر اسماعيل باشا منفيا أو متباعدا عن الديار المصرية مع ولديه حسين كامل باشا وحسن باشا وعائلته وركب فى قطار مخصوص من محطة السكة الحديد بالقاهرة وكان يوم نزوله يوما مهولا شديدا لاسف والحزن على فراقه وكان ابنه توفيق باشا من جملة المودعين له وسار حتى وصل مدينة الاسكندرية ومنها نزل فى وابور المحروسة وكان مستعدا لسفره بعد أن خزن فيه كنوزه وخزائنه وما غلا ثمنه وقل حمله وتوجه مصحوبا بعائلته حتى نزل مدينة نابولى من أعمال ايطاليا بعد أن رفض قبول نزوله فى احدى ايالات الدولة التركية العثمانية الا انه ندم أخيرا وصار يستعطف جانب السلطان فى قبوله ضمن سكان القسطنطينية فلم يمنحه السلطان هذا الطلب فشرع فى ذمه والقدح فيه على لسان جريدة من جرائد الاخبار ومن بعد اخماد واطفاء الثورة الوطنية المصرية صدر عفو توفيق باشا عن أخويه حسين وحسن وعادا الى الديار المصرية ليقيما تحت كنفه وفى أثناء الحوادث السودانية صدر أمر من توفيق باشا بارشاد الحكومة الانكليزية بتولية حسن باشا حاكم عموم الاقطار

السودانيه فقبل حسن باشا هذا الامر واستعد وسافر حتى وصل الى جهة دارفور ولما وجد النار حراء والمزار بعيدا ارجع على أعقابه من قريب ولما لم يطب له العيش فى الحكومة المصرية أخذ رخصة من أخيه توفيق باشا وتوجه الى الاستانة طالبا صحته لانه كان فى توعك من العياء فقابله السلطان عبد الحميد الحالى بالاجلال والاحترام والترحاب ووظفه ضمن القرناء السلطانية فبذل حسن باشا جهده وما فى وسعه وطاقته عند السلطان حتى رضى على أبيه ورخص له بدخوله فى القسطنطينية واقامته بها تحت كنف ورعاية السلطنة العثمانية وها هو مقيم بها الى الآن ومن بعد دخول اسماعيل باشا فى القسطنطينية مات حسن باشا بداء الاستسقاء وأمر السلطان بحمل جثته الى الديار المصرية ودفن مع أهله وأقاربه فى مدينة الاسكندرية

﴿ محمد توفيق باشا خديوى مصر ﴾

تولى محمد توفيق باشا الخديوية المصرية وجلس على أريكتها فى يوم الخميس السابع من شهر رجب سنة ١٢٩٦ هجرية أو ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ ميلادية وكانت أمورها مرتبكة وأحوالها مختلفة بسبب ما طرأ عليها من المصاعب والآفات من عسر المالية وعدم انتظام العسكرية وما حصل من تداخل الاغراب فى أحوال البلاد مدة الوزارة النوبارية واشتداد وطأتهم على أصناف العسكرية حتى أوجب احكام الضغائن ووقوع التباين فى صدور ضباط الجهادية

وفى يوم الخميس المذكور ورد تلغراف من الباب العالى الى القاهرة بتولية محمد توفيق باشا وتقليده زمام الاحكام المصرية وجلوسه على الاريكة الخديوية فكان لورود هذا التلغراف من الباب العالى يوم مشهود فى الاحتفالات والتهنئات وكثرة الوفود وأرسل توفيق باشا تلغرافا فارذا الى الباب العالى على التلغراف المؤذن بارتقائه الى الاريكة الخديوية

ثم مضت مدة من بعد ورود التلغراف ولم يرد الفرمان السلطانى فارتاع توفيق باشا من تأخير ورود الفرمان واختلفت أقوال الناس وظنونهم اختلافات شتى فى أسباب تأخير الباب العالى صدور الفرمان وفى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ ورد الفرمان بالامر بتولية محمد توفيق باشا الخديوية المصرية

ومآل هذا الفرمان انه على حسب الفرمان السلطانى الصادر الى الخديوية المصرية فى ١٢ محرم سنة ١٢٨٣ المتضمن توجيه الخديوية المصرية الى أكبر أولاد اسمعيل باشا قد صار توجيه الخديوية المصرية الى عهدته وأنه لما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة كافة أهاليها وسكانها ورفاهيتهم من المواد المهمة لدينا ومرغوبنا وأجل مطلوبنا وقد ظهر أن بعض أحكام الفرمان المتقدم المبنى على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المبين فيه الامتيازات الحائز لها الخديوية المصرية قد عيا نشأت عنها الاحوال المشكلة الحاضرة المعلومة فلذلك صار اثبات المواد التى لا يلزم تعديلها من هذه الامتيازات وتأكيدها وصار تبديل المواد المقتضى تبديلها وتعديلها واصلاحها وما تقرر اجراؤه الآن هى المواد الآتية وهى ان كافة واردات الخطة المصرية يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهانى وحيث ان أهالى مصر من تبعة دولتنا العلية وان الخديوية المصرية ملزومة بادارة أمور المملكة والمالية والعدلية بشرط أن لا يقع فى حقهم أدنى ظلم ولا تعد فى وقت من الاوقات نخديوى

مصر يكون مأذونا بوضع النظامات الداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة وأن يكون خديوى مصر مأذونا بعقد وتجديد المشارطات مع مأمورى الدول الاجنبية بخصوص الجمارك والتجارة واتساعها ولاجل تسوية المعاملات السائرة التى بين الحكومة والاجانب أو بين الاهالى والاجانب بشرط عدم وقوع خلل بمعاهدات دولتنا العلية السياسية وفى حقوق متبوعية مصر اليها وانما قبل اعلان الخديوية الشروط التى تعقد مع الاجانب بمصر تقدمها الى بابنا العالى وأيضا يكون حائزا للتصرفات الكاملة فى أمور المالية لكنه لا يكون مأذونا بعقد استقراض من الآن فصاعدا بأى وجه من الوجوه وانما يكون مأذونا بعقد استقراض بالاتفاق مع المداينين الحاضرين أو نوابهم الذين يتعينون رسميا ويكون هذا الاستقراض منحصرا فى تسوية أحوال المالية الحاضرة ومخصوصا بها وبما أن الامتيازات التى أعطيت لمصر هى جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التى خصت بها الخديوية فلا يجوز ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الاراضى المصرية الى الغير بأى سبب من الاسباب ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠٠٠٠ ليرة عثمانى وهو القرار المقرر دفعه سنويا فى أوانه وكذلك جميع النقود التى تضرب فى مصر تكون باسمنا الشاهانى ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ١٨٠٠٠ نفس لان هذا القدر كاف لحفظ أمنية مصر الداخلية وقت الصلح وبما أن قوة مصر البرية والبحرية مرتبة من أجل دولتنا العلية فيجوز زيادة العساكر بالصورة التى تستنسب فيما حالة دولتنا العلية محاربة وأن تكون رايات العساكر البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات وعلامات عساكرنا الشاهانية ويباح لخديوى مصر أن يعطى الضباط البرية والبحرية الى غاية رتبة أميرالاى والملكية الى الرتبة الثانية ولا يرخص لخديوى مصر أن ينشئ سفنا مدرعة الا من بعد الاذن من دولتنا العلية برخصة صريحة قطعية * وتاريخ هذا الفرمان فى ١٠ شعبان سنة ١٢٩٦ من هجرة صاحب العز والشرف

وفى ١٧ أغسطس سنة ١٨٧٩ استقالت وزارة شريف باشا لسبب يعلمه الله وشكل لخديوى توفيق باشا وزارة تحت رياسته وأرسل تلغرافا يستقدم مصطفى رياض باشا من جهة أوروبا فلما وصل كلفه الخديوى بتأليف وزارة جديدة فشكلها وصدر أمر الخديوى بتعيين بارنج ودوبلنير مفتشين ماليين واستعفى غوردون باشا من حكومة السودان وتولاها من بعده محمد رؤف باشا

ومن ابتداء ٢٢ يناير سنة ١٨٨٠ توجه الخديوى نحو الصعيد الاعلى لاجل تفقد أحوال البلاد ووصل الى الشلال الاول وعاد وجال فى الجهات البحرية أيضا ورجع الى العاصمة بعد أن تفقد جميع أحوال القطر وكان له احتفالات زائدة فى كل مديرية وكل بندر وزينات وطبول وزمور على شاطئ النيل من كل جهة

واشتغل المفتشان الماليان والنظار ولجنة تعينت مخصوصة فيما يلزم اجراؤه من أجل الديون وعملوا لذلك قانونا وسموه قانون التصفية وهذا القانون مركب من ٩٩ مادة تختص بالتصفية والدين العمومى وزاد الخديوى فى منح الرتب كبيرة كانت أو صغيرة فكان يلزم لكل رتبة مالها من المعاش فاشتدت الوطأة على المالية فصدر أمر من داخلية مصر ما له أن الرتب الملكية لا توجب زيادة المرتب وانما هى شرف للمنعم عليهم بها فقط

واشتهر الخديوى توفيق باشا بميله الى أبناء البلاد ورفع شأنهم وبث الحرية فيهم واتحاد كلمتهم وتوجه

انتباههم الى ما فيه صلاح شؤنهم فكانت تلك الحرية ذهبت فى غير محلها بالكلية لانها آلت الى الثورة الوطنية التى اشتهرت عند الناس بالثورة العرابية فكانت هذه ثورة مشؤمة وأمور وأحوال كانت فى قلب أحمد عرابى مكتومة لم تظهر حقائقها ولم تبدد قائقها الا من بعد النفى فى سيلان حتى أفشى كل من عرابى وعبد العال وعلى فهمى ما كانوا عليه للعيان وما كانوا مدخريه فى قلوبهم وبطونهم لكل انسان وحسبى الله ونعم الوكيل

فأما الثورة الوطنية المصرية التى اشتهرت على ألسنة الخلق بالثورة العرابية فان أصلها ان ما يطلق عليه اسم الامة المصرية مقسومة الى ثلاثة أقسام أو أصناف أولاد ترك وأولاد جراكسة مماليك وأولاد عرب ويوجد صنف رابع وهو القبط وهذه الاصناف الاربعة مشكلة للامة المصرية والقسمة هذه بعينها فى داخل الاقاليم وفى دواوين الحكومة وكل جنس من هؤلاء الاجناس يبغض الآخر ولا يمكن أن تكون بينهم مادة الاتحاد وكل واحد من هذه الاصناف يدافع ويحامى عن أبناء جنسه ويتسبب فى حصول المنافع لهم وبمثل ضباط وقواد العسكرية مقسومون الى أصناف ترك وعرب وجراكسة وكل حزب يبغض الآخر ويكرهه والضباط أولاد العرب على حزبين الذين تهذبوا وتربوا وتعلموا فى المدارس الحربية حزب والذين ترقوا من تحت السلاح من أصناف العسكرية وليس لهم معلومات بالقراءة والكتابة والتدريبات الحربية حزب آخر وكل من هذين الحزبين من أولاد العرب يكرهون بعضهم لان الذين يعلمون ليسوا كالذين لا يعلمون وحزب الجراكسة من ضباط العسكرية يكره الحزبين من أولاد العرب كأنهم أضل وأسخم والحزبان من أولاد العرب ومن الجراكسة فضلا عن بغضهم لبعضهم يبغضون حزب الاتراك وليست هذه الكراهة واقعة فى مدة الخديوى توفيق باشا فقط بل من عهد محمد سعيد باشا كما ذكرنا سابقا وكانوا يقولون هذا غز وذو هذا فرعون

وفى سنة ١٢٩٦ هجرية أو سنة ١٨٧٩ كان من ضمن النظار الذين تحت رياسة نظارة رياض باشا عثمان رفقى باشا ناظرا على الحربية والبحرية فشرع فى سن قانون عسكرى قاض بعدم ترقية أحد من العساكر الذين تحت السلاح ما دامت الحكومة لها مدارس حربية جار فيها تربية وتهذيب ضباطها وكان أحمد عرابى ورفقاؤه على فهمى وعبد العال حلمى وأحمد عبد الغفار من ضمن الذين ترقوا تحت السلاح مدة حكومة سعيد باشا فاجتمع الاربعة وتآمروا فيما بينهم وحقدوا الحقود وضغنوا الضغائن وعزموا على الايقاع بعثمان رفقى باشا ناظر الجهادية والبحرية بالكراهة والعداوة القلبية

فأما أحمد عرابى فانه كان دخل فى سلك العسكرية فى سنة ١٢٧٢ هجرية ونال رتبة القائممقام فى سنة ١٢٧٧ ثم غضب عليه محمد سعيد باشا وضربه ثلثمائة نبوت وطرده من الجيش ثم عاد الى الجيش فى أوائل ولاية اسمعيل باشا فى سنة ١٢٧٩ وكان متعصبا من غير أصل ولا معرفة ولا دراية فى الدين ولا فى الجنسية وما زال حتى وقعت بينه وبين خسرو باشا الجركسى مخاصمة أدت الى ابعاد أحمد عرابى من خدمة الجيش وكلا الرجلين كان كثير التعصب لابناء جنسه الا أن خسرو باشا كان كثير التعصب لابناء جنسه عموما وأما أحمد عرابى فما كان تعصبه الا من أجل الذين ترقوا معه تحت السلاح فقط وكان أشد كراهة لابناء جنسه الذين ترقوا من المدارس الحربية وصار أحمد عرابى منبوذا مطرودا من الخدمة العسكرية محروفا حتى افتقر واشتد به الاحتياج بسبب بغضه للجراكسة لولا أن تداركته العناية الربانية ولحق بأشغال الدائرة الحلمية وتزوج بابنة مرضعة الهامى باشا وهى أخت حرم

الخديوى توفيق باشا الحالى من الرضاع ثم عفا عنه اسمعيل باشا بواسطة رجاء قاسم باشا رسمى وكان وقتها ناظر الحربية ودخل فى أحد الالايات فى سنة ١٢٩٢ الموجودة بنواحى رشيد فأخذ من هذا الوقت فى تأليف قلوب الضباط أولاد العرب الذين هم تحت السلاح مثله وجمع كلمتهم على ولائه وكان يظهر لهم الاسف الشديد والحزن الذى ماعليه من مزيد فى شأن حرمانهم من الترقيات حال كون غيرهم من الجراكسة والاتراك متمتعين بالقبول وممنوحين بدرجات الترقى وعلو الشان

وبعد أن تولى الخديوى توفيق باشا الاريكة المصرية رقاه الى رتبة أميرالاى بمساعدة جماعة أمرائه بما أنها من ضمن مستخدمى جماعة الحلمية وكذا صار ترقية عبد العال حلمى وأما على فهمى فانه كان ارتقى الى رتبة أميرالاى فى حرب الصرب فى سنة ١٢٩٣ فكان عرابى ميرالاى فى ألاى فى العباسية وعبد العال حلمى ميرالاى السودانيين فى نواحى ميعاد الخبيرى بطره وعلى فهمى ميرالاى الحرس الخديوى فى عابدين وأحمد عبد الغفار من شاكلتهم كان قائمقام فى ألاى الخيالة فى نواحى سراى الخديوى بالجيزة وكل من هؤلاء كان على نفور بين من عثمان رفقى باشا ناظر الحربية لانه شركسى حتى ان البعض منهم مثل على فهمى وأحمد عبد الغفار كانا ينبذان أوامره ولا يعملان بها فشق ذلك على عثمان رفقى باشا وأراد استبدال هؤلاء من ألاياتهم بغيرهم من الجراكسة أبناء جنسه وتوظيف هؤلاء فى محلات أخر غير وظائفهم هذه وحرر بذلك أوامر ومن ديوان الجهادية ولما بلغ عرابى ورفقاءه هذه الاخبار قامت القيامة فى وجوههم وصاروا رجالا بغير عقول وتضجروا وقلقوا واجتمع عليهم ضباط الجبر بندية وقادوهم لكل بلية وصارت لهم مجالس وحفلات تارة فى منزل عرابى وتارة فى منزل عبد العال أو أحمد عبد الغفار وحشوا ضباط ألاياتهم على التشجيع لهم بعد أن أقنعوهم بجودة مقصدهم وقال عرابى لعبد العال وعلى فهمى وأحمد عبد الغفار (وهذا الاخير كان صار رفته من ألاى السوارى وشرع فى حض وتحريض الآخرين) ان كنتم صرتم رجالا ولكم قدرة على خلاص وطنكم فهاهو أوان الوقت وان لم يكن فيكم قدرة ولستم برجال فخلوا الجراكسة يفعلون فيكم ما يفعلون انى سمعت هذا اللفظ من عرابى بدار النفى فى سيلان فقالوا له نعم وأنت الرئيس علينا فقال لهم قبلت ذلك وتحالفوا فيما بينهم تحالفا ابتدائيا وكان ذلك فى منزل عرابى ثم اجتمع عليهم الضباط الاخر وتقرر فى العموم أن هؤلاء الثلاثة عرابى وعلى فهمى وعبد العال حيث انهم رؤس الالايات يكتبون عريضة يتظلمون فيها من أعمال واجراآت عثمان رفقى باشا فى حقهم وصدور أوامره برفتهم من ألاياتهم ويقدمونها الرئيس النظار رياض باشا فتوجه الثلاثة اليه وعرضوا عريضتهم عليه فأخذ رياض باشا عريضتهم وجبر خاطرهم ووعدهم بما يكون فيه الصلاح لانفسهم ووعظهم بعدم التهور واجراء السير على حسب ما تقتضيه الطاعة وحسن البراعة وأبطل رياض باشا ماصدر من أوامر عثمان رفقى ناظر الحربية بعد أن تكلم معه أمام الخديوى كلاما ثقيلا أوجب حشو قلب وبدن عثمان رفقى حنقا وغيظا وملأ قلب توفيق باشا غما وكدرا فقال له الخديوى توفيق باشا لابد من محاكمة هؤلاء وترتيب الجزاء اللازم عليهم حسب القانون فقال عثمان رفقى للخديوى أنا أحب من أفندينا أن يصدر لى أمرا بمحاكمتهم بواسطة مجلس عسكرى ومعاقبتهم على ما فعلوه من هذه الوقاحة فقال له توفيق باشا انه ربما يتولد من ذلك ثورة عسكرية يصعب اطفاؤها فقال عثمان رفقى بنفس أفندينا لا يحصل شئ ولا تشويش فى ذلك وأنا المسؤل فى هذه المسئلة وساعده فى ذلك خيرى باشا الجركسى ويوسف شهدى باشا الجركسى واستحصل عثمان رفقى على

أمر من الخديوي بمحاكمة هؤلاء الامراء الالايات وتجريدهم من رتبهم وقتلهم وكان ذلك كله لاء علاومية لرياض باشا به ولما استلم عثمان رفقي الامر في يده سارية في الحال الى ديوان الحربية وحرر أوامر الى عرابي وعبد العال وعلى فهمي بانه لابد من حضورهم في موكب زفاف أخت الخديوي وأن يكون حضورهم ابتداء في ديوان الحربية بقصر النيل ولما وصلت هذه الاوامر أحسوا في صدورهم بما سيحصل لهم وأوجسوا خيفة وأخذوا في أداء طرائق التحرز والتحفظ ليلا وباوامر عوبين قلقين حتى في صباح ثاني يوم سار عرابي وعبد العال الى ديوان الحربية وأما على فهمي فانه جعل نفسه مريضا وأرسل بدله خورشيد بسمي قائم مقام الالاي فلما دخل الديوان أعاده عثمان رفقي وقال له لست أنت المطلوب بل المطلوب هو أمير الالاي فاذهب وأرسله حسب الطلب فعاد خورشيد بسمي الى الالاي في عابدين وأخبر على فهمي بالخبر وكان على يقين مما سيحصل له فدعا محمد عبيد البكباشي وقال له اذا حضر الالاي وعند حضور أول اشارة لك أسرع بجلب الالاي الى قصر النيل وأخذ على فهمي وراءه واحدا من البروجية وسار حتى دخل ديوان الجهادية مع عرابي وعبد العال فلما دخل الثلاثة جردوهم من سيوفهم فأوعز على فهمي الى البروجي فخرج البروجي المذكور مسرعا الى الالاي في عابدين وضرب بنفيره نوبة جله وهجوم فقام محمد عبيد مسرعا وأخذ أورطة من الالاي وأحاط بها الخديوي توفيق باشا في سراية عابدين وفي أثناء ذلك بعد تجريد الثلاثة أمراء الالايات من سيوفهم أمام مجلس غاص بذوات الجراكسة في ديوان الجهادية أودعوهم السجن وأوقفوا عليهم الخفر اللازم من ضباط الجراكسة حاملين الطبنجات والقربينات وأرادوا الشروع في محاكمتهم وبعد أن أحاط محمد عبيد الخديوي بأورطة أسرع وأخذ أورطة أخرى حاملة السلاح وسار الى قصر النيل وهجم بأورطته على الديوان وعاث بالعسكر وجاس خلال الديار وضرب العسكر الكتاب ومستخدمي الديوان كبيرا وصغيرا وكسروا الزجاج والابواب وأخرجوا الميرالايات الثلاثة من السجن وفي أثناء هذا هرب عثمان رفقي ناظر الجهادية من أحد شبابيك قاعة مجلسه وذهب مسرعا الى سراي عابدين ملتجئا بالخديوي وأخذ محمد عبيد وعساكره الثلاث ميرالايات وتوجهوا جميعا الى قشلاق عابدين المواجه لسراي الخديوي وأرسل عرابي في الحال الى الالاي في العباسية والالاي السوداني قيادة عبد العال المقيم بطره ومن بعد قليل اجتمع الالايات الثلاثة حاملة السلاح في ساحة عابدين وكانت هذه الساحة غاصة في الوقت بجماهير المتفرجين فقام عرابي خطيبا فيهم وشكرهم وأثنى عليهم على تلك الهمة والغيرة التي حصلت منهم في خلاص اخوانهم وآبائهم مما كانوا وقعوا فيه ظلما ثم تقدم أحمد عرابي أمام الخديوي توفيق باشا وطلب لهم العفو منه عما حصل منهم من هذه الفعلة وطلب في الحال خلع عثمان رفقي باشا من نظارة الجهادية فأجاب الخديوي الطلب وأحال عهدة نظارة الجهادية الى محمود سامي وكان في هذا الوقت ناظر الاوقاف أيضا

وشرع محمود سامي في الرفق بهم كما هي كانت عادته وأراهم ميل الخديوي لهم وعفوه عنهم وصفاء قلبه لهم الا أنه دخل الرعب في قلوبهم وتمكن الخوف من أبدانهم واعتبروا اجابة طلبهم مكيدة لهم من الحكومة لتسكين جأشهم واطمئنان خاطرهم ثم تحتال عليهم وتغتالهم وما كانوا يعتقدون فيما يعظهم به محمود سامي من الاقوال وتمهيد الاحوال واضطرب حالهم وزاد بلبالهم وشرعوا في عقد مجالس سرية واحتفالات وجمعيات ليلية تارة في منزل عرابي وتارة في منزل على فهمي وتارة في منزل عبد العال وهلم جرا يتذاكرون في أمر اجتماع كلمتهم وعلو منزلتهم والوقاية من الاغتيال وطلبوا من

ديوان الحربية عدة أشياء تعزز جاههم فأجابهم الى ماطلبوا من عمل قوانين ولوائح تختص بحالة الضباط الجهادية والعساكر وترقى فى الرتب والمعاشات وضمائم السفريات والمأموريات ولما تمكن عرابى من استمالة العسكرية وضباطها طفق ينشر ويبث أفكاره بين الاهالى ويورى ورعه وانقياده وحبه الوطن وخدمته له وما هو جار فيه من انتشار الحرية ويطرق أبواب عقول مشايخ العربان وعمد البلاد وأعيانها وعلمائها بارادته العدل والانصاف والمساواة بين الناس وبعضهم وصار يزخرف لهم أعماله ويقوى قلوبهم بعسكره وضباطه استجلابا للمساعدتهم فى مشروعه العائد بالنفع عليهم على ما زعم بالكذب وما كان يريد الا ما ظهر عنه فى سيلان وسأسرده فى الكلام على الاقامة فى دار النفى بجزيرة سيلان وما ارتكبه من جرائم الاثم والعدوان وكتب بما هو مظهره للناس منشورات ثورية ايقاعا بالوزارة الرياضية وفى أثناء هذا عرض محمود سامى التماسا الى رياض باشا رئيس النظار يطلب فيه زيادة مرتبات الضباط والعساكر الجهادية وتعديل النظامات والقوانين العسكرية وفى ١٢ ابريل سنة ١٨٨١ وقع الخديوى توفيق باشا على هذا الالتماس وكان لهذا الامر احتفال زائد فى قصر النيل دعا اليه محمود سامى النظار والمفتشين وكان يوما عظيما خطب فيه رياض باشا ومحمود سامى وأحمد عرابى ثناء طيبا على المكارم الخديوية لما منحته من الانعام لجماعة الجهادية والاغداق عليهم بما به يتمتعون ويجبر خاطرهم وللخديوى يشكرون

وفى ٢٥ يوليه من هذه السنة بينما كان الخديوى مصيفا فى الاسكندرية اذ صدمت احدى عربات واحد من تجار الاسكندرية عسكريا من عساكر الطوبجية فقضى عليه فى الحال فحمله رفقاؤه الى سراى رأس التين وطلبوا من الخديوى النظر فى أمره لان العسكر والضباط الجهادية فشل أمرهم واختل نظامهم فى الوقت من الاعمال الجارية من عرابى ورفقائه وانتمائهم للعسكر وجعلوا اصغار الضباط والعساكر الحالة التى بها نسوا القوانين العسكرية والنظامات الحربية حتى صار كل ضابط وكل عسكرى يفعل ما يشاء ويختار لنفسه ما يعود عليه من الراحة حتى تجاسر هؤلاء العساكر الطوبجية وتوجهوا بقتيلهم للخديوى توفيق باشا وتركوا ضباطهم الصغار والكبار فلما رآهم الخديوى فى هذه الحالة المهولة وعدهم وأمن خاطرهم وسكن جأشهم وفى الحال أمر الخديوى بعقد مجلس حربى ومن بعد الفحص أصدر هذا المجلس أمرا قاضيا على النفر العسكرى الذى جبر رفقاءه على التوجه الى رأس التين بالاشغال الشاقة مدة حياته وعلى الانفار الاخر وعددهم ثمانية بثلاث سنوات فى الليمان ثم يرسلون الى السودان ويلحقون بأنفار العسكر الموجودة هناك ولما بلغ عبد العال حلمى أميرالاى السودانية هذا الخبر تهور وأخذه الحنق وأرسل الى ناظر الجهادية محمود سامى يشكو اليه قسوة ذلك الحكم فعرض محمود سامى تلك الشكوى على الخديوى فتكدر الخديوى من ذلك واعتقد قلبا وقالبا أن محمود سامى متحد اتحادا كليا مع هؤلاء الميرالايات واستدعى فى الحال النظار من القاهرة الى الاسكندرية وعقدوا مجلسا تحت رياسة الخديوى قدم فيه محمود سامى استعفاءه وعهد الخديوى نظارة الجهادية الى داود يكن فاستلم الاعمال وهدأت الاحوال وهذه هى مبادى العداوة بين الخديوى توفيق باشا وبين محمود سامى

ولما عاد الخديوى توفيق باشا من الاسكندرية الى القاهرة فى شهر سبتمبر أصدر ناظر الجهادية داود يكن أمرا الى الالاى الكائن بالقلعة بالتوجه الى الاسكندرية وأمرا آخر الى الالاى الموجود فى الاسكندرية

بالحضور

بالحضور الى المحروسة فأوعز عرابي الى هذا الالاي بان المقصود من هذا الامر هو تفريق الكلمة وحرض العساكر وضباطهم على عدم طاعة هذا الامر وفي أثناء هذا كان طلبة عصمت من مستخدمي الدائرة السنية فلما رأى ناظر الدائرة تركه أشغاله ومداومته على الجري عند عرابي وعبد العال وأحمد عبد الغفار والقاء الدسائس والفتن وتبليغ الاخبار سواء كانت حقا أو مخترعة الى كل من هؤلاء أمراء الالايات أصدر أمره برفته من خدمة الدائرة فتوجه مسرعا الى عرابي وكان مقيما في ألالايه في العباسية وصار يحضه ويحرضه على القيام باخذ حقوقهم وتنفيذ طلباتهم وكذلما استعفى محمود سامي من نظارة الجهادية وتوجه الى منزله بالقاهرة توجه اليه أحمد عرابي سرا في الليل وتعاهد معه على مساعدته ومعاضدته هذا قول عرابي لي والا فانا ما كنت أعرف هذا ولما استوثق عرابي من معاضدة محمود سامي له عاد الى منزله وتوجه في صباح ثاني يوم الى العباسية وأتى اليه طلبة عصمت يبث له ماوقع فيه ويحرضه على الاخذ بثاره أخيه فخاطب في الحال عرابي الالايات في كونهم يستعدون للحضور في ميدان عابدين وأرسل كتابة الى الخديوي والى نظارة الجهادية يخبرهم فيها أن الجيش سيحضر الى سراي عابدين بخصوص طلبات عادلة تتعلق باصلاح البلاد وراحة العباد وكتب بذلك أيضا الى قناصل الدول بأنه لاخوف من هذه الحركة على أبناء تبعتهم لانها تختص بالاحوال الداخلية فقط فأرسل الخديوي توفيق باشا رسلا الى عرابي وعبد العال وأحمد عبد الغفار ينصحهم ويحثهم على عدم اجراء مثل هذه الحركة وأن يكفوا عما هو متخيل في صدورهم ثم قام الخديوي وتوجه بنفسه الى الاي عابدين وهو ألالاي حرسه وكان تحت قيادة علي فهمي وأخذ ينصحهم فتظاهروا بالنصح ثم توجه في عربته الى القلعة مصحوبا بناظر الجهادية داود يكن وعرض الالاي الى الخديوي فشرع ينصحهم فأجابه العساكر بصوت واحد نحن مطيعون لاوامر ولي نعمتنا الا أنهم أخبرونا بان المقصود من سفرنا هو غرقنا في قنطرة كفر الزيات فقال الخديوي لناظر الجهادية يظهر أن العسكر مغرورون في أقوالهم هذه وتركهم وسار قاصدا نحو العباسية لسرعة توقيف عرابي عما هو متخيله في صدره فلم يجده وقيل له ان عرابي سار بالعساكر الى عابدين فعاد الخديوي مسرعا الى عابدين

ولما تكامل اجتماع الالايات في عابدين في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ كان الميدان غاصا بجماهير المتفرجين وكان قناصل الدول في داخل السراي فوصل الخديوي ووقف على بسطة سلم السراي وأمر في الحال بحضور عرابي فحضر راكبا حصانه شاهرا سيفه وحوله ضباط الخيالة وعساكر من الخيالة ومحفوف بكثير من الضباط فأمره الخديوي بغمد سيفه والترجل من فوق حصانه وابعاد الضباط والعساكر من حوله وكان عبد العال يرمح بحصانه في الميدان شاهرا سيفه أمام ألالايه

ملحوظة — ان عرابي كان على الدوام يطالع في تاريخ نابليون بونابارته فتخيل له أن يقوم بهذه الاعمال ويقود العساكر لينال ماناله نابليون من تولية أمبراطورية فرنسا فكان المقصد الاصلي له أن ينال أريكة الخديوية المصرية لتمام مقصوده في عزل الخديوي ولكن ماخطر بباله كان غير نواله

ولما وقف عرابي أمام الخديوي قال له ألم أنك سيدك قال عرابي نعم

فقال الخديوي ألم أرقك الى رتبة أميرالاي قال نعم ولكن بعد مئات من الناس

فقال الخديوي وماهي أسباب حضورك بالعساكر هنا قال لنوال طلبات عادلة

فقال الخديوي وماهي هذه الطلبات فقال عرابي اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد

الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام

فقال الخديوى كل هذه الطلبات ليست من خصائص العسكرية فسكت عرابى وأشارت قناصل الدول على الخديوى بالدخول الى داخل السراى

وقال القنصل ماليت قنصل انكلترا بالنيابة عن الخديوى ان اسقاط الوزارة من خصائص الخديوى وطلب تشكيل مجلس النواب من خصائص الامة ولا وجه لزيادة الجيش لان البلاد فى أمن واستتباب وراحة على أن مالية البلاد لا تساعد على ذلك وأما التصديق على القانون فسينفذ بعد اطلاع النظار عليه وأما عزل شيخ الاسلام فلا بد من اسناده الى سبب تام من الاسباب الواجب بها عزله فأجاب عرابى قائلا اعلم يا حضرة القنصل أن طلباتى المتعلقة بالاهالى لم أقدم عليها الا لكونهم أنابونى (كذب والله لانه خائف على نفسه) فى تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر لانهم اخوتهم وأولادهم وهم القوة التى ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالمنفعة واعلم اننا لا نتنازل عن هذه الطلبات ولا نبرح من هذا المكان ما لم تنفذ فقال القنصل اذا تريد تنفيذ ما ترغبه بالقوة التى يخشى منها ضياع بلادكم

فقال عرابى ذلك لا يكون ومن ذا الذى ينازعنا فى اصلاح داخليتنا فاعلم اننا نقاومه أشد المقاومة الى أن نفنى عن آخرنا (نعم ظهر ذلك منه فى ضرب الاسكندرية والتل الكبير وهرب هعريان)

فقال له القنصل وأين هذه القوة التى ستقاوم بها فقال عرابى فى وسعى أن أحشد فى زمن يسير مليونا من العساكر طوع ارادتى (كذب والله)

فقال له القنصل وماذا تفعل ان لم تنل ما طلبت فقال عرابى أقول كلمة ثانية فقال له القنصل وما هى فقال عرابى لا أقولها الا عند قنوطى من نوال طلباتى والى هنا انقطعت المخابرات نحوا من ثلاث ساعات تداول الخديوى والقناصل فى أثنائها فى داخل السراى بشأن اجابة طلبات عرابى وانفاذها على التدريج لان بعضها يحتاج لمخابرة الباب العالى وأصر عرابى على سقوط الوزارة قبل انصرافه فسقطت واستدعى شريف باشا ومن بعد أن تردد كثيرا فى أمر رياسته قبل أن يشكل وزارة جديدة قال لا أقبل ذلك حتى يتعهد رؤساء الحزب العسكرى لامتثال أوامره والانقياد لطاعته وأن يقدم عمد البلاد ضمانة على ذلك فحصل كل هذا وتشكلت الوزارة وقال رياض باشا للخديوى أنا اليوم وسموكم غدا وتوجه مسرعا كما هى عادته الى بلاد أوروبا وضمن شريف باشا وعهد عهدا قويا الى عرابى وعبد العال وعلى فهمى بالمحافظة عليهم وعلى حياتهم وأن لا يمكن الحكومة من اغتيالهم ما داموا طوع يمينه وتعين فى هذه النظارة محمود سامى ناظرا على الجهادية والبحرية وأمر شريف باشا بان عرابى يتوجه مع آلايه الى رأس الوادى من مديرية الشرقية وعبد العال حلمى ينتقل بالايه الى دمياط فامتثلا وسارا الى حيث أمرا فأما عرابى فن بعد أن شحن مهمات آلايه فى أحد قطارات السكة الحديد وسار القطر صف هو والالاى جميعه وشق به من وسط مدينة القاهرة حتى توجه الى المسجد المعروف بمسجد الحسين بن على ودخل فيه مع بيرق الالاى وأوقف الالاى فى شارع المسجد وصار يصلى ويدعو فى المسجد والناس حافون به وحوله ولما تم شغله بهذه الحالة سار ووصل الى محطة السكة الحديد وصار أوباش العالم والحشاشون يرمون أمامه الورد والزهورات ويخطب محررو الجرائد العربية له خطبا يهنؤنه بها على نوال فوزه ومقصوده (اسا الجل ورا)

ترجمة

(ترجمة المؤلف)

ومن حيث انه من ابتداء هذا المحل يلزمني أن أذكر حياتي فأقول
أنا محمود فهمي المهندس مؤلف هذا الكتاب أصل مسقط رأسي في قرية اسمها الشنتور وهي بلدي من قسم ببا بمديرية بني سويف وهذه القرية على الشاطئ الشرقي من البحر المسمى ببحر يوسف ومن عائلة فقيرة كان أبي يملك بضعا من الاطيان في هذه القرية ولما أقام محمد علي باشا المكاتب والمدارس في أنحاء الديار المصرية شيد أيضا في مدينة بوش على بضع ساعات من بني سويف مكتبا للتعليم وتهذيب أولاد المديرية ومصاريفه على طرف الحكومة المصرية مثل غيره من المكاتب وكانت ولادتي في سنة ١٢٥٥ هجرية وألزمت المديرية أهالي البلاد بجلب أولادهم الى المكتب رغم أنفهم وعينت المديرية على كل بلد ولدا ترسله الى المكتب جبرا عن أهله فكنت أنا من هؤلاء الاولاد الذين دخلوا في المكتب رغم أهلهم فدخلت في هذا المكتب وهو مكتب بوش سنة ١٢٥٩ بعد أن بلغت من العمر نحوا من خمس سنوات فقرأت فيه القرآن والآجرومية النحوي والكفراوي على الآجرومية ومبادي الهندسة والحساب والجغرافية وفي سنة ١٢٦١ انتقلت من هذا المكتب بعد الامتحان الى مدرسة التجهيزية بالازبكية وكان مقرها في لوكندة شبت الآن فقرأت فيها الحساب وهندسة لوژندر والجغرافيا والنحو والصرف ومبادي اللغة التركية والفرنساوية وفي مبادي سنة ١٢٦٥ في مدة حكومة عباس باشا انتقلت من هذه المدرسة الى مدرسة المهندسخانة في بولاق فقرأت فيها علم الحساب العالي والجبر والهندسة الاصلية العالية والجبر العالي والهندسة الوصفية وعلم حساب المثلثات والتطبيقات والتفاضل والتكامل وقطع الاحجار والاخشاب وعلم الظل والمنظور والعمارات والقناطر والجسور والميكانيكه وموازنة السوائل والكيمياء والطبيعة ودرست الجغرافيه والطبوغرافية وأنواع الرسومات النظري والعملي وفي مبادي حكم محمد سعيد باشا انتقلت مع اخواني الى العسكرية ولحقت باورطة الكوبرجية والمهندسين بطره ومن بعد قليل ترقيت فيها الى رتبة الملازم الثاني فدرست في هذه الاورطة التعليمات العسكرية والاشغال اللازمة لعمل جسور المراكب والكوبريات على الانهر والنهيرات وطرائق عمل الالغام وأنواع الهجوم وأشغال الاستحكامات وفي سنة ١٢٧٢ شيد محمد سعيد باشا مدرسة حربية هندسية في القلعة التي أنشأها تحت القناطر الخيرية فانتخبت لأكون معلما فيها علم الاستحكامات والفنون العسكرية واستمرت هذه المدرسة في القلعة السعيدية حتى تولى اسماعيل باشا ونقلها الى العباسية بالقاهرة وأنشأ مدارس أخرى خلافها حربية وصارت هذه المدرسة مدرسة للطوبجية ومازلت معلما فيها الاستحكامات والفنون العسكرية والعمارات الى سنة ١٢٨٨ هجرية وفي أثناء ذلك وصلت في الترقية الى رتبة الصاغقول أغاسي وفي نفس سنة ١٢٨٨ صار انتخابي لأن أكون باشمهندس قسم الساحل على البحر الابيض المتوسط من أبوقير الى رشيد الى البرلس في عمل قلاع جديدة وترميم قلاع قديمة فانشأت سبع عشرة قلعة على ساحل البحر من أبوقير الى طابية فنار البرلس واستمريت في هذه الوظيفة الى شهر رجب سنة ١٢٩٣ هجرية وفي أثناء هذه المدة ارتقيت الى رتبة قائمقام وفي رجب سنة ١٢٩٣ تعينت بامر نظارة الجهادية رئيس أركان حرب الفرقة المصرية التي أعدها الخديوي اسمعيل باشا للسفر والحاقها بالجيش العثماني في حروب الصرب والجبل الاسود في نواحي بوسنه وهرسك

ثم انتقلت هذه الفرقة الى بلغاريا بعد تمام الحروب فى نواحى بوسنه واستمريت مع الفرقة حتى عدنا الى القاهرة فى سنة ١٢٩٥ هجرية وفى هذه الحروب نلت نيشان الدرجة الثالثة المجيدى ونيشان الدرجة الرابعة العثمانى وميداليتين واحدة فى حرب الصرب وأخرى تختص بحرب الروسيا ورتبة أميرالاى ونلت الشهادات العظمى من القواد العثمانية وفى أواخر سنة ١٢٩٥ هجرية عهد الى الخديوى اسماعيل باشا وكالة محافظة مدينة القاهرة ومن بعد قليل ألغيت هذه المحافظة وهذه صورة أمره

قد اقتضت ارادتنا تعيينكم وكيلا الى محافظة مصر ولزم اصداره اليكم للمعلومية والمبادرة بالتوجه الى مأمورية تكم هذه ومباشرة ورؤية أشغالها على المحور اللائق بها كما هو مطلوبنا فى ٣ يوليه سنة ٧٨ الموافق ٣ رجب سنة ١٢٩٥ نمرسايره ٢١ الختم

﴿اسماعيل﴾

وانتقلت بامر الخديوى اسماعيل باشا الى ديوان الاشغال العمومية فكثت فيه قليلا ثم تعينت مفتشا على هندسة الاقاليم الوسطى وهى مديريات الفيوم وبنى سويف والمنيه وأسيوط واستمريت فى أشغال هذه الوظيفة حتى تعين محمود سامى فى نظارة الجهادية هذه الدفعة تحت رياسة شريف باشا المتقدمة الذكر

ولنذكر أنه ولو أن محمود سامى صار ناظر الجهادية تحت رياسة شريف باشا الا ان الخديوى توفيق باشا مازال يبغضه من الحادثة الاولى فعرض محمود سامى الى رياسة مجلس النظار يطلبنى من وظيفتى وتقليدى بديوان الجهادية باشمهندس عموم الاستحكامات المصرية فقرر مجلس النظار على طلب ناظر الجهادية وانتقلت الى هذه الوظيفة بزيادة المرتب لى شهريا وكان راتبى الشهرى فى وظيفة التفتيش خمسين جنيها مصريا فبلغ المرتب فى هذه الوظيفة خمسة وستين جنيها ولما دخلت فى ديوان الجهادية أثنيت على ناظر الجهادية وقابلت الخديوى توفيق باشا فتشكرت لسموه على ما فعله من قبوله التماس ناظر الجهادية محمود سامى ولما استقر عرابى فى رأس الوادى شرع يجول فى أنحاء المديرية ويدس دسائسه ويبث مباديه فى نفوس عمد البلاد ومشايخ العربان فلما رأى ناظر الجهادية محمود سامى منه ذلك التمس من شريف باشا والخديوى أن يجعله وكيلا لنظارة الجهادية ولما تقلد زمام هذه الوظيفة تداخل فى أشغال الحكومة وأشغال الدواوين وصار يجول فيها ويعقد المحافل فى منزله علانية وفى منزل غيره من رفقائه وكان على الدوام يجعل مجلسه فى منزل محمود سامى لاجل أكله وشربه وتوسط بالعفو عن حسن موسى العقاد وكان منفيا فى الجهات السودانية فى نظير جعالة جعلت له فأجابه الخديوى وسعى فى عزل شيخ الاسلام واستبدله بالشيخ الامبابى وكثر وفود الناس اليه وورودهم عليه بعرضحالات والتماسات يتظلمون فيها من المديريات فكان يكتب على كل عريضة ويتداخل فى كل جريمة حتى شق ذلك على شريف باشا وغضب من الافعال الجارية من عرابى وعزم على الاستعفاء

وفى ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨١ صدق الخديوى على غير رغبته على القوانين العسكرية الجديدة جميعها وفى ٤ أكتوبر من تلك السنة اعتمد الخديوى لائحة انتخاب مجلس النواب وفى ١٠ أكتوبر وفد الى الاسكندرية وفد عثمانى بامر الجناب السلطانى وهو على نظامى باشا ومعه ثلاثة آخرون وقدموا العاصمة وأنزلهم الخديوى فى قصر النزهة وسار والمقابلته فى سراى الاسماعيلية وبلغوه رضا الجناب السلطانى وأن المقصد من حضورهم تأييد نفوذه وتعزيز موقعه واثبات مركزه فشكر الخديوى

الحضرة

الحضرة السلطانية ودعا لها بالبقاء والعز والقبول وسار على نظامى لزيارة آلاى قصر النيل وكان عرابى حث محمود سامى على أن يجعل قيادة هذا الالاى الى عهدة طلبه عصمت بعد رفته من الدائرة السنية فاستلمه مع أنه ما كان حائزا لرتبة أميرالاى عسكرى وهذه أول حادثة فى مخالفة القوانين الجديدة التى عملت للترقى بمعرفة جماعة الجهادية من عرابى ورفقائه وفعل محمود سامى هذه الفعلة مراعاة لخاطر عرابى حتى ينزجر ومع هذا فلا وفى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ تم انتخاب أعضاء مجلس النواب وكان مؤلفا من اثنين وثمانين عضوا وأقيم محمد سلطان باشا رئيسا له وفى ٢ فبراير سنة ١٨٨٢ استعفى شريف باشا بسبب ما حصل بين وزرائه ومجلس النواب من الخلاف فيما يختص بالنظر فى ميزانية مصروفات الحكومة وذلك أن مجلس النواب أصر على أن يكون له الحق فى النظر فى ميزانية مصروفات الحكومة وامتنع من ذلك شريف باشا ومن معه من النظار ووقع الخلاف بينهما فاستقال شريف فى الوقت وعهد رياسة النظار الى محمود سامى باشا وأمره بتشكيل وزارة جديدة

وكنت أنا فى أثناء ذلك توجهت الى السواحل المصرية لاستلام أعمال الوظيفة التى توظفتها ومناظرة القلاع والطوابى من ابتداء طوابى العجمى والاسكندرية وأبوقير ورشيد والبرلس وللموصلات الى دمياط رأيت فيها تلغرافا من محمود سامى بسرعة وصولى المحروسة فنزلت من دمياط وتوجهت القاهرة ووجدت فى منزلى أمر الخديوى بعهدة نظارة ديوان الاشغال الى من غير ما أعرف بسقوط وزارة شريف باشا وهذه صورة الامر حرفيا

أشغال عمومية ناظرى عزتلو محمود فهمى بك

بناء على تغيير هيئة النظار التى كانت تحت رياسة محمد شريف باشا واحالة مقام الرياسة لعهدة سعادتلو محمود سامى باشا وتكليف المشار اليه بانتخاب وتسمية هيئة نظار تحت رياسته قد أعرض لطرفنا عن الهيئة التى استحسن تشكيلها ومن ضمن ذلك تعيينكم لنظارة الاشغال العمومية وحيث ان انتخاب المشار اليه وقع لدينا موقع الاستحسان والقبول لما هو معلوم لدينا فيكم من الاهلية واللياقة لذلك فأصدرنا أمرنا هذا لكم اشعارا بتوجيه نظارة الاشغال العمومية لعهدة لياقتكم ولكى تبادروا بمباشرة الامور والمصالح المتعلقة بهذه المأمورية على وجه المرغوب كما هو مطلوبنا تحريرا فى ١٥ ربيع أول سنة ١٢٩٩ الموافق ٤ فبراير سنة ١٨٨٢ نمرة ٧ سايره

الختم

﴿محمد توفيق﴾

ولما قرأت هذا الامر خلعت ملابس السفر ولبست ملابس أخر وتوجهت لمقابلة الخديوى توفيق باشا وشكرت ذاته البهية على ما أسداه من هذه الفعلة السنية فهنأنى بهذا المنصب الرفيع ومن هذا الوقت تكاثرت الاعداء بالقدح والذم وقالوا فينا عند الخديوى توفيق باشا ما قال مالك فى الخمر حتى أوغروا صدره حقدا وحنقا

ولما قابلت الخديوى توفيق باشا توجهت الى منزل محمود سامى وشكرته على أفعاله وما منحنا به من حسن التفاته فى الاولى والثانية وهى الاكبر وفى أثناء نظارة الاشغال ترقيت بعدها بشهر الى رتبة اللواء الرفيعة وهى رتبة الباشوية مع أحمد عرابى فى يوم واحد

ولما شكل محمود سامى النظارة فكانت بهذه الهيئة

محمود سامى باشا رياسة النظار وناظر الداخلية

أحمد عرابي باشا	ناظر الحربية والبحرية
مصطفى فهمي باشا	ناظر الخارجية والحقانية
علي صادق باشا	ناظر المالية
حسن شريعي باشا	ناظر الاوقاف
محمود فهمي باشا	ناظر الاشغال العمومية
عبدالله فكري باشا	ناظر المعارف

ولما استلم عرابي مسند نظارة الحربية والبحرية سعى في ترقية كثيرين من رفقائه الضباط وقرر قانون الضمائم والمعاشات بطريقة جمعت القلوب على ولائه وجبر الخديوي توفيق باشا على ترقية نحو من أربعمائة لم يراع في ذلك قانونا ومن الذين رقاهم الى رتبة اللواء عبد العال وعلي فهمي وطلبه عصمت وخرق حرمة القانون العسكري الذي جبر شريف باشا الخديوي على التصديق عليه ومع كونه في نظارة الجهادية فانه كان يتداخل في جميع أشغال الحكومة حتى تلفت ادارة الدواوين وفي مدته فقدت النظامات والقوانين من العسكرية وصار لا طاعة لاحد لمن فوقه من العساكر والضباط ورفت من ديوان الجهادية من شاء وأبقى من شاء واستبد بحركاته وسكناته وكل من كان له مظلمة من الناس في النواحي القبلية والجهات يغدو على عرابي بهداياه ليقضي له أشغاله ويبلغه نواياه وكذا في القاهرة توارد على منزله السادات والهوانم ليؤدوا الى حاشيته الهدايا والمغارم لقضاء أشغالهم وجبر خاطرهم حتى امتلأ بيته بالهدايا والنقود وكان ولم يزل يدعي الفقر وامتلأ بيته من أهل المنامات وكثر الدجل وضرب الرمل

ولما وجد الضباط من الجراكسة ماقرره عرابي من ترقية رفقائه من الضباط ولم يحصل لاحد منهم ترقية الا قليلا جدا من الذين كانوا منتمين اليه زمجروا وغضبوا وامتنع منهم جملة في الالايات التي كانت استعدت للسودان من أجل حركة المهدي فقالوا لا نسافر حتى نترقى مثل الذين ترقوا وفي أثناء هذا بلغ عرابي من أحد الجراكسة الذين رقاهم أن ضباط الجراكسة المتأهبين لسفر السودان مجموعون على الوقوع به وفي عزمهم الكيد له فأمر بالقبض عليهم ظلما وظلوا ماوسجنهم في أودة في قشلاق عابدين وعقد لهم مجلسا حربيا تحت رياسة صديقه علي الروبي وبعض ضباط آخرين وكان الذين صار ضبطهم نحوا من أربعين ضابطا ومن جملتهم عثمان رفقي باشا ناظر الجهادية سابقا وعاملهم بالقسوة الشديدة والغلظة القبيحة العتيدة ووضعهم في الحديد وأمر بحبس كل واحد منهم على حدته وسلط عليهم هو وعلي فهمي وعبد العال حلمي عساكر الخفر الموجودين محافظين عليهم أن يعذبوهم ليلا ونهارا هذا جميعه ماعدا عثمان رفقي باشا فانه كان مسجونا سجن مكرم محترم وبات هؤلاء الضباط في أشد المضايقة والعذاب في سجون قشلاق عابدين كان الخديوي يسمع أنينهم وبكاءهم لان القشلاق تجاه سراي عابدين المقيم بها الخديوي ومن ثم لاجل خلاص أنفسهم من هذه المضايقات قالوا في المجلس الحربي كل مايختاره علي الروبي ويشتهيه على خاطر مرغوب صديقه أحمد عرابي ومن بعد تمام التحقيق الجبري حرر أرباب المجلس جرنالا طويل الاسئلة والاجوبة ووقعوا الحكم فيه على هؤلاء الضباط بنفيهم من الاقطار المصرية الى جهات الاقطار السودانية وأرسل رئيس المجلس علي الروبي جرنال التحقيق الى أحمد عرابي ناظر الجهادية والبحرية بجواب من طرفه فأرسله عرابي الى معية الخديوي توفيق باشا

ليصادق الخديوى على ماوقع من الاحكام على هـذا الجرنال فجمع الخديوى النظار تحت رياسته وقرأ الجرنال جميعه بحضورهم فتقرر بهذا المجلس نفيهم الى جهات القسطنطينية فى ممالك الدولة العثمانية البحرية حيث لايمكن معيشتهم فى الاقطار الحارة السودانيـة وفى هذا المجلس كلف عرابى الخـديوى بتجريدهم من الرتب والامتيازات فقال الخديوى ان رتبـة الفريق الحائز عليها عثمان رفقى باشا لايمكن تجريده منها لان ذلك من حقوق الباب العالى فيلزمنى أن أتخابر أولا مع الباب العالى فقال عرابى ولماذا صار تجريد جاهين باشا كنج حال خروجـه من الديار المصرية الى ايطاليا ودخوله حتى حمايتها بغـير أمر الباب العـالى فقال توفيق باشا كان ذلك من عين الظلم البين فقال عرابى ولماذا أفنديناً يحصـل منه مثل هذا الظلم المعلوم عند أفندينا وانقطع الكلام وكل من النظار قام لحال سبيله

ومن بعـد مضى أسـبوع تحرر من المعية الخديوية الى ديوان الداخليـة على هـذا الجرنال بتوقيـع الاحكام وتنفيذها بشأن نفى ضـباط الجراكسة الى جهات القسطنطينية والبلاد الشامية السورية وأن يكون اجراء ذلك بمعرفة ناظر الداخليـة محمود سامى فلما رأى ذلك عرابى أخـذه الغضب وقال فى مجلس النظار المعتادان الداخلية ليس من حقوقها تنفيذ أوامر على جماعة الجهادية بل ديوان الجهادية له الحق فى المخابرة رأسا مع الخديوى بدون توسط الداخليـة ومن حيث ان الجـرنال مرسول من نظارة الجهادية الى المعيـة فكان الواجب على المعيـة أن ترسله مشروحا عليـه الى ديوان الجهادية رأسا من طرفهـا واحتد فى الغضب وقال أنا لا أقبل هـذا الجرنال من ديوان الداخلية والاحسن عوده الى المعية لترسله من طرفها رأسا الى ديوان الجهادية من بعـد التصديق على مافيـه من الاحكام وبمعرفة ديوان الجهادية يجرى التنفيـذ لابمعرفة الداخلية فأخذ ناظر الداخليـة الجرنال فورا وقام من المجلس وسار متوجها الى الخديوى وعاد بعد قليل فكان هـذا مبدأ الحوادث القبيحة والاجراآت الفظيعة والثورة الملقبة بالثورة المشؤمة العرابية وذلك أنه من بعـد خروج ناظر الداخلية من عند الخديوى توفيق باشا أرسـل الخديوى فى الحال الى كل من قنصلى دولة انكلترا وهو ماليت وقنصـل دولة فرنسا وأبلغهما ان رئيس النظار وناظر الداخلية حضر هنا فى الحـال والساعة ودخل عليـه فاتحا صـدره وأزعجه وهدده بالكلام وقال له ان حياة التبعة الاوروباوية على خطر يكون معـلوم لكما فانزعج القنصـلان من كلام الخديوى وأسرعا بالحضور الى ديوان الداخليـة وسألا من ناظر الداخليـة ومن عرابى ناظر الحربية عن حالة الاوروباويين فى القطر المصرى وعما اذا كان يحصـل لهم خطر أوضرر فأكدا لهما ان لاشئ فى الامر من مثل ذلك

ومن ابتداء هذا الوقت شرع القنصل ماليت والمفتش المالى كولفن فى مخابرة دولتهـما وانتهاز الفرصة فى التغلب على البـلاد المصرية وكذا خابر قنصـل فرانسا دولتـه وحصلت المشاكل والارتباكات وازدادت المجالس الليليـة والاجتماعات وصار كل انسان يقول ماعنـده من الاقوال وما يتراءى له من الافكار وبينما الناس فى هـذه الهواجس اذ ورد للخـديوى توفيق باشا بلاغ من كل من دولتى انكلترا وفرنسا بأنهـما وطداه ومعضداه ومثبتانه على الاريكة الخديوية المصرية ولاخوف عليه ولا على أريكته من شئ وكان قبـل ذلك بمدة حصـل انفضاض مجلس شورى النواب ولما رأى النظار ماهو حاصـل من الارتباكات طلبوا عقـد مجلس نواب الامة فحضر المجلس وكان على غير رضا من الخديوى وحاول محمد سلطان باشا رئيس المجلس ونفس المجلس فى حصول الاصلاح بين رئيس النظار محمود سامى

ومعه أحمد عرابى وبين الخديوى فلم يفوزوا بشئ ثم اجتمع النظار جميعا مع رئيسهم محمود سامى وتوجهوا ليلا الى سراى الاسماعيلية ومعهم محمد سلطان باشا وحصل الصلح (فى الظاهر) وقال الخديوى انى سامحت وعفوت عما حصل وانفض المجلس على الصلح والاطمئنان وازالة الهواجس ومنع المجالس الليلية المتسبب عنها هياج الاوروباويين ومن بعد هذا الصلح بقليل ازدادت الارتباكات والقلاقل وتحير مجلس النواب فى أمره بين رئيس الوزارة والخديوى فشكل المجلس المذكور وفدا منهم وأرسلوه الى الخديوى يرجون اجابة سؤالهم فى الهدو والراحة فأجابهم متأسفا بعدم امكانه فعادوا وأخبروا رئيس المجلس والنواب بما حصل وفى ١٤ مايه سنة ١٨٨٢ تعينت لجنة ثانية من المجلس لتعرض على الخديوى هدو راحته وسقوط رئيس النظارة فقط وتعين بدله مصطفى فهمى باشا فتوجهت هذه اللجنة وعرضت على الخديوى ذلك فقبل منهم هذا بعد التردد الكبير ثم سارت هذه اللجنة الى مصطفى فهمى باشا يسألونه قبول تلك الرياسة فرفض القبول ورجعت المسئلة الى موضوعها الاول بل زادت ارتباكا

وبينما الناس فى هذه الارتباكات اذ وردت تلغراف من لوندره ينبئ بصدور الامر الى الاسطول الانكليزى الراسى فى بحر المانش أن يتأهب ويستعد للسفر فى ٢٨ مايه الى البحر الابيض المتوسط فأوجس الناس خيفة ومازال النواب والعلماء يسعون فى حصول الراحة حتى استتبت نوعا عن ذى قبل ثم أشيع عن قرب وصول اسطول انكليزى وآخر فرنساوى ووردت تلغراف من جزيرة كريد مخبرا بخروج الاسطول الفرنساوى منها قاصدا ثغر الاسكندرية والاسطول الانكليزى باقيا فيها ينتظر قدوم الاسطول العثمانى ليأتى الاثنان فى وقت واحد

وفى ١٩ مايه ابتدأ ورود المراكب الانكليزية فى مينا الاسكندرية وفى ٢٥ مايه قدم قنصلا انكلترا وفرنسا بلاغا نيابة من دولتيهما بالاتحاد مع محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب بسقوط الوزارة وخروج عرابى من القطر المصرى ويضمنان له حفظ رتبه ورواتبه وابعاد كل من عبد العال حلمى وعلى فهمى الى بلادهما فى جهات الارياف مع حفظ رتبهما ورواتبهما مع تكفل الدولتين بالزام الخديوى بصدور عفو عام عن جميع الذين لهم دخل فى مسئلة أحمد عرابى فلم تقبل الوزارة هذا البلاغ وقبله الخديوى وبناء عليه استعفت الوزارة فى ٢٦ مايه ومن هذا الوقت أخذ الخديوى ادارة الحكومة تحت يده وأرسل فى صباح ثانى يوم الى يعقوب سامى وكيل نظارة الجهادية وقال له ان الوزارة استعفت والآن صارت الادارة أنا المسؤل عنها وكذا ادارة العساكر الجهادية فلا يلزمك اجراء شئ الا بالاستئذان من طرفنا وفى الحال أصدر له أمرا بذلك وأن يتوجه فى الحال الى الالايات العباسية وقصر النيل وعابدين والقلعة وينشر على العساكر والضباط التنبيهات والاوامر الخديوية حسبما صدر له ونفس هذا اليوم كان يوم جلوس الخديوى على الاريكة المصرية وحصول الاحتفال فى هذا اليوم فاصدر الخديوى أمرا الى يعقوب سامى وكيل الجهادية بأن يأتى الى التشريف مع أمراء الالايات واللواآت الموجودين فى القاهرة وضواحيها لاجل تشريفة هذا اليوم فحرر وكيل الجهادية اعلانات الى أمراء الالايات واللواآت ليحضروا فى ساعة معلومة عنده ويتوجهوا للتشريفة الخديوى فى سراى الاسماعيلية فأسرع طلبه عصمت الى منزل أحمد عرابى وأخبره الخبر فقال عرابى ربما يعرض عليكم بلاغ الدولتين فتجاوب أنت بعدم قبوله وان ذلك من خصائص الباب العالى ولما استعفى عرابى من

نظارة

نظارة الجهادية كتب اعلانات وأرسلها الى الالايات وسائر الجهات بأنه وان كان استعفى من نظارة الجهادية الا أنه لم يزل رئيس الحزب الوطني والمرجع اليه في الحال والاستقبال ولما وصل وكيل الجهادية يعقوب سامي بمن معه من الضباط والامراء لاجل التشريفة ودخل صحبتهم عند الخديوي وجد مجلسا غاصا بالعلماء والقناصل ونواب الامة جميعا ورجال الحكومة ولما استقر بهم الوقوف قام الخديوي من مجلسه وقال مخاطبا الوكيل الجهادية أنا قبلت بلاغ دولتي انكلترا وفرنسا وقبل أن يتم الخديوي كلامه خرج طلبه عصمت من محله ودق على صدره وقال نحن مطيعون أوامر أفندينا ولكن يستحيل علينا تنفيذ هذا البلاغ ولاحق للدولتين في طلب ذلك لان هذه المسائل من خصائص الباب العالي فجذبه وكيل الجهادية الى وراء وأخذه وخرج من المجلس وتبعه الضباط الآخرون وفي نفس هذا الوقت ورد تلغراف الى الخديوي من العساكر والضباط الموجودين في رأس التين بالاسكندرية تحت امضاء سليمان سامي القائمقام بالقول ان العساكر لا يقبلون ناظرا عليهم خلاف أحمد عرابي وان مضت اثنتا عشرة ساعة ولم يعد الى منصبه يكونون جميعا خالين عن المسؤلية عما يحدث ومما لا يستحسن وقوعه وزاد الاشكال والاضطراب واختل النظام وقلق الناس فعقد محمد سلطان باشا في منزله مجلس النواب وطلب البعض من ضباط الجهادية للمداولة معهم فيما يلزم لحصول الامن والراحة فتوجه أحمد عرابي وعبد العال حلمي وطلبه عصمت بعد أن جعلوا عرابي نائبا عنهم وكان من جملتهم محمد عبيد وبعض ضباط أخر ووكيل الجهادية يعقوب سامي فخطب عرابي في وسط مجلس الامة وذم الخديوي وندد على أفعاله وحركاته وقال أخيرا اني عزلت توفيق فمن أجابني فليقم فما قام أحد من النواب الامائدر فزعق محمد عبيد بصوته كل من لم يجب رئيس الحزب الوطني قطعت رأسه بسيفي هذا وأشهر سيفه في وسط المجلس فتولد من هذا ضجة قبيحة وخرج الجميع على غير طائل وارتبكت الامور في القاهرة والاسكندرية وهاج الناس بعضهم في بعض فسار قناصل الدول الى الخديوي وتداولوا معه في ارجاع أحمد عرابي الى منصبه لاجل تأييد الامن والراحة في أنحاء القطر على الوطنيين والاجانب فقبل ذلك الخديوي وحصل السرور لرجال الحزب الوطني وأخذ عرابي مسؤلية الامن والراحة على نفسه وصدر له من الخديوي أمر بعوده الى مسنده الاول وأرسل الخديوي بلاغا الى الباب العالي يخبره أن العساكر ليسوا راغبين في استعفاء الوزارة وأقاموا الحجة على طلب الدولتين فأجيب بان الحضرة السلطانية أمرت بتشكيل لجنة عثمانية تأتي مصر من بعد ثلاثة أيام لأجل النظر في هذه الامور الحاصلة

ولما عاد عرابي بأمر الخديوي الى مسنده في نظارة الحربية بعث بلاغا الى قناصل الدول يضمن لهم تأييد الامن واستتباب الراحة لجميع سكان القطر المصري من وطنيين وأجانب مسلمين وغير مسلمين وطلب في هذا الوقت ثلاثة أشياء

(أولها) — اعادة بلاغ الدولتين وانسحاب اسطوليهما من مياه الاسكندرية

(ثانيها) — وضع قانون أساسي مبين فيه حدود كل من الخديوي ووزرائه

(ثالثها) — قطع المخابرات والعلاقات مباشرة مع الدولتين ومع عموم الدول الا بواسطة الباب العالي

ومن كثرة الحاح ماليت قنصل انكلترا على الحكومة الانكليزية وحثها وتحريضها في هذا الوقت المناسب خابره المستر غلادستون رئيس الوزارة الانكليزية سرا وقال له لا يمكن التداخل في هذه المسئلة

الا اذا قامت جماعة الجهادية وظهر قيامهم للدول اذ يكون هذا الوقت هو وقت الدخول واجراء العمل حسبما ترغبونه ثم صرح غلادستون فى مجلس اللوردات أن دولته لابد لها من تأييد كلمة الخديوى توفيق باشا بالنسبة لما أظهره فى حق الدولة البريطانية من الصداقة والاخلاص

وفى ٧ يونيه وصل الى ثغر الاسكندرية وابورعزالدين الشاهانى حاملا دولتلو درويش باشا المعتمد العثمانى ومعه السيد أحمد أسعد وبعض معاونين وقدرى بك وتوجه وكيل الجهادية يعقوب سامى لمقابلته وكان ذوالفقار باشا وحسن حلمى باشا مستعدين لمقابلته فى الاسكندرية فقال ذوالفقار باشا لوكيل الجهادية لم يكن لك رخصة ولا اذن فى التوجه الى عزالدين ومقابلة النائب العثمانى حسب أمر الحضرة الخديوية فحرر وكيل الجهادية تلغرافا بذلك الى عرابى فى القاهرة فأجابه فى الحال بانه لابد من توجهه مع محمد كامل باشا وكيل ديوان البحرية ومقابلته رغما عن قول ذى الفقار باشا فحصل ذلك وكانت هذه أول مبادى كراهة الخديوى ليعقوب سامى لما وجد فيه من كل الميل الى عرابى ولما نزل درويش باشا فى الاسكندرية سار على الفور الى محطة السكة الحديد وتوجه مسرعا مع من جاء بهم الى القاهرة فقابله أهل القاهرة وطرح الاوباش والحشاشون أمامه الورد والزهورات وساروا يصرخون أمامه بقولهم اللهم انصر السلطان ومازالوا أمامه فى هياص وزعيق حتى وصل الى سراى الجزيرة وكان الخديوى أعدها لنزوله وقابل الخديوى ثم زاره الخديوى ولما كان لايوجد فى هذا الوقت نظارة توجهنا (النظارة السابقة) مع محمود سامى وعرابى وزرناه وسلمنا عليه وشرع فى المخابرة بين الخديوى ومحمود سامى وعرابى وصار يعدهذا ويمنى هذا وأما السيد أحمد أسعد فانه لما رأى صعوبة الاحوال ومشقة الاعمال اكتفى بان اشترى مايلزم له من القاهرة وتوجه الى القسطنطينية وعرض للسلطان بان عرابى حقيقة من أكبر العصاة على الخديوى ومازال درويش فى كد وسعى وأخيرا لما رأى أن أموره مع عرابى لاتفيد شيأ قال له جهارا تأمل ياعرابى أنا جئت من عند السلطان صاحب الشوكة والعظمة والاركان لاجل توطيد الخديوى وتنفيذ أحكامه وان سيدك يأمرك بالتوجه الى سدته العلية أنت ومن معك من الذين لم يكن للخديوى فيهم رغبة بالكلية فأبى عرابى التوجه وعدم القبول واشتدت الاحوال واختلفت الاقوال وكثر الاضطراب والقلق من ساكنى مصر عموما وأخذ منهم مبلغا جسيما وكثرت الاشاعات فعزم النزلاء الاجانب على الجلاء والمهاجرة الى أوروبا خوفا من أمر يأتى أو فرارا من بلاء محسوب وأصبحت الاسكندرية ملجأ للوافدين من نواحى الارياف والصعيد مؤملين أنهم يكونون فيها آمنين من غوائل التعدى لكثرة مافيها من الاجانب أو الحماية تحت الاسطولين الفرنساوى والانكليزى

وكان فى هذا الوقت عمر لطفى باشا محافظ مدينة الاسكندرية واسمعيل كامل باشا الجركسى قائد عساكر الاسكندرية فحصل من بعض الرعاع معاكسة الاجانب وأغلظوا لهم فى معاملاتهم واستبدوا معهم فى أمورهم ولما رأى أولئك الاجانب تغير الاحوال والنظام صاروا يتأهبون سرا للدفاع خوفا من الاهالى ربما يوقعون بهم أمر البئس فى امكانهم دفعه بغير سلاح

وفى ١١ يونيه حصلت منازعة بين حمار ومالطى تسبب منها الغارة على البيوت وقتلت العساكر المستحفظون والاهالى بالاجانب وقتلوا منهم مقتلة عظيمة بلغ القتلى فيها ماينوف عن الالف وصار العساكر يحملون القتلى فى الطرقات ويرمونهم فى البحر وجرى الدم من باب الترسانة الى ديوان المحافظة

وصار

وصار المحافظ يأمر بجلب عربات الرمل ويردم الدماء والجرحى كثير من كبار الاجانب فاصدر محافظ الاسكندرية أمره الى سليمان سامى القائمقام بان يبعث العساكر الجهادية لايقاف الاهالى ومنعهم من ارتكاب تلك الفظائع فأجاب سليمان سامى بعدم استطاعته الا اذا أتاه أمر من عرابى ولما انتشر خبر هذه الحادثة الفظيعة بعد تسكين أهالى الاسكندرية هرع الاهالى من الاجانب فى الخروج من القطر المصرى وقيل انه هاجر من مصر فى تلك المدة ما ينوف عن مائة وخمسين ألفا

وفى صباح ١٢ يونيه اجتمع القناصل وخاطبوا درويش باشا بكلام عنيف وعقدوا مجلسا فى سراى الاسماعيلية كان فيه الخديوى ودرويش باشا وشريف باشا وغيرهم من رجال دول أوروبا تقرر فيه ما يوجب الامن والراحة وأن يمتثل عرابى لاى أمر ما يصدر له من الخديوى وأخذ درويش باشا على نفسه تنفيذ الاوامر الخديوية بالاشتراك مع عرابى ورضى وكلاء الدول بذلك وفى الحال صدر الامر بتسفير ألايين من البيادة وجملة بطريات من الطوبجية وفرق من السوارى الى الاسكندرية للمحافظة عليها وعلى أهلها وتعينت لجنة بأمر الخديوى تحت رياسة عمر لطفى المحافظ وفيها مندوبون من طرف القناصل لاجل معرفة السبب فى أصل المذبحة وآل أمر هذه اللجنة الى الانفكاك ولم يتيسر لها الحصول على شئ لان الامر مبهم جدا عليها ولا يمكنها الوصول الى معرفة ما لديها

وفى ١٣ يونيه قام الخديوى من القاهرة متوجها الى الاسكندرية مصحوبا بدرويش باشا ولما وصل اليها زاره قناصل الدول وأظهر لهم أسفه على ما حصل من هذه الحادثة الشنيعة ووعدهم باخماد الفتن واستتباب الراحة وأرسلت قناصل الدول الى رعاياها بالمهاجرة الى القطر المصرى نجاة لهم وحفظا لسلامتهم وعينت كل دولة سفنا لنقل رعاياها مجانا وورد من ماليت قنصل انكلترا أمر من لوندره بحضوره فى الاسكندرية وموافقته للخديوى توفيق باشا حيثما توجه وفى ٢١ يونيه شكل الخديوى وزارة جديدة تحت رياسة راغب باشا وبقى عرابى فيها ناظرا للجهادية البرية والبحرية ثم وردت الاخبار بعقد مؤتمر فى الاستانة للبحث عن المسئلة المصرية فمنع الباب العالى من ذلك بما أنه ليس فى مصر ما يوجب الاضطراب اعتمادا على تقرير درويش باشا أما حكومة انكلترا فلم تزل ساعية ومكدة على عقد المؤتمر بدعوى أنه يستحيل اعادة الامن فى مصر بدون قوة فعالة وأجاب الباب العالى باستقرار السلم بعد تشكيل الوزارة ووافقه دول المانيا وأوستريا وايطاليا والروسيا خوفا من مطامع انكلترا فى مصر الا أنه فى ٢٤ يونيه صار عقد المؤتمر فى الاستانة بدون دخول الباب العالى فيه فكان ما تقرر أن الحكومات التى وقع وكلاؤها على ذيل هذا التعهد بالنيابة عنها تتعهد أنها لا تقصد اغتنام أرض ما مطلقا ولا الحصول على امتيازات ما ولا يكون لرعاياها من الامتيازات التجارية شئ ولا يمكن أن يناله غيرهم من رعايا أى دولة فى مصر وذلك فى أى مسئلة حصل التوافق عليها بكدها او اشتراكها فى المخابرات لتنظيم أمور تلك البلاد وفى هذا الوقت كانت حكومة انكلترا تجهز الجيوش للحرب بدعوى أن ذلك من باب التهديد لعرابى وكانت تحض دول أوروبا على مساعدتها وكانت الدول على حذر من دخول انكلترة فى الديار المصرية الا أنها لا تقدر على معارضتها بالشدة والعنف

وكان الخديوى توفيق باشا ودرويش باشا مقيمين فى سراى رأس التين فى الاسكندرية وعرابى معه طلبه عصمت مقيمان فى الترسانة وتحت قيادتهما تسعة آلاف من العساكر وفى أثناء ذلك أقرت نواب الدول على كتابة لائحة مشتركة يقدمونها الى الباب العالى لاجل ارسال جنود عثمانية الى مصر لاجل اخماد

هذه الفتنة فأبى فاتخذت انكلترة ذلك حجة لابتداء دخلها بالقوة الجبرية وشرع الاميرال سيمور فى كونه يتخذ سببا ولو طفيفا لمباشرة العمل وكان سيمور هذا قائد الاسطول الانكليزى فادعى أن العساكر الجهادية جارية فى تحصين وزيادة قوة القلاع فى الثغر وأنهم يجرون نقل أحجار ضخمة ليرموها فى فم مدخل المينة تهديدا للاسطول الانكليزى وكان هذا القول لا أصل له وأن هذه الاعمال منافية لحقوق الاسطول الانكليزى فالحكومة المصرية مكلفة بالكف عن تقوية الاستحكامات حالا والا فهو مجبور على اطلاق مدافعه عليها ومن بعد قليل من الايام أرسل كتابة أخرى بانه لم تزل العساكر جارية فى تقوية الاستحكامات فحيث كان هكذا ولم يحصل الكف عن اجراء التقوية فيلزم ازالة جميع مدافع الثغر عن غناديقها الى الارض أو انى مجبور غدا على انزالها من على غناديقها بمدافع الاسطول فلما ورد هذا البلاغ الى الخديوى توفيق باشا ودرويش باشا أرسل الخديوى طلب نظارة راغب باشا من القاهرة وكافة الذوات المستودعين الذين كان أصلهم من مستخدمى الجهادية ومن الجملة أنا لان الاستحكامات عموما لم تزل فى عهدتى وأنا الباشمهندس عليها وانعقد المجلس فى يوم ٩ يوليه وقرئ فيه اعلان الاميرال سيمور وبعض محادثات طويلة تقرر تحت رياسة الخديوى توفيق باشا ودرويش باشا النائب العثمانى وسلطان باشا رئيس مجلس نواب الامة ورجال الحكومة والنظار بوجوب الحرب ولا يليق نزول المدافع لان ذلك عار على الامة المصرية ولما تقرر وجوب الحرب كان عرابى أنشط من عقال بعير لانه يتصور أن عنده رجالا وعساكر طائعين أمره كما ادعى فى واقعة عابدين قال الخديوى نحن لا نشرع فى ضرب الاسطول الا من بعد أن يأتينا منه ثلاث مقذوفات ووافقه على ذلك الكثير وانفض المجلس على ذلك وتوجه عرابى الى الترسانة وكان قبل انعقاد هذا المجلس توجه درويش باشا الى الترسانة وتقابل مع عرابى وقال له أنت ستكون سببا فى خراب البلاد وتغلب الاجنبى عليها والاحسن أن تتوجه معى عند سيدك تكون عنده فى أعظم المراتب ولا يغرك ما حولك من هذه الزخارف ولا المنامات ولا الذين يقولون لك أنا رأيتك راكبا حصانا أسود وعلى رأسك بيرق أخضر فاتبعنى أهدك صراطا مستقيما واخرج من البلاد ما دام خديويها متضرر امن وجودك فيها ولما رأى درويش باشا أن لا شئ ينفع فيما يبديه له من النصيحة تركه وسار الى رأس التين وخرج ماليت من الاسكندرية بدعوى أنه مريض ونزل فى الاسطول الانكليزى وكذا كوكسن قنصل انكلترا فى الاسكندرية بدعوى أنه مجروح من حادثة ١١ يونيه وتوجه الاسطول الانكليزى أيضا مثل ماليت

وفى نفس هذا اليوم وصل من عند سيمور المستر كارترايت الى الخديوى وأعلنه رسميا عن عزم الاميرال سيمور على مباشرة القتال صباح يوم الثلاثاء ١١ يوليه وألح عليه أن يترك سراى رأس التين ويتوجه الى سراى الرمل ففعل وحرر سيمور رسميا الى درويش باشا يطلب منه أن يحافظ على حياة الخديوى وأن يكون مسؤلا اذا أصيب بسوء

وفى ١٠ يوليه أرسل الاميرال سيمور كتابة رسمية الى كل من درويش باشا وراغب باشا رئيس الوزارة يعلمهما أن خروج رجال الوكالة الانكليزية من القطر المصرى اشارة الى قطع العلائق الودية واعلان الحرب وفى مساء هذا اليوم تقهقر الاسطول الفرنساوى وجميع السفن التى كانت موجودة فى مينة الاسكندرية الى ظهر البحر الابيض المتوسط وخلت المينة من السفن بالكلية

وفى الساعة ٧ من صباح يوم الثلاثاء ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٩ هجريه أو ١١ يوليه سنة ١٨٨٢

ميلادية أطلق الاسطول الانكليزى نيران البومباردية على مدينة الاسكندرية وأحاط بها من كل جهة ومن قبل ذلك كان ضباط الاسطول وقواده أخذوا جميع مقاسات أعماق مياه الاسكندرية وجهات أبوقير ورشيد ودمياط وعرفوا جيدا الجهات الخطرة من ساحل البحر التى يمكن المراكب السير فيها والضرب منها على نواحى الساحل وعرفوا جيدا من ابتداء قلاع العجمى الى تجاه رأس التين الى حد سراى الرمل النقط الصالحة لسير المراكب والسفن وشحنوا مراكب الاسطول ودوارعه بالذخائر والمهمات الحربية ولا لزوم لوصف مدرعات الاسطول الانكليزى وما هى عليه الدولة الكبيرة هذه من الاستعداد الحربى فى البر والبحر ولما شرع الاسطول فى ضرب المدينة توجهت أنا مسرعا وكنت وقتها فى الاسكندرية الى قلاع رأس التين وشرعت أيضا قلاع رأس التين وطوابى باب العرب وطوابى أم كبيبة والابراج والطوابى الداخلة فى البحر من مدينة الاسكندرية فى الضرب على الاسطول وان كانت هذه الطوابى على غاية من الخراب والدمار وبها مدافع من العيارات القديمة ولم يحصل فيها أدنى تعمير ولا ترميم من عهد أن أنشأها محمد على باشا الى الآن الا أنها ابتدأت فى الضرب على الاسطول الانكليزى وكان موجودا فى الاسكندرية من ألايات المشاة أربع ألايات منها اثنان فى رأس التين تحت قيادة مصطفى عبد الرحيم وسليمان سامى وواحد فى القبارى تحت رياسة خليل كامل ورابع فى نواحى باب شرقى تحت قيادة عيد محمد فأما الالايا المشاة اللذان كانا موجودين فى رأس التين فبا آوا صطفا خلف نيران الاستحكامات بجهة رأس التين وأما الاى القبارى فانه لبث فى القبارى ولم يخرج مع قائده الى قلاع أم كبيبة وأما الاى باب شرقى فانه لبث أيضا فى باب شرقى ولم يحصل منه أدنى حركة وسلط الاسطول نيران مدافعه الكبيرة العيار والصغيرة العيار ومدافع الميتر يوز فكانت نيران الميتر يوز ومقذوفاتها ساقطة على رأس التين مثل المطر وصارت عساكرنا المصرية تهرب من وراء المدافع ورأيت فى ذلك الوقت بعينى ما حصل من غيرة الاهالى بجهة رأس التين وأم كبيبة وطوابى باب العرب وهمتهم فى مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمقذوفات هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم والبعض من الاهالى صار يعمر المدافع ويضرب بها على الاسطول وخربت مدافع الاسطول طوابى رأس التين وما فيها من القشلاقات العسكرية والسرايات الخديوية وشاهدت من حال ضباط عساكر الالايات البيادة والطوبجية الذين كانوا يجرون سيوفهم على تروارات شارع عابدين ويتبخترون فى سيرهم ويظهرون قبل الحرب الشجاعة والبسالة وكذا عساكرهم أن أهالى ونساء وبنات وشبان سكان جهات رأس التين وباب العرب وأم كبيبة أشجع وأحسن منهم قلبا وقالبا وشجاعة وكان معى فى هذا الوقت فى رأس التين لمشاهدة الحركة زبير باشا ومحمد رؤف باشا وآخرون وشاهدوا ذلك أيضا وتأسفوا جدا على ما شاهدوه من جبن عساكر المشاة والطوبجية فى أثناء الحركة البومباردية فى أول يوم واستمرت نيران الاسطول الانكليزى متساقطة على المدينة الى حد الساعة واحدة ونصف افرنكى بعد الظهر فلما رأت أهالى الاسكندرية ما هو جار من استمرار ضرب المقذوفات عليهم خرجوا مهاجرين من مدينتهم على شواطئ ترعة المحمودية مثل الجراد المنتشر وناهيك أن عدد سكان مدينة الاسكندرية نحو من ٣٢٠٠٠٠ نفس فهؤلاء جميعا تركوا مساكنهم ومنازلهم وهرعوا على سواحل ترعة المحمودية شرقا وغربا لا يدرون أين يتوجهون مع أطفالهم ونسائهم شيوخ وشبان وأطفال ملقحين على شواطئ الترعة جائعين لا زاد عندهم ولا قوت وكل رجل

حرشاهدهم يلعن من كان السبب لعنامؤبدا لانه أصل هذه البلايا والآفات والمصائب والخسارات فلما رأيت هذه الاحوال صرت أفتش على عرابى فى أى جهة يكون حتى أقص عليه هذه الحوادث الفظيعة ومازلت أفحص عليه حتى وجدته قاعدا فى قلعة كوم الدماس داخل محل من محلاتها وبجانبه طلبه عصمت والشيخ محمد عبده وعمر رحمى واضعين أيديهم على خدودهم باهتين ساكتين مصفرى الوجوه لايبدون حراكا كانهم جميعا فى هيئة الاموات وفى أثناء هذا المارأى بعض ضباط الطوبجية أن لاقدرة لهم على طاق المدافع على الاسطول رفعوا البيارق البيض من طوابيهم فانقطعت نيران الاسطول وكان ذلك فى الساعة واحدة أونصف افرنكى أوقريب العصر تقريبا ولمارأيت عرابى ومن معه بهذه الحالة سكت ولم أقل له شيأ وهو كذلك ماسألنى عن شئ ما ولما انقطعت نار الاسطول قام وخلفه طلبه عصمت وسار الاثنان ونزلا من القلعة وتوجها لمنزل راغب باشا على الشاطئ الغربى للمحمودية فأنا كذلك تبعتهما على بعد ولما دخلا بيت راغب باشا دخلت أنا كذلك ومكثنا جميعا مع راغب باشا وحضر سلطان باشا وشريعى باشا وزبير باشا فى أثناء ذلك بمنزل راغب باشا رئيس الوزارة ولما استقر الجميع قام عرابى ودخل محلا يتوضأ ويصلى فيه فقال الزبير لراغب باشا حسب ماشاهدته عيانا ياسعادة الباشا والله انى رأيت العساكر على غير قوة ومقاومة ولا يفعلون بشئ وأن هذا الحرب مشؤم على البلاد والعباد فقام طلبه فى هذا الوقت وتهور على الزبير أمام سلطان باشا وشريعى باشا وراغب باشا كيف أنت تقول ذلك وعساكرنا مثل الاسود وضربوا فى الاسطول الانكليزى حتى كسروا مراكبه وأخربوه وقام فى وجه طلبه الشراسة فقال سلطان باشا ياسعادة محمود باشا أحق مايقوله زبير باشا فقلت نعم هو حقيق بلا محالة وحكيت له ماحصل من الضباط والعساكر من الجبن وعدم الغيرة وماحصل من السكان والاهالى من الحمية والحماس فلما سمع راغب باشا كلام طلبه عصمت الذى لايدرى ولا يعرف أى شئ حصل فى أثناء ضرب الاسطول نيرانه على المدينة أسرع وركب وتوجه الى سراى الرمل لمقابلة الخديوى وكذا نحن جميعا خرجنا من منزله وكان ذلك قرب غروب الشمس فى ليلة الاربعاء أى فى أول يوم الواقعة وأخذ عرابى طلبه وسار الاثنان لا أعلم أين توجها وأما راغب باشا فانه لما قابل الخديوى أخبره بخبر أن الحصون قاومت بواسطة ضباطها وعساكرها أشد المقاومة وأخربوا كثيرا من سفن الاسطول الانكليزى ومالبث أن دخل عرابى على الخديوى وأخبره قائلا نحن لا طاقة لنا على المدافعة والمقاومة ولابد لنا من عمل تدابير أخرى نجريها مع قائد الاسطول الانكليزى فانشرح صدر الخديوى توفيق باشا من هذا الخبر الذى ألقاه له عرابى فقال له الخديوى أرسل بعض الالايات الى نواحى العجمى لانه بلغنى أن عساكر الانكليز سينزلون هناك فرفض عرابى ذلك فقال محمد سلطان باشا وكان حاضرا فى هذا الوقت أفندينا جعل عرابى ناظر جهادية ولم يعهد اليه أفندينا هذه الوظيفة الجليلة الا لما يعهده فيه من درايته بالمواد الحربية والاعمال العسكرية فهو يعرف شغله فى حفظ البلاد المتعهد بالمحافظة عليها ووقوع الامن واستتباب الراحة فيها وعقدوا لذلك مجلسا عند الخديوى تقرر فيه برأى عرابى ارسال طلبه عصمت للمكالمة مع الاميرال سيمور أميرال الاسطول الانكليزى فذهب وعاد وقال ان الاميرال يطلب احتلال ثلاث قلاع من قلاع الاسكندرية والا يستأنف القتال غدا الساعة اثنين بعد الظهر ولما رأيت أنا عدم مقاومة العساكر وضعفهم وعجزهم حصل لى غاية الاسف والحزن وحضر محمود سامى من القاهرة واجتمعنا سوية عند عرابى واتفقنا على أخذ موقع للعساكر خارج الاسكندرية

بجهة كفر الدوار وتوجهت أناوخليل كامل لكشف الموقع الموافق وفي أثناء ذلك عقد الخديوى مجلسا من النظار في سراى الرمل تقرر فيه أنه لاحق للحكومة المصرية أن ترخص في احتلال عساكر أجنبية في أى نقطة أو جهة من الاراضي المصرية من غير مخابرة الباب العالى ولما كان الوقت المحدد لاستئناف الاسطول اعادة ضرب النار بعد ارسال هذا البلاغ الى أميرال سيمور شرع الاسطول في ضرب الاسكندرية ثانى يوم بعد الظهر وهو يوم الاربعاء وفي ذلك الوقت أرسل عرابى وطلبه نصف أورطة بيادة تحت قيادة واحد صاغقول أغاسى اسمه أبو هشيمة للتحفظ على الخديوى وآخر بكباشى محمد منيب بأورطته الخيالة فتوجهوا وحاصروا سراى الرمل لاغتيال الخديوى وكان ذلك على رأى سليمان باشا أباظه اذ أنه قال لعرابى ان لم تحافظوا على الخديوى وتقتلوه والا هرب الى الاسطول الانكليزى فبناء عليه أرسل عرابى وطلبه هؤلاء العساكر وبعد ذلك بقليل أرسل الى سليمان سامى القائمقام وهو سليمان داود فلما حضر عنده قال عرابى ياسليمان بك انى أمرتك أن تذهب في الحال مع بلوكين من الالاى وتقتل الخديوى وكل من معه في سراى الرمل وتحضر فاجابه سليمان داود بقوله أنا لايمكننى ذلك فان أردت هذا فتوجه أنت بنفسك واترك عرابى فتوجه الى الالايه وانتشرت عساكر ألاى مصطفى عبد الرحيم وسليمان داود وكانا في رأس التين في نواحى المنشية وشارع شريف باشا وشارع رأس التين وكانت المدينة خلت من سكانها وتجارها فاخذوا يكسرون أبواب الدكاكين والمخازن وينهبون مافيها من الجواهر والبضائع الثمينة وأوقدوا النيران في الاماكن والابنية المفتخرة ودخل أيضا عربان البحيرة والخطافون من البرابرة والعبيد وسلبوا الدكاكين والمخازن وأشعلوها بالنيران وصاروا يزيدون في التهابها وحريقها بزيت البترول الموجود في مخازن التجار وصار هؤلاء العساكر في هيئة سلابين لامدافعين ولا محافظين بشرط لو خرج عليهم من الاسطول الانكليزى ولو مائة نفر بالسلاح لولوا جميعا هاربين وللنجاة طالبين الأن الخديوى لم يعلم بذلك ولما رأى العساكر الطوبجية الموجودين في القلاع أن لاطاقة لهم على المحافظة ومقاومة نار الاسطول رفعوا البيارق البيض وهى بيارق الامان والمسالمة فقطع الاسطول الانكليزى نيرانه ولما رأى عرابى ماحل بالمدينة من الخراب وسوء الحال أرسل الى كل من مصطفى عبد الرحيم وسليمان داود وخليل كامل وعيد محمد أمراء الالايات وأمرهم بالانسحاب بالالايات الى نمرة ٣ على شاطئ المحمودية وكان في هذا الوقت في باب شرقى وأمر طلبه عصمت أن يتوجه الى سراى الرمل ويرفع الحصار عن سراى الخديوى فتوجه وأمر الصاغقول أغاسى بأخذ عساكره وتوجهه الى الالايه وقال للخديوى بالكذب نحن ما كان مقصودنا من حضور العساكر هنا الا المحافظة على أفندينا وأما محمد منيب البكباشى السوارى فانه عرض للخديوى بانه يموت تحت رجليه هو وأورطته الخيالة وأن المقصود من حضور هؤلاء محاصرة أفندينا والاغتيال به ثم جاء عمر لطفى المحافظ وأخبر الخديوى بما كان من نهب العساكر وحرقهم الاماكن وسلبهم المدينة

وفي ١٣ يوليه وهو يوم الخميس انسحب جميع العساكر تحت قيادة عرابى وطلبه من الاسكندرية وتوجههم الى كفر الدوار بيادة وطوبجية وعساكر السواحل والمستحفظين ومازالوا سائرين الى أن وقف بهم عرابى في عزبة كينج عثمان من نواحى كفر الدوار وأخبر الخديوى توفيق باشا بأن الاميرال سيمور عازم على انزال عساكر بحرية الى رأس التين وان يدعوا الحضرة الخديوية الى سفينته ليكون آمنا

فقبل الخديوى التوجه الى رأس التين وبمعيته درويش باشا وكان ذلك يوم الجمعة ١٤ يوليه وكنت أنا فى ذلك الوقت موجودا فى الاسكندرية ولا أحد فيها وحاراتها مرمية بالقتلى خراب ينعق فيها البوم والغراب ونظرت الخديوى وحرمه وأتباعه متوجهين الى رأس التين وخلفه عساكر الانكليز محافظين عليه ولم أر أحدا خلاف سعد أبو جبل وكان قائمقام أورطة المستحفظين فقال لى ان لم تذهب من هنا حالا والا صرت قتيل الخديوى فى هذه الليلة فاتبع نصيحتى واخرج من الاسكندرية فخرجت منها مسرعا حتى وصلت الى كفر الدوار وتقابلت مع عرابى وقلت له ان الخديوى توجه الى رأس التين بمعيته تحت خفارة الانكليز فقال لى ان قطر السكة الحديد مستعد له عند محطة الشيخ جابر ليركب فيه ويعود الى القاهرة فقلت له هذا ما رأيت وهذا ما نظرت ومن هذا الوقت ألزمت نفسى بالاعمال والاشغال اللازمة للتحفظ والا فأنا ميت وكل يعمل حسبما هو مسخر له فأشرت على عرابى باشغال ما يوافق اجراؤه من عمل المتاريس والتحصينات بجهة كفر الدوار فأرسل عرابى وجلب فلاحى المديريات المجاورة لكفر الدوار وباشرت أشغال التحصينات وخططها وباشرت أشغالها وركبت مدافعها ونظمت مزاغلها حتى جاءت محكمة التحصين من شاطئ ترعة المحمودية الى شواطئ بحيرة مريوط وكانت على ثلاث خطوط من خطوط المدافعة القوية بحيث لا يمكن التغلب عليها ولا الوصول اليها وسددت ترعة المحمودية ومنعت المياه العذبة عن الاسكندرية ورتبت على السد الطوابى بالمدافع حتى صار لا قدرة لعساكر الانكليز على القرب منها ولا الوصول اليها

ولما استقر الخديوى توفيق باشا فى رأس التين أنزل سيمور العساكر البحرية الانكليزية من الاسطول واحتلوا الاسكندرية وشرعوا فى تطافتها بأمر الخديوى وأرسل الخديوى ذو الفقار باشا وغيره من معاونى معيته يدعون سكان أهل الاسكندرية بعودهم الى منازلهم وكانوا كما ذكرنا البعض منهم على شواطئ المحمودية منتشرين فى البرين الى حد كفر الدوار وأبو حمص والبعض هاجر الى دمنهور وطنطا والقاهرة وتسبب من ذلك مقاتل ومذابح فى نواحى كفر الدوار ودمنهور وطنطا وقتل فيها كثير من الوطنيين والاجانب وأخذ الخديوى فى الاسكندرية يستتب الراحة ويوطن الاهالى ومعه النظار وراغب باشا رئيس الوزارة وكان أصدر أمره لعرابى بأن الحكومة الآن هى حكومة عسكرية لان القطر فى حالة المحاربة والمدافعة مع الدولة الانكليزية ويقتضى الاستعداد وبذل الجهد فى جمع العساكر والمحافظة على القطر وأهله لان عرابى لم يزل متقلدا زمام نظارة الجهادية البرية والبحرية فخلا الجو لعرابى واعتقد أنه الآن صار فى حالة نابليون بونابارت الذى كان على الدوام يقرأ فى تاريخ ثورته الفرنساوية وتقلده زمام الامبراطورية فأرسل العساكر للمدافعة فى أبوقير تحت قيادة خورشيد طاهر وأرسل العساكر أيضا الى رشيد تحت قيادة ابراهيم فوزى الذى عين محافظ الثغر وجعل دمياط ومحافظتها وملاحقها تحت رياسة عبد العال حلمى ومعه العساكر الكافية وجعل مريوط والنواحى الشرقية والغربية تحت قيادة على الروبى وأرسل اليها العساكر وأما الانكليز فى الاسكندرية فانهم حفظوا منافذ الاسكندرية وأبوابها ووضعوا فيها الالغام وجعلوا للعساكر الوطنية فيها علامات على أذرعتهم يعرفون بها وأرسل الخديوى اضباط الجراكسة الذين كان عرابى نفاهم ورتب الخديوى عساكر من الترك والجريق والمالطية فى الاسكندرية تحت قيادة هؤلاء الضباط وانبثت الجواسيس من كل من جهتى الخديوى وعرابى يراقبون حركات ما هو جار عند الاثنين ويخبرون بها وشرع عرابى فى مخابرة الشيخ

السنوسي بجهات الغرب وحضه على القتال والمجاهدة في سبيل الله وجلب عربان الصعيد والهوارة وصار موقع كفر الدوار غاصا بالعربان والعالم ورتب يعقوب سامي وكيل الجهادية في القاهرة مجلسا من ذوات الامة وأمرائها لفصل الاحكام واعطاء الآراء فيما يوافق اجراؤه وكان هذا المجلس تحت رياسته وصار كل شئ يلزم لعرابي يحرر عنه الى وكيل الجهادية يعقوب سامي وهو يعرضه على المجلس ومن بعد النظر فيه بالمجلس يجرى التصديق عليه بالقبول وعدمه وكثرت الزوار عند عرابي في كفر الدوار وكان معه طلبه عصمت جعله قائدا كفر الدوار فقلت في نفسي

اذا كان الغراب دليل قوم * فيهديهم الى طرق الخراب

وعكف عرابي وطلبه يعزمون الشاورمات ويأكلون البقلاوات وأنواع الحلاويات على مصاريف من طرف ديوان الجهادية وكثر وجود العلماء من كل جهة والبلد والعبط وأرباب الريالات السائلة ويقولون له منصور ورب الكعبة ونصب في كفر الدوار خيمة سعيد باشا والى مصر سابقا وانتفخ وتجمعص (ياقارئ كتابنا هذا لا تعترض ولا تقول هذا كلام قلة حيا)

وكان مع الخديوى أيضا محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب ومعيته وحواشيه وشرع في تنظيف المدينة ودفن المقتولين وكنس الشوارع وطفء الحرائق حيث صارت جهات المنشية خرابا وآكاما من أنقاض البيوت والمنازل الجسيمة والمساجد الفخيمة التي أحرقت وسقطت آكاما من التراب واستمر الخديوى توفيق باشا يخاطب الباب العالى وحكومة انكلترة في جهة الاسكندرية وعرابي يخاطب الباب العالى وفي هذا الوقت طلب الباب العالى درويش باشا فقام متوجها الى الاستانه * وخلى الدار تنعى من بناها * وحرر راغب باشا الى الاميرال سيمور يخبره أن اجرا آت عرابي من الآن فصاعدا مخالفة لاوامر الخديوى وان عرابي هو المسؤل عنها وحده

وكتب الخديوى تلغرافا من عنده الى وكيل الجهادية بالقاهرة يأمره بارسال المهاجرين من أهل الاسكندرية المقيمين في القاهرة فجهز لهم قطارات السكة الحديد وأنزلهم فيها ليتوجهوا حسب أمر الخديوى فلما وصلوا كفر الدوار أعادهم عرابي ثانيا الى دمنهور والى طنطا الى القاهرة فازدادت المقاتل والمذابح والنهب والسلب وأرسل وكيل الجهادية عساكر في هذه المدائن لتسكين الاهالى وعدم وقوع المشاغبات وتقول يا أمين في مثل هذه الاحوال المهولة

وكتب الخديوى توفيق باشا أيضا بالتلغراف (لان حبل التلغراف كان واصلا من كفر الدوار الى الاسكندرية ومن كفر الدوار اتصل بالخط العمومي الى الاستانة) يأمر عرابي بالتوقف عن جمع العساكر والاستعداد لان الحكومة الانكليزية لا خصومة بينها وبين الحكومة المصرية وانها مستعدة لتسليم المدينة متى رأت فيها قوة منتظمة والبلاد في أمن وأمره أن يأتي الى سراى رأس التين حالا للمداولة فيما يلزم اجراؤه فلما قرأ عرابي لفظة الامر بحضوره الى سراى رأس التين أوجس خيفة في نفسه واستشار طلبه عصمت وعمر رحمى وعبد الله نديم محرر الطائف في ذلك فنصحوه بعدم التوجه وكتب رد هذا الامر عن لسان عرابي بما صورته وهو مذكور في تاريخ مصر الحديث

ان مقاومة العمارة الانكليزية حصل باقرار سموكم ودرويش باشا النائب العثماني ومجلس النظار وذوات الحكومة المصرية في مجلس عقد تحت رياسة سموكم وان هذا المجلس هو الذي أعلن الحرب مع الانكليز فان كان الاميرال الآن قد عدل عن المحاربة الى المسالمة بعد وقوع الحرب فذلك يعد طلبا

للصلح ولا يجوز أن يكون انكار الحرب وانى كذلك أميل الى الصلح ولكن مع حفظ شرف البلاد والحكومة فان كان الاميرال يريد تسليم المدينة فيسلمها ويخرج مراكبه من مياه الاسكندرية وانه محافظة على شرف الحكومة الوطنية ينبغى الاستمرار على الاستعدادات العسكرية حتى تبارح المراكب الانكليزية المياه المصرية وان قول الانكليز هذا يعتبر مكيدة لان الاسكندرية ما برحت محتلة بالانكليز ولذلك لا يمكننى الحضور اليها وأطلب أن يكون التئام مجلس النظار فى مركز الجيش للمداولة فى الامر وبعد ذلك أصرف الجيش وأحضر لسموكم

وكتب فى هذا الوقت تلغرافا للجناب السلطانى يقول فيه مولاى أشكو بثى وحزنى الى شوكتكم المعظمة وأعرض لسدتكم أن الخديوى ودرويش باشا التجآ الى الانكليز وسلماهما البلاد والعباد وانى لم أزل خاضعا لعظمة جلالتكم على حفظ البلاد وراحة العباد فورد اليه الرد يلزم مراعاة الانقياد والطاعة لان مصر مفتاح الحرمين الشريفين وأعمالك هذه يحصل منها ضياع مصر فكن تحت طاعة الخديوى

ثم صدر منشور من الخديوى فى ٢٤ يوليه سنة ١٨٨٢ يقضى بعزل عرابى من رتبه ومن نظارة الجهادية وعفوا عاما عن تداخل معه فى مسئلته الا بعض أشخاص معلومين ونصائح أخرى للامة المصرية بعدم اتباعهم عرابى لئلا يتسببوا فى خراب البلاد وطبع من هذا المنشور أوراق عديدة ووزع بواسطة المراكب على سواحل البحر الابيض وبواسطة عساكر أبو قير صار توصيله الى عرابى فى كفر الدوار فكتب عرابى الى يعقوب سامى وكيل ديوان الجهادية ورئيس مجلس الشورى جوابا يذكر فيه ان الخديوى انحاز هو وعائلته الى الانكليز وهو الآن مقيم عندهم فى مراكبهم وصار لا قدرة له على الحضور الى القاهرة فنؤمل التروى فى المجلس فى هذا الامر وهذا المنشور الصادر من الخديوى لانه متحامل على الجهادية الوطنية وأنه هو الذى جلب كل هذه المتاعب والقلاقل والارتباكات الى القطر المصرى وكان كاتبه فى هذا الوقت أحيانا عبد الله نديم فلما وصل تحرير عرابى الى يعقوب سامى وكيل الجهادية ورئيس الحكومة المصرية فى القاهرة فى هذا الوقت لان عرابى أطلقوا عليه (حامى حمى الديار المصرية) وعلى وكيله فى القاهرة (رئيس الحكومة المصرية) جمع وكيل الجهادية مجلسا حافلا فى ديوان الداخلية مركبا من عموم المديرين والحكام والعلماء والروحانيين مسلمين ومسيحيين وأمراء الدواوين والتجار والذوات وكان مركبا من نحو خمسمائة نفس ومن ضمنهم البرنسات الخديوية وقام الخطباء فى هذا المجلس وصرحوا بان الخديوى باع الوطن للانكليز وأخيرا استقر الرأى فى هذا المجلس على أن الخديوى مادام خالف الشرع الشريف والقانون المنيف فليس له حكم على البلاد ولا سلطة على العباد وأنه مخلوع وتقرر بقاء عرابى فى منصبه على خط الحرب للمدافعة عن الامة وختموا جميعا على هذا القرار وبعثوا بذلك للسلطان فى الاستانة وعينوا لجنة مركبة من ستة أشخاص يتوجهون الى الاسكندرية لاستدعاء النظار الى القاهرة للاستعلام منهم عن حقيقة ما حصل وأرسل الخديوى يخبر الباب العالى بعصيان عرابى

وفى أثناء هذه المدة كانت عساكر الانكليز جاريا ورودها بالاسكندرية وتوزعت مراكب الاسطول فى المياه المصرية بعضها راسيا فى نواحى أبو قير وبعضها فى نواحى ابد كوورشيد وجهات البرلس ودمياط وبورت سعيد كل جهة رست فيها مركب أو اثنتان ومنعت جميع الواردات من الخارج الى مصر وكأنها

محاصرة

محاصرة لهاو يوقدون في الليل النور الكهربائي في جهات أبوقير ورشيد تجاه المواقع الموجود فيها عساكر المحافظة وتباهت الامة المصرية وتفاخرت سكان المدن والاقاليم في جميع أنحاء القطر المصري في جمع الاعانات اللازمة للعساكر من نقود وغلال وملبوسات ومأكولات ولحوم وخضارات وتبون وخيول وبغال لجر المدافع والخيالة وكذا السيدات والهوانم والبرنسات وصارت الاعلانات ترد يوميا الى ديوان الجهادية ومركز كفر الدوار ومراكز جهات اقامة العساكر حتى كانت المهمات الواردة من طرف أرباب الاعانات في مركز كفر الدوار تلالا وآكاما الا أن الضباط والعساكر لما رأوا المنشورات الجارية الواردة من الاسكندرية من طرف الخديوي بعزل أحمد عرابي من نظارة الجهادية والعفو العام عمن دخل في هذه الثورة معه الا قليلا تغيرت قلوبهم وازداد جبنهم عما كانوا عليه من الاصل وصاروا تحت قيادة عرابي صورة لا قلبا وكذا أرباب المجلس الموجود تحت رياسة وكيل الجهادية للشورى في القاهرة

ووصلت اللجنة التي كان عينها المجلس في القاهرة للتوجه الى الاسكندرية لاستدعاء النظار الى القاهرة في كفر الدوار وكان من ضمن هذه اللجنة على مبارك باشا وأحمد السيوفي التاجر بالقاهرة ولما قابلت هذه اللجنة عرابي في كفر الدوار أمر أرباب اللجنة بالعود وعدم التوجه الى الخديوي وقال لالزوم للتوجه بما أن الخديوي انحاز الى الانكليز فرجعوا الى القاهرة ثانية الا على باشا مبارك قال أنا مرسل في مأمورية من طرف المجلس ولابد لي من أدائها ومن كوني أتوجه الى الخديوي مهما كانت الاحوال وأقر عليه أحمد السيوفي وسار الاثنان متوجهين الى الاسكندرية ولما تقابلا مع الخديوي وأعلماه الخبر بما حصل من المجلس ورأى على باشا مبارك الاحوال التي بطرف الخديوي كتب على باشا مكتوبا الى عرابي وأرسله له يذكر فيه ان الاعمال التي هو شارع فيها سبب في خراب الوطن العزيز ويرجوه أن يصرف ما هو فيه ويحضر بطرف الخديوي أولى من خراب وطننا وهتك أعراضنا فلم يرد عليه عرابي جوابا في شأن ذلك وأخذ الخديوي في نشر المنشورات داخل القطر بترك عرابي والعود الى طاعته وصار الامراء والذوات من القاهرة يهربون من نواحي بورت سعيد ويتوجهون الى الاسكندرية طرف الخديوي وقطع الخديوي المخابرات مع عرابي كلية وكذا قطع التلغراف الموصل من القاهرة الى الباب العالي وصار عرابي لاقدرة له على المخاطبة مع الباب العالي وضيق الاسطول الانكليزي على الواردات المصرية ومنع سفن الفحومات وقل الفحم اللازم لسير وابورات السكة الحديد

ولما تحققت الحكومة الانكليزية من مخابرة عرابي مع الباب العالي ألزمته مرارا بواسطة نائبها دوفرين بالاعلان من طرف السلطان بعصيان عرابي وعدم انقياده للحضرة الشاهانية ومخالفته للقوانين العسكرية العثمانية فصار نشر هذا الاعلان من طرف السلطان في جريدة الجوائب العربية والتركية ووردت الى أنحاء القطر المصري فلما رأت ضباط الجهادية والامة المصرية هذا الاعلان نفرت قلوبهم وازدادوا في عدم الميل مع عرابي الا بعضا من ضباط الجراكسة الذين هم أعداء عرابي فانهم صار وامعه قلبا وقالبا واستعفى راغب باشا من وزارته بالاسكندرية وأرسل الخديوي الى رياض باشا واستقدمه من الديار الاوروباوية وشكل وزارة جديدة تحت رياسة شريف باشا تعين فيها رياض باشا ناظر الداخلية وعلى مبارك باشا ناظر الاشغال العمومية وعمر لطفي ناظر الحربية وكنت أنا في هذا الوقت مع عرابي في كفر الدوار وأخذت القوى الانكليزية تتوارد من جهات انكلترة ومالطة وجبل طارق حتى

بلغت نحو امن ٣٥٠٠٠ نفس ووصل القائد وولسلى الى الاسكندرية واستلم قيادة الجيش الانكليزى في الاسكندرية ومعه محمد سلطان باشا دليلاله وممهدا سبل سيره وحركاته وأرسل محمد سلطان باشا مكاتيبه بطريق السر الى عربان وجهة قبلى الموجودين فى كفر الدوار وكذا أرسل على مبارك باشا مكاتيبه الى عربان نواحى الشرقية بشأن ترك الحركات العسكرية العدوانية أمام الجيوش الانكليزية واهم من الخديوى الانعامات الجليلة والاحسانات الجميلة والرتب الجزيلة وقال لى عرابى الآن يقتضى مناظرة سعادتكم المواقع العسكرية وترتيب العساكر اللازمة للمحافظة فيها فركبت وابورا مخصوصا على السكة الحديد وتوجهت الى رأس الوادى والاسماعيلية لحد السويس وكان عرابى قبل ذلك أرسل لوكيل الجهادية بترتيب ألاى تحت قيادة محمد عبيد وارساله الى جهة رأس الوادى وأمر بوضع أورطة منه فى محطة نفيشة بجوار الاسماعيلية لاجل المحافظة ولما قربت أنا من السويس وجدت محافظها هرب منها وانحاز وكيلها الى المراكب الانكليزية واحتلتها العساكر الانكليزية ونشروا فيها الاعلانات بانهم يحاربون من أجل سلطة الخديوى توفيق باشا كل من لم يكن منقادا لاوامره وكذا محافظ بورت سعيد وقنال السويس ترك وظيفته وانحاز الى الاسطول الانكليزى واحتلت عساكر الانكليز بورت سعيد وتقابلت فى الاسماعيلية مع الموسيو دولسبس وأخبرته بحال القنال فقال القنال فى عهدتى وأنه لايمكن لاى وابور أو سفينة حربية المرور من القنال حسب نص المعاهدات الدولية وان تلاحظ لى أن أحد الوابورات الحربية حضر وأراد المرور من القنال يلزمنى فى هذا الوقت سده بتغريق بعض الشلوبات فيه ومنع المراكب الحربية من المرور فيه ولا يخشى عرابى من جهة القنال مطلقا ثم عدت راجعا الى دمياط عند عبد العال حلمى فوجدته فى سلطنة واستبداد مع أهل دمياط متوليا رياسة المحافظة والجهادية وشغل الملاحات وحكومة البلاد المجاورة الى دمياط يحكم فيها كيف شاء وكذا توجهت الى مواقع أبوقير ورشيد ووجدت فى جميع هذه المواقع التى مررت عليها أن جميع ضباط الجهادية الذين كان لهم وجوه وخدود حمر قبل الحرب وكانوا يمرعون ويمشون ويتبخترون فى شوارع القاهرة ويجرون سيوفهم خلفهم على الارض باهتى الوجوه مرهوقين على غاية من الوجل الشديد والخوف وقطع الامل

ثم تعين راشد حسنى باشا الفريق لنواحى محافظة رأس الوادى وأرسلت اليه الاستعدادات الحربية والالايات الجهادية والطوبجية والسوارى ومن ضمن أمراء الالايات كان على يوسف ومحمد عبيد وعبد القادر عبد الصمد وحسن جادو وتوجهت أنا مرة ثانية وصار ترتيب الحفر اللازم على القنال من الاى على يوسف ومحمد عبيد فى جميع محطات السكة الحديد المارة على القنال من ابتداء الاسماعيلية الى حد السويس واستمر راشد حسنى باشا فى موقع رأس الوادى مع جميع لوازمه وعربان نواحى الشرقية ومعه أيضا خالد باشا ولما لم يجد الخديوى وولسلى وسلطان باشا والذوات والنظار المصرية بالاسكندرية طريقة للهجوم على البلاد من نواحى كفر الدوار بالنسبة لحصانته ولا من جهة أبوقير ولا من جهة رشيد بسبب عدم امكان دخول مراكب حربية فى النيل ولا من جهة البراس بسبب وجود كثرة البرك وعدم وجود المياه العذبة ولا من جهة دمياط أيضا اتفق رأيهم جميعا ارسال الدونما الانكليزية الموجودة فى الاسكندرية حاملة العساكر الانكليزية وولسلى وسلطان باشا وزهراب باشا وبعض من أركان حرب المصرية ودخولها فى القنال ونزول العساكر الانكليزية فى الاسماعيلية

وأصدر وواسلي أمر السفائن الحربية الانكليزية الموجودة في مينا السويس بحضورها في وقت
حضوره بالاسماعيلية وشرع الخديوى توفيق باشا في كمرخناد قلاع باب العرب لاجل دخول
مياه البحر الابيض المتوسط في بحيرة مربوط وزيادة علو مياهها لاجل ادخال قوارب حربية فيها
والضرب منها على مواقع كفر الدوار وطلب الخديوى خمسة وعشرين مدفعا من ذوات المقذوفات
الطويلة لتركيبها على طوابي عمات في نواحي سراي الرمل لاجل الضرب بها أيضا على مواقع كفر الدوار
والمحمودية وسواحل بحيرات أبوقير وسار الاسطول الانكليزى من الاسكندرية متوجها الى بورت سعيد
ولما بلغ عرابي خبر توجه الاسطول الانكليزى الى نواحي بورت سعيد قال لي كيف العمل فقلت له اقعد
أنت هنا وأنا أتوجه وأنظر الحركة فركبت وابورا مخصوصا من وابورات السكة الحديد ووصلت رأس
الوادي وتقابلت مع راشد حسني باشا فقال ان علي يوسف وخالد باشا توجها سوية نحو السويس لاجل
مشاهدة محلات المواقع فسرت خلفهما في الوابور حتى قابلتهما في آخر محطة عند السويس ورأيت
من عيونهما عدم الرغبة لاى مدافعة أو مقاومة كانت وبلغني سرا من الضباط أن علي يوسف وخالد
باشا أصدرا أوامرهما سرا العساكر الخفر بأنهم متى رأوا عساكر الانكليز يفروا أمامهم ويفتحوا لهم
المسالك والطرقات فلما رأى الاثنان رجعنا بالليل سوية الى نواحي الاسماعيلية ولما قربنا منها سمعنا
في وقت الفجر من ليلة ٤ شوال سنة ١٢٩٩ هجرية ضرب المدافع على الاسماعيلية من الاسطول
الانكليزى وبمساعدة وكيل محافظة الاسماعيلية صار احتلالها بواسطة العساكر الانكليزية ونزلت مع
خالد باشا وعلي يوسف في محطة نفيشة وهي محطة سكة حديد السويس وكان بها أورطة من الاى علي
يوسف ودخلت الدونمنا الانكليزية من القنال وسارت السفائن الحربية الانكليزية من السويس في
القنال الى الاسماعيلية وشرعت هذه السفائن في الضرب بنيران مدافعها على العساكر الموجودة في
نقط المحطات فهربت العساكر المصرية منها طبقا لاوامر خالد باشا وعلي يوسف وساروا متشتتين في
الجبال والصحارى وتشتت آلاى محمد عبيد بدون حرب ولا ضرب وأما الاورطة التي كانت في محطة
نفيشة عندما ضرب عليها الاسطول بعض قنال من مدافعه جمعها علي يوسف ومازال متقهقرا بها حتى
وصل محطة المحسمة وهي مدينة رعمسيس القديمة ويقال لها المسخوطة وصارت الجهات الموجودة في
نواحي القنال خالية من المصريين لا مدافع فيها ولا مقاوم فحررت بذلك تلغرافا الى عرابي في كفر الدوار
فأرسل لي تلغرافا يقول لي اعمل معروف وابذل جهدك في ردم قنال السويس وها هي الانفار واردة اليكم
غدا لاجل ذلك فأخبرته انه بواسطة اخوانك المعتمد أنت عليهم استحوذ الانكليز على جميع جهات
القنال وهرب العساكر المصرية منها تحت ملاحظة خالد باشا وعلي يوسف

وفي صباح يوم ٥ شوال وردت قطارات السكة الحديد بجهة المسخوطة مشحونة بالانفار الفلاحين
نحو من ٤٠٠٠ نفر لاجل سد القنال وعمل الاستحكامات اللازمة للمحافظة لأن العساكر المصرية
لا يمكنهم المحاربة الا من وراء جدر محصنة تحجبهم في قوة بنيهم وقلوبهم شتى وحضر راشد حسني باشا
باورطتين واحدة من الاى علي يوسف وأخرى من الاى عبد القادر عبد الصمد وبطريتين طوبجية
كروب وأخريين مدافع جبلي وهرب علي يوسف وتوجه الى رأس الوادي وشرعت أنا في عمل
الاستحكامات وسديت ترعة الاسماعيلية من عند المسخوطة سدا محكما وخرجت العساكر الانكليزية
من الاسماعيلية واستمر راشد حسني باشا معهم في محاربة طول النهار بنيران الطوبجية فقط وانتهى

ضرب النار بين الفريقين الساعة سبعة ونصف افرنكي من ليلة ٦ شوال سنة ١٢٩٩
وفي صباح يوم ٦ من الشهر وقبل طلوع الشمس خرجت سواري الانكليز مركبة من عشر أورط
وخلفها عساكر البيادة وبطريات الطوبجية الانكليزية ودارت السواري بالموقع وابتدأ ضرب نار
المدافع فمن أول مقذوف ورد في الموقع أسرعت الانفار الشغالة في الهرب الى بلادها ورموا زواودهم
وعيشهم على حرف ترعة الاسماعيلية وكذا هرب العساكر وترك كوني وراشد باشا (يار بي كما خلقتني) وعدوا
الاسماعيلية وتشتتوا ومابقي في الموقع الا أنا وتوجه راشد حسني باشا خلف العساكر وفضلت أنا واقفا
في الموقع وحدي مع خدامي ولا أعلم أين أتوجه مع هؤلاء وبينما أنا في هذه الحالة اذ أحاط بي عساكر
السواري الانكليز وقرب الي واحد من ضباطهم وكلمني بالانكليزي فكلمته بالفرنساوي فوضع
الخفر علي وتوجه وعاد ومعه قائد السواري الانكليزية فكلمني بالفرنساوي وسألني عن اسمي فأخبرته
باسمي فأخرج ورقة من جيبه ونظر فيها وقال عرابي ومحمود سامي ومحمود فهمي نعم هذا من أحباب عرابي
ولما كان غروب يوم الخميس وهو يوم الحرب وردالينا بجهة المسخوطة محمود سامي ومعه أمر من
عرابي في توجهه الصالحية ليكون قائد فرقة العساكر بها وبعد أن مكث معي لنصف الليل توجه عائدا
الى القاهرة مع أمين الشمسي

وحرر قائد السواري تلغرافا الى وولسلي بضبطي وأسري فأمره بالمحافظة علي حتى يحضر من
الاسماعيلية الى نواحي المسخوطة ولما حضر أرسلني الى الاسماعيلية مع الخفر اللازم ومنها أنزلوني
مركبا انكليزية حتى وصلت الاسكندرية ونزلت من المركب وتوجهت محاطا بالخفر الى سراي رأس
التين فقابلني عمر لطفي باشا وعلي مبارك باشا واجتمع الجم الغفير للفرجة علي كأني ما كنت معهم ولا
كانوا يعرفوني من قبل فسألني علي مبارك باشا عن بعض استعلامات وفي الحال صدر أمر الخديوي
الى عمر لطفي باشا محافظ الاسكندرية سابقا وناظر الجهادية وقتها بحبسي والمحافظة علي في ديوان محافظة
الاسكندرية فوضعوني في أودة أحكموا بابها وسدوا شبابيكها ووضعوا على بابها اثني عشر من عساكر
الترك والطليان ورتب الخديوي المأكول والمشروب وما يلزم لي من سجاير الدخان أشبه بأسير من
دولة أجنبية في دولة أخرى

وفي يوم وصولي الاسماعيلية وجدت فيها محمد سلطان باشا ومحمد زكي تشريفاتي الخديوي وزهراب
باشا وكثيرا من أركان حرب المصرية مع الانكليز وفي أثناء توجهي من الاسماعيلية الى الاسكندرية
أحضر لي قبطان المركب جريدة باجيبت الفرنساوي فرأيت فيها أن الخديوي حرر الى الحكومة
الانكليزية بكونه يقتلني في حال وصولي الى الاسكندرية فأجابته الحكومة الانكليزية تحذره من ذلك
وقالت له انه هو الآن أسير في يد الحكومة الانكليزية وعند تمام الحرب ينظروا والحذر من حصول
أدنى ضرر له فيلزم المحافظة على دمه وحياته هذا ما وجدته مندرجا بالجريدة فأمنت واطمأن خاطري لاني
كنت معتقدا حقيقة أنه عند وصولي الاسكندرية لابد من قتلي ولكن الله سلم هذا ما جرى وشاهدته
بالتفصيل من أول الحادثة الملقبة بالعرابية الى أن وصلت الاسكندرية وسجنت فيها وفي ١٢ شوال
سنة ١٢٩٩ ورد الى التل أورطتان من آلاي السودان من دمياط وجاء عرابي من كفر الدوار الى
التل الكبير وقام علي فهمي بالاي عابدين ووصل أيضا الى التل وأرسل الى عساكر الصالحية بالتوجه
الى القصاصين والهجوم على الانكليز فيها بالان العساكر الانكليزية بعد هزب العساكر المصرية

أمامهم من المحسمة استمروا في سيرهم حتى وصلوا كوبرى القصاصين وعسكروا فيه فهجم عليهم العساكر المصرية تحت قيادة راشد حسنى باشا وعلى فهمى وفى أثناء هذه الواقعة انجرح راشد باشا وعلى فهمى وتوجها الى القاهرة وانهزمت القوة التى كان أرسلها عرابى أمام الانكليز فى يوم ٢٨ أغسطس وبعد ذلك أخذ الانكليز فى الاستعداد لاجل الهجوم على التل الكبير وكان فيه عرابى وتحت قيادته نحو ٤٠٠٠٠ نفس وفى نفس الليلة التى استعدّ فيها الانكليز للهجوم على التل الكبير كتب على يوسف الى عرابى وكان فى المقدمة يخبره بعدم حركة العدوّ أو قربه من الموقع وانه لايخشى من شئ فقعد عرابى طول الليل مع الفقراء فى الصيوان الذى كان منصوبا بالجلوس فيه ومعه أولاد الشيخ عبد الجواد يذكرون الى آخر النصف الاخير من الليل وعند قرب الفجر ناموا جميعا وما يشعر عرابى الا وقد وفات مدافع الانكليز داخلة فى صيوانه والعساكر هاربة ومبددة فى كل جهة فجاءه على الروبى وقال له انج بنفسك والاقتات فالحق أن يلبس هدومه وركب حصانا وأسرع فى الجرى ومازال مدبرا حتى وصل محطة مينا القمح ونزل فى وابور الركاب وسار الى القاهرة ولبس فى منزله هدومه وتوجه الى ديوان الجهادية وأخبر وكيل الجهادية ومجلس الشورى بهزيمة التل الكبير وفراره وفرار الضباط والعساكر من بعد واقعة استمرت عشرين دقيقة واستولى الانكليز على ما كان فى التل الكبير من ذخائر وأسلحة ومؤنات وغير ذلك من اعانات الامة المصرية وقال للمجلس انه يرغب جمع العساكر ويدافع عن القاهرة فمنعه المجلس من عزمه هذا لئلا يحصل لها كما حصل فى الاسكندرية ولما بلغ طلبه عصمت الموجود فى كفر الدوار قائدا هناك هزيمة التل وفرار عرابى ترك محله وتوجه هو أيضا الى القاهرة هربان لينضم الى عرابى ولما رأت عساكر كفر الدوار هروب قائدهم طلبه تركوا أسلحتهم وذخائرهم فى كفر الدوار وتوجهوا مباشرة الى بلادهم وفى هذه الاثناء وصل عساكر الانكليز الخيالة الى العباسية وكان بها محمد رضا باشا مدبرا للعساكر الموجودين فيها فلما رآهم رفع أمامهم البيارق البيض ولما رأى عرابى ماحل به من الهزيمة وصار لاشئ تحت يده من العساكر والقواد وذهبت سلطنته هرب فى منزل على فهمى مع طلبه عصمت ولما وصل العساكر السوارى واحتلوا ثكنات العباسية خرج اليهم ابراهيم فوزى مأمور ضبطية القاهرة وتقابل مع قائدهم فأمر بحضور عرابى وتسليمه فعاد ابراهيم فوزى مأمور الضبطية وأخذ عرابى ومعه طلبه وتوجهوا الى العباسية وسلم الاثنان سيوفهما الى قائد السوارى وسجن الاثنان فى العباسية وأخبر بالتلغراف القائد ولسلى والقائد محمد سلطان باشا واحتل العساكر الانكليزية قلعة القاهرة وقصر النيل والعباسية ودخل محمد سلطان باشا القاهرة تخفق على رأسه الاعلام الانكليزية وشرع فى حبس الناس ظالما أو مظلوما وتوجه وولسلى الى بنها العسل وحرر تلغرافا الى وكيل الجهادية لمقابلته فيها وأرسل وولسلى العساكر الانكليزية الى كفر الدوار على ظنه أن بها أحدا من العساكر فلم تجد العساكر الانكليزية فيها خلاف الاسلحة والمدافع مرمية على الارض وتوجه الجنرال وود بالعساكر الانكليزية الى دمياط فلم يجد فيها الا عبد العال حلمى بمفرده فأخذه وحبسه فى عربة وأرسله محفوظا عليه الى القاهرة وأمر الخديوى بحبس جميع الضباط الذين كانوا فى كفر الدوار وأبوقير ورشيد فى حبوس الاسكندرية وكذا كل من كان له دخل أو يد من أهل الاسكندرية فى هذه المسئلة صار حبسه فيها وكذا المشبوهون فى الحرائق والسرقات حتى انشحنت سجون الاسكندرية بالمحبوسين ودخل وولسلى القاهرة وأقام فى سراى عابدين وهرعت أهالى القاهرة وعلماؤها وذواتها

وعمد البلاد وأمراؤها الى الاسكندرية يهنئون الخديوى بسلامته ووصل وكيل الجهادية يعقوب سامى الاسكندرية بعد تسليم الاسلحة الموجودة فى كفر الدوار الى الجنرال وود وسجن فى مدرسة الاسكندرية مع على الروبى وكان وصل يهنئ الخديوى فأمر الخديوى بسجنه وكذا صار حبس دانش باشا وشريجى باشا ومحمد كامل باشا وكيل البحرية وأنا نقلت معهم من المحافظة الى المدرسة الاهلية بالاسكندرية وفى هذه الاثناء ورد كثير من الاروام والطليانيين وانسحبوا ضمن الجيش المستجد وكثيرا ما ورد من نواحى ازمير وبر الترك رجال وشبان تشكل منهم الجيش الجديد بعد هرب الجيش القديم الذى كان تحت امرة أحمد عرابى والله المعز المذل سبحانه وتعالى

ثم أصدر الخديوى توفيق باشا أوامره بترتيب حكام المديريات فجاسوا خلال الديار وحبسوا العمد ومشايخ البلاد وأغنياءها واتهموهم بالدخول مع عرابى فكانوا يتخلصون من هذه التهمة بدفع نقود ورشاو وأصدر أمره أيضا بتعيين مجالس فى طنطا والاسكندرية لتحقيق مواد السلب والنهب والحريق والذبح والقتل وأصدرت الداخلية وكانت تحت نظارة رياض باشا منشوراتها الى المديرين والحكام بجهات قبلى وبحرى بارسال كل من وقعت عليه الشبهة فى المسئلة العرابية وفى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ قام الخديوى توفيق باشا من الاسكندرية متوجها الى القاهرة وصحبته شريف باشا والنظار فتوالت جماهير العالم فى محطات السكة الحديد من الاسكندرية الى القاهرة وزينوا المحطات بأنواع الزينات والبيارق لملاقاته وهنؤه بسلامته وحفظه من أعدائه وقابله الجم الغفير فى محطة القاهرة وهنؤه وركب من المحطة متوجها الى سراى الاسماعيلية وعلى شماله ابن ملكة الانكليز وأمامه ماليت وولسلى القائد

وفى ١٥ ذى القعدة سنة ١٢٩٩ الموافق ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ صدر أمر من الخديوى بعقد مجلس تحت رياسة اسماعيل باشا أيوب لتحقيق دعوى كل من كان له يد فى هذه الحوادث فاجتمع المجلس فى ضبطية القاهرة وشرع فى التحقيق وامتلأت سجون القاهرة والاسكندرية ومراكز الاقاليم بالمحبوسين حتى صار احصاؤهم فوجدوا نحوا من تسعة وعشرين ألف نفس وأهدى محمد سلطان باشا الى وولسلى زوجا من الطبنجات مشغولا بالذهب وقال ان مصر الآن تعد فى فتوح جديد وأنعم الخديوى توفيق باشا على محمد سلطان باشا بعشرة آلاف جنيه من ديوان المالية نظير ما عمله معه من المعروف فى جلوسه على الاريكة الخديوية ثانية ولما رأى الانكليز التهور الحاصل من أرباب مجالس التحقيق على الجارى التحقيق معهم وأنهم يكتبون فى تحقيق القضايا حسبما يرغبون عينوا من طرفهم الاميرالاى شارلس ويلسون والويس قنصل بمن من ضمن أرباب المجالس وتعين مجلس آخر عسكرى تحت رياسة محمد رؤف باشا لاجل فصل الحكم فى الدعاوى التى تقدم لهذا المجلس من سائر الجهات وأن تكون أحكامه قطعية لا تستأنف ومجلس آخر عسكرى فى مدينة الاسكندرية تحت رياسة عثمان نجيب الجركسى للحكم فى الدعاوى التى تقدم له من تلك الجهات وأن يكون حكم هذا المجلس قطعيا لا يستأنف أيضا وصدر أمر الخديوى بالغاء الجيش المصرى القديم وانشاء جيش آخر أدخل فيه الضباط الانكليزية وأهدى اليهم النيشانات العثمانية والمجيدية وميدالية مصرية عليها صورة الاهرام وأبو الهول لانهم هم الذين فتحوا مصر ثم صدر أمره بنقل جميع المحابيس أرباب الجرائم الكبيرة وحبسهم فى أودا الدائرة السنية كل واحد على حدته وأرسل أعوانه وحواشيه ومماليك الجراكسة

يهددون المحبوسين ويزعجونهم ويسلبون ما عندهم من المصاحف والنقود كما حصل لى ولغيرى وكانوا يدخلون على عرابى وعبد العال فى أودا الحبس ويضربونهم وأخيراً الاحاجة لشرح ماحصل من الاهانة والضيق وعدم النور بالليل وعدم شرب الدخان وتفتيش الاكل الداخل ورذالة ضباط الخفر والعساكر المحافظين على السجون فيما أجروه من الاعمال الفظيعة والاجراآت القبيحة وما حصل فى مجلس التحقيق من التهور وخلافه

وصدر أمر الخديوى بتعيين مجلس فى الاسكندرية للنظر فى تعويض الخسائر التى حصلت لاهالى الاسكندرية من الحرق والسلب والنهب وحضر اللورد دوفرين سفير الدولة الانكليزية من الاستانة الى القاهرة لرؤية مجالس التحقيق وعدم التعدى ومنع الظلم الحاصل فى مجالس التحقيق ولما وصل الى القاهرة تقابل مع الخديوى توفيق باشا والنظار وتداول معهم طويلا فيما يلزم اجراؤه وفحص بنفسه عن الاجراآت الجارية بمصر وكتب تقريراً عن حالة مصر السياسية والقضائية وأحوال سكان أهل مصر وأرسله الى الحكومة الانكليزية فى ٦ فبراير سنة ١٨٨٣

وقد أرسل المستر بلونت الانكليزى الحر المستر برودلى والمستر نابيير المدافعين المشهورين لاجل المدافعة عن رؤساء الثورة واظهار حقوقهم بمصاريف على طرفه وذلك بعد الحكم من مجلس التحقيق باعدام رؤساء الثورة فلما وصل برودلى القاهرة وتقابل مع اللورد دوفرين أبطل هذا الحكم

ومن بعد أن أظهر المدافعون ما رأوه مع الذمة من تبرئة عرابى ورفقائه من مذبحة الاسكندرية وحريقها حصل الاتفاق على نفى واستبعاد رؤساء الثورة الى جزيرة سيلان بموافقة الدولة الانكليزية وحاز المستر بلونت والمستر برودلى ونابيير الثناء الجميل والشكر الجزيل فى الممالك الشرقية والغربية وفى سائر ممالك الدنيا بما أظهراه من الحق ولما رأى ذلك مصطفى رياض باشا استعفى حالا من نظارة الداخلية فى نظير أنه لم يتقرر حكم الاعدام على زعماء الثورة

وفى ٢١ محرم سنة ١٣٠٠ هجرية أو ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ ميلادية انتهت التحقيقات وصدرت الاحكام على رؤساء الثورة بالنفى المؤبد مدة حياتهم بعيداً عن الديار المصرية وملحقاتها وترتب المعاش الكافى الذى يقوم بحياتنا مادمنا فى الدنيا وعلى قيد الحياة وصدر الحكم على البعض من الضباط الجهادية بالنفى ثلاث سنوات والبعض خمس سنوات وأحمد عبد الغفار ثمانى سنوات فى سوريا وحكم على على الروبى وحسن موسى العقاد بعشرين سنة فى مصوع والآن على الروبى موجود فى سواكن لان ايطاليا تغلبت على مصوع

وهذه صورة الحكم التى صدرت من المجلس العسكرى تحت رياسة محمد رؤف باشا وكان توقيع هذا الحكم بمعرفة المستر برودلى والمستر نابيير الانكليزيين

(أولا) ـ الحكم الصادر على كل من أحمد عرابى وطلبه عصمت وعبد العال حلمى ومحمود سامى وعلى فهمى ومحمود فهمى ويعقوب سامى المقتضى جزاءهم بالقصاص على حسب بند ١٦٥ من القانون الهمايونى العثمانى وقع تبديله بالنفى الى الابد من الاقطار المصرية وملحقاتها

(ثانيا) ـ ان هذا الحكم يبطل ويقع اجراء الحكم بالقتل اذا عادوا الى الاقطار المصرية أو ملحقاتها

(ثالثا) ـ يجب على كل من ناظر بحريتنا وداخليتنا تنفيذ هذا الحكم

ومن بعد صدور هذا الامر أصدر الخديوى توفيق باشا أمراً بضبط أملاكنا وعقاراتنا نظير الراتب

الذى تعين لنا سنويا فى دارمنفانا وفى ١٦ صفر سنة ١٣٠٠ هجرية أو ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٨٢ ميلادية قمنا نحن السبعة مع عائلاتنا وأولادنا وما أمكننا حمله من أمتعتنا فى قطار مخصوص مع محافظين من الضباط والعساكر الانكليزية وكذا من الضباط والعساكر المصرية ومعنا المستر برودلى والمستر نابيير الساعة ٩ ليلا من قصر النيل متوجهين مع السلامة الى السويس وفيها نزلنا فى باخرة مخصوصة على طرف الحكومة المصرية كانت أعدت لسفرنا الى سيلان فنزلنا فيها وعاد المستر برودلى مع نابيير الى القاهرة وصحبنا التوصيل لنا موريس بك محافظ سواحل البحر الابيض فى مصالح تهريب بضائع الدخان وعشرون عسكريا من الحكومة المصرية وواحد قبودان صاغقول أغاسى اسمه على قبودان كريدلى وقمنا من السويس فى يوم ٢٨ ديسمبر ومازلنا فى سرور وانبساط مع موريس بك حتى دخلنا العصر مينة سيلان فى أول يوم من ربيع أول سنة ١٣٠٠ هجرية أو ١٠ يناير سنة ١٨٨٣ ميلادية فحضر فى الوابورات وكيل حكومة سيلان المستر دغلاس لان الحاكم كان فى داخلية البلاد وهنأنا بالسلامة وكذا أرباب الجرائد وهرع الينا مسلمو جزيرة سيلان كبارها وصغارها وكانت الحكومة الانكليزية أصدرت أمرها لحكومة سيلان باستعداد منازل لسكناها وخزن فيها كل ما يلزم للاكل والشرب ضيافة ثلاثة أيام والمساكن مستعدة بفروشاتها وأمتعتها لمدة ثلاثة شهور ايجارها وما فيها من المصاريف على طرف الحكومة المصرية وبتنا فى الوابور ووزع موريس بك المنازل علينا حسب العائلات فكان عرابى وطلبة وعبد العال فى منزل ومحمود سامى ومحمود فهمى فى منزل ويعقوب سامى فى منزل وعلى فهمى فى منزل وفى صبح ثانى يوم هرع أهل سيلان الى المينا من داخل البلاد مسلمين وسنهاليز وبورتكيز وداتش وانكليز وتل لاجل الفرجة علينا ومعهم الموز والمياه والعيش وأصناف المأكولات وجوز الهند وصار مسلمو سيلان يتبركون بنا وأهلوا كثيرا ورحبوا طويلا بالواردين عليهم ثم صار استعداد عربات الركوب وتوجه كل منا فى المنزل الذى تخصص له ولعائلته وتوجه موريس بك لزيارة الحاكم فى داخل البلاد وحضر الحاكم وتوجهنا جميعا مع موريس بك وتقابلنا معه وسلم علينا وكنا من الشاكرين لافضاله وكان الحاكم فى هذا الوقت السيرآرثر لندن فقال أنتم فى ضيافة الحكومة ثلاثة أيام والمساكن القاطنون أنتم بها لمدة ثلاثة شهور على طرف الحكومة ومن بعد مضى الثلاثة شهور تكونون مثل أمراء الانكليز القاطنين فى الجزيرة تسكنون فى مساكن على طرفكم وتكونون حرين فى أنفسكم ثم سلمنا عليه وتوجه كل منا لمنزله

ثم شرعنا فى تعلم اللغة الانكليزية وأرسلنا أولادنا المكاتب والمدارس بسيلان باذن من الحكومة لاجل التعليم والتهذيب وقراءة العلوم الجارى تعليمها فى مدارس سيلان واستمر مسلمو سيلان يهرعون الى منازلنا ويسألون عن خاطرنا معتقدين أننا حضرنا فى بلادهم منفيين بصناديق ملآنة بالاموال والنقود وجلس عرابى فى المنزل الذى تخصص به من طرف الحكومة مع طلبه وعبد العال مع ابنه وامرأتا بنيه مكتوبة الكتاب ومعها جاريتان معدتان لخدمتها احداهن طباخة والاخرى خادمة فتزوجهما عرابى وخلف منهما فسقط لاجل ذلك من أعين كل من طلبه وعبد العال وحصل بين طلبه عصمت وبين عرابى مبادى الشقاق والخصام بسبب ما يأتى به مسلمو سيلان من الهدايا لعرابى ولم يقاسم فيه عبد العال وطلبه ودخل طلبه فى الدسائس والفتن بين عرابى وبين يعقوب سامى وعلى فهمى حتى تنازعوا معه وتخاصموا فيما بينهم وادعى عرابى الشرف وانه من نسل الحسين بن على

ابن أبي طالب كرم الله وجهه عندما رأى أن مسلمي سيلان يعتبرون السادة الاشراف في بلادهم وشرع عرابي في التوجه الى المساجد في يوم الجمعة لصلاة الجمعة صورة لاجل أن المسلمين يبوسون يده و يتبركون به وصار في حالة مثل فقهاء الارياف في مصر وأرباب الطرق الدجالين وكل من ورد من مسافري أوستراليا وأمريقه والبلاد الاخرى يتوجهون لزيارته ولما تمت مدة الثلاثة شهور ونحن في المساكن التي كانت الحكومة أعدتها لنا أخذ كل منا منزلا على حدته وسكن فيه بعائلته وحصل بين عرابي وبين طلبه وعبد العال نزاع وخصام في قسمة مفروشات المنزل الذي نزلوا فيه أدت الى المشاتمة والسب بين عرابي وطلبه فأخذ طلبه وعبد العال جميع استعدادات المنزل وبقي عرابي على البلاط لولا أن تداركه بعض من مسلمي كلمبو واشترواله من عندهم بعض كراسي وأسرة وطربيزات أعدتها المنزل سكنه واستولد من جاريتي امرأة ابنه أولادا ومازلن تحته لحد الآن ومعهن ثمانية أولاد صغار خلاف الذين توفوا واستمر المنفيون في شقاق وخصام بينهم لحد الآن واليوم وهو يوم ٢٥ يوليو سنة ١٨٩١ ميلادية وذلك من عدم اشتغالهم بشيء أبدا وفي سنة ١٨٩٠ انتقل محمود سامي بعائلته بعد أن تزوج بكريمة يعقوب سامي الى مدينة كندي وترك كلمبو لعرابي ومن معه من الخصام والشقاق ومن بعدها ببضع شهور تبعه يعقوب سامي وتوجه وقطن كندي أيضا وهي على مسافة ٧٤ ميلا بطريق السكة الحديد من كلمبو

وفي أول شهر اكتوبر سنة ١٨٨٣ وردت الاخبار لعرابي في كلمبو من الصابونجي بأن المستر بلونت الحر المدافع عن الشرقيين حاضر من لوندره لاجل زيارتك ورؤية ما أنت عليه من الحالة في العيشة والرفاهية وانه لم يزل شارعا ومتوجهة أفكاره في خلاصك من النفي ولا يغفل حتى يجلسك على الاريكة الخديوية ويلزم أن تستعد لمقابلته والاحتفال به وكان قبل ذلك وردت تلغرافات لعرابي من بلونت يقول له أتحب أن تكون وصيا في الحكومة المصرية على ابن الخديوي توفيق باشا بعد عزل أبيه وتوليته الخديوية المصرية فأجابه عرابي تلغرافيا نعم أحب ذلك ثم ورد بعدها أتحب أن تعيش في مصر تحت وزارة نوبار باشا فقال لا مانع من ذلك وظن عرابي أن كل ذلك صحيح وأخذ يشرع في ترتيب الحكومة المصرية وادارتها ومن المستعد للحكم في هذه الوظيفة وصار له أحوال مثل المجانين وأشاع ذلك عند مسلمي كلمبو وأخبرهم بما يراه من المنامات وأن النبي صلى الله عليه وسلم وعده في المنام بتوليته الاريكة المصرية ونصره على أعدائه كما كان يدعيها قبل في مصر فيدرجونها في جرائدهم التمل ولما تناول الجواب المحضر من الصابونجي أخذه وأسرع في الحال وسار الى منزل محمود سامي وأطلعه على الجواب وأرسلوا الى الثلاثة الباقين واجتمع الستة سوية ورتبهم عرابي في المصالح المصرية والوظائف الخديوية وصار هو في المنام خديوي مصر بدل الخديوي توفيق باشا وأنا لما نظرت الشقاق الواقع بينهم من الابتداء تجنبتهم جميعا واعتكفت على تعليم أولادي في المدارس الانكليزية وكذا تعليم نفسي اللغة الانكليزية ولغات التمل والسنهالي والهندوستاني وتفسير ذلك أني ما تداخلت معهم في مشاجراتهم ومخاصماتهم بل الى لحد الآن وأنا في حيادة عنهم كما سيأتي ذكره ثم أخذوا في الاستعدادات اللازمة وجعلوا المنزل سكن محمود سامي مستعدا لنزول المستر بلونت وحرمه والصابونجي وفي يوم ١٨ اكتوبر سنة ١٨٨٣ وصل المستر بلونت الى مينة كلمبو وكان وقت الغروب فبات في الوابور ليلة ١٩ وخرج الصابونجي ليلا وتوجه الى منزل عرابي راكبا في عربة ومن بعد أن سلم

عليه جلس وشرع الاثنان يتحدثان فى الثورة ووعده الصابونجى مواعيد عرقوب وأخذ عرابى يشكو للصابونجى ماناله وما أصابه من طلبه وعلى فهمى ويعقوب سامى وكان انضم اليه محمود سامى بدسائس طلبه فقال له الصابونجى هكذا حالة رؤساء أى ثورة لايحصل بينهم ان سلموا منها الا الشقاق والنزاع وتوجه الصابونجى من عند عرابى فى الصباح وقام عرابى والاخرون وتوجهوا الى المينة واحتفلوا بنزول المستربلونت وكانوا محمود سامى فى صرف المصاريف على طرفهم ونزل المستربلونت وحرمه والصابونجى فى المنزل سكن محمود سامى ولما رأى الصابونجى من محمود سامى الاكرام الزائد فى حقه التحم معه وترك عرابى وأخبر محمود سامى وطلبه وعلى فهمى ويعقوب بما قاله عرابى فى حقهم من القدح والذم وشرعوا جميعا فى تاريخ عرابى وألفوا فى حقه تاريخا قبيحا نشره الصابونجى فى جريدته المسماة بالنحلة وأخذ يقدح فى عرابى وأرسل منه نسخا جمة الى سيلان ومكث المستربلونت أحدا وعشرين يوما فى كلمبو وفى ١٢ نوفمبر سنة ١٨٨٣ سافر من كلمبو متوجها الى الهند وترك فى كلمبو الصابونجى وازداد الخصام والنزاع بين المنفيين وبين عرابى حتى انهم جميعا تجنبوه وصار هو وابنه بمعزل عنهم وفى أثناء ذلك أشاع طلبه وعلى فهمى وعبد العال أن قصد عرابى فى مصر لم يكن لاصلاح البلاد ولا المساواة بل كان قصده الاكبر أن يتولى الخديوية وانه اتفق مع حسن موسى العقاد وأخذ من وكيل اسمعيل باشا فى مصر حوالة على أحد البنوكة بأربعين ألف جنيه وكذا أخذ من عثمان باشا وكيل دائرة زينب هانم بنت محمد على مبلغا خمسة وعشرين ألف جنيه لاجل تولية البرنس حليم أريكة الخديوية بمصر وأخذ من الست فلانة كذا ومن فلان الذى رتبه مديرا كذا ومن الصيرفى كذا ومن ابراهيم السعودى الجيزاوى الذى رتبه مدير بنى سويف كذا وهكذا . . . . وكان قصده الاستبداد وأن ينشئ حكومة وسلطنة عربية يكون هو سلطانها وكان عنده فى منزله مغاربة يعدونه ويمنونه ويقرؤن له الاحزاب والاوراد لينال بها مرغوبه وهكذا فلما بلغنى هذا كله ورأيت ماعليه عرابى من الجهل وماهو الاجاهل فقير ريفى من أصحاب الطرق الدجالين حمدت رب العالمين الذى لم يبلغ هؤلاء نواياهم ونفاهم وطردهم من البلاد وأراح منهم الارض والعباد وقام الصابونجى من سيلان وتلاقى مع المستربلونت فى الهند وذم وقدح فى عرابى وحصل بين الاثنين مشاحنة أدت الى الخصام الى الآن وكانت تكاليف مدة مكوث المستربلونت الاحد وعشرين يوما فى كلمبو عبارة عن ٢٠٠٠ روبية فتخصصت علينا نحن السبعة ودفع كل منا ماخصه ولما رأى أهل سيلان الحالة التى عليها المنفيون من الخصام والقدح فى حق بعضهم تركوهم وابعدوا عنهم حتى صار لايزور أحدمنهم واحدا من المنفيين ولما رأى عرابى تباعد أهل سيلان عنه وانقطع نفعهم عنه أراد أن يعمل طريقة يخرج بها من سيلان ويبعد عن الذين عرفوا كذبه فكان كلما زاره أحد من السياحين من أهل أوستراليا المتوجهين لتغيير الهواء فى انكلترة وسأله عن صحته فى سيلان وكيف حال المناخ يقول أناعيان وسقيم ومناخ سيلان غير موافق لى فيدرجون ذلك فى وقائع الاخبار الانكليزية حتى زاره واحد من أغنياء الانكليز من الذين لهم جفالك والتزامات وأراض مزروعة بالشاى والبن اسمه لبتن وقال له بلغنى أنك عيان وأن هواء كلمبو غير موافق لصحتك فتمارض عرابى أمامه وقال له نعم فقال له ان كان الامر كذلك فيقتضى أن تتوجه الى محلاتى بجهات جبال كندى فان الهواء فيها معتدل وتقيم شهرا أو شهرين حتى تعود اليك صحتك وها أنا أحرر لوكلائى بمقابلتهم اياك وجميع المصاريف ذهابا وايابا وقعادا على طرفى فلما سمع عرابى ذلك شكره على مروءته وصح المثل

سيدى

سيدى بندق ماصدق وتوجه عرابي وعلى فهمى ومحمد بن عرابي الى محل هذا الرجل الانكليزى يأكلون ويرتعون ويلعبون مدة أحد وعشرين يوما وعادوا وكانت المصاريف عموما على طرف صاحب المحل فلما عاد عرابي حلف قسما بالله ان لم تكن المصاريف التى صرفت عليهم ألف جنيه فهى أزيد ولا أقل من ألف جنيه وتوجه ووزن نفسه فكان وزنه مائتين وخمسة وعشرين رطلا ثم لبث فى منزله الذى قال فى حقه أحد مكاتبى الانكليز كيف يكون لعرابي صحة ومنزله عبارة عن زريبة ومربط خنازير فوهن وضعفت قوته من عدم الاكل الطيب مثل أقرانه فكتب جوابا الى لبتن بقصد تغيير الهواء فأذن له وحرر الى وكلائه وتوجه عرابي مع ابنه وامرأة ابنه وأولاد ابنه وترك أولاده من الجوار معهن فى المنزل سكنه بكامبو وسار الى جهة أخرى من أرض لبتن ولبث فيها أحدا وثلاثين يوما أى شهرا كاملا ثم عاد بعد أن كلف الرجل الانكليزى من الصرف الخارق للعادة ما يفوق الحد ومازال على ذلك حتى وصل صديقه السير وليم جريجورى فى سيلان فى سنة ١٨٩١ لاجل رؤية أملاكه فى سيلان وكان هذا حاكم سيلان من مدة مضى سنين وله صداقة مع عرابي ومعرفة بالمنفيين (الآنا) ونزل جريجورى فى منزل الحاكم المسمى بيت الملكة وكان الحاكم وقتئذ السير آرثر غوردون فلما بلغ طلبه وعبد العال خبر حضور جريجورى أسرع الاثنان لمقابلته واجتمعا به فى بيت الملكة وبعد لحظة حضر عندهم عرابي ومحمد ابنه وجلس الجميع بعد السلام يتحدثون وشرع جريجورى يسألهم عن صحتهم فأجابه طلبه نحن جميعا فى غاية العياء والمرض نحن وأولادنا وعائلاتنا وكان ذلك القول من أجل مرغوب عرابي لانه محتاج لابعد عن سيلان وأهلها فصادق عليه عرابي وقال ان مناخ سيلان علينا رطب وطقسها مضر بصحتنا فقال جريجورى (هذا قول طلبه) أتحبون التوجه الى بلادكم فقال عرابي نعم فقال جريجورى وان لم ترض الحكومة أترغبون التوجه الى جزيرة قبرص فقال عرابي ان تعسرت مصر تكون قبرص بعدها فقال جريجورى يكون ذلك وسأبذل جهدى وأسعى فى ذلك وقام وقاموا وتوجه كل منهم الى منزله فأسرع طلبه (ولو أنه لم يعرف ولم يدر القراءة والكتابة الانكليزية فضلا عن عدم درايته باللغة العربية قراءة وكتابة) وترجى أحد معارفه من البورتكيز فى كونه يكتب مكتوبا عن لسانه يتشكر لجريجورى فيما قدمه لهم من الوعد بتوجههم الى بلادهم وأنه هو وحرمه يدعون له ويثنون عليه وأرسل الجواب الى جريجورى فكتب جريجورى جوابا ردا على مكتوب طلبه الى عرابي يقول له استلمت جوابا من طلبه عصمت يذكر فيه أن جميع المنفيين عيانون وهواء سيلان غير موافق لصحتهم فان كان ولابد من ذلك فاجتمع مع اخوانك جميعا وحرروا عريضة من طرفكم الى الحكومة بانكم عيانون ومناخ سيلان غير موافق لصحتكم وارفقوا معها شهادات طبية تثبت أقوالكم وقدموها لحاكم سيلان وأنا أسعى وأجتهد فى عودكم الى بلادكم أو الى جزيرة قبرص ولزوما أن أسودلكم هذه العريضة ومن بعد الاقرار عليها منكم ومن اخوانكم يجرى اللازم عنها باجتهادى ففرح عرابي وأسرع فى التوجه الى منازل المنفيين وتوجه كندى لمقابلة محمود سامى ويعقوب سامى يبشر الجميع بتوجههم حالا الى مصر حسب وعد جريجورى ماعدا أنا فانه لم يأت منزلى لانى متجنبه ومن صحبه من مدة سنين مضت والحاصل أنه صار كتابة هذه العريضة وأرفقوها بشهادات طبية استحصلوا عليها من حكماء سيلان وأرسلوها بمعرفة جريجورى الى الحاكم وقام جريجورى من سيلان متوجها الى لوندره ليصل اليها قبل وصول العريضة ويسعى عند المار كيز سلسبورى بواسطة محبيه فى عود

المنفيين الى بلادهم ولما أرسل الحاكم هذه العريضة بشرح منه الى لوندرا اعتقد عبد العال وطلبه وعرابى ان أمر العود انتهى وصاروا يجهزون أنفسهم للسفر وصاروا فيما بينهم فى ثورة أصلها طلبه وعرابى وعبد العال ولما تناول الماركيز سلسبورى هذه العريضة المقدمة من منفيى سيلان بواسطة حاكمها كتب عليها الى القنصل افلن بارينج نائب الحكومة الانكليزية فى مصر لينظر فيها ويخابر الحكومة عن مفعولها فاعتذر عن رياض باشا أن الحكومة المصرية لا تقبل فى الحال ولا فى الاستقبال هؤلاء المنفيين مادام الخديوى الحالى موجودا على الاريكة المصرية وكذا قال الخديوى انه لا يمكنه قبول المنفيين فى مصر وملحقاتها أبدا وان قبولهم يتسبب منه الضرر وحصول الاختلال فى ادارة الحكومة والارتباك والفساد فحرر بذلك افلن بارينج الى حكومته وكتب مكتوبا الى جريجورى يقول فيه ان الحكومة المصرية ليست راضية بقبول منفيى سيلان مطلقا وأنا على رأى عدم المنفعة فى وجودهم فى مصر فحرر جريجورى وحرم بلونت وحرم جريجورى الى عرابى بانهم جميعا متأسفون على خيبة مسعاهم وعدم رضا الحكومة المصرية بقبول المنفيين ومع كل هذا فان جريجورى بذل جهده فى نقلكم الى جزيرة قبرص فحبط سعى طلبه وعرابى وخمدت ثورتهما فى ذلك ولما وصل جواب السير افلن بارينج الى الماركيز سلسبورى كتب خطابا الى حاكم سيلان يأمره بعقد مجلس طبى من أطباء الحكومة للكشف عن صحة المنفيين وتحرير تقرير طبى عما يرى من حالتهم الراهنة فأصدر الحاكم أمره الى رئيس الاطباء الدوكتور كنزى بعقد مجلس طبى مؤلف منه ومن اثنين من كبار الاطباء واحد ملكى وواحد جهادى وتحرر انا مكاتيب بذلك وتوجهنا جميعا بعد أن حضر محمود سامى ويعقوب سامى من كندى وشرعوا فى الفحص وبقيت أنا فى آخر الكشف فلما دخلت مجلس الفحص قلت ليس بى أدنى عياء ولا مرض وأنا متمتع بصحتى فى سيلان ومناخها موافقنى ولا أرغب تركها ولا الانتقال منها الى جهة أخرى وعلى الخصوص الديار المصرية وأنا ما قدمت شهادة طبية يستدل منها على انى عيان أو بى شئ وخرجت من المجلس وتوجه كل منا الى منزله وبعد تمام هذا القرار أرسله الحاكم من عنده الى الماركيز سلسبورى وفى آخر سنة ١٨٩٠ ورد من الحكومة الانكليزية لحاكم سيلان كتابة مضمونها علم من تقرير المجلس الطبى أن هواء مناخ سيلان ليس مضرا بصحة المنفيين وأن الحكومة الانكليزية لا تجبر الحكومة المصرية على قبولهم ويتعسر على الحكومة الانكليزية نقلهم لجهة ما واذا أراد أحد منهم تغيير الهواء فى نفس الجزيرة فلا مانع وحرر والهم اعلانا بذلك ولما ورد هذا الامر للحاكم حرر لكل من المنفيين بذلك وقطع عرابى واخوانه الامل وكان يوما مكدرا على عبد العال وطلبه وباقى المنفيين

ولما رأى حرم طلبه وعبد العال ذلك عزموا على التوجه الى المحروسة وسافر حرم طلبه وحرم عبد العال وابنه وامرأة ابنه فى ١٥ يناير سنة ١٨٩١ الى مصر وتركوا عبد العال بمفرده فى المنزل فاستمر عبد العال يقاسى سكرات الفكر وليس عنده ولا فى يده شئ يشتغل به ويضيع أوقاته فيه وكان من مدة سنتين مضت عيان بالحمى التيفوسية فمن شدة أفكاره ووحدته فى المنزل وعدم الاشتغال بشئ مات فجأة فى يوم ١٩ مارث سنة ١٨٩١ ولما بلغنا الخبر توجهنا جميعا وكان علينا يوما شديد الحزن والاسف وهيأنا اللازم له ودفناه فى مدافن المسلمين وفى ١٥ يوليه سنة ١٨٩١ وصل ابنه السيد حلمى فى كلمبو لاجل استلام تركة أبيه ومخلفاته ونزل فى المنزل عند طلبه عصمت وكان

حضور

حضوره مع حرم طلبه أيضا

ثم توالت الايام حتى وصل فى كلمبو من جهة لوندره شاب انكليزى ابن واحد ارل اسمه دلاور من ضمن مجلس اللوردات فى لوندره و زار عرابى وسأله عن صحته وعن هواء سيلان فأخبره عرابى بانه سقيم وأنه متحمل آلام رطوبة طقس هذه البلاد وأن الحكومة الانكليزية ليس لها رغبة فى نقلنا الى جهة أخرى أجف من هذا الاقليم وانه مات أحد اخوانى من رداءة طقس هذه البلاد فاسف هذا الشاب من كلام عرابى ولما عاد الى لوندره قص على أبيه ما رآه وما سمعه من عرابى فتمكن الغضب من الارل وقام خطيبا فى مجلس اللوردات مرارا عديدة يعرض ما عليه عرابى ورفقاؤه وموت عبد العال حلمى من الحالة الرديئة الموجود فيها المنفيون و يحض مجلس اللوردات على عودهم الى بلادهم فاجابه سلسبورى بان الحكومة المصرية ليست راضية بقبولهم والمجلس الطبى الذى صار عقده للكشف عنهم قرر بان هواء سيلان غير مضر بصحتهم فقال الارل لماذا تقبل الحكومة الانكليزية تقرير ما قاله المجلس الطبى ولم تعتمد الشهادات الطبية الواردة مع عريضة المنفيين مع أن محرريها من أكبر حكماء المستعمرة فان كانت الحكومة المصرية ليست راضية بقبولهم فتعمل الحكومة الانكليزية اجرآتها فى نقلهم الى محل أجف من سيلان والا فما هو الغرض الاصلى من موت هؤلاء المنفيين فطيس فى رطوبة سيلان فاقر سلسبورى على نقل المنفيين وكذا ناظر خارجية انكلتره فرجسون الى محل أجف من سيلان وحرر الماركيز سلسبورى باعادة عقد مجلس طبى ثان مركب من خمسة أطباء فعملوا فحصهم وقرروا تقريرهم وأرسله الحاكم الى لوندره ولما رأيت أنا ما بالجرائد الانكليزية والتلغرافات اليومية اقرار سالسبورى وناظر خارجية لوندره بنقل المنفيين الى جهة غير سيلان نشرت فى الجرائد المحلية بانى لست مريضا ولا أرغب فى الانتقال الى جهة أخرى خلاف سيلان وانى متمتع بصحتى فى مناخ سيلان ولحد يوم ٢٥ يوليه سنة ١٩٨١ انتظر المنفيون ما تؤول اليه حالة نقلهم وهذا ما وقع لغاية هذا اليوم من الشهر

وأشتغل الآن بدرج وتسجيل الاحوال السودانية بما أنها كانت تابعة للحكومة المصرية ولغاية هذا اليوم أنا على حيادة من المنفيين

(الحركات السودانيه والوقائع النوبيه)

الى حد الحملات الحربية الاخيرة التى شرعت فيها الدولة الانكليزية فى الجهات العريضة الشاسعة المعروفة عموما بالنوبة والسودان كان الموقع الحالى لهذه الاراضى غير معروف عند الامة الانكليزية معرفة تامة حتى كان لا يجيب عن سؤال ما هو السودان ولا أين السودان الا القليل جدا منهم وان الامة الانكليزية ما كانوا يظنون السودان الا صحراء غير قابلة للزراعة وفى الحقيقة هى صحارى شاسعة يكثر سقوط الامطار بها و يجعل جهات كثيرة منها على غاية من الخصوبة والعمارية بالسكان كما وأن السودان يشتمل على بوادو صحار شاسعة وقفار رملية محرقة مثل الصحارى النوبية وصحارى برقة وجهات كسلة وصحار أخرى ومن ثم يكون السودان عموما هو الصحارى الكبيرة من الاراضى التى تسقى بمياه بحر النيل ومحدودة بالحبش والبحر الاحمر وصحارى برقة والبادية الكبرى وتشتمل على مجرى النيل جميعه من ابتداء منبعه من بحيرة نيانزا الكبرى الى مدخله فى اسوان وطول ذلك ينوف عن ألف ميل انكليزى الا أن بين الاقليم الاسفل للنيل وهو مصر و بين بعض أراض خصبة

محصورة فى بضع درجات من درجات العرض الشمالى الحاصرة للسودان الجنوبى الموجود فى شمال خط الاستواء توجد صحار وبوادر رملية محرقة شاسعة الاطراف والاكناف يصعب منها الوصول جدا من السودان الشمالى الى السودان الجنوبى وعاصمة هذا السودان مدينة الخرطوم وهى واقعة فى نقطة اجتماع النيل الازرق مع النيل الابيض وكذا توجد مدن أخرى مشهورة مثل شندى وبربر ومينى مصوع وسواكن ومن المعلوم أنه توجد فى هذه الاراضى العريضة والبوادى الواسعة التى أضافها محمد على باشا فى الزمن السابق الى المملكة المصرية أمم مختلفة الجنس وقبائل متباينة الهيئة الأن اللسان العربى هو اللسان المتسلطن فى هذه الجهات عموما ماعدا جهات قليلة من السودان الاعلى وأن قبائل وعشائر هذه الجهات فى عيشة ترعوية غالبهم رحالة نزالة وبالنظر لاتساع الصحارى والقفار لاتوجد طرق منظومة تصل بين الجهات الخصبة السودانية وبين بعضها وكانت تجارة الرقيق والسن والصمغ وريش النعام والجلود هى تجارة تلك النواحى الأن تجارة الرقيق كانت هى الاكثر تسلطنا فى هذه الصحارى الشاسعة ولما تولى غوردون باشا زمام حكومة السودان من طرف الخديوى اسمعيل باشا وكان الخديوى هذا دخل فى معاهدة مع الحكومة الانكليزية بقطع دابر هذه التجارة اجتهد وبذل مافى طاقته فى ازالة الرق والعبودية وتعهد غوردون باستتباب الحرية وقطع تجارة الرقيق من الاقطار السودانية وكان غوردون فى مبادى حكمه ضعيف الشوكة لاقوة له على تدمير هذه التجارة مرة واحدة فاجتهد على التدريج شيأ فشيأ فى علو وزيادة سلطته وشوكته فى منع تجارة الرقيق وعلى الخصوص لما اجتمع بسموبل بيكر فانه أخذ نار مقاومة تجارة الرقيق وساعدته على ذلك الحكومة المصرية فى كونها رتبت محافظين فى أبواب الدروب الموصلة الى نواحيها من الجهات السودانية لاجل ضبط جميع التجارات الواردة بالرقيق من السودان وتوقيع العقوبات الشديدة على تجارها مع الاستيلاء على مامعهم من الرقيق ومازال غوردون مكبا على مساعيه حتى محق هذه التجارة تقريبا من السودان ولما استعفى غوردون من حكومة السودان فى أواخر سنة ١٢٩٦ هجرية أو سنة ١٨٧٩ ميلادية وتعين محمد رؤف باشا فى مكانه انفك شغل غوردون وانحلت عقده واجرا آته حتى فشل السودان وخرج أخيرا عن طاعة الحكومة المصرية وصار لاهله شوكة قوية وسلطنة سنية تحت قيادة محمد أحمد الملقب بالمهدى

وذلك أنه ظهر فى رمضان من سنة ١٢٩٨ هجرية الموافق أول أغسطس سنة ١٨٨١ ميلادية رجل نوبى المنشأ باسل الهمة مقدام فى جسارته وشجاعته حازم الرأى ذكى العقل على غاية من التدبير اسمه محمد أحمد ولقب نفسه بالمهدى أو محيى الدين الاسلامى وهو رجل درويش من أهل البلاد كان أبوه نجارا فى الخرطوم ومع ان محمد أحمد هذا كان نجارا أيضا فى صنعة أبيه الا أنه كان ملتزما صنعة الدروشة واعطاء العهود وصار صاحب طريقة مثل أصحاب الطرق الموجودين فى الاقاليم المصرية فشرع فى اعطاء العهود وتربية المريدين فلما تعب من صنعة النجارة تركها والتزم صنعة الطريقة لانها أسهل له وانتقل وسكن فى قرية بالقرب من الخرطوم أى فى جزيرة أبا وعمل له فيها زاوية واجتمع حوله المريدون وصار له نقباء ودراويش واشتهر اسمه وعلا قدره فى العفة والقناعة والزهد فأغدقت عليه الدنيا بحذافيرها واثرتم وصار كثير الاموال والزوجات وصار بهذه الطريقة الجارى عليها يتداخل شيأ فشيأ وهو سائر على قدم العفة والزهد والتنسك حتى استحوذ على سلطة وسيادة كبيرة بين الاهالى

حتى

حتى خضعوا الديه هم وأولادهم ونساؤهم وبناتهم ولما رأى بعض مبغضيه ماهو عليه من الحالة وشى في حقه الى رؤف باشا حاكم عوم السودان وقال له ان لم تمنع هذا الرجل والاعادنه مضار على الحكومة فأوجس رؤف في نفسه خيفة وعين بعض عساكر ومعاونين للتوجه الى هذا الرجل وجلبه ومحنه وانقاد حياته فلما وصلوا اليه تقدم واحد من معاوني الحكمدارية وقال له ان الحكمدار يطلبك للتوجه اليه فقال ومالي والحكمدار أنا رجل فقير ولا يعرفني ولا أعرفه فأعاد اليه القول وفي أثناء استعداده للتوجه للحكمدار في عاصمة الخرطوم قال له أحد معاوني الحكمدارية وكان من أقارب موسى العقاد في السر لا تتوجه ياسيدنا لان الحكمدار عازم على الاغتيال بك فعاد وعزم على عدم التوجه فقال واحد من ضباط العسكرية الحكمدار على وجه السرعة في طلبك ياشيخ محمد فقال له لا أتوجه اليه ولا أعرفه فأعاد القول بشماخة فعارضه أحد نقباء الشيخ فأخرج الضابط طبنجة وضرب بها النقيب في الحال فقال الشيخ محمد أحمد يا أولادا قتلوا أعداء الله فقام النقباء والمريدون جميعا على المرسلين بالنبابيت والحراب ومزقوهم الا قليلا لاهربوا مسرعين وتوجهوا الى الخرطوم وأعلموا الحكمدار محمد رؤف باشا ثم أرسل له رؤف باشا ثانيا نحوا من ثلاثمائة مقاتل في وابورين من وابورات الحكومة فضربهم وكسرهم وشتت شملهم وادعى المهدوية وكتب مكاتيب الى القبائل والعشائر السودانية يخبرهم بانه هو المهدي المنتظر وانه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وبشره بهذه البشارة وأجلسه على كرسيه وأوصاه بالدين ووعده النصر المبين

ومن ثم تبعه عالم كثير وانضم اليه مالا يحصى من رجال القبائل والعشائر السودانية ومن الجلابة بياعي الرقيق فأرسل محمد رؤف حاكم السودان قوة كبيرة لاجل اخماد هذه الزوبعة الرملية التي طارت في وسط الصحاري السودانية فثبت المهدي وأتباعه وأوقعوا بهذه القوة وأذاقوهم الويل وشتتوهم وبعث محمد سعيد باشا مدير كردفان جيشا كبيرا يقتفي أثره لانه كان سار الى نواحي جبل الغور على بحر الغزال من شمال فشوده على البحر الابيض يستنجد بأهله فهزم الجيش الذي أرسله محمد سعيد باشا ثم جرد اليه راشد بك مدير فشوده تجريدة وقاتله وكانت نتيجة هذه الواقعة قتل راشد بك وتشتت عساكره واستحوذ المهدي على كل ما كان معهم من أسلحة وذخائر وانتشر أتباع المهدي المعروفون بالدراويش بين القبائل والعشائر السودانية يحثونهم على الجهاد في سبيل الله وأرسل المهدي مكاتيبه الى القبائل يبشرهم بالنصر على أعداء الله الكافرين وفي سنة ١٨٨٢ هزم العساكر المصرية شر هزيمة تحت قيادة يوسف باشا ورقص الدراويش وطاب لهم الوقت وساقوا في الهجوم وتمتعوا بالنصر ومازالت الفتنة تقوى وتنتشر حتى انه في نفس هذه السنة وكان محمود سامي باشا رئيس الوزارة وعرابي ناظر الجهادية استقدم رؤف باشا من السودان وتعين مكانه عبد القادر حلمي باشا متقلدا زمام أحكام الحكومة السودانية وتجمعت أتباع المهدي جماعات تحت قيادة رؤساء منهم وصاروا يغيرون على جهات سنار وكردفان حتى أزعجوا مديريات السودان الواقعة فوق الخرطوم الجاري فيها كل من النيل الابيض والنيل الازرق ومازالت أتباع المهدي تأخذ في الزيادة مثل الرمل حتى فازوا بالنصر والظفر بهذه الاحوال على العساكر الانكليزية والاسترليانية وبددوا شملهم وطردوهم من أقاليمهم

وفي شوال من سنة ١٢٩٩ أو سنة ١٨٨٢ نزل المهدي الى العبيد عاصمة كردفان وكان في رأس ٦٠٠٠٠ نفس من أتباعه وكان محافظ هذه المدينة نحوا من ستة آلاف مقاتل واثني عشر مدفعا

فصدّ هجومه عنها محافظوها مرتين وأخيرا حاصرها وضيق عليها حتى ظفر بها وتغلب عليها فى فصل الربيع سنة ١٨٨٣ وجعل مدينة العبيد مقره ومحل ملكه وانضم اليه أهلها ومن جاورهم من القرى والقبائل والعشائر ثم استقدم عبد القادر باشا الى مصر وأقيم مقامه علاء الدين باشا وتولى حسين باشا قيادة جيش سنار ومن بعد هزيمة عرابى وزعماء الثورة الوطنية واهداء الخديوى توفيق روع البلاد اشتغلت الحكومة المصرية تحت رياسة نظارة شريف بالاستعدادات الحربية والعساكر المصرية واعتقدت الحكومة المصرية أن الثورة المهدوية مثل الثورة العرابية وأن محمد أحمد يغفل عن أمر قام به وينام حتى تدخل مقذوفات محاربيه فى خيمته وما علمت مصر أن محمد أحمد سهران لا يغفل عن تجنيد الجنود ورفع البيارق والبنود تحت رجال وأبطال لا يخافون الموت ولا يخشون التهديد والفوت فجمعت الحكومة المصرية قوة عسكرية وعهدت قيادتها الى قائد انكليزى اسمه هيكس وأنعم عليه الخديوى توفيق باشا برتبة باشا فصار هيكس باشا وكانت هذه القوة مؤلفة من ١٢٦٠٠ نفس مقاتل انضم اليها من السودانيين ٤٠٠٠ نفس فبلغت ١٧٠٠٠ وأصدر له الخديوى توفيق باشا أمرا قاطعا بأنه عند وصوله الى الخرطوم يجرى حركاته الحربية ضد العصاة وعلى الخصوص خلاص مدينة العبيد عاصمة كردفان من المهدويين وقطع دابرهم وكذا يجرى حركاته فى نواحى سنار وهو الاقليم الواقع بين النيل الابيض والنيل الازرق ولما وصل هيكس بجيشه الى الخرطوم اجتمع مع علاء الدين باشا الذى تعين حاكم عموم السودان من طرف الخديوى توفيق باشا وقام هيكس فى الخرطوم مدة ليستريح من تعب السفر ومن بعد مدة نزل علاء الدين فى البحر الازرق وتحرك هيكس بجيشه على الشاطئ الغربى للنيل الابيض وسار علاء الدين فى البحر الازرق وأوقف حركة العساكر المصرية من الهرب وكانوا واردين من جهة سنار فلما رأى العساكر الحالة انضموا اليه وشتت علاء الدين المهدويين من اقليم سنار حتى عبروا النيل الابيض الى الجهة الغربية التى كان هيكس باشا متحركا فيها بعساكره ورأى المهدويون ما عند هيكس من العساكر والمراكب البخارية والشراعية على النيل الابيض ومع ان العصاة كانوا آخذين فى القهقرة والهزيمة الا أنهم هجموا على هيكس وعساكره هجمة شديدة حتى أزعجوا جيشه فانجبر على أن يجعل جيشه فى هيئة قلعة مربعة لما رأى الخوف والفشل والارتباك وقع فى عساكره وعلم منهم عدم المقاومة والمدافعة وقال فى تقرير تقدم منه يعنى من هيكس

انه فى يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٨٣ ميلادية من الشهر صارفك الخيام كالعادة وأصدرنا أمرنا بسير الجيش الساعة سبعة صباحا بدرى وما حصل من الصعوبة والخطر كان أصل منشئه من الخيالة والاركان حرب لانهم لم يحصل منهم الاعتناء بكشف جميع الاراضى والجهات اللازم مرور الجيش منها وسيره فيها ولهذا لما دار الكولونيل فاركهار ويوزباشى واحد وأربعة من عساكر الباشبوزق أشبه بكشافين أمام الجيش لم يبعدوا كثيرا حتى عادوا راجعين وأخبروا بقرب تقدم العدو وكان لهذا العدو حركة سريعة جدا حتى انه فى ظرف ربع ساعة ظهر على الجيش مثل جرى السحاب فى جو السماء وفى هذا الوقت كانت الساعة تسعة وكانت قوة هيكس سارت بضع أميال فى مجاورة أجمة امتدادها مواجهتها ثلاثة أرباع ميل وكان سيرها الى جهة اليمين من الاجمة ومن هذه الجهة كشف جيش هيكس حضور الدراويش الحربيين متسلحة بالحراب والمزاريق مئات مئات وقوادهم أمامهم حاملين البيارق والاعلام وهجموا

بغاية من الشجاعة والاقدام على جيش هيكس حتى أزعجوه وأوقعوا فيه الفشل فلما رأى هيكس ذلك جعل جيشه على هيئة قلعة مربعة وجلب المدافع بسرعة فى زوايا القلعة وفتح هيكس نارا قوية من مواجهة القلعة الا أنها كانت على غير تأثير لان الدراويش كانوا آخذين فى التقدم مع السرعة والشدة ولكن على مسافة ٥٠٠ ياردة من صف مواجهة القلعة ابتدأت عساكر الدراويش فى التساقط وصار القواد يحثون رجالهم مثل ما كانت تعمل فرسان قدماء العرب فصاروا يتساقطون واحدا واحدا واثنين اثنين ثم يقومون ثانيا ثم يختبطون فى الارض على وجوههم ومن بعد نصف ساعة لما تماوج القبائل وتحركوا الى الجهة اليمين فى وسط الحشائش العالية وانكشفت مواجهة القلعة من العدو وانكشف دخان ضرب البنادق والمدافع وجدت الارض مرممة بالرمم والقتلى وأغلبهم على مسافة ٤٠٠ ياردة من مواجهة القلعة وهذه الواقعة واقعة مرابيه هذا ما ذكره مكاتب الحرب فى تقريره

وحارب العساكر المصرية محاربة قوية مع الشجاعة والثبات ومازال الدراويش أتباع المهدى مصرين على ماهم عليه من القوة والعناد فى جميع هذه الحروب سواء كانوا أمام المصريين أو أمام العساكر الانكليزية أو العساكر الاوسترالياني وكانت محارباتهم مثل محاربات الجن والعفاريت حتى صار قواد الجيوش الانكليزية لايدرون طريقة يكسرون بها هؤلاء الدراويش و يهزمونهم ثم تولد من كثرة سقوط الامطار فى هذا الاوان تعطيل الحركات العسكرية فى هذه الجهة فتقهقر هيكس باشا بجيشه المنصور حتى يأتى فصل الخريف ونصب معسكره فى أم درمان تجاه الخرطوم وفى هذه المدة جمع جيش هيكس رأيه على الخضوع للمهدى ولما أتى فصل الخريف سار هيكس بجيشه الى الدويم وفيها انضم اليه فرق أخرى ثم سار من الدويم قاصدا الابيض عاصمة كردفان ومن ذا الذى اطلع على الغيب وما فى علم الله من أجل حملة كبيرة سائرة تحت قيادة رجل انكليزى حائز البسالة والشجاعة حتى ينبئها بالكائن لها فى الغيب وبما سيحصل لها مما يغم الخواطر و يكدر البال و يوتم الاطفال

وظهر من المصريين الذين كانوا تحت قيادة عرابى أنه ليس لهم رغبة بالكلية فى المحاربة تحت قيادة هيكس (هم ما حاربوا تحت قيادة عرابى) وقال الكولونيل سكندورف ان عمره ما رأى حرب المصريين الا أنه من الخسارة وجود أى انسان حائز الشجاعة فى وسطهم (عقد هيكس مجلسا حربيا الاجل تقرير اقتحام الصحراء الى الابيض فكان على غير رأى جميع الضباط المصرية فغضب هيكس من عدم رضاهم وقال هذا التوبيخ حتى اتفقوا على السير) ومع كل هذا فانه ظهر من المصريين ماسر خاطر ضباطهم وقوادهم لانه حصل الاتفاق بينهم على قطع الصحراء وعبورها مع الاعتماد والوثوق بان البرك والمناقع ملآنة بالمياه العذبة المتخلفة من سقوط الامطار فى هذه الجهات وفيها الكفاية لمطلوب العساكر والحيوانات وبناء عليه فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨٣ سار الجيش وعند سيره قال مكاتب الحرب ونظر الى خلفه وهو متوجه الى عاقبة أمره آه آه هذه آخر نظرة مقطوع اليأس بعدها من العود ثانية وتنفس الصعداء وقال انناوقعنا فى شر أعمالنا وفى خسارة مهولة وفقد أنفس لكوننا تركنا طرق مواصلاتنا وسرنا ٢٣٠ ميلا فى داخل أرض لانعرفها وليتنا حرقنا مراكبنا ومابقى عفشنا وحاجتنا وفى هذا الوقت كان العدو لم يزل آخذا فى التقهقر جامعا معه أنعام ومواشى البلاد فتولد من عدم وجود المياه الحزن الشديد والغم الاكيد وأخذت الجمال

فى التساقط والموت وسار القول فى الصحراء الشاسعة واختفت العساكر الخالفية فى القفار التى لا يعرف أولها ولا يوصف آخرها وهبت الرمال من الرياح وضربت فى وجوه العساكر وحمى الوطيس واختفى الجيش الكثير الذى صار لا يرى بعد ذلك مرة أخرى (هزيمة هيكس وموته) ومع كل هذا اكتسبنا برهة من الزمن على المخابرة مع أس حركاتنا العسكرية ونحن سائرون لنحو هلاكنا ودمارنا وذلك أنه لما ترك الجيش وادى النيل تشكل فى هيئة قلاع مربعة ودخلت الجمال فى وسط القلاع وسار الجيش بحركة بطيئة بهذه الهيئة نحو العبيد وفى أثناء سير القوة فى طريقها كانت تجد مصاعب وخسارات مهولة لان المياه المحمولة على الجمال والتى فى زمازم العسكر كانت قليلة جدا ووجدت الآبار مردومة والبرك والمناقع مشحونة برمم القتلى والحيوانات ومن ثم أصاب العساكر التعب والنصب ومع ما رأى الباسل هيكس من الحكم والمواعظ والانذارات التى شاهدها بعينه جهارا اندفع فى سيره نحو معسكر المهدى بارشاد ودلالة واحد من النوبيين كان هذا الرجل مسخر الابادة وانقراض هذا الجيش وما زال سائرا حتى دخل من مضيق مشحون بالاورمانات والآجام والصخور ومن داخل هذا المضيق ميدان قليل الاتساع محاط بالاورمانات أيضا والجبال الوعرة وكان هذا المضيق وما حوالى الميدان مشحونا بعساكر الدراويش وكان مكمنا ومرصدا لهم فلما رأى ذلك هيكس استمر ثلاثة أيام فى حروب وكد وتعب مع المهدويين كانت على غير طائل وأحاط به العدو من كل جهة ومع ما كان عليه هيكس من عدم وجود المياه ووجوده مع عساكره تحت حرارة شمس محرقة ولا طاقة له على التقدم أو التأخر لم يزل مصمما على عدم التسليم وحينما كان عنده ذخائر حربية ما قدر العدو على القرب منه الا أنه لما فرغ الخرطوش الاخير فى اليوم الرابع من وقائعه فرد الأمل جناحه وطار ورفرف الموت بأجنحته وحل محله وسار وكأن الموت فى حالة نسور كاسرة مهولة حائمة على قفر كالح صخرى الاحجار لا ماء جار فيه ولا راكد جارية فيه عساكر الحكومة حركاتها العسكرية ولما نادى هيكس بنداء سونكى ديك انقطعت الآمال وخابت الاعمال وتيقن العساكر والضباط والمكاتبون والوكلاء وتوابع الجيش ان ساعة الموت وحلول الاجل قد آن أوانه وحل وقته وجاء زمانه وما كان الغرض من لفظ نداء سونكى ديك الاوداع الاحباب والاصحاب بعضهم بعضا ووداع أوطانهم وحياتهم الدنيوية وصار كل واحد ينظر بعينه الى ورائه على أرض الميدان ووجه الاوروباويون أفئدتهم وقلوبهم وعقولهم الى انكلترة فى هذه الساعة المهولة الى نواحى أحبابهم وأصدقائهم الذين ينعونهم فى محلات اجتماعهم فى أثناء تناول طعامهم فى أوقاته المعلومة فى محال الاجتماعات الظريفة وصرفوا النظر عن الريشة والقلم الرصاص واستبدلوهما بالطبنجة والسيف كل يدافع عن نفسه لنجاة حياته وأين هذا

ولما نادى هيكس بنداء حمله ووجه العساكر جميعهم سونكياتهم الى نواحى الهجوم وجعل هيكس نفسه فى رأس القول وتقدم على العدو مع الثبات بعساكر المصريين جال العدو فيهم جولة مهولة فألقوا صرعى جميعا على الارض لا حراك فيهم وأصبحوا مثل ندى الصبح على الارض بين العشائر المهدوية ولم ينج منهم أحد وسبحان الله الواحد الاحد الفرد الصمد

ووصلت أخبار هذه الحادثة المهولة متأخرة الى لوندره وأما فى القاهرة فلا يمكن وصف ما حل بالناس من الاحزان والاكدار حال استشعارهم بهذه الحادثة المزعجة التى حصل منها المصيبة العظمى وكانت مظفرات المهدى مثل شعل نار رميت على مروج جاف الحشيش والكلا وانتشر لهب الثورة فى جميع

الجهات وصار استقبال المهدى كأنه هو المخلص والمنقذ وانضم الى ما عنده ألوف وألوف ألوف من الناس وصار واجميعا تحت بيرقه

وأما فى الخرطوم فان الكولونيل قوطلجون الذى كان متقلدا زمام أحكامها وقيادتها فانه عمل الاستعدادات اللازمة للمقاومة والمدافعة عنها وأشارت الحكومة الانكليزية على الحكومة المصرية فى كونها تتنازل عن السودان وتتركها ونفسها بعد أن تسحب جيوشها وعساكرها منها وأرسل اللورد غرانفيل الى الفلن بارنج يحرضه ويحثه على فعل ذلك مع الحكومة المصرية ولما عرض ذلك الملن بارنج على الوزارة المصرية تحت رياسة شريف باشا لم يقع عنده ترك السودان موقع القبول والاستحسان وأصر الانكليز والخديوى توفيق على التنازل عن السودان فلما رأى ذلك شريف باشا استقال من وزارته فى ٥ ربيع أول سنة ١٣٠١ هجرية الموافق ٤ يناير سنة ١٨٨٤ ميلاديه وقبل نوبار باشا تشكيل وزارة جديدة قابلا ما أشار به الانكليز والخديوى على شرط بقاء سواكن ومابقى على الحكومة المصرية الا سحب حكامها وعساكرها من الاقطار السودانية ومن ثم صارت المخابرات والمداولات فى عمل الطرق اللازمة لخلاص المحافظين من أيدى المهدويين ومامضى قليل من الزمان حتى أصدر المستر غلادستون أمرا بانه لابد من عمل واجراء الاعمال والوسائط اللازمة لخلاص المحافظين وكانت جميع القبائل والعشائر السودانية قامت فى ثورة واحدة وحاصر المهدويون سنكات وطوكر قبل أن ترسل قوة لمساعدتهما وانقطعت المواصلات بين بربر وسواكن وصارت سواكن نفسها على خطر شديد لولا أن تداركتها محافظة السفن الانكليزية بنيران مدافعها القوية

وقام السودان بالسلاح والسكاكين والمزاريق والحرب الملاح صغيرهم وكبيرهم وصاح الله أكبر حى على الفلاح وتجمعت الجموع السودانية فى جميع البوادى ومن ضمنها السواحل البحرية بجهات سواكن وكانت رياسة المهديين فى هذه الجهات تحت قيادة عثمان دجنة البطل الهمام والشجاع المقدام الذى لايخاف الموت ولا يرهبه الصوت وعمد الانكليز والحكومة المصرية على أداء الاستعدادات اللازمة لخلاص طوكر أولا ثم سنكات وعين الخديوى من طرفه حسين واصف باشا حاكما على السودان الشرقى بجهة سواكن وأرسل محمود طاهر باشا بجيش من سواكن لاجل خلاص طوكر فقام محمود طاهر بجيشه المصرى فى المراكب من سواكن حتى وصل ترنكتات على ساحل البحر الاحمر وعلى مسافة عشرين ميلا من طوكر وأنزل جيشه وكان مقداره ٥٠٠٠ نفس وبعض مدافع جبلى فى ترنكتات وبعد أن رتب هذا الجيش سار فى الصحراء قاصدا طوكر ولما بعد عن البحر بمسافة عشرة أميال زحف عليه عثمان دجنة بعساكره وأوقع به وبجيشه الدمار وأحلهم دار البوار وهرب محمود طاهر مسرعا الى المراكب فى ترنكتات وأقلع فى الحال الى سواكن وهلك جميع الجيش الاقليلا منهم ولما وصل الخبر الى القاهرة حزن الخديوى حزنا شديدا وعين مجلسا حربيا تحت رياسة حسين عاصم باشا لمحاكمة محمود طاهر من أجل فراره من أمام العدو وتوجه هذا المجلس الى سواكن وشرع فى تحقيق مادة الهزيمة وهروب محمود طاهر واستمر التحقيق جاريا حتى حصلت هزيمة بيكر باشا كما سنذكره فصرف النظر عن التحقيق وعاد المجلس ومحمود طاهر الى القاهرة

ولما هزم عثمان دجنة محمود طاهر وجملته وبددشملهم عاد الى طوكر وقتل من كان فيها من العساكر وكان قنصل الانكليز من المقتولين ضمنهم وكذا قتل جميع القوة التى كانت أرسلت من قبل بشهر

خلاص محافظى سنكات

﴿ تعيين بيكر باشا ﴾ — ولما تم ما حصل من المصائب والاهوال أن الخديوى توفيق باشا عهد الى بيكر باشا مع عساكره من البوليس والجندرمة خلاص المدائن المحصورة والتى صار التغلب عليها وأصدر له أمرا خديويا بان يكون مطلق التصرف فى الحركات العسكرية حسب موافقة الاحوال وأن يخابر بطريق المحبة مع القبائل والعشائر المجاورة لسواكن وأنه هو الحاكم المتصرف فى السودان الشرقى فأعد بيكر قوته وحاشيته وسار بها حتى وصل سواكن وتقابل مع حسنين واصف باشا حاكم السودان الشرقى فأمره بيكر باشا ببعض أوامر فقال له أنا الحاكم على هذه الجهة بامر الخديوى فقال بيكر باشا حاشا أنا الحاكم وأخرج له أمرا خديويا بتعيينه حاكما مطلق التصرف فى السودان الشرقى فقال له حسين واصف وأنا من الآن مستعف فقال بيكر وأنا قبلت وتوجه حسين واصف الى القاهرة فورا وسار بيكر الى مضوع ايتهالف مع رؤساء القبائل ليجهز طريقا لانسحاب عساكر الخرطوم من طريق كسلا ثم عاد الى سواكن واستعدت الحكومة الانكليزية للسفر بمراكبها الى جهة سواكن وبينما هم فى هذه الحركة المهولة اذ وردا الصياح والصراخ من نواحى الكولونيل فوطجون يطلب رخصة من الحكومة الانكليزية بتقهقره مع الموجودين معه من العساكر المصرية فى الخرطوم فصدرت الاوامر بذلك حسب مرغوبه الا أنه بأى طريقة وباى حالة يمكن اجراء ذلك لانه يوجد ألوف من الانفس فى هذه المدينة ولا يمكن عمل الوسائط اللازمة فى خلاصهم من طريق النيل فقط ومن مقتضى اجراء أخذ الوسائل اللازمة لسلامة هؤلاء الناس أن تكون طرق تقهقرهم سالمة من الآفات والمصائب التى ربما تعود عليهم فيما بعد لكن هل يمكن الوصول الى ذلك ومن هو الذى فى قدرته وبسالته مساعدة هذه المدينة المحصورة وهل يوجد انسان يمكنه التوجه لخلاص وانقاذ المدينة وأهلها من هذا الكرب العظيم نعم هو ﴿ ارسال الجنرال غوردون ﴾ وفى ٨ ينايرسنة ١٨٨٤ قررت الحكومة الانكليزية غوردون باشا أحد رجالها المشهورين ليسير الى السودان لامرين الاول خلاص المحافظين المصريين والثانى أن يعيد النظام فيها بكونه يعيد جميع الجهات السودانية الى أمرائها وسلاطينها القديمة الذين محقت سلطنتهم وشوكتهم منها من مدة احتلال المصريين فيها ويقدم تقريرا مفصلا عن حالتها الحربية والوسائط اللازمة لسلامة من بها من المحافظين والسكان الاوروباويين وعن أحسن طريقة لاخلاء داخليتها واقامة حكومة منتظمة على سواحل البحر الاحمر وابطال تجارة الرقيق التى كانت عادت فى عهد محمد رؤف باشا كل هذا لان غوردون كان له خبرة تامة باحوال السودان وأعماله مدة ما كان متقلدا زمام حكومته فى عهد الخديوى اسمعيل باشا

وفى ١٨ ينايرسنة ١٨٨٤ ترك الجنرال غوردون لوندره مع رفيقه فى السفر الكولونيل ستوارت وسافر الى القاهرة مباشرة فوصل القاهرة فى ٢٥ ينايرفأخبره السيرافلن بارنج بما قررته الحكومة الانكليزية وهو القرار المتقدم وفى اليوم الثانى أصدر الخديوى توفيق باشا أمرا بتوليته غوردون على الاقطار السودانية وفوض اليه أمر اخلائها وفى ٢٧ ينايرسار غوردون مصحوبا برفيقه الى الخرطوم وبينما كان قاطعا فى سفره صحراء عطمور أبوحمد الى بربر على الجمال والهجين كانت عساكر عثمان دجنة فى جهة سواكن دهمو واقعة بيكر باشا ومحقوها فى نواحى ترنكتات كما سنذكره بعد ولما وصل غوردون ورفيقه الى بربر فى يوم ١١ فبرايرشرع فى الحال فى اعطاء الرخصة التامة للاهالى فى بيع الرقيق

ونشر منشورات بذلك حتى تحصل الراحة من ذلك فى السودان ولو لم يكن هذا الامر من خصائصه وانه على غير رغبة الحكومة الانكليزية فانشرح صدر السودانيين من هذا المنشور الا أنهم قالوا كان من الواجب على غوردون الحضور الينا قبل ذلك بسنة فتأخر فى حضوره وفات الوقت فلم يشاركهم غوردون فى هذا الرأى بل قال لهم ان السودان أصبحت دولة مستقلة عن مصر وأن المهدى قد أقيم سلطانا على كردفان

وفى ١٨ فبراير دخل غوردون الخرطوم فتلقاه أهلها وعساكرها مع الابتهاج والسرور ومزيد الترحاب والحبور فقال لهم انى أتيت لانقاذ السودان مما أصيبت به ولم آت بجيش بل جئت متوكلا على معونة الله تعالى ومعاضدته لى فلا أحارب الا باصلاح العدل وكانوا يحبونه من قبل فوقع كلامه من قلوبهم موقع القبول والاستحسان واستتبت الراحة فى الخرطوم ثم اتخذ وسائل عالية وسلطة وشوكة شامخة تولد منها هياج المهدى واحاطته بالخرطوم فى ١٢ مارث سنة ١٨٨٤ حينما كان نائبه الشجاع الباسل عثمان دجنة مشغولا مع الجنرال جراهم فى طمية بنواحى سواكن

﴿ سفر بيكر وتقدمه ﴾ ـ وبينما كان غوردون على حالته المتقدمة استعد بيكر باشا بقوته المصرية لاجل خلاص المصريين المحصورين وفى آخر شهر يناير عندما تمت استعداداته وتجهيزاته سافر بقوته وكانت نحو من ٤٠٠٠ نفس من طريق البحر الى أن وصل ترنكتات موقع محمود طاهر باشا وهى على بعد عشرين ميلا من طوكر التى هى أول ميس يلطمه ويصيبه فى أثناء هجومه وترنكتات على نحو خمسة وعشرين ميلا من سواكن وفى ١١ فبراير ابتدأ بيكر بقوته فى السير نحو طوكر وكانت هيئة التقدم على صورة بوجه وليست على هيئة قلاع وكانت المدافع فى الامام والخيالة فى الجوانب من كل جهة وبينما هم على هذه الحالة المفشولة اذ هجم المهديون عليهم بغتة (وكانوا فى مراصد ومكامن مختفين) هجوما نهائيا وكانت هذه الحلة المشؤومة سائرة فى الصحراء على غير يقظة من عدوهم وما كان لبيكر وعساكره معلومية بقرب العدو منهم فأسرع بيكر باشا فى تشكيل بيادته على هيئة قلعة واجتهد فى مقاومة المهديين الذين اقتحموا بحرابهم وسكاكينهم وأخشابهم فى أيديهم على المصريين ولما كان لا يوجد وقت لتشكيل مثل هذه القلعة زحف العدو السريع الجرى وهجم على نصف القلعة وبالخصوص على الجناح الذى كان حصل فيه الفشل وعدم النظام وأسرع المصريون فى فتح نوبة اتش الا أنه لم ينتج منها الا زيادة تحريض المهديين والوقوع بالعساكر الذين أطلقوا هذه النيران حتى شتتوهم وصار لا طاقة فى تجمعهم وانخرقت القلعة والتصق العساكر مزدحمين بعضهم وزاحمهم شجعان العدو وانكسرت همة المصريين وصاروا لا طاقة لهم على أدنى اجتهاد يدافعون به عن أنفسهم ورموا أسلحتهم وأسرعوا بالجرى فى كل جهة وسميت هذه الواقعة بوقعة التيب

﴿ حصول المذبحة فى التيب ﴾ ـ لا يمكن أى انسان أن يتصور ما حصل فى واقعة التيب من الاعمال الوحشية الفظيعة التى حصلت من المهديين وذلك أنه فى أقل من عشر دقائق من هجوم المهديين على جيش بيكر انتشرت جميع عساكر الجيش المصرى كالجراد فى سهل الصحراء بعد أن رموا أسلحتهم وشرعوا فى الجرى فانغمس الدراويش الشجعان فى دماء الرجال الذين ما حصل منهم مقاومة لهم وصار الدراويش يغتنون المصريين فى بطونهم بحرابهم ويذبحونهم بسكاكينهم ذبح الفراخ وكان سبب وقوع هذا الفشل أن الدراويش هجموا أولا على الخيالة وأزعجوهم فانضموا الى البيادة فوقع

الرعب والخوف وانكسر الجيش وحصلت هذه المذبحة المهولة

وكانت عواقب المذبحة من أكبر المصائب فى مصر وفرج الخلاص محمود طاهر باشا مما كان فيه من السؤال والجواب وصح المثل (مصائب قوم عند قوم فوائد) وبهزيمة بيكر باشا عفا الخديوى توفيق باشا عن محمود طاهر ولم ينج من هذه الواقعة الا ما قل وندر وكان توفيق بك محافظ سواكن فى أثناء ذلك محصورا فى سنكات وكان معه ستون مقاتلا وكان له أمل كبير وعشم طويل فى أن يقابل بيكر باشا فهجم من سنكات بما معه من العساكر وخرج من محل محافظته شاهرا سيفه وقاوم مقاومة شديدة عازما على الالتحاق مع بيكر الا أنه لما وجد نفسه لا طاقة له بعساكر الدراويش سلم نفسه وقوته فأبيدت قوته وتدمرت شوكته وقتل ويتولد من هذه الهزيمة سرعة تسليم طوكر وحصل لعثمان دجنة النصر والظفر والغلبة لكنه عجز عن الهجوم على سواكن

ولما لم تنس الوزارة الانكليزية عدم تداخلها فى المسئلة المصرية وتكليفها الخديوى توفيق باشا بالتنازل عن السودان جمعت قوة كافية فى سواكن وعهدت قيادتها الى الجنرال جراهم وأمرته بالحلة والهجوم على موقع عثمان دجنة فى التيب وهو الموقع الذى انهزم فيه بيكر باشا

الواقعة الثانية فى التيب ويتولد مما حصل للمصريين من المصائب الكبيرة أولا وثانيا فى نواحى طوكر كون الجنرال جراهم تعقل وتدبر فى أمره وتقدم فى سيره مشكلا عساكره فى هيئة قلعة مربعة كما فعل هيكس وذلك انه سار من معسكر ترنكتات المسمى الآن بطابية بيكر فى رأس قوة من المشاة مقدارها ٣٠٠٠ نفس و ٧٥٠ من الخيالة و ٣٠٠ من المهندسين والطوبجية والبحرية ولما بلغ عثمان دجنه وعساكره هذا الخبر الطريف الذى عزم عليه الجنرال جراهم نظموا ترتيباتهم وعقدوا نياتهم وعزموا على تدمير الجنس الانكليزى وحصن المهدويون أنفسهم فى التيب واستعدوا بمدافع الكروب التى تغلبوا عليها من الوقعة الاولى ووقعة بيكر وحصن الدراويش أنفسهم وصاروا مثل النعام حافظين أمامهم وتاركين وراءهم ولما رأى الجنرال جراهم هذه الحالة انتهز الفرصة وهجم واشتبكت الواقعة الثانية فى التيب فى غرة مارث سنة ١٨٨٤ ولما قارب جراهم ميدان الحرب ارتبك الذين كانوا فى جيشه من الذين بقوا على قيد الحياة من واقعة بيكر وتبدد شملهم قبل ذلك بشهر وصاروا فى ميدان الحرب أشباحا بلا أرواح بعد أن اصفرت منهم الوجوه وغارت فى رؤسهم العيون وصاروا لا يتعقلون ولا فى الحرب يجتهدون ويشرعون وذلك لما رأوا ما هو واصل اليهم من مقذوفات المهديين وكانت قليلة وما حصل مجاوبتها من جيش جراهم

وفى الساعة الاحدى عشرة تقريبا قبل الظهر تحركت القلعة الجسيمة الثابتة مثل السور من دون أن يحصل منها ضرب نار وكانت محفورة من جوانبها بعساكر الخيالة ولما وصلت هذه القلعة على مسافة ميل واحد من موقع الدراويش فى التيب فتح الدراويش عليها نيران طوبجية ثقيلة حادة بواسطة مدافع الكروب فجاوبتها المدافع الانكليزية والاسلحة الميترالوزية بنار حادة أيضا وتقدمت القلعة فى سيرها ولما رأى جراهم شدة نار الدراويش شكل القلعة وبدل حذاءها الذى كان عرضة للنار الشديدة الواردة من عند العدو وانجرح الكولونيل برنباى وكان الدراويش فى محاربتهم مثل الجن واشتبك الجيشان ببعضهما وصارت المحاربة يدا بيد وصارت الواقعة فى حالة مهولة جدا الى الساعة اثنين بعد الظهر ثم انفصل الحرب ووضعت أثقاله ومات واحد بكباشى وانجرح بيكر باشا وكانت الخسائر كثيرة

بين

بين الجزيرتين وتقهقر الدراويش ووصل جراهم الى طوكر بعد التعب والمشاق ولما لم يجد مقاومة أمامه في طوكر عاد قافلا الى سواكن

وبعد هذا لم يزل عثمان دجنه مصرا على الحرب وأعلن أنه لم يكن عنده شئ من أمر انقياده أو التسليم الا الحرب والضرب ووقوع الانكليز في الكرب ولم تمض مدة قليلة حتى وردت الاخبار بوجود استعداد العدو بالسلاح على بضع أميال من سواكن وهددوها تهديدا شديدا ولم يتغير عزم العدو عن ذلك وكذا وردت الاخبار بأن عثمان دجنه حصن نفسه مع قوة عظيمة من عسكره في طمينة وهي على مسافة ١٥ ميلا من سواكن في الجهة الغربية منها فسافر لذلك فرقتان من المشاة الانكليزية ومعهما السوارى الخيالة والمدافع البريطانية مع غاية الاحتراس والمحافظة وعسكروا في اليوم الاول على مسافة قليلة من حركاتهم ثم تقدمت جميع القوة حتى كشفوا العدو في معسكره ووقف العساكر وحصنوا أنفسهم وفي صباح يوم ١٣ مارث صار الابتداء في الهجوم الا أنه في أثناء الليل أضر الدراويش بالعساكر الانكليزية وأزعجوهم وجعلوا يسقطون عليهم ويقتلون منهم حتى طلع النهار واختفوا في الارمانات والآجام وصار لايرى أحد منهم وصار ترتيب العساكر الانكليزية في هيئة قلعتين في صورة تربيعة واحدة تحت قيادة الجنرال ردفرس بولر والاخرى تحت قيادة الجنرال دافيس وتقدمت قلعة الجنرال دافيس في الاول في يوم ١٣ مارث فحصل لعساكرها خوف وجزع فانفتح في جوانب القلعة عدة فتحات وفواصل فانقض الدراويش بخفة عجيبة سريعة ودخلوا من هذه الفتحات واقتحموا في الشبان الانكليزية وطنقوا امسحابالسيوف والاعناق واشتبكت واقعة مهولة يدا بيد ولا تسأل عن حال ماحصل من الدراويش الوحشيين واختلط الناس بعضهم عندما انقض العرب على الانكليز فصار العساكر والضباط وكتاب الجرائد وتوابع الحملة كل منهم يحارب لخلاص نفسه وصار في هذا اليوم كل نفس مشغولة بنفسها وصار الانكليز سكارى وماهم بسكارى ولكن حرب الدراويش عليهم شديد فتقهقرت القلعة البريطانية الى الخلف بالتدريج وانضم عساكرها الى بعضهم وتغلب الدراويش على مامعهم من المدافع ومازالت هذه القلعة آخذة في التقهقر حتى صارت في حذاء واحد مع القلعة الثانية وأطلق القلعتان على الدراويش نارا حامية وصار لاطاقة للدراويش على القرب من القلعة الثانية وجمع دافيس عساكر قلعته ثانيا وبواسطة القلعتين وعساكر السوارى ليسوا راكبين خيولهم قهقروا الدراويش وحرقوا طمينة ومن بعد هذه الحركة رجعت قوة جراهم الى سواكن وقال أحد المكاتبين ان أعظم عساكر الدنيا وأجودها شجاعة واقداما في الحروب ويمكن أن يحسدوا عليها عند عموم سكان الدنيا هم العرب المهدويون الذين خرقوا قلعة الفرقة الثانية الانكليزية في سواكن وتغلبوا على مدافعها فعابه بعض كتاب الانكليز وقال ان هذه النشرة قلة حياء ومن بعد العود الى سواكن حصلت المخابرة في ترتيب قوة لاجل فتح طريق الى بربر بشأن عود المحافظين المحصورين في الجهات ولو أن هذا المشروع كان موافقا الا أنه لم يحصل اجراؤه وتقدم الجنرال جراهم في الصحراء مرة ثالثة ولما لم يلق كيدا حرق قرية طمنباب وتولد من ذلك زيادة الرعب عند القبائل المسالمة وما كانت جميع اجراآت جراهم تحت طائل وماحصل منها أدنى فائدة تعود على الحكومة المصرية أو الانكليزية وانسحب جراهم من سواكن في ٢٥ مارث سنة ١٨٨٤ ميلادية بعد أن أبقى في سواكن بضع مياآت من العساكر لان الدراويش ولو صار طردهم من تلك الجهات الا أنهم ربما يتغلبون عليها وكان

عثمان دجنة على شدة من الشوق والرغبة فى طرد الانكليز فى داخل البحر ومنع عساكرهم من السير فى البر وأبقى أيضا بعضا من المراكب البخارية حتى باتحادها مع العساكر يصير التحفظ على المدينة ولما انسحب جراهم وعساكره من سواكن شرع عثمان دجنه فى ازعاجها وارعابها واستمر على هذه الحالة ﴿ حصار غوردون فى الخرطوم ﴾ ولو أن المهدى كان حاصلا منه الهمة الزائدة والنشاط التام فى أشغاله فى شهرى فبراير ومارث كذلك كان غوردون حاصلا منه الهمة فى حركاته وما كان فى تأخير عن المهدى ومن ابتداء حضوره فى الخرطوم شرع فى تقويته وتحصينها وصيانتها وقال عدد سكانها حتى أوصلهم الى نحو ٣٠٠٠٠ نفس بما فيهم ٦٠٠٠ عسكرى كان أرسلهم أسفل الدنيا للمحافظة على حلفاية وأراد طرد جميع السكان الا أنه لما رأى من عزم المهدى على قتلهم أو دخولهم معه أبقاهم فى المدينة خوفا عليهم

وقال بعض الكتاب لماذا لم يصرح المهدى لاهل الخرطوم فى النجاة بأنفسهم حتى يروق باله من الارتباك فى استحواذه على السودان قال بعضهم ردا على هذا السؤال ان السبب الذى أوجب المهدى فى كونه لا يرخص لغوردون والمصريين معه فى الانجلاء عن الخرطوم مع حفظ السلامة هو أنه من الواجب عليه السعى فى هدايتهم اليه وانه يجب عليه أن يجرى الاجراآت اللازمة فى تسليم أنفسهم اليه أو ابادتهم عن آخرهم وان لم يوف بهذا الشرط فليس بمهدى ومن ثم كانت هذه حالة القواد السودانية اما التسليم واما القتل ومن ثم تولدت الاختلاسات عند الضباط والحكام الموجودين مع غوردون فأما الخيانة الاولى فهى أنه كان سعى فى خلاص محافظى حلفاية فقاومه الدراويش بخيانة اثنين من الباشوات المصرية كما يجريان أشغالا تحت رياسة الكولونيل ستوارت وذلك أن المصريين ضربوا عيارا واحدا وفروا هاربين مثل الغنم فتولد من ذلك مذبحة مهولة فى جهة حلفاية حصلت فى ١٦ مارث وفى هذه الواقعة انجرح الكولونيل ستوارت وشرع السكان فى أنهم يتركون المدينة وكذا قام الباشبوزق فى ثورة هى الثانية وكانوا على شرف رمى السلاح ولما تحقق غوردون ما كان من خيانة الاثنين باشوات ووجدهما مجرمين أمر بضربهما بالرصاص فى الميدان ونجح غوردون فى خلاص محافظى حلفاية فى ٢١ مارث الا انه فى يوم ٢٤ قامت جميع البلاد الموجودة قبلى بربر فى ثورة واحدة وصار محاصرة الخرطوم ومن ابتداء هذا الوقت الى شهر ابريل سنة ١٨٨٤ استمر غوردون فى حرب منعزل بواسطة مراكبه البخارية لانه لا يمكنه أن يخاطر بنفسه فى اجراء حروب على شاطئ النهر وزاد عدد سكان المدينة حتى بلغ ١٣٠٠٠ نفس وصار المنظور عدم خلاص هؤلاء الانفس لان ما حصل فى السودان صار مثاله كوبحة قام فيها طوفان الثورة فى طول نهر النيل وعلى شاطئيه وغرقت المتمة وشندى وبربر وبقيت الخرطوم واقعة كجزيرة فى وسط مياه الثورة المهدوية وغرق أيضا جميع المرتفعات والمنخفضات فى مياه غضب المهدو بين الاقطعة واحدة صغيرة

و ورد من الخرطوم البلاغات والاعلانات الى الحكومة الانكليزية وفيها استوفت الى غوردون كل ما طلبه وكان أرسلها الى السير افلين بارنج بمصر بكل مشقة يحثه ويحرضه على مساعدته ومعاضدته فى أول فرصة ينتهزها وفى ١٩ ابريل أرسل غوردون تلغرافا يذكر فيه ان الخرطوم بها مؤنة تكفى خمسة أشهر يعنى لحد نصف سبتمبر ومن هذا تولد حصول سكتة استمرت مدة خمسة أشهر وصار غوردون من وقت الى وقت يرسل الاخبار الخاصة بالخرطوم قاطعة الصحراء يستدل منها على أنها باقية مثل مركب فى يد قبودان وبحرية صادقين يقذفون فيها فوق أمواج ظاهرة على أفق الشك ثم تنزل فى عمق اليأس

وفى ٢٠ يوليه أشيع أن الباسل غوردون كتب الى مدير دنقله يقول له أنا تحت بيرقى ٨٠٠٠ نفس فى الخرطوم الا انى لم أزل أرغب فى التقوية والمساعدة واستمر المدير على صداقته له وأمانته وفى ٢٣ ديسمبر هزم جيشا مقداره ٥٠٠٠ نفس من الدراويش فى نواحى الدبة الا أن هذه الحركة المظفرة لم يحصل منها نتيجة لغوردون لان الخرطوم لم تزل محاطة احاطة مهولة ولم يحصل من انكلتره همة فى ارسال مساعدة للخرطوم وخلاص غوردون وانقضى شهر يوليه والاستعدادات وان كانت جارية فى لوندره الا أن السفر الى الخرطوم لم يحصل فيه فصل ولا حكم ورجح الجنرال استفانسن السير من طريق عطمور أبو حمد لانه لم يجد السفر من طريق النيل موافقا لرأيه وفى مبادى أغسطس قرر البرلمان سفر الحملة اللازمة وصدر بذلك قراره ومن بعد مضى يومين من أمر البرلمان وصلت الاخبار من غوردون بانه هو وستوارت والمستر پور جميعا على قيد الحياة وهم طيبون بخير وعافية وفى ١٠ أغسطس ورد من عند غوردون أخبار طيبة تفيد أنه كان خرج فى تجريدة وانتصر على الدراويش وقتل منهم ١٨٠٠ نفس فكانت هذه أخبارا عظيمة وبينما كانت الاستعدادات والتجهيزات من الايالات الانكليزية والمهمات والمراكب والذخائر الحربية والمؤونات وما يلزم للحملة السودانية جاريا تسفيرها الى مصر استقر الامر والرأى على السفر من طريق النيل لا من طريق العطمور وتعين اللورد وولسلى وكان ذلك مشروعه وما تراءى له من الحركات العسكرية وفى ٢٨ أغسطس اندرج اسمه فى جرائد الحوادث انه هو القائد لحملة الخلاص ووصل القاهرة فى ١٠ سبتمبر وسار منها مباشرة على النيل ولا يمكن أن نأتى بتفاصيل هذه الحملة فى كتابنا هذا الا أنه يلزمنا الاجتهاد فى كونناذكر على قدر الامكان الحوادث والوقائع التى حصلت على نهر النيل وفى نواحى الخرطوم بطريقة مفيدة سريعة الفهم لمطالعى كتابنا هذا والله الموفق للصواب

ولنذكر الآن ان غوردون محصور فى الخرطوم من ابتداء سنة ١٨٨٤ ميلادية الى حد فبراير سنة ١٨٨٥ ميلادية وفى مدة هذا الوقت لم يرسل أدنى خبر وان سفر حملة الخلاص كان فى سبتمبر فى عز زيادة مياه النيل وعلاوة على انه وذلك بالنسبة لسهولة السفر خشية من حصول التحريق المضر بالاعمال وبذلت الحكومة الانكليزية والمصرية ما فى وسعها فى اتخاذ الوسائل اللازمة لنجاز الحملة وتشهيلها عندما حصل الاقرار عليها فى مجلس البرلمان وشرعت انكلتره فى التجهيزات الحربية وأمرت بجلب البحرية من الكرومين وكادوجهة افريقة من الذين لهم دراية بسفر البحار والانهار وأرسلتهم ورتبت لهم الرواتب الشهرية من خزينتها الانكليزية وجلبت الرواسس والطومبازات والشلوبات والقوارب وأدخلت كل ذلك فى نهر النيل وتساوى فى هذه الاعمال العساكر البرية والبحرية وصاروا يجرون سوية ما يلزم لتشهيل النقل وصار تهيئة الاسلحة والذخائر نظيفة خالية من الرطوبة وصار اتخاذ كل ما يلزم من أحسن الوسائل اللازمة لسفر الحملة واستعدت عساكر المهندسين ومصالح التلغرافات ووكلاء الادارات والمستخدمين والجمالة والهجانة وصارت الايالات الاوروباوية المصرية وبحارة الانهر والبحار المالحة والعساكر الخطرية فى أحسن قالب وأعظم منوال وصار الابتداء فى تسفير أول سفرة على النيل الاعظم

﴿ السفر الى الخرطوم ﴾ كان أول سفر مقصورة على السكك الحديدية ونهر النيل من ابتداء القاهرة الى دنقله ولا ريب أن الاوامر كانت أعطيت الى مدير دنقله من قبل فى الاستعداد لسفر العساكر وكان

يلزم لهذه التحضيرات ستة أسابيع كما أنه تكون أشغال الحملة جارية مع الدقة والاعتناء فأما من الاسكندرية الى وادى حلفا فكانت السكك الحديدية والاستعدادات النقلية جارية بغاية الهمة وان كان حصل توقيف قليل وعطل فى صعود المراكب من شلالاته وان لكنه مع الهمة صار الخلاص منه على سلامة وكذا حصلت مصاعب شديدة فى النقل فى شلال وادى حلفا وبحب العساكر والانفار المعدين للشغل المراكب البخارية من الشلال وأصعدوها فى النيل ثم صار السفر الى حد سرس فى حالة جيدة وأرسل مدير دنقلة المراكب اللازمة على قدر امكانه الى سرس وصار وصول الفرقة الاولى الى دنقلة وطول هذه المسافة من وادى حلفا الى سرس ٣٣ ميلا ومن سرس الى دنقله ٣١٥ ميل ولما وصل اللورد وولسلى دنقله فى ٥ نوفمبر صار الشروع حقيقة فى السفر الى الخرطوم ولما وصل العساكر كورتى وهى قرية على الشاطئ الغربى لنهر النيل وجد أنه من الضرورى قطع العساكر الانكليزية طريق الصحراء السريع منها الوصول الى الخرطوم فمن ثم فى ١٢ ديسمبر توجهت حملة رياسة أركان حرب الى امبيجول تحت قرية كورتى وفى اليوم الثانى وصل اللورد وولسلى

ومن بعد هذا رتب الانكليز موقعا قويا فى نواحى آبار جكدول وعملوا الترتيبات اللازمة فى خصوص اقتحام الصحراء الى المتمة الى الخرطوم واجراؤها كان بناء عن الاخبار المحسوسة الواردة من غوردون وان كان البعض منها سارا الا أنه حصل للورد وولسلى منها حماس شديد وغيرة قوية وهياج فى سرعة سير الحركات ومن ثم تولد الشروع فى اقتحام طريق الصحراء مع غاية الجسارة والجراءة الا انه يلزمنا قبل أن نشرح سير هذه الحملة نذكر الحالة التى كانت فى الخرطوم بالمطابقة مع ذكر سير العساكر الانكليزية

﴿حصار الخرطوم بواسطة المهدى﴾ وضحت لنا المنشورات اليومية التى كان جاريا نشرها فى تيمس لوندره جميع الاعمال التى كانت جارية فى الخرطوم لحد ٢٩ يوليه سنة ١٨٨٤ وعرفنا منها ومن دلائل أخرى أن غوردون كان خالى النقود وصار من عنده من العساكر المصرية على غاية من الجبن والبلادة وصار لا يحكم على شئ سوى شجاعته واقدامه وثباته مع الاوروباوين القليلى العدد وكان عليهم اعتماده ووثاقته وبواسطة أعمالهم وأشغالهم بالاتحاد معه حفظ الخرطوم من الخراب والدمار وكان معاضدا على الخصوص فى أشغاله بواسطة القولونيل ستوارت والمستر بور وهذا له صيت كبير فى السياسة والكتابة وبواسطة هؤلاء جميعا جعل غوردون الخرطوم فى قبضة يده ولما كان موقع الخرطوم فى نقطة اجتماع النيلين الابيض والازرق من أعظم المواقع وأحصنها كان غوردون مستحوذا بواسطة هذا الموقع العظيم على الوابورات البخارية من مصر وبها حافظ النهرين ومن ثم لم يكن هذا الموقع قابلا للهجوم الصادر من أى عدو الا من جهة البر وهى الجهة القبلية وكان غوردون يحذر طول الليل على سطح سراياته مراقبا أى حركة يحصل وقوعها على المدينة من المهدى ويستمر سهران فوق سطح السراى حتى يلوح الفجر ولا يثق بعيون أحد خلافه يراقب حركة العدو وكانت مراسلاته قليلة وبين الرجاء والخوف وكان يجلب مؤن العساكر وأهل المدينة بواسطة الوابورات الا أنه أخذ فى الضيق شيأ فشيأ مع قرب العدو فى الحصار وحصل له غاية الضرر والاستغراب من الانكليز وتأخيرهم الحملة عنه مع انه جار منه توبيخ الحكومة الانكليزية فى كونهم تاركته وبعدت عن معاضدته

وفى ٧ أغسطس ورد من غوردون افادة يعلم منها ان غوردون ومن عنده فى حالة طيبة وعندهم فى الخرطوم ذخائر كافية لمدة أربع شهور ثم سمعنا من بعد مضى بضع أيام من ورود هذه الافادة ان الجنرال غوردون نال نصرة عظيمة على المهدويين وقتل منهم نحو من ١٨٠٠ نفس ومن بعد مضى شهور رأينا انه هجم على بربر وعمل استكشافات كثيرة وتغلب على جزيرتين فى النيل وكذا فى ١٧ سبتمبر وردت افادة تاريخها ٢٥ أغسطس يذكر فيها أنا منتظر حضور العساكر الانكليزية لخلاصى وخلاص المحافظين وأرسلوا الى الزبير وأنا أخضع السودان للسلطان وكذا يلزم ارسال ٢٠٠٠٠ عسكرى تركى والا فاذا كان العصاة يذبحون المصريين فانهم المسؤلون عن دمائهم والمجاوبون عن ذبحهم

ومن بعد مضى يومين وردت أخبار من غوردون يتضررفيها من تأخير الحملة وفى ١٧ سبتمبر كتب افادة يذكر فيها أن سفر الكولونيل ستوارت والمستر بور والقنصل الفرنساوى لاجل الهجوم على بربر كان من أقبح السفرات ومركز حلول النكبات

﴿ ذبح القولونيل ستوارت ورفقائه ﴾ — وذلك أن الكولونيل ستوارت بارح مدينة الخرطوم فى وابور المسمى عباس مصحوبا بوابورين آخرين مقطورين خلفه مانقائر مشحونة بعساكر ولما وصل الى بربر ضربها بنيران المدافع وطرد الدراويش منها ثم أعاد العساكر وسار منحدرا فى النيل بوابور عباس وفى ١٨ لطم الوابور بصخرة فى وادى غمرة ومن ثم صار انزال المؤن والذخائر الموجودة فى الوابور على جزيرة بالقرب من المحل الذى انكسر فيه الوابور وسمر الكولونيل ستوارت المدافع وأغرق ذخائره وهرع الناس اليه يطلبون منه حبوبا وغلالا ويعترفون له بالسلم والطاعة وجاء رجل اسمه الشيخ سليمان ودعا الاوروباويين الى منزل رجل أعمى لاجل حفظهم فيه حتى يجهز لهم الجمال اللازمة لعودهم وطلب من القنصل وبور وستوارت أن يتوجهوا الى المنزل بغير سلاح حتى لا يحصل خوف أو رعب عند الاهالى ولما عزل الشيخ سليمان المكار الاوروباويين من الاهالى أرسل جماعتين من أهل القرية واحدة فى داخل بيت الرجل الاعمى والاخرى تكمن فى البيوت المجاورة لمنزل الاعمى ولما استقر هؤلاء الاوروباويون فى منزل الاعمى هجم عليهم أهل القرية وقتلوهم فوراوهرب المصريون وعاموا فى النهر فاصطادهم أهل البلد بالرصاص ولم ينج منهم الاثمانية أوتسعة ورموا جثث القتلى فى البحر وفى الحال أشيعت هذه الحادثة المهولة ووصلت أخبارهم الى دنقلة ومنها الى مصر فحصل الاسف الشديد وكانت أكثرنا أثيرا فى لوندره وحصل من غوردون شدة الشكوى والتضرر الا أنه لم يزل كان على أمل رفض تسليم نفسه الى محمد أحمد المهدى وضايقه المهدى مضايقة شديدة فى حصاره له وأشرفت الذخائر الحربية على الخلاص وأما البارود فكان جاريا تشغيله بمعرفته لانه ما كان يغفل ولا ينام متحمل المشاق والآلام وبذل جهده ومافى طاقته فى اجراء كل شئ يحفظ به وجود نفسه أمام الاعداء وأما الضباط المصرية فكانوا معه على نصف قلب أوقل لاشئ وعلى ما قيل ان جميع الناس بعد وا عنه حتى صار هو ونفسه وكان يخفى على الدوام مافى ضميره ويرسل البلاغات والمكاتيب بسرعة الحضور فى خلاصه

وبهذه الحالة قربت سنة ١٨٨٤ على الغلاق وصمم اللورد وولسلى أمره على اقتحام الصحراء الى المتمة وفى ٣٠ ديسمبر سافر الجنرال ستوارت من كورتى وفى أول يناير ورد بلاغ من غوردون

تاريخه ١٤ ديسمبر نصه ـ الخرطوم ومافيها فى حالة جيدة ـ غوردون

﴿ اقتحام الصحراء ﴾ ـ اذا تأملنا فى أى خريطة من الخرائط المختصة بوادى النيل نرى أن نهر النيل من عند امبيجول لاف لفة كبيرة نحو الجهة الشمالية الشرقية الى حد قرية أبوحمد ويمر بقرى كورتى ومروى وهنداب وبورتى وكر يبكان ومن عند أبوحمد يتجه الى الجهة الجنوبية على مسافة ١٢٤ ميلا الى بربر وينوف عن ١٠٣ ميلا الى شندى تجاه المتمة ومن غوباط الى مسافة ١٠٠ ميل توجد مدينة الخرطوم الواقعة على نقطة اجتماع النهرين الابيض والازرق وان الطريق اللازم لسير القول الطيار فيها هى قاعدة مثلث غير منتظم الخطوط ضلعاه الآخران النيل ورأسه قرية أبوحمد وطول الطريق من كورتى الى المتمة ١٨٢ ميلا تقريبا هى من امبوكول الى جاكدول ٩٦ ميلا ومنها الى آبار أبى طليح ٦٤ ميلا ومنها الى المتمة ٢٢ ميلا يكون ذلك ١٨٢ ميلا

ثم بارح القول كورتى بعد الظهر وكان الماجور كتشنر فى المقدمة مع الدلاء وهؤلاء كانوا محفوفين بعساكر بيادة راكبة محيطة بهم بحيث لو روى من أحد منهم خيانة قتلوه فى الحال وكان السير هربرت ستوارت كشف محل السير كشفا جيدا ورتب القول حتى جعل عرض مواجهته ١٠٠ يارده وطول القول نصف ميل وما تحصر فى عقول العساكر والضباط وأهل الحملة من الاتعاب والمشاق والاهوال والاخطار كان جميعه محصورا فى المثل الذى قاله الجنرال ولز وهذا المثل الذى قاله هو (لا يمكن عمل عجة من دون تكسير البيض) وقال نحن لا يمكننا أن نشرع فى أى حرب من دون أن نخاطر فيه بأنفسنا

﴿ واقعة آبار أبى طليح ﴾ ـ وبارح السير هربرت ستوارت كورتى فى يوم ٨ يناير سنة ١٨٨٥ وعسكر فى الكشف بعد أن سار سبعة أميال وفى الساعة ١ و ٣٠ دقيقة بعد نصف الليل سافر وقطع فى سيره مسافة ٣٠ ميلا وفى يوم السبت ١٠ الشهر وصل هبولة وفى يوم الاحد وصل القول آبار حلفا وفى يوم الاثنين وصل القول جكدول واستمر فى سيره الى آبار أبى طليح وهى على مسافة ٦٠ ميلا من آبار حلفا وفى يوم ١٦ شاهد القول الدراويش على بضع أميال من الآبار فى قوة عظيمة صار تقديرها بوجه التقريب ١٠٠٠٠ نفس وكان مع الجنرال هربرت ستوارت ١٥٠٠ نفس فقط وترك ٥٠٠ نفس آخرين خفراء على آبار مختلفة فى الطريق فلما رأى هذا الجيش الصغير الدراويش وماهم فيه من كثرة العدد والقوة وقف وعسكر فى الكشف فى ليلة ١٦ وأرسل العدو عليه طول الليل نيران بنادق حادة شديدة

وفى يوم ١٧ اجتهد الجنرال ستوارت وبذل قوته فى طرد العدو من أمامه الا أنه لم يتيسر له ذلك فترك الحملة تحت خفر رجال من عسكره وسار بالباقى من قوته فى هيئة قلعة مربعة نحو آبار أبى طليح وكانت هذه القوة مركبة من أخلاط كثيرة وخط سيره واقع على ظهر صخرى فى واد وفى أثناء سير هذه القلعة الى الامام كان الدراويش مسلطين عليهم نيران البنادق واتجه الدراويش وانوا نحو شمال الجيش ففتح عليهم ستوارت نيران طوبجية حادة فانتشروا على أجناب القلعة فغير ستوارت حذاء القلعة حتى صار العدو جميعه فى يمينها وأخذ الدراويش فى الجرى السريع وخلفهم ألوف منهم وكان خروجهم بغتة من أورمانات كانوا مختفين فيها على مسافة ٨٠٠ يارده من القلعة وساروا مسرعين بخطوة الهجوم السريع ولما قرب الدراويش مقتحمين القلعة فتح الانكليز عليهم نيران ثقيلة من الجنب

الايسر

الايسر للقلعة الا أن هذه النيران لم يحصل منها أدنى تأثير ولما صاروا من القلعة على مسافة قليلة انحرفوا فجأة وهجموا على وراء القلعة وكان مركبا من عساكر السوارى الثقيلة فتولد من هذا الاقتحام البغتى وقوف الجيش الانكليزى وانتشب الحرب يدا بيد واستمرت مواجهة القلعة والجناح الايسر مدا ومين على ضرب النار على الدراويش ومن بعد مقاومة شديدة وهلاك أنفس بين الطرفين رجع الدراويش واستمرت القلعة فى ضرب النار واقتحم عساكر السوارى راكبين خيولهم حتى وصلوا الآبار وتبعهم القلعة وجاءت اليهم الجلة والمهمات مع الخفر فى سلامة * وقال بعض الذين شاهدوا هذه الواقعة ان الصحرا صارت الدماء تجرى فيها مثل تيارات المياه وتغير اللون الابيض للرمال باللون الاحمر القاتم وقتل من الانكليز فى هذه الواقعة نحو من ٧٤٠ نفس ومن الدراويش أكثر

﴿واقعة غوباط﴾ — ومن بعد ظهر يوم ١٨ سار هذا الجيش القليل الذى ما بقى منه الا ١٠٠٠ مع الشهامة الى المهمة وأخذ خبرا فى حال سيره أن العدو متجمع فيها بقوة عظيمة ومحصن نفسه فى موقع على خمسة أميال من النيل ولما سار الجيش الانكليزى وشاهد العدو تشكل ستوارت زريبة وعمل نوع دروة من الجمال والجلة والسروج والشواغر والغبيطات لكن كانت نيران الدراويش حادة جدا وثقيلة فانجرح الجنرال ستوارت جرحا بليغا مات منه بعد قليل وكان كاتب الجرانيل والحوادث مستخفين وراء الجمال فقتل مكاتب الاستندارد ومكاتب مورتن بوسط واثنان من الضباط وقتل ١٢ نفس وانجرح ٤٠ نفس قبل تمام شغل الزريبة وقتل فى هذه المهمة الكولونيل برنباى ومن الدراويش نحو من ٨٠٠ نفس الا أن خسارة الانكليز كانت مهولة جدا خصوصا فى صنف الخيالة

ثم عزم الانكليز على السير وتشكلت القلعة ومن بعد أن سارت بضع أميال التحم القتال ثانيا الا أنه ما كان مهولا مثل الذى حصل فى أبى طليح وما تجاسر أحد من الدراويش على الدنو من القلعة فى داخل مسافة ٦٠ ياردة منها من حدة النيران وشدتها وفى هذه الاثناء هجم خيالة الدراويش على الزريبة وكان اللورد شارلس برسفورد على قيادة العساكر فاستمر فى قتال وحرب ابث نحو ساعتين وأخيرا تقهقر الدراويش وصار تقوية موقع غوباط بالمتاريس وكانت الذخائر والمؤن كثيرة وورد بعد ذلك العساكر والتقويات وسار الجنرال ارل من طريق النيل صاعدا مع التفافه مصرا على الانتقام وأخذ الثار من الذين قتلوا ستوارت ورفقاءه فأدركته منية حمامه وقتل فى كربكات

وفى ٢٢ ينايرسنة ١٨٨٥ وصل الى موقع غوباط خمس وابورات أرسلها غوردون مشحونة بالعساكر والمدافع وأرسل غوردون مع قائد هذه الوابورات مكتوبا من طرفه أن الجميع طيبون بخير وعافية فرغب السير شارلس فى الصعود على النيل مع وابورين لاجل خلاص الخرطوم وسار وضرب فى طريقه بربر بنار المدافع واستمر يومين سائرا فى الوابورين على مياه مسافة طولها ١٠٠ ميل وتأخر وصوله جدا وذلك أنه اصطحب فى يوم ٢٤ ينايرٍ بالماجور غاسكوني واثنين يوزباشية وساروا مع عساكرهم ونزل القولونيل ستوارت وارطلى بفرقتين من العساكر من معسكر غوباط فى وابورين آخرين من وابورات غوردون متوجها الى الخرطوم وبالنسبة لحالة أحد الوابورات والعوارض الموجودة فى أشغال الملاحة حصل فى أحد الوابورات بعض كسورات كانت تحتاج لشغل ١٢ ساعة أو ٢٤ ساعة لا أكثر مكث البحرية يشتغلون فيها أربعة أيام مع شارلس ويلسون وكان نازلا على شارلس ويلسون وما معه نيران بنادق ومدافع من عند الدراويش حادة جدا وكانت جميع الطريق من حلفاية الى الخرطوم

ومسافتها ١٣ ميلا وكان وابورا اللورد شارلس برسفورد تحت نيران بنادق ومدافع شديدة وكانا على حالة خطرة فى سيرهما ومن الاتفاقات العجيبة أن أحد وابورى شارلس و يلسون انكسر بعد أن مر من شلال شابلوكا فى ٣٠ ينايرفنقل العساكر فى الوابور الآخر وكذا الذخائر وفى ٣١ يناير غرق هذا الوابور أيضا بالقرب من جزيرة صغيرة على مسافة ٤٠ ميلا من موقع غوباط وفى هذا الوقت سار ستوارت وارطلى مع خمسة أنفار فى قارب صغير وأخبروا بهذه الحادثة فى معسكر غوباط فصار تسفير وابور تحت قيادة لورد شارلس برسفورد لاجل خلاص شارلس و يلسون ومن معه ومن قبل أن يصل لورد شارلس برسفورد لخلاص شارلس و يلسون وحزبه استمر مدة عشر ساعات تحت نيران ثقيلة مقذوفة عليه من عند العدو فى الجهة القبلية من الشلال السادس وصدمت الوابور قلة خرقته فالتزم لورد شارلس برسفورد على رمى خطاف الوابور فى وسط مياه النيل لاجل ترميم الخرق وفى أثناء ذلك نزل شارلس و يلسون ومن معه من الجزيرة وساروا فى طول شاطئ النهر مسافة فأخذهم اللورد برسفورد فى وابوره بعد أن قلفط العساكر الخرق وكان ذلك فى ٥ فبراير وفى ليلة ٢٦ ينايرسنة ١٨٨٥ تغلب المهدى على الخرطوم بدسيسة من فرج باشا الزينى وكان هذا من محاسيب الخديوى توفيق باشا ومن بعد ذلك شنق المهدى فرج الزينى وقتل غوردون ولما قرب شارلس و يلسون واللورد شارلس برسفورد من الخرطوم ورأوا تغلب المهدى عليها ارتدوا جميعا على أعقابهم خائبين حتى وصلوا معسكر غوباط وأرسلوا بهذه الاخبار المهولة عليهم الى اللورد وولسلى فى كورتى فاستشار حكومته فأمرته حسبما تقرر فى البرلمان بالانسحاب من الاقطار السودانية

وفى أول مايه سنة ١٨٨٥ وصل اللورد وولسلى الى سواكن وشاهد ما بها من الحركات وفى يوليه انسحبت العساكر الانكليزية من السودان على عزم أن يتحصنوا فى وادى حلفا وكروسكو وأسوان و يتركوا المهدى وأتباعه ماوراء ذلك

وقطن المهدى أم درمان مقابلة الخرطوم يجمع الجموع و يجند الجنود لاجل التغلب على الديار المصرية وأرسل مكاتيب من طرفه للخديوى والسلطان عبد الحميد وملكة انكلترة يشعرهم بدولته ومقر سلطنته وضرب النقود ومات بالجدرى فى ١٩ يونيه سنة ١٨٨٥ بعد أن استخلف ابن أخيه السلطان عبد الله التعايشى ولم يتولد من موت المهدى شئ تضعف منه حركة الدراويش بل استحفظوا على حدودهم وصاروا فى مناوشات شديدة مع العساكر المصرية والانكليزية فى جهتى وادى حلفا وسواكن

﴿واقعة الجميزه﴾ واستمر عثمان دجنة مضايقا على سواكن ومحاصرها الى أن أرسلت الحكومة المصرية فى شهر نوفمبر سنة ١٨٨٨ حملة مركبة من عساكر انكليزية ومصرية تحت قيادة الجنرال غرانفيل سردار الجيش المصرى ولما تكاملت الحملة بسواكن هجم الجنرال غرانفيل على الدراويش الحاصرين لسواكن على بعد ٢٠٠ يارده تقريبا من طابية الجميزة فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٨ وكانت النتيجة انتصار الجيوش المصرية والانكليزية على دراويش عثمان دجنة وانقاذ سواكن من الحصار

﴿واقعة ارجين﴾ وفى ٢ يوليه سنة ١٨٨٩ حصلت واقعة أرجين وهى بلدة على مسافة ٣ أميال بحرى حلفا

﴿واقعة توسكى﴾ وفى خلال واقعة ارجين هذه تكاثر تجمع الدراو يش تحت قيادة ابن النجومى وأزعجوا حامية الحدود فجمع الجنرال غرانفيل قوة عظيمة وساقها الى الحدود وانتشب القتال بينه و بين

ابن

ابن النجومي في توسكي الواقعة بين حلفا وكرسكو في يوم ٣ اغسطس سنة ١٨٨٩ وكانت نتيجته انتصار الجيش المصري على الدراويش وقتل في هذه الواقعة ابن النجومي وكانت خسارة الدراويش ٥٠٠٠ نفس بين قتيل وجريح وخسائر المصريين زهيدة جدا عبارة عن ٢٥ نفس

﴿واقعة طوكر﴾ وفي سنة ١٨٩١ ميلادية هجمت العساكر المصرية تحت قيادة قومندان سواكن على الدراويش الموجودين بجهة طوكر كانت نتيجته هرب الدراويش واحتلال العساكر المصرية طوكر

﴿واقعة امبيجول﴾ وفي ٢ ينايرسنة ١٨٩٣ حصلت واقعة بجهة ابار امبيجول قبلي المرات بين هجانة الجيش المصري وسواري الدراويش وكانت نتيجتها هزيمة المصريين حيث قتل في هذه الواقعة قومندان الهجانة المصرية وأربعون من صف ضباط وعساكر وكانت واقعة محزنة جدا عند كافة المصريين

﴿ سمو الخديوي المعظم عباس باشا حلمي الثاني ﴾



وفي ٧ ينايرسنة ١٨٩٢ ميلادية وردت الاخبار التلغرافية من القاهرة تنعي وفاة الخديوي محمد توفيق باشا من اصابته بحمى شديدة وكان ولي عهده على الحكومة المصرية نجله البرنس عباس باشا حلمي غائبا في فيينه فعاد منها الى القاهرة وجلس على الاريكة الخديوية من ابتداء ٨ ينايرسنة ١٨٩٢

﴿ الكتاب الثالث ﴾

(تاريخ الكلدانيين)

﴿ الباب الاول ﴾

(تشييد الحكومة الكلدانية وسقوطها)

كلديا أقدم سلطنة فى آسيا ـ سعة المملكة وامتدادها ـ موقعها الجغرافى ـ أوصافها الطبيعية ـ نهرى الدجلة والفرات ـ مناخ المملكة ـ خصوبة كلديا ـ المحصولات النباتية ـ الحيوانات ـ تأسيس السلطنة الكلدانية بواسطة نمروذ ـ صفة نمروذ ـ خلفاؤه ـ العائلة الرابعة والخامسة ـ ارتباطات كلديا مع أشوريا ـ تغلب أشوريا على كلديا ـ حضارة كلديا ـ مدائنها ـ هياكلها ـ تجارتها ـ سيادة كلديا على الدنيا القديمة ـ ديانتها ـ غذاء الامة الكلدانية وعوائدها

كانت مملكة كلديا أقدم سلطنة فى قارة آسيا والارض التى كانت هذه المملكة فيها محصورة فى قطعة من القسم الخصب الذى يشق وسطه حزام الصحراء العريض الذى يعبر نصف الكرة الشرقى من البحر الاطلانطيقى فى الجهة الغربية الى البحر الاصفر فى الجهة الشرقية وتنقسم هذه الناحية الى سهل غربى تشابه هيئته مشابهة تامة لوادى النيل ولو أنها على منوال أعرض منه ومن ناحية جبلية شرقية مركبة فى معظم ذاتها من خمس أوست سلاسل جبال متوازية ترتفع فى كثير من محال منها عن موازنة خط الثلج الدائمى وأما السهل الغربى الواقع بين الصحراء السورية العربية وذيل جبال سلسلة بلاد الكوردستان واللورستان فانه كان فى الازمان القديمة مركزاً ومقراً لثلاثة من الممالك الكبيرة فى الدنيا وكان يعرف عند اليهود باسم ارام النهرين أو سوريا ذات النهرين وعند الجريق والرومانيين باسم ميزوبوتاميا وعند العرب بجزيرة العراق ومن ثم تحتاج هيئته الممتازة وجلالة موقعه وخصوبة أرضه للنهرين العظيمين العابرين منه وهما نهر الدجلة ونهر الفرات وهما ضروريان لرى الاراضى الشاسعة المنخفضة من جزيرة العراق زيادة عن الجهة المرتفعة منها لانه يمكننا أن نقول ان جزيرة العراق هى فى الحقيقة مصر بل وأزيد منها بمعنى أن أرضها مكتسبة وأنها هدية ومنحة من عند النهرين اللذين يرويانها فى أى جهة من جهاتها وانها تشكيل أو تكوين حديث العهد لان الرواسب الطينية المجلوبة مع مياه النهرين من أعالى الاراضى الآخذ منها هذان النهران منبعهما رسبت وترسب فى الجهات الاقل عمقاً فى المياه من مياه الخليج الفارسى الجارى تفريغ مياههما فيه من عدة عصور مضت

وتشغل كلديا من هذا السهل القطعة الجنوبية وتمتد من الخليج الفارسى فى الجهة الجنوبية الى الحد الطبيعى بين جزيرة العراق العليا والسفلى فى الجهة الشمالية ومن نهر الدجلة فى الجهة الشرقية الى صحراء العرب فى الجهة الغربية والظاهر أن الخليج الفارسى فى زمن تشييد السلطنة الكلدانية كان ممتداً تقريباً الى نحو ١٢٠ أو ١٣٠ ميلاً نحو الجهة الشمالية زيادة عما هو عليه الآن وصار يأخذ فى النقص على التدريج حتى وصل للحدود التى هو عليها الآن وبهذا اكتسبت سعة من الارض طولها ١٣٠ ميلاً وعرضها ٦٠ أو ٧٠ ميلاً من البحر فى ظرف أربعين قرناً وبهذا تكون كلديا عبارة عن ناحية من أرض مساحتها ٢٣٠٠٠ ميل مسطح

وحالة هذا الاقليم واحدة لاتتغير وأنهارها هي هيئتها الاصلية الجغرافية وأما الآن فهي عبارة عن أرض سهلة واسعة مشقوقة بتلال منعزلة تبين مواقع مدائنها القديمة وخطوط من حواجز مكسرة تبين مجاري ترعها وخلجانها التي طمت الآن وعمت ولون الاراضي يوجد على مد البصر شديد القتامة في السواد ماعدا جهات العيون والمنابع ولهذا اسماها العرب سواد العراق وأما الاراضي النضرة الخضرة فانها توجد في طول شواطئ الانهر وفي نواحي البطيحات ومستنقعات الجهات في الجهة الشمالية الشرقية لهذا الاقليم وعلى امتداد بعيد خلف حده الشمالي الى السلسلة الاصلية لجبال طوروس التي يتشكل منها امتداده الشرقي توجد السلسلة القديمة لجبال نفاطيس وهي أكثر ارتفاعا من السلاسل الجبلية المتوازية القائمة بين السهل العراقي والبحر الاسود وتعلو في كثير من المحال عن خط الثلج الدائمي ويأخذ نهر الدجلة منبعه من الجهة الجنوبية الغربية لسفوح هذه السلسلة وكذا يأخذ نهر الفرات منبعه من الجهة الشمالية الشرقية لسفوحها وينحرف نهر الفرات من بعد مصادمته هذه السلسلة الجبلية بالقرب من منبع نهر الدجلة ويجري في مجرى معوج الى أن يصب في الخليج الفارسي وكل من هذين النهرين معدود من الطبقة الاولى للانهار لان طول نهر الدجلة ١١٤٦ ميلا وطول نهر الفرات ١٧٨٠ ميلا وكل منهما شديد الجريان مشحون بالمياه قابل للملاحة في طول مسافات عظيمة منه ويصب في نهر الفرات بضع نهيرات من بعد أن يترك سلاسل الجبال الخارج منها ولا يصب فيه شئ في طول مسافة ٨٠٠ ميل من مجراه الى مصبه وأما نهر الدجلة فانه يصب فيه على الدوام مياه نهيرات ثانوية موجودة على طول مجراه فلهذا كان نهر الدجلة أعرض وأعمق نهر في جهته التحتية زيادة عن نهر الفرات وكل من النهرين تعلو مياهه بمقدار عدة أقدام في أثناء فصل الربيع من السنة وتغمر مياه النهرين شواطئهما في كثير من المحلات ويروي نهر الدجلة الاراضي الواقعة في طول مجراه الاسفل ويعم فيضان نهر الفرات سعة كبيرة من أرض الاقليم وتنتشر هذه المياه حتى تتصل بمياه نهر الخابور ومن المحيط الى نحو الجهة الجنوبية تعم المياه فوق الشواطئ ويختلف الفيضان على حسب ميل أرض السهل وطبيعة الشواطئ فلو عملت التحفظات اللازمة لاعمال الري لامكن توزيع مياه الفيضان على كل من جهتي النهر بالتساوي لكن من حيث ان الشواطئ متروكة هي ونفسها فان المياه تسيل على الجهة الغربية بالخصوص ويتسبب منها في أراضي هذه الناحية الغربية مستنقعات وبطيحات وتترك الاراضي الموجودة على الشاطئ الايسر من غير ماء ولو أن هذه المياه ليست مشحونة بالرواسب التي يتكون عنها قشرة جديدة على الارض تكون سببا في جودة نمو الزراعة كما في حالة وادي النيل لكنها لم تزل هي السبب الاصلي في وجود الخصوبة في السهل الاعظم العراقي وانما كانت مدبرة في قديم الزمان لتعميم ري الاراضي بواسطة ترع وخلجان ومساق محفورة في جميع أنحاء هذا السهل الشاسع تدل عليها الآن آثارها الموجودة فيه

ومناخ هذا الاقليم متوسط بهيج في مدة فصل الشتاء والصقيع فيه خفيف جدا ويندر تكون الجليد في بطيحاته والثلج غير معروف فيه ويكثر سقوط الامطار الغزيرة في هذا الاقليم في شهري نوفمبر وديسمبر وتخف الامطار بمجرد قرب فصل الربيع ويبتدئ الصيف في نحو شهر مايه ولحد شهر نوفمبر تنقطع الامطار بالكلية ويخلي الجو من السحاب أسابيع وأشهرا ويشتد حر الصيف وتلطف الحرارة في الصباح وفي المساء فقط بواسطة ضباب خفيف يكسر شدة الاشعة الشمسية برهة ما من الزمن وفي هذا

الفصل تعم حادثة السراب وتشاهد في أجمل ما يكون من الصورة وأظرفها
وأما الارض فهي في حالة جيدة من الخصوبة وكانت تغل في الازمان القديمة كثيرا من المحاصيل المختلفة الجنس واتفق المتأخرون من السياح على انه لو صار تدبير طرائق الري بوجه حسن وحصل الاعتناء في غراس هذا الاقليم وزراعته لصار من ضمن الجهات الاكثر ثروة وأجود محصولا على ظهر الارض
والمحصولات الاصلية لهذا الاقليم القمح والتمر والقمح نبات وطني في كلديا كما رواه أهل بلاد هذا الاقليم وهو طويل الورق عريضه حتى كان البابليون يحصدونه مرتين ويعلفون به مواشيهم ويحفظون التقاوي في سنبلها لزراعة العام القابل وكذا زراعة نخيل التمر كثيرة والتمر هو أحد المواد الرئيسة للغذاء عند الاهالي وينبت في هذا الاقليم أيضا الشعير والذرة والدخن والسمسم وأصناف الفواكه بوفرة ويوجد محصول آخر هو الغاب ينبت على هيئة أرمانات كثيفة في بطيحات الاقليم ومستنقعاته ويرتفع الى ١٤ أو ١٥ قدما وكافة مساكن الفقراء مصنوعة من هذا الغاب ومن أوراقه تصنع الحصر وكذا تصنع عظام المراكب والقوارب من هذا الغاب وتستر بأوراق تدهن بنوع من القار أي الزفت
ولا يوجد في كلديا أي صنف من أصناف الاحجار والمعادن وأما الاحجار المستعملة في أبنية أماكنها فهي مجلوبة لها من أماكن أخرى ويوجد في أراضي سهولها أجود مادة من الطين الابليزي كانوا يصنعون منها أجود الطوب وأحسنه بعد أن يخلطوا هذه المادة الطينية بمادة من الجرة والحيوانات الوحشية الموجودة في اقليم كلديا هي الاسد والنمر والضب والفهد والقط الجبلي والذئب وابن آوى والخنزير الجبلي والجاموس الوحشي وبقر الوحش والغزال واليربوع والثعلب والارنب والعناق والقنفذ وأما الحيوانات الاهلية فهي متعددة أيضا فمنها الجمل والحصان والجاموس والبقر والاثوار والمعز والضأن والكلاب
ثم ان التاريخ القديم لكلديا معتم جدا وغير محقق بالكلية والظاهر أنه من بعد تشتت وانتشار ذراري أولاد نوح من سهول بابل من بعد تبلبل الالسنة قطن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام في هذا السهل الشاسع وشيد مملكة في الناحية الواقعة في رأس الخليج الفارسي لبثت ١٤٥٠ سنة الى حد آخر ملك من ملوكها وهو ساردن بول أو ساردنابال وقلب الصرح الذي لم يتم بناؤه الى صورة معبد وشيد أبنية أخرى حوله مصنوعة من الطوب المضروب من طين هذا السهل وبهذه الحالة أسس نمروذ بابل كما أنه كان المؤسس للمملكة ومدة التاريخ الذي حصلت فيه هذه الحادثة ومن ابتدائه افتتح تاريخ كلديا كان قبل سنة ٢٢٨٦ قبل الميلاد بقرن أو قرنين وكانت مملكة نمروذ هذه ممتدة من بابل الى البحر ولما تمكن من الملك وصار ذا قوة قوية مد سلطانه على القبائل والعشائر المجاورة له وبواسطة ما حازه من الصفات والاعمال نجح في تشييد أمة في أسفل العراق حكمها بشوكة قوية ويد ثابتة وكانت عاصمة هذه المملكة مدينة أور أو حور واقعة على الشط الايمن لنهر الفرات وعلى مسافة قليلة من مصبه وابتنى مضافا الى بابل كلا من مدينة عراق واقاد وخلنة ومن بعد ذلك صارت حوادث سلطنته غير معروفة وآثار الاشغال التي كان عملها في مملكته مشهورة ومن المعلوم انه كان أحد كبار رجال الدنيا القديمة حتى جعله قومه الها يعبدونه من بعد موته واستمروا على عبادته مدة طويلة من الزمن وكان أحد

الآلهة

الآلهة الاصلية المعبودة عندهم تحت اسم بعل أو بعل نمروذ أى اله الصيد أو الصياد الاكبر وقال بعض علماء التاريخ ان الاسم الذى وضعه فلكيو العرب على كوكب الجوزاء وهو اسم الجبار كان علما على تذكار نمروذ ولم تنس الامة القاطنة فى أرضه اسمه الى اليوم وصار مع سليمان والاسكندر الاكبر الثلاثة شجعان الدنيا القديمة وصار والمخلدى الذكر عندما تحقق أسماء شجعان الرجال الاخر من الدنيا

وخلف نينوس أباه نمروذ على مملكة كلديا وحاز من الشهرة وعلو المنزلة ما زاد مركز موقعه وسلطنته قوة وجلالة ومهابة وجمع كثيرا من الشبان وسلحهم وأخذ فى تربيتهم وتهذيبهم مع الشدة والعنف مدة من الزمن حتى عودهم على المشاق والاتعاب والجوع والظما والصبر على الحروب والوقائع والشدائد والكروب ومقابلة أعظم الاخطار بقلب قوى ومقام جلى ودخل فى محالفة مع ملك العرب وضم قواه الى قواه وأمن كل منهما غائلة الآخر وقيل ان اخوة نمروذ يعنى أولاد كوش قطنوا ببلاد العرب فى طول الخليج الفارسى من حويلة الى اوقيانوس وكانوا على مسافات قريبة من بعضهم ليساعد بعضهم بعضا على المحافظة والأمن فيما بينهم وكانت عاصمة مملكة نينوس بابل ونسب أغلب المؤرخين تأسيس مدينة بابل الى سميراميس وآخرون نسبوها كما تقدم الى نمروذ لكن اذا نظرنا للحقيقة ونفس الامر فى تأسيس هذه المدينة من الابتداء نجد أن كلا النسبتين خطأ وذلك أن تأسيسها ليس منسوبا الى نمروذ ولا الى سميراميس بل منسوب للجبابرة من ذرية نوح الذين اغتروا بأنفسهم وشرعوا فى بناء صرح ومدينة يخلدون بهما ذكرهم فى الدنيا ويصعدون بالصرح الى جو السماء فبلبل الله سبحانه وتعالى ألسنتهم الى لغات شتى وشتتهم فى عالم البسيطة

ولما أراد نينوس توسيع مملكته ومد تغلباته جهز العساكر والجنود وعقد الالوية والبنود ليتم بهم له المقصود ولما استحوذ على توطيد أمن من قبائل العربان المجاورين لمملكته برز الى ميدان الحروب وفى ظرف سبع عشرة سنة تغلب على أراض واسعة وممالك شاسعة من مصر الى الهند الى بقطريانه وعند عوده الى مملكته أضمر فى نفسه قبل أن يشرع فى فتوحات جديدة أخرى أن يخلد اسمه فى الدنيا بكونه ابتنى مدينة تعادل جلالة شوكته وعظمة سلطنته وسماها نينوى وابتناها على الشواطئ الشرقية من نهر الدجلة وذكر ديودور أن نينوس جعل مدينة نينوى أفخر وأجل مدينة فى الدنيا حتى ما صار للذين جاؤا من بعده قدرة أو أمل على بناء مثلها وكان طولها ١٥٠ استادية أى ¾ ١٨ ميلا انكليزى وعرضها ٩٠ استادية أى ¼ ١١ ميلا ومساحتها ١٣٥٠٠ استادية أى ١٩٦ ميلا مسطحا وقال يونس عليه السلام وهو نبى هذه المدينة ان نينوى مدينة شاسعة الاطراف والاكناف يسير المسافر فى دائرها ثلاثة أيام وكان علو أسوارها ١٠٠ قدم وعلى ثخانة وسمك بحيث يمكن لثلاث عربات السير مواجهة على هذا السور مع السهولة التامة وكانت أسوارها محمية بواسطة ١٥٠٠ برج علو كل برج ٢٠٠ قدم ومن بعد أن تم هذا الشغل المدهش شرع فى غزوة على الباقطريانيين فجند جيشا حسبما روى مؤلفا من ١٧٠٠٠٠٠ من المشاة و٢٠٠٠٠٠ من الفرسان و١٦٠٠٠ عربة من عربات الحرب المسلحة بواسطة المناجل ومن بعد أن تغلب نينوس على كثير من مدائن الباقطريانيين حاصر مدينة باقطريانة عاصمة المملكة واجتهد فى مضايقة الحصار عليها واستمر ملازما لها مدة طويلة حتى قطع اليأس من التغلب عليها لولا أن تداركت أمره سميراميس زوجة أحد قواده وكانت امرأة على شجاعة وبسالة وحزم وتدبير فاقت به على أبناء جنسها من النساء وكان مولدها

فى عسقلان من أعمال سوريا فداته على طريق الهجوم على القلعة وبواسطة مساعدتها تغلب على المدينة ووجد فيها مالا يحصى من الكنوز والخيرات ولما رأى زوجها قبولها عند الملك وخشى سطوته من أنه ربما يغتاله من أجلها قتل نفسه بنفسه فتزوجها نينوس ومن بعد عوده الى نينوى أولدها ولدا سماه نينياس ومن بعد قليل مات وترك المملكة محكومة بالملكة سميراميس وابنها نينياس فبنت على قبره طللا فاخرا مكث مدة طويلة قائما بعد خراب نينوى

ثم ان سميراميس وجهت جميع أفكارها التخليد ذكراسمها بحالة تفوق بها جميع أسلافها فى الابهة والافتخار فلهذا شرعت فى تجديد مدينة بابل العظيمة البأس واستخدمت فى بنائها ٢٠٠٠٠٠٠ نفس جمعتهم من جميع أقاليم مملكتها الواسعة وعملت الاعمال التى صيرت بابل فى أعلى درجات الشهرة والافتخار فى العصور السالفة وكانت هذه الاعمال هى أسوار المدينة أواستحكاماتها والارصفة والقناطر وخزانات المياه والحواجز والسدود وخلجان جريان مياه النهر والسرايات والبساتين المعلقة ومعبد بعل (نمروذ) ولنشرح كلا من هذه الاشغال على حدته بالتفصيل فنقول

أولا الاسوار = استقرار مدينة بابل كان على أرض سهلة خصبة كثيرة المحصول والنباتات وكانت أسوارها عجيبة مدهشة فى بنائها تحير العقول فى أشغالها وكان سمك أى ثخانة هذه الاسوار ٨٧ قدما وارتفاعها ٣٥٠ قدما ودائر محيطها ستون ميلا ومرسوم ماحول المدينة على صورة شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ١٥ ميلا وجميعها مبنية بالطوب الاحمر المضروب من الطين ودائر حولها خندق ملآن بالمياه وجهاته الداخلة والخارجة مبنية بالطوب أيضا والاتربة والمواد الطينية التى استخرجت من حفر هذا الخندق عمل منها الطوب اللازم لبناء هذه الاسوار وغيرها من الاشغال الأخر ومن علو الاسوار وثخانتها وجسامتها يعلم سعة الخندق وعظمه وجسامته

وفتح فى كل ضلع من أضلاع هذا المربع خمسة وعشرون بابا فيكون جميع أبواب المدينة مائة باب على كل منها باب من نحاس وان الله لما وعد كيرش أى كيخسرو بفتح بابل قال له انه ستكسر أمامه الابواب النحاس قطعا قطعا وجعل بين كل بابين متجاورين ثلاثة أبراج وأربعة فى أربعة أركان هذا المربع الجسيم وثلاثة أبراج بين كل ركن والباب المجاورله على كل من ضلعى زاوية المربع وارتفاع هذه الابراج زيادة عن علو الاسوار الاصلية بقدر عشرة أقدام

ويخرج من الخمسة وعشرين بابا الموجودة على كل ضلع من أضلاع المربع خمسة وعشرون شارعا الى الابواب المقابلة لها فى الضلع الآخر من المربع كل لنظيره فكان عدد جميع الشوارع خمسين شارعا طول كل شارع خمسة عشر ميلا متقاطعة مع بعضها فى زوايا قائمة وغير هذه الشوارع كان يوجد أربعة شوارع أخرى بين منازل السكن والاسوار لافة مع أربع جهات المدينة وعرض كل منها ٢٢٠ قدما وأما عرض الشوارع الاخر فكان ١٥٠ قدما ومن تقاطع هذه الشوارع ببعضها كانت المدينة مقسومة الى ٦٧٦ مربعا دائر كل مربع ميلان وربع ومنازل السكن مصطفة على أضلاع هذه المربعات فى طول الشوارع وعرضها وبين بعضها اخلال لمرور الاهوية وكل بناء مركب من ثلاث طبقات الى أربعة الى خمسة ووجهة كل مسكن مستورة بالنقوشات المدهشة والزخرفة والتصاوير وسعة الارض الموجودة فى داخل كل مربع وخلف أماكن السكن كانت مستعملة حيشانا وجنائن وبساتين واستعمالات أخر للسكان فهذا كانت مدينة بابل كبيرة فى الظاهر صغيرة فى الباطن لان

نصف

نصف المدينة كان عبارة عن بساتين وأرض مزارع

ثانيا ـ (الارصفة والقناطر) ولما كان أحد فروع نهر الفرات عابرا فى جريانه من وسط المدينة من الشمال الى الجنوب كان على جهتى هذا الفرع رصيف مبنى بالطوب أيضا وسور مرتفع وفى هذا السور مفتوح اتجاه كل شارع باب يوصل للنهر يغلق بباب من نحاس وينزل من هذا الباب بدرج الى النهر لاجل تعدية الاهالى حسب رغبتهم من جهة الى أخرى فى قوارب وصنادل ظريفة وكانت جميع الابواب مفتوحة طول النهار وتغلق ليلا وأما القناطر فما كانت فى اتقان بنائها واحكام صنعتها ونقشها وزخرفتها أقل من المبانى الاخرى فى شئ وكان طول القنطرة الواحدة ثمن ميل وعرضها ثلاثون قدما مبنية باحكام واتقان صاعدة على أساسات متينة مرمية فى أرض رملية من قاع النهر وكانت عقودها مصنوعة من أحجار ضخمة مرتبطة مع بعضها بجنازير من الحديد ومسبولة فى لحاماتها الرصاص الذائب

ثالثا ـ (الخزانات والخنادق والخلجان المصنوعة لتحويل مياه النهر) هذه الاشغال العظيمة فى تدبير المياه فى كل العصور كانت محكمة الاتقان والصنعة والاستعمال أيضا عند الكلدانيين وذلك انه فى مبادى فصل الصيف عندما يحصل من حرارة الشمس ذوبان الثلوج الموجودة فوق رؤس جبال أرمينية تحصل الزيادة العظيمة فى المياه الجارية فى نهر الفرات فى شهور يونيه ويوليه وأغسطس حتى تسيل فوق شواطئه كما هو حاصل فى زيادة نيل مصر فلاجل منع الخطر الواقع على كل من المدينة والمملكة من فيضان هذه المياه وزيادة علوها حفر على مسافة عظيمة من فوق المدينة خليجان صناعيان بواسطتهما صار تحويل مجرى هذه المياه الى نهر الدجلة قبل وصولها الى المدينة ولاجل حفظ المملكة أيضا من خطر هذه الفيضانات وحفظ مياه النهر فى مجراها الاصلى أقيمت حواجز وأرصفة على كل من جهتى النهر بنيت بالطوب وامتدت من مبدا رأس الخليجين الى تحت المدينة بمسافة كبيرة وكان لاجل سهولة عمل هذه الاشغال من الضرورى تحويل مجرى النهر حتى يمكن التمكن من العمل فعمل فى الجهة الغربية من المدينة خزان عظيم مساحته ٤٠ ميلا مسطحا وعمقه ٣٥ قدما تحول اليه جميع مياه النهر بواسطة خليج حفر فى الجهة الغربية منه حتى تم الشغل وأعيدت المياه لاصل مجراها وبما انه ربما أن مياه النهر لا تروى فى أثناء فيضان المدينة من أبوابها الموجودة على شاطئه كان هذا الخزان مع الخلجان الخارجة من النهر معدة لحفظ المياه اللازمة لريها وكانوا يجرون التحفظ على هذه المياه فى الخلجان والخزانات جميع السنة وهذه تكون خزانات عمومية تصرف منها المياه اللازمة لاحتياج الاراضى الكائنة تحت المدينة بواسطة منافذ وخوخات ذات أبواب تفتح وتغلق حسب الحاجة فى الاوقات الموافقة لها وبهذا كانت الخلجان والخزانات مستعملة بطريق المساواة لحفظ المملكة من غوائل فيضان النهر ولصعوبة الاراضى وسقيها أيضا وقت الحاجة واللزوم

رابعا ـ (السرايات والبساتين المعلقة) وكان يوجد فى طرفى أونهايتى القنطرة سرايتان متصلتان مع بعضهما بواسطة سرداب معقود تحت مجرى النهر وكان محيط أى دائر السراى القديمة التى كانت مبنية فى الجهة الشرقية من النهر ثلاثة أميال وثلاثة أرباع ميل وبالقرب منها كان هيكل بعل وكانت السراى الجديدة المبنية على الجهة الغربية من النهر وعلى اتجاه الاخرى محيط دائرها سبعة أميال ونصف ميل ومحاطة بثلاثة أسوار داخل بعضها وعلى مسافات كبيرة من بعضها أيضا وكانت هذه

الاسوار وأسوار السراى الاخرى مشحونة بالنقوشات الظريفة والحفور الغريبة وصور الحيوانات ومن ضمن جهات صور التماثيل المنقوشة فى الاسوار جهة مخصوصة منقوش فيها صورة سميراميس راكبة على ظهر حصانها رامية خنجرها فى قلب نمر وزوجها نينوس خرق قلب أسد

وفى هذه السراى كانت البساتين المعلقة المشهورة عند الجريق وكانت شاغلة لشكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ٤٠٠ قدم ومرتفعة على هيئة دكات جسيمة وآكام سمينة بعضها فوق بعض الى محاذاة ارتفاع أسوار المدينة وكانت طرق الصعود من دكة الى أخرى بواسطة سلالم عرضها عشرة أقدام وكل هذا الكوم ثابت الوضع محكم العمل بواسطة عقود جسيمة قائمة فوق عقود أخرى بعضها فوق بعض متقوية بسور محيط بها من كل جهة سمك حائطه ٢٢ قدما ومركب على قمة العقود تبليطة عريضة من الحجر طولها ١٦ قدما وعرضها ٤ أقدم مغروس فوق هذه الاحجار الغاب المخلوط بالرغاة وفوق ذلك دكة من الطوب مركبة من مدماكين فوق بعضهما فى غاية احكام البناء والارتباط وسطح هذه الدكة مدهون بالمونة القوية وجميع هذا مغطى بطبقة من الرصاص الذائب وفوق هذا تربة البستان وعملت كل هذه التحفظات لاجل عدم وصول رطوبة تربة البستان ومياه السقية الى بناء العقود وفسادها وكان للاتربة الموضوعة فوق هذه العقود سمك كاف لاجل مسك جذور أكبر أشجار يمكن غرسها فى هذه البساتين وأنشئ فوق قمة الدكة العليا نوع طلمبة ماصة كابسة لاجل سحب المياه من النهر الى أعلى البساتين وبواسطتها يجرى سقى الاشجار والنباتات حسب الضرورة وكان يوجد فى المسافات الكائنة بين العقود وبعضها الراكب عليها هذا البناء الضخم قيعان ومجالس ولواوين لاجل الراحة والفرجة والنزهة تسر الناظر وتروق الخاطر

خامسا - (هيكل البعل) ومن أكبر أشغال بابل وأعمالها هيكل بعل أيضا وقد ذكرنا انه كان قائما بالقرب من السراى القديمة وكان فى وسط هذا الهيكل الصرح العجيب البناء والانتظام وكانت دكة أساس هذا الهيكل حسبما ذكره هيرودوط طول كل ضلع من أضلاعها ربع ميل أى أن طول الدائر ميل واحد وارتفاع البناء ربع ميل أيضا وكان هذا البناء مركبا من ثمانية أبراج راكبة بعضها فوق بعض منظومة الشكل فى علوها وهيئتها عند رؤيتها تشابه شكل أعظم هرمى مصر وهذا هو البرج ذو الصرح الذى بلبل الله سبحانه وتعالى الالسن من أجله وكان يصعد الى قمته بواسطة سلم مصنوع فى سطحه البرانى لاف حوله على هيئة خط حلزونى وهذا السلم مصنوع بغاية الاحكام والاتقان بحيث يسهل التصعود عليه مع غاية الراحة من دور الى آخر من أدوار الصرح وكانت ثمانية أدوار ومن داخل هذه الادوار مجالس وقيعان معقودة والسقف راكب على أعمدة وأما الدور الثامن الذى هو قمة الصرح فكان عبارة عن محل رصد الكواكب فكان علماء الفلك من الكلدانيين يرصدون فيه سير الكواكب ويسجلون قوانينهم ودساتيرهم وبهذا صاروا أعلم أمة فى مدة قليلة من الزمن كما حصل الاستدلال على ذلك من تواريخ تسجيلاتهم

وكان المقصد الاصلى من هذا الصرح المهول المدهش هو محل لعبادة الاله بعل وكان يوجد فى داخله عدة آلهة أخرى مرصوصة فى قيعان ومجالس داخلة وكانت ثروة هذا المعبد محصورة فى التماثيل والموائد وأوانى البخور والمباخر وأوان أخرى مقدسة جميعها مصنوع من الذهب كثيرة العدد ومن ضمن التماثيل تمثال بعل أو نمرود وكان ارتفاعه ٤٠ قدما وثقله ١٠٠٠ وزنة بابلية وبما أن

الوزنة

الوزنة الواحدة البابلية عبارة عن ٧٠٠٠ درهم اطيقى وان الوزنة الاطيقية مقدارها ٦٠٠٠ درهم فتكون الوزنة البابلية زيادة عنها بقدر السدس
ومن مقتضى الحسبة التى عملها ديودور من أجل الثروة الموجودة فى هذا الهيكل علم أن المبلغ كان عبارة عن ٦٣٠٠ وزنة بابلية من الذهب وسدس هذا المبلغ ١٠٥٠ فيكون ٦٣٠٠ وزنة بابلية تساوى ٧٣٥٠ وزنة اطيقية من الذهب ومن حيث ان ٧٣٥٠ وزنة اطيقية من الفضة عبارة عن ٢١٠٠٠٠٠ ليرة استرلينه وكانت نسبة الذهب الى الفضة عند القدماء كنسبة ١٠ الى ١ فيكون ٧٣٥٠ وزنة اطيقية من الذهب تبلغ مبلغا ينوف عن ٢١٠٠٠٠٠٠ ليرة استرلينه
واستمر هذا المعبد على حالته هذه الى زمن أردشير ملك فارس ولما عاد قهورا من حرب الجريس هدمه جميعه ونهب جميع ما كان فيه من التحف والذخائر
ولما أكملت سميراميس جميع هذه المشروعات الجليلة تفكرت أيضا فى كونها تجرى بعض أعمال فى جميع أنحاء مملكتها يعود منها النفع على المملكة فتنقلت فى داخل المملكة وشيدت مبانى وجددت أعمالا فى كل محل حلت فيه خلدت بها ذكرها الى الابد وما كفاها المملكة الواسعة التى تركها لها زوجها بل شرعت فى توسيعها ومدها وتغلبت على قسم عظيم من اثيوبية ولما دخلت فى هذه رغبت فى زيارة معبد جوبتير أمون وأن تسأل الوحى عن مدة حياتها وقال ديودور انها توجهت وزارت وكان جواب الوحى لها أنها لا تموت الا من بعد أن يظهر ابنها فى ثورة ضدها ومن بعد موتها يعبدها قسم من أهل آسيا
ولما عادت الى بابل رغبت فى التغلب على البلاد الهندية وأمرت بجمع جيش كثيف من جميع أقطار مملكتها وأن تكون نقطة اجتماع العساكر فى مدينة باقطريانه وسارت بعساكرها مخاطرة حتى تغلبت على بعض الممالك الهندية ووصلت الى نهر السند وعبرته على جسور من خشب بعد محاربة شديدة ومحافظة مهولة من ملك الهنود وأخيرا انهزمت وفقدت من عساكرها عند عودها راجعة فى عبور نهر السند الجم الغفير من العساكر ولم يرجع من جيشها معها سوى الثلث وكان مقداره ٣٠٠٠٠٠٠ من المشاة و ٥٠٠٠٠٠ فارس خلاف الجمال وعربات الحرب المسلحة ثم قام ابنها نينياس فى ثورة عليها مساعدا بقائد الجيوش فتنازلت عن المملكة لابنها حسبما أنبأها به الوحى واعتزلت فى عيشة هنية حتى أدركها حمام المنية بعد أن بلغت من العمر ستين سنة منها أربعون سنة متقلدة زمام السلطنة وعبدها الاشوريون من بعدها تحت تمثال معبودة على هيئة حمامة
وما كان لنينياس أبهة واحترام مثل والديه اللذين استلم هو زمام قيادة التخت منهما بل عكف نفسه على اللهو واللذات فى داخل سراينه لا يظهر لقومه الا نادرا وكان جل مقامه فى نينوى حتى قام عليه العساكر وقتلوه وجاء من بعده نحو من ثلاثين ملكا جميعهم يفوقونه فى الفجور والاعتكاف على اللذات وحب الشهوات ولا يعلم لهم تاريخ ولا آثار تدل عليهم
ومن المحتمل أنه جاء عقب نينياس فترة مجهولة التاريخ بواسطة هجرة القبائل السامية والحامية الى الجهات الشمالية فالاشوريون وهم أمة سامية ساروا الى العراق العليا وأسسوا مملكتهم على طول وسط نهر الدجلة والفينيقيون وهم من نسل حام ساروا الى أرض كنعان واستوطنوا فى طول سواحل البحر الابيض المتوسط وأسسوا مملكة لانفسهم وانتقل الجنس الذى تناسل منه ابراهيم عليه السلام الى

العراق الشمالى
وكان من ضمن ملوك هذه العائلة القديمة ملك اسمه أورخام أو أوروخ وكان أقدم ملك كلدانى أيضا الا أنه ماوجد له شئ من الآثار فى المملكة وكان ابتداء سلطنته فى نحو سنة ٢٣٢٦ قبل الميلاد وابتنى عدة مبان ضخمة يظهر أنها كانت جميعها محصورة فى هياكل ومعابد فقط وكانت كبيرة الحجم غير مقبولة الشكل والشغل وكان الطوب المستعمل فى بنائها غير منظوم كما كان لحامه مع بعضه بطريقة غير منظومة وكانوا يستعملون فى البناء مونة مركبة من الطين وموس التبن أو نفس التبن ويمزجونهما من جا جيدا كما هو الجارى لحد الآن عند أهل الارياف من بلاد مصر وذكر المعلم رولنسن فى كتابه علم العمارات أنه وان وجد فى الشغل بساطة وعدم انتظام الا أنه يوجد أيضا دلالة على وجود المعرفة وتجاريب فى الصنعة ويظهر أيضا أن مبدأ الشغل فى علم الفلك كان فى مدة سلطنة هذا الملك وكانت مدينة أور عاصمة مملكته ومن بعد موت أوروخ خلفه ابنه الغى وكانت سلطنته فى مدينة أور أيضا واستكشف فى هذه المدينة القديمة خاتمه الاسطوانى الشكل وهو محفوظ الآن فى دار العجائب بلوندره وأعقب سلطنة الغى خوف فى سلطنة كلديا وتاريخها نتج من تغلب العائلة العلاميطيقية على المملكة فى مدة حياة ابراهيم عليه السلام وهذه العائلة من السوس وكان تغلبها فى سنة ٢٢٨٦ قبل الميلاد وكان أول هؤلاء الملوك كدرناخونتى حكم كلديا بواسطة نائب من طرفه واشتغل هو بتدبير أعمال مملكته وكان مقر سلطنته فى السوس وملك آخر اسمه كدرلاعامر تسلطن فى السوس أيضا وقسم كلديا الى عدة أقسام جعل فى كل واحد منها عاملا من طرفه

ثم جلس على التخت عائلة ثالثة فى نحو سنة ٢٠٥٢ قبل الميلاد وكان عدد ملوكها أحد عشر ملكا ولبثت مدة سلطنتهم ثمانية وأربعين سنة ويمكن أن يقال ان هذه العائلة كانت هى علامة الخلو بين خضوع الامة الكلدانية للملوك العلاميطيقية وبين تمام استقلالها تحت جلوس العائلة الرابعة على الكرسى وكانت أحد الملوك الوطنية الكلدانية ثم وصلت هذه العائلة الى درجة الشوكة والنفوذ فى نحو سنة ٢٠٠٤ قبل الميلاد وتسلطنت الى حد سنة ١٥٤٦ قبل الميلاد وكان عدد ملوكها ثمانية أو عشرة ولا يعرف من حوادث سلطنتهم الا القليل لا أهمية فيه

وأزهرت العائلة الخامسة من نحو سنة ١٥٤٦ الى سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد وكان مؤسس هذه العائلة رئيس من كبار العرب اسمه خاموراي انتهز الفرصة وقت ضعف كلديا وانحطاط شوكتها تحت سلطنة آخر ملك من ملوك العائلة الرابعة ونجح فى أن جعل نفسه سيد البلاد والعباد والظاهر أنه تسلطن ستا وعشرين سنة ومن بعد موته ترك المملكة لابنه وكان ملكا شهما حازم الرأى وهو أول من عرف المنافع التى تعود على المملكة من عمل طريقة صالحة للرى فحفر ترعة من أحد أنهار المملكة لهذا الصدد وقال فى احدى كتاباته المحفورة على الاحجار انه استبدل السهول والصحارى الرملية بمفازات وغيطان زراعية تسقى بالماء بوجه الانتظام وبواسطة أعماله حصل الاصلاح فى خصوبة الاراضى وكثرة المحصولات وشيد عدة مبان جليلة والظاهر أن بابل كانت مقر ملكه وسلطانه وفى مدة وجود هذه العائلة كان يوجد ارتباط حتى بينها وبين أشوريا وكانت هذه صارت مملكة مستقلة من كلديا وكان هذا الارتباط حاصلا تارة اما بواسطة محالفات اتحادية أو بواسطة زواج ملوكى وفى نحو أول مدة سلطنة كلديا تداخلت أشوريا مرة واحدة فى أشغال كلديا بشأن خلع ملك غاصب للتخت ووضع ابن

الملك

الملك الذى قتله قائد الثورة على تخت أبيه ومن هذا انقطعت صداقة الارتباطات بين المملكتين وأخيرا فى سنة ١٣٠٠ ميلادية غزا ملك أشوريا تغلاثيين كلديا وتغلب عليها وأضافها الى المملكة الاشورية واستمرت عدة قرون ايالة من ايالات هذه المملكة

وكانت المدد الابتدائية للتاريخ الكلدانى موشحة بتقدمات أجرتها الامة الكلدانية فى الحضارة والصنائع والعلوم الفلكية فكانت بابل وعراق واقاد وكالنه من ابتداء عصر نمرود ذمن هرة بالعلوم والآداب والصنائع وكذا مدينة أور ومدائن أخرى وكانت مساكن هذه المدائن مربعة الشكل أو مستطيلة وأسوارها جميعها مبنية من الطوب المرتبط مع بعضه بالمونة جيدا وفى غاية الاتقان من الصنعة وكان أغلب مبانى تلك المدة ضخم الحجم وكانت هيئة الهياكل هرمية الشكل فى العادة مبنية على هيئة مدرجات متتالية صاعدة بارتفاع عظيم وكانت سطوحها موجهة نحو الاربع نقط الاصلية مباشرة وكانت الكتابة مستعملة عندهم كما شوهدت على سطوح الطوب المحرق المصنوع فى تلك المدة وكان قطع الجواهر وصقلها وجليها والحفر والنقش عليها معروفا عندهم وكذا صناعة أشغال المعادن والاسلحة والزينة وعدد وآلات نافعة كانوا يصنعونها من معادن مختلفة وكذا تشغيل الاقمشة وأصناف المنسوجات المخيشة بالقصب أو المطرزة بهيآت ظريفة كان جاريا تشغيلها عندهم وبلغ علم الفلك فى كلديا مبلغ العلم وتسجلت نتائج الارصاد الفلكية وسير الاجرام السماوية مع الدقة وجودة الاعتناء وكانت التجارات جارية من طريق البحر والبر بين الامة الكلدانية والامم المجاورة لها وكانت مراكب مدينة أور تسافر فى الخليج الفارسى وتتجر مع الامم الموجودة على طول شواطئه

وما كانت السلطنة الكلدانية فى قدمها وشهرة اسمها فى امتداد ممالكها أكثر من السلطنة المصرية فى الاقدمية وزيادة السودد الا أنه من العجب أن كلديا تدعى سبق أقدميتها على كل مملكة أو ايالة ثبتت على أرض آسيا وأن الاريانيين والتوريانيين حتى القبائل السامية يظهر أنهم كانوا فى حالة رحالة وعيشة رعوية عندما توطن الكوشيين فى الاراضى السفلى من بابل وعكفوا على الزراعة وتشييد الهياكل وبناء المدائن وتشييد حكومة وطنية قوية وأن الخبرة التى انفرشت على التدريج من الامم الآسيوية كان مبدأ وجودها على سواحل الخليج الفارسى عند مصب النهر الاعظم ومن هذه القطعة انتشرت الحضارة والعلوم وحروف الكتابة والفنون الى الجهات الشمالية والشرقية والغربية وأخذ كل من أشوريا وليديا وسامى بابل والفرس من كلديا حروف كتاباتهم واستحوذوا على ما يلزم لهم فى شأن اجراء حكوماتهم وادارتهم وصنائعهم وزخارفهم حتى علومهم وآدابهم بواسطة مادونوه وسجلوه بهذه الحروف ومما لاريب فيه أن كل أمة أصلحت ما استحوذت عليه حسب ظروف الاحوال بأن زادت عليه أو نقصت منه تبعا لتوالى العصور الا أن كلديا لم تزل منتصبة أشبه بكونها هى الوالد الاكبر وأنها هى أصل الاختراعات والتمدن الآسيوى من دون أن يعارضها فى زعمها هذا أى خصم يقف أمامها

وكانت ديانة الكلدانيين من المدد القديمة التى ما وجدنا لها تسجيلات وكانوا يقولون بتعدد الآلهة وكان عندهم من المعبودات خمسة عشر أو ستة عشر الها أصليا وعدة من آلهة صغيرة يسمونها بالآلهة الثانوية وأما الآلهة المنزلية فكانت كثيرة العدد وكل مدينة كانت تحت محافظة آلهتها الموجودين فيها ولم يتيسر الحصول على تمام معلوماتنا فى هذه المسئلة لحد الآن والظاهر أن أجل الآلهة التى

كانت موجودة عندهم هي (أولا) عل أو را وهو الاله الاكبر ولم يكن لنا معلومية منه بشيء (ثانيا) ثلاثة آلهة هي عانة وبعل أو بعلوس وهيعة أو هوعة وهؤلاء مقارنون لدرجات بلوطو (اله العالم السفلى عند الجريق) وجو بتير أى المشترى (الاله الاعظم عند الوثنيين) ونبطون (اله البحر عند الجريق) وكل منهم له زوجة من نفسه فزوجة عانة عانات وزوجة بعل موليطه أو معلطيس وزوجة هوعة دوكينة (ثالثا) ثلاثة ثانوية هي سن أو هوركى اله القروسان أو سانسى يعنى الشمس وعول اله الجو وكل منهم له زوجة فزوجة سن أو هوركى معبودة عامة يسمونها الست الكبيرة واسمها غير معروف وزوجة سان أو سانسى هي عولة أو أو نونيط وزوجة عول هي شعلا أو طعلا وهؤلاء الآلهة والالاهات كانوا جميعا منصوبين فى رأس معبد الكلدانيين ويتلوهؤلاء مجموع خمسة آلهة صغيرة عبارة عن هيئة الكواكب الخمسة وهي نين أو نينيت (زحل) ومير وداخ (المشترى) ونرغال (المريخ اله الحرب) وعشطار (الزهرة الاهة العشق) ونيبو (عطارد) وهؤلاء مع الذين تقدم ذكرهم عبارة عن الآلهة الاصلية للكلدانيين وأما الآلهة الصغيرة فكانت كثيرة لا تحصر ولا يمكن ذكرها هنا

ومن الجامعة الغريبة فى مذهب الكلدانيين بالنسبة لهذه الترتيبات الخرافية يظهر أنها كانت لغرض معلوم لان هذه الجامعة فيها تشابه كثير ومقارنة زائدة فى بعض أحوال أوجبت العمل على موجبها فى معابد الجريق ورومة أيضا وأن معابد كلديا كانت هي أصل جامعة هذه المعابد الآن سلسلة المواصلة من الابتداء مقطوعة الاثر لكننا نرى أن أسماء الاناث وأسماء طوائف الآلهة وألقابها مأخوذة فى الاصل من منابع الكلدانيين ومن هنا لا يمكن الشك ولا الترداد بأى حالة كانت فى أنه كان يوجد مواصلات دينية أو طرائق مواصلة فى الازمان القديمة بين سواحل الخليج الفارسي والاراضى التى يحفها البحر الابيض المتوسط وبواسطة هذه المواصلات دخلت الخرافات والتصورات الخزعبلية ومن المحتمل أيضا أنه كان يوجد من ضمن القبائل والعشائر التى كانت مستوطنة على كل من نهرى الدجلة والفرات عشائر الصيطيق أو صيطيق الاريانيين وقت اختراع الحروف الهجائية ووقت ما تدوّن بها ما يلزم لمعرض الديانة وهاجر هؤلاء العشائر حسب أحوال الازمان الى أوروبا وحملوا معهم هذه الحوادث الخرافية بما أنها كانت محبوبة الاعتقاد عندهم ومختلطة بآداب شعرية تختص بأحوال بلادهم الوطنية وسارت هذه الروايات مع سير الايام الى طوائف الامم الذين تناسلوا من ملة الصيطيق أو صيطيق الاريانيين

وكان غذاء أو مأكول الامة الكلدانية محصورا فى المحصولات النباتية الخارجة من الارض والتمر أى البلح الكثير الوجود كان ولم يزل لحد الآن هو الغذاء الرئيسى لاهل البلاد وكان من ضمن مأكولاتهم أيضا السمك والدجاج والحلاليف البرية وأما التغذى بلحوم الحيوانات فكان من النادر جدا وكانت المساكن والدور فى المدن مصنوعة من الطوب وفى جهات الريف مصنوعة من أخصاص من غاب مطلوس بمونة من الطين والتبن وما كان يوجد على مساكن الاغنياء نوع طلاوة ولا رونق ولا منظر يسر النظر

(تم تاريخ كلديا فى ٢ أغسطس سنة ١٨٩١)

(الكتاب

﴿ الكتاب الرابع ﴾

(تاريخ مملكة الاشوريين)

﴿ الباب الاول ﴾

(تشييد الحكومة وقدماء الملوك)

وصف أشوريا ـ موقعها الجغرافى ومساحتها ـ أشوريا الشرقية والغربية ـ السلسلة الجبلية ـ مدائن أشوريا ـ المناخ ـ خصوبة الارض ـ الثروة المعدنية ـ الحيوانات ـ عوائد الامة ووصف السكان ـ تأسيس المملكة الاشورية ـ أشور ـ الارتباطات مع كاديا ـ قدماء الملوك ـ التغلب على بابل ـ تغلبات تغلاثغلاسر الاول ـ وصف الحضارة الاشورية ـ استعمال الحروف ـ طريقة المحافظة على التفصيلات الرسمية ـ الصنائع الاشورية ـ سراى سرجون ـ النقوشات الحفرية ـ الطريقة العسكرية الاشورية ـ الابهة الملوكية ـ الآلات الموسيقية ـ ملبوس الامة ـ ديانة الاشوريين ـ

تشغل أشوريا القسم الاعلى من وادى العراق وهى محدودة من الجهة الشمالية بجبل ماسيوس على قول بعض المؤرخين أو بمجرى نهر الدجلة من ديار بكر الى نواحى التل على قول آخرين وحدها من الجهة الشرقية سلسلة جبال زغرة الشامخة الارتفاع الصعبة المرتقى وحدها الغربى نهر الفرات وحدها الجنوبى هو الحد الشمالى لمملكة كاديا ويقسمها نهر الدجلة الى كورتين غير متساويتين يطلق عليهما اسم أشوريا الشرقية وأشوريا الغربية وأعظم طول هذه المملكة من ديار بكر فى الجهة الشمالية الى الحد الكاديانى فى الجهة الجنوبية نحو ٣٥٠ ميلا ويختلف عرضها من جبال زغرة الى الفرات من ٣٠٠ ميلا الى ١٧٠ ميلا فتكون مساحة أشوريا ٧٥٠٠٠ ميلا مسطحا

ولو أن أشوريا الشرقية أقل بكثير من كورة أشوريا الواقعة فى غربى نهر الدجلة الا أنها أكثر عمرانا وأجل قسم فى المملكة وتشتمل على ثلاث مدائن من الاربع مدائن الكبيرة الموجودة فى داخل المملكة وتشتمل أيضا على عدة سهول خصبة يخرج منها محصولات وافرة تروى مع الانتظام بمياه عدة نهيرات جارية من الجبال الى نهر الدجلة وهذه السهول مفصولة من بعضها بسلاسل جبال منعزلة تسير فى اتجاه عمودى موازا لسلسلة جبال زغرة يخرج منها عدة جداول ونهيرات ومساق صغيرة تعبر المملكة وتضاف مياهها الى الانهر وكل هذه المياه تجرى فى فروشات عميقة بحيث لا يظهر وجودها للناظر اليها من السهول ماعدا وقت انتفاخ مياه هذه الفروشات من مياه الامطار وذوبان الثلوج فانها تجرى طافحة مياهها الحد شواطئها واحيانا تعم مياهها فوق سطوح موازنة الاراضى حتى تغرقها وترويها وأما كورة أشوريا الغربية فهى أقل صلاحا فى ذاتها الا انها ولو كانت مقطعة بمجارى مياه الا أن خصوبتها تابعة أو متعلقة بطريقة رى الاراضى ولو أن وصف أرضها مستو الا أن المياه لا يمكن أن تعم الاراضى كاللازم ولا يوجد طريقة فى الجهات جارية لتعميم طرق الرى واكتساب الاقاليم درجة الخصوبة المطلوبة له ويشق الجهة الشمالية من الكورة سلسلة جبال صخرية ذات مهاو عميقة الا أن هذه السلسلة ليست

مرتفعة كثيرا تجرى الى الجهة الشرقيــة والغربيــة وتمتد من نهر الفرات من نواحى روم قلعة الى التل وشلميق على نهر الدجلة ومن تحت هذه السلسلة سهل واسع خفيف التماوج يمتد من الجبال الشمالية الى جروف بابل وينقطع فى نحو نصف المسافة بسلسلة جبال واطئة مركبة من أحجار جيرية تسمى جبال سنجار وهذه السلسلة تترك نهر الدجلة بالقرب من الموصل وتجرى تقريبا من الشرق الى الغرب عابرة من وسط العراق وتحف أو تلاطم نهر الفرات فى منتصف مسافة سيرها بين الرقــة وقرقيسية فى طول ٤٠° تقريبا وأما الاراضى الموجودة فى شمال سلسلة جبال سنجار الى جبـل ماسيوس فهى سهل متماوج يشابه طيات المروج الموجودة فى أمريقة الشمالية الا أن المياه نادرة فيها ولا يوجـد الا جداول صغيرة نازلة من سلسلة جبال سنجار وهذه تتشربها الاراضى الظمآ نة مع العجلة والسرعة وفى هــذه الارض الصعبة الزراعة يوجــد صنف حجر الجبس بكثرة ويوجد فيها آثار كثيرة من حفر بركانية وكتل جسيمة مرمية من أحجار البازلت والسماق والبورفير فى السهل ويوجد أيضا بالقرب من ملتقى الفرعين الكبيرين لنهر الخابور عدة أحجار قديمة ضالة متولدة من قذف البراكين وسلسلة جبل سنجار مركبة من أحجار جيرية شاهقة البياض ناعمة الملس

والقطعة الوسطية لاشوريا هى الاقليم الواقع فى طول نهر الدجلة من عرض ٣٠° الى ٣١ َ ٣٦° وفى داخل هذين الحدين توجد المدائن الكبيرة للملكة وكثرة تراكم الاهالى والسكان واحدى هذه المدائن كانت مدينة أشور وهى العاصمة الاصلية للملكة واسمها الآن شير جهات وهى واقعة على الشاطئ الغربى لنهر الدجلة وأما نينوى وقلعة نمروذ ودور سرجينه (مدينة سرغون) وتسمى الآن خورشيدا باد فهى واقعة على الجهة الشرقية من هــذا النهر وتشمل الكورة الغربية أيضا على عـدة محال جليلة وكذا محلات ومدائن مشهورة معمورة بها الكورة الشرقية وأما نينوى فهى واقعة فى تجاه الموصل الجديد وقلعة نمروذ على مسافة عشرين ميلا فى جنوب نينوى من أقرب طريق وعلى بعد ثلاثين ميلا من طريق مجرى النهر ومدينة أشور على مسافة أربعين ميلا من قلعة نمروذ وعلى الشط الايمن لنهر الدجلة ودور سرجينه أو خورشيدا باد على مسافة تسعين ميلا فى الجهة الشرقية الشمالية من الركن الشمالى لوادى نينوى

ويختلف مناخ أشوريا باختلاف جهات أقاليمها وذلك أن مناخ أشوريا الشرقية بالنسبة لقربها من سلسلة جبال زغرة الشامخة المتوجة على الدوام بالثلوج فهو بارد رطب عن مناخ الكورة الغربية لنهر الدجلة ونسيم الجبال ملطف لسخونة حرارة الصيف والشتاء لطيف جدا وتسقط الامطار بغزارة فى فصل الشتاء حتى فى فصل الربيع ويتكاثف طل ثقيل من بعد نزول الامطار وأغلب القسم الجنوبى من أشوريا الكائن فى غرب الدجـلة من طول ٣٤° الى الحـد الكلدانى مناخه يشابه مناخ الاراضى الكلدانية وأما وسط أشوريا الغربية فهو أبرد من الجهــة الواقعــة فى جنوبها وسخونة حرارة فصل الصيف شديدة جدا فى وسط النهار الا أنها فى أوقات الصباح والليل سارة جدا وتسقط أمطار غزيرة وثلوج فى مدة فصل الشتاء الا أن هذا الفصل قصير وغير قاصع البرودة والصقيع ومناخ الكورة الجبلية التى تشكل القسم الشمالى من أشوريا الغربية كثير البرودة والصقيع عن الكورة الوسطية وتنحط درجة البرودة فى فصل الشتاء الى ٨° أو ١٠° تحت الصفر والارتفاع المتوسط للكورة المذكورة ١٣٠٠ قدم وواقعة بالقرب من السلسلة العظمى لجبال أرمينية المغطاة على الدوام بالثلوج

ومن ثم تكون حدة البرد وقصاعته ويسقط القار بشدة وكثرة ويفضل على الارض عدة أسابيع حتى يتصل وفصل الربيع رطب ذو عواصف وزوابع ورياح شديدة وفصلا الصيف والخريف ظريفان واذا أخذنا الحالة المتوسطة لعموم المملكة نرى أن أشوريا القديمة كانت جيدة الخصوبة الا أنها ما كانت مستحوذة فى الحقيقة على كثرة الفوائد والمنافع التى كانت موجودة فى جارتها الجنوبية كاديا اذ أنه من الاعتناء والالتفات للزراعة وأعمال الرى تكتسب الثروة والغنية من الارض وينبت فى أراضى أشوريا شجر النفاش والكباد والليمون وشجر التوت كثير الوجود وهو غذاء مستعمل فى تربية دود القز الكثير الذى لا يوجد مثله فى محل آخر وكان جاريا زراعة أغلب الخضراوات والنباتات الصالحة للاكل فى أشوريا وينمو فى الجهة الجنوبية منها نخل البلح والبرتقان والليمون وينبت فى جميع أقسام المملكة شجر الرمان والزيتون والعنب والمشمش والتين ويوجد فى أشوريا معادن بكثرة وافرة زيادة عن نواحى بابل وذلك أن صنف الاحجار يوجد فى جميع أقسام المملكة بخواص جيدة والحديد والنحاس والرصاص لم تزل معادنها موجودة بكثرة فى جبال طيارى الغربية من نينوى وزيت البترول والكبريت والشب والملح هذه أيضا من معادن محصولات أشوريا

وأما الحيوانات الوحشية الموجودة فى المملكة فهى السبع والنمر والفهد والقط الجبلى والضب وحمار الوحش والدب والتيتل والغزال والوعل والضأن البرى والحلوف الجبلى وابن آوى والذئب والثعلب وكلاب الماء واليربوع والقنفذ والعناق والارنب والصحيح أن النمر كان موجودا فى أشوريا فى المدة القديمة جدا والانهار مشحونة بأصناف الاسماك وكذا البرك والبطيحات مشحونة بالطيور والفراخ البرية وأما الحيوانات الاهلية فهى الجمال والخيل والحمير والبغال والضأن والمعز والأثوار والابقار والكلاب

وكان الاشوريون أمة قوية فى الدين يؤدون ما يجب عليهم من عبادة آلهتهم مع الاعتناء والدقة والخشوع وكانوا أهل عتو وبغى وخيانة يبتهجون بما حصل لهم من المخاطرات فى الصيد والحرب وكانت عساكر الاشوريين من أجود وأعظم قدماء العساكر الحربية وما كان عندهم الفظاظة والجبروت الذى يفعله غيرهم فى المثلة بالذين يأسرونهم فى الحروب من الاسرى وما كان لهم عهد ولا ذمة فى نقض المعاهدات والمحالفات عندما يجدون الحالة التى يعود منها النفع عليهم فى نقضها وابرامها فمن ثم كانت الامم المجاورة لهم على ريب منهم وكان لهم شهرة فى الشوكة والقوة وبها صاروا فى أقصى درجة من الامتياز بين الامم الآسيوية

وحيث ذكرنا فى الكلام على السلطنة الكلدانية أنه أعقب سلطنة نيناس مدة مجهولة تولدت من هجرة الامة السامية من الاراضى الواطئة العراقية الى الجهات الشمالية منها فالوقت الحقيقى لهذه الحركة غير معلوم وكذا لا يعلم أ كان حصول هذه الهجرة بالاختيار على قسم من الاشوريين أو حصل بواسطة قوة مؤثرة وقعت من ملوك الكلدانيين الا أن المعروف أن قبيلة أو قبائل من الذين تفرع عنهم الاشوريون هاجرت من كاديا الى الاراضى العالية الموجودة فى طول وسط نهر الدجلة وشيدوا مدينة لقبوها باسم قبيلتهم أشور ومن المحقق انه من بعد مضى زمن من الانتقال كان الاشوريون محكومين بحكام موظفين من طرف ملوك كاديا أو تحت حكم نفس الملوك ومع هذا فانهم صاروا على التدريج أهل شوكة وأولى بأس وعزم شديد حتى منحوا أنفسهم استقلاليتهم مع رغبة طبيعية منهم ونبذوا

القانون الكلدياني وراء ظهورهم وشيدوا سلطنة من أنفسهم على حدتها وكان مقر هذه السلطنة فى أشور والآن مدة تاريخ تشييد السلطنة غير معروف وان بعض الملوك القديمة كان متصلا ومتحدا مع الملوك الكلدانية اما بواسطة محالفات أو بواسطة زواج ونسب ملوكى وكان كل من الاثنين على حدة من الاخرى وكانا على صداقة ووفاق واشتركت أشوريا أيضا فى المنازعات والمحاربات التى حصلت بين الطالبين المدعين لتاج كلديا وتداخل أحد ملوكها وهو أشورعو باليط فى كونه وضع التاج على رأس الوارث الحقيقى له وكان أحد أقاربه وكذا ساق أحد ملوك هذه المدة وهو صلمنصار الاول نحو سنة ١٣٢٠ قبل الميلاد حروبا مظفرة فى نواحى جبال نيفاطيس وأقام مدائن فى ذلك الاقليم وابتنى أيضا قلعة واسمها الآن قلعة نمرود على الشاطئ الشرقى لنهر الدجلة وعلى مسافة أربعين ميلا من أشور ومن البديهى انه من ابتداء هذا الوقت أخذت المملكة فى التقدم والزيادة الى الجهة الشمالية حتى صارت ذات شوكة وأكثر عمرانا ودخلت فى اجراء فتوحاتها الكبيرة وفلاحها الداخلى ومع كل هذا فان الحرف والصنائع كانت فى هذا غير متقنة الصنعة بالكلية وكان استعمال الكتابة نادرا جدا وكان التمدن والحضارة فى أدنى درجة من الحضيض وكانت هيئات المدائن التى شيدت فى تلك المدة على صورة مستطيلة الشكل وكانت الهياكل والمعابد على هيئة أبراج هرمية الشكل والسرايات الملوكية منشأة على روابٍ عالية أو دكات مرتفعة من البناء

ومن بعد موت صلمنصار الاول خلفه ابنه تغلاثنين الاول ومن المحتمل أن هذا هو نينوس المعروف عند الجريق فرفع هذا الملك منار سموّ قومه بأن تغلب على بابل فى نحو سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد ومن ثم لا يلزمنا أن نفرض أن كلديا كانت فى هذا الوقت قسما من المملكة الاشورية بحالة استمرارية بل يحتمل أنها كانت خضعت لها مدة قرن واحد الى أن تزلزل وارتج ناف أشوريا بواسطة سلسلة من ملوك يظهر أنهم كانوا من نسل الاشوريين وكانوا على عداوة لاشوريا وأشعلوا حروبا على تلك المملكة وكانت نتيجة هذه الحروب هى أن حفظت أشور سيادتها وعلو كلمتها على بابل واكتفت بابل بأن تحفظ لنفسها موقعا ثانويا فى آسيا الغربية ومعترفة بتبعيتها لملوك نينوى

ثم ان الملوك الذين تسلطنوا من بعد تغلاثنين لا أهمية ولا معنى فى سلطنتهم وان أشوريس عليم الذى تسلطن فى نحو سنة ١١٥٠ قبل الميلاد الى سنة ١١٣٠ كان ملكا كبير الزعامة زيادة عن سلفه من الملوك فأشعل حروبا كثيرة فى الجهات البرانية وجر طرق تغلبات ابنه تغلاثغلاصر الاول وغزا بابل وأشعل حربا على ملك اسمه نابيخادنيظار (نابوكودوزر) وقال بعض المؤرخين والصحيح أنه ساق جيوشه الى الجهات القاصية الجنوبية من فلسطين وانه هو الملك المذكور فى كتاب القضاة من كتب التوراة شوشانريس أثايم ملك ميزوبوتاميا أى العراق وعلى ما قيل انه أخضع بنى اسرائيل ثمان سنوات تحت حكمه وهذا القول استمر لحد الآن على قواعد غير مؤكدة الحقيقة

وجلس تغلاثغلاصر الاول على التخت فى نحو سنة ١١٣٠ قبل الميلاد فأخضع القبائل الموجودة فى اقليم جبال زغرة وتغلب على سوريا الشمالية وأنشب حروبا مظفرة على بابل ويظهر أنه كان صيادا مشهورا وشيد عدة مبان كبيرة وسرايات وقصور لاغراض شهواته وأصلح طريقة الرى وأدخل المواشى الاجنبية فى أشوريا وزراعة النباتات الغريبة أيضا وجعلها من النباتات الاصلية فى المملكة وفى مدة سلطنته زادت قوة الجيش وامتدت حدود المملكة وشوكتها وفى هذه السلطنة كانت أشوريا مملكة

كثيرة العمران فى أعلى درجة من سطوتها محكومة بسلطان واحد لها عاصمة واحدة كبيرة فى وسط ممالك وأقوام ضعيفة متجزئة لاحضارة عندهم ولا ادراك لهم

ومن بعد موت تغلاثغلاصر الاول خلفه ابنه أشور ربعلخالا وهذا لم يعرف له شئ سوى أنه أنشب حربا على ميزوبوتاميا السفلى (العراق) ويظهر أنه تسلطن من نحو ١١١٠ قبل الميلاد الى سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد

ولنذكر الآن حضارة الاشوريين حسب نص الروايات المستخرجة من أطلالهم وأبنيتهم وتشمل هذه التذكرة مدة تاريخهم وقد أدرجناها هنا حسب معرض الموافقة

وذلك أن الاشوريين استعملوا فى العصور القديمة حروف الكتابة وحفظوا بواسطتها مع الاعتناء والدقة تسجيلات وتدوينات تاريخهم وكانت هذه التسجيلات اما محفورة على أحجار أو مدموغة على طوب وكان هذا الطوب على صنفين لبن مجفف فى الشمس وآجر محرق بالنار فالاول لا تتلفه النار والثانى لا تتلفه المياه فكان جاريا دمغ التسجيلات على كل من صنفى الطوب وبهذا حفظت من الضررين الكبيرين وهما النار والماء وكانت أشور عرضة لهذين الضررين ومن المحتمل أن جميع كتابات هذه الامة كانت مدونة مع موادبهذه الصفة من الفخار وربما كان الورق مستعملا عندهم كما كان مستعملا فى مصر الا انه كان مخصوصا للتحريرات العمومية ونادر الوجود وما وجد منه شئ فى أى بناء من الابنية القديمة التى اكتشفها المتأخرون من أرباب الاستكشافات

وكان الاشوريون فى أشغال المعادن وسن الفيل أى العاج والزجاج والتصوير والعمارة والنقش والحفر على الاحجار وتطريز الملبوسات وزركشتها ووضع الخروج عليها فى أقصى درجات المعالى وكانت عماراتهم وأبنيتهم أقل جسامة من عمارات المصريين وبهذه الصنائع فاقوا على جميع الامم الشرقية ولو أن الاحجار كثيرة الوجود فى أشوريا الشرقية الا أن صنف الطوب كان هو المرجح عندهم فى عماراتهم وكان أجل مبانيهم وأفخرها سراياتهم الملوكية وكانوا على ديانة قليلة عن المصريين والجريق ومن ثم كان لهم التفات زائد بملكهم زيادة عن آلهتهم وكانت هياكلهم لا معنى فيها ولا عبرة بها مع مقارنتها بالسراى الملوكية وأجل السرايات الكاملة الاشورية التى لحد الآن ما صار استكشاف مثلها سراى ترجون فى خورشيداباد ومن هذه السراى ظهرت عمارات هذه الامة فى عالم الوجود وكذا صنائعها الزينية ونقوشاتها فى هيآت بارزة وواطئة فى غاية من الصنعة والاتقان وهذه السراى مبنية مثل جميع السرايات الاشورية على رابية عالية أى دكة من الطوب وهذه الرابية مرتبة على هيئة دكتين فى صورة التباع الافرنكية غير متساويتين فى العلو ونفس السراى مبنية على الدكة العالية مشتملة على عدة مبان مرصوصة حول دواوين ولواوين واسعة والبناء الاصلى المختص بالملك مبنى فى وسط السراى الاصلية وله وجهة كاملة الانتظام بنقوشات مفتخرة وزينات ظريفة وفى وسط هذه الوجهة باب الطريق وأما الترتيبات الداخلية للبناء فما كان فيها نوع انتظام ولا تماثل وكان ثلثا القسم الشمالى الغربى من السراى عبارة عن صالة استقبال واسعة العرض عظيمة الابهة جليلة القدر ودهاليزها وحيطانها منقوشة بنقوشات بارزة مجسمة الاشكال وأما الثلث الموجود فى الجهة الجنوبية الشرقية فكان محلات سكن مركبة من قيعان صغيرة قليلة النقش والزخرفة والابواب مفتوحة فى كل من جهتى السراى الكبرى أحدها فى الجهة الشمالية الغربية يوصل الى مجلس مربع الشكل أو

سراى كائنة فى الزاوية الشمالية للدكة الصناعية للسراى وفى وجهة بناء الوجهة الشمالية الغربية للسراى لا يوجد فيها موصل الى الداخل وسطوح حوائط هذا البناء مشحونة بالزينة والنقوش وهذا البناء مركب من ست صالات واسعة منقوشة بانواع النقوش البارزة وفيه بعض قيعان أخرى صغيرة ويمكن أن نقول انه يوجد سراى ثانية مضافة الى السراى الاولى وسلاملك ثان معادل فى الزخرفة والزينة للسراى الاصلية والممر المفتوح فى الجهة الشمالية الشرقية لصالة الاستقبال فى السراى يتوصل منه الى الدكة الواطئة والى سراى الخدم والحشم وأرباب الوظائف الكثيرة القيعان والمجالس والدواوين وكانت الدكة السفلى أو الواطئة الصناعية المبنى فوقها سراى سرجون مشغولة بالحريم وكانت قطعة هذا البناء مطلة على المدينة ويوصل مباشرة اليها وأما الخان فكان فى الوسط وهو عبارة عن سراى واسعة مربعة الشكل محاطة من جميع جهاتها بابنية الاسطبلات ومساكن السواس ومساكن عدد لا يحصى من العبيد وكان هذا البناء يقرب من موازنة أبنية المدينة بحائطين كبيرين كائنين فى وسط الوجهة الجنوبية الشرقية لسطوح السراى وطرقه جميلة مزخرفة يوصل كما ذكرنا من سراى هذا الخان الى صالة الاستقبال فى السراى وكذا بابان صغيران يوصلان مباشرة الى قيعان السكن فى داخل السراى وقد ذكرنا أنه فى الجهة اليمنى من هذه السراى الضخمة يوجد الخان وهو بناء متسع يشتمل على عدة مجالس وقيعان تشكل قسما من محلات الخدم والمحلات العمومية لارباب الوظائف وكان هذا الخان هو الخزنة لانه كان يوجد فيه مخازن الذخائر والمؤنات والاوانى اللازمة الاستعمال فى السراى الملوكية كما انه محل معد لحفظ جميع الاشياء الثمينة التى ذكرنا سرجون عنها فى كتاباته المنقوشة على الاحجار أنه استحوذ عليها بقوة جيشه وخزنها فى سراياته وكان الحريم مجاورا للخزنة وهو بناء متوسط الامتداد والسعة يشتمل على ثلاث سرايات حيطان احداها مستورة بزخارف النقوشات الثمينة المصفحة على الطوب وكثير من دهاليز طويلة عريضة معدة للاستقبال فى المواسم والاعياد وتنتهى بقيعان سكن عديدة واسعة وكان هذا الحريم مقفولا مع غاية التحفظ والاحتراس على الدوام وكذا كانت جميع الموصلات الى الخارج مقفولة وكان النساء يعددن أنفسهن بانهن فى سجن لا محالة ولا يتوصل اليه الا من فسحة مخفورة بالطواشية وفى هذه الفسحة بابان أحدهما يوصل للسراى الكبرى للحشم والخدم ومدخل للذين يدخلون من الخارج الى الداخل والآخر يفتح على مجلس طويل ضيق يوصل الى محلات سكن السراى ومن هذا الباب كان الملك يتوصل الى حريمه من غير أن يراه أحد من العموم وخلف هذا الحريم برج ضخم شاهق العلو أو هرم مركب من سبع طبقات علوه نحو من خمسين ياردة والسبع طبقات متساوية فى العلو وكل واحدة منها أصغر فى المساحة من التى تحتها ومبيضة بالجبس الشاهق المختلف اللون ومن ثم كان يظهر عليها ألوان السبعة أجرام السماوية المقدسة وما كان سفل البناء فى شئ من الزخرفة وكان هذا البناء معدا للرصد الكواكب ومتوطنا فى أعلاه المنجمون من القسس وتلامذة الكلدانيين الذين لهم دراية بعلوم النجوم والفلك مجتهدون فى مطالعة ومعرفة ما يكون من الاحوال والوقائع المستقبلة من رصدهم الكواكب

وما كان الاشوريون وراء كثير من الامم القديمة فى فن النقش على الاحجار وكان أجل شغلهم هو النقش المسنم البارز والغير البارز وعلى هذا كانت تماثيلهم نادرة الوجود وغير متقنة فى الصنعة والرسم ولم يتيسر لهم الحصول على تعلم تصوير جسم الانسان بل كان جل شغلهم تصوير الحيوانات وهذه

كانت

كانت كثيرة الوقوع فى نقوشاتهم غير المسمة وقد ذكر رولينسن أن النقوشات غير المسمة كانت عند الاشوريين منوالا جاريا الاستعمال عليه فيما بينهم وكانوا يستعملونها فى كل معرض يحتاجون فيه لتصوير هيئة بفن الصناعة سواء كان لبيان احساساتهم وأفكارهم الدينية أولاجل تبجيل ملوكهم أولاجل تدوين ما يلزم لذراريهم من تاريخ الامة وما كانت عليه من الشوكة والابهة وينقشون حوادث الوطن ورواياته والاعمال التى كانت الامة مشتغلة بها او ينقشون الاراضى والعمارات ويقلدون أشكال النباتات والحيوانات حتى انهم يرسمون أصناف العدد والآلات الجارى استعمالها فى أشغال عمارات هذه الابنية المهولة والتى زخارفها الاصلية هى هذه النقوشات الغير البارزة ولا يلزم أن يقال انا عرفنا فى الاشوريين أنهم كانوا غير قاصرين على صناعة النقش الغير البارز والمسنم بل كان لهم دراية تامة بالتواريخ وعلم الانساب وعرفنا هذا على الخصوص من نقوشاتهم التى أظهرت لنا مدة حياة هذه الامة با كملها ولقد تسلطنت عندهم النقوشات حتى كانوا يحفرونها على ألواح من الاحجار يركبونها فى القطع السفلى من الحوائط التى يريدون زخرفتها

وكان للاشوريين فى فن النقش على المعادن قريحة حادة جدا وكان يوجد عندهم ثلاثة أصناف من هذا الشغل وهى اما الصورة بتمامها أو قطع من الصورة أو مجسم الصورة فاما الصورة المجسمة فكانوا يصبونها فى قوالب مشكلة بهيئتها او يتممون شغلها بواسطة الشواكيش والازاميل وينقشونها بواسطة آلات حادة دقيقة جدا وكانت الصور المجسمة صغيرة محصورة فى صور الحيوانات ومعظمها صورة الاسد وكانوا يستعملون الرسومات الدقيقة الرفيعة فى زخرفة التخوت الملوكية والعربات وكانت هذه الرسوم محصورة فى صور الحيوانات أيضا وأشكال الانسان وأجنحة الآلهة والحيوانات الخرافية وكان شغل الحفر المسنم مدهشا عجيبا ظريفا وكان يستعمل على الدروع الحربية والطوارق العسكرية والزينات الشخصية والاوانى البيتية وأشياء أخرى عديدة والمواد التى كانت مستعملة عند الاشوريين فى الزخارف المعدنية محصورة فى البرنز المركب من جزء من القصدير وعشرة أجزاء من النحاس وهو مستعمل بهذه النسبة العظيمة لحد الآن والظاهر أن الاشوريين كان لهم دراية تامة بتلبيس أحد المعادن فى آخر وكان لهم قريحة عالية فى النقش على العاج وقطع الجواهر وصفائحها والنقش عليها كما كان لهم دراية تامة فى صناعة الصباغة واستعمال البكر والعتل والسطوح المائلة وكانوا يستعملون هذه السطوح المائلة على الدوام فى هجوماتهم على القلاع الحصينة وحاز الاشوريون فى ترتيب عساكرهم وتطقيمها وتنظيم طرق الهجوم والمدافعة وطرق التغلب على المدائن الحصينة الدرجة العالية على الملل التى خضعت لها

وكان الملك منعزلا عن تحته من الطوائف بواسطة رسوم تحيات شديدة وكان لا يرخص لاحد فى الدنو منه ماعدا من يكون بواسطة خواص حاشيته وخدمه الخاصة بسراياته اذ أنه كان على الدوام فى صحبتهم ولا يجوز لاحد فتح مكالمة معه الا وزيره وكبير الطواشية فانهما مسموح لهما بذلك وعند مقابلته أحدا منهما يجلس الملك على تخته ويجثو الواحد منهما أمامه وكان العساكر يحملون التخت عند ما يتوجه الملك الى الحرب وكان ملك الاشوريين يقاسى أصعب العيشة وأشقها وكان ذلك قانونا عندهم وكانوا يشتغلون فى مدة السلم بالاشغال العمومية والادارات أو الاحكام العدلية ويجدون لذة حياتهم فى تكبد الاخطار والمشاق فى صيد الاسود والابقار الوحشية وكان الملك يركب للحرب فى

عربته وأحيانا يمشى على رجليه و يدير حركة العساكر والجيوش وكان يظهر حريته نفسه للامة مع بقاء علامة مقامه وعزته فى كل شئ وما كان عنده أدنى ضعف ولا فتور عن الحركات الحربية والوقائع العسكرية كما زعم اليونانيون وكانت الاحتفالات الرسمية مقررة عندهم على قاعدة ثابتة وكان ملبوس الملك وقت السلم والحرب زى مجد وأبهة وكان له ملبوس خاص يلبسه فى الاحتفالات والشعائر الدينية لاظهار نفسه من بين رعيته

وكانت آلات الموسيقى عند الاشوريين محصورة فى العود والقانون والقيثارة والمزمار والصفارة والطبلة والصاجات والطار والطرمبيطة وصنف طقم الموسيقى مبين فى النقوشات المسنمة ويظهر أنهم كانوا يستعملونها أحيانا فى الاحتفالات العمومية وكانت الملابس المعتادة المستعملة عند عامة الامة جبة سادة واصلة من الرقبة الى مافوق الركبة بقليل ملمومة على الخصر بواسطة حزام أو سبتة وكانت أكمامها قصيرة وما كانوا يسترون رؤسهم بشئ ولا يلبسون نعالا وكان الملك ومأموروه يلبسون المراكيب فى أرجلهم وطواقى على رؤسهم وأما الناس المتوسطو الدرجة فكانوا يلبسون نعالا فى أرجلهم وكان العساكر والوجوه من أعيان الناس يلبسون ألبسة ضيقة ومراكيب من الجلد وما كان الادانى من الناس يلبسون ملابس مفتخرة وأمادمالج الاذرعة وأساور الايدى فكان مرخصا لبسها لارباب الرتب وكان العساكر وطقم الموسيقى يلبسون حلقانا فى آذانهم وكان أرباب الرتب يلبسون قميصا طويلا مكشكشا واصلا من الرقبة الى القدم قصير الاكمام ساترا الاكتاف فقط ملموما على الوسط بواسطة حزام بحيث يجعله موافقا فى الملبوس وكان نساء الدرجة العالية من الطوائف يربطن ربطة الرأس والحلقان والدمالج والاساور وهذه كانت صيغتهن ويلبسن جلاليب مكشكشة زائدة فى الشغل عن جلاليب الرجال وأكمامها قصيرة وكن يلبسن فوق هذا الملبوس جبة قصيرة مشغولة مفتوحة الصدر ساترة فوق الاذرعة الى حد الكوع وشعورهن مسبولة فى الخلف على هيئة ضفائر وجدائل أو ملمومة على هيئة حلقان ومقاصيص لحد الآذان وضفائر الشعر الخلفية مركبة من أربعة ضفائر وكن يلبسن أيضا قاطات على رؤسهن ويتحزمن بسيور فى أوساطهن الا أنهن كن حافيات الاقدام أو لابسات نعالا صغيرة وأما نساء الطوائف الواطئة فكن يلبسن جلاليب واصلة الى الكعب وقاطا فوق الرأس وكانت زينة وهيئة نساء الاشوريين اللاتى من الطبقة الاولى فى أعلى درجات الطنطنة والجمال فى حياتهن الدنيوية

وكانت ديانة الاشوريين مشابهة للعقائد والديانة الكلدانية وكانت قريبة منها فى الشعائر والرسوم الواجب اجراؤها للآلهة وغير الآلهة الكبرى كانت توجد آلهة صغرى خاصة باشوريا وكان أكبر عموم الآلهة عند الاشوريين هو الاله الاكبر أشور وكان هو الحافظ لكل من البلاد والعباد و بواسطته يجلس الملك والملوك على تخوتهم و يقوى شوكتهم و يطيل فى حياتهم ومدة سلطنتهم و يمنحهم الايام السلمية و ينصرهم فى الحروب وكان كل من الملوك يقول أشور ربى وليس له معبد أو مزار فى أى جهة من جهات المملكة و يعتقدون أن جميع المعابد والهياكل مفتوحة من أجله مهما كانت مشتملة على آلهة وكانت ديانة الاشوريين خالصة لعبادة أشور وكان الملوك يجعلون فى أنفسهم أن مدة حياتهم لخدمته وعبادته ويحاربون لانتشار عبادته و يهلكون أعداءه وكانت صورة أشور عبارة عن شكل ذى أجنحة على هيئة دائرة أو كرة داخلها صورة رأس عليها طاقية ذات قرنين أحيانا يكون

ماسكا فى يده قوسا وأحيانا يضرب بنباله على أعداء الاشوريين
وكان الاشوريون يعبدون من تحت أشور فى الازمان القديمة آلهة كثيرة باسماء مختلفة وكانت أصنام هذه الآلهة تعمل من الاحجار أو من الفخار وكانوا يقربون لها قربانا من الحيوانات والطيور وكان لديانة الاشوريين صفات وشعائر واحتفالات خاصة بهم

﴿ الباب الثانى ﴾

﴿ من سلطنة أشور بعلخالا الى سقوط المملكة الاشورية ﴾

المدة الغير الحقيقية لتاريخ الاشوريين ـ سلطنة أشور عزربال ـ سرعة تقدم أشوريا فى مدة سلطنته ـ تغلباته ـ نمو الحضارة ـ سلمنصار الثانى وتغلبه على سوريا وارغام اسرائيل على دفع الخراج ـ شماسعول الثانى ومدة حدود المملكة ـ سميراميس ـ المدة المعتمة فى تاريخ الاشوريين ـ تغلا تغلاصر الثانى وتأسيسه مملكة أشورية جديدة ـ امتداد ممالكه ـ سلمنصار الرابع وغزوة فينيقية واسرائيل ـ نجاح عصيان سرجون ـ سلطنته الزاهرة ـ تغلبه على مصر ـ ملك سنحاريب ـ تغلبه على بابل ـ ارغامه يهودا بكونها خراجية له ـ ابادة جيشه وتدميره بآية من عند الله ـ حروب سنحاريب الاخيرة ـ غزوته العلاميطيقية ـ عصيان أهل بابل وعودهم للخضوع والطاعة ـ فتح صيليصيا ـ تأسيس طرسوس ـ قتل سنحاريب ـ ملك ايصرحدون ـ تغلباته ـ حملته فى بلاد العرب ـ تغلبه على مصر ـ خلافة أشوربانيبال على التخت ـ هشم ثورة المصريين ـ سلطنة أشوربانيبال الزاهرة ـ آخر سنيه ـ الحرب مع ميديا ـ تغلب الصيطيانيين على أشوريا ـ خراب المملكة ـ عدم تأسيس مملكة جديدة ـ ملك صرقوس ـ تجديد ميديا الحرب ـ خيانة نابو بولصار الذى جعل نفسه ملك بابل وانضم للميديين ـ موت صرقوس ـ ضبط نينوى ـ سقوط المملكة الاشورية

كان تاريخ الاشوريين خاليا بالكلية من ابتداء سلطنة أشور بعلخالا الى أواسط القرن العاشر قبل الميلاد ومن المحقق أن المملكة لبثت مدة من الزمن تحت ظلمات من السحب ومن المحتمل أن يكون ذلك ناشئا من سرعة تقدم الممالك الاسرائيلية فى مدة سلطنة داود عليه السلام أو من كون البابليين حجبوا أنوار شوكة المملكة الاشورية مدة زمن ما ومع ما حصل من وجود أسباب هذا الاضمحلال الوقتى فانه لم يتيسر لنا الحصول على معرفة أدنى شئ محقق من تاريخ الاشوريين فى عصر هذه المدة وكانت جميعها مقصورة على سلطنة أشور بعلخالا وذلك لاشك فيه وانتهت سلطنته فى نحو سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد وخلفه فى سلطانه أخوه الاصغر شماسعول ولا نعرف لهذا من تاريخه شيئا يعول عليه الا أنه بنى أو رمم معبدا فى نينوى والظاهر أن سلطنته انتهت فى نحو سنة ١٠٧٠ قبل الميلاد ثم من بعده تغشى أشوريا ظلمة خفيفة فى نحو سنة ٩٠٩ قبل الميلاد وكانت العاصمة لم تزل باقية فى أشور وتسلطن فيها عدة من الملوك كان اهم من الملك الاسم فقط وتشبهوا بملوك العصور القديمة وعكفوا أنفسهم على توسيع المبانى العمومية وترميم ما كان الدهر عضه بأنيابه فاكسبتهم هذه الحالة

شرف الذكر نوعا وكان أول هؤلاء الملوك أشورديان والظاهر أنه جلس على التخت فى نحو سنة ٩٣٠ قبل الميلاد وذلك من بعد فصل مملكتى بنى اسرائيل من بعضهما وهما اسرائيل ويهوذا بقليل ومن المحتمل أنه تسلطن من سنة ٩٣٠ الى سنة ٩١١ قبل الميلاد ثم خلفه ابنه علاوش الثانى فاستمر هذا على التخت الى حد سنة ٨٨٩ قبل الميلاد

وانقضت المدة الغير المحققة للتاريخ الاشوريانى فى سنة ٨٨٩ قبل الميلاد عندما جلس تغلاثنين الثانى على التخت فتسلطن ست سنوات وخلفه ابنه أشورعزربال فى سنة ٨٨٣ قبل الميلاد وكان ملكا عالى الهمة جليل الشوكة ابتدأت أشوريا تحت حكمه فى تغلباتها وفتوحاتها فأخضع هذا الملك الباسل الامم المجاورة له وساق جيوشه المنصورة الى داخل اقليم زغرة وأرمينية والعراق الغربى وبابل حتى التصق فى أول مرة من حروبه بالميديين والفرس وأخذت حدود المملكة فى الامتداد والاتساع وصار لاشوريا شوكة قوية على كل حد من حدودها وانتقلت الامة الاشورية مرة واحدة من الظلمة الى النور ومن الحضيض الى الاوج وفى ظرف مدة قليلة من الزمن قدرها ست سنوات باشر أشورعزربال عشر حروب فكانت الاولى والسابعة والعاشرة منها فى الاقاليم المتقدمة الذكر وأما التاسعة فانها تفيد مطالعى التاريخ المتأخرين فائدة عظيمة وذلك أن ملك الاشوريين سار بجيشه مباشرة الى نواحى قرشميش بعد أن عبر الفرات على رواميس عملت لتعديته ولما أخضع قرشميش تحول فى أراضى باطينة وهو اقليم كان فى نواحى أنطاكيه وحلب فخضعت له مدائنه ثم سار مع الالف والدوران حول سفوح ومهابط جبل لبنان الشمالية حتى أدرك البحر الابيض المتوسط وأقام محاريب وقرب القربان للآلهة وأرسل ايالات فينيقية من أردوس الى الجهة الجنوبية فسارعت اليه بانقيادها وخضوعها اذ لا طاقة لها على مقاومة تقدم سيره وصده وعاد قافلا الى مملكته محملا بالغنائم والانفال

وما كانت سلطنة أشورعزربال مقصورة على المحاربات فقط بل حصل فيها تقدم أشوريا بسرعة فى الثروة وفن الصنائع وكان تقدمها فى الصنائع من الامور الغريبة جدا وذلك أنه فى مدة هذه السلطنة أقيمت أبنية فاخرة وزينت بالنقوش التى كانت تستعمل فى الزمن القديم وكانت هذه النقوش مجسمة على الطوب بالجبس وحجر المرمر وقال رولينسن ان دلائل النقوش وحدها كافية فى أن يظهر منها أن الامة الاشورية كانت فى مدة سلطنة أشورعزربال أمة عظيمة فى رفاهية من الحياة الدنيا اذ أنهم ما كانوا مستحوذين على الصنائع النافعة فقط بل جعلوا الهار ونقاوأبهة عالية وما كانت ملابسهم وأثاث مساكنهم وحليهم وجواهرهم على فرق كبير من الموجود فى أزمنتنا هذه

وفى سلطنة هذه المدة ومدة من خلف هذا الملك الكبير انغرست آداب العلوم فى أشور وصار تسجيل مدة كل سلطنة بواسطة الحفر على الاحجار أو النقش على اسطوانات من فخار وبهذه الواسطة حفظ لهذه المملكة تاريخ تام وأقيمت قواعد النظام الاشوريانى فى جميع أنحاء المملكة وتواصل الامم الاجنبية مع بعضهم نظرا للشوكة الاشورية وجاءت جمال همدان وأفيالها وغير ذلك الى أشوريا وفى مدة هذه السلطنة صارت أشور وهى العاصمة القديمة غير موافقة بالكلية لصوالح المملكة فانتقل مقر الحكومة الى قلعة وزينها الملك ببيان جسيمة مفتخرة وأشغال عمومية معتبرة

ثم خلف صلمنصار الثانى أبوه أشورعزربال فى سنة ٨٥٨ قبل الميلاد وتسلطن خمسا وثلاثين سنة وفى ظرف السبعة والعشرين سنة الاولى من سلطنته باشر ثلاثا وعشرين حربا بكونه هجم على التوالى على

كل من بابل وكالديا وميديا وزمرى وأرمينية والعراق الاعلى والاراضى الموجودة على مياه نهر الدجلة والحثيين وباطينة وطبرانة وحماة والاعمال السورية لدمشق وباشر ثلاث حروب على دمشق وتساعدت هذه المملكة بقوى مملكة اسرائيل وحماة والحثيين والفنيقيين وكان حصل عند كل من هذه الممالك الخوف والوجل مما رأت من تقدم شوكة أشوريا وكان حصول الحرب الاول فى السنة التاسعة من سلطنة صلمنصار والحرب الثانى من بعد مضى خمس سنوات والثالث فى مدة الثلاث سنين الاخيرة من سلطنته وكان السوريون ومحالفوهم تحت قيادة بنهداد ملك دمشق وكان ما حصل من الاجتهادات من الاشوريين فى مبادى الامر على غير طائل الا أنه حصل لهم النجاح فى الحرب الاول وانهزم المحالفون مع خسارات جمة وانتقض اتحادهم وخضع أعضاء الاتحاد للفاتح ما عدا دمشق فانها بقيت على حدتها أمامه يدا بيد وفى السنة التالية ساق حربا رابعا كانت نتيجته انهزام السوريين تحت قيادة حزيال ومن بعد مضى ثلاث سنوات غزا الاشوريون سوريا فوهن حزيال وعلاجبنه وصار لا طاقة له أن يجرى أى مقاومة وقدم خضوعه لملك الاشوريين حتى ان مملكة اسرائيل البعيدة عن موقع الحروب كان لها الحظ الاوفر فى مشتراها ما يمنع عنها العقاب بواسطة دفعها الخراج

وفى السنين الاخيرة من سلطنة صلمنصار انفجرت ثورة مهولة تحت قيادة ابنه ولى عهده وهو أشوردانيبال خطم الابن الثانى للملك هذه الثورة وهو شمسعول وأما ولى العهد فانه ما قتل فى الحرب أو أمر أبوه بقطع رقبته وفى سنة ٨٢٣ قبل الميلاد هلك صلمنصار وخلفه ابنه شمسعول الثانى وتسلطن ثلاث عشرة سنة وكانت أشوريا فى هذا الوقت صاحبة الشوكة والقوة العالية فى آسيا ولو أن أرمينية الموجودة فى الجهة الشمالية باقية من دون تغلب عليها الا أن شوكة المملكة كانت ممتدة الى الجهة الغربية لحد تخوم مملكة يهوذا وكان كل من سوريا وفنيقية وحماة واسرائيل ايالات خراجية للمملكة الاشورية وأما الحد الجنوبى فانه كان باقيا بغير تبديل ولا تغيير لان بابل ولو أنها أحيانا خراجية الا أنها كانت ممتازة عن جميع الايالات الاخر فى موقعها ومركزها وكذا كان حصل التغلب على بعض أراض فى الجهة الشرقية وكان الميديون والفرس فى هذا الوقت قبائل وعشائر رحالة نزالة لا حضارة عندهم ولا حكومة سلطانية لهم فحاز صلمنصار الظفر الاكبر على الميديين وأرغم الفرس على دفع الخراج وساق شمسعول الثانى حروبا مظفرة على الميديين والفرس والبابليين الا أنه لم يضف شيأ من الاراضى الى مملكته ثم هلك وخلفه ابنه علوش الثالث فى سنة ٨١٠ قبل الميلاد

ومد علوش الثالث ممالكه فى الجهة الشرقية والغربية بواسطة سوقه ستا وعشرين حربا وأقام سيادته على بابل ووصلت المملكة الاشورية من الخليج الفارسى الى حد البحر الابيض المتوسط وكانت زوجته سمورامط هى الوراثة لمملكة بابل وعلى ما قيل ان هذه هى سميراميس التى خلدلها الجريق والرومانيون تواريخ خرافية بحيث جعلوها أكبر وأشجع وأبسل انسان كان على وجه البسيطة الارضية كما أنهم جعلوها أقبح وأفجر وأفسق انسان فى تاريخ الخليقة والمرجح أن سميراميس كانت امرأة نينوس بن نمروذ مؤسس مدينة نينوى وأن سمورامط هذه كانت فقط أكبر معين لزوجها علوش الثالث فى الاحكام والادارات وبموت علوش الثالث تغيرت السياسة الاشورية وتاريخها وانقطعت سلسلة السلطنة فى سنة ٧٨١ قبل الميلاد والى حد سنة ٧٤٥ قبل الميلاد كان تغشى تاريخ أشوريا سحب الظلام وفى هذه المدة عقدت مملكة أشوريا معاهدات سياسية سلمية

ضعيفة وانقطعت حركة التغلبات والفتوحات وظهر على المملكة دخولها في حيز الهبوط والاضمحلال بأى حالة كانت وفي خلال هذه المدة تسلطن في المملكة ثلاث ملوك هم صلمنصار الثالث من سنة ٧٨١ الى سنة ٧٧١ ومن بعده أشورديان الثالث من سنة ٧٧١ الى سنة ٧٥٣ ومن بعده أشورلوس الثالث من سنة ٧٥٣ الى سنة ٧٤٥ قبل الميلاد وفي هذه المدة أيضا عصت بابل تحت قيادة نابونصار وارتجت وتزلزلت أشوريا الاصلية بواسطة ثورة مهولة جلس فيها تغلاثغلاصر الثاني على تخت المملكة وأدخل مملكة أشوريا الجديدة أو السفلى في عصر تاريخ جديد وسودد فريد وفي أثناء الايام الاخيرة من المملكة الاولى أرسل الله سبحانه وتعالى النبي يونس بن متى الى مدينة نينوى لينذر أهلها سوء العذاب ان لم يتوبوا عما هم فيه من معصيته سبحانه وتعالى

وابتدأت مملكة أشوريا الجديدة أو السفلى بسلطنة تغلاثغلاصر الثاني سنة ٧٤٥ قبل الميلاد والاحوال التي حاز بها تاج المملكة والحكومة غير معلومة لنا الا أنه كان رجلا غاصبا دنيء الاصل وبواسطة اجرائه عدة حروب تعددية مهولة استرد ثانيا جميع ما فقده أسلافه حتى انه زاد في ممالكه وتغلب على دمشق ومدينة سمارية وصور وفلسطين وعلى عربان بحيث جزيرة الطور أو سينا وتغلب أيضا على الاراضي الواقعة في شمال مملكة اسرائيل ودمر أراضي المملكة الكائنة وراء نهر الاردن وساق أهلها أسرى الى أشوريا وجعل مملكة يهوذا خراجية له ثم هلك وخلفه صلمنصار الرابع سنة ٧٢٧ قبل الميلاد

ومن بعد جلوس صلمنصار الرابع على كرسي المملكة تقابل رفض هوشيا ملك اسرائيل دفع الخراج لكنه أرغم للخضوع ثانية ومع ما كان عليه هوشيا من هذا الخضوع فانه عصى ثانية من بعد مضي بضع سنين وأدخل نفسه في محالفة مع المملكة المصرية وكانت مصر في ذلك الوقت تحت حكم صباح الحبشي وغزا صلمنصار فلسطين وقسم عساكره لاجل الهجوم على فينيقية وكانت خرجت عن الطاعة وقت موت تغلاثغلاصر الثاني وكذا على مملكة اسرائيل وحاصر كلا من مدينتي صور وسمارية ولم ينجح في اجرآته الحصارية على مدينة صور وهزم الصوريون الاسطول الذي جمعه لاجل الهجوم على هذه المدينة من البحر وأبادوه وأما سمارية فانها استمرت محصورة لمدة سنتين وفي أثناء هذه الاعمال انفجرت ثورة في أشوريا وضبط قائدها سرجون التخت وقلب سلطنة صلمنصار وقرضها في سنة ٧٢١ قبل الميلاد

وحاز سرجون لنفسه أبهة الملك وذلك انه شرع في اقامة وتشييد سلطنته على كامل مملكة أشوريا وحطم جميع المعاندين والمخالفين له بعزم ثابت وسلمت سمارية نفسها له والتقوادد في السنة الاولى من سلطنته وخربت المدينة وخلت البلاد من أهلها وانتقل الاسرائيليون الى غنزانيطيس وميديا وكان سرجون تغلب عليهما على الفور عند جلوسه على التخت وخضعت له سوريا أيضا ولما تم سرجون هذه الاعمال حول جيوشه على مصر حليفة مملكة اسرائيل وكانت هي المملكة الوحيدة القوية الشوكة التي بقيت غير خاضعة لمملكة أشوريا فتقابل الجيشان في نواحي رافية من الجهة الجنوبية من غزة وانهزم المصريون هزيمة فاصلة ولو أنهم كانوا متساعدين بالفلسطينيين وتولد من هذه النصرة أن صار سرجون سيد فلسطين ومصر السفلى وثبتت سيادة الاشوريين في مصر وانتخم ملك المصريين في حدود صعيد مصر وصار خراجيا لسرجون وكذا أرسل ملك مروى من اثيوبية بخضوعه الى

هـذا الفاتح ومن بعدهذا وجهسرجون التفاته الى جهة بابل وتغلب عليها وصار سرجون ملك بابل وكلديا وأعقب هذه النصرات بالتغلب على الارمبانية وأخيرا تغلب على قسم من السوس سنة ٧٠٩ قبل الميلاد وفى السنة التالية أرسلت جزيرة قبرص بخضوعها له ودفعها الخراج وصار سرجون سلطان الدنيا القديمة وأظهر أبهة سلطنته بكونه شيد سراية مفتخرة ومدينة فى دورسرجينة فى خورشيدا باد وكانت السراية أجل وأبهى بناء مزخرف بالنقوش وأنواع التصاوير لم ير قبل نظيرها فى أشوريا وقد ذكرنا وصف هذه السراية فى الباب السابق من هذا الكتاب

وانتهت سلطنة سرجون بموته فى سنة ٧٠٣ قبل الميلاد وخلفه ابنه سنجاريب أشهر ملوك الاشوريين وفى مدة سلطنته وصلت المملكة الى أعلى درجات الفخار والابهة وعظيم الشوكة ومن بعد جلوسه بقليل عصت بابل تحت قيادة مردوخ بعلادن فهزمه سنجاريب شرهزيمة سنة ٧٠٣ قبل الميلاد وأجلس على تخت بابل عاملا من الاشوريين ثم استبدله من بعد مضى سنة أوسنتين بابنه الاكبر أشور عناديسو وكذا لما عصت فينيقية سار اليها سنجاريب وأرغمها الخضوع والطاعة ثم استمر فى سيره الى الجهة الجنوبية وتغلب على فلسطين وكانت عصت من قبل وأرعب مصر وأتيوبية بنصرة عظيمة اكتسبها على جيوشهما فى واقعة حصلت فى علطاخو وأرغمهما على الانقياد والخضوع لطاعته ثم سار الى أورشليم وأرغم حزقيا على أن تكون خراجية له ولما عاد الى بلاده حطم ثورة كانت حصلت جديدا فى بابل

ثم استهل افتتاح القرن السابع قبل الميلاد بمصيبة من أعظم المصائب التى ما تكبدت أشوريا بمثلها أبدا وذلك أن حزقيا ملك يهوذا تجاسر بما ذاقه من ألم العذاب قبل ذلك بمدة سنتين تحت حكم ملك أشوريا ودخل ثانيا فى محالفة مع مملكة مصر وخلع بيعته وطاعته لملك أشوريا فعزم سنجاريب على عقابه وأليم عذابه وفى سنة ٦٩٩ قبل الميلاد سار من نينوى الى فسلطين بجيش جرار قوى البأس كثير الناس لاجل حطم العاصى حزقيا ولما علم اليقين أن مصر هى العدو الحقيقى لاشوريا وليست يهوذا سار فى طول ساحل البحر الابيض نحو الحد المصرى عازما على حطم وهشم مصر قبل معاقبته مملكة يهوذا فانحجز تقدم سيره بواسطة قلعتى لبنة ولاخيش الموجودتين على حد فلسطين من نواحى مصر والظاهر أن هاتين القلعتين كانتا فى هذا الوقت تحت حكم المملكة المصرية فوضع سنجاريب الحصار فى الحال على لاخيش وتغلب عليها فى أقرب وقت ثم حاصر من بعدها لبنة ولما رأى سنجاريب فى أثناء ذلك أن حزقيا لم يزل مصرا على ما هو عليه من عدم الطاعة والانقياد أرسل نحوه فرقة من جيشه تحت قيادة الشربساقى أى كبير شرابه والربسارس أى كبير طواشيته ليدعوا أورشليم الى التسليم وأرفقهما بمكتوب مشحون بالسب والوقاحة فى حق اله اسرائيل وبهذا استوجب انتقام الله سبحانه وتعالى منه فرفض حزقيا هذا الطلب ولما رأى قواد الاشوريين ان الفرقة التى معهم لا طاقة لها على التغلب على مدينة حصينة مثل أورشليم عادوا الى سنجاريب وقد كان تغلب على لاخيش وحاصر قلعة لبنة فأرسل ملك الاشوريين بلاغا جديدا الى حزقيا مع مكتوب كتبه بيده جدد فيه طلبه فى خضوع يهوذا وينذر حزقيا بما آلت اليه عاقبة الملوك الذين عاندوا أشوريا وقاوموها وذكر له فى مكتوبه كلاما من سياق الكفر قائلا له ان الهك الذى أنت معتمد عليه لا طاقة له على خلاصك من يد الاشوريين فأخذ حزقيا هذا المكتوب وتوجه به الى المعبد وفرده أمام الحق سبحانه وتعالى وتضرع اليه

فى مساعدته له على سنحاريب الذى أرسل له يسب فى حقه عدوا بغير علم سبحانه وتعالى فأوحى الله الى شعيا النبى أن قل لحزقيا ان ملك أشور لا طاقة له على القرب من أورشليم ولا على أن يوقع الرعب فيها وانه لابد من عوده فورا الى بلاده من بعد أن يرى سوء عقابه

وفى غضون ذلك لما سلمت لبنة سار سنحاريب الى نواحى بلوزة وهى الفرما من أعمال مصر وعلى حدودها وكان الجيش المصرى منتظرا وصوله اليها تحت قيادة سيطوس وفى اليوم الذى فرد فيه حزقيا مكتوب سنحاريب أمام الرب سبحانه وتعالى كان سنحاريب معسكرا بجيشه أمام جيش المصريين عازما على الهجوم عليه فى صباح اليوم التالى فأنزل الله آيته فى الليل على جيش سنحاريب ومات منه فى هذا الموقع ١٨٥٠٠٠ نفس من الاشوريين وهم نائمون فانكسر سنحاريب وارتاع من هذه الآية المزعجة الكبرى وضعفت قوته وعجزت عزائمه وتفكر فى نفسه فى أنه صار لا طاقة له على استمرار الحرب وترك معسكره فى الحال وأسرع فى القهقرة ولما رأى المصريون ماحل بجيش سنحاريب من الارتباك ووقوع الفشل والهرب أسرعوا خلفه معقبين له فأسرع فى السير وأبطل حروبه وعاد ملك أشور الى نينوى مع من بقى من جيشه الكثيف ومن المحتمل أنه حصل وقفة من الزمن فى الاعمال الاشورية ومع ماحصل فان هذه الامة القوية الشوكة لم يحصل فيها نقص ولا اضمحلال من هذه الخسائر الجسيمة ومع كون سنحاريب امتنع من أن يوجه مساعيه فى العود ثانية الى فلسطين فى المدة التى كانت باقية من سلطنته الا أنه حاز نصرات عظيمة فى جهات أخرى غير فلسطين وذلك أنه ساق حربا مظفرا كان أكبر حرب وأعظم حملة حملها فى تغلباته فى القسم الشمالى من سلسلة جبال زغرة ومن بعد هذا أشعل حربا شديدا على البابليين والسوسيين والظاهر أن ذلك كان بسبب أن البابليين انتهزوا الفرصة وقت حصول المصيبة لسنحاريب فى بلوزة وخلعوا طاعتهم من تحت حكم الاشوريين وأن السوسيين أو العلاميطيقيين أوقعوا على أنفسهم غضب أشوريا حيث استقبلوا كلدانى بيت ياقين وأخذوهم تحت حمايتهم ومحافظتهم وكانوا هربوا من ممالك سنحاريب وأخذ هؤلاء معهم آلهتهم وكنوزهم وذخائرهم ونزلوا فى مراكبهم وعبروا الخليج الفارسى ونزلوا على الساحل العلاميطيقى فاستقبلهم ملوك السوسيين مع الشفقة والمرحمة وسمحوا لهم بالاستيطان فى أرضهم فعزم سنحاريب على أنه من بعد أن يخضع بابل لطاعته ينتقم من العلاميطيقيين ولما أرغم بابل بالخضوع والانقياد له جلب الجم الغفير من صناع المراكب من فينيقية وملاحيها من سواحل البحر الابيض المتوسط وكانت سلطنته سائدة عليهم وأنشأ أسطولا من المراكب الحربية الجسيمة المسماة بالغلابين الفينيقية فى أسفل نهر الدجلة وشحن جيشه فى هذه المراكب الكبيرة الحجم والسعة التى ماشوهد مثلها قبل على هذه المياه وعبر الخليج الفارسى ونزل على قسم الساحل العلاميطيقى المتوطن فيه مهاجرو الكلدانيين ودمر المدينة التى كانوا شيدوا أركانها وجاس فى البلاد والديار وخربها وأحرق عددا كبيرا من المدائن العلاميطيقية وشحن جيشه وأسراءه فى مراكبه وعاد الى الدجلة من دون أن يقابل أدنى مقاومة من العلاميطيقيين وكانوا منتظرين هجومه عليهم من طريق البر وكانوا جمعوا جيوشهم فى حدودهم الشمالية الغربية فدهمهم نزول الاشوريين على سواحلهم وأخذهم الهجوم من كل جانب وما كانوا على استعداد فى مقاومته فى النواحى التى جاس فيها سنحاريب

ولو أن سنحاريب نجح فى غزوته هذه الا أنه لاقى قلاقل وارتباكات كانت فى انتظاره حال عوده وهو

ان

أن عموم رعيته اعتبروا غزوته وحملته هذه من أكبر المخاطرات وانه لابدّ من هلاكه وتدمير أحواله بواسطة البحر فمن ثم تولد من هذا الامل عند البابليين أن قاموا فى ثورة فى الوقت من بعد سفر الاسطول من الدجلة ثم لم يروا من بعدها الا عود الاشوريين من غزوتهم متوجين بتاج الظفر والنصر من السوس ولما نزلوا على ساحل بابل شرعوا فى الحال فى اخضاع الاقليم واعادته لطاعتهم وحصل من ذلك واقعة كبيرة أسر فيها الملك البابليين صوصوب ومن بعد قليل دخل السوسيون فى بابل لاجل معاضدة حلفائهم فشتتهم الاشوريون وهزموهم وأوقعوا فيهم خسائر جمة والتزمت بابل بالانقياد والطاعة وعاد سنحاريب مظفرا بالنصر الى أشوريا ولاجل كسر شوكة السوسيين عزم سنحاريب على أن يغير على تلك المملكة بجيش جرار فدخل فى قلبها وأخرب أربعة وثلاثين من أكبر مدائنها وكثير من قراها وتغلب على مدينة بداقة وهى المدينة الثانية فى المملكة وأضاف الى المملكة الاشورية مدينتى بيت كهرى وراز وكان السوسيون تغلبوا عليهما فى مدة سلطنة سرجون وعاد الى نينوى محملا بأثقال الغنائم والانفال وتاركا السوس فى غاية الدمار والخراب وبعد ذلك بقليل اشتعلت نار الحرب ثانية فى نواحى بابل وذلك أن صوصوب الملك الذى كان أسره سنحاريب فى سمة الغزوة البحرية تخلص من أسره وهرب وعاد الى بابل فرحب الامة به واستقبلوه استقبال الملك فاغتصب الخزائن والكنوز وأخذ جميع الاموال والذخائر التى كانت موجودة فى هيكل بعل فى بابل وجميع ما كان موجودا فيه من الحلى والحلل واستبدل ذلك جميعه بنقود كافية واشترى محالفة السوسيين فساروا لمساعدته وانضم الى البابليين أيضا جملة قبائل وعشائر من عصاة أرمينية من الاقاليم المتوسطة لنهر الفرات وتلاقى سنحاريب مع هذا الجيش المتحالف فى نواحى خالولى من أسفل الدجلة ومن بعد محاربة طويلة وسفك دماء كثيرة هزم سنحاريب هذا الجيش وانتكث التحالف وأرغمت بابل بالانقياد والطاعة والتزم الملوك المتحالفون على أن يجدوا سلامة أنفسهم فى الهروب وعاقب سنحاريب بابل بأشد العقاب وهدم أسوارها وسلب هياكلها وحرقها وكسر صور وتماثيل آلهتها قطعا ووظف عليها عاملا أشوريا مرة ثانية

ومن بعد ذلك بمدة شرع سنحاريب فى الحملة على صليصيا وفيها تقابل الاشوريون مع الجيوش الجريقية أول مرة وانهزم الاسطول الجريقى الذى كان محافظا على سواحل صليصيا بواسطة مراكب سنحاريب ومن المحتمل أن الجريق انهزموا أيضا فى البر فى نواحى صليصيا وخضعت هذه المملكة للفاتح وتوج سنحاريب فتوحاته بتشييده مدينة جديدة على منوال بابل سماها طرسوس وصارت هذه المدينة من أشهر مدن الدنيا وأعظمها وهى مسقط رأس الحوارى بولس

وكان سنحاريب محبا للعمارات وحاذقا للفنون والصناعات وابتنى سراية فى نينوى عجيبت بسعتها وزخرفتها أنوار جميع المبانى التى كانت شيدت فى أشوريا فى الازمان القديمة وكانت وحيدة عصرها فى جمال الزخرفة واتقان البناء واحكام النقوشات وكانت أجل بناء بعد السراى التى بناها من بعده حفيده أشور بانيبال وفى مدة هذه السلطنة أخذ فن النقش والتصوير درجة عالية فى التقدم وبنيت مبان أخرى كبيرة فى محال مختلفة من المملكة وأنشئت الخلجان والترع والمجارى اللازمة لجلب أجود المياه الى داخل المدينة وكانت مياه نهر الدجلة محصورة فى مجراها الاصلى بواسطة أرصفة وحواجز مبنية من الطوب وانغلقت سلطنة سنحاريب بقتله بواسطة ولدين من أولاده فى سنة ٦٨١ قبل الميلاد وكذا ذبح القاتلين أخوهما الوارث لتاج المملكة بعد أبيهم وهما أيضا من بعد مضى بضع

شهورهربا الى أرمينية من أخيهما الاصغر ايصرحدّون وكان مساعدا بالجند وكان محافظا فى حدود أرمينية فى الوقت الذى ذبح فيه أبوه

وجلس ايصرحدّون على تخت المملكة فى سنة ٦٨١ قبل الميلاد وتسلطن ثلاث عشرة سنة وكان مقره تارة فى نينوى وتارة فى بابل على التعاقب وأرغم أهل بابل على طاعته فى السنة الاولى من سلطنته ثم سار الى فينيقيه وأخمد ثورة الصيدين وغلب ملك اقليم لبنان وكان من أمر هذا الملك انه ساعد أهل صيدا على العصيان وقتل ملك صيدا وملك لبنان وكان حربه التالى لهذا فى أرمينية فحاز فيه مظفرات جليلة وأخضع أيضا أهل صليصيا وكانوا أقاموا بيرق العصيان وقت موت سنحاريب وفى نحو سنة ٦٧٥ قبل الميلاد غزا غزوة فى داخل القسم الجنوبى من كلديا وكان فى هذا القسم نابوزيرسى سيدى ابن مردوخ بعلادن أقام نفسه فيه ملكا بمساعدة السوسيين وعزل ايصرحدّون هذا الملك وقلد زمام الاقليم واحدا آخر من أولاد مردوخ بعلادن اسمه نهيد مردوخ وكان هذا نهض لمساعدته ثم تغلب على عيدوم وجعلها خراجية لاشوريا وكانت غزوته التالية فى قلب بلاد العرب فقطع الصحراء بجيش كبير جرار حتى وصل أخصب الاقاليم الموجودة خلف الصحراء وأكثرها عمرانا وتغلب على عدة مدائن ونهبها وعاد الى بلاده فى سلامة وبالنظر الى طبيعة مشاق الصحراء نفسها وصفة حروب سكانها الذين ماقدر أىّ فاتح على خضوعهم تحت سلطته كان ذلك يعدّ من أكبر نجاح وأعظم ظفر ولم يحصل التجول فى بلاد العرب الا ثلاث مرات فى تاريخ العالم وان ايصرحدون هو الملك الفريد الذى خاطر بنفسه لمباشرة مثل هذا الهجوم تحت قيادة شخصه وأخضع أيضا قبائل أرمينية القاطنين فى طول نهر الفرات وحاز بعض مظفرات جليلة فى الاقاليم القاصية من ميديا وكان حصول هذه الحروب فى ظرف العشر سنين الاول من سلطنته

وأكبر حادثة جليلة وقعت فى مدة سلطنة ايصرحدون هى تغلبه على مصر وتم له ذلك فى سنة ٦٧٠ قبل الميلاد وذلك انه هزم القوى المصرية التى كانت تحت قيادة طراقة فى واقعة عظيمة وتغلب على منف ثم سار نحو الجهة الجنوبية وتغلب على طيوه وطرد ملك مصر الى نواحى ايتوبيه وشيد سلطنته فوق المملكة وقسمها الى عشرين كورة صغيرة أجلس فى كل واحدة منها ملكا وكان جميع هذه الملوك تقدم واجبات طاعتها وخضوع عبوديتها الى ملك متسلطن فى منف من طرف ملك الاشوريين وكان هذا الملك هو نخوأ بو بصاميطقوس وهو مصرى وطنى الاصل أو النزعة وفى نحو هذا الوقت عصى منشا ملك يهوذا الا أن قواد الاشوريين أخمدوا هذه الفتنة وأرسلوا ملك اليهود مغلولا فى الحديد الى بابل وكان مقر ايصرحدون فيها فعامل ملك الاشوريين أسيره فى ابتداء الامر مع الشدّة والغلظة الا أنه بعد هذا أعتقه وأعاده الى مقر تخته بشرط أن يدفع خراجا زائدا عن أصل ما كان مقررا عليه ولما سكنت القلاقل والارتباكات فى مملكة يهوذا عزم ايصرحدون على تقوية شوكة الاشوريين فى فلسطين باستعماره أراضى مملكة اسرائيل بعائلات جلبها اليها من خواص أقاليم مملكته والظاهر انه فى سنة ٦٦٩ قبل الميلاد حصل لايصرحدون مرض فظهر طراقة فى الحال فى مصر وأقام سلطنته ثانيا على كامل وادى النيل وطرد الملوك الصغيرة الذين كان الاشوريون أجلسوهم ولما كان ايصرحدون لا يمكنه ملافاة هذه الثورة بنفسه أشرك معه ابنه الاكبر أشوربانيبال فى سلطنة المملكة وتنازل هو عن تاج أشوريا لابنه وتخلى عن الاحكام واعتزل بنفسه فى بابل ومات فيها فى نحو سنة ٦٦٧ قبل الميلاد

في مبادي القسم الاول من هذه السنة

ثم ان أشوربانيبال بمجرد موت أبيه وظف أخاه صولوغينه عاملا من طرفه على بابل وجمع قواه وجيوشه مغيرا على مصر فأرسل طراقة جيشا جرارا قويا لمقابلته وفصل هو في منف منتظرا مايؤل اليه أمر الحرب فانهزم المصريون في واقعة كبيرة بالقرب من مدينة قربنيت وانسحب طراقة الى طيوه فطرده الاشوريون منها فهرب الى ايتوبيه وأقيمت السلطنة الاشورية ثانية على مصر وأعاد أشوربانيبال الملوك الصغيرة الذين كان أبوه وظفهم في كور مصر ولما استتب الامن والراحة في البلاد رجع عائدا الى نينوى وبمجرد رحيله من مصر رجعت البلاد ثانية الى القلاقل والارتباكات بواسطة سعي الاتيوبيين وانضم ينخو الذي كان متسلطنا في منف الى الاتيوبيين وترك الاشوريين فقبض الملوك الذين فضلوا على صداقة وعهد أشوريا على ينخو وبعض من الذين اشتركوا معه وأرسلوهم مغلولين في الحديد الى نينوى واجتهدوا في اخماد الثورة والارتباك الحاصل في المملكة الا أن طراقة نجح في تغلبه ثانيا على طيوه ومنها هدد جميع وادي النيل وأزعجه ولما رأى ملك أشوريا ماحل بالديار المصرية من الخطر عفا ينخو عما وقع فيه من الذنب والجريمة وأعاد تخته وأرسله ثانية الى مصر مع قوة قوية من الجيش الاشوري في وبواسطة هذه القوة طرد ينخو طراقة الى جهة اتيوبية مرة أخرى ومات هذا الملك في تلك الجهة تاركا أمره الى ربيبه عوردماني ومن بعد مضي قليل من الزمن نزل عوردماني الى وادي النيل وكسر العساكر الاشورية بالقرب من مدينة منف وتغلب على منف عنوة وكذا على مصر السفلى فبرز في الحال أشوربانيبال الى ميدان الحرب بجيوشه وعساكره وسار بنفسه في رأس جيشه حتى دخل مصر وطرد الاتيوبيين من المملكة وأخذ الاشوريون طيوة في هذا الحرب بالقوة عنوة وسلبوها ونهبوا جميع ما كان فيها من عظيم النفائس وحملوها الى نينوى وأعاد أشوربانيبال نظام المملكة على المنوال الذي كان أبوه رتبها فيه وأجرى أشوربانيبال حربا ثالثة كهذه في آسيا الصغرى وتغلب عليها ولما ارتاع عيغيس ملك ليديا من تقدم سيره دفع له خراجا لاجل خلاص مملكته وتغلب على قسم عظيم من أرمينية وخضعت السوس بأكملها وانضمت الى بابل وصارت قسما منها وخضع كثير من قبائل العربان الذين كانوا خارجين عن هذه المملكة وصارت أشوريا في أعلى درجات فوزها وشوكتها من دون أن يكون لها عدو يرعبها أو يقاومها وابتنى أشوربانيبال أفخر سراي وأجل بناء وأحكمه من جميع السرايات الاشورية في نواحي السراي التي كان ابتناها جده سنحاريب في نينوى ومال كل الميل الى الحرف والصنائع والآلات الموسيقية وشيد دار كتب ملوكية في نينوى وكان أجل وأفخر الملوك الاشورية قاطبة من دون ريب وفي مدة سلطنته وصلت الممالك الاشورية الى أقصى درجات السعة والامتداد وانتشرت الصنائع الاشورية وظهر على المملكة مجدها ورونقها وكانت تلك المملكة مقصورة في الشرق عموما وكانت هذه المدة الزاهرة محصورة في القسم الاول من سلطنة أشوربانيبال

ولقد نقل من طريق العموم أن أشوربانيبال مات في نحو سنة ٦٤٧ قبل الميلاد الا أنه ظهر من الاستكشافات الجديدة انه عاش عشرين سنة زيادة ومات في سنة ٦٢٧ قبل الميلاد واختار هذا الرأي المعلم رولنسن أحد مشاهير مؤلفي تاريخ هذه الامة وقد أظهرت هذه المدة فرقا واضحا للاثنين وعشرين سنة الاولية من سلطنة هذا الملك الكبير وذلك أن القسم الاول منها شاهد علو مجد أشوريا وشوكتها وسمو سلطنتها وشاهد القسم الاخير الذي سندخل في الكلام عليه مبادي اضمحلال المملكة

العظيمة التى انتقلت فيه أشوريا من درجة السيادة فى الدنيا القديمة الى درجة الحضيض والاضمحلال وكان أول أسباب هذا الاضمحلال هو سرعة تقدم المملكة الميدية ودخولها فى شوكة حربية قوية فى الحدود الاصلية لمملكة أشوريا وأخذت حركة هذا التقدم فى السرعة حتى صار للميديين قوة كافية يغزون بها أشوريا فاغاروا عليها فى سنة ٦٣٤ قبل الميلاد فكانوا على غير طائل منها الا أن تأثير غزوتهم حصل منه فعل فى الحقيقة وانهزموا بالقرب من نينوى وقتل قائدهم المسمى فراعورطيس وفقد الشيخ المسن أشوربانيبال درجة شهامة قواه العقلية الشبابية واكتفى بهزيمة المغيرين على مملكته ولم يسع فى تعقيبهم الى بلادهم فنال كيكاوس الذى جلس على التخت الميدى فائدة عظيمة من تأخير أشوربانيبال عنهم وصرف السنتين اللتين جاءتا من بعد فى تجهيز جيش واستعداده وغزا أشوريا فى سنة ٦٣٢ قبل الميلاد وهزم الجيش الاشوريانى فى ميدان الواقعة وحاصر نينوى ثم انه انجبر بغتة على رفع الحصار وعاد مسرعا الى بلاده بسبب أن قبائل الصيطيان وهم عشائر يأجوج ومأجوج الموجودين فى شمال آسيا غزوا ميديا

وخرجت هذه الامة الخاسرة المتبربرة كالجراد المنتشر من نواحى القوقاس الى آسيا الجنوبية وكان ظهورهم فى الابتداء فى ميديا حتى وصلوا الى البحر الابيض المتوسط وكانت قوة أشوريا فى هذا الوقت ضعفت جدا وخرجت مصر عن سلطنتها تحت سلطنة بصاميطقوس بن نخو وأسرع الصيطيان فى الغلبة على أشوريا وانتقلوا منها الى سوريا فجهز بصاميطقوس سرعة تيار مدهم فحاصروا اشدود فى فلسطين ورشا بصاميطقوس يأجوج ومأجوج لاجل خلاص مصر من أيديهم فتحوّلوا عنها الى الممالك الاخر وأخيرا خفى أمرهم وقيل ان البعض منهم رجع الى بلاده الاصلية فى الجهات الوعرة الكائنة خلف القوقاز والبعض دخل فى خدمة الحكام الوطنية فى آسيا ثم ان هؤلاء الحكام حازوا فى ظرف بضع سنين قوة كافية من أجل خلع طاعتهم لهذه الامة المتبربرة وشيدوا سلطنة أنفسهم مرة ثانية وكانت أول مملكة تمت هذا الشغل هى مملكة ميديا تحت ارشاد صاحب الرأى والحزم كيكاوس

وحاق بآشوريا الخوف الشديد مما حصل من الصيطيانيين من الخراب والدمار الذى أحلوه ببلاد المملكة وتولد من كثرة عدد الصيطيانيين أن قاوموا الاشوريين بآخر ما عندهم من الطاقة فأخذوا كثيرا من المدائن القديمة ونهبوا خزائنها وحرقوا سراياتها وخربت البلاد وعم الفساد وخلت البلاد من أهلها وسكانها الان المتبربرين تتبعوا الاشوريين وبددوا شملهم فى كل معرض قابلوهم فيه وذكر رولنسن ان الصيطيانيين لما تركوا أشوريا كانت خيالا أوظلالا من هيئة صورتها الاولى ضعيفة كثيبة فى ضنك وأفول تدعولها فانحاقوريا فلو كانت حدودها غير متبكة وأقاليمها معترفة بسلطتها وسيادتها لكان أهلها فى أمن من خوف وقد حصل لهم هذا الارتباك بسبب مالاقى أهلها من الضرر والنكال من الامة المتبربرة الشمالية ومع ما كانت عليه أشوريا من الضعف والضنك فى هذا الوقت لم تزل مملكة وحصل الاجتهاد والكد من أشوربانيبال فى عود نظام ممالكه ورتق فتوق الاتلافات التى حصلت من الصيطيانيين الا أنه فى أثناء اجرائه هذه الاعمال النظامية اخترمته المنية ومات فى سنة ٦٢٦ قبل الميلاد من بعد أن تسلطن اثنتين وأربعين سنة

ومن بعد موته خلفه ابنه أشورعميدعلين وهو المعروف عند الجريق باسم صرقوس ولم يعلم شئ من

تاريخه

تاريخه الا أن مدة سلطنته كانت مصيبة وداهية على أشوريا فزاد فيها اضعف المملكة وخلت بيوت الاموال من النقود وصارت المملكة تحت قواعد الدمار والخراب مما حل بها من خراب الصيطيانيين وهم يأجوج ومأجوج وما عرف هل كان فيه طاقة لاصلاح وترميم المفاسد التى حلت بالمملكة أم لا والصحيح أنه ما كان له طاقة ولا شهامة على فعل ذلك ومن قبل تمام أى شئ من الاصطلاحات والنظامات الداخلة فى المملكة دخل الميديون والسوسيانيون فى محالفة مع بعضهم وغزوا أشوريا ودهموها ميديا من الجهة الشرقية وسوسة من الجهة الجنوبية فالتزم صرقوس على قسمة جيشه وقوته الى جيشين لاجل ملاقاة هذا الخطر المضاعف وسار مع أحد الجيشين لمقابلة غارة وحملة الميديين وأرسل الجيش الآخر تحت قيادة نابو بولصار القائد الباسل الموجود تحت يده لاجل طرد السوسيين الذين ساروا من البحر ونزلوا على سواحل بابل ولو أن ترتيب الجيشين بهذه المثابة كان من حزم الرأى بالنسبة للحالة الراهنة الا أنه عاد بالخراب على أشوريا بسبب ما حصل من خيانة نابو بولصار وذلك أنه لما رأى فرصته فى ضعف مملكته ترك أمر أشوريا وعمل شروطا ومحالفة مع عدوها ووطد لنفسه تحت بابل وزوج بنت كيكاوس لابنه الاكبر بختنصر ولما ضم قوته مع قوة كيكاوس سار الاثنان على نينوى وحاصراها وضيقا عليها ولما رأى صرقوس أن المدينة صارت على شرف الغلبة والتسليم وقطع الامل واليأس من نفسه حرق نفسه فى داخل سرايته وتغلب الفاتحان على نينوى وقسما أشور بينهما سنة ٦٢٥ قبل الميلاد

وما كان سقوط المملكة الاشورية عن ضعف كان موجودا بها أو من تأثيرها الى الهرم والشيخوخة عليها بل من سوء مقارنات تدبير الاحوال وذلك أن غزوها بالميديين الذين صاروا أمة حربية قوية كان فى وقت وصلت فيه المملكة الى انحطاط كبير حصل من تدفق غزو وغارة الصيطيانيين عليها ومن الخيانة التى حصلت من أكبر نوابها وقوادها الذى كان عليه المعول والاعتماد فى المحافظة على المملكة وأمتها ولبثت مملكة أشوريا مستقلة نحوا من ١٠٠٠ سنة مكثت فيها سبع قرون على غاية من الشوكة والسيادة أى من سنة ١٣٠٠ الى سنة ٦٢٥ قبل الميلاد ويحتمل أن يكون أكثر من ذلك الا أنه يلزمنا أن نحصر هذه المدة فى خمس قرون مبتدأة من سلطنة أشور ريسعلين فى نحو سنة ١١٥٠ قبل الميلاد ووصلت المملكة فى مدة الاثنين وعشرين سنة الاولية من سلطنة أشور بانيبال الى أعلى درجة من شوكتها وسلطنتها وفى منتصف سلطنة هذا الملك كان لاشوريا السيادة العظمى على قطعة آسيا الغربية المحصورة بين البحر الابيض المتوسط ونهر الهاليس من جهة وبين بحر الخزر والصحراء الكبرى الفارسية من جهة أخرى وكانت حدودها الجنوبية مشكلة من بلاد العرب والخليج الفارسى وأما فى الجهة الشمالية فيظهر أنه ما كان لها وقت فى التقدم نحو البحر الاسود أو الى جبال قوقاس بل وكانت محدودة بخط منكسر ممتد من البلاد الشمالى لارمينية فى المدة التى كانت فيها أشوريا فى درجة رونقها وزهو حالتها ولقد استحوذت أشوريا أيضا فى هذا الوقت خلاف ممالكها فى آسيا على قطعة من أفريقة واعترفت مصر بسيادتها عليها الى حد خط طيوه وكانت الممالك الداخلة فى الحدود المتقدمة الذكر وخاضعة للمملكة الاشورية فى مدة سطوتها ونفوذها هى الآتية السوس وكالديا وبابل وميديا وجبال زغرة والعراق وقسم من أرمينية وقبدوقيا وصيليصيا وسوريا وفنيقية وفلسطين وعيدوم وقسم من بلاد العرب وكامل المملكة المصرية والظاهر أن جزيرة قبرص كانت من تبعتها

ومن الجهة الاخرى كانت فارس الاصلية وبقطريا والصغد وهرقانية وهذه الايالات كانت بعد الحد الشرقي لمملكة أشوريا وأما في الجهة الشمالية فانها لم تصل الى حد أبعد من جارتها قاصوين التي كانت محدودة في الجهة الجنوبية بحواجز جبال زغرة وكذا كان في الجهة الغربية فريجيا وليديا وليصيا وعفيليا كل هذه مستقلة وأن الجيوش الاشورية لم تحول أبدا حسب الظاهر في الجهة الغربية خلف صيليصيا وأنها عبرت نهر الحاليس

ثم ان هيئة الاحكام والقوانين التي أقامها الملوك الكبيرة العراقية على الممالك التي كانت دخلت تحت سلطنتهم وشوكتهم كانت أجود حكم وأجل مشروع لو قارناها بمملكة سليمان بن داود فان سليمان تسلطن على جميع الممالك من ابتداء نهر الفرات الى أرض فلسطين الى حدود مصر فكانوا يقدمون له الهدايا والتحف ويخدمونه في مدة حياته كلها وان أول الهيآت الغربية في الممالك القديمة جداهي أن كل مملكة كانت موقرة ومحترمة في نفس اجراء أصولها وعوائدها حسبما هي عليه من أصل منشئها وليس للمملكة السائدة أن تطلب من المتغلبة عليها تغيير عوائدها الشخصية كما هو جار الآن في الممالك الجديدة بل تبقى المملكة الواحدة على ما كانت عليه من قبل الا اذا لزم بعض اضافات جبرية بشأن مراعاة السلطنة السائدة فمن ثم كان الممالك حافظة لشرائعها ودياناتها القديمة وسلسلة ملوكها وقوانين أنساب العائلات وجميع نظاماتها الداخلية وطرائق اجرا آتها العلمية والعملية وكانت المملكة الواحدة تعترف فقط بتبعية برايته مربوطة بها على أداء واجبات معلومة للمملكة السائدة وكانت هذه الواجبات المعروفة في الازمان القديمة محصورة في كلمتي الاحترام والخراج وكانت الواجبات اللازم أداؤها للملوك هي الخدمة وجلب الهدايا والجبر على الانقياد والطاعة والتوجه الى محكمة الملك حال طلبها مالم تحصل أعذار يسامحون فيها ويعترفون بدرجة الملك وعلو منزلته فيما بينهم وفوق كل ذلك وجوب دفع الخراج مع الانتظام في الاوقات المقرر دفعه فيها الذي تعين عليهم وتقرر دفعه سنويا في مدة التغلب أو صيرورة التبعة والذين لا يمتثلون أداء هذه الواجبات يعد منهم اشهار عصيان وبالجملة فانه يجب على المملكة التابعة أن تسمح لجنود ملكهم أن يمر من وسط أرضهم وأن يقاوموا كل سعي يحصل في أي حملة بأي حالة كانت تحصل من مرور عدو في أراضيهم وأما واجبات المملكة فانه يجب عليها أن تضمن لتبعتها الحماية والمحافظة واستتباب الراحة والامن على الاموال والانفس من أعدائهم البرانية أو الداخلية اذ من المعلوم أن كل مملكة تحوي في داخلها الارتباك والقلقلة وعدم النظام فان مرجعها الى الخراب والدمار وقيل ان من أشهر الاحوال وجود القوة والضعف في طائفة الملوك والممالك فاما قوة المملكة وجلالتها وسمو شوكتها فهي محصورة في سعة المملكة وعظمها وثروتها وضبط عواصمها وأما الضعف فهو محصور في الفقر والضنك ونفور الايالات التابعة وعلى فرض تمزق المملكة فانه يمكن عودها على الدوام بتدابير حازمة وشجاعة وبسالة على توالي جلوس ملوك حربية يتساعدون بشجعان الامة ورجال سياستها وكانت أشوريا في حالة سعيدة وسلطنة مجيدة وقت ما كانت مستحوذة مدة طويلة من الزمن على ممالكها ودرجة نفوذ شوكتها وما كان لها جار ذو شوكة قوية ينازعها في نفسها وكانت وجدت بعض صعوبات قليلة في مد سلطتها على جميع الاقاليم المقسمة والمتوزعة بين مئات من رؤساء صغيرة لا يوافقون في كلمة التجمع بينهم وليس لكل منهم طاقة على مقاومة مملكة كبيرة شاسعة ذات قوة عظيمة وخاطرت بنفسها في اطفاء الثورات وظفرت

بها حتى أمسكت نفسها المدة خمسة قرون وأخذت شوكتها فى التقدم على التدريج وسقطت من بعد حرب مهول حصل من مملكة جديدة تشيدت على حدودها وانتهزت الفرصة فى وقت ضنكها واتحدت مع أقوى الممالك الخاضعة لها حتى صار لها قدرة وطاقة على تمام خراب ودمار الامة التى سادت على الدنيا القديمة مدة طويلة من الزمن

(الكتاب الخامس)

﴿ تاريخ بابل ﴾

(الباب الاول)

﴿ قيام المملكة البابلية وسقوطها ﴾

الموقع الجغرافى لمملكة بابل — هى نفس كلديا — وجود بابل تحت الحكم الاشورياني — وجود العصيان والثورات — تعيين نابو بولصار عاملا على بابل بمعرفة صرقوس — الثورة الاخيرة وجعل نفسه ملك بابل — معاهدته مع الميديين — سقوط أشوريا — تشكيل المملكة البابلية — سلطنة نابو بولصار — الحرب مع مصر — هزم بختنصر بنخوفى قرشميش — صيرورة بختنصر ملكا — خضوع فنيقيه ويهوذا — أخذ أروشليم وخرابها — التغلب على مصر — سلطنة بختنصر — الزاهرة — أشغاله الكبيرة — البساتين المعلقة — أسوار بابل — الثروة التجارية — صفة الملك — جنونه واختلال عقله — شفاؤه وغلاق سنيه — خلفاؤه — صيرورة نابونادوس ملكا — اشتراك ابنه معه — الحرب مع فارس — عيد بلشاذار — تغلب كيرش أو كيخسرو على بابل — سقوط المملكة البابلية — صيرورة بابل العاصمة الثانية للمملكة الفارسية

تنحصر مساحة مملكة بابل الحقيقية فى مملكة كلديا القديمة ومن ثم لا حاجة لوصفها هنا وهى واقعة بأكملها فى الجهة الغربية من نهر الدجلة وتنحصر فى سهلين واسعين أى مفازتين كبيرتين فالاول واقع بين نهرى الدجلة والفرات ويشكل القسم الاسفل من ميزوبوتاميه (يعنى جزيرة العراق) والثانى واقع بين نهر الفرات وبلاد العرب وهو حزام أوسير ضيق العرض بطول الايمن لهذا النهر ومساحتهما نحو من ٢٧٠٠٠ ميل مسطح وأما الاراضى الموجودة فى شرق نهر الدجلة فانها ليست قسما من بابل الاصلية بل هذه تصيا أوسوسيانه أو السوس وهى جهة اقليم ممتاز معروف عند اليهود باسم علام وكان مسكونا بأمة جليلة من البابليين وفى مدة ارتقاء شوكة المملكة البابلية كانت استحصلت على قسم واسع من الدنيا الشرقية كما سنذكره بعد

ومن بعد أن تغلب ثغلاثنين الاول على كلديا فى سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد وأدخلها فى المملكة الاشورية صارت أمة هذه الجهة على غير رضا كثيرا وقليل منهم وسعوا وكدوا من وقت الى وقت فى خلع طاعتهم من تحت ناف الحكم الاشورياني الى الآن هذا السعى والكد جاء على غير طائل ومع ذلك فانه فى سنة ٧٤٧ قبل الميلاد نجح بابونصار فى ترتيب ثورة نجحت أشغالها وشيد سلطنة مستقلة فى بابل

وتسلطن أربع عشرة سنة وأبطل ما دوّنه عمال الاشوريين الذين سلفوه فى خصوص تقريرهم عبودية بلاده ثم خلفه نادبوس وهذا تسلطن من سنة ٧٣٣ الى سنة ٧٣١ قبل الميلاد ومن بعده جلس على التخت ملكان شينزنوس وبوروس من سنة ٧٣١ الى سنة ٧٢٦ قبل الميلاد وجاء من بعدهما علولوس من سنة ٧٢٦ الى سنة ٧٢١ قبل الميلاد وخلف هذا من بعد موته مردوخ بعلادن وفى سنة ٧١٣ قبل الميلاد أرسل هذا الملك رسولا من عنده الى حزقيا ملك يهوذا ليهنئه بما حصل له من الشفاء من مرض خطر كان أصابه وفى سنة ٧٠٩ قبل الميلاد هجم عليه سرجون وخلعه من تخته وأسره ودخلت بابل مرة أخرى تحت حكم عامل أشوريانى واستمرت حالة هذه الاعمال الى سنة ٧٠٤ قبل الميلاد ثم أعقبها فترة لبثت أقل من سنة ثم ان مردوخ بعلادن هرب من أسره ونجا بنفسه وعاد لتخته وحكم ستة أشهر حتى هجم عليه سنجاريب وهزمه وأجلس على التخت عاملا أشوريا اسمه بلبوس فى نحو سنة ٧٠٢ قبل الميلاد وفى سنة ٧٠٠ قبل الميلاد ارتاب سنجاريب من بلبوس فى خيانة ألقيت الى سنجاريب فعزله من حكومة بابل وعهد زمامها الى ابنه الاكبر أشورعناديسو وأو أصرنادبوس فتسلطن هذا فى بابل لحد سنة ٦٩٣ قبل الميلاد وفى أثناء هذه السلطنة عصت بابل مرتين على أشوريا ثم خضعت مرتين الى الطاعة والانقياد أيضا وجاء عقب هذه السلطنة مدة مرتبكة مشحونة بالقلاقل والزعازع استمرت ثلاث عشرة سنة وانتهت بتغلب ايصرحدون على بابل فى سنة ٦٨٠ قبل الميلاد وأضافها لنفسه وتلقب بلقب ملك بابل وابتنى لنفسه سراية فى تلك المدينة وجعل مقره على التوالى تارة فى بابل وأخرى فى نينوى وضبط حكومتها الى سنة ٦٦٧ قبل الميلاد حتى عين ابنه ساغوس أوساغوسدوقينوس عاملا عليها فحكم هذا البرنس بابل مدة عشرين سنة وخلفه فى سنة ٦٤٧ قبل الميلاد سنلادانوس وتسلطن هذا اثنتين وعشرين سنة

وفى سنة ٦٢٥ قبل الميلاد عين صرقوس ملك أشوريا الاخير نابو بولصار قائدا على هذه الايالة لاجل توقيف سيرالسوسيين الذين اقتربوا من المملكة مغيرين عليها من جهة الخليج الفارسى ومن المحتمل انه كان قلده عاملا أيضا وعند دخوله المدينة قامت الامة البابلية فى ثورة وعصيان فرأى نابو بولصار أن يجعل نفسه رأس هذه الحركة المقبولة عند عموم هذه الامة حتى يوقع الدمار والخراب على أستاذه ويقدم المنفعة لنفسه فمن ثم دخل فى محالفة مع كيكاوس وأغار هذا على أشوريا من جهة ميديا وعقد نابو بولصار عقد زواج بين ابنه الاكبر بختنصر وابنة كيكاوس وبواسطة نص شروط المحالفة وطد نابو بولصار لنفسه كرسى بابل أشبه بكونه ملكا مستقلا ولما تم نظام مواد المحالفة ضم نابو بولصار قواه فى الحال الى قوى كيكاوس واشترك معه فى الحرب وكانت نتيجته كما ذكرنا التغلب على نينوى وخرابها وسقوط المملكة الاشورية

ولما صار تقسيم الممالك الاشورية خص نابو بولصار جهة السوس ووادى الفرات وسوريا وفلسطين وأشوريا الاصلية وأما الممالك التى كانت تابعة لاشوريا فى الجهة الشمالية فانها وقعت من قسم كيكاوس ومن ثم صارت بابل الآن رأس مملكة ذات شوكة قوية وخضع الممالك والايالات المتقدمة الذكر الى هذا التغيير من دون أن يحصل من واحد منها أدنى معارضة أو مقاومة لان هذه الممالك ما كان عندها علم بالذى حصل حيث يعلمون من أصل عوائدهم أن ملك أشوريا تارة فى نينوى وتارة فى

بابل

بابل حتى انهم ما كان لهم من علم بمبادى هذا التغيير واستمر ملك بابل نابو پولاصار عاكفا بنفسه مدة سنين على تقرير سلطنته وربط علائقاتها واستمرت ممالكه فى حالة هدو واستتباب راحة مدة من الزمن ومن سنة ٦١٥ الى سنة ٦١٠ قبل الميلاد كان موجودا حرب بين ميديا وليديا فاشترك نابو پولاصار وأحيانا ابنه فى هذا الحرب مع حليفه كيكاوس وفى السنة الاخيرة أى فى سنة ٦١٠ قبل الميلاد بينما كان الجيشان على شرف المبارزة الحربية بين بعضهما اذ حصل كسوف للشمس أزعج الجيشين فانتهز نابو پولاصار الفرصة فى هذه الحادثة المرعبة وتداخل بطريق التوسط بين كيكاوس والليديين ونجح فى أن أوصل الحالة الى عقد معاهدة سلمية بين الاثنين واستمرت آسيا الغربية نحو نصف قرن تقريبا فى هدو وسكون متوال

ولما خلف نخو أباه بسامطيقوس ملك مصر على الاريكة المصرية فى سنة ٦٠٨ قبل الميلاد أغار على الممالك البابلية وهزم يوسيا ملك يهوذا وكان صد حركات سيره فى نواحى مجدو وتغلب على جميع البلاد الكائنة بين مصر ونهر الفرات ومن بعد مضى ثلاثة أشهر من عوده الى مصر زار أورشليم وعزل عنها يهو ياحاظ وهو الابن الاصغر ليوسيا وكانت الامة أقامته ملكا عليها وأجلس أخاه الاكبر يهو ياقيم على التخت وحاصر فى هذا الوقت مدينة غزة الجليلة من أعمال فلسطين

وما حصل من نابو پولاصار أدنى كد ولا سعى مدة ثلاث سنوات فى استرجاع ما ضاع من أرضه وبلاده بل وسمح لنخو أن يتمتع فى فتوحاته وتغلباته وفى سنة ٦٠٥ قبل الميلاد جمع جيشا جرارا وعهد زمام قيادته لابنه بختنصر وأمره بالغارة فى شأن استرجاع البلاد فأسرع فى التقدم الى الفرات وهجم على الجيش المصرى بالقرب من قرشميش وبدد شمله واستمر سائرا خلفه الى حدود مصر واسترد فى سيره جميع الاراضى التى كانت فقدت من ممالك أبيه واستقبل طاعة يهو ياقيم ملك يهوذا وكان على عزم الغارة على مصر وحطمها الا انه التزم الكف عنها عندما وصل الى سواحلها وحدودها بسبب ما أتاه من الاخبار عن موت أبيه فعقد صلحا مع نخو وأسرع فى العود الى بابل واستلم التاج وتقلد زمام أحكام المملكة فى سنة ٦٠٤ قبل الميلاد والظاهر أن السنين التى كانت باقية على غلاق القرن السابع قبل الميلاد كانت سنين سلمية اشتغل فيها بختنصر باصلاح عاصمته وتوطيد أركان وقواعد دولته

وفى افتتاح القرن السادس قبل الميلاد دعى ملك بابل مرة أخرى لميدان المحاربات لاجل اطفاء ثورات كانت حاصلة فى فنيقية ويهوذا وكانت يهوذا مغواة من طرف المملكة المصرية وفى سنة ٥٩٨ قبل الميلاد سار بختنصر فى رأس جيش متحد مؤلف من البابليين والميديين وأغار على فنيقية ووضع الحصار على مدينة صور وكانت هذه المدينة على رصانة وقوة كافية حتى قاومته ثلاث عشرة سنة وفى أثناء هذه المدة خلع يهو ياقيم ملك يهوذا وقتله وأجلس بدله يهو ياقين ثم استبدله بصدقيا وهشم الثورة الاخيرة لليهود بكونه تغلب على أورشليم وهدم هيكل اليهود ومعبدهم وخرب مدينتهم وحمل الامة اليهودية الى بابل أسرى كما أسلفنا ذكره وفى نفس هذه المدة هزم مساعى ملك مصر وأرغمه رفع الحصار عن أورشليم الا أنه ما كان له طاقة على معاقبة هذا الملك الامن بعد فتح مدينة صور وفى سنة ٥٨٥ قبل الميلاد تغلب بختنصر على مدينة صور وخربها من بعد حصار استمر ثلاث عشرة سنة وأرغمت فنيقية عمومها على الانقياد والطاعة للفاتح بختنصر

ثم ان بختنصر وجه التفاتاته الى عقاب مصر وفى سنة ٥٨١ قبل الميلاد أغار على تلك المملكة

ونال بعض مظفرات غير مهمة والظاهر أنه ما كان ساس هذا الحرب مع العنف والشدة وخلاصت مصر مدة مامن الزمن من العقاب الذى جلبته على نفسها بتداخلها فى أعمال بابل ومع هذا فانه فى سنة ٥٧٠ قبل الميلاد أغار بختنصر على المملكة مرة أخرى وتغلب عليها وأجلس على أريكتها ملكا جديدا اسمه أموزيس تحت سيادته وأن يكون عبداله

وكانت سلطنة بختنصر مشتملة على المدة السامية الزاهرة لتاريخ بابل وما كان بختنصر فاتحا كبيرا فقط بل كان أيضا حائزا البسالة والتدبير وحزم الرأى الخارق للعادة مع الصفات العظيمة والسجايا الجليلة وشحن المملكة بالاشغال العمومية النافعة كالترع والخلجان والحواجز اللازمة لاصلاح طرق الرى وعمل طريقة من المواص والارصفة فى مين الخليج الفارسى وجعل بابل أفخر وأجل مدائن الشرق ولاجل ادخال السرور على زوجته الملكة أميطيس وكانت اشتاقت لرؤية ومشاهدة جبال ووهدات وطنها وسقط رأسها وهو ميديا أنشأ البساتين المعلقة فى بابل على قول آخرين من المؤرخين وكانت هذه البساتين معدودة من عجائب الدنيا السبعة وكانت مبنية كما ذكرنا فى الكتاب الثالث على هيئة عدة دكات قائمة على قواصر أوعقود مرتفعة الى أعلى أسوار مدينة بابل ووضع الاتربة على هذه الدكات وغرس فيها الاشجار والنجوم وأنواع الزهورات والنباتات المختلفة وعمل لها الآلات اللازمة لرفع المياه الى أعلى موازين الفساقى والحياض المرتبة لسقى الاشجار والنباتات وتسابقت الصنائع وتفاخرت الحرف وهرعت اليها أرباب الصنائع بخصوص تقليد هذه الهضبة الصناعية بالهيئة الطبيعية لجبال ميديا وشيدت هذه الجبلاية المرتفعة وغرست فيها الاشجار المختلفة وظهر وجود هذه الجنة المدهشة للعقل ولو أنها كانت لاتقرب من منظر جبال ميديا الا أنها بأى حالة كانت مفرحة بالنسبة لتغيير الهيئة الطبيعية لمرج بابل وأعادت الى ملكة بابل رضاها وشكرها وذكرتها فى الحال محبة زوجها لها وحسن وجمال وطنها وكانت المدينة مسورة بأسوار مبنية من الآجر فى علو ٣٣ قدما وسمك ٨٥ قدما ومحيط دائرها ٤١ ميلا وهذا الدائر جعل للمدينة المحيطة بالاسوار مساحة قدرها أقل من ١٠٠ ميل مسطح وهذا على قول من قال ان بختنصر هو الذى شيد البساتين المعلقة وأحاط بابل بالاسوار وأما الذين قالوا ان سميراميس الملكة هى التى شيدت ذلك فقد ذكرنا وصفه فى الكتاب الثالث والله أعلم بالصواب

وصارت بابل تحت حكم وسياسة هذا الملك الخطير المدينة الرئيسة للتجارات فى الشرق بالنسبة لموقعها المستحسن فى منتصف الطريق بين نهر السند والبحر الابيض المتوسط وان لكل من نهرى الدجلة والفرات طرق موصلات بين الخليج الفارسى والجهات القاصية الشمالية فكانت التجارات من عموم الممالك والايالات المعروفة تورد فى أسواقها وكان يخرج من مشغولات معامل بابل أجود الطنافس والبسط والسجاجيد وكانت المدائن الموجودة فى طول نهرى الدجلة والفرات مشهورة بظرافة مشغولاتها القطنية وجمال ألوانها المختلفة وما كانت بابل وحدها هى التى أصلحها الملك بختنصر ونظم أحوالها فقط بل وكافة المدائن البابلية الاصلية تحلت بالابنية الجليلة والهيا كل الفاخرة والمعابد الطريفة واستحكمت أسوارها القوية وكان لايوجد جهة من جهات المملكة الاوشيد هذا الملك فيها الاعمال الجليلة النافعة لها

وكان بختنصر أحد كبار الرجال المشهورين فى التاريخ القديم كما انه كان أيضا أحد الصور المدهشة

المذكورة

المذكورة فى تاريخ التوراة التى تيسر لنا منه الحصول على جمع أخباره الحقيقية وقد وصفه النبى دانيال فى كتابه بقوله انه كان رأس سلطنة بهية فاخرة محاطا بالبرنسات والحكام والقواد والقضاة ومأمورى بيوت الاموال والنواب والوجوه والاعيان من عموم ممالكه ومثلا بين يديه الطواشية المغدق عليهم بانعامانه وكرم جوده يفعلون ما يأمرهم به الملك وجميعهم فى درجة عالية من التربية والتهذيب وموجود فى سرايته الجم الغفير من المنجمين والفلكيين من أذكياء الرجال وأعلمهم يؤدون ما يلزم له ويرغبه ويشرحون له مطلوب آلهته وقال انه كان ملكا مطلق التصرف فى رعيته له طاقة فى لفظة واحدة على خلع ملوك وتولية آخرين وعليه المعول فى المحافظة على حياة الامة وسعادتها فى الاقطار الشاسعة والممالك الواسعة المتسلطن عليها ولا يمكن أن نضع برهانا حقيقيا دالا على تصرف شوكته فى رعيته زيادة عن كونه وضع دانيال الرجل الغريب فوق رؤس جميع طوائف القسس والعلماء البابليين

وكان بختنصر ذا ثروة عظيمة جدا حتى صار له طاقة أن يضع تمثالا من الذهب الخالص علوه تسعون قدما وعرضه تسعة أقدام

وأما أخباره فى الديانة فكان لا يعبد ما يعبده جنسه بل كان يعبد أحيانا آلهته وأحيانا ينتقل بغتة الى طاعة اله أسراء العبرانيين وألزم جميع قومه على الاقتداء بمثاله وكانت خصاله شديدة طائش العقل الا انه ما كان فى رأسه عناد وحماقة وكانت حدة الغضب تظهر عليه أحيانا ثم يستغفر منها فى الحال وكان عنده الحلم والخشوع أزيد مما كان يعتريه من الغضب والحمق وكان مثل أهل الشرق يحب الفخر والتعالى ويعجب بهما الا انه كان له طاقة على نفسه فى الخضوع والاذلال أمام القادر سبحانه وتعالى على عقابه وعذابه وكان غريب الاحوال والصفات فى المملكة والوقت الحاضر وكان عنده شهامة الرأفة الحقيقية ويقضى على نفسه بنفسه ويخضع نفسه بنفسه وصار بهذه الصفات الجيدة أحد الرجال المشهورين بحسن الصفات فى الكتب المقدسة وكان من جهة أخرى جبارا عنيدا وما كانت هذه الصفة المهولة على الدوام فيه بل عندما توجب أسباب الاحوال طلب الشدة من جهته وبسبب ما كان يظهر له من توقيع مصائب الآلام والاكدار على أعدائه الذين تغلب عليهم وكان على خضوع تام لزوجته التى انتخبها له أبوه لاسباب سياسية وشيد لها البساتين المعلقة

وفى نحو غلاق سلطنة بختنصر ويحتمل فى الوقت الذى تم فيه فتوحاته وأشغاله العمومية وفى حال تمتعه بالراحة والفلاح اللذين أكسبهما المملكة أنذر هذا الملك بغتة بانذر من السماء من عند الله سبحانه وتعالى وذلك أنه رأى رؤيا أدهشته وأزعجته فقصها على دانيال النبى ففسرها له بوحى من الله وقال للملك ان الله سيرسل عليه نوع جنون غير معتاد عقابا له على خطيئته وجريمته ويستمر هذا المرض سبع سنوات وفى أثناء هذه المدة لا يكون فيه صلاح لتقليده زمام الحكومة ولا الجلوس على تخت المملكة وان هذا المرض الغير معروف عند الاطباء يتسلطن فيه بحيث يجعله آدميا فى هيئة حيوان يفقد التكلم ويمتنع عن أصناف المأكولات المعتادة ويأكل من نبات الارض ويمشى على أربع تارة وفى ظرف سنة من المدة الموعودة أنذر بختنصر ودخله المرض وصار فى حالة حيوان لا طاقة لانسان على مساعدته وخلاصه منه وتصور بختنصر فى نفسه الصفة البهيمية وترك الاجتماعات البشرية وعاش فى الهواء المكشوف ليلا ونهارا ورمى جميع ما كان عليه من الملبوس وعاش على نبات الارض واستتر جسمه بستر خشن من الشعر الملبد فى بعضه وصار فى حالة يرثى اليها حقيقة وفى المدة التى حصل فيها للملك هذا

الجنون ما سمح لاحد من رعيته أن يراه ووضع في محل لا تراه فيه العيون محفظا عليه بخدمه وحواشيه وتقلدت الملكة زمام الحكومة وازدادت صداقة وخضوع أرباب الدولة البابلية الى مليكهم سيئ البخت بسبب ما عوّدهم عليه من شريف الصفات وجميل الطباع ووصلهم بها في وقت فلاحه ونجاحه وتأكدوا مما قاله لهم النبي دانيال وتعشموا في أن تكون مدة المرض سبع سنوات ولما تم مقدارهذه المدة رجع للملك عقله بغتة وتمتع بسلطنته وعاد الى تعاطي الاحكام كما كان ولما طعن في السن واعتبر من دون ريب بما حصل له من العقاب كان غلا قسى في سلطنته منزهرا فاخانا جها كما كانت في ابتدائه ثم مات بعد أن تسلطن أربعا وأربعين سنة في سنة ٥٦١ قبل الميلاد تاركا مملكته لابنه عيفلمردوخ فتسلطن هذا سنتين وذبح في ثورة حصلت من رعيته قامت عليه تحت قيادة صهره نيرجليصار

وابتدأت سلطنة نيرجليصار في سنة ٥٥٩ قبل الميلاد فتسلطن أربع سنوات وكانت مدة سلطنته ذات أمن وراحة واشتغل بالخصوص في بناء السراى الغربية في بابل ومات في سنة ٥٥٦ قبل الميلاد وترك مملكته لابنه اعيوروسعرخورأولعبوسوراقوس وهو غلام صغير فخلع وقتل بعد أن تسلطن بضع شهور بواسطة ثورة واختار أهل الثورة نابونادبوس ملكا عليهم ولما لم يكن من أولاد الملوك تدارك تقوية مسنده بكونه تزوج بنت بختنصر أرملة نيرجليصار فولدت له ولدا سماه بعلشاراعوزار أو بعلشازار ولما بلغ هذا المولود مبلغ الرجال أشركه أبوه معه على التخت ولما ارتاع من تقدم دولة الفرس وجسامة شوكتها دخل في محالفة تعرضية ودافعية مع قروصوص ملك ليديا لاجل صد تقدم فارس ومع هذا فما أفادته هذه المحالفة بشيء مالانه في فصل ربيع سنة ٥٣٨ قبل الميلاد أغار كيرش أو كيخسرو ملك فارس على بابل وهزم نابونادبوس في واقعة سافكة للدماء وحصره في بورسيبه ثم تقدم على مدينة بابل وتغلب عليها بكونه دخلها من مجرى الفرات بعد أن حوّل مياهه الى خارج المدينة وجذف فرشه وجعله طريق عبور لجيشه في داخل المدينة وكان أهل بابل منهمكين في لذات ومسرات كانوا مقيمين شعارها تعظيما لاحد آلهتهم ولم يشعروا بحركة كيخسرو الامن بعد تغلبه على المدينة وذبح بعلشازار في صالة مائدته وسلمت بورسيبه بمجرد سقوط بابل وعامل كيخسرو نابونادبوس أحسن المعاملة وأنعم عليه بحكومة ايالة كرمانيا العظيمة وصارت بابل المدينة الثانية للمملكة الفارسية وصارت مقر الحكومة الملك نصف سنة وانقرضت مملكة بابل بتغلب كيخسرو وعلى المملكة البابلية والله يؤتي ملكه من يشاء وهو القوي العزيز

﴿ الكتاب السادس ﴾

﴿ تاريخ فنيقيه ﴾

﴿ الباب الاول ﴾

﴿ من ابتداء الازمان القديمة الى تغلب اسكندر الاكبر ﴾

وصف فنيقيه ــ مدائنها ــ أصل الامة الفنيقية ــ صيدا أقدم مدينة ــ مستعمراتها ــ صور ــ المدائن القديمة والحديثة ــ أول المخاطرات التجارية للفنيقيين ــ تجارة الصفيح أو القصدير ــ أخطار

التجارة

التجارة البرية ـ أخذ الفنيقيين الطرق البحرية ـ نشر تجاراتهم ووصفها ـ المستعمرات الفنيقية ـ صنعة الصباغة ـ شغل الزجاج ـ الفخار ـ شغل البرنز ـ الزراعة ـ الحروف الهجائية الفنيقية واستعمالها فى الكتابة ـ اللسان الفنيقى ـ أشغالهم العلمية ـ العمارة ـ الفنون ـ ديانة الفنيقيين ـ صفة الامة ـ قيام صور ـ حيرام الملك ـ معاهدته مع داود وسليمان ملكى اسرائيل ـ نظام الاتحاد الفنيقى ـ خلفاء حيرام ـ بجماليون الملك ـ هرب ديدو وحزب الاشراف ـ تأسيس قرطاجنه ـ صيرورة فنيقية خراجية لاشوريا ـ حصار صور ـ تغلب سنحاريب على صور ـ انقراض سلطنة الصوريين ـ تخريب ابصرحدون صيدا ـ تغلب بختنصر على صور ـ صيرورة فنيقية ايالة فارسية ـ تغلب اسكندر الاكبر عليها ـ تابع تاريخها

فنيقيه القديمة حزام ضيق من الارض ممتد فى طول ساحل البحر الابيض المتوسط من ابتداء مطلع صور فى الجهة الجنوبية الى جزيرة عردوس فى الجهة الشمالية وكان طول هذه المملكة نحوا من ١٢٠ ميلا وعرضها من قاعدة سلسلة جبل لبنان الى البحر لا يزيد عن عشرين ميلا وأحيانا أقل من ذلك وتبعد الجبال بالقرب من مدينة صيدا بنحو ميلين وعرض السهل الفنيقى من عند مدينة صور خمسة أميال وكامل السهل الفنيقى هو واد كثير الخصوبة يسقى بمياه جداول كثيرة ويوجد بالساحل عدة مين صالحة لان تكون مأوى للمراكب التى كانت تسير فى طلب التجارة القديمة ويوجد فى طول الساحل عدة مدائن جليلة لها أهمية عظيمة وأكبر هذه المدائن وقوعا فى الجهة الجنوبية مدينة صور وعلى عشرين ميلا منها فى الجهة الشمالية مدينة صيدا وعلى مسافة ستة عشر ميلا من شمال صيدا توجد مدينة بيروت التى صارت فى الازمان الاخيرة أشهر مينة بحرية لبلاد سوريا وفى شمالها بقليل بيلوس أى جبلة وهى مسكونة بناس بحرية صيادين وفى شمال جبلة توجد طرابلس وآخر الجميع عردوس وخلاف المياه الكثيرة التى يعطيها جبل لبنان لسقى هذه المملكة فانه مشحون بوفرة الغابات والاورمانات ويمنح من أخشابه التى لا تفنى محصولا عظيما من الاخشاب اللازمة لصناعة المراكب وهذا الجبل هو القافل لمملكة فنيقية من الجهة الشرقية

والفنيقيون فرع من ذرية حام وهم من نسل كنعان وجاؤا الى هذه الاراضى من سهول كالديا فى نحو عصر غير وذوبنوا عدة مدائن مستقلة اتحدت مع بعضها فى جامعة واحدة وكانت احدى هذه المدائن معروفة فى العادة عندهم بانها رأس الجامعة وما كانت هذه السيادة لها الا فى مدة وقوع حرب فقط وكانت المدائن الاخرى حرة فى اجراء أشغالها الداخلية على حسب عوائدها وحكومتها

والظاهر أن مدينة صيدا أقدم المدائن الفنيقية وأول من حاز الثروة والشوكة وهى أول من شرع مشروع التجارات فى البر والبحر مع الامم المجاورة لها وأول من دخل فى شغل تأسيس المستعمرات التى عادت نتائجها على الاعمال الفنيقية بهيآت ممتازة وصور جليلة وكانت مدينة صور أول هذه المستعمرات وتمتعت مدينة صيدا بالسيادة على المدائن الفنيقية الى حد نحو سنة ١٠٥٠ قبل الميلاد حتى ضبطها الفلسطينيون القاطنون فى القسم الجنوبى من فلسطين ودمروها تدميرا والتجأ أهلها الى صور وصارت مدينة أصلية فنيقية ثم ان مدة تاريخ تأسيس مدينة صور غير معروفة فى الحقيقة وانما أصل المدينة الاصلية كانت واقعة على البر الاصيل ومن بعد مدة أنشئت مدينة جديدة فوق

جزيرة على بعد نصف ميل تقريبا من الساحل فغاقت بوجه السرعة على صور القديمة فى الثروة واشتهر اسمها وعلا صيتها فى البر والبحر

وكان البحر هو الميدان الاكبر لاشغال الفنيقيين ومعدنا لا يعجز عن أن يستخرجوا منه ثروتهم ولبثوا عدة قرون ليس لهم عدو ينازعهم فى معايشهم وتجاراتهم وكانت تجارات الدنيا القديمة باجمعها محصورة فى أيديهم ومن المحقق أن مبدأ مخاطراتهم التجارية كان مع المصريين وكانوا يرسلونها من طريق البحر وقد وجدت عدد وآلات مصنوعة من البرنز فى مقابر المصريين شغلت فى عصر واحد مع الاهرام وكان البرنز مركبا من جزء من القصدير وكان القصدير لا يوجد بمصر أو ان مصر قريبة للقوقاس أو الهند أو اسبانيا فمن ثم لزم جلبه الى مصر من الجهات التى كان يستخرج منها ومن المعلوم أن فنيقية كانت الواسطة فى مدخولاتها ويظهر منه أن تجاراتهم القديمة كانت محصورة فى تجارة القصدير أو الصفيح ومع هذا فان التجارة البرية فى هذا المعدن مع مصر حصل فيها مشاق ومصاعب كبيرة لانها كانت تحتاج لسفر طويل السير وكانت الطرق اللازم السير فيها مارة من وسط جهات مشحونة بقبائل سلابة نهابة قاطعة للطريق وسكك مفتوحة لا مستورة وزيادة على هذا فان سكك تجارات القصدير كانت تحت أيدى حكام ملوك أرباب طمع كانوا يرغبون احتكار هذه التجارات لانفسهم فمن ثم اجتهد الفنيقيون فى البحث عن طريقة أمينة فى توجيه هذا المعدن خالصا من اغتصابه بأى يد كانت وطريقا سالما آمنا من قطاع الطريق فكان يخرج من اسبانيا كميات وافرة من هذا المعدن فاعدوا البحر لان يكون طريقا سالما وسكة مكشوفة وبهذا كانت المراكب الفنيقية تسافر الى السواحل الاسبانية وتشحن منها القصدير الاسبانى وتسافر به الى مصر واستمروا ملازمين على هذه التجارة القديمة حتى أكسبتهم الثروة والشوكة فى تاريخ أجيالهم الاخيرة واستمر الفنيقيون مدة ما من الزمن محصورا فيهم امتياز جلب وتحضير الصفيح لايطاليا والجريس كما كانوا يجلبون لمصر ولما عجزت معادن اسبانيا وفرغت من هذا المعدن صار عبور بوغاز أعمدة هرقل وسافرت الاسفار الى سواحل كرنوال بشأن هذا المعدن عا أنه كان هو القاعدة الاصلية للتجارة

وأخذ تقدم التجارة الفنيقية بسرعة وكانت تجارتهم جارية فيما بينهم ومع الامم القريبة جدا منهم ولاجل انشر ومد تجاراتهم شيدوا مستعمرات وأقاموا محطات تجارية فى جهات بعيدة وكثير من هذه المستعمرات صار فى الازمان الاخيرة مدائن جليلة وتولد من مواقع هذه المستعمرات درجة امتداد حقيقية للتجارة الفنيقية الا أنه من الواضح جليا أن المستعمرات كانت على العموم مراكز تخرج منها التجارة مخاطرة فى اقتحامها الاقاليم القاصية فكانت المستعمرات الفنيقية الموجودة على الساحل الشرقى للبحر الابيض المتوسط هى باقوس وأمثوس وطامينوس واتقوسطا وثيره وأغلب جزائر السكلادة وطاسوس وفى قبرص وعباليسوس وقريوس وفى رودس وكان فى الجهة الغربية من البحر الابيض المتوسط للبيوم وبانورموس وفى صقلية وغولوس ومليط وأوطيقة وقرطاجة وحردمنتوت فى شمال أفريقة وفرطية وماقة فى اسبانيا وعلى ساحل البحر الاطلنطيقى خلف عمد هرقل كان يوجد طرطسوس على نهر الوادى الكبير وقاديس على جزيرة ملاصقة لساحل اسبانيا وكان فى الخليج الفارسى طيلوس وعردوس والمحتمل أنهما البحرين

وكانت تسافر الاسفار من قاديس وطرطسوس الى الساحل الغربى من أفريقة لاجل جلب القرود

والى جزائر حيشلى وكرنوال لاجل جلب القصدير وكانت المراكب الفنيقية تنزل من طبلوس وعردوس فى الخليج الفارسى وتتجر فى الساحل الجنوبى الشرقى لبلاد العرب وكذا تتجر مع الهند وسيلان وترجع بالالماس واللؤلؤ وان مينة علاث فى رأس البحر الاحمر (خليج العقبة) كانت نقطة مبدء الاسفار الى عوفير فى الساحل الجنوبى الشرقى لبلاد العرب وكانوا يتحصلون منه على الذهب وكذا صار عبور البحر الاسود وربطت العلاقات التجارية مع أهل تراسة وصيطيا وكونشيص وأما المحطات التى كانت واقعة على البحر الاحمر والخليج الفارسى فكانت تحتاج لتجارة برية بينها وبين المدائن الفنيقية والظاهر أيضا أن هذه التجارة البرية كانت ممتدة الى الامم المجاورة لها

وزيادة عما كان عليه الفنيقيون من حمل تجاراتهم الى الجهات الخارجة كانوا يستغلون ثروة عظيمة وأموالا جليلة من مشغولات مصنوعاتهم وكان أجل محصولهم فى ذلك ناشئا من صنعة الصباغة المعروفة باللون الارجوانى الصورى واستحصلوا عليه من نقط دقيقة من محار يسمى البكسينوم والموربكس ولون هذا الارجوانى أحمر بنفسجى غامق فيجعلون له فى الصباغة هيآت مختلفة تبعا لما يضيفون اليه من أنواع العقاقير التى كانوا يستعملونها معه فكانت مشغولات القطن والكتان والحرير تصبغ بهذا اللون الا أن الصباغة الطريفة كانت تجرى على البضائع المشغولة من الصوف وبما أنه وجد أن الصباغة تتكلف قيما كبيرة صاروا يستعملونها فقط فى أنواع الاقمشة الجيدة والنسيج وما كان شغل هذه البضائع وطرق صباغتها محصورا فى مدينة صور فقط بل فى كافة المدائن الفنيقية وان عوميرا ألبس فرسانه الجلاليب الصيدية المصبغة بهذا اللون الارجوانى المفتخر

ويزعم الفنيقيون أنهم هم الذين اخترعوا صنعة عمل الزجاج ولما كانوا أصلا فى تشغيله كانوا هم أول من حاز الدرجة العالية فى مهارة طريقة وجود الزجاج وكانت صيدة وسربطة مقرين أو مركزين شهيرين لهذا الشغل وكانوا يجلبون الرمل المستعمل فى تشغيله من شاطئ نهر بلوس القريب من رأس جبل الكرمل ولحد الآن توجد أوان كثيرة ومواعين كانوا يستعملونها فى تشغيل الزجاج تدل على مهارة وذكاوة شغالى هذا الصنف وكانوا أيضا أرباب دراية تامة فى عمل الفخار ومنهم تعلم الجريق صنعة نقش الاوانى والمواعين المصنوعة من الفخار وغيروا فيها حسب الموافقة والتقدم فى الصنعة وكانوا يصدرون الفخار الى البلاد المجاورة لها بكميات وافرة وكان الصوريون يستعملونه فى مبادلة الصفيح وقت أسفارهم الى جهات كرنوال وجزائر حيشلى

وكان الفنيقيون على درجة عالية فى تشغيل البرنز وفى تشغيل المعادن الكريمة وكانوا أمهر جوهرية فى عصرهم ولقد كشف أحد الكشافين المتأخرين بعض قطع من تشغيل هذا الصنف حصل الاستدلال منها على مهارة وذوق المشروع الذى كان عند قدماء جوهرية الكنعانيين وكانوا أيضا على شهرة تامة فى النقوشات الجميلة التى كانوا يرسمونها على العاج أوسن الفيل

وكان لهم دراية تامة فى زراعة الاراضى وفلاحتها فكان يخرج أجود النبيذ وأحسنه من ضواحى صور وبيروت وجبلة ومن جبل لبنان وكانوا يشتغلون الحرير ويربون دوده بالصورة المستعملة التى صناعته جارية بها الآن وكان يخرج منه محصولات وافرة وأثمار هذا الاقليم وفواكهه مشهورة بحلاوتها ولذة فكاهتها

ومن المحقق أن الفنيقيين هم الذين اخترعوا حروف الهجاء على زعم بعض المؤرخين الا أن

استكشافات السنين الاخيرة أقامت برهان الشك الاكبر فى ذلك ومع ذلك فن المحتمل أنه عند ما كانت كتابة الامم الاخرى القديمة الشرقية دالة على التصور دون اللفظ يعنى حروف تصورية فقط مأخوذة أصولها من طريقة الحروف المصرية كان الفنيقيون يستعملون حروف هجاء ناطقة مركبة من أربعة وعشرين حرفا فيظهر أنهم انتخبوها من حروف الكتابة المقدسة المصرية وكان لكل حرف من هذه الحروف الهجائية غنة و وصلة واحدة ولا تعلم الطريقة التى كان الفنيقيون يستعملونها قبل ذلك والمعتمد أن حروف الهجاء الفنيقية صار اختراعها فى نحو مدة اواريس أحد ملوك الرعاة الذين كانوا متسلطنين فى مصر قبل خروج بنى اسرائيل بقرون عديدة وهى الحروف الابتدائية الحقيقية التى كانت وجدت مستعملة فعلى هذا سواء كان الفنيقيون هم الذين اخترعوا الحروف أو لم يخترعوها كانوا أول من استعملها فى أشغال أنفسهم أشبه بطريقة ممتازة عن الكتابة المقدسة المصرية أو الكتابة الدالة على التصور دون اللفظ وعند ما شرعوا فى مشروعاتهم التجارية اخترعوا حروفهم الهجائية أيضا ومن ثم علموا الامم الاخرى طرق استعمال هذه الحروف وقد لاحظ المعلم رنان وكان ملحوظه مقبولا بأن الحروف الهجائية الفنيقية كانت أيضا من جملة الصادرات مثل المواد التجارية

ومن مناقضات التاريخ أن الفنيقيين ولو كانوا من نسل حام الا أنهم كانوا يتكلمون باللغة السامية مع البلاغة والفصاحة ومن المحقق أن اللسان الفنيقى كان فى اختلاف خفيف ليس له أهمية مع اللسان العبرى وأن مطابقة القواعد النحوية ونص الالفاظ بين اللسان العبرى واللسان الفنيقى لا يظهر منها أدنى امتياز بين اللسانين بل مجرد لهجتين بينهما اختلاف يسير فى لسان واحد

والظاهر أن الفنيقيين كانوا أرباب علوم وآداب فى المدة القديمة من تاريخهم فكانت قواعد ديانتهم وجمعياتهم وتآلفهم وتنظيمات سياستهم مدونة جميعها فى قانون مكتوب ومن جملة ما ألفوه من الكتب شئ مختص بالديانة والزراعة والفنون النافعة وحاز المدائن المختلفة تسجيلات ممتدة الى ما قبل وجودها من أزمان قديمة بطريق الكتابة وحفظوها مع الدقة والاعتناء وحصل عندهم تقدم زائد فى العلوم والفنون وكان معماريو أهل صيدا أجود وأشهر من معماريى سوريا قاطبة وكانت علوم الفلك والحساب والهندسة والملاحة والفلسفة مزهرة فى فنيقية وعلى الخصوص فى صيدا وهذه عوضت ما ضاع من سيادتها وشوكتها بمجدا دراكاتها العقلية وأشغالها العلمية

ويظهر من الآثار القديمة والاطلال الباقية من المبانى الفنيقية صفة عمارة الفنيقيين وقال المعلم رنان ان الهيئة الممتازة فى وضع مجسمات المبانى فى حالة قوية هى احدى القواعد المرعية فى الحقيقة ويستدل من هيئة المبانى الفنيقية على ما كانوا عليه من الثروة وعظيم الابهة والشوكة وكانت مبانيهم مبنية باحجار متعددة مرصوصة فوق بعضها كما هو مشاهد لحد الآن فى شغل حوائط دكة الهيكل فى أورشليم التى بناها معماريو الفنيقيين وبناؤهم وفى رصيف البحر الموجود فى أطلال مدينة صور وكانت قبورهم مبنية مع اتساع كاف لغرض أصلى عندهم ولقد استمرت مبانيهم قائمة الى العصور الاخيرة ومع ما طرأ عليها من الحوادث الجوية والدهرية وما آلت اليه عاقبة أمرها فان وصف هذه المبانى حفظ لنا بعض آثار العصور الماضية بطريقة كافية صار لنا بواسطتها قدرة على ممارستها ومعرفة أحوال الفنيقيين مع النجاح التام

وأما التماثيل الفنيقية فكان فيها نوع اختلاط من هيئة التماثيل المصرية والاشورية وذلك أن الصورة العمومية كانت مصرية والشغل آسيوى فأما التماثيل الضخمة الكبيرة فكانت نادرة بالكلية وأما التماثيل الصغيرة فكانت عديدة ومنها ماهو مصنوع بغاية الدقة والظرافة من الاحجار ومنها ماهو مصنوع من الطوب والآجر ومن البرنز وفى هيئة رديئة فى الشغل والرسم والظاهر أن كلا من الصنفين أصنام وكان عند كل واحد من الفنيقيين فى بيته صنم أو أزيد والاغنياء منهم لهم أصنام الطبقة الاولى من الشغل الظريف وأما الفقراء فكانت أصنامهم الطبقة الثانية من الشغل الردىء لان شغلها كان مع العجلة ويبيعونها بأرخص قيمة

ومن المعلوم أن ديانة فنيقية كانت متفرعة من المنبع الذى تفرعت منه ديانة كالديا وأشوريا وكانت مؤسسة على رأى وجود اله واحد لا يمكن وصف شخصه عبادة من المواد الدنيوية يخرج من جوهر نفسه من دون حصول أدنى شغل ظاهر فى الخلقة والتكوين وكان يلقب على العموم باسم بعل ومعناه الرب وهو نائب الشمس والنائب الاكبر فى القوة المؤثرة للتكوين ومجزأ الى جملة آلهة ثانوية اسمها بعليم متكونة من جوهره وهى صور وهيئات مرجعها اليه وأما الاله الاكبر فكان معتبرا بانه جسد مخلوقات متباينة واسمه بعل ثموث ويسمى أيضا أدون ومعناه الرب ومنه أخذ الجريس اسم أدونيس وأعطوا لهذا الاله أسماء منها بعلشون ومعناه الحافظ وبعلملوخ ومعناه الفانى وبعلزعبوب ومعناه معيد الارواح والاجسام البالية الى حياة جديدة وكان لكل اله أنثى أو زوجة ولكل بعل ثانوى زوجة مطابقة له اسمها بعلات تنوب عن الاله المذكور فى مناظر وهيئات متباينة وكانت زوجة الاله الاكبر بعل فى مدينة صيدا اسمها استارتى ومعناها القمر وكانت الكواكب تعبد بقدر ما لها من القوة المؤثرة وكانت النار عندهم أيضا من المعبودات المحترمة فكانوا يعبدون الشمس والكواكب بصفة آلهة نارية ذات تأثير عظيم وقال موورس ان ديانة الفنيقيين كانت عبارة عن كونهم يجعلون القوى المؤثرة الطبيعية آلهة يعبدونها ومن ثم كانوا يعبدون الاشياء التى كانت تظهر فيها قوة التأثير أكثر من غيرها

وكانت عبادة الآلهة الفنيقية مصحوبة بشعائر مهولة فظيعة جدا فكانوا يحرقون الاطفال على قيد الحياة مرضاة لغضب بعلملوخ وأحدثت هذه الحالة فى قرطاجه هولا وانزعاجا زائدا وضغطت هذه الديانة على جميع أجود الاحساسات الطبيعية البشرية لبنى الانسان وسلبت عقولهم بخرافات مهولة قبيحة العمل وما أمكن تيسر الحصول على طريقة نفع للامة هذه لان الصفات الادبية كانت محصورة عندهم فى ديانتهم وكانوا أمة همجية فى مثل هذه المادة ليسوا تحت روابط معتادة وكانوا فى هذا الوقت مثل الارقاء فى حالة مكدرة معمة جبارين مفسدين متوحشين محبين للذات أهل طمع وشح لاذمة لهم ولادين وكانوا أرباب تجارة فى جميع الاشياء الا أنهم كانوا مجردين من كل كرم نفسى وعلو همة أوصيت

وكان موقع فنيقية على صفة لون تاريخها فكانت هذه المملكة عرضة لجميع كبار الفاتحين الذين جعلوا سوريا لوقائعهم وحروبهم مدة من الازمان وثروتها وغنيتها هى التى دعتهم لهجومهم عليها وسيرهم اليها ومن ثم كانت مدة الاستقلال الفنيقى قصيرة جدا وان كان منشأ وجوده من ابتداء انشاء هذه الامة وأرغمت فى الايام القديمة على خضوعها لسيادة مصر ومن هذا الوقت انتقلت على التوالى الى

الملوك الذين ضبطوا الدنيا القديمة وحكموها ولقد شاهد القرن الحادى عشر قبل التاريخ المسيحى سرعة تقدم صور حتى صارت أكبر مدينة فى فنيقيه تحت سلطنة ملوكها الوطنيين وتقدمت مع العجلة فى الثروة التجارية والاعمال النفيسة الداخلية وقد علمنا أن أول ملوكها كان أبى بعل وكان معاصرا فى مدة من حياته لداود عليه السلام ومن بعد موته خلفه ابنه حيرام سنة ١٠٢٥ قبل الميلاد فتسلطن المدة الباقية من القرن وعقد حيرام معاهدة تجارية جليلة مع داود وسليمان ملكى اسرائيل وأرسل مقدارا وافرا من المهمات والادوات التى كانت لازمة لعمارة معبد اليهود وكذا أرسل الانفار الشغالين الذين بنوا هذا الهيكل وكانت سلطنته من أجل المدد التى عادت بالفلاح على مدائن فنيقية وامتدت الى مدة تنوف عن أربع وثلاثين سنة وكانت سيادة صور حاصلا الاقرار عليها فى جميع أنحاء فنيقية ولو أن كل واحدة من المدائن كان فيها ملك يها القائم بادارتها الا أن التجاريب حنكتهم ضرورة فائدة جامعة الاتحاد والكلمة وكان جميع ملوك هذه المدائن المختلفة خاضعين لسيادة مليكهم ملك صور وهو الملك الحقيقى الوحيد للامة الفنيقية وكان يلقب بملك الصيد يين ويجب على مطالع كتابنا هذا أن لا يخلط هذا اللقب بلقب ملك صيدا الذى كان هو الملك المحلى للمدينة القديمة وأجرى ملك صور جميع الاجرا آت المتعلقة بشأن ما يعود من المنافع على فنيقية وعقد معاهدات مع الامم الاجنبية تختص بتجاراتها ومستعمراتها وألغى جميع القوى البرية والبحرية للاجتماع وكان معاضدا فى جميع اجرا آته بواسطة نواب من المدائن الاخر ومات حيرام فى سنة ٩٩١ قبل الميلاد وخلفه ابنه بعليظار فتسلطن سبع سنوات وخلفه ابنه عبداسطرطوس وتسلطن تسع سنوات ثم قتل فى ثورة حصلت فى سنة ٩٧٥ قبل الميلاد وأعقب موت عبداسطرطوس مدة طويلة تسلطنت فيها القلاقل والحروب الداخلية تخاصم فيها على تخت صور كثير من المدعين واحدا بعد واحد مع التوالى السريع وانتهت هذه القلاقل فى نحو سنة ٩٤١ قبل الميلاد بعثبعل الحاخام الاكبر فى هيكل استارتى فذبح فعليس المدعى الاخير وأقام نفسه على كرسى مدينة صور ملك الصيد يين وزوج بنته عزابل الى احاب ملك اسرائيل فأخذت عقله وتمكنت محبتها من لبه وخضع لها وازداد نفوذها وقويت شوكتها حتى ارتفعت شوكة الفنيقيين فى اسرائيل مدة سلطنة احاب وجاء من بعد عثبعل ابنه بعلظور فى نحو سنة ٩٠٩ قبل الميلاد فتسلطن ست سنوات وخلفه ابنه معطجين

وجلس معطجين على كرسى صور فى سنة ٩٠٣ قبل الميلاد فتسلطن اثنتين وثلاثين سنة ومات فى سنة ٨٧١ قبل الميلاد تاركا طفلين ولدا اسمه بيجماليون وبنتا اسمها عليصار أو عليصه المعروفة باسم ديدو ومعناه المحبوبة وكانت البنت أكبر من أخيها ببضع سنين وكان بلغ عمره احدى عشرة سنة وقت موت أبيه وكان مقصد معطجين أن ولديه يتسلطنان سوية ولما كان مقصد الامة استبدال هيئة الحكومة الارسطوقراطية قاموا فى ثورة وأعلنوا بملك بيجماليون وخروج أخته من السلطنة وكانت متزوجة طيخار بعل وهو الحاخام الاكبر فى ملكارث ومن بعد الملك فى الرتبة والشرف وهو رأس حزب الاشراف ومن بعد مضى مدة قليلة أمر بيجماليون الملك بقتل طيخار بعل فرتبت ديدو ثورة من أشراف الفنيقيين لاجل أخذ ثار زوجها وخلع أخيها من السلطنة فانهزمت فى شغلها بواسطة حزب الامة وكان الثائرون معها ألوفا من أهل فنيقية فقبضوا على بعض مراكب كانت راسية فى مينة صور حاضرة للسفر وأقلعوا فى تلك المراكب تحت قيادة عليصار ومن هنا تغير اسمها الى اسم ديدو

الهربانة

الهربانة و وصلوا الى الساحل الشمالى من افريقية وأسسوا مدينة قرطاجه ومعنى قرطاجه باللغة العبرية المدينة الجديدة

وتولد من سفر حزب الاشراف من فنيقية ازالة الضغط الاكبر الذى كان واقعا على نفوذ وشوكة ملك الصوريين وأخذ الملك من هذا الوقت فى الحكم المطلق الاستبدادى وفى مدة هذه السلطنة ظهر الاشوريون على ساحل البحر الابيض المتوسط تحت قيادة اشوريزربال فأخضع المدائن الفنيقية لتطير اعفائهم من الخراب والدمار ودفعوا الخراج والظاهر أن حالة هذه التبعة استمرت نحو قرن وانتهت سلطنة بيجماليون سنة ٨٢٤ قبل الميلاد غير أننا لا نعرف أى تاريخ أو حكاية لملك فنيقى لحد منتصف القرن التالى وتسلطن كثير من الملوك الوطنية فى المدائن الفنيقية يدفعون الخراج لاشوريا وكانوا معدودين عند ملوك الاشوريين من جملة تبعتهم ومع هذا فان مثل هذه التبعة ما حصل منها أدنى تعطيل ولا تأخير فى حركة نجاح فنيقية ولا ضرر بشوكتها البحرية

واستمرت السيادة الاشورية على رقاب الفنيقيين الى منتصف القرن الثامن قبل التاريخ المسيحى حتى قلت راحة الامة وتكدرت صدورها تحت حكم الاشوريين وفى نحو سنة ٧٤٣ قبل الميلاد عصت فنيقية على تغلا ثغلاصر الثانى تحت قيادة حيرام صاحب صور الا أنها أرغمت على بقائها فى موقعها الخراجى بواسطة تقدم الفاتحين فى فلسطين وفى سنة ٧٢٧ قبل الميلاد عصت فنيقية ثانية تحت قيادة عيلولوس وكان هذا العصيان فى مدة سلطنة صلمنصار الرابع فسار ملك الاشوريين مغيرا على مملكة فنيقية واحتل صور القديمة من دون أن يلاقى منها أدنى مقاومة وحاصر جزيرة المدينة وما كان له طاقة على هجومها من البر وما كان أيضا عنده أسطول فى البحر فكان حصارها عبارة عن احاطة فقط وكان أعظم حادثة حصلت هو أن الاشوريين قطعوا مجارى المياه التى كانت واصلة من البر الاصيل الى مدينة صور ومنعوا وصول المياه اللازمة لشرب المدينة فعلى ما قيل ان الاهالى استمروا على شرب مياه الامطار مدة خمس سنوات وهى المدة التى قاومت فيها المدينة الجيش الاشورى وفى مدة هذا الحصار خلع صلمنصار واستمر الحصار جاريا بواسطة سرجون خليفته وأما المدائن الاخر الفنيقية فانها استسلمت من مبادى وضع الحصار على مدينة صور وكذا فى أثناء تقدمه وجمع سرجون أسطولا مركبا من ستين سفينة من تلك المدائن واجتهد فى الهجوم على جزيرة المدينة من البحر فخرج الصوريون مع اثنى عشر سفينة وهزموا أسطول سرجون وأبادوه وأخيرا من بعد كد خمس سنوات مضت على غير طائل رفع قواد الاشوريين الحصار عن المدينة

ولو انه حصل من صور مقاومة عظيمة لاشوريا الا انه اعتراها من طول الحصار ضعف يؤسف من حالته وكانت المدائن الاخرى الفنيقية خرجت من تحت سيادتها وصارت خراجية لسرجون وازدادت مصائبها فى سنة ٧٠٨ قبل الميلاد بكونها افتقدت مستعمرتها قبرص بخضوعها للاشوريين وفى سنة ٧٠٤ قبل الميلاد بعد جلوس سنحاريب على التخت الاشوريانى ببرهة قليلة من الزمن أقام عيلولوس مرة ثانية سيادة صور على فنيقية وأعلن باستقلالها وفى سنة ٧٠٠ قبل الميلاد أغار سنحاريب على فنيقية بقوة كبيرة من عساكره فتركت المدائن الاخر صور وخضعت للملك الاكبر بمجرد اقترابه منها والتجأ عيلولوس الى جزيرة صور معتقدا اسعادته فيها وتركته هذه السعادة فى هذا الوقت وأخذ سنحاريب صور وهرب عيلولوس ناجيا بنفسه فى سلامة وعفا سنحاريب عن المدينة وأهلها وجعل

فيها طوبال ملكا معترفا بعبوديته له ودفع الخراج اليه

ولما تغلب سنحاريب على صور زالت السيادة الصورية التى كانت حملا ثقيلا صعبا على المدائن الأخر وأما صور فانها استمرت فى نفسها مركزا للفوائد التجارية الفنيقية وعاضد المدائن الاخر سنحاريب قلبا ويدا على محاربته صور ثم ان سنحاريب رتب جميع المدائن فى درجة واحدة خراجية لمملكة أشوريا وعند موت سنحاريب عصت صيدا وسعت فى طلب السلطة الاولى التى كانت لصور فأخذا يصرحدون هذه الثورة وعاقب الصيديين بأشد العقاب فى سنة ٦٨١ قبل الميلاد وخرب صيدا واستعبد أهلها ولما مات ايصرحدون خلع المدائن الفنيقية طاعتها للاشوريين وعقدت معاهدة مع مصر وفى سنة ٦٦٦ قبل الميلاد لما أعاد ملك الاشوريين أشوربانيبال سلطته على مصر أطفأ الثورة الفنيقية وفى نحو سنة ٦٣٠ أو ٦٢٩ قبل الميلاد كنست الموجة العظيمة التى حصلت من غارة الصيطانيين وهم يأجوج ومأجوج أرض فنيقية وخربوا البلاد المفتوحة وأما المدائن المستحكمة فانهم لم يقربوها ثم تولد من سقوط مملكة أشوريا الفنيقية مدة وقتية من العتق والخلاص وفى سنة ٦٠٨ قبل الميلاد خضع الفنيقيون الى نخوملك مصر وانتهت السلطة المصرية فى نحو سنة ٦٠٥ قبل الميلاد بهزيمة نخو بواسطة بختنصر فى قرشميش ثم طلب هذا الفاتح الى بابل بسبب ما حصل من موت أبيه فجأة وسمح للمدائن الفنيقية بالراحة مدة قصيرة قبل ظهور أستاذهم الجديد فى أرضهم ومع هذا فان عقاب هذه الامة نزل عليهم بغتة وذلك أنه فى سنة ٥٩٨ قبل الميلاد أغار بختنصر على فنيقيه وأخضع بلادها بسرعة ووضع الحصار على مدينة صور فقاومته ثلاث عشرة سنة وفى آخر هذه المدة تغلب على المدينة عنوة ودكها دكا وهرب غالب أهلها الى الاسطول ونجوا بانفسهم الى قرطاجة واشتركوا مع أهلها فى تجاراتهم وأشغالهم وما بقى من الاثر استمر فى المدينة تحت حكم ملك اسمه بعل أجلسه الفاتح على كرسيها أشبه بعبد له ومن بعد مضى بضع سنين شرع عوفريس ملك مصر فى اغتصاب فنيقية من بابل الا أن الفنيقيين استمروا فى صداقتهم مع بختنصر وبمساعدة أهل قبرص كسروا الاسطول المصرى وبهذه المخالفات حصل توقيف فى أشغال عوفريس وحملاته ومن بعد أن أخذ صيدا ونهبها وخرب ساحل فنيقية رجع عائدا الى مصر محملا بأثقال الغنائم والاسلاب

ولما سقطت المملكة البابلية انتقلت فنيقية تحت سلطنة الفرس أو وهو الاصح فى مدة سلطنة لهراسب (قمبيز) لان القسم الاصلى من القوى البحرية الذى كان استخدمها هذا الملك فى حرب مصر كان مركبا من المراكب الفنيقية وبحريتها ثم انقرضت سلطنة الفرس بتغلبات اسكندر الاكبر وفى نفس هذا الوقت انقرضت الامة الفنيقية الاصلية ودخلت المملكة فى الممالك التى شيدها خلفاء اسكندر ومن بعده فكانت تارة لمصر وتارة لمملكة سوريا الجريقية وأخيرا صارت معدودة من ممالك رومة وما زالت حتى اغتصبها الاسلام من الممالك الرومانية ولم تزل تحت يد الاسلام لهذا العهد وأما تاريخها من عهد لهراسب (قمبيز) فقد أدرجناه فى كلامنا على الممالك التى كانت خاضعة لها

﴿ الكتاب السابع ﴾

﴿ تاريخ ممالك آسيا الصغرى أو الاناضول ﴾

﴿ الباب الاول ﴾

﴿ قيام فريجيا وصيليصيا وليديا وسقوطها ﴾

هيئة آسيا الصغرى الطبيعية ـ السبب فى عدم صيرورتها مقر مملكة كبيرة ـ تاريخ فريجيا ـ أصل أهل فريجيا ـ صفاتهم ـ تغلب ليديا على فريجيا ـ تاريخ صيليصيا ـ جعلها خراجية لاشوريا ـ تأسيس طرسوس ـ صيرورتها ايالة فارسية ـ تاريخ ليديا ـ ثروة الامة وتهذيبها ـ عوائد الليديين ـ حروب هرقليدى ومرمنادى ـ صيرورة غجيس ملكا ـ تغلبه على جريق آسيا ـ غارة السمريانيين ـ الحرب مع ميديا وبابل ـ صيرورة قروصوص ملك ليديا ـ ثروته ـ زيارة سولون ـ جواب الحكيم سولون ـ تغلب كيرش أو كيخسرو على ليديا ـ عفوه عن قرصوص ـ صيرورة ليديا ايالة فارسية

تنقسم بحيث جزيرة الاناضول أو آسيا الصغرى الى عدة أقسام بواسطة سلاسل جبل وهذه الاقسام ممتاز بعضها عن بعض وكانت هذه الجهات مسكونة بعدة أجناس من العالم هم الفريجيون والليديون والكادونيون والصيليصيون والبعلاغونيون والقيدوثيون وكانت جميع هذه الطوائف فى قوة ورصانة واحدة وباتحاد هذه المساواة مع طبيعة التقسيمات الارضية الوعرة خرجت آسيا الصغرى عن وجود التقدم فيها لان تكون مملكة قوية قائمة بذاتها وحصل هذا التقدم فى بعض جهات حتى صارت هذه الجهات ممالك مستقلة بنفسها ومن المفيد أن نسرد تاريخ كل واحدة من هذه الممالك على وجه الايجاز فنقول

﴿أولا ـ تاريخ فريجيا﴾ كانت فريجيا أول ممالك آسيا الصغرى فى الابهة والجلالة الا أن تاريخها مجهول بالكلية و يعتقد الفريجيون أنهم هم أول من استوطن آسيا الصغرى من الازمان القديمة ومن المحتمل أنهم احتلوا عموم البحيث جزيرة فى وقت واحد ثم توالت الهجرات الجديدة للقبائل التى أتت الى آسيا الصغرى من جهة الشرق ومن جهة الغرب وطردوا الفريجيين الى جهة الخلف من الساحل ماعدا الاقليم الواقع فى جنوب الهاسيون فاستوطنوا هذا الاقليم وسكنوا القطعة المتوسطة من البحيث جزيرة ومن ثم صار لهم مملكة واسعة كثيرة الخصوبة والمرعى والكلا تحوى عدة بحيرات ملحية وكان لهذه الامة شجاعة تامة وتوحش عنيف وعكفوا أنفسهم على حرفة الزراعة والفلاحة وكان أهم مزروعاتهم كروم العنب وأصل مجيئهم الى هذه النواحى من جهات أرمينية وسكنوا فى مبادى أمرهم فى كهوف ومغارات نحتوها فى جهات الجبال الصخرية ثم تركوها على التدريج شيأ فشيأ وشيدوا المدائن الكبيرة على سياق منظوم وفى نحو سنة ٧٥٠ قبل الميلاد أو قبل ذلك بقليل يظهر أن الفريجيين كان لهم سلطنة زاهرة منتظمة كانت عاصمتها غورديوم على نهر صنجاريوس واستمرت فيهم سلسلة الملوك نحو قرنين غير أننا لا نعرف شيأ مما يختص بهم وكانوا يلقبون الملوك على التوالى بلقب غوردياس

وميـداس وبمجردما أخذت ليديا في التقدم والشوكة ابتدأت فريجيا في الهبوط والضعف وفي نحو سنة ٥٦٠ قبل الميلاد تغلبت ليديا عليها وصارت ايالة من ممالكها

﴿ثانيا – تاريخ صيليصيا﴾ – تشغل صيليصيا القطعة الجنوبية الشرقية من البحيث جزيرة وكانت مملكة غنية خصبة أهلها عاكفون على الفلاحة والزراعة ولم نعلم من تاريخها القديم شيأ ماعدا كونها كانت سلطنة مستقلة في أثناء المدة القديمة لملوك الاشور يين فأرغمها سرجون على الطاعة والانقياد له وأعطاها في سنة ٧١١ قبل الميلاد الى امبريس ملك طربال صداقا لابنته ومن ثم صارت ايالة خراجية لاشوريا وفي نحو سنة ٧٠١ قبل الميلاد عصت صيليصيا على أشوريا فأغار عليها سنحاريب وخرب ديارها وفي نحو سنة ٦٨٥ قبل الميلاد أسس هذا الملك الاشوري فيها مدينة طرسوس واشتهرت هذه المدينة مدة من السنين وكانت مسقط رأس الحواري بولص

وفي نحو سنة ٦٧٧ قبل الميلاد دمر ايسرحدون صيليصيا بسبب حصول ثورة كانت وقعت فيها أغضبته وفي نحو سنة ٦١٦ قبل الميلاد جلس على تختها ملك اسمه طنسيس ومن ابتداء هذا الوقت صار كل ملك صيليصي يلقب بهذا الاسم وقاومت صيليصيا مع الشهامة والعنف مساعي ليديا في وقت تغلبها عليها الا أنها أرغمت على الخضوع بعد للجيوش الفارسية وصارت ايالة من المملكة الفارسية مدة ما في أثناء سلطنة لهراسب (قبيز)

﴿ثالثا – تاريخ ليديا﴾ – ليديا التي صارت أجل مملكة في آسيا الصغرى كانت واقعة على الساحل الشرقي من البحيث جزيرة وتغلبت على كامل البحيث جزيرة ماعدا ليصيا وصيليصيا وقيدوثيا وكانت مدائنها الاصلية سرديس وهي عاصمتها ومغنسيا في ذيل جبل صيبلوس وتياطيره وفيلادلفيا وكانت الاراضي الليديانية الاصلية على غاية من جودة الخصوبة وأخذ نهر الباقطلوس وهو يصب في نهر حرموس كميات وافرة من الذهب من سفوح جبال طملوس وكان هذا المعدن النفيس يغسل من الرمال في شوارع مدينة سرديس وكل من جبل طملوس وصيبلوس يشتمل على عروق غنية من الذهب وكان الليديون أمة ذات ثروة وأرباب زراعة وهم أول من ضرب النقود وكانوا أحد الامم التجارية القديمة على ساحل البحر الابيض المتوسط وبلغوا الشهرة العالية في العطريات الزيتية والبسط والطنافس والمهارة في الاشغال وأخذ الجريق منهم الناي الليدي والكمنجة والعيدان ذات الثلاث شعرات وذات العشرين شعرة وقلدوهم في توقيع مغانيهم وألحانهم وفي ترنماتهم ووصفهم الشعراء العمبرية بأنهم كانوا أمة يركبون الخيل لابسين الزرد والطقومة الحربية وذكروا تجارتهم وثروتهم والظاهر أن عبادة الليديين كانت مشابهة لعبادة الاشوريين ثم محقت هذه الديانة وكثيرا ما ذكر قدماء المؤرخين شر الليديين وأذاهم ومدحوهم في شجاعتهم وبسالتهم في الحرب واذا خضعوا انقادوا فالتجيهم مع الهدو والراحة

وكانت ليديا منظومة في سلطنة في الازمان القديمة وأول من تسلطن في ليديا عائلة تسمى العائلة الاطيادية مأخوذ اسمها من جدهم الاصلي أطيس وأما الليديون فان اسمهم مشتق من ليديوس بن أطيس ثم جاء من بعد العائلة الاطيادية عائلة تسمى عائلة الهرقليدي أو ذرية هرقليوس واستمرت هذه العائلة على كرسي المملكة نحو من ٥٠٥ سنة

وكان أرجو حفيد الطوس وابن هرقليوس أول ملوك الهرقليدي في ليديا سنة ١٢٢٣ قبل الميلاد

وآخرهم كندولس واشتهرت المدة الاخيرة من هذه المدة القديمة بحرب وقع بين الهرقليدى والمرمنادى والظاهر أن عائلة المرمنادى كانوا فرعا من العائلة الملوكية ومن بعد حروب مهولة انجبر عائلة المرمنادى على أن يجدوا طريق سلامتهم فى الهرب الا انهم عادوا مرة ثانية تحت قيادة رئيسهم غيجس وكان غيجس هذا من أكبر قواد كندولس فقتل كندولس وجلس على التخت وتزوج بالملكة زوجة كندولس على رضا منها فى نحو سنة ٧٠٠ قبل الميلاد وتولد من قتل كندولس ثورة كبيرة وهياج شديد بين الليديين وانقسموا حزبين ومن قبل وقوع المضاربة بين الحزبين اتفقوا على فصل هذه المادة عند كاهن دلفى فأثبت السلطنة الى غيجس فأهدى الملك هدايا فاخرة ثمينة لمعبد دلفى فى نظير هذا الجواب وكان من ضمن الاشياء الثمينة التى قدمها غيجس طاستان من الذهب وزنهما ثلاثون وزنة يبلغ هذا نحوا من مليون فرنك أو ٤٨٠٠٠ لبرا استرلينه

وبمجرد ما استوى على التخت واطمأن فى حكمه أشعل حربا على ملطية وأزمير وكولوفون وهى ثلاث مدائن قوية تابعة لمن جاورها من الممالك ومن بعد أن تسلطن ثمانيا وثلاثين سنة مات وخلفه ابنه عرديس فى سنة ٦٦٢ قبل الميلاد فتسلطن أربعا وأربعين سنة وفى سلطنة هذا الملك طرد رحالة الصيطيانيين السمريانيون من بلادهم ومقر أجدادهم وهم من الصطيق خلف جبل قوقاس نفر جوا عن حواجز هذه الجبال ونزلوا على آسيا الصغرى وكنسوها وقال بعض المؤرخين ان هذه الحادثة كانت فى مدة سلطنة غيجس وأن غيجس قتل فى واقعة معهم وتغلبوا على سرديس عاصمته ونهبوها وقاومت قلعتها أشد المقاومة هذه الامة المتبربرة وتسلطن من بعده سعدياطيس اثنتى عشرة سنة وأعلن هذا الملك بالحرب أهل ملطية وحاصر مدينتهم وكانت الحصارات فى هذه الايام عبارة عن نوع إحاطة جارية مع بطء الحركة فاستمر الحصار عدة سنين ومات هذا الملك قبل أن يتم هجومه على ملطية والتغلب عليها

وفى سنة ٦١٧ قبل الميلاد جلس على التخت الياطيس بن سعدياطيس وتسلطن سبعا وخمسين سنة فكان هذا الملك هو الذى أشعل حربا على كيكاوس فى سنة ٦١٥ قبل الميلاد بعد أن طرد السمريانيين من آسيا الصغرى وتولد من هذه الحركة العظيمة التى أجراها الياطيس مد سيادة ليديا على كامل الامم المختلفة التى كان حصل لها الضجر والعذاب من أمة السمريانيين ولما اشتبكت ليديا فى الحرب مع ميديا وبابل بشأن مساعيها فى مقاومة دولة ميديا من تقدمها فى داخل أراضيها استمر هذا الحرب بين كيكاوس معاضدا له نابو بواصار ملك بابل وبين الياطيس ملك ليديا خمس سنوات وانتهى هذا الحرب بكسوف الشمس وحصل للجيشين ارتعاب من هذه الحادثة المهولة فتوسط ملك بابل فى عقد صلح بينهما فى سنة ٦١٠ قبل الميلاد ومن بعد هذا هجم على كل من مدينتى أزمير وقلاصومصينى وتغلب عليهما وشدد فى الحرب الذى كان جاريا على مدينة ملطية الذى كان أبوه شرع فيه مع العنف والغلظة وكان حصار هذه المدينة استمرت سنوات فى مدة سلطنة أبيه واستمر جاريا أيضا تحت حكمه وانتهى بالطريقة الآتية وذلك أن الياطيس تناول جوابا من كاهن دلفى بكونه يرسل من طرفه رسولا الى المدينة يعرض على أهلها هدنة بضع شهور ولما بلغ هذا الخبر طاغية ملطية وهو طرسيبولوس بمجىء الرسول أمر بأن جميع الحبوب والغلال والذخائر وأصناف المؤن التى جمعها بواسطة نفسه وبواسطة رعيته للمساعدة يجرى جلبها جميعا الى السوق العمومى للمدينة وأمر أهل المدينة والتبعة بأنهم عند مجرد

مابر وأدنى اشارة أعطيت منه يكونون متجهزين بهيئة أعياد وأفراح وبسط وانشراح وبناء على أمره صار اجراء كل ما طلبه حسب أمره ولما وصل الرسول الليديانى ورأى هذه الحالة العجيبة أخذه الانذهال والاستغراب من كثرة ما رأى فى السوق من الخيرات وما فى المدينة من الاعياد والمسرات فعاد وأخبر أستاذه الملك بما رأى وعاين وظهر للملك أن تصميمه فى اخضاع المدينة بطريق القحط لا يمكن وقوعه ورجح الصلح بعد محاربة كانت على غير طائل ورفع الحصار فى الحال وسار الى بلاده ومات فى سنة ٥٦٨ قبل الميلاد تاركا تاجه ومملكته لابنه قرصوص

واستمر قرصوص على الحروب التى كانت جارية فى مدة أبيه وتغلب على يونان وعليان ودوريان الجريق وكامل آسيا الصغرى الغربية الموجودة فى غرب نهر الهاليس ما عدا ليصيا وصيلصيا ووصلت ليديا تحت حكمه الى أرقى درجة فى الابهة وعظيم الشوكة والفلاح الا أن ذلك زال عنها فى أقرب وقت عندما حان وقت خرابها واشتهر قرصوص ملك ليديا بين عالم الدنيا القديمة بكثرة الثروة والغنى واعتبر نفسه أنه أسعد انسان على وجه الارض فكان يضرب بثروته المثل وكانت كنوز هذا الملك وثروته مستخرجة من معادن كانت فى أرض بلاده واقعة بين برجاموس واطارنة وكذا من نهر باقطلوس الذى كان رمله مشحونا بمواد الذهب وكانت سرايته مقر العلماء الرجال وكانت فلاسفة اليونان تزوره

ثم ان سولون أحد المشهورين من فلاسفة الجريق بعد أن دون القوانين الجديدة التى كانت لازمة لاثينة تفكر فى نفسه أنه يمكنه أن يغيب عن بلده بضع سنين لاجل اصلاح حالته فسافر من أثينة سائحا حتى دخل فى مدينة سرديس فقوبل فيها باجل الاحتفالات المناسبة لشهرة اسم هذا الرجل العالم الفلسفى الكبير وظهر الملك فى طنطنته وأبهته بين خدمه وحواشيه لابسا أفخر ملابسه المخيشة بالذهب المرصعة بفصوص الالماس ومع هذا فان سولون لم يلتفت ولم يبال بهذه الهيئة البديعة الشكل ولا تحرك ولا تلفظ بلفظ يستدل منه على الاستغراب أو الشكر لمساعى الملك من أجل التفاته وملاقاته له ولما رأى الملك البرود الحاصل من سولون وعدم مبالاته بما هو فيه من الابهة والطنطنة سقط سولون من عينى الملك وأمر الملك أن يفرجوه على كنوزه ومحلات سرايته المفتخرة وأمتعته الثمينة المكلفة ويظهروا له جميع ما فى داخل سرايته من الاوانى والتماثيل والجوهرات وخلافها الا أن هذه الاشياء جميعها عند سولون ما كانت هى الملك لانه جاء لزيارة الملك لا لزيارة أسوار سرايته ولا قيعانها ولما رأى سولون جميع هذه الاشياء أعادوه ثانيا للملك فسأله قرصوص أى انسان رآه فى أسفاره سعيدا حقيقة فأجابه سولون بقوله شخص اسمه طيلوس من أهل مدينة أثينة أمين صادق على غاية من جودة الطينة بعد أن عاش طول حياته قانعا بما عنده من مؤنة حياته وكان يرى على الدوام سعادة بلاده وترك أولاده تحت رضا العموم هم وأولادهم وأخيرا مات هذا الرجل مع عزة المجد والشرف محاربا فى حب وطنه

فعد قرصوص هذا الجواب الذى ليس فيه فضة ولا ذهب من أبرد الاجوبة ومع هذا فانه سأله ليرى هل يعده بعد طيلوس فى السعادة أم لا فقال له ثم من رأيت من بعد طيلوس فأجابه سولون بقوله كلو بيس و بيطون من أرغوس أخوان اثنان تركا خلفهما أنموذج محبة قلبية أخوية كاملة والاحترام المطلوب من الاولاد الى والديهم وذلك أنه فى موسم عظيم وقت ما كانت أمهما قسيسة يونو كان يلزمها الذهاب الى الهيكل الا أن الثورين اللذين كانا يجران عربتها غير حاضرين فوضع ولديها الناف على رقبتهما

وصحباعربة أمهما الى المعبد وكان طول المسافة خمسة أميال فحصل لجميع الامهات اللاتى كن فى المعبد الذهول والاستغراب وهنين القسيسة على ما أعطيت من مثل هؤلاء الاولاد وهى أيضا من فرحها وشدة شكرها وحبها لولديها تضرعت الى الآلهة ان يكافئوا أولادها عنها أعظم المكافأة التى يمنحها الرب الى عبده الخاضع له فسمع دعاءها وتضرعها ولما تم تقريب القربان ألقى النوم على الولدين فى المعبد وماتا فيه مع الراحة وهدو النوم وقدسهما أهل أرغوس تعظيما لاحترامهما والدتهما وشفقتهما بها وجعلوا لهما تمثالين فى هيكل دلفى

ثم قال قرصوص متنهدا من قلب كئيب لأى سبب لم تعدنى أنت من جملة السعداء فأجابه سولون مع الهدو والراحة من غير قلق ولا حصول حدة يا ملك ليديا انه بخلاف المنافع والفوائد الجليلة التى منحتها الآلهة لنا نحن اليونانيين منحتنا أيضا فراسة متوسطة وحافظة قوية أدخلت بيننا نوع فلسفة واضحة مقبولة عندنا محبوبة بحرية خارجة من الكبرياء والعجب والفظاظة ليست موافقة لاحوال الملوك وبواسطة هذه الفلسفة يجرى مراعاة كثرة تعداد التقلبات والعوارض التى تقع على الانسان فى حال حياته وبواسطتها لا يسمح لنا أن نجهد أنفسنا بتمتعنا فى نجاح حياة أنفسنا وفوزها ولا نختار أن نجعل السعادة فى آخرين لانه ربما أن تنتقل منه فجأة وذلك أن الانسان تندر حياته أن يعيش ما ينوف عن سبعين سنة التى مقدار أيامها ٢٥٠٠٦ يوما وما وجد فى هذه الايام يومين بحالة واحدة بل وجدها متباينة عن بعضها فعلى هذا لا عبرة باقبال الايام ومجيئها لانها مشحونة بالعوارض المختلفة التى لا يمكن رؤيتها فمن ثم على رأينا لا يقدر أى انسان أن يعد نفسه سعيدا الا اذا استمرت سعادته من عند الله الى آخر حياته فالذين على الدوام عرضة لكثير من الاخطار لا يمكننا أن نعد سعادتهم محققة ولما تم سولون آخر ألفاظه خرج من عند قرصوص فانحط قرصوص من هذه الالفاظ الأنها لم تصلح أحواله

ولما ارتاع قرصوص من مظفرات كيرش أى كيخسرو ورأى أن مبارزته مع كيخسرو لابد منها من أجل سيادة آسيا الصغرى عقد محالفة مع البابليين والمصريين واسبرطه ضد الفرس واشتعل الحرب فى نواحى ثمبره وبما أن هذه الواقعة من أكبر الوقائع التى حصلت فى الدنيا القديمة بين الفرس وليديا فاذكرها هنا على وجه التفصيل اتماما التاريخ ليديا فأقول

﴿واقعة ثمبره﴾ كانت بلوكات المشاة فى جيش كيرش أى كيخسرو وكل بلوك مركب من ١٠٠ نفر بما فيهم ضباط الملك وكل بلوك مقسوم الى أربعة أصناف كل صنف أربعة وعشرون نفرا الذين فيهم الضباط وكل من هذه الاصناف مقسوم الى نصفين فى صنف كل نصف مركب من اثنى عشر نفرا وكل عشرة بلوكات تشكل طابورا واحدا تحت قيادة ضابط مخصوص اسمه سرهزار أو بكباشى أو رأس الالف وكل عشرة طوابير تشكل ما يقال له لواء فبهذا كان تعداد الطابور الواحد ألف نفس وتعداد اللواء الواحد ١٠٠٠٠ نفس

وفى سابق الامر لما دعى كيخسرو فى رأس ٣٠٠٠٠ من الفرس لمساعدة عمه كيكاوس بدل فى تنظيم أسلحة عساكره وكان المشاهير لحد هذا الوقت يستعملون الحربة أو النشابة فقط وبهذا كانوا على طاقة من مضاربتهم عدوهم على مسافة منه فقط فغير ذلك كيخسرو وسلح القسم الاعظم من عساكره بالتروس والطوارق والدروع والخود والسيوف وبلط الحرب وترك القليل من عساكره أشبه بعساكر

خفيفة التسليح وكان الفرس لحد هذا الوقت لا يعرفون طرق المحاربة على ظهور الخيل ورأى كيخسرو في نفسه أن لا شيء أهم في اكتساب الوقائع الحربية من وجود الخيالة الفرسان فاجتهد شيأ فشيأ وفاز في أغراضه بكونه جند جيشا من خيالة الفرس يبلغ مقداره ١٠٠٠٠ حصان وكان هذا الجيش زهرة عساكره وأجودها

وكان مقدار جميع جيش كيخسرو ١٩٦٠٠٠ نفس فرسان ومشاة منه ٧٠٠٠٠ نفس من وطني فارس ومن هؤلاء ١٠٠٠٠ زرخ خيالة و ٢٠٠٠٠ زرخ مشاة و ٢٠٠٠٠ سنان و ٢٠٠٠٠ عساكر خفيفة والباقي من الجيش ومقداره ١٢٦٠٠٠ نفس كان مركبا من ٢٦٠٠٠ نفس من الميديين والارمنيين والعربان الخيالة ومن ١٠٠٠٠٠ مشاة من هذه الامم وكان يوجد خلاف هذه العساكر عند كيرش ٣٠٠ عربة حربية مسلحة بالمناجل والهراسات وكل عربة يجرها أربعة أزواج من الخيل مستورة بطقومة الزرخ هي وخيولها

وأمر أيضا كيرش بتشغيل مقادير كبيرة من عربات ذات سعة كبيرة ووضع على كل عربة منها برجا علوه نحو من ١٨ أو ٢٠ قدما رتب فيه عشرين نبالا وكانت كل عربة محمولة على عجل وتجر بثمانية أزواج من البقر وكذا رتب في جيشه عددا كبيرا من الجمال جعل فوق كل جمل اثنين من نبالة العرب راكبين في ظهر بعضهما يحفظ أحدهما رأس الجمل والآخر يحفظ جهة ذيله

وأما جيش قرصوص وكان ينوف عن ضعف جيش كيرش وكان جميع مقدار عساكره ٤٢٠٠٠٠ مقاتل منها ٦٠٠٠٠ خيال وكان مقدار العساكر المركبة من البابليين والليديين والفريجيين والقيدوثيين ومن الامم القاطنة على بوغاز الهلسبون أي الدردانيل ومن المصريين نحوا من ٣٦٠٠٠٠ نفس وكان جيش المصريين وحده عبارة عن ١٢٠٠٠٠ نفس لابسين الطوارق والدروع من ابتداء رؤسهم الى أقدامهم وبايديهم الرماح والمزاريق الطويلة وسيوف قصيرة عريضة جدا وكان ما بقي من الجيش مركبا من الفنيقيين والقبرصيين والصيليصانيين والليكانيانيين والبغلاجونيين والتراسيين واليونانيين

ونظم قرصوص جيشه في هيئة طابور على حذاء واحد بأن جعل المشاة في القلب والخيالة في الاجنحة وكانت جميع عساكره مشاة وفرسانا واقفة في هيئة قطارات عمق كل قطر ثلاثون نفرا وكان المصريون الذين كان تعداد عساكرهم كما ذكرنا ١٢٠٠٠٠ نفس وعليهم مدار القوة الاصلية لمشاة قرصوص وكان وقوفهم في القلب مقسومين الى اثنى عشر لواء واقفة على هيئة قلاع مربعة كل قلعة مركبة من ١٠٠٠٠ نفس ومواجهة كل قلعة ١٠٠ نفر مرصوصة كوما واحدا وكانت هذه القلاع أو اللواآت مفصولة عن بعضها بمسافات بحيث يمكن للقلاع اجراء حركاتهم الحربية من دون أن يمس بعضهم بعضا أو تحصل منهم مضايقة في الحركة الحربية أو اختلاط اللواآت ببعضها وكان قرصوص يشتهي أن يرتب القلاع المصرية بحيث تكون أعماق القلاع قليلة ومواجهتها عريضة الا أن المصريين لم يتزحزحوا عما اعتادوا عليه من تعليماتهم وقواعدهم العسكرية وكانت الجيوش في سهل متسع جدا يتشكل منه ميدان كاف لحركات الاجنحة الموجودة في الشمال واليمين من القلب وكان قصد قرصوص الذي أسس عليه أمل النصر على العدو أن يحيط جيش العدو أو يميله في ناحية واحدة من الميدان ورتب جيشه بهذا القصد في حذاء واحد في طول مسافة خمسة أميال

وأما كيرش فانه أرسل من طرفه شابا اسمه أرسپيس فتوجه هذا الى جيش قروصوص بصفة أنه مغاضب لكيرش وناقم عليه وكان كيرش أوصاه أن يراعى ويعرف مع الدقة والاعتناء جميع ترتيبات عساكر قروصوص ونظامها ويعود الى المعسكر قبل حصول الواقعة بيوم ولما رجع هذا الشاب المبدى أخبر كيرش بحقيقة أحوال قروصوص وترتيبه جيوشه فرتب هو أيضا عساكره وجعل الحاكم عليه فى الترتيب مواقع ترتيب العدو

وكان عمق قطارات عساكر الفرس وقت الدخول فى المحاربات أربعة وعشرين نفرا فافتكر كيرش مناسبة تغيير هذا الموضوع وكان ذلك من الضرورى له فى أن يشكل وجهة عريضة على قدر امكانه من دون أن يضعف كثيرا لوا آته وذلك لاجل منع جيشه من التحام بعضه فى بعض وكانت عساكره المشاة على غاية من الجودة لابسين طوارقهم ودروعهم معهم بلط الحرب والسيوف منظومين فى حالة بها يلاقون عدوهم على أقرب مسافة منهم ومن أجل الغرض المتقدم نقص كيرش قطارات عساكره المشاة بقدر النصف وجعل عمق القطار الواحد اثنى عشر نفرا فقط ورتب الخيالة فى الجناحين وجعل الجناح الايمن تحت قيادة كريسطانطاس والايسر تحت قيادة هستاسب أو كشتاسب فصار كامل وجهة الجيش بطول أربعة أميال وجعل بين وجهة جيشه ووجهة جيش العدو مسافة قليلة قدرها نصف ميل

ورتب كيرش على مسافة قليلة خلف الحذاء الاول عساكر المزراق ومن خلفهم النبالة وكل من هذين الحذاءين مستور فى مواجهته بعساكر بحيث ان العساكر الخلفية يمكنهم من فوق رؤس عساكر الحذاء الاول تشغيل مزاريقهم ونبالهم على العدو من دون أن يوقعوا أذى على الموجودين أمامهم من الحذاء الاول وشكل خلف هذه الحذاآت حذاء آخر لاجل حفظ ظهر الجيش وكان هذا الحذاء مركبا من زهرة جيشه وأمرهم أن يفتحوا أعينهم للحذاآت الموجودة أمامهم ويمدوا الذين يحتاجون منهم الامداد وقت الحرب ويثبتون الذين يخافون ويهددونهم سوء العذاب ويقتلون الذين تحصل منهم خيانة الفرار والهرب

ورتب خلف الجيش العساكر الذين يحركون الابراج وينقلونها من محل الى آخر وهؤلاء شكلوا أيضا حذاء مساويا وموازيا للحذاء الجيش وما كان استخدامهم فقط لارهاب العدو وبارسال نبال عليه مستمرة الرمى بل وليكونوا أيضا شبه نوع قلاع وطوابى متحركة أو بالذات مربعة تجتمع تحتها العساكر الفارسية فى حالة ما اذا حصل لهم هزيمة واقتحمهم العدو بخيله ورجله

وكان يوجد خلف هذه الابراج مباشرة حذاآت آخران مساويان وموازيان لوجهة الجيش أحدهما مشكل من حذاء الجلة والآخر عبارة عن العربات التى فيها النساء وناس آخرون من الفرس لا يوافقون فى الخدمات الحربية ورتب كيرش لاجل غلق جميع هذه الحذاآت وحفظها من هجوم العدو عليها خلف كل منها ٢٠٠٠ من المشاة و ٢٠٠٠ من الفرسان والعساكر الخيالة وكانوا كثيرى العدد وأما عربات الحرب فكانت منقسمة الى ثلاث فرق كل فرقة مركبة من ١٠٠ عربة وكانت احدى هذه الفرق تحت قيادة ابراداطيس ملك السوس ومحلها فى مواجهة قلب الحذاآت وكان كل من الفرقتين الاخريين فى جناح من جناحى الجيش وهذا هو كان ترتيب الواقعة عند الجيشين حال بروزهما وتعبيتهما قبل الدخول فى الواقعة

وفى اليوم التالى قام كيرش وقت الصباح وقرب قربانا فى مدة زمن أخذت فيه عساكره الراحة وأما العساكر فانهم امن بعد تقديم خضوعها للآلهة واعتمادهم عليها فى حركاتهم لبسوا اسلاحهم ودخلوا فى تعبية حركاتهم وبمجرد ماتم كيرش تقريب القربان أعطى ضباطه جميع التعليمات اللازمة فى أثناء المحاربة وتوجه كل انسان الى المحل المرتب فيه وجاءه بعض من الضباط بخمر وأكل فأكل قليلا وهو واقف على قدميه وأمر بتفريق الباقى على الذين كانوا حوله وأخذ قليلا من الخمر وسكبه على الارض أشبه بتقريبه للآلهة قبل أن يشرب وبعد هذا تضرع بالدعاء الى اله آبائه وأجداده مستغيثا بارشاده ومعاضدته على عدوه ثم ركب حصانه وأمر الناس باتباعه وبينما كان قاصدا الجهة التى هو سائر اليها اذ سمع قعقعة رعد عن يمينه وصوتا يصيح نحن تابعون للتيامليكاجو بتير فسار فى الحال الى الامام وكان على يمينه كريسطانطاس قائد الجناح الايمن للخيالة وعلى شماله ارساماس قائد المشاة وأمرهما قبل كل شئ بتوجيه التفاتاتهما الى العلم الملوكى حال تقدمهما مع حذاتهما وكان العلم الملوكى نسرا من الذهب فى طرف زانة فادار أجنحته وأوقف كيرش عساكره ثلاث مرات للراحة حال سيرهم قبل أن يصل الى جيش العدو ومن بعد أن سار ميلين ونصفا وصل الجيش الى منظر من جيش العدو

ولما صار الجيشان على مرأى من بعضهما وراء الاعداء أن مواجهتهم طويلة جدا عن مواجهة كيرش وجيشه أوقفوا قلب جيشهم وأمروا الجناحين بالقرب الى القلب من جهة اليمين ومن جهة اليسار لاجل القرب من جيش كيرش وأن يبتدؤا فى هجومهم من كل جهة فى وقت واحد فلم يرتع كيرش من هذه الحركة لانه كان ينتظر وقوعها ولما عين كيرش عساكره للحملة والهجوم قال لهم ان القائد والحافظ هو جوبتير وترك جناحه الايمن بعد أن وعده بعوده اليه ثانيا فى الحال لمساعدتهم على النصر ان أرادت الآلهة بذلك

وركب وسار مخترقا جميع الصفوف والحذاء آت يقوى عساكره ويعطى أوامره وكان على غاية من الاعتماد والوثوق بالنصر ونادى وقال اتبعونى يااخوانى النصر انما محقق ثابت والآلهة معنا ولاحظ أن كثيرا من ضباطه حتى ابراداطيس نفسه كانوا على وجل من الحركة وكان جناحا الجيش الليديانى على شرف الهجوم على جيش كيرش من الجنبين فقال كيرش أتخشون من هؤلاء العساكر صدقونى بانهم أول مهزوم ومكسور وأنت ياابراداطيس أنا أعطيك اشارة الوقت الذى تقتحم فيه بعربات على العدو واقد حصلت الحركة كما قال كيرش ومن بعد أن أعطى كيرش جميع الاوامر والتنبيهات التى افتكر أنها ضرورية فى كل جهة من جهات جيشه عاد الى جناحه الايمن

ولما صار الفرقتان المنفصلتان من العساكر الليديانية على امتداد كاف فى تعبيتهما أعطى قروصوص اشارة للجيش الاصلى بالتقدم مباشرة الى مواجهة الجيش الفارسى حال ماكان الجناحان يلفان حول جيش العدو ويتقدمان عليه من كل جهة وبهذا انقفل جيش كيرش من ثلاث جهات بثلاث جيوش كبيرة واقفة معه فى ميدان حرب وصار هذا الجيش أشبه بقلعة صغيرة فى داخل قلعة كبيرة

وكان قواد كيرش وعساكره ناظرين للاشارة التى تعطى منه فى أى وقت من الاوقات وعلى غاية من الهدو والسكون منتظرين أمر الحركة فتفكر كيرش فى الوقت بانه يجرى ترتيل مغانى الوقائع والحروب فابتدأ هو بنفسه فى ذلك وجاوبه الجيش بأصوات عالية وتضرعوا فى دعائهم الى اله الحرب ثم

انفض

انقض كيرش فى رأس بعض من عساكره الخيالة متبوعا بحركة سريعة من المشاة مباشرة على قوى العدو الذين كانوا تقدموا للهجوم على جناح جيشه الايمن من الجنب وهجم عليهم من الجنب كما كانوا عازمين هم أيضا على الهجوم من الجنب وأوقع فيهم الفشل وعدم الانتظام والارتباك واقتحم العربات الحربية مع الشدة على المديين وتمت هزيمتهم وفى هذا الوقت لما عرف عساكر الجناح الايسر مما هو حاصل من الغاغة أن كيرش ابتدأ فى الهجوم من جهة اليمين تقدموا هم أيضا الى العدو وتحرك فى الحال طوابير الجمال الى التقدم على نص أوامر كيرش وما كان خيالة العدو ينتظرون هذه الحركة التى جاءت عليهم بالوبال والخسران لان الخيول لما شمت رائحة الجمال ورأت أصناف هذه الحيوانات المهولة الخلقة التى ما رأتها قط قبل جفلت وقفزت وشبت وتزعزعت ورمت ركابها من فوقها وداستها بأرجلها وبينما كان عساكر خيالة المديين على هذه الحالة اذ جاءهم فرقة من الخيالة تحت قيادة ارطاغسيس واقتحمت هذه الفرقة عليهم مع الحماس ومنعوهم من التجمع ثانية وانقضت عليهم عربات الحرب المسلحة بالمناجل والهراسات وبددوهم مع القتل والاسر المهول

ولما حصل ذلك أمر كيرش ابراداطيس بالهجوم على مواجهة جيش العدو فانقض على العدو مثل البرق اللامع بجميع عرباته ولما رأى الخذاء الاول لمواجهة جيش العدو أن لا طاقة له على الوقوف أمام حملة مهولة مثل هذه ولت عساكره الادبار وركنوا الى الفرار وتشتتوا واشذرمذر ولما كسرهم ابراداطيس وأوقع فيهم الفرار عاد الى اللواآت المصرية وكانوا مستورين بتروسهم وطوارقهم وكان سيرهم فى حالة مقاربة بعضهم من بعض حتى ان عربات ابراداطيس ما وجدت لها مجالا فى خرق صفوف اللواآت المصرية وحصل عنده ارتباك كثير وصار لا طاقة له على كسرهم فهجم معه الفرسان والمشاة من جيش الفرس وصار منظر محل الواقعة هائلا من كثرة ما على وجه الارض من الخيل والرجال والاسلحة المكسرة ومما حصل من تأثير العربات من القتل والتقطيع الا أن الفرس لما رأوا شدة مقاومة المصريين ارتدوا على أعقابهم وتغلب المصريون على عربة ابراداطيس وقتلوه مع جماعته ثم تقدم المصريون وهم متقاربون فى هجومهم من بعضهم مستورين بطوارقهم وألزموا مشاة الفرس على القهقرة الى الخلف وطردوهم خلف الخذاء الرابع لهم الى حد آلاياتهم وأبراجهم وفى هذا المحل قابل المصريون هجوما جديدا من نبال وحراب سقطت على رؤسهم من الابراج المتحركة وتقدمت اللواآت الفارسية الموجودة فى خلف الجيش وسيوفهم فى أيديهم صادين بنبالهم وعساكر المزراق عساكر الفرس من القهقرة وألزموهم بالعود الى الحملة والهجوم

وأما كيرش فانه هذا الوقت لما أوقع بالخيالة والمشاة الذين كانوا على يسار المصريين الهزيمة والفرار لم يفقد أدنى زمن فى تعقيب الفارين الا أنه لما اقتحم القلب مباشرة وجد أن عساكره الفارسية تقهقرت وتحقق فى نفسه أن الوسائل الوحيدة لصد المصريين من تقدمهم الى الامام هو الهجوم عليهم من الخلف ففعل ذلك وهجم من خلفهم وجاء عساكر الخيالة فى هذا الوقت وهجموا على المصرية بشدة قوية ولما رأى المصريون أنفسهم بانهم صاروا مهجومين من كل جهة حفظوا أنفسهم بشجاعة عجيبة وصار كيرش نفسه على حالة خطرة مهولة فضرب حصانه أحد العساكر بخنجر فوقع تحته وسقط هو فيما بين أعدائه فارتاع الضباط والعساكر من الخطر الذى وقع فيه قائدهم وأسرعوا متكاثرين فى طوابيرهم مقتحمين على خلاصه وأسرع هو أيضا فى أن ركب حصانا آخر وصارت الوقعة أشد وقعا

وأكثر دماً من الاولى وأخيرا استغرب كيرش من شجاعة المصريين واقدامهم على الحروب والوقائع ورأى أنه من الخسارة هلاك مثل هؤلاء فى الحروب فعرض عليهم شروطا توافق شرفهم وكرم أنفسهم اذا أعلموه بتسليمهم له وفى هذا الوقت كان جميع حلفائهم تركوهم فقبل المصريون الشروط وقالوا انهم لا يلزم جبرهم بأى حالة كانت على حمل سلاح ضد قرصوص الذين هم فى خدمته فى هذه المحاربة وصاروا من الآن وصاعدا يخدمون فى الجيش الفارسى من دون فسخ صداقتهم ووثاقتهم وأعطى كيرش للمصريين مدائن على ساحل البحر وميناء سكنوها فى مدة حياته وسموها بالمدائن المصرية واستمرت الواقعة الى غروب اليوم الذى كان جاريا فيه الحرب وأسرع قرصوص على قدر امكانه فى القهقرة مع عساكره ليلا الى سرديس عاصمته وتوجهت الامم الاخرى بهذه الحالة كل مسرع فى سيره الى بلاده ومن بعد أن أكل الفاتحون شيأ من الغذا رتبوا خفرهم وتوجهوا لراحتهم

وفى اليوم التالى سار كيرش على سرديس وما كان يتصور قرصوص أن كيرش يسعى فى محاصرته فى داخل المدينة فمن أجل هذا سار فى قواه لمقابلته للمحاربة بجمعه وذكر بعض المؤرخين أن الليديين كانوا أشجع أمة حربية فى آسيا الصغرى وكانت قوتهم وشجاعتهم الاصلية محصورة فى خيالتهم فأمر كيرش عساكر الجمال بالتقدم والحملة لاجل صد الخيالة من اجراء حركاتهم العسكرية ولما شم الخيل رائحة الجمال فزعت وارتدت على أعقابها فنزل الخيالة من على خيولهم وحاربوا على أقدامهم وكانت الواقعة بين الجيشين مع الشدة والعناد الا أن الليديين أخيرا تقهقروا وانجبروا على الانسحاب فى داخل المدينة فحاصرها كيرش مع السرعة وأمر بهدم أسوارها وصار يستعد بالابراج والسطوح المائلة والسلالم فى الهجوم عليها عنوة وبينما كان كذا فى هذه الاستعدادات اذ حضر عنده ليلا عبد فارسى كان خادم حاكم هذه المدينة وأخبره على سكة يدخل منها المدينة بسهولة وبواسطة هذا العبد دخل كيرش المدينة وقت الفجر من دون أن يحصل له أدنى مقاومة من أهلها وكان أول احتراز أجراه هو حفظ المدينة من السلب والنهب لانه رأى أن الكلدانيين تركوا محلاتهم وانتشروا فى شوارع المدينة ونشر كيرش من عنده منشورا بأن أهل المدينة وتبعتها آمنون على أرواحهم وأزواجهم وأولادهم ان أتوه بما عندهم من الذهب والفضة وتم له ذلك وأسر الملك قرصوص وسجنه وسلب ثروته وذخائره ثم أمر كيرش بحرق قرصوص على حسب العوائد الوحشية التى كانت جارية فى هذا الوقت فصار تركيب أخشاب عمود الحرق ووضع الملك المشؤم عليه وبمجرد الشروع فى ايقاد النار تذكر قرصوص محادثته الاولى مع سولون ورأى أن جميع ما كان قاله هذا الفيلسوف الكبير وقع من غير ريب فصاح بصوت عال ثلاث مرات سولون سولون سولون وكان كيرش حاضرا مع ضباطه فى هذا المحفل الجامع فاندهل واستغرب ورغب أن يعرف لماذا قرصوص تلفظ باسم هذا الفيلسوف المشهور فى هذه اللحظة الاخيرة من عمره فقيل له عن السبب الموجب لذلك فاشتغل قلب كيرش وتفكر فى مصائب الدنيا وأحوالها وتقلباتها واعتبر بما حصل لهذا الملك من سوء العاقبة وأمر بانزاله من على عمود الحرق وأغدق عليه بالاكرام طول حياته وعامله بالوقار والاحترام وبهذا كان لسولون الفخر الاكبر فى كونه خلص حياة أحد الملوك بلفظة واحدة وكانت موعظة أخرى لآخرين

وصارت ليديا من هذا الوقت ايالة من المملكة الفارسية وانتهت استقلاليتها فى سنة ٥٥٤ قبل الميلاد والله أعلم

﴿ الكتاب الثامن ﴾

﴿ تاريخ مملكة ميديا ﴾

﴿ الباب الاول ﴾

﴿ من الازمان القديمة الى سقوط المملكة ﴾

وصف ميديا ـ موقعها الجغرافى ـ وصفها الطبيعى ـ الوصف الجبلى ـ الطقس والمناخ ـ المحصولات النباتية ـ الثروة المعدنية ـ الحيوانات ـ أصل الميديين ـ الهيئة الشخصية للامة وعوائدها وصفتها ـ تعدد الزوجات ـ ديانة الميديين ـ الدين الاصلى ـ ظهور دين المجوس وأخذه فى التقدم على التدريج ـ الوصف الحقيقى لدين المجوس ـ عبادة العناصر ـ عدم معلومية التاريخ الاصلى لميديا ـ النظام العشائرى للامة ـ كينيه مؤسس المملكة الميدية ـ حربه على أشوريا ـ هزيمته وقتله ـ صيرورة كيكاوس ملكا ـ غزو أشوريا ـ تغلب الصيطيانيين على ميديا ـ مأدبة كيكاوس ـ عود استقلال الميديين ـ تجديد الحرب مع أشوريا ـ المعاهدة مع بابل ـ سقوط المملكة الاشورية ـ أخذ ميديا نصيبها من الممالك الاشورية ـ حروب كيكاوس وتغلباته ـ عقد الصلح مع ليديا ـ صيرورة سياوخش ملكا ـ ضعف المملكة الميدية على التدريج ـ خضوع ميديا لفارس وصيرورتها ايالة منها

ميديا التى كانت ثالث مملكة جليلة من ممالك آسيا القديمة تشغل اقليما واسعا مرتفع الارض علوه المتوسط ٣٠٠٠ قدم عن موازنة سطح البحر المالح وهى واقعة فى جنوب وغرب بحر الخزر بين هذا البحر ومملكة أشوريا وطولها نحو من ٦٠٠ ميل وعرضها نحو ٢٥٠ ميل فتكون مساحة أرضها ١٥٠٠٠٠ ميل مسطح وهو امتداد أكبر بكثير من امتداد مملكة أشوريا وكالديا متحدتين مع بعضهما وميديا واقعة على صخور جبلية صعبة وعرة فى حالة جيدة من الحماية والرصانة فى جميع جهاتها بواسطة حواجز وسدود طبيعية يحدث منها متاعب ومصاعب كبيرة لكل من يأتى مغيرا عليها من الاعداء

ويمكن تقسيم الاراضى الميدية الى كورتين وهما عدة سلاسل جبال شامخة تشكل جهتها الشمالية والغربية ومفازة عالية أو صحن مرتفع يمتد من ذيل الاقليم الجبلى نحو الجنوب الى البحر المحيط الهندى ونحو الشرق الى المملكة الافغانية والقسم الغربى من الاقليم الجبلى المعروف عند القدماء باسم زغرة وعند متأخرى الجغرافيين باسم الكورديستان واللوريستان مشحون بمجارى مياه وغدران عميقة ورؤس صخرية صعبة الارتقاء ويحوى بعضا من المعابر والطرق الضيقة التى يمكن حمايتها بأسهل طريقة وبواسطة هذه الجبال والمعابر الصعبة الوعرة وزيادة شدة مناخها وطقسها امدة تزيد عن نصف السنة حفظت نفسها من جيش محارب لها ومن كل المساعى التى أجريت فى شأن خضوعها الدائمى لمملكة ما وقاومت كل المقاومات ضد مساعى الاشوريين والفرس والجريق والترك وبقيت الى هذه الايام كدولة عظيمة مستقلة عما جاورها من الممالك كما حصل مقاومتها للجيش الاشوريانى عند ما دخلها

أول مرة وتقهقر منها والظاهر أن طبيعة أراضيها مستعدة لتكون مغارس لرجال ذوى بأس وشدة وعثرة للمتغلبين وشوكة فى جنب كل مملكة تشيد نفسها فى هذه الجهة من القارة الكبيرة الشرقية
وأما القسم الثانى من الاقاليم الجبلى المعروف عند متأخرى الجغرافيين باسم البورز فهو أقل جلالة من اقليم زغرة وليس على حالة جيدة من وجود المياه الكافية لسقى أراضيه وأنهاره صغيرة تجف غالبا فى أثناء فصل الصيف وتصرف مياهها بسرعة فى بحر الخزر أو تنتشر بها الصحارى والهيئة الاصلية لهذه السلسلة الجبلية هى شماخة علاوها وستراسنان وماوند المطلة على طهران بالثلوج وهى أعلى قسم فى آسيا الغربية لسلسلة جبال حالية العظيمة
وأما الصحن المرتفع الممتد من ذيل هذين الاقليمين الجبليين الى جهة الجنوب والى جهة الشرق فهو فى غالب جهته مفازة وصحراء رملية خالية من العمران الاقليلا منشتتين فى جهاته ومع هذا فان الجهات الشمالية والغربية أقل تحولة من النواحى الشرقية والجنوبية لانها تسقى على مسافة منها بواسطة مياه الغدران النابعة من جبال زغرة وجبال البورز وتكتسب خصوبتها أيضا من مياه الامطار وبعض أنهار نابعة من جبال زغرة جارية على هذه الناحية عريضة قوية التيار أحدها يسمى قزل أوزون يصب فى بحر الخزر والثانى اسمه زنديرود يروى قسما كبيرا بالقرب من أصفهان والثالث اسمه بندامير يجرى من ناحية برسبوليس (اصطخر) وينتهى الى بقعة من المياه بسعة ما تسمى بحيرة بختيجان ومن ثم يوجد بين الاقاليم الجبلية والصحراء جهة من الارض ولوانه لا يمكن أن يقال عنها انها خصبة الا أنها مثمرة نوعا ويمكن أن يحصل من أرضها مساعدة للناس يستوطنونها وهذه الارض تشكل القطعة الاصلية للاقليم الذى كان القدماء يسمونه باسم ميديا
وعلى العموم فان ميديا هى اقليم مجدب محل رديئة المنظر كئيبة الهيئة ماعدا مبادى فصل الربيع ومناخها فى الاقاليم الجبلى شديد الصقيع ومتلطف فى السهول الا أن درجة الترمومتر قل أن تصل الى ٩٠ تحت الظل ويعتبر الطقس فى عموم الاقليم صحيا وبمساعدة طرق الرى يستحصل من الصحن الكبير على محصولات عظيمة من الحبوب والارز والقمح والشعير والذرة الرفيعة والغليظة والذرة الصفراء والسمسم ويزرع أيضا فيه القطن والدخان والزعفران (القرطم) والراوند والقوة والخشخاش الذى يستخرج منه أجود الافيون والسنامكى ونباتات بستانية فى غاية اللذة والفكاهة يخرج منها البطاطس والكرنب والعدس والفول ونوع من القلقاس والقاصوليا والبسلة واللفت والجزر والاسبانخ والخيار والى آخره
ومعادن ميديا كثيرة ثمينة القيمة وكثيرا ما يوجد فى أراضيها لحد الآن أحجار ظريفة مختلفة اللون والشكل وأشهرها حجر الرخام التبريزى الجميل الصورة وكذا يستخرج منها لحد الآن الحديد والنحاس والفولاذ البلدى وكان يوجد فى جبالها فى الازمان القديمة عروق من الذهب والفضة وكذا يوجد فيها الكبريت والشب والجبس فى محال مختلفة من المملكة ويوجد فيها صنف الملح بوفرة
والميديون هم من نسل أريان وينسبون الى هذا الجنس كانتساب الفرس اليه لانهم لا يختلفون عنهم فى الهيئة الاقليلا وهم على العموم أهل مروءة وشرف وعلوهمة حسان الوجوه ذوو قوة ونشاط لهم ذقون كثيفة وشوارب طويلة وشعور طويلة مجعدة على هيئة خلقات مجسمة خلف قفاهم ونساؤهم مشهورات بحسن القد والجمال ويلوح على هيئة الميديين الشجاعة والبسالة ومن قبل أن

تشمر بهم السلطنة الفارسية كانوا معروفين من بعد العساكر الفارسية بالثبات والشجاعة في الحروب وكانوا ذوي عناء شديد فيها وكانت غلباتهم مصحوبة بالفواحش القبيحة المقرونة بالطمع والذم وقبح الخصال حالما يتمكنون من نصرتهم وكانت عوائد الميديين في الابتداء البساطة والرجولية الا أن نجاحهم في الحروب فتح لهم باب طريق الرفاهية واللذة في العيشة حتى غرقوا فيها وكان تغلبهم على أشوريا عاقبته مشؤمة على هؤلاء الاشداء الحربيين فانهم أخذوا عنهم عوائد الرفاهية والتلذذ بالمعيشة ومن ثم أعقبها انحطاطهم وخستهم على وجه العجلة وكانت ملابسهم مكلفة ذات زخرفة ونقش وزينة فكان يرى فيها محبتهم للتظاهر وكان الميديون في الاصل أمة خيالة ماهرين في استعمال ضرب النشاب وكانوا هم نبالة الخيالة في وقت الحرب وكانوا يستعملون أيضا السيوف والمزارق الا أنهم اكتسبوا في ضرب النبال على ظهور الخيل الدرجة القاصية

وكان تعدد الزوجات عندهم مرعى الاجراء عند الملك وطوائف الاغنياء من الناس وما كان عندهم كد ولا سعي في تيسر الحصول على القراءة والكتابة الا قليلا وتركوا الصنائع والحرف

ولقد حصل التغيير الكثير في ديانة الميديين وكانت في هيئتها القديمة مشتملة على عقيدة مدبر كبير خبير هو أهورومزدان وهو الخالق الحافظ مالك الملك مقره أمام روح مكون واحد منبع للخيرات والطيبات وكان هذا هو المقصد الاصلي من اعتقاد العقيدة والتعبد على مقتضاها وان أهورومزدان هو خالق الحياة أرضية كانت أو سماوية وهو الذي صنع الاجرام السماوية والارض والماء والشجر وجميع المخلوقات الطيبة الحقة وهو محسن مقدس نقي حق الله المقدس الاقدس خلاصة الحق أب الحق كله أكبر خالق سيد الطاهرين والمقدسين متحوز على درجات السعادة والشكر والثناء الجميل والصحة والعافية الغنية والفضيلة والحكمة والازلية ومنه وصلت جميع الخيرات والطيبات الى الانسان وانه لا يفيض على العباد والمؤمنين النعم الدنيوية والعطايا الجزيلة فقط بل ويعطيهم الروح الطيبة والحق والخشوع والعقل الذكي والسعادة الابدية وكما أنه يكافئ على الطيب فانه يعاقب على الردي ولو أن ذلك لم يحصل منه الا نادرا ومن هنا يظهر أن أهورومزدان أو اهورامزدا أو أورمزد قريب جدا من اعتقاد العبرانيين في وجود الاله الحق زيادة عن أي مذهب من المذاهب الوثنية وكانت عبادة الميديين خالية من أي تصور أو احساس من احساسات الوثنيين وان اله هذه الديانة لا يرى بل موجود في عالم غير مرئي في المستقبل ليس له صورة ولا تمثال يقصد عبادته ويجسمها وان تحت سلطة هذا الخالق الاكبر عدة ملائكة ممتازة بقليل عن صفات الالوهية أو الاله وهؤلاء يفعلون ما أمرهم به أورمزد وهم سلائكة الوحي بينه وبين الانسان ولا يوجد في العقيدة القديمة الميدية الاقليلا لا تختص بالشر أو الانبا آت المضادة للانبا آت الطيبة في عقيدة زرادشت وبهذه الحالة كانت الديانة الميدية والديانة الفارسية واحدة ثم من بعد مضي مدة من الزمن حصل تغيير في الديانة وأضيف الى الدين القديم عقيدة في مادتين غير مختلفتين أو مخلوقتين ومستقلتين احداهما عقيدة الخير والاخرى عقيدة الشر وهما ضدان أصليان محصورتين في التثني وهاتان المادتان في حرب مستمر مع بعضهما وقال بعض المؤرخين انه كان كلما امر الزمن ازدادت عقيدة التثني من المذهب الزرادشتي وحصل من اللسان تأثير شديد مضر بالنسكر وصار التشتت والانفصال في الدنيا القديمة بين الناس وكثرت الاختلافات في مسئلة مادة الخير والشر ولما نمي العقل الايراني وكان مبدأ توجهه هو التأمل في الدنيا ليعرف حقيقة نفس الامر

فلما دخل فى هذا الفجاج الواسع التزم على السير الى الامام لاجل كشف حقيقة أصل الخصام والنزاع الواقع بين بنى الانسان والاسباب المتصف بها هذا الخصام فظهر له أن الشر معدود من تصور شخص شرير والإستمرار فى منازعات متعادلة من دون حصول أدنى فائدة لجهة وكل ما تصوره العقل الايرانى تمسكوا به فى الدنيا وأذاعوه فيما بينهم حتى ظهر لهم المساواة بين الشخص الشرير والشخص المعتقد أنه أصل للخير ومن هذا انبسق الثنى

وتعتقد الايرانيون فى مادتين متساويتين فى الازلية وفى الابدية وهما الخير والشر ويوجد بينهما من الازل ضدية مستمرة وخصام لا ينقطع وانه متولد من النزاع الواقع بينهما على الدوام غضب وحقد فى جميع الزمن المستقبل فمادة الخير مرسولة من عند أهورومزده ومادة الشر مرسولة من عند انجرومينوس وان ما يقال له خير فهو شغل أهورومزده وكل ما يقال له شر مرسول من عند انجرومينوس أى انه يتولد منه كل شئ يحصل منه الضرر والاذى فيتولد من انجرومينوس الحرب والمرض والقحط والفقر والخبث ومعاناة جميع الآلام والمصائب والمضار التى تدخل على المواد التى يفعلها الخير من أجل حصول السعادة وأنهم يراعون أن الدنيا ميدان حرب بين هاتين الدولتين أو القوتين وكل جماعة من القوى المتنازعة تعتقد أن عندها مجلسها الشورى المركب على الدوام من ستة أعضاء فأما مجلس أهورومزده الشورى فانه مركب من الاولياء الطاهرين الازليين وأنه يوجد عند مادتى الخير والشر جنود وعساكر مختصة بهما وان أهورومزدان خلق ألوفا من الملائكة الشاكرين له المباركين يفعلون ما يأمرهم به ويحاربون عساكر الشر وأما انجرومينوس فانه دعا الى حالة الوجود ألوفا من الاشرار الروحية ليساعدوه على هجومه على المباركين الشاكرين

ويعتقد الميديون فى أزلية الروح ويقولون ان الارواح الطيبة والخبيثة تمشى بعد الموت فى طول طريق بين حتى تصل الى قنطرة التجمع ومن هذه القنطرة يخرج طريق ضيق يوصل الى الجنة أو الى مساكن الابرار أما الارواح الخبيثة فتسقط من فوق القنطرة الى بركة أسفل منها وفى هذه البركة تلتى العذاب ويحتم عليها بالمقام أبديا فى مملكة انجرومينوس وتتغذى فيها من طعام الاثيم أو طعام الغسلين وأما الارواح الطيبة فانها تساعدت فى عبورها من على القنطرة بواسطة الملك صيروش وهو يوصلها الى مساكن الابرار وحضور أهورمزدان

ولما ابتدأت الامة الايرانية فى انتشار أنفسها خلف أراضيها الواقعة فى شرق بحر الخزر وجنوبه وصاروا ملاصقين لقبائل الصيطانيين أو ياجوج وماجوج المختلفة القاطنة فى الاقاليم الجبلية من أرمينية وأذربيجان والكوردستان واللوريستان كانت ديانة هؤلاء الامم منحصرة فى العقائد المجوسية التى هى عبارة عن عبادة العناصر المعروفة بالنار والهواء والتراب والماء وهى المواد الاصلية النافعة للنوع البشرى وما كان للمجوس آلهة مشخصة فنبذوا من طبعهم الهياكل والمزارات والصور والتماثيل ومالوا الى تقوية الامة فى اعتقادهم ان الآلهة موجودة فى حالة طبيعية مع الانسان بمعنى ان الآلهة حائزة الشخصية والحياة وهم أرباب بصارة وتدبير وخبرة وان عبادتهم عبادة طبيعية يجرى تأديتها بكامل ما يختص بها من جميع الاركان وما كان المجوس يمثلون الآلهة بصور مختلفة من الاحجار مثل الجريق وما كانوا يشخصون المؤثرات الطبيعية مثل الهنود بل كان خشوعهم لنفس أشياء مادية عرضية مؤثرة مثل النار ومن ثم كانت النار عندهم هى الداهية الكبرى وأعظم خداع عندهم وهى

مادة أثيرية لها التأثير الأكبر وجهوا اليها غايات التفاتاتهم وانه فى محاريبهم النارية اللهبية المقدسة المعتقدين بانها وامت من السماء جارى المحافظة على قيادتها من دون انقطاع من يوم الى يوم ومن سنة الى سنة ومن عصر الى عصر بواسطة شرذمة من قسس وظائفهم الخاصة بهم النظر فى عدم انطفاء اللهبة المقدسة مطلقا ويتنجس المحراب وتنتهك حرمته اذا حصل نفخ اللهبة بواسطة نفس الانسان وان مثل هذا يعد من أكبر الجرائم ورأس الكبائر ويعد أيضا حرق الجيف والرمم والعظام من أقبح الذنوب وعند تقريب القربان للنار كان الذى يجرى حرقه فيها قطعة من الدهن أو الشحم فقط وكان مثل النار فى الاحترام الماء فكانوا يقربون القربان للانهر والبرك والعيون بأن يجلبوا الذبائح ويذبحونها بالقرب منها ويحترزون فى أثناء الذبح من عدم سقوط قطرة من الدم فى الماء لئلا تنجسها او تفسدها وما كانوا يسمحون فى رمى أى شئ من النجاسات فى الانهر وأن لا يجوز قانونا لاى شخص غسل يده أو استحمامه فى أى نهر من الانهر وكانوا يظهرون احترامهم للارض بتقريبهم القربان اليها ويحرمون فعل العادة الجارية بين الامم من دفن أجسام الموتى فيها

وكان الدين المجوسى شديدا السحر والكهانة أى الرقيا فكان العباد محتاجين فى جميع حالاتهم وقت العبادة من أجل قبول عبادتهم الى قسيس يكون واسطة بينهم وبين الاله وكانت وظائف المجوس وراثية على التعاقب فى الوظيفة وكانت ملابسهم مكلفة مزخرفة وهم أعلى درجات المقام والرفعة وكانت أسرارهم مكتومة يدعون خوارق العادات وحصول المعجزات يفسرون الفال والطيرة ويعبرون الرؤيا والاحلام ويتنبؤن بالحوادث المستقبلة وكانت هذه الادعاآت المعضدة بواسطة أسرارهم المخفية ما كانت مرعية التصديق عند العوام فقط بل كانت محترمة معتبرة مرعية العمل عند أمرائهم وملوكهم ومن المحقق أن الاتحاد الاولى بين مذهب زرداشت الذى ذكرناه وبين المذهب المجوسى كان فى مبدياو من عهد هذا الاتحاد صارت طائفة القسس والمجوس محصورة فى واحدة من الست عشائر المدية وقال رولنسن الذى أخذنا من كلامه على الديانة المدية هذا المختصر لا حاجة فى أن يتصور أن المديين ارتدوا عن عبادة أورمزد أو سلوا فى دينهم الثنوى الا أن تأثير العقائد المجوسية وعوائدها التى هى العبادة العنصرية والكهانة والرقيا بواسطة العكاكيز المقدسة وتعبير الاحلام والسحر والرقيات والتعوذات عند محاريب النيران والذبائح التى تأكلها المجوس الموظفة على النار يظهر أنها كانت متسلطنة عندهم فمن ثم ارتفع الدين الجديد على الدين القديم واضمحل الدين القديم بواسطة قوة حصلت من زرداشت مبتدع هذا الدين وتغلب الدين المجوسى على العقيدة الاريانية الاصلية وبتوالى الزمن ومروره أخذ مذهب المجوس فى الارتقاء شيأ فشيأ حتى صار هو الدين الحقيقى للامة ولو أن الدين المجوسى كان أقل علوا وأقل تهذيبا من مذهب زرداشت القديم الا أنه يلزمنا أن نقول انه استحوذ على درجة صعود حقيقية حتى آل أمره الى أن يكون هو الموافق والصالح لان يكون دين مملكة باهرة شاسعة مثل مملكة فارس ومن محاريب النيران المكنونة فوق رؤس الجبال وشهرتها فى وقودها من الزمن القديم واسم دوام قيادة النار المعتقد بانه صار نازلا لهما من السماء والعبادة فى الهواء المطلق تحت قبة زرقاء سماوية وهيئة العساكر المجوسية الطويلة فى ملابسهم البيض مع طواقيهم العجيبة الشكل وصولجاناتهم وحرابهم وصلاتهم الدائمية وكثرة تقريب القربان وطول عمل الرقيات والكهانة والسحر المتصور عند الناس أنها مؤثرات معجزات من طائفة القسس

كل هذا حصل منه تأثير في الحال على العين والعقل وكان هو السبب الاكبر في العقيدة الميدية ووجودها وكانت عقائد زرداشت قوية جدا حتى انها كانت لا تتحد بالنسبة لشدتها مع الرفاهية والعزة الشرقية أولا ان تكسب قوة ما لحكومة مؤسسة على مواد اعتيادية لسلطنة مطلقة استبدادية آسوية فمن ثم انتشر الدين المجوسي حكومة دينية لاجل معاضدة السلطنة وتختها وأضاف العزة والابهة للملوك وحالما كان هذا الدين متغلبا على طوائف الرعية بواسطة قسسه الذين استحوذوا على العقول بأنهم هم أرباب المعجزات ولهم الحق في التوسط بين السماء والانسان نشأت طريقة عبادة انتشر تأثيرها وزادت في أبهتها وتولد منها ميدان واسع يجب الانسان في الكهانة والعقائد المقدسة وتفسير الفال والطيرة وتعبير الاحلام وانسر منها أرباب الدنيا الذين دخلوا فيها وأباحت لهم الاعمال التي كانوا لا يمكنهم عملها قبل ووضعت موادا وأصولا عديدة تختص بالشرف والدقة وعدم البغض والحقد للديانة الوثنية القديمة التي كان الاريانيون يجدونها في ذلك الوقت بل ازدادت شوكتهم في اكثار الصور والتماثيل الذين كانوا يقيمونها وعلى الدوام يعبدونها ولهذا امتزجت بغاية السهولة مع العقيدة القديمة للامة ولم تبدأ في مشروع أو غرض يجحف بمنفعتها وكانوا ينشرون قواعدها وأصولها بطريقة حلم وعدم جور عندما كان حاصلا الشروع في مباديها ولما جاء الوقت الموافق لحصول الشدة والتدقيق على السير فيها والاعتقاد بعقائدها ارتفع برفع الخشوع والخضوع وكانت هذه آخر حالة الدين الميدي الذي كانت متمسكة به الامة الميدية حالما كانت ناشرة ألوية سلطتها على الدنيا وكانت أمة مندمجة في بعضها وعلى غاية من حسن انتظام السلطنة

ولا نعرف من التاريخ القديم الاصلي للميديين الا قليلا والظاهر أنهم كانوا قبيلة جليلة في الازمان القديمة وزعم أهل التوراة أن أصلهم عشيرة من العشائر البابلية وفي نحو سنة ٨٣٠ قبل الميلاد أغار الاشوريون على ميديا مغتنمة وهي الارض الاصلية للميديين ومن عهد هذه الغارة عرف أصل ميديتهم وذلك أنهم كانوا منقسمين الى عدة قبائل محكومة برؤساء صغيرة ولو أن هذه القبائل حصل منها مقاومة ضعيفة لغارات صلمنصار الثاني عليهم الا أنه ما خضع قسم من أراضيها في الحقيقة الى أن أغار عليها سرجون في نحو سنة ٧١٠ قبل الميلاد وتغلب على قسم منها وشيد فيه مدائن استوطنها أسراء بني اسرائيل وشرع خلفاء سرجون في عمل بعض تغلبات وفتوحات أخرى في ميديا وفي آخر الامر في سنة ٦٧١ قبل الميلاد أغار عليها ايصرحدون وتغلب على أقسامها القاصية ووجدها لم تزل مقسومة الى عدة رؤساء صغيرة

وفي نحو سنة ٦٦٠ قبل الميلاد حصل في ميديا تغيير على حين غفلة في نظاماتها وحكوماتها نشأ من زيادة كبيرة حصلت في سكان الاراضي تولدت من مهاجري الاريانيين من الاقاليم بجبال زغرة (الكرد) تحت قيادة كينية (فروعرطيس) أبي كيكاوس فلما توطن هذا القائد مع أتباعه في ميديا وتحقق له الضرر الحاصل من تجزئة الحكومات والاحكام في مثل هذه الممالك والرياسات الصغيرة عكف نفسه على شغل ترتيب وتنظيم مملكة مركزية قوية صالحة لمقاومة الاشوريين فنجح في مشروعه هذا حتى انه في نحو سنة ٦٣٤ قبل الميلاد وجه عزمه على الغارة على أشوريا وكانت محكومة في هذا الوقت بالشيخ الكهل أشور بانيبال وتقابل الجيش الميدي مع الجيش الاشوري على المداخل من أراضيها وانتشب بين الجيشين وقعة مهولة في محل يقال له ادياديني انهزم فيها الجيش الميدي بالكلية وقتل كينية مذبوحا

بين عساكره

وخلف كيكاوس أباه في ملك ميديا وعكف في السنى الاولى من سلطنته على ترتيب طريقة عسكرية للملكة فجند جيشا كثيفا قويا على غاية من جودة التطقيم والتسليح مركبا من رعاياه الفارسية والميديين وفى سنة ٦٣٢ قبل الميلاد جدد الحرب بالغارة على أشوريا مرة أخرى فهزم الجيش الاشوريانى ميدان الحرب ووضع الحصار على مدينة نينوى وشدد عليها فى الحصار وضايقها حتى انها كادت تسلم له فى هذه السنة لولا أن صار طالبه من مملكته أن يسرع بالعود اليها لمقاومة غارة الصيطيانيين وكانوا انسكبوا على مملكته كالجراد المنتشر من الجهة الشمالية فقابل هذه الامم المتبربرة فى واقعة كبيرة حصلت مباشرة حال عوده الى مملكته فهزمه الصيطيانيون والتزم أن يعقد معهم صلحا واستمر فى مملكته معترفا بسيادتهم واتفق معهم على أن يدفع لهم خراجا سنويا ومن ثم لم تشتك ميديا مضار الآلام والاكدار التى تولدت من خراب الصيطيانيين فى الممالك الاخرى الا أن وجود هذه الامة المتبربرة وحكمها كان كدرا وغما على الميديين الذين هم بالطبع أهل شجاعة وعلو فى الجنس

(تنبيه) — اعلم ان الصيطيانيين هم يأجوج ومأجوج المذكورون فى القرآن الشريف كانوا مستوطنين جهات بلاد التتار وفى شمال بحر الخزر وفى شمال قوقاس الجراكسة وعلى سواحل البحر الاسود الى نهر الطونة وكل هذه الجهات كان يطلق عليها اسم الامة الصيطيانية أو التتارية وهؤلاء هم يأجوج ومأجوج الذين كانوا مفسدين فى الأرض حسب نص القرآن الشريف

ومن توالى الازمان وضعف قوة المتغلبين بواسطة انتشارهم فى وسيع أراضى آسيا الغربية ابتدأ الميديون فى أن يشدوا حيلهم ويشرئبوا انفسهم وفى آخر الامر لما أحس كيكاوس بمجىء الوقت الذى يستقل فيه بلاده عزم على هلاك قواد الصيطيين بخديعة يجريها حسب موافقة الاحوال فدعا الجم الغفير من رؤساء الصيطيين الى ضيافة أو مأدبة صنعها لهم وشحنها بالنبيذ والعرقى ولما شربوا وسكروا وخمدت قواهم من كثرة السكر أمر بقتلهم جميعا فكانت هذه اشارة عامة لقيام الامة الميدية فقام الامة الميدية على المتغلبين عليهم بعنف وشدة غيظ واشتعلت نار الحروب بينهم عدة سنين كانت نتيجتها طرد الصيطيين من ميديا وما جاورها من الممالك فعبروا فى هربهم جبال القوقاس حتى دخلوا أراضيهم وبلادهم

ولما خلص كيكاوس مملكته عهد لنفسه شغل عود شوكتها وفلاحها اليها بعد أن كانا سلبا منها بواسطة الامة الصيطيانية فنجح فى عزمه هذا وفى قليل من السنين وجد نفسه فى حالة كافية بها يجدد الحرب الذى كان شارعا فيه قبل على عدوته القديمة أشوريا وكانت آلت حالتها الى الهزال والضعف الكلى بسبب ما حل بها من الدمار والخراب والخسارات من أيدى المتبربرين واجتهد كيكاوس وسعى فى هياج وتحريض السوسيين والكلدانيين عن نكث طاعتهم لاشوريا والانضمام اليه فاستحوذ على هذا الطلب واتفق على أن السوسيين يهجمون على أشوريا من جهتها الجنوبية حال ما يهجم هو على الجيش الميدى من الجهة الشرقية فلما بلغ صرقوس ملك أشوريا تصميم الحرب بهذا الرأى أرسل نابو بواصار قائده الى بابل لاجل مقابلة الخطر الذى يحصل فى تلك الجهة وأخذ هو فى الاستعداد بنفسه لمقابلة الميديين فقيل ان نابو بواصار اشتغل بجلب المنفعة لنفسه والغدر بمليكه وأرسل رسولا الى كيكاوس يقدم له محالفة وصداقة لميديا بان رضى كيكاوس بان يضمن ويتكفل له باستقلال

مملكة بابل ويسمح بزواج ابنته اميطيس من بختنصر ابنه نابو بولصار وأن تكون زوجة له فقبل كيكاوس هذه التقدمة وزوج البرنس الشاب بختنصر بابنته وأضاف نابو بولصار قواده الى قوى الميديين ووضعوا الحصار على مدينة نينوى وتغلبوا عليها ودمروها واقتسم المتغلبون المملكة الاشورية بينهم وقد ذكرنا فيما تقدم الحصة التى خصت نابو بولصار وأما الحصة التى خصت كيكاوس فهى أشوريا الاصلية والايالات التابعة لها الموجودة فى شمالها وفى شمالها الغربى ومن ثم صارت ميديا مملكة شاسعة مثل مملكة بابل وصارها تان الدولتان اللتان أقيمتا على أطلال المملكة الاشورية أصدقاء بين بعضهما وتعاهد ملكاهما مع بعضهما بصلة المصاهرة كما تحالفا بالمعاهدات الرسمية ورضى كل واحد منهما بما خصه من الايالات والممالك واستعد كل منهما للمساعدة الآخر ومعاضدته فى الاوقات الشديدة مدة حياتهما

ومن بعد التغلب على نينوى تمتعت بابل ببضع سنين من الراحة وأما ميديا فانها اشتبكت فى الحال فى حروب مع الممالك الموجودة فى آسيا الغربية وكانت هذه الممالك خراجية لاشوريا فكادت فى أن جعلت سقوط المملكة الاشورية سببا فى استقلالية أنفسها فتغلب كيكاوس على كامل هذا القسم من آسيا من ابتداء بحر الخزر الى نهر الهاليس وأرمينية وقبدوثيا اللتين ما خضعتا مطلقا لاشوريا دخلا فى هذه التغلبات وتولد من هذه الحروب اشتباك كيكاوس مع ليسديا فى حرب وكانت ليديا اجتهدت وسعت فى استرداد ما تغلب عليه وكان كيكاوس متساعدا فى حرب ليديا بالبابليين تارة تحت قيادة بختنصر وتارة تحت قيادة نابو بولصار نفسه ومن بعد مضى خمس سنوات بينما كان الجيشان على شرف تعبية الحرب اذ حصل كسوف للشمس أراع الجيشين وأزعجهما فانتهز نابو بولصار الفرصة وقت حصول هذه الحادثة المزعجة وتوسط بين كيكاوس والياطيس ملك ليديا وكانت النتيجة ترتيب عقد مسالمة بين الملكين تقرر فيها أن نهر الهاليس هو الحد الفاصل بين هاتين المملكتين وحلف الملكان أيمان الصدق والوداد وسمروا هذه الايمان بزواج سياوخش (اسطياجيس) بن كيكاوس بعرينيس بنت الياطيس وآلت نتيجة هذه المداولات الى صلح واستتباب راحة امتد فى آسيا الغربية نحوا من خمسين سنة واستمرت الثلاث ممالك ميديا وليديا وبابل أصدقاء مع بعضها فى أثناء هذه المدة يفصلون ما يقع بينهم من مواد الاحوال بغير منازعة ولا مخاصمة وقضى كيكاوس ما بقى من القرن فى تنظيم حكومة ممالكه الواسعة واستتباب الامن والراحة فيها

ثم ان كيكاوس خلفه ابنه سياوخش (اسطياجيس) فى سنة ٥٩٣ قبل الميلاد فتسلطن خمسا وثلاثين سنة وهذه المدة وان كانت مدة سلمية وفيها بعض من النجاح والفلاح الا أنها كانت تاريخ مدة ضعف تولد فى الميديين من الرفاهية والتمتع بلذة المعيشة التى اكتسبوها من عهد سقوط المملكة الاشورية وجعلوا ذلك من عوائدهم وكانت سراية الملك فى مدينة همدان من أجل السرايات المفتخرة فى الشرق وكان سياوخش مغرما بسروره ومحبا للذاته فى حريمه زيادة عن أخطار ميادين حروبه فكان يقضى أوقاته فى الصيد والقنص فى جنة من أورمان بالقرب من العاصمة وخدمه وحواشيه متوشحون بالملابس الناعمة وأهملوا عوائدهم القديمة الحربية وصاروا ضعفاء جبناء مخنثين كما صار لطائفة قسس المجوس الصولة الكبرى والنفوذ الاعظم فى السلطنة الميدية فكانت هذه حالة الاعمال عندما ثار الفرس فى ثورتهم وسنذكر الوقائع والحوادث التى انتشبت من هذه الثورة فى تاريخ المملكة

الفارسية ولولا أن الميديين كانوا فى مبدا أمرهم على فوز ونجاح الا أنه من تسلطن الضعف عليهم من اعتكافهم على الرفاهية ما كان لهم طاقة فى آخر أمرهم على مقاومة أشداء الجبليين وانتهى الحرب بتمام سقوط المملكة الميدية فى سنة ٥٥٨ قبل الميلاد وصارت ميديا أول الايالات الفارسية أهمية وجلالة واستمرت على هذا الموقع مدة طويلة من الزمن

﴿ الكتاب التاسع ﴾

﴿ تاريخ مملكة فارس ﴾

﴿ الباب الاول ﴾

﴿ من ابتداء الازمان القديمة الى موت كيرش الاكبر أى كيخسرو ﴾

وصف فارس ـ موقعها الجغرافى ـ الاقليم الجبلى ـ الطقس أو المناخ ـ المحصولات ـ المعادن عوائد الامة الفارسية ـ خضوعهم لملوكهم ـ ديانة الفرس ـ تأسيس السلطنة الفارسية ـ صيرورة فارس خراجية لكلديا ـ اقامة كيرش فى الديوان الميدى ـ هربه ـ اقامته بيرق العصيان ـ سقوط المملكة الميدية ـ تشييد المملكة الفارسية ـ تغلباته وفتوحاته ـ فتحه بابل ـ اختيار التمدن الميدى ـ موت كيرش الاكبر

تطابق فارس الاصلية بوجه التقريب الكلى الاقليم الفارسى الايرانى الاخير وهى واقعة على الخليج المسمى باسمها وتمتد من نهر التاب الى النقطة التى يتصل فيها الخليج الفارسى بالبحر المحيط الهندى ومحدودة من الجهة الشمالية بميديا مغنه ومن الجهة الشرقية بجيسيا ومن الجهة الجنوبية بالبحر ومن الجهة الغربية بالسوس وطولها نحو ٤٥٠ ميلا وعرضها المتوسط ٢٥٠ ميلا فتكون مساحتها تنوف عن ١٠٠٠٠٠ ميل مسطح

وكانت فارس مقسومة الى كورتين ممتازتين سماهما متأخروا الجغرافيين باسم الكورة الحارة والكورة الباردة فاما الكورة الحارة فانها تشغل نحو عشر أرض المملكة وهى عبارة عن جهة سهل رملى مشحون بكثير من المواد الملحية ممتد بين الجبال والبحر فى جميع طول المملكة وأرضه فقيرة ليس فيها ما يكفيها من مياه الرى وأما الباقى من المملكة فانه داخل فى الكورة الباردة وهى كورة جبلية مركبة على التوالى من جبال وسهول وأودية ضيقة مختلطة ببعضها فى صور أشكال غريبة حتى انه لحد الآن لم تتم لها خريطة مضبوطة ومنظرها العام منظر كآبة وخولة لكنها تشتمل على بعض نواح ذات قيمة فى الجمال والخصوبة والمياه الواردة للرى قليلة جدا ويندر وصول أى نهر من النهيرات الى البحر ويوجد فى أرض فارس كثير من البرك والمستنقعات بعضها ملحية تصب فيها مياه معظم الانهار والهيئة المعتبرة فى عموم المملكة محصورة فى حلوق وخيران مهولة خارقة للسلسلة الجبلية الاصلية ومن وجود هذه الحلوق يستحيل انشاء سكك أو طرق تعبر لهذه الحواجز المهولة المخيفة ومياه الصخور المنحدرة الواقعة بالتوازى على كل من جهتى الانهار الجبلية تسيل من هذه الصخور بخرير مرتفع

وشلالات ومهابط مزعجة وفى طول هذه الصخور القابلة أو العديمة الانتظام موجود سكك ومدقات على هيئة تعاريج قاطعة للانهر من جهة الى أخرى على قناطر كل قنطرة مركبة من قبو واحد أو عقد واحد منشأة على خروق عميقة جدا أسفل منها المياه وقت فيضانها بأثار من الاقدام والسكك والمدقات مقطوعة فى معظم طولها بأرباب الصناعة ويبتدئ الطريق من النهر أحيانا ثم يأخذ فى العلو حتى يصل الى علو ٢٠٠٠ قدم من مبدء انخفاض النهر أو الطريق وفى أثناء العبور من الخليج الفارسى الى أعلى الصحن الايرانى لا يوجد أقل من ثلاثة أو أربعة من هذه الكاتولات أو معابر الحلوق الغريبة يلزم عبورها على التعاقب ومن ثم تكون المملكة محفوظة من جهة حرف الصحن من أنواع الهجوم عليها من هذه الجهة كما أنها محفوظة من الجهة الشمالية والشرقية ببحار واسعة ومن الجهة الجنوبية بحاجز جبلى فى غاية من الرصانة والصعوبة

والطقس فى بلاد فارس الاصلية على حالتين فأما فى الجهات الواطئة فهو حار موهن للجسم وأما فى الكورة الجبلية فهو بارد فى الشتاء ولطيف فى المدة الباقية من السنة والمحصولات النباتية ليست كثيرة ولا مشهورة ويشتغل من الاراضى كميات ومقادير متوسطة من ثمر البلح ونوع حنطة فى قليل من الجهات وينبت فيها كروم العنب وأجناس مختلفة من أشجار الاثمار ويوجد فى الكورة الجبلية كثير من الكلأ والمراعى وينبت فيها سائر أصناف العنب وتكثر فيها جميع الاثمار ماعدا الزيتون والصحيح يلزم أن يكون الخوخ بذرة فارسية أصلية وكذلك الليمون ومن الغلال القمح والشعير والذرة والارز محصولاتها الاصلية وفى الازمان الاخيرة زرع فيها القمح الهندى وكان يجلب اليها من أمريكا فنجحت زراعته فيها جيدا وكذا البسلة والحمص والسمسم والقوه والحناء والقطن كانت تزرع فيها من الزمن القديم

وأما الحيوانات الوحشية للمملكة فهى السبع والدب والحمار الوحشى والتيتل والغزال والوعل أو التيس الجبلى والخنزير البرى والضب وابن آوى والذئب والثعلب والارنب والقنفذ وكاب البحر واليربوع والنمس والمرموت وأما الحيوانات الاهلية فهى عين حيوانات ميديا ولا لزوم هنا لذكرها

ومعادن فارس الاصلية عديدة وثمينة وهى محصورة فى الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص الاحمر والرهج الاصفر والقار والملح والنفط والكبريت والرصاص المعتاد ويكثر فى أرضها الكبريت والملح بوفرة ويوجد فيها أبنية ظريفة مبنية من الاحجار

والفرس جنس ايرانى متولد من الفرع الذى تولد منه جيرانهم الميديون وفى الحقيقة فان الامتين ملة واحدة وللفرس حركة خفيفة سريعة وادراك حاد ونظر زائد أكثر من غالب الامم الشرقية وهم أهل شجاعة وبأس مستحوذون على كثير من خصال الفضائل وكانوا مشهورين فى الازمان القديمة بقولهم الحق ومراعاتهم له وكانوا يلقبون بالامة ذات العقل الحاد وحازوا الجراءة والجسارة والصدام والضرب والطعن حتى صاروا أمة لا تطاق فى أثناء الوقائع وما كان لامة من طاقة على الثبات أمامهم حتى قابلوا الجريق واكتسبوا منهم علو درجة الطقم الحربى والدخول فى نظام العساكر الهلنيقية وقال هيرودوط ان معلمى شبان الفرس كان يطلب منهم تعليم الشبان ثلاثة أشياء أصلية وهى طريقة ركوب الخيل وضرب النشاب وقول الحق وكان الفرس مشهورين فى جميع العصور بالنشاط وعنفوان الجنسية وبهاتين الصفتين صاروا فوق الامم البطيئة الحركة من الممالك المجاورة لهم وكانوا أمة حربية ومن جملة

صفاتهم الغريبة خضوعهم لمليكهم الذى يقودهم الى الخضوع الاستبدادى حسب رغبته و يقتحمون المهالك والمخاوف من أجل خاطره وتولد من هذا الخضوع الزائد الحاصل من جهة هذه الامة تحجير طرق المظالم الشديدة لسير الملك والملوك وفى آخر الامر انعصر حب احترام الامة وفسدت جميعها وكانت الجيوش الفارسية مركبة من مشاة وخيالة وكانت العربات الحربية غير مرعية عندهم وقليلة الاستعمال وكان القوس والمزراق آلتهم الحربية الاصلية وكانت القوس بسعات مختلفة تستعملها عساكر الفرس بأعظم تأثير وكان المشاة يحملون التروس والطوارق والخيالة من غيرها وما كان الفرس مثل المديين فانهم كانوا يعطون الراحة وقت سؤالها ويعاملون أسراءهم فى الحرب بالشفقة والرحمة محبين للرفاهية والظهور والتعالى وكان الديوان الفارسى فى مدة يناعة المملكة أحد الدواوين الجليلة المعروفة عند التاريخ

وأما ديانة الفرس فان أصل عقائدهم كانت محصورة فى عقيدة وجود اله واحد قوى طيب جواد رحيم عدل نوابه الكواكب مغدق بالمحبة على النوع البشرى رحيم وعطوف على المخلوقات البهيمية وكانت عقائدهم عين العقائد المديية أى أنهم يعتقدون فى الثنى المحصور فى عبادة أهور ومزدان (الملك الاكبر) والاعتراف بعقيدة الشر المحصورة فى أنجر وسينوس أو اهريمان والاعتقادات فالمزرداشت فان هذا وقت ظهوره نقح الدين القديم وضم اليه فرائض وسنذكرانها أنزلت عليه من عند أورمزد وصنف كتبا مقدسة كانت أصلا لشريعته الديانية أو قانونه الدينى

ومن هذه الكتب زندوست فانه يشتمل على جميع العقائد الصحيحة الحقة عند الفرس وعلى جميع ماوصف به نفسه وهذا التأليف ممل يوحى من السماء على حسب ادعاء الفرس ومركب من احدى وعشرين نسخة لم يبق منها الا واحدة وهى العشرون واندثر باقى الكتب الاخر ومابقى منها الا قطعة صغيرة وكان زندوست مؤلفا أو مكتوبا بلسان لا يشابهه لسان من جميع اللغات والالسنة الموجودة فى فارس وقت ظهور زرداشت بهذا التأليف ولو أنه كان مكتوبا بحروف ليست على مثال البهلوى الا أن تركيبه يقرب جدا من لسان السنسكريت وكانت حروفه مركبة من ثمانية وأربعين حرفا مطابقة فى أصواتها وشكلها للحروف الهندية بما فيها اثنا عشر حرفا ساكنا وأما البهلوى فهو مركب من تسعة عشر حرفا ليس فيها حروف ساكنة وكثير من ألفاظه سنسكريتية صرفا ومن المحتمل أن جميع ألفاظه كانت مأخوذة من اللسان السنسكريتى المشهور فى الاقطار الهندية وهو اللسان الاصلى هو واللسان البالى عند البودهيم

و يتضح من ذلك أن زرداشت تمم شغل تصنيف زندواست تحت نفوذ وسلطة حاكم هندى وحقيقة فان الخرافات التى تساعد بها على أفكاره فى تصنيف هذا الكتاب جميعها مأخوذة من المملكة الهندية كما انه اختار عدة عقائد أخرى من ممالك مجاورة لها

وتزعم الفرس أن زندواست يشتمل على القواعد الاساسية لجميع الفنون والعلوم ولو أنها مكنونة تحت اشارات وأسرار ومن ضمن الكتب المقدسة كتاب الدابستان وكتاب الدساتير فأما الدابستان فانه يشتمل على تاريخ اثنتى عشرة خرافة ابتداؤها هوشنج الذى كان نبيا فى ايجاد عبادة النار وأما كتاب الدساتير فيشتمل على رسائل تختص بديانة مهاباد مخترعة من خمسة عشر نبيا وكان آخر هؤلاء الانبياء ساسان ظهر فى مدة كيخسرو وأبرويز وكانت عقائد زرداشت معروفة عند قدماء الفرس لاهوتية كانت

أو فلسفية الا انه حصل اختلاف كبير فى مسئلة تاريخ ظهوره فقال البعض انه كان يوجد زيادة عن واحد من اسمه زرداشت تقلدوا زمام التشريع على التعاقب وقالوا ان زرداشت الاول كان من مدينة الرها من أعمال ميديا وأسس ديانته فى بلخ تحت سلطنة كيكاوش الاول وبنى هيكلا كبيرا للنار فى بلخ وسماه ازركشتاشب ثم قتل فى غارة حصلت من الصيطيان هو وجميع من كان معه من القسس وكانت هذه الحادثة فى سنة ٦٣٠ قبل الميلاد وأما زرداشت الثانى فيحتمل انه كان فى مدة سلطنة دارا والظاهر أنه كان تلميذا للنبى دانيال أو لنبى آخر من أنبياء اليهود وكان المنظور فيه أن يكون من جملة الاربعة والعشرين رسولا الذين رآهم حزقيال فى رؤيا منامية ولما صار له ملكة عظيمة فى عقله سولت له نفسه التوجه تحت مراعاة كيرش الاكبر واحساناته فجعله رئيس قسس المجوس وبحذاقته وتدبيره أعاد الديانة القديمة للمملكة وصنف عدة كتب سماها براهيم زرداشت

وقال البعض انه كان لايوجد الا زرداشت واحد فقط وكان من أهل اصطخر وكان ظهوره فى القرن السادس قبل الميلاد فى مدة سلطنة دارا كستاشب وانه ولد فى سنة ٥٨٩ قبل الميلاد وان أورمزد كلمه وتمم قانون ديانته بين السنة الثلاثين والسنة الاربعين من حياته ومن بعده عاش ثلاثين سنة ثم قتله الصيطيان فى سنة ٥١٢ قبل الميلاد كما ذكره مؤرخو الفرس

وكانت الديانة الفارسية القديمة منقسمة الى مدتين الاولى تبتدئ من زمن جشيد وذلك ان حم المشرع اللبيب قدم قانون الشرع الى الملك الشاب جشيد فارتاع هذا الملك من فعل الاجراآت الشديدة والشعائر المطلوبة فانذر من طرف أورمزد على أنه يأخذ منه القواعد والاصول الآدابية ويجريها فى حكومة مملكته على شرط انه فى مدة سلطنته ينقرض الذل والمسكنة والقتل من الدنيا فجرى الوعد بما حصل واستمر القانون جاريا على قدم غير كامل حتى ظهر زرداشت الحقيقى وكان البعض من أهل المملكة عاكفا على عبادة النار وآخرون على عبادة الكواكب والاصنام والشياطين

وكان احياء الشرع الاصلى الخالص واتمام عقائده والالزام على التمسك بها هى المقاصد الاصلية التى من أجلها بعث هذا الحكيم فجمع العقائد ورتبها وكذا المذاهب المشتملة على القسم الاساسى من الدين وأضاف بعض سنن وفرائض حسب ما أنزلت عليه من عند أورمزد وحرض على قانون الوصايا مثل قانون الديانة

وذكر زرداشت فى تأليفه زندواست أن أول العقائد الكبرى هى عقيدة زروان ومعناها الزمن وان الزمن ليس له ابتداء ولا انتهاء وأن المكون الذى لايدرك وجوده صنع قوتين كبيرتين مؤثرتين فى المسكونة هما أورمزد أصل كل الخير والجرومينوس أو اهريمان أصل كل الشر وشرع زرداشت فى تقويته ونشر الدين المجوسى حتى خيم بظلاله على الدين القديم الميدى حتى صار هو دين الملك والامة الفارسية والصحيح المعول عليه أن الديانة الفارسية فى تلك المدة كانت مجمعة من العقائد المجوسية وعقائد زرداشت وقد ذكرنا مفصلاتها فى تاريخ ميديا

وفى المدة التى شيد فيها كيرش المملكة كانت العقائد الدينية هى عقائد زرداشت ورأى هذا الملك أنه يوجد ارتباط قوى بين أسراء اليهود فى بابل وبين قومه ورآهم يعبدون الها واحدا هو فى الحقيقة أورمزد عينه الهه فقبل الامر الالهى الذى أنبأ به اليسع وشرع فى كونهم يعيدون بناء معبدهم لانهم

أمة مثل قومه غير مسموح لهم بوضع تمثال أشبه بالاله مفسدومخس لعباداتهم الطاهرة وكذا قوى دارا على اتمام شغل بناء معبد اليهود وبعد أن كان صار توقيفه بواسطة ثورات أعقبت موت لهراسب (قبيز) ومن ثم وضع أساس المعبد على محبة صافية خصوصية بين الملتين وتولد من هذه المحبة الصادقة دوام صداقة اليهود لفارس مدة طويلة حتى رفضوا الخضوع والطاعة لفاتح عصوص ولم يتركوا مواليهم الذين أظهروا لهم المحبة والشفقة والميل

ثم ان الاقليم الذى ذكرنا انه فارس الاصلية صار التغلب عليه فى نحو منتصف القرن السابع قبل التاريخ المسيحى بواسطة أمة باسلة أهل بأس وشجاعة حربية وصلت اليه من مرتفعات أراضى الكورة الواقعة فى شرق بحر الخزر وهؤلاء هم أصل الامة الفارسية

وكانت هذه الامة مقسومة من أصل وجودها الى عشر قبائل أربعة منها رحالة نزالة وثلاثة مزارعون وثلاثة معدون لحمل السلاح للمحافظة على الامة وكان ينحصر فى القبائل الحربية شرف المملكة وأشهرها كانت قبيلة اسمها بذركادى فانحصرت فيها جميع الوظائف العالية ملكية أوعسكرية والعائلة التى تسلطنت المسماة بالعائلة الاشكانيانية كانت تنسب الى هذه القبيلة واشتقوا اسمهم من أشك أول رئيس قام فى مدة سلطنته فى هذه الجهة واعتبر أنه هو المؤسس للملكة الفارسية

وفى المدة القديمة طلبت مملكة ميديا المجاورة لفارس سلطة النفوذ على فارس فكان ملوك فارس لهدجاوس كيخسرو وأوكيرش الاكبر حافظين وماسكين حكوماتهم تحت ظل ملوك ميديا وهم لهم أشبه بالتزمين وكان لهزاسب (قبيز) أب كيرش ملك فارس الا أنه كان عبدا لسياوخش صاحب ميديا وكان يدفع له خراجا سنويا والتزم أيضا على أن يرسل ابنه وولى عهده كيرش ليقيم فى الديوان الميدى رهينة دالة على خضوعه للملك ميديا فأقام ابن الملك فى الديوان الميدى فى صورة أسير محترم معامل بالوقار والاحترام اللائق بمقامه الملوكى مع الشفقة الزائدة من طرف الملك الا أنه ما كان يسمح له بالخروج من الديوان من دون رخصة أواجازة من مليكه

ثم ان كيرش لاحظ فى مدة اقامته فى الديوان الميدى ان شوكة الميديين وعنفوانهم صار على شرف الدمار والخراب من كثرة ماهم فيه من الرفاهية واللذات الدنيوية ورآهم أنهم أقل تطبعا وأقل عقلا وتصورا من رجال أهل بلاده ذوى الشجاعة والبأس الشديد فشدد قلبه بهذه المعلومات وأضمر فى نفسه أن يجرى رأيه الجسورى من قذفه النافس الميدى من على قفاه ويشيد استقلالية بلاده وزاده غضبا على غضبه مارآه من التعدى والجور الشديد من المجوس على الديانة الطاهرة التى هى ديانة آبائه وأجداده فازدادت جسارة قلبه وحصل عنده هيجان وثورات ورأى أنه لابد من أن يضع تصميمه فى موضع العمل فى مدة سلطنة هذا الخنث سياوخش فمن ثم طلب رخصة ملك الميديين فى عوده الى بلاده مدة قليلة من الزمن معتذرا بأن صحة أبيه ليست جيدة ويحتاج للمحافظة عليه فخاف سياوخش من ضياع صولته على فارس وأعاد على كيرش الجواب المملق فقال له ان زيادة شوقه له ومحبته اياه مجبر على كونه يراه ولو مرة واحدة فى اليوم الواحد وانه لايمكنه فراقه وعدم النظر اليه مدة ما فأظهر كيرش انه اقتنع بهذا الجواب ورضى بعدم التوجه وانتظر سنوح فرصة موافقة له ثم من بعد مضى مدة طويلة من الزمن جدد كيرش طلب الاجازة بواسطة واحد من متقربى الملك فنجح فى هذا السعى وأخذ اجازة بغياب مدة خمسة شهور وترك فى الحال همدان العاصمة الميدية واستلم طريق فارس مع قليل من

خواصه وخدمه

وفى مساء اليوم التالى بينما كان سياوخش مبتهجا بالسرور واللحظ فى حريمه اذ قام فى وجهه الغضب من ثوران فعل حصل من سجعات مغان غنتها احدى البنات اللاتى كن يرقصن أمامه فطلب فى الحال واحدا من ضباط عساكر الخيالة للحضور عنده وأمره بان يأخذ معه فرقة من الخيالة ويتبع أثر البرنس الفارسى ويأتى به ميتا أو حيا فسار الميدى فى الحال فى مأموريته حتى لحق كيرش فى الطريق فبلغه أمر الملك فأجاب باطاعته لامر الملك فى كل ما يطلبه ويرغبه الا أنه قال حيث ان الوقت فات فيلزمنا أن نحط رحالنا فى الليل هنا ونعود الى الملك فى صباح باكر فرضى الميديون بذلك وعمل لهم كيرش وليمة سقاهم فيها الشراب حتى أسكرهم وصاروا على الارض مطروحين وركب حصانه وأخذ خدمه وحواشيه وسار مسرعا حتى وصل حدود مملكة أبيه وكان بينه وبين أبيه من الاصل اتفاق على تصميمانه الخفية فوجد قوة عظيمة من خيالة الفرس فى انتظاره ولما أفاق الميديون من سكرهم ركبوا خيولهم وأسرعوا فى سيرهم وراء كيرش حتى لحقوه فى رأس خيالته على حدود مملكته فهجموا عليه فهزمهم بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة وسار كيرش أو كيخسرو مسرعا الى ديوان أبيه

وبهذا أقامت فارس رايات العصيان فجمع سياوخش جيشا كثيفا وساقه لخضوع عبده العاصى الى طاعته فاشتعل حرب دموى انهزم الفرس فيه فى أول وقعة وقتل ملكهم لهراسب وصار كيرش ملك فارس من بعد أبيه ثم انتصر سياوخش نصرة ثانية كبيرة بالقرب من مدينة بذركادى عاصمة فارس وفى الواقعة الثالثة أوقع كيرش على سياوخش هزيمة فارصة وفى الواقعة الخامسة وكانت حصلت فى ضواحى بذركادى تشتت الجيش الميدى بأكمله وتعالت العساكر الفارسية بنصرتها ورحبوا بكيرش وأهلوا به وحاربوا معه ونادوا باسمه ملك ميديا وفارس وأعقب كيرش نصرته هذه بكونه سار خلف الميديين مع الشدة حتى كسر جيشهم وأسر سياوخش ملكهم وبواسطة هذه النصرة صار كيرش ملك ميديا ودخلت تحت حكمه فى سنة ٥٥٨ قبل الميلاد ومن ثم وضعت أساسات المملكة الميدية الفارسية وأعقب تغلبه على ميديا تغلبه على ليديا وألحقت بالممالك الفارسية فى سنة ٥٥٤ قبل الميلاد وكذا أخضع هرباجوس نائب كيرش المدائن الجريقية فى آسيا الصغرى للخضوع والطاعة لمملكة فارس فى سنة ٥٥٣ قبل الميلاد

ثم دخل كيرش فى تغلبات وفتوحات عريضة فى أقاصى الشرق وفى ظرف ثلاث عشرة سنة بين سنة ٥٥٣ وسنة ٥٤٠ قبل الميلاد أخضع هرقانية وفارطيه وبقطرياوساسيا وخوارزم والصغد وأريا ودرنقيانة وأرقوسيا وسطفيادية وغندارية وهو الاقليم الشاسع الواقع بين بحور سيحون والخزر وبحر خوارزم وكان نهر السند هو الحد الشرقى لمملكته

ولما تمم كيرش هذا المشروع الكبير وجه جيشه بعد ذلك على بابل فتغلب على هذه المدينة كما ذكر سابقا وأضاف مملكة بابل الى ممالكه ومابقى أمامه الا دولة مصر القوية فانها هى التى ماوقعت فى مخاليب ملك فارس فعزم على التغلب على هذه المملكة الا أنه لم يضع عزمه هذا موضع العمل والفعل وكان السبب فى ذلك مجهولا وبمجرد ماتغلب كيرش على بابل جعلها العاصمة الثانية لمملكته وصارت همدان العاصمة الاصلية للمملكة وأما بذركادى العاصمة القديمة الفارسية فانها جعلت مدينة مقدسة وعدت لتتويج الملوك ودفنهم فيها من بعد موتهم واختار الفرس التمدن الميدى وصنائعهم وعماراتهم

وملبوساتهم

وملبوساتهم وعوائدهم وكذا عوائد الرفاهية ولم يلتفت كيرش الا قليلا فى نحو تقرير مملكته أو تشييد طريقة حكومة لها وترك هذه الاشغال لخلفائه الذين يأتون من بعده

وكانت ديانة المملكة فى مدة هذه السلطنة محصورة فى عقائد مذهب زرداشت الا أن جميع مذاهب العقائد الاخر كانت مباحة العمل وكان كيرش موحدا لله منجذب الطبع الى أسراء اليهود الموجودين فى بابل لان ديانتهم كانت مطابقة بالكلية لديانته فنظر اليهم بعين الرضا والاحترام وأعادهم الى مملكتهم وفيها عاملهم نوابه بنفس الشفقة التى كان يعاملهم بها كيرش

وانقفلت سلطنته بحوادث مجهولة ووقائع غير معلومة فالروايات المأخوذة عن هردوط هى ان آخر حرب أجراه كان مع المساغيطى وهم قوم كانوا مستوطنين فى شمال مملكته الى شرق بحر أرال أو خوارزم وأخضع فى هذا الحرب هذه الامم المتبربرة وأذهلهم بحروب مزعجة حتى صاروا لا يتجاسرون على الهجوم على المملكة الفارسية مدة حياته وذبح فى واقعة مع هذه الامم وأرسلت جثته الى فارس ودفن فى بذر كادى

وقد ذكر من وجه آخر فى أصل تشييد المملكة الفارسية من ابتدائها الى موت كيرش أو كيخسرو ان أحد الامراء أو البرنسات من أصل بيت ساسان يدعى نسبه الى بهرام جوبين أحد الملوك الساسانية أول من رغب فى جمع تاريخ مملكة فارس من بواقى النسخ وفضلات الكتب التى بقيت من دمار أيدى المسلمين الذين تغلبوا على فارس فى صدر الاسلام وعهد هذا الشغل الى بدعالم اسمه الدقيقى وأمره بنظم تاريخ ملوك فارس من ابتداء كيومرث الى يزدجرد فى أبيات شعر بهفات الدقيقى مقتولا بواسطة أحد عبيده بعد أن كتب نحو ألف بيت من الشعر ومن بعد مضى قرن من موت الدقيقى عهد محمود الغزنوى هذا الشغل الى الشاعر المشهور الفردوسى فتبع هذا الشاعر الطريق التى كان جاريا عليها سلفه وصنف الكتاب المسمى بالشاهنامه ومعناه تاريخ الملوك ومن بعده صار تصنيف كتب أخرى مثل روضة الصفا والخلاصة الكبرى وزينة الطريق بواسطة كتاب الفرس ومؤرخيهم الا أنها مشحونة بالخرافات والخزعبلات وقال هيردوط ان أول سلطنة مستقلة أقيمت فى فارس الاخيرة كانت سنة ٧٤٧ قبل الميلاد وان أول من أقامها هو ديجوسيس أو كيقباد بن كينية أو فرعورطيس وكان انتهز الفرصة بالنسبة لعدم وجود نظامات الاحكام الموجودة فى أقاليم فارس وتساعد بشهرة صيته وأقام نفسه فى وظيفة ملك البلاد

والمذكور فى الدابستان أن الزمن من الازل مقسوم الى أدوار متتالية فى كل دور منها طوائف مخلوقات مختلفة تنتهى هذه المخلوقات مع غلاق الدور الواحد ولا يفضل من أهله الا رجل أو ذكر وأنثى يكونان والدين لجنس يأتى بعد وفى نهاية الدور الاكبر الذى كان قبل الدور الذى ظهر فيه كيومرث نجا منه شخص اسمه مهاباد ليكون جدا لدنيا جديدة فكان هذا أول مشرع وملك وقسيس وكان يعرف الصنائع الاصلية للحياة الدنيوية ثم خلفه ثلاثة عشر من ذريته ساروا على منواله ونشروا العدل والامن والراحة بين النوع البشرى وكان آخر هؤلاء الملوك البطارقة ازراباد وهذا ما خلع نفسه من الدنيا واعتزل الى معيشة زهد ونسك ارتبكت الدنيا وصارت فى حكومة فوضوية وكثرت فيها القلاقل وازداد الذل والمسكنة والقتل والسلب ثم خلصت الدنيا من هذه من بعد مدة طويلة بواسطة آجى فران وهو شخص مقدس نصحه الملك جبرائيل على أن يتقلد زمام حكومة ويعيد العدل والسعادة فى الدنيا

ومن ثم تأسست عائلة جديدة ثم دورها وكان آخر ملوكها جى اباد ومن بعده حصل فى الدنيا الاهانة والارتباك وبالمثل حصل الخير والشر على يد عائلتين تسلطنا على التعاقب وراء بعضهما ولما ازدادت الجرائم والآثام أرسل الاله أنواع العذاب والعقاب على أهل الدورة فتلاوا ولم يبق الا منهم قليل هربوا فى الغابات والكهوف وتركوا الارض خالية قفرا حتى جاء أمر الاله وخلق كيومرث أو جل شاه يعنى ملك الارض فكان هو أول الجنس البشرى الحالى لاجل خلاصهم مما وقعوا فيه من الآثام

وذكر العلماء من المسلمين ان كيومرث كان أول ملك فى فارس وينسبون سلسلة أصله الى نوح عليه السلام حسب ما هو مذكور فى زينة الطريق وكان هو أصل الجنس الملوكى الملقب بالملوك البيشدادية يعنى موزعى العدل القديم وكانوا يسندون أعماله الى المعجزات والكرامات وخوارق العادات وكان أعداؤه السحرة والشياطين ومجالفوه أسد الغابة ونحورها ومن بعد أن لبث فى سلطنة باهرة مفتخرة اعتزل الى بلخ عاصمته ومات فيها أو تنازل عن السلطنة لابنه هوشنج بعد أن تسلطن مدة كبيرة مقدارها ثلاثون سنة وكان هوشنج وهو الثانى من البيشدادية ملكا فاضلا اخترع كثيرا من الصنائع النافعة من ضمنها استخراجه النار من حجر الصوان وأنشأ المجارى لاجل رى الاراضى واستمر على التخت أربعين سنة وخلفه وارثه طهمورث ولقب بالشيطان من كثرة نجاحه فى مضارباته مع السحرة والكهان وتقلد زمام المملكة ثلاثين سنة وخلفه جمشيد الملك الرابع من العائلة وكان أحد المشهورين من شجعان الخرافات الفارسية وكان صاحب شوكة وثروة واخترع عدة اختراعات نافعة منها صنعة تشغيل العرقى والنبيذ وأصلح بلاده ورفع منار أهلها ومن بعد مدة طويلة من التوفيق والنجاح دخلت فيه الغلطة والفظاظة والجبروت فعوقب بان أغار عليه الضحاك ملك سوريا وطرده من ممالكه وأخيرا قتله شر قتلة وقال بعض المؤرخين ان أصل هذا الفاتح هو ملك سوريا وقال آخرون انه رجل عربى من ولد شداد وقال اخرون انه هو النمروذ بن كوش واتفقوا جميعهم على انه كان رجلا ظالما سفاكا للدماء وتولد من كثرة ظلمه وسفكه الدماء أن قام كابى الحداد وخلص بلاده وأهلها من هذا الرجل السفاح وذلك أنه لاجل خلاص أولاده من أن يكونوا أضحية لهذا العنيف الجبار أسرع فى حمل السلاح وجعل على رأس عكازه مخلاة وجعلها بيرقا جمع تحته شجعان أهل بلاده وخلع الغاصب وقتله وأجلس مكانه فريدون من ولد طهمورث على تخت المملكة فزخرف فريدون الملك عكاز الحداد باللآلى والجواهر تبركا بما حصل من النصر والظفر وجعله علما ملوكيا استمر باقيا فى مملكة فارس دهرا طويلا تحت اسم درفش كابيان ولما تغلب المسلمون على فارس أول مرة أخذوه من الفرس وأرسلوه الى الخليفة عمر بن الخطاب

وأطنب مؤرخوا الفرس فى المدح والثناء على عدل فريدون ونباهته ومجده حتى ان فضائله وكرمه جعلا له صفة يتسمى بها وهى الفروخ ومعناه السعيد وذكر الفردوسى فى الشاهنامه ان أول سلطنته التى امتدت نحو ٥٠٠ سنة تكاثف السحب عليها بمشاحنات ومحاربات حصلت فى عائلته وفيها قتل ابنه ايرج بواسطة اخوته فقام منوچهر وعاقب المجرمين أشد العقاب وكان هو وارث ايرج فخلفه على تخت جده وكانت سلطنة هذا الملك الفاضل مشهورة بظهور رستم الشجاع المشهور ووصف الفردوسى فى الشاهنامه مولد هذا الشجاع الغريب وتهذيبه وما فعله فى مدة حياته الطويلة وصفا

خارقاللعادة وخلف منوچهر ابنه نوذر وكان ملكاضعيفاعاجزالرأى والتدبير ومن بعد أن تمتع بالحكومة العالية سبع سنوات خلعه افراسياب ملك التتار وتغلب على فارس مدة اثنى عشرة سنة وطرد زال أبورستم هذا الغاصب من المملكة وأجلس بدله زو البرزين الوارث على تخت المملكة وخلف الملك زو ابنه كرشاسب ولما وجد زال أن لاطاقة لزو على الحكومة خلعه وبه انقرضت العائلة البشيدادينية وحكمت هذه العائلة المملكة نحوا من ٢٤٥٠ سنة حسب ماذكره مؤرخو الفرس

ومن العائلة الكيانيانية المتفق عليها قدماء المؤرخين ومتأخروهم أنها هى العائلة الميدية يبتدئ أول التاريخ المطابق مع التسجيلات الحقيقية السنوية الغربية وان كيقباد الذى ذكره الفردوسى فى الشاهنامه هو نفس ديجوسيس الذى ذكره هردوط وغيره من مؤرخى قدماء الجريق كان فى سنة ٧١٠ قبل الميلاد ولما رأى ما كانت عليه فارس من فوضوية الحكم والضرر العائد منه على أهلها صار انتخابه ملكا بواسطة جمعية من أشراف المملكة وكانت مدة سلطنته على قول هيردوط ٥٣ سنة وعلى قول الفردوسى ١٢٠ سنة وابتنى سراية منتخرة وأسس مدينة همدان وأول من تقلد درجة فخروأبهة خارقة للعادة من طرف قومه وقد تقدم ذكر كيقباد وخلفائه فى تاريخ ميديا والله الموفق للصواب

﴿ الباب الثانى ﴾

﴿ من موت كيرش أو كيخسرو الاكبر الى سقوط المملكة ﴾

جلوس لهراسب (قبيز) ـ صفته ـ تغلبه على مصر ـ معاملته تلك المملكة بالعنف والقساوة ـ عدم نجاحه وخيباته ـ سمرديس الكذاب ـ موت لهراسب ـ صيرورة دارا الاول أو دارا كشتاسب ملك فارس ـ اعادته النظام فى المملكة ـ طريقته الحكمية ـ تغلبه على قسم من الهند ـ الحملة على الصيطيانيين ـ مبادى الحرب مع الجريس ـ خيبة حملة مردونيوس ـ هزيمة الفرس فى نواحى مرثون ـ أردشير الاول ملك فارس ـ حملته فى الجريس ـ وقائع طرفو بيلى وسلميس ـ خيبة الحملة وعدم نجاحها ـ عود أردشير الى فارس ـ اعتكافه على اللذات والرفاهية ـ هزيمة مردونيوس فى بلاطيا ـ أردشير درازدشت الاول ملك فارس ـ عصيان مصر ـ صلح فالياس ـ أردشير الثانى ـ موته ـ دارا الثانى ملك فارس ـ ضعف سلطنته ـ سرعة هبوط فارس ـ أردشير درازدشت الثانى ـ عصيان قبرص ـ واقعة كانكسه ـ تقهقر العشرة آلاف ـ حروب مع الايالات الجريقية ـ سرعة انحلال المملكة ـ تصميمات أردشير فى تغلبه على الجريس ـ الارتباكات الداخلية فى المملكة أو خوض سلطنته الشديدة ـ ذبحه ـ دارا الثالث ـ الحرب المقدونى ـ دخول اسكندر الاكبر فى آسيا ـ واقعة عصوص ـ القبض على العائلة الملوكية ـ فتح اسكندر الايالات الفارسية الموجودة على سواحل البحر الابيض المتوسط ـ واقعة أربله ـ هروب دارا وموته ـ سقوط المملكة الفارسية

ومن بعد موت كيرش الاكبر خلفه ابنه الكبير لهراسب الملقب عند الجريق باسم قبيز فى نحو سنة

٥٢٩ قبل الميلاد وترك ابنا آخر اسمه بارديوس أو كان يلقب باسم سمرديس وكان أبوه أوصى له بحكومة بعض الايالات الجليلة الكبيرة فتولد من هذه الوصية اشتعال نار الغيرة فى قلب لهراسب فأمر فى مبادى سلطنته بقتل سمرديس فى السر وورث لهراسب شهرة أبيه وحب الحرب وليست له ذكاوته وتدبيراته وعظيم اجرا آته وكانت درجة لهراسب فى التاريخ مثل واحد من كبار المدمرين الخربين للدنيا القديمة والجديدة وأرغم فنيقية وقبرص الى الخضوع له وهما الدولتان العظيمتان البحريتان فى آسيا الغربية اللتان مادخلتا تحت خراج كيرش الاكبر وفى سنة ٥٢٥ قبل الميلاد شرع فى تجهيزات حربية برا و بحرا للغارة على مصر فجهزه الفنيقيون والقبرصيون بالمراكب اللازمة وأما جيشه البرى فانه أضاف الى عساكره جماغفيرا من الجريسيين واليونانيين والعيوليانيين وكان هؤلاء هم القسم الاعظم من جيشه الا أن ماحصل من جليل الخدمة وتقديم المعروف الى لهراسب من فانيس الهاليكارناسى وكان من ضمن القواد الجريقية الموجودين فى خدمة أمزيس ملك مصر كان لا ينكر ولا يمكن لاحد غيره اصطناعه وذلك أن فانيس المذكور حصل بينه و بين امزيس نفور فعزم الملك على البطش به فهرب الى لهراسب وأخبره بالاخبار المخصوصة بحالة المملكة وصفتها وقوة عدوه وهيئة حالته وسهل له كثيرا غزونه ونجاحها وأرشده على عقد محالفة مع ملك العربان القاطنين فى الصحارى الكائنة بين فلسطين ومصر ليجلب لجيشه المياه اللازمة وقت سير العساكر من وسط الصحراء الموجودة بين المملكتين واتفقا على أن ملك العربان يرسل المياه على ظهور الجمال لانه من غيرها لا يمكن لملك فارس تمشية عساكره من هذه الطريق

ولما جهز لهراسب جميع الاستعدادات سار مغيرا على مصر فى السنة الرابعة من سلطنته فلما وصل الى حدودها أتته الاخبار بموت أمزيس ملك مصر وخلافة ابنه بصاميطقوس من بعده وأنه مشتغل بجمع جميع قواه لاجل صده عن الدخول فى مملكته ومن قبل أن يتمكن لهراسب من فتح طريق يدخل منها هذه المملكة رأى أنه من الضرورى أن يجعل نفسه ابتداء سيد مدينة بلوزه بما أنه مفتاح مصر على الجهة اللازم غزوها منها وبما أن بلوزه قلعة رصينة ولا بد أن تكون هذه القلعة سببا فى توقيف حركاته العسكرية مدة تما من الزمن شرع فى اجراء طريقة يسهل له بها أخذ المدينة والتغلب عليها وذلك أنه لما أخبر أن محافظى المدينة من المصريين رتب فى مواجهة جيشه مقدارا وافرا من القطط والكلاب والغنم وحيوانات أخر كانت مرعية عند الامة المصرية بأنها مقدسة ثم هجم عنوة على المدينة ولما لم تتجاسر العساكر المصرية على الضرب بالمقاليع أو السهام على جيش لهراسب خشية من حصول ضرر لآلهتهم استلم لهراسب المدينة من دون طعن ولا ضرب

ولما تغلب لهراسب على مدينة بلوزه تقدم بصاميطقوس بجيش جرار كثيف لاجل توقيف حركة سيره وحصل بين الملكين واقعة مهولة الا أنه قبل اشتعال نار الحرب فعل الجريقيون الذين فى جيش بصاميطقوس فعلة فظيعة شنيعة قصدوا بها الانتقام من فانيس الهاليكارناسى لتطيره عصيانه وهربه فأخذوا أولاده الذين اجبر على تركهم فى مصر وقت هربه وأحضروهم أمام الجيشين وقطعوا أزوارهم وشربوا دماءهم ومع ذلك فان هذه الفعلة الفظيعة لم يحصل منها النصر لهم ولم تساعدهم على عدوهم فلما رأى الفرس هذا المنظر الفظيع احتدفيهم الغضب وتمكن منهم الحنق وسقطوا عليهم فشتتوا الجيش المصرى وقتلوا معظم عساكره فى ميدان الواقعة والذين أمكنهم الفرار التجؤا الى

مدينة منف

وقد ذكر هردوط وكان نفسه من الشاهدين لهذه الواقعة أن عظام الفرس والمصريين لبثت مددا طويلة مرمية فى ميدان الحرب الذى حصلت فيه هذه الواقعة وكان يعرف الفارسى من المصرى بواسطة جماجم الرؤس وهو أن جماجم المصريين كانت صلبة جدا لا يمكن كسرها الا بقوة كبيرة بواسطة الاحجار وأما جماجم الفرس فكانت طرية هشة يمكن كسرها بسهولة والسبب فى هذا الاختلاف أن المصريين من وقت صغرهم متعودون على حلق رؤسهم ومشيهم مكشوفى الرؤس وأما الفرس فكانوا على الدوام بشعورهم ورؤسهم مستورة بالعمائم والتيجان وكان ذلك من الزينة الاصلية لهم

ولما ساق لهراسب عساكره الى نحو منف أرسل رسولا الى أهل المدينة فى مركب من طريق النيل يدعوهم الى التسليم فلما وصل اليهم انقلبت أحوالهم وداخلهم الغضب وسقطوا على الرسول وقطعوه اربا هو وجميع من كان معه ولما تغلب لهراسب على المدينة أمر بأخذ الثار والانتقام من الذين قتلوا رسوله ومن معه وأن يأخذ فى ثارهم عشرة أمثالهم من المصريين وأرباب المناصب فأخذوهم وقتلوهم أمام العموم وكان من ضمن الذين قتلوا الابن الاكبر لبصاميطقوس وأما الملك نفسه فان لهراسب ملك فارس أحسن معاملته ولم يعف عن حياته فقط بل أعد له ما بقى باكرامه واعزازه غير أن الملك ما اكتفى بهذا المعروف الزهيد واجتهد فى قيام ثورات وارتباكات يقصد بها عود مملكته فشرب كأس الحمام من بعد أن تسلطن ستة أشهر تمام وبعد ذلك صارت مصر جميعها خاضعة للملك الفاتح

وتولد من هذه النصرة أن كلا من الليبيين والصرنيقيين (نواحى تونس الغرب) وأهل برقة أرسلوا رسلهم بهدايا الى لهراسب يقدمون خضوعهم اليه ثم سار لهراسب من منف الى مدينة صان وهى محل مدفن الملوك المصرية وبمجرد دخوله فى سراية المدينة أمر باخراج جثة امزيس من القبر وضربه ألف سوط بحضوره ثم أمر برمى الجثة فى النار وحرقها وكانت هذه الحالة من العادات المغايرة الغير المرضية عند الفرس وعند المصريين ومن هذا ظهر أن لهراسب كان يكره امزيس ويبغضه وفى السنة التالية أى فى السنة السادسة من سلطنته تفاخر كثيرا بظفره ونصره ودخل فى مشروع فتوحات واسعة ما صار له طاقة على اجرائها وذلك أنه عزم على أن يجرى الحرب على ثلاث جهات مختلفة وهى القرطاجيون والامونانيون والاتيوبيون فأما الاول من هذه التدبيرات فانه انجبر على صرف النظر عنه لأن الفنيقيين الذين من دون مساعدتهم لا يمكنه اجراء هذا الحرب رفضوا تعضيده على القرطاجيين بما أنهم ذرية منهم وان أصل قرطاجة مستعمرة صورية

ولما عزم على غزو الامتين الآخرتين أرسل رسلا الى اتيوبية بصفة جواسيس من عنده يعلموه بحالة البلاد وقوتها ويرسلون له الاخبار عن الحالتين وأخذوا معهم هدايا من الاشياء الجارية عند الفرس مثل الارجوانى والاساور والخواتم الذهب والروائح العطرية والنبيذ وكان النبيذ مكروها عند الاتيوبيين فلم يلتفتوا اليه ولا للرسل وما كان عندهم شئ يرد فى نظير الهدية فأخذ ملك اتيوبية فى يده قوسا لا طاقة لاحد من الفرس على حملها فضلا عن ضربها وشدها بيده بحضور الرسل وقال لهم هذه هدية الملك ونائبة عن ملك اتيوبية أعطاها الملك فارس ففى وقت ما يكون للفرس طاقة على استعمال قوس بهذه الصفة والصلابة ويمكنهم استعمالها بسهولة كما أنى شددتها فقولوا لهم يأتون للهجوم على اتيوبية على

شرط أن يحضر لهراسب وما يمكنه جمعه من العساكر ثم تركهم ومضى وهم يثنون على الآلهة اذلم يجعلوا في قلوب الاتيوبيين رغبة في مدمهالكهم خاف ممالكهم

ولما عاد الرسل وأخبروا لهراسب اشتد في وجهه الغضب وأمر في الحال جيشه بالرحيل من دون أن يلاحظ هل كان عنده ذخائر كافية ومؤن لهذه الغزوة أم لا وترك عسكر المحافظين في مملكته التي تغلب عليها جديدا لاجل حفظها من حصول ثورة تحصل فيها أو أن تكون خاضعة لسلطته مدة غيبته وبمجرد وصوله الى طيوه من صعيد مصر فصل فرقة مقدارها ٥٠٠٠٠ نفس وأرسلها لغزو الامونيانيين وأمر العساكر والقواد بخراب المملكة ونهب معبد جوبيترأمون الموجود فيها فمن بعد أن سافرت هذه الفرقة عدة أيام في الصحرا هبت عليها رياح عاصفة من جهة الجنوب مشحونة بالرمال المتطايرة وسفت الرمال على الجيش حتى غرق جميع العساكر فيها واندفنت تحتها وكان هذا عاقبة أمرهم

وفي هذا الوقت سار لهراسب مثل المجنون على الاتيوبيين من دون أن يكون مستعدا العساكره بالمؤن والذخائر فلم يمض الا القليل حتى وقع القحط الشديد في جيشه وقال هردوط انه كان عنده الوقت الطيب في مداواته هذا الضرر الا أنه تفكر في نفسه أن حيادته عن مشروع شرع فيه ليس من الشرف وعلو الهمة ولا يصح من مثله تركه فاستمر سائرا في غزوته وجملته فالتجأ جيشه من أول الامر على أكل الجذور والحشائش والنباتات وأوراق الاشجار لكنهم لما وصلوا الى الارض العقيمة القحلة أحوجتهم الضرورة الى أكلهم حيوانات الاحمال ثم من فراغها وصلوا الان يأكل بعضهم بعضا فكانوا العشرة يأخذون واحدا منهم بالقرعة ويسوونه طعاما ومع كل هذه الفظائع والاحوال الشنيعة مازال الملك مصرا على تنفيذ أغراضه الا أنه أخيرا ابتدأ الخوف فيه وخشي على نفسه وأمر بعود ما بقي من عساكره بعد أن هلك معظمهم في هذه الغزوة وعاد الى طيوه غضبان على آلهتها فنهب هياكلها وكسر صورها وتماثيل آلهتها وأخذ من معابدها أموالا لا تحصى وسار منها متوجها الى منف وكان أخلى سبيل الجريق وأرسلهم الى بلادهم مكرمين وعند دخوله في مدينة منف وجدها ملآنة بالافراح والمسرات فأخذه الغضب والحنق الشديد وظن أن فعلهم هذا سرورا بما حصل له من عدم الظفر والنجاح في غزوته فطلب حكام المدينة أمامه ليعرف ما معنى وجود هذه الاعياد والافراح فقالوا له ان ذلك بسبب أنهم وجدوا الههم أبيس فلم يصدقهم لهراسب وأمر بقتلهم على الفور بصفة أنهم كاذبون وأرسل الى القسس وسألهم عن السبب الداعي لعمل هذه الاعياد والافراح فأجابوه بمثل جواب من قبلهم فقال لهم من حيث ان الههم رؤف على قدر هذه الحالة حتى انه يظهر لهم فيلزمني أن أتعرف معه وأمر في الحال باحضاره عنده الا أنه بدل أن ينظر الها رأى عجلا فاستغرب لهراسب غاية الاستغراب وأخذه الغضب وسحب خنجره وضرب به فخذ الحيوان ورماه وأمر بضرب القسس بالسياط ضربا شديدا وأمر بأن جميع المصريين في منف يلزم أن يعملوا عيدا وموكبا عظيما من أجل قتل الههم أبيس فأخذ المصريون العجل وتوجهوا به المعبد الاكبر ثم مات بعدو صرف عيد أبيس في سفك الدماء ونبش المقابر واستخرج منها المومييات ودخل المعبد الاكبر المقدس في منف ولعن جهارا تمثال فطه وأمر بتدمير وتكسير جميع تماثيل الآلهة وعم هذا الدمار والخراب كل جهة من الجهات المصرية واستمر الخراب الذي تركه لهراسب من بعده عدة قرون ولما أوقع لهراسب الرعب والهول في قلوب المصريين ورأى أن ما أجراه

فى المملكة كاف لخلوص أهاليه سافر عائدا الى عاصمته لانه غاب عنها مدة طويلة ولما وصل الى سوريا قابلته الاخبار بان سمرديس اغتصب تخته وكان سمرديس هذا هو الكذاب ولقب بسمرديس الكذاب ولما قطع لهراسب اليأس من انتصاره وتغلبه على المعتدى عليه قتل نفسه بنفسه فى سنة ٥٢٢ قبل الميلاد بعد أن تسلطن ثمان سنوات وقيل سبع سنوات وخمسة أشهر

وتسلطن سمرديس الكذاب أقل من سبعة شهور وبمجرد جلوسه على التخت من بعد موت كى لهراسب قدم له أهل سمارية عريضة يلتمسون فيها توقيف اليهود عما هو حاصل منهم من الارتباك والهياج فى شأن بنائهم مدينتهم وهيكلهم وبواسطة هذه العريضة استحوذوا من الملك على أمر يقضى بمنع اليهود من حصول أدنى مشروع فى اعادة بناء مدينتهم وهيكلهم ومن ثم صار توقيف شغل بناء المعبد الى السنة الثانية من سلطنة دارا كشتاسب وهى مدة سنتين ثم ان سمرديس المجوسى بذل مجهوده فيما يجب من أمره حتى لا ينكشف كذبه وابتدأ فى سلطنته بكونه لا يظهر لاحد من رعيته وأن يعتزل فى سرايته وترفع اليه أشغال المملكة بواسطة طواشية من حرمه من دون أن يراه أحد الا المتقربين اليه المعتمد عليهم فى شدته وكان ضبطه تخت المملكة وجلوسه عليه بصفة أنه سمرديس بن كيرش أخو لهراسب المقتول واعتقد فيه رعيته ذلك الا انه من عدم ظهوره واعتزاله فى سرايته حصل الشك فيه فلاجل توطيد نفسه على التخت الذى اغتصبه واستحوذ عليه عزم من ابتداء جلوسه على جذب محبة قلوب رعيته اليه بكونه رفع عنهم العوائد والضرائب والخدمات العسكرية التى كانت مقررة عليهم من قبل مدة ثلاث سنوات ورتب لهم أشياء كثيرة تعود بالمنفعة عليهم حتى انه وقت موته نعاه كثير من أمم آسيا ماعدا الفرس فانه بسبب الثورة التى قامت عليه والاحترازات التى أجراها لاجل حفظ نفسه وعدم ظهوره لاهالى دولته أولا شرافها أوقع عليه الشبهة بان لم يكن هو سمرديس الحقيقى بن كيرش الاكبر وكان تزوج جميع نساء سلفه ومن ضمنهن اطوسه بنت كيرش الاكبر وفيديمة بنت أوطانيس رجل من أشراف فارس من الطبقة الاولى فأرسل أوطانيس الى بنته فيديمة رسالة وثيقة يسأل منها اهل الملك هو حقيقة سمرديس بن كيرش أو رجل خلافه فأرسلت الى أبيها تقول انها ما رأت قط سمرديس بن كيرش حتى تقول ان كان هو أولا فأرسل لها رسالة ثانية يقول لها اسألى من أطوسه العارفة بأخيها هل هو أخوها أولا فأجابته أن الملك الحالى الذى ربما يكون هو سمرديس أسكن نساءه من أول يوم جلوسه على التخت فى مساكن منعزلة عن بعضها بحيث لا يمكن واحدة منهن القرب من الاخرى أو المحادثة معها وانه لا يمكنها الوصول الى أطوسه حتى يمكنها أن تسأل هذا السؤال منها فأرسل لها رسالة ثالثة وأمرها انه عندما يأتى فى حالة النوم عندها يمكنها أن تنتهز الفرصة وقت نومه وتنظر هل له آذان أولا لان كيرش كان أمر بقطع آذان سمرديس المجوسى بسبب جريمة جناها وقال لها اذا كان الشخص الذى يرقد معك هو سمرديس المجوسى فيكون هذا من أقبح العار والفضائح فى استحواذه على تاج المملكة وعليك ولما أخذت فيديمة هذه التعليمات من أبيها انتهزت الفرصة فى اليوم الثانى واجتهدت فى فحص ما أمرت به ووجدت أن الشخص الذى يضطجع معها ليس له آذان فأرسلت خبرا الى أبيها بذلك ومن ثم انكشفت خديعته وخيانته

ثم ان أوطانيس شكل ثورة مع خمسة من رؤساء الفرس وأشرافهم ومع دارا وهو رجل فارسى مشهور الاصل شريف النسب كان أبوه هستاسب أو كشتاسب حاكم فارس واشتركوا سوية وعزموا على

قتله وتآمروا فيما بينهم وأخذوا يدبرون أشغالهم فى السر من دون أن يشعر بها أحد خلافهم السبعة وعينوا لهم يوما معلوما يتمون فيه أشغالهم خشية كشف أعمالهم

وبينما كان هؤلاء السبعة مشغولين سرا بتدبير أعمالهم اذ حصل هيجان بين المجوس ما كان يخطر لاحد منهم على بال فلاجل ازالة هذا الشك من بينهم عرضوا الى بريكزا بيس قائد خفر الملك واستحوذوا على عهد منه أن يعلن جهارا أمام الامة الذين سيجتمعون لهذا الغرض بأن الملك الموجود على التخت هو سمرديس الحقيقى بن كيرش ولما اجتمع الامة فى اليوم المعلوم كلمهم بريكزا بيس من فوق قمة برج عال بجسارة بحضور الجمهور وقال الحق أحق أن يقال أنا الذى قتلت بيدى سمرديس بن كيرش بأمر من كى لهراسب وأن الشخص المستحوذ الآن على التخت هو سمرديس المجوسى وانى أرجو من الآلهة ومن الناس غفران هذه الجريمة التى اكتسبتها رغما عن غرضى وجبرا عن نفسى ولما تم مقالته رمى نفسه من قمة البرج فسقط وانكسرت رقبته وتولد من هذه الاخبار حصول الارتباك فى السراية وفى أثناء هذه الحادثة توجه الثائرون الى السراية وعانوا الدخول من دون أن يشتبه فيهم أحد لان الخفر البرانى يعرف جيدا أن هؤلاء أناس من الطبقة الاولى ومن أرباب الدولة فمن ثم لم يسألهم عن شئ ولما صاروا بالقرب من محل الملك ورأوا أن الضباط منعوهم من الوصول اليه ولم يسمحوا لهم بالتقرب منه سحبوا خناجرهم وسقطوا على الخفر وأفرجوا لانفسهم طريق الدخول وكان سمرديس المجوسى مشتغلا مع أخيه فى شأن مسئلة بريكزا بيس فسمع الاثنان ضجة على حين غفلة فخطفا سلاحهما ودافعا عن أنفسهما بقدر طاقتهما وجرحا بعضا من الثائرين وأخيرا قتلوا سمرديس وأخاه وخرجوا من السراية مغموسين فى الدماء وفى أيديهم رأس سمرديس المجوسى وأخيه وأظهروهما لعموم الامة وأظهروا كذب سمرديس فتولد من ذلك حصول الغضب الشديد عند الامة الفارسية فقاموا يدا واحدة على كل من ينتسب الى مذهب وعقائد سمرديس المجوسى الغاصب وقتلوهم حيث وجدوهم وجعل الفرس لهذا اليوم عيدا سموه عيد ذبح المجوسى لا يمكن فيه لاحد من الذين على عقيدة سمرديس الكذاب أن يظهر فى يوم هذا العيد

ولما تمت هذه الحادثة اجتمع السبعة الامراء الفارسية فى جمعية واحدة للمداولة فيما يجب اجراؤه بشأن الحكومة فقال بعضهم يلزم أن تكون الحكومة جمهورية شورويه وقال آخرون الاجود أن تكون سلطة ملوكية لها الحل والعقد وكذا قرر دارا فاتفقوا جميعا بعد المحادثات والمباحثات وما وقع بينهم من المناقضات فى أن تكون حكومة فارس سلطنة ولم يبق عليهم الا مسئلة من يكون الملك أو ما هى الطريقة فى انتخابه فتقرر بينهم أن يكون الامر فى ذلك مفوضا للآلهة وعلى هذا اتفق السبعة أن يكون اجتماعهم فى يوم معلوم فى الصباح وقت طلوع الشمس على ظهور خيولهم فى محل كذا من ضواحى المدينة والذى يصهل حصانه فى الاول يكون هو الملك لانه من حيث ان الشمس هى الاله الاعظم عند الفرس ظنوا أن الذى شرع هذا المشروع ربما يعطيه الاله حق شرف الانتخاب ولما سمع سائس دارا هذا الاتفاق استعمل الحيلة الآتية لتوطيد تاج المملكة لاستاذه وذلك انه فى الليلة التى فى صباحها يكون الاجتماع جلب لحصان أستاذه فى المحل المعين فرسا أنثى وشممه اياها وفى صباح اليوم اجتمع الاشراف فى المحل المعهود ولم يمض قليل حتى أشرف دارا راكبا على حصانه ولما وصل الى المحل الذى شم الحصان

فيه
٢١

فيه الفرس أخذ يصهل بصوت عال فسلم الآخرون على دارا بالملك وأجلسوه على التخت وكان ابن كشتاسب فارسي المولد من العائلة الملوكية فتسلطن ستا وثلاثين سنة

ولما جلس دارا الاول أودارا كشتاسب على تخت المملكة في سنة ٥٢١ قبل الميلاد أعاد الديانة الفارسية على أصولها المقدسة كما كانت عليه في السابق وكان أجل ملوك فارس وأعظمهم ولما جلس كانت ممالكه في حالة عامة من العصيان وكان لاأقل من احدى عشرة ايالة من الايالات الكبيرة من مملكته حاملين السلاح ضده ورأى أن مملكة كيرش الاكبر أوكيخسرو على شرف الدمار والخراب فاشتغل دارا مدة ست سنوات عاكفا نفسه على فتوحه هذه الجهات حتى أخمد ما كان فيها من الثورات وتولد من كثرة جنوده وحذاقة أفكاره ومهارة أعماله حفظه وسلامته في جميع مساعيه وأعاد النظام والامن واستتباب الراحة في عموم ممالكه وقتل جميع رؤساء الثورات واعترف بحكمه كل قاص ودان من سائر أطراف ممالكه وعموم جهات سلطنته

ولقد كشفت هذه القلاقل والارتباكات وكثرة الثورات لدارا ضرورة وضع المملكة تحت أحكام ونظامات وقوانين ثابتة محكمة الاساس مؤيدة الاعمال فابتدأ في هذا الشغل بكونه عزل جميع الملوك الخراجية الموجودة في الايالات التابعة لممالكه وقسم المملكة الى عشرين مديرية أومرزبانة وجعل على كل مرزبانة مرزبانا فارسيا أي حاكما مدنيا مسؤلا عن أعمال مرزبانته لدى الملك مباشرة وشكل جندا ثابتا ووزعه على المرازبة بقصد اخماد الثورات ان حصلت أومقاومة تعديات تقع من الخارج من جهة عدوما وجعل قواد العسكر صوا ديد أيضا على المرزبانات وضرب مقدارا ثابتا من الخراج على كل اقليم أوايالة يدفعه الى الخزينة الملوكية في أوقات معلومة وأنشأ الطرق السلطاني من عاصمة المملكة الى جميع المديريات المختلفة ورتب البريد والبوسطة لاجل امكان سرعة المواصلة مع الديوان الملوكي وكذا سرعة مواصلة الديوان مع عموم الايالات بحالة منظومة ووزع جماعة من كتاب الاسرار الملوكية أطلق عليهم اسم عيني الملك وأذنيه على المديريات فكان من واجبات هؤلاء المراقبة على المرازبة والمباشرة على أعمالهم واعطاء الاخبار للملك أولا بأول بحيث يكون عنده علم يوميا بالحوادث والوقائع الجارية والمزمع على اجرائها في كل ايالة من ممالكه أوفي كل ادارة من اداراته ورتب مفتشين ملوكية وأحيانا نفس الملك يتوجه فجأة الى الايالات لاجل مناظرة أحوال الجهات وماهو جار فيها من الحركات وبهذه الوسائل صارت الايالات وحكامها على صداقة وخلوص نية وحسن طوية من مراعاتهم الواجبات المقررة عليهم لمليكهم الا أنه من مرور الزمن وتوالي الايام وانقطاع حركات التفتيش زال ما كان حاصلا من الصد والحجز على المفاسد ووقوع المشاكل واتفق حكام المرزبانات مع قواد العساكر لمطامع ذاتية بينهم وازدادت شوكة الايالات حتى جاء الوقت الذي أشرفوا فيه على العصيان فأعاد دارا ترتيب الجيش ثانيا وجعل القوة الحاكمة من أمراء الميديين والفرس وحشد العساكر وجند الجنود ورتب الخيالة وجعلهم هم الطبقة العالية في صنف العسكرية ورتب العساكر البحرية من الامم التابعة لمملكته خصوصا من فنيقية ومصر وقبرص وصيليصيا وآسيا الجريسية

ولما أحكم دارا قواعد مملكته وأزال ما كان فيها من الفساد والعفونة شرع في حملة على الهند لاجل اتساع ممالكه في الجهة الشرقية وقرر لاجل تسهيل فتوحاته وأن يكون له دراية وخبرة بالمملكة

الهندية بانشاء أسطول موافق لهذا الغرض فى نواحى كاسبايترو وهى مدينة على شاطئ نهر السند وأمر بانشاء مراكب أخرى فى جهات متعددة من النهر لحد حدود صطينا الشرقية وعهد قيادة هذا الاسطول الى سيلاكس من أهل مدينة كاريه من أعمال الجريس وكان على دراية تامة وخبرة كاملة بالاعمال البحرية وأمره بأن يحدر مع أسطوله فى النهر ويكشف على قدر امكانه جهتى البر من شاطئ النهر حتى يصل الى مصبه ثم يخرج منه الى المحيط الجنوبى ويستمر فى سيره نحو الغرب ثم يعود الى فارس من تلك الطريق فعرف سيلاكس جيدا كل ما أعطى له من التعليمات والاوامر وسار منحدرا فى نهر السند ومنه سار فى البحر المحيط الجنوبى حتى دخل البحر الاحمر من بوغاز باب المندب ومن بعد سياحة مكثت ثلاثين شهرا من ابتداء خروجه من كاسبايتره وصل مصر فى المينة التى كان أرسل منها نخو ملك مصر فى السابق الفنيقيين الذين كانوا تحت خدمته لاجل كشف دائر سواحل افريقية وهى المينة الواقع عليها السويس الآن ورأس البحر الاحمر من الجهة الشمالية ثم عاد سيلاكس الى السويس وأعرض لدارا جميع استكشافاته فدخل دارا فى الهند مع جيش وتغلب على بنجاب يعنى أرض الخمسة أنهر وأرض السند فى مدة محصورة بين سنة ٥١٥ وسنة ٥٠٩ قبل الميلاد ولم يذكر هيرودوط حالة الحرب التى وقعت بل ذكر أن الهند كانت هى الايالة المتممة للعشرين من الممالك الفارسية وكان خراجها الجارى ارساله سنويا الى خزينة دارا مقداره ٣٦٠ وزنة من الذهب يعنى ٥٠٠٠٠٠ ليرة استرلينيه وربط أيضا فيها علاقات تجارية فعالة بين الهند وفارس

وكانت الحملة الثانية لدارا على الصيطيانيين وهم قبائل من ياجوج وماجوج الغربيين قاطنين فى السهول الواسعة الواقعة بين نهر الدون ونهر الدانوب أو الطونة فى الاقليم المسمى فى الحالة الراهنة باقليم ولاخيا وما كان فى عزم دارا التغلب على هذه الاراضى بل كان مقصده الاصلى توقيع الخوف والرعب فى قلوب الصيطيانيين وصدهم عن سعيهم فى الاغارة على ممالكه ونهبها فعبر بوغاز البوسفور على جسر صنع له من المراكب فى سنة ٥٠٨ قبل الميلاد وسار من وسط ثراسة حينما كان أسطوله سائرا الى نهر الدانوب من البحر الاسود وأمر بعمل قنطرة على نهر الدانوب من مراكب وا قادله ثراسى السواحل من دون أن يحصل منهم مقاومة فاجتهد الزيطيون فى توقيف سيره فغلبهم ثم عبر الدانوب الى بلاد الصيطيانيين ومن بعد أن عبر النهر أمر بكسر القنطرة حتى لا يترك عندها فرقة تشتغل بمحافظتها من عساكره فعرض له أحد ضباطه الا أن وفق حفظ القنطرة وعدم كسرها لنفعها عند الحاجة فى حالة ما اذا كان الحرب للصيطيانيين وليس لنا فعرف الملك ضرورة وجودها وبقائها فأمر بالمحافظة عليها ورتب لها عساكر من اليونانيين الذين صنعوها وسمح لهم بأن يتوجهوا الى بلادهم ان لم يرجع اليهم فى مدة شهرين ثم استمر فى طريقه الى الصيطيانيين

وبمجرد ما بلغ الصيطيانيين أن دارا ماش اليهم شرعوا فى أخذ الاحتياطات اللازم اجراؤها المنفعة أنفسهم وعلموا فى أنفسهم أن لا طاقة لهم على مقاومة جيش قوى مهول مثل جيش دارا فاستغاثوا بجميع الامم المجاورة لهم فى مساعدتهم والاتحاد معهم على تنكيل هذا الكرب العام وقالوا لهم ان المقصود هو اشتراكا كاسوية فى جامعة واحدة لدفع عدو يقصد التغلب على كافة بلادنا وأملاكنا وليس قاصرا تدبيره على محاربة أمة واحدة فقط فأجاب طلبهم بعض الامم ورفض البعض الآخر الدخول فى حرب لم يكن لهم فيه دخل

فشرع الصيطيون فى تدبير أمرهم مع الحزم والكياسة وذلك أنهم أرسلوا نساءهم وأولادهم فى عربات الى أقاصى الجهات الشمالية من أرضهم وكذا أرسلوا جميع مواشيهم وأنعامهم ولم يبقوا لانفسهم شيأ سوى ماكان لازما لجيشهم وطمسوا جميع الا بار والعيون وعطلوا المنابع وعلقوها وحرقوا الحشائش ومواد العلف الموجودة فى الجهات التى يمر منها الجيش الفارسى ولما تموا ذلك جميعه ساروا فى اتحادوا حد مع محالفيهم لمقابلة عدوهم وعزموا على عدم الدخول معه فى أى محاربة ومناوشة بل يجرونه الى جهات مناسبة لهم حتى يكل ويضجر وتعود الخسارة عليه فلما رآهم الفرس وأرادوا الهجوم عليهم تقهقروا الى الخلف فى بلادهم فتبعهم الفرس ومازال الفرس يتقدمون والصيطيون يتقهقرون من محل الى آخر حتى أوصلوهم الى داخل أراضى الامم الذين رفضوا الدخول معهم فى المحالفة وصارت أرضهم وبلادهم صيدا ونهبا للجيشين الفارسى والصيطيانى

ولما كل دارا وحصل له الضجر والتعب من سوقه خلف الصيطيين أرسل الى ملكهم رسولا وكان اسمه اندا طيرسوس بيلاغ باسمه يقول فيه ياملك الصيطيين الى متى أنت مستمر على فرارك منى لماذا لم تقف فى محل تحاربنى فيه ان كنت تعرف من نفسك طاقة على حماتى وان كنت معترفا فى نفسك بالضعف والوهن فاعترف بسيادتى عليك وسلمنى الارض والماء وكان الصيطيون أمة على غاية من علو الانفة والكبرياء ولهم غيرة على حريتهم وهم العدو الالد لكل رق أو استعباد فأرسل أنداطيرسوس جوابا الى دارا يقول له ان كنت أناهرب أمامك ياملك الفرس فلا تظن انى خائف منك أو على وجل من جيشك والحاصل عندى من الاعمال الآن هو كالجارى عندى فى مدة السلم لاننا أمة الصيطيين ليس لنا مدائن نحفظها ولا أرض ندفع عدوا عنها فان كان لك رغبة فى الزامنا على دخولنا فى محاربة معك فتعال اهجم على قبور آبائنا حتى تعرف العادة التى نحن عليها وأما من جهة لقب السيادة الذى أنت متقلده فاجعل هذا اللقب على أمة خلاف أمة الصيطيانيين لانى أنا لا أقر لاحد بالسيادة خلاف جو بتير الاكبر أحد أجدادى والمعبودة الزهرة الاهة النار وكان دارا كلما يتقدم فى داخل المملكة يصير جيشه عرضة للمتاعب والمشاق الكبيرة حتى وصل الى آخر رمق وشدة من الكد والتعب ووصل رسول من عند ملك الصيطيين ومعه هدايا للدارا هى طير وفار وضفدعة وخمس سهام فطلب الملك من الرسول معرفة معنى هذه الهدايا فأجاب بان الملك أمره بتسليم الهدايا بلا زيادة على ذلك فحل دارا فى الحال معنى الهدايا وقال ان ملك الصيطيين رضى بتسليم الارض والماء لنا واستدل على ذلك بالفار والضفدعة وكذا تسليم خياله وأناب عنهم الطير وكذا أنفسهم وأسلحتهم وأناب عن ذلك الخمس سهام فقال أحد قواد غو برياس وهو أحد السبعة أشراف الذين خلعوا سمرديس الكذاب المجوسى وقتلوه ان تفسير معنى هذه الهدايا هو اعلم ياملك الفرس ان كنت تقدر على الطيران فى الهواء مثل الطير أو تخفى نفسك فى الارض مثل الفار أو تخفى نفسك تحت الماء مثل الضفدعة فلا يكون لك طاقة على امتناعك من سهام الصيطيانيين

وفى الحقيقة كان جميع الجيش الفارسى سائرا فى أرض محلة لانبات بها ولا زرع معدومة المياه خالية السكان حتى صار الجيش ينظر أمامه فلا يجد الا قفرا وبرارى خربة واستشعر دارا فى نفسه بحصول الخطر العام ومارأى خلفه الا جملا واحدا عليه المياه اللازمة لشربه وخاض هذا الجمل معه المعامع والمصاعب الكبيرة فى الصحارى المقفرة والهضاب الوعرة فما نسى دارا معروف هذا الجمل وكرمه

واحسانه وكانا أمن بعد أن عاد الى آسيا على ما أداه من صنيع خدمته وحسن كرمه ومعروفه معه وما حصل له من مشاق الاسفار بكونه أقطعه ناحية باسمه يستريح فيها المدة الباقية من حياته ويأكل من محصولاتها مع خدمه وحواشيه ولهذا سمى المحل الذى أقطعه له دارا باسم قوى جلا يعنى ضيعة الجمل وكان موجودا بالقرب من المحل الذى حصلت فيه الهزيمة لدارا الثالث مع اسكندر الاكبر فى الواقعة الثانية

ولما رأى دارا أن لا فائدة تعود عليه من هذه الحالة ترك هذا المشروع وتدبر فى أمر الرجوع وعزم على عدم ضياع الوقت فى الرجعة ولما جاء الليل أمر بوقود نيران كثيرة أمام العدو على صورة خديعة كما كانوا يفعلون حسب عوائدهم وتركوا الشيوخ والضعفاء فى معسكرهم وانسحبوا من دون حصول أدنى غاغة قاصدين الوصول الى نهر الطونة على عجل وأما الصيطيون فانهم لم يعلموا بسفرهم ورجعتهم الا فى صباح اليوم الثانى فأسرع الصيطيون فى الحال وأرسلوا فرقة الى نهر الطونة وبما أن هذه الفرقة كان لها معلومية بمسالك بلادها وأرضها وصلت الى القنطرة قبل وصول دارا بجيشه اليها وكان اليونانيون تركوها حسب أمر دارا لهم وتوجهوا الى بلادهم فكسر الصيطيون القنطرة وانتظروا حضور دارا وجيشه واجتمع الصيطيون عند نقطة عبور دارا من النهر ولما وصل دارا مع جيشه ووجد القنطرة مكسورة ولا وجود لليونانيين غضب كثيرا وزاحمه الصيطيون على العبور ووقع بينه وبينهم محاربات كانت نتيجتها هزيمة الصيطيين وتخريب بلادهم وأمر دارا بنصب قنطرة جديدة عبر عليها هو وجيشه الى تراسه وعاد الى آسيا من الطريق التى جاء منها وكانت نتيجة هذه الحالة أن صار التراسيون خراجيين له داخلا فيها الجهات الواقعة على بحر الارخبيل حتى مقدونيا خضعت له ومن ثم امتدت المملكة الفارسية من الصحارى الهندية الى حدود تساليا ومن جبال القوقاس الى اتيوبيه فى سنة ٥٠٦ قبل الميلاد

وفى السنة الثالثة من سلطنة دارا أو فى السنة الثانية على حساب اليهود حصل من أهل سمارية ارتباك جديد وقلاقة بشأن اليهود لان السماريين كانوا استحصلوا من السلطنات السابقة على أوامر يمنعون بها اليهود من أن يجروا أى عمل يعملونه فى بناء مدينة أورشليم الا أنه على موجب ما أنبأ به أنبياء بنى اسرائيل من الاوامر المنزلة من عند الله شرع الاسرائيليون فى الشغل من بعد أن كان حاصلا توقيفه من مدة سنين مضت وشمروا عن ساعدهم فى الشغل مع الشدة والشهامة فاعتنل السماريون بما عندهم من الاوامر الملوكية القديمة ومنعوا اليهود عن الشغل واستغاثوا الى طاطناى وكان دارا أقره حاكما على ايالتى فلسطين وسوريا وشكوا له من الوقاحة والجسارة الحاصلة من اليهود فى مخالفتهم الاوامر الملوكية وكذا صمم اليهود على الاستمرار فى بناء معبدهم ومدينتهم ووقع بين الاثنين مشاحنات حتى آل أمر الحاكم أن يتوجه بنفسه الى أورشليم محل الواقعة للنظر فى هذه المادة ولما رأى ما عليه حالة اليهود تفكر فى نفسه أنه لا يمكنه استمرار العمل ولا توقيفه الا اذا ارتكن على شئ فى مثل هذه المادة فسأل من مشايخ بنى اسرائيل هل عندكم رخصة دخلتم بواسطتها فى مثل هذا العمل الجسيم فأبرز له رؤساء اليهود الامر الصادر لهم من كيرش أو كيخسرو الاكبر فلما رآه صار لا طاقة له أن يفعل شيأ يخالف الامر وأرسل بواقع الكيفية وشرح حقيقتها الى الملك دارا وأعلمه بأمر كيرش الاكبر المصرح فيه لليهود ببناء مدينتهم ومعبدهم ورغب من الملك أن يأمر بالكشف من الدفاتر عن

حقيقة هذا الامر حتى يعرف أ كان ذلك أمر كيرش حقيقة أولا والتمس أن ترسل اليه التعليمات اللازم الاجراء على موجبها فى هذه المسئلة فطلب دارا الكتاب وسألهم الكشف عن هذا الامر فوجدوا أن هذه الرخصة والمنحة أعطيت لهم فى مدينة همدان من أعمال ميديا مقر كيرش الاكبر فى ذلك الوقت فأثبت دارا أمر الملك كيرش وأصدر امرا جديدا مؤكدا له وصدق عليه دارا وبواسطة هذا الامر الصادر من دارا اليهم تم اليهود فى بناء معبدهم ومدينتهم فقط بل كانت المصاريف تؤخذ من المقرر عليهم من الخراج والعوائد المضروبة على ايالة فلسطين وبهذا تم لليهود عود بناء معبدهم ومدينتهم فى مدة سلطنة دارا الاول هذا

ولقد توشحت السنين المتممة للقرن السادس قبل التاريخ المسيحى بعصيان حصل من جريق اسيا من شدة ما حصل لهم من الجور والمظالم التى تساعد على اجرائها حكامهم بواسطة الاوامر الصادرة من دارا فقاموا فى ثورة تحت قيادة ارسطفوراس طاغيتهم من ملطية وحملوا السلاح على فارس وانضم اليهم الاثينيون والارطريانيون من جريس أوروبا وافتكروا فى أنفسهم الجراءة والشجاعة وهجموا على سرديس عاصمة المرزبانة وضبطوها وحرقوها ودمروها فغلبهم القوى الفارسية وهزموهم فى واقعة بالقرب من أفسوس سنة ٥٠٠ قبل الميلاد فتركت الاثينيون والارطريانيون محالفيهم فى الحال ومع هذا فانه ورد الجم الغفير لمساعدة الجريق وثارت ثورة عامة ضد فارس انتشرت فى طول كامل الساحل الآسيوى من بحر مرمرا الى خليج عصوص وذلك أن اليونانيين والعيوليانيين وجريق الهلسبون والكاريانيون والقومانيون والقبرصيون كل هؤلاء انضموا فى جامعة واحدة على فارس فأسرع دارا فى اخماد هذه الثورة الكبيرة وبذل جهده ومافى طاقته فى انحطامها وتشتيتها وحصل عدة وقائع كان الظفر فيها متبادلا بين الاثنين وأخيرا سادت القوى الفارسية وانهزم الاسطول اليونانى هزيمة فاصلة فى واقعة لادى وأخذت ملطية بالهجوم عنوة فى سنة ٤٩٤ قبل الميلاد واستشعرت الايالات العاصية بثقل أحمال الانتقام الذى وقع عليهم من دارا وأعيدت الحكومة الفارسية مع الشدة والثبات فى جميع الاقاليم التى كانت دخلت فى هذا العصيان

ولما وطد دارا جميع ممالكه وأخمد ثوراتها شرع فى أخذ الاحتياطات اللازمة للانتقام من الايالات الجريقية التى تجاسرت على مساعدة رعاياه فى العصيان على سلطنته وكان مترددا فى ذلك من مدة زمن طويل فى التغلب على الجريس فمن مداخلة الاثينيين والارطريانيين فى ثورة العصيان اليونانى انفتح لدارا باب عظيم فى المحاربة معهم وفى فصل ربيع سنة ٤٩٢ قبل الميلاد صار استعداد حملة وأمر دارا بتسفيرها ضد الجريس تحت قيادة مردونيوس فسار فى طول الساحل ولما صار على مسافة من جبل أتوص نزلت عليه تلاقيح الرياح وعواصف البحر فغرق القسم الاعظم من اسطوله وانهزم جيشه البرى وأشرف على الدمار من هجوم حصل عليه ليلا من قبائل البريجيانيين من تراسة ومع حصول هذه الاهوال والمصائب فما حصل لدارا انزعاج ولا ضعف فى القوة ولا صرف نظرا عن الحملة الجريسية ومع ذلك فما كانت نتيجة هذه الغزوة جميعها على غير طائل بل أخذ مردونيوس طاسوس وصارت مقدونيا تابعة لفارس

ومن بعد مضى سنتين جمع دارا حملة ثانية فى سنة ٤٩٠ قبل الميلاد وأرسلت هذه الحملة ضد الجريس تحت قيادة داطيس أحد القواد الماهرة الفارسية ولما عبر داطيس جزائر السكلاده سار ابتداء الى أرطريا

فتغلب عليها بالخديعة والخيانة وحرقها كلها وساق أهلها في الحديد الى آسيا ولما تغلب الفرس على
ارطريا عبروا الاوريبوس ونزلوا في نواحي مرثون عازمين على التقدم الى أثينة فتقابل الجيش الفارسي
في مرثون مع الجيش الاثيني تحت قيادة ملطياريس وكان جيش الفرس الموجود تحت قيادة داطيس
مؤلفا من ١٠٠٠٠٠ من المشاة و ١٠٠٠٠ فارس وأما جيش الاثينيين فكان جميعه مؤلفا من
١٠٠٠٠ نفس تحت رياسة عشرة من القواد كان أكبرهم ملطياريس وكل واحد من هؤلاء العشرة
قواد يدير حركة الجيش يوما واحدا فحصل بين هؤلاء القواد مشاحنة في كونهم يقابلون العدو بحركة
تعرضية أو يحاربونه في داخل الاسوار فبعد مناقضات ومباحثات اتفق أمرهم على محاربة العدو
بحركة تعرضية وأن يكون الجيش وقواده تحت ادارة وقيادة ملطياريس لاغير فأخذ ملطياريس
احتياطاته اللازمة في تقوية جيشه وعسكره تحت سفح جبل مقابل العدو بحيث لايكون للعدو طاقة
على التغلب على المعسكر أو على الهجوم عليه من الخلف وأمر بقطع أشجار وتثبيتها على كل من جنبي
المعسكر لاجل حفظ أجنابه من هجوم خيالة العدو وأما داطيس فانه ظهر له عدم موافقة هذا المحل
لحركاته العسكرية الا أنه ارتكن على كثرة عدد عساكره وكانوا زيادة عن عشرة أمثال الجيش الاثيني
وبينما كان على عدم الرغبة في البقاء في هذا الموقع اذ وردت تقويات الاسبارطيين فعزم على الحرب
واستعد لذلك وأما الاثينيون فانهم لم ينتظروا هجوم العدو عليهم بل بمجرد ما أعطيت لهم اشارة الحرب
أسرعوا في حركة هجوم عنيفة ما كانت تتصور فيهم ونظر الفرس الى هذه الحركة الاولية التي حصلت
من الاثينيين فرأوا أنها حركة جنون مراعين صغر جيشهم وقلة عدد عساكرهم فاضعفوا خيالتهم
ونبالتهم واشتعلت الواقعة وقوى ملطياريس أجنحة جيشه تقوية عظيمة الا أن القلب كان ضعيفا
وكان قليل عوق بالنسبة لما كان عنده من العساكر القليلة وافتكر في نفسه أنه لايمكنه اكتساب النصرة
الا ان كان جناحاه قويين وبهما يشتت أجنحة الجيش الفارسي ومن ثم هجم الفرس على قلب الجيش
الاثيني وجعلوا اجتهادهم بالخصوص على مواجهة الجيش الاصلي وفي هذا الوقت انتصر جناحا
الجيش الجريسي على جناحي جيش الفرس وألزموهم الهرب والفرار ثم اتجه الجناحان لمساعدة
القلب بينما كان على شرف الهزيمة وساعداه وشتتوا الجيش الفارسي ولم تأخذ عساكر الفرس في
الفرار نحو معسكرهم بل أسرعوا في فرارهم لاجل نجاة أنفسهم نحو المراكب وتبعهم الاثينيون نحو
المراكب وحرقوا كثيرا من مراكبهم واستحوذوا على سبع مراكب وقتل من الجريسيين في هذه الوقعة
٢٠٠ نفس وقتل في ميدان المعركة من الفرس نحو من ٦٠٠٠ قتيل خلاف الذين غرقوا في البحر
وقت نزولهم في المراكب وأقلعوا في مراكبهم وسافروا حول الرأس الاثيني بقصد الهجوم عنوة على
أثينة فأسرع ملطياريس في السير الشديد من مرثون فوصل أثينة في وقت ظهر فيه لقائد الفرس
عيانا أن كل شغل يجريه على المدينة لاثمرة فيه فمن ثم أقلع داطيس الى الساحل الآسيوي وأخذ معه
أسرى ارطريا وتولد من النصرة التي حازها الجريق في مرثون أكبر ضد للفرس الا أن دارا لم يرتج من هذه
المعاكسات التي حصلت واستعد ثانية لحرب الجريس بكامل ما عنده من العساكر والجيوش وعزم
على قيادتها بنفسه فحصل في مصر ارتباكات أوقفت سيره وكذا موته في سنة ٤٨٦ قبل الميلاد فتم
مشروعاته وأنهاها وجعل للجريق فرصة في اتمام استعداداتهم للمقاومة ومن بعد موت دارا الاول خلفه
ابنه اردشير الاول فابتدأت سلطنته بالكبس الشديد على الثورة المصرية وجعل أخاه أخمينس عاملا

على مصر وفى نحو هذا الوقت اجتهد البابليون فى العصيان على فارس فأخمد الفرس ثورتهم وعاقبهم أردشير الاول أشد العقاب بكونه سلب كنوزهم وأموالهم العريضة التى كانت موجودة فى هيا كلهم فى سنة ٤٨٥ قبل الميلاد وسار أردشير الاول فى مشروع أبيه فى الحملة والغزوة على الجريس وأقام الحمية والحماسة فى رأس مرازبته وقواد عساكره ووضح لهم فى مجلس عام ندبهم اليه وعقده فى جهة السوس فوائد ومزايا التغلب على الجريش فشرعوا فى الاستعدادات اللازمة للعملة وفى مدة أربع سنوات كانت المملكة الفارسية مشغولة بالاستعدادات والتجهيزات اللازمة للحرب القادمة عليهم وصار جمع الاسطول العريض فى البحر الابيض المتوسط وكان أسطولا لم يجمع فى البحر الابيض قبله مثله من الممالك الساحلية لفارس وأف جيش كثيف جمع من عموم أنحاء الاقاليم الفارسية وقيل ان الاسطول كان مؤلفا من ١٢٠٠ سفينة من سفائن الحرب الكبيرة ومن ٣٠٠٠ مركب أقل منها فى الحجم ورتبت مخازن الذخائر والمؤن فى جهات مختلفة من طول الطريق المزمع على سير الجيوش منها وكان أردشير استنبط من تجاريب داطيس أن حملة قوية كبيرة مثل هذه كافية للتغلب على بلاد الجريس لايمكن ارسالها من طريق البحر بل يقتضى عبور الهلسبون (الدردانيل) والسير من طريق الساحل الشمالى لبحر الارخبيل ولهذا الصدد كلف أردشير المصريين والفنيقيين بانشاء جسر من المراكب فوق مياه بوغاز الهلسبون أو الدردانيل فأنشأ هذا الجسر على التوالى الا أنه كان يتكسر من شدة العواصف والرياح فعلى ماقيل ان أردشير أمر بقطع رقاب المهندسين وأن يضرب البحر بالسياط ويوضع فى السلاسل والاغلال دلالة على ماحصل منه من الوقاحة على أستاذه ملك فارس ثم مدوا جسرين فى غاية من المتانة والصلابة وصار تقويتهما وتوطيدهما واحكامهما بواسطة الاخشاب والجنازير الحديد والاربطة القوية وجعلوا الواحد منهما طريقا سلطانيا تسير عليه الناس والعربات والخيول مع غاية الامن والسهولة كأنها سائرة على أرض الساحل ولاجل حفظ الاسطول من الاخطار التى تسقط عليه من عواصف جبل أثوص استخدم الملك جما غفيرا من الناس مدة ثلاث سنوات تحت مناظرة ومباشرة رجال من الفرس فى حفر خليج خلف الجبل بين خليج سطريمونى وخليج سنغى وجبل أثوص هذا موجود فى مقدونيا وهى اقليم من تركية أوروبا يمتد امتدادا طويلا فى البحر ويشكل بحيث جزيرة ويتصل مع البر الاصلى بواسطة برزخ طوله يزيد عن نصف فرسخ والبحر فى هذا المحل ذو عواصف وتلاقيح شديدة يتسبب منها غرق المراكب

ولما استعدت جميع هذه المهمات والادوات سار أردشير الاول الى سرديس فى فصل شتاء سنة ٤٨١ قبل الميلاد لاجل مناظرة الترتيبات النهائية بنفسه وفى فصل ربيع سنة ٤٨٠ قبل الميلاد تجمع الجيش الفارسى فى ليديا فقال هردوط انه كان يوجد تسع وأربعون أمة سائرة تحت بيرق الملك الاعظم وقد ذكر هردوط أيضا ان جيش أردشير كان مؤلفا من ١٨٠٠٠٠٠ نفس من المشاة و ٨٠٠٠٠ فارس ولما عبر الهلسبون ساعده الامم الخاضعة له بجيش مقداره ٣٠٠٠٠٠ نفس فبهذا وصلت قوة جيشه البرى ٢١٠٠٠٠٠ نفس وكان أسطوله لما سافر من آسيا مؤلفا من ١٢٠٧ سفينة حربية ذات ثلاث بنوكه من المجاديف فى كل سفينة ٢٠٠ نفس جميعها من أهل المملكة خلاف ٣٠ نفس من الفرس أو الميديين فيكون عدد جميع عساكر هذا الاسطول ٢٧٧٦١٠ وأعانه الامم الاوروباوية باسطول مركب من ١٢٠ سفينة كل سفينة فيها ٢٠٠ نفس فيكون عدد نفوس هذه السفن ٢٤٠٠٠ نفس

يضاف الى مقدار نفوس البحرية المتقدم فيكون المجموع الكلى ٣٠١٦١٠ نفس وخلاف هذا الاسطول المؤلف من السفائن الحربية الكبيرة كان يوجد مراكب اقل منها فى الجم والسعة موجود فى كل منها ٣٠ أو ٥٠ مجدافا ومراكب النقل والحمائل ومراكب كانت مستعملة فى أشغال مختلفة بلغ مقدارها نحو امن ٣٠٠٠ سفينة فاذا حسبنا لكل سفينة من هذه السفن ٨٠ نفسا كان مجموع الانفس ٢٤٠٠٠٠ نفس وعلى هذا لما وصل أردشير فى نواحى طرمو بيلى كانت قوته البرية والبحرية ٢٦٤١٦١٠ نفس لايدخل فيها الخدم والطواشية والنساء وباعة الجيش وأمم أخرى من هذا الصنف تابعة لكل جيش فى حركته كان عددهم فى ذلك الوقت يعادل عدد قوة الجيش فبهذا يكون عدد الذين تبعوا أردشير الاول فى هذه الحملة نحوا من ٥٢٨٣٢٢٠ نفس وكان الغذاء الجارى صرفه يوميا حسب ماقرره هردوط ١١٠٣٤٠ مدّ من الدقيق والمدّ هنا عبارة عن ٦ بوشل انكليزى أو ٦ كيلات مصرية

وسار الجيش من سرديس حتى وصل ابيدوس وفيها عرض الجيش والاسطول على الملك وكانت هذه أول مرة رأى فيها الملك اسطوله العريض الواسع وفى صباح اليوم الثانى ابتدأ العبور من فوق بوغاز الهلسبون واستمر مدة سبعة أيام وكان مرور العساكر من فوق جسر والحملة والتبع من فوق الجسر الآخر وكانت حركة الجميع فى غاية من الشدة والسرعة واستمر السير من جهة أروبا فى داخل تساليا فقطع تساليا واخيا وفثيوطيس الى أن دخل السهل الملياني ثم وقف الجيش لاجل راحة السفر بالقرب من مدينة طرخيس الصغيرة مقابل معبر أو بوغاز طرمو بيلى وهو مدخل الجريس الوسطى وهو دربند أو درب ضيق فى جبل عوطة بين تساليا وفوثية عرضه أربعة وعشرون قدما ومن ثم يمكن حمايته بقوة قليلة العدد وهذا الدرب هو الذى يمكن للجيش الفارسى الدخول منه فى مملكة اخيا والتقيدم لمحاصرة أثينة ورأى الجيش الاثينى أن الموافق له انتظار العدوّ فى هذا الدرب وصدّه عن الدخول فى بلادهم فكان قائد هذا الجيش الجريسى شخص اسمه ليونيداس أحد ملكى اسبرطة وكان لما ابتدأ أردشير الاوّل السير من بوغاز الهلسبون أمر أسطوله كذلك بالسير فى طول الساحل مقابلة الجيش وأن ينظم حركة سيره فى البحر مع حركة الجيش فى البر حتى اذا نزل أى منزل يجد الذخائر والمؤن تحت يده جاهزة ولما وصل مقابل درب طرمو بيلى كان مقدار الجيش الذى أرسلته أثينة للمحافظة على هذا الدرب ٤٠٠ نفس من أصل مجموع جيش مقداره ١١٢٠٠ نفس ولما وصل اردشير الى فم الدرب حصل له الاستغراب من استعداد الجريسيين فيه لصدّه ومنازعته العبور منه لانه كان يعلل نفسه بان الجريسيين متى بلغهم أول مرة حضوره الى بلادهم فرّوا هاربين أمامه فأرسل من طرفه جاسوسا لينظر العدوّ وحركته وما هو عليه من الاستعداد فجاء الجاسوس وأخبره بأن اللاسيدومونيين يدواحدة فى حركتهم العسكرية رابطين شعورهم ببعض متحالفين على النصر أو الموت وكانت هذه عادة اللاسيدومونيين فى الوقائع والحروب فانتظر اردشير مدة أربعة أيام مؤملا فيها أنه ربما تأتى ساعة يتقهقرون فيها من الدرب وبذل جهده وما فى طاقته فى ظرف هذه المدة فى كونه يظفر بالملك ليونيداس وواعده المواعيد العالية وأكد له أن يجعله ملكا على عموم الجريسيين ان أتى اليه ودخل فى حزبه فرفض ليونيداس كل ماطلبه اردشير منه مع الحنق والغضب ثم كتب له اردشير بشأن تسليمه جيشه ونفسه فأجابه ليونيداس بشدّة بلسان لاسيدومونيا جوابا مركبا من لفظتين

تعال خذهم وغيرهذا لايكون الا الحرب فأمر اردشير القوى الميدية بالسير الى الجريسيين والقبض عليهم وجلبهم على قيد الحياة أمامه فهجم الميديون فى الدرب على الجريسيين فأذاقهم الجريسيون كأس الهزيمة والفرار بعد أن قتلوا منهم مقتلة عظيمة وقال هردوط ان اردشير كان عنده رجال كثيرة من دون أن يكون عنده عساكر محاربون فأرسل ثانية الى هؤلاء الاسبرطيين فرقة من الفرس يقال لها الفرقة الثابتة وكانت مركبة من ١٠٠٠٠ نفس فحصل لها من الجريسيين ما حصل لسابقتها وبينما كان أردشير جائل الفكر قاطع اليأس من فتح طريق هذا الدرب وأخذه من عساكر عازمين على النصر أو الموت ولا يدرى ماذا يفعل اذ حضر عنده واحد من أهل البلاد وأخبره فى السر بوجود طريق يوصل الى أعلى جبل مطل على هذه القوى الاسبرطية وأن هذا الجبل يحكم على الموقع الموجودين فيه فأرسل معه على الفور فرقة عسكرية الى تلك الجهة وما زالت هذه الفرقة سائرة مع هذا الدليل طول الليل حتى وصلت الى أعلى الجبل فى الفجر ووطنت نفسها فى هذا المحل النافع ولما رأى الجريق ما حل بهم من هذه المصيبة ونظر ليونيداس أن لا طاقة له على مقاومة العدو ألزم الباقى من المتحالفين على القهقرة وبقى هو ونفسه مع ٣٠٠ نفس من اللاسيدومونيين عقدوا نيتهم على الموت مع قائدهم وقطعوا اليأس من النصر أو الفرار ونظروا الى طرموبيلى بنظر أن هذا المحل هو محل مدفنهم وهجم الفرس عليهم فكان أول قتيل ليونيداس وقتلوا عن آخرهم ولم ينج منهم الا واحد هرب الى اسبرطة وأخبر بموتهم فعده أهل اسبرطة من الجبناء وعاملوه معاملة الخائن لبلاده وامتنعوا من النظر اليه حتى من المحادثة معه وخسر أردشير فى هذه الواقعة زيادة عن ٢٠٠٠٠ نفس من ضمنهم اثنان من اخوته ورأى اردشير أن خسارة مثل هذه وقعت فى عسكره تدل دلالة واضحة على شجاعة الجريس ووقوع الرعب والفشل فى عساكره فأمر بدفن جميع الذين قتلوا فى السر قبل انتشار معلومية ذلك فى عسكره الا ١٠٠٠ نفس أمر بابقائهم فى ميدان المحاربة ثم أمر بدفنهم بعد أيضا ومن بعد هذا عبر الفرس درب طرموبيلى وانصبوا مثل الجراد فى داخل الجريس الوسطى وتقدموا الى أثينة بعد أن نهبوا المدائن التى مروا عليها وحرقوها وجعلوها كامن الرماد وفى هذا الوقت أقلع الاسطول الفارسى وسار حول رأس سيبيوم حتى وصل ورسا فى جون فاليرم وكان الجريسيون على غاية من ضعف الحال وأمر أردشير أن ينصب له تخت على سفح جبل اغاليوس حتى يمكنه أن يكشف جميع الاعمال الحربية وأصدر أوامره الى قواد الاسطول بالهجوم على الاسطول الجريسى وكان مؤلفا من ٣٨٠ سفينة فاشتعلت نار الحرب بين الاسطولين فى خليج صرونى على مسافة من جزيرة سلميس واستمر الحرب طول النهار وانجلى عن هزيمة الاسطول الفارسى جميعه مع ما كان عليه من كثرة القوة وجسامتها

ثم أعقب كسر أسطول اردشير فقدان ما كان معه مما عليه من التدبيرات ولما رأى أن لا أمل عنده فى انتصار أسطوله على الجريسيين كما تحقق أنهم ربما يسودوا عليه فى البر كما سادوا عليه فى البحر عزم على ترك الحالة والعود الى فارس ولم يحصل منه أدنى همة فى مقاومة ما أصابه من المصائب وابتدأ فى قهقرة سريعة من الطريق التى جاء منها وأمر الاسطول بالعود مباشرة الى الهلسبون لاجل المحافظة على الجسرين وبمجرد وصوله الى تساليا ترك فيها ماردونيوس مع قوة مقدارها ٣٠٠٠٠٠ نفس للمحافظة وصد الجريسيين من تعقبهم اياه على أن يجدد العزم فى السنة القابلة على التغلب على الجريس

وفتحها وجد الملك فى سيره مع مابقى من عساكره نحو الهلسبون وفرغت مخازن ذخائره ومؤناته وهلك الجم الغفير من العساكر من الجوع والتعب والنصب من سفر الطريق ولما وصل الهلسبون وجد الجسر بن مكسورين قطعا من شدة الرياح والعواصف فانجبر على تعدية البوغاز مع جيشه فى مراكب من أبيدوس وفيها تيسر له الحصول على القوت اللازم لعساكره ثم عقد عزم السير على سرديس ومات أغلب العساكر فى الطريق من كثرة ما نالهم من تخمة الاكل والافراط فيه وصار مابقى معه الا القليل من جيشه الزاخر وساق الملك الى عاصمة ليديا ودخلها بهذه الحالة الخسيسة من بعد أن كان سافر منها من مدة ثمانية أشهر فى طنطنة من الجيوش والابهة والآمال الكبيرة

وسنعقد لمفصلات هذا الحرب وأعمال مردونيوس بابا مخصوصا فى تاريخ الجريس من الجزء الثانى من هذا الكتاب ونشرح ما حصل من أهل الجريس ومن رجالهم فى شأن هذه الحروب بعون الله تعالى كاشف الغموم والكروب

ويتولد من نتائج الاعمال فى بلاطيا ودمار الاسطول فى نواحى ميخالى ومن توالى المصائب على الفرس سقوط الشوكة الفارسية فى أوروبا وأعقب الحريق مظفراتهم بخلاص جزائر بحر الارخبيل من الفرس وخروج سواحل آسيا وفى ظرف اثنى عشرة سنة لم تتجاسر مركب من المراكب الفارسية على السير أو الظهور فى البحر الابيض المتوسط مطلقا

ولما وهنت وضعفت أحوال أردشير الاول بالكلية مما حصل له من الخيبة فى خضوع الجريس والتغلب عليها عكف نفسه على الرفاهية وأنواع الملاهى والانبساط وما حصل عنده أدنى همة أو عزم فى مدة ما كان باقيا من سلطنته فى أى مشروع من المشروعات العسكرية ومن الواضح أن الخسارات الكبيرة التى حلت على المملكة أعجزتها وكسرتها وأقعدتها حتى كانت أحوالها لا تسمح لها فى فتح أو فى عمل أى مهم كان مدة من الزمن واستمرت المملكة مدة فى راحة من تعبها ونصبها الاول وعكف أردشير على ما جبلت عليه طبيعته من العار والخزى فى اللذات وأنواع الملاهى فى حريمه وقاد نفسه لحكومة النساء والطواشية وصرف النظر عن مداخلته واشتراكه فى المواد اللازمة للمملكة ومن ثم كانت المدة الباقية من سلطنته مدة فجور وفساد وكان ذلك من ملحقات نهاية سلطنته ثم قتله أرطبانوس قائد خفره فى سنة ٤٦٥ قبل الميلاد بمساعدة حاجبه داسميطريس الطواشى

وذكر بعض المؤرخين أن أردشير الاول هذا هو نفس اسفنديار وأجلس ارطبانوس الابن الاصغر لاردشير على التخت وهو بهمن بن سفنديار ولقب بلقب أردشير درازدشت أى طويل اليد أو الايدى لان يديه كانتا طويلتين حتى اذا وقف وأرسلهما بجانبه وصل كفه الى ركبته وقيل ان احدى يديه كانت طويلة والاخرى قصيرة وكان ارطبانوس قتل الابن الاكبر لاردشير وأجلس أخاه هذا وظن فى نفسه أنه يقتل هذا أيضا ويجلس هو على التخت ويجعل نفسه ملك فارس الا أن الملك من بعد قليل أمر بقتل ارطبانوس عندما تحقق له أن هذا المرزبان هو قاتل أبيه

وفى سنة ٤٦٠ قبل الميلاد عصت ليبيا ومصر على فارس وطلبا مساعدة أثينه وكانت أثينه أصل تحريض هاتين المملكتين على العصيان فأجابت طلبهما وأرسلت اسطولا مركبا من ٢٠٠ سفينة لاجل مساعدة المصريين الا أن الجيش الفارسى نال الظفر والنجاح تحت قيادة المرزبان ميغابازو وأخمد العصيان وأخذ اناروس ملك ليديا أسيرا فصلب بأمر أردشير درازدشت وانهزم الاسطول

الجريق وتدمرت مراكبه وهرب أمرطيس ملك مصر فى الجهات المستنقعة من اقليم الدلتا وابث مقيما فيها نحو ست سنوات وتكبدت أثينه آلاما فقدها أسطولها ثم اجتهدت فى تجديد علاوهمتها وزيادة شوكتها فى سنة ٤٩٩ قبل الميلاد حتى ان فارس رأت نفسها أنها على خطر من ضياع مصر وقبرص منها فرضى أردشيرد رازدشت بعقد معاهدة عسكرية ذليلة تعرف بمعاهدة صلح كالياس تقررفيها اعتراف فارس باستقلالية جريق آسيا وعهدت على نفسها عدم وقوع رعب أوارتباك يخل باستتباب راحة الساحل الغربى من آسيا الصغرى سواء كان من جيشها أو من أسطولها واعترفت أثينة من جهتها بسيادة فارس على مصر وقبرص ومن ثم تنازلت فارس عن جميع المدائن الجريقية من باب بوغاز الدردانيل الى حدود فاسيليس فى ليثيا للاتحاد الاثينى. وأما المدائن الموجودة على سواحل البحر الاسود فانها بقيت فى حوزة المملكة الفارسية

ومن بعد مضى سنتين أى فى سنة ٤٤٧ قبل الميلاد غضب ميغاباطو مرزبان شوريا وأخذه الحنق الشديد بشأن ما حصل من قتل اناروس ملك ليبيا وفتح عقد الامان الذى كان عقده مع ملك ليبيا وخلع طاعته لفارس فرخصت له بالعود الى الطاعة تحت شروطه التى يعقدها وكانت هذه الشروط مشحونة بالاخطار والمصائب على فارس ثم مات اردشيرد رازدشت فى سنة ٤٢٥ قبل الميلاد وخلفه ابنه الفريد الشرعى أردشير الثانى فتسلطن خمسة وأربعين يوما وقتله أخوه صانيديانوس أوصغديانوس وجلس هذا على التخت ليكون أضحية لتخته من بعد مضى ستة شهور وقتله أخوص وهو ولد غير شرعى لاردشيرد رازدشت فجلس على التخت وتلقب باسم دارا الثانى (أودارا ب الاول عند الفرس) فى سنة ٤٢٤ قبل الميلاد

وتزوج دارا الثانى أوأخوص بنت عمه أردشير الاول المسماة بارساطيس وانقضت مدة تسعة عشرة من سلطنته تحت أحكامها وتولد من جورها وعنوان أحكامها أن جعلت للهيجان بابا وفى هذه المدة حصل فى المملكة زعازع وقلاقل أزعجت أهل المملكة وتكبدت آلاما من كثرة وجود الثورات المتتالية واحدة بعد الاخرى فشرع دارا فى اخماد هذه الثورات بطرائق غير محمودة وشرع فى الغش والخيانة بين المرازبة وبعدهم وبينهم لدخولهم تحت سلطته بمواعيد عرقوب ثم يقتلهم ومن ثم تولد الغش والفساد فى سائر فروع الوظائف والخدامات ومنح عدة امتيازات واهية لمن بقى من المرازبة تولد منها فساد شوكة المملكة وفى سنة ٤٠٨ قبل الميلاد قامت ميديا فى ثورة مهولة فأطفئت على الفور لكنها اشتعلت فى مصر فى سنة ٤٠٥ قبل الميلاد فكانت هذه الثورة أكثر نجاحا من ثورة ميديا لان ملك مصر نفرطيس طرد الفرس من داخل مصر وأقام استقلالية بلاده

وكانت النتيجة الوحيدة من هذه الخسارات جميعها هو استرداد الادارة الفارسية على جريق آسيا الصغرى مرة أخرى وذلك ان دارا انتهز الفرصة فى مدة الحرب البلوبونيزى أى المورى عندما دخلت فيه أثينة واسبرطه وفاز فى كونه استرد لمملكته مرة أخرى المدائن الجريقية فى آسيا الصغرى واشترك فى الحروب الاوروباوية الجريقية وابتدأ فى ايقاع الشقاق والفساد بين الايالات الجريقية وبعضها قاصدا بذلك حصول الوهن والضعف فيها وجعل شوكته وقوته فى صرف ذهبه واستعماله فى جذب قلوب الجريقيين اليه حتى صار لا طاقة لهم على مقاومته ومن هذا العهد الى أن فقدت الجريس حريتها صار لفارس معظم النفوذ والسلطة فى التداخل فى الاعمال الجريقية

وفى هذا الوقت صار بوظيفة كيرش أصغر أولاد ملك فارس مرزبانا على فريجيا وليديا وقبدوشيا فوجه نفسه مع الحمية الى التحالف أو الاتحاد الاسبرطى وأخبر ليساندر الاميرال الاسبرطى بان له رغبة فى بيع تخته الحقيق حتى يجمع نقودا يصرفها فى الحرب ضد أثينة وكان كيرش فى هذا الوقت صارفا أفكاره وحواسه فى السعى والكد على اقامة نفسه على تخت فارس وكانت غيرته وحميته نحو الاسبرطيون رغبة فى مساعدته على مشروعه هذا وكان محبوبا عند أمه باريساطيس فطالما كانت تحث دارا على أن يجعله ولى عهده الا أن مساعيها كانت على غير طائل فقلده أبوه وظيفة ملك فى ايالته وحاز بعقله وتدبيره التفات أرباب دولته له وكانت خصاله محبوبة لديهم وكان يرعى جانبهم ويحفظ واجباتهم بوقار لاشبهة فيه فارتاع دارا مما اشتهر به ابنه فدعاه اليه فى فارس فوصل العاصمة فى الوقت الذى مات فيه أبوه وجلس فيه أخوه الاكبر على تخت المملكة

ومن بعد موت دارا الثانى خلفه ابنه الاكبر اردشيردرازدشت الثانى وكان يلقب بجيد القريحة فى سنة ٤٠٥ قبل الميلاد فكان أول عمل عمله هذا الملك الجديد أن أمر بحبس كيرش وحكم عليه بالاعدام فقامت باريساطيس واجتهدت ونجحت فى خلاص ابنها بل فى عوده الى مرزبانته أيضا فرجع الى ايالته عازما على عدم ضياع أدنى وقت بشأن وضع مقاصده الطمعية فى موضع العمل والاجراء فجند جيشا كانت زهرته قوة من مستأجرى الجريق بعلة أنه سيجرى حربا على قطاع الطريق الموجودين فى بسيديا وسار من سرديس عاصمة ليديا فى فصل ربيع سنة ٤٠١ قبل الميلاد فلما بلغ أردشيردرازدشت الثانى حركته استعد لملاقاته ومن ثم تقدم فى رأس جيش كثيف وسار كيرش بسرعة من فريجيا وصيليصيا وسوريا وعبر الفرات من نواحى طابصاقوس ومن حركة هذا العبور تيقن مستأجرو الجريق المقصد من هذه الحملة وعرفوا حقيقة أمرها الا أن زمن انسحابهم منها انقضى نحبه ولما وصل كيرش الى سهل قونقصه على مسافة سبعة وخمسين ميلا من بابل وجد طريق سيره مغلوقة بسد من الجيش الملوكى تحت قيادة نفس الملك فهجم الملك أربع هجمات متوالية على قدر طاقة عساكره فقاومه الجريق مقاومة شديدة وأوقع الجريق هزيمة حادة على العساكر الملوكية الموجودين فى مواجهتهم وفى أثناء هذه النصرة اقتحم كيرش قلب الفرس وصدمه وكان تحت قيادة الملك وهجم فى اقتحامه بشدة وبسالة فجرح أخاه فضربه واحد من رجال الخفر الملوكى ورماه من فوق حصانه وأمر فى الحال أردشيردرازدشت بقطع رأسه ويده اليمنى وبواسطة موته انتهت حركة الواقعة الا أن حالة العساكر الجريقية الذين شبكهم كيرش فى هذه الحملة صارت على خطر جدا وفى حالة نهائية صعبة لان محالفيهم من الفرس تركوهم وعقدوا صلحا مع الملك الاكبر فوعدهم طيسافرنس بارسالهم الى محل مأمنهم وأخرهم عن حركتهم وكان اردشيردرازدشت منحه حكومة كيرش واستمر وامنتظرين نحوا من شهر ثم سار معهم يداهنهم حتى وصل معهم الى أعلى مياه نهر الدجلة ثم عمل حيلة فى أخذ ضباطهم وقتلهم وكان يوجد بين هؤلاء العساكر واحد من أهل أثينة اسمه كصنفون كان مصاحبا للجيش فى حملة كيرش فمع كونه لم يكن عسكريا وماله دراية بالاعمال الحربية الا أنه جمع كبار الجريق فى منتصف الليل وأراهم ضرورة العمل الذى يلزم اتخاذه فى مثل هذه الحالة وحثهم على أن ينتخبوا من بينهم قوادا مستجدين يسعون فى عودتهم ثانيا الى بلادهم وكانت بلادهم بعيدة عنهم نحو ألف ميل فانتخبوا خمسة قواد كان من جملتهم كصنفون وشرعوا فى القهقرة فى صباح اليوم الثانى وقت الفجر

وكان

وكان الزمن فصل شتاء قاصع وليس معهم أدلاء ولا يعرفون سكك الاراضي وكانت طريق سيرهم مارة من الصحن المرتفع الشديد الصقيع والبرد من بلاد أرمينية وصار كثير منهم عرضة للثلج وشدة الصقيع والجليد وسار خلفهم الجيش الفارسي تحت قيادة طيسافريس في مدة حركة قهقرتهم الا أن جودة حركة القهقرة وحسن نظام السير جعل عدوهم لا يتمكن منهم ولا يوقف حركة سيرهم في وقت من الاوقات أو ينتهز فيهم فرصة يفوق عليهم بها زيادة عما هو حاصل لهم من المصائب والتعب والجوع وأخيرا نجح اجتهاد هذه الشرذمة الباسلة نجاحا تاما وشدوا حيلهم رويدا في سيرهم حتى رأوا أخيرا من جبل في الجهة الجنوبية اطرابزون الوادي الرفيع العماد للبحر الاسود على مسافة منهم ولما رأوا البحر انفجرت من قلوبهم أصوات السرور والفرح وزعقوا بصوت واحد البحر البحر فسرى هذا الصوت في باقي القول وشاهدوا بعين التلهف والشوق الى ماشرح صدورهم وتحققوا من نجاتهم وخلاصهم من مشاق أسفارهم وهلاكهم

فتولد من مداخلة هؤلاء العشرة آلاف في ثورة كيرش واشتراكهم معه العداوة والبغضاء عند فارس لاسبرطة مع كونها لم يكن لها دخل في مثل هذه المسئلة وليست مسئولة عنها ومن ثم انفسخت المعاهدة التي كانت معقودة بين المملكتين وشرعت فارس مجاهرة في كونها تبطش باسبرطة وتنتقم منها نظير الوقاحة وقلة الحياء الذي حصل منها فمن ثم عزم الاسبرطيون على أن يكونوا هم الضاربين أول ضربة فأدرجوا الموجودين على قيد الحياة من العشرة آلاف نفس في جيشهم وأشعلوا حربا على مرزبانتي ليديا وفريجيا واستمر هذا الحرب ست سنوات أي من سنة ٣٩٩ الى سنة ٣٩٤ قبل الميلاد حصل لاسبرطة فيه الظفر التام حتى ان فارس رأت نفسها أنها على شفا جرف من ضياع جميع ممالكها في آسيا الصغرى وحقيقة لو كان لاسبرطة طاقة على استمرار الحرب مدة قليلة من السنين كان هذا هو نتيجة الحرب ثم ازداد الانحلال والتقسيم في المملكة الفارسية حتى ان مرزبانتي ليديا وفريجيا هزمت أحداهما الاخرى بدل أن تحدا سوية ويضربا الحريق وأخيرا آل أمر احداهما الى أن قدمت رشوة للاسبرطيين على خلاص أراضيها والهجوم على أراضي عدوتها وكذا من المحسوسات والارتباكات التي حصلت لفارس أن المسيانيين والبسيديانيين استقلا عن حكمها وكذا قررا البغلاغونيون مع شدة جسارتهم استقلالية أنفسهم وظهر على البثنيانيين دلائل العصيان فقابلت فارس هذه القلاقل مع التأمل والتبصر في أمور أحوالها زيادة عما أجراه حكامها من عهد دارا الاول واستعملت مع عدم المبالاة ذهبها ونقودها بمبالغها وعقدت محالفة مع ارغوس وقورنثة وأثينة وطيبه ونفسها اضدا سبرطة فتولد من هذا الاتحاد الكبير أن طلب الاسبرطيون قواهم وعساكرهم من آسيا الصغرى لاجل المحافظة على أرضهم وبلادهم واشترك الاسطول الفارسي في واقعة قندوس في الحرب وكانت نتيجة هذا الحرب ارغام اسبرطة على تسليم قيادة البحر وحكمه للمحالفين وفي سنة ٣٨٧ قبل الميلاد عقدت اسبرطة لاجل سلامة نفسها صلحا كان غير محمود العاقبة عليها يدعى صلح انطالثيداس وبواسطة هذا الصلح أعادت فارس سيادتها على الاراضي الجريقية في آسيا الصغرى وصار لها النفوذ الحكمي في أعمال الجريس الاوروباوية

وكان أردشير درازدست الثاني متشوقا على التغلب على جريس أوروباو مصمما على ما كان في خاطر دارا الاول وأردشير الاول فعاقه عن ذلك عصيان جزيرة قبرص وكانت مصر مساعدة لها على هذا

العصيان اذ أنها كانت مستقلة فى نفسها عملا من عهد مبادى القرن فأخمدت هذا العصيان القبرصى بمشقة كبيرة بعد حرب طويل بل كان مقطوع اليأس من نجاح فارس فيه لكنه ترخص لقائد الثورة ايفاغوراس طاغية سلميس بالبقاء فى سلطنته على دفع خراج زيادة عما كان مضروبا عليه من قبل وكان ذلك فى سنة ٣٧٩ قبل الميلاد وفى نحو سنة ٣٨٤ قبل الميلاد انفجرت ثورة مهولة بين الكادوسيانيين الموجودين على سواحل بحر الخزر فعزم الملك على اطفائها بنفسه فخلص من الهزيمة بواسطة مهارة أحد قواده المدعو طيرباطوس كما أخضع هذا القائد الاقليم العاصى وفى سنة ٣٧٥ احتلت القوى الفارسية جزيرة صاموس وافتكر اردشيردرازدشت أن هذه الحالة صارت مبدأ لخضوع عام فى الجزائر الجريقية الا أنه التزم على تأخير ما فى ضميره من العزم بما حصل من استعداد القلاقل مع المصريين وأرسل عليهم جيشا كثيفا تحت قيادة افيقراطيس الاثينى وفرناباطوس أحد القواد الفارسية فتولد من مشاحنات حصلت بين القائدين عدم نجاح فى الحركة وكذا تولد من معلومية عدم نجاحها تشجيع المرزبانات التى كانت نافرة من فارس فى الاقاليم الغربية فأزيلت هذه الاخطار والقلاقل بواسطة صرف النقود والذهب وانفض المشكل بقتل الذين كانوا سببا فى هذه الثورة

وفى سنة ٣٦١ قبل الميلاد صار تشجيع مصر وتقويتها بمعرفة اسبرطة وعزمت على التغلب على فنيقية وسوريا الا أن هذا العزم ما حصل فيه ثمرة ومن بعد ذلك بقليل مات اردشيردرازدشت الثانى فى سنة ٣٥٩ قبل الميلاد وفى مدة سلطنة هذا الملك كان الديوان الفارسى ميدان جور وظلم مستمر لان الفاجرة باريصاطيس أم الملك كانت صاحبة النفوذ والكلمة فى الديوان ففجورها وأفعالها الرديئة التى ما وازنها ولا وازاها أعمال فى التاريخ الشرقى كانت سببا فى انقسام أعضاء العائلة الملوكية مع كراهة وعداوة تمكنت بينهم حتى آل أمرهم الى أن أوقعوا بأنفسهم قتلا وذبحا وقرب البيت المتسلطن من العدم والانقراض فقبض أوخوص الابن الاصغر لاردشيردرازدشت الثانى على تخت المملكة وأمر بقتل أخيه الاكبر وقتل أخوه الثانى نفسه بنفسه وجلس على التخت باسم ادرشيردرازدشت الثالث واستحوذ على طبائع عنيفة وفظاظة شديدة زيادة عن كل ملك فارسى جلس على التخت من عهد دارا الاول وأمر لاجل تقوية نفسه على التخت بهلاك جميع فروع العائلة الملوكية ما عدا الذين ترآى له فيهم انه لا يحصل له منهم تكدير ولا ارتباك وصمم فى نفسه على عدة أعمال يجريها وفاز فى أن أعاد لفارس هيئة عظمتها الاولى وقوتها مدة حياته ثم تعطل ما كان مصمما عليه من أعماله بواسطة عصيان ارطاباطوس فى آسيا الصغرى وكان عصيان هذا بمساعدة من أثينة وطيبة له فأرسل عليه أوخوص قوة هشمته وأرغمته على الهرب مدة حياته ملتجئا الى ديوان فيليب ملك مقدونيا فهما هذا الملك من غوائل فارس ومن ثم تولد ارتباك وقلاقل بين مقدونيا وفارس انفتحت فيه طرق تغلبات اسكندر الاكبر

وأضمر أوخوص فى نفسه على عزم التغلب على مصر وكانت مستقلة فى نفسها من مدة تزيد عن نصف قرن وفى سنة ٣٥١ قبل الميلاد غار على تلك المملكة فانهزم شر هزيمة والتزم على أن يتنازل عن عزمه ورأيه وعاد الى فارس ليجمع جيشا جديدا فقامت عليه الايالات الغربية فى الحال فى عصيان واحد واستقلت فنيقية تحت قيادة صيدا وقام تسع ممالك وطنية فى قبرص وأما فى آسيا الصغرى فانه قام اثنا عشر رئيسا من الرؤساء الصغيرة واجتهدوا فى أن يكونوا ممالك مستقلة وكان أوخوص لا يهين

ولا

ولا يضعف من هذه الاخطار وأصدر أوامره لمرزبانانه فى أن يشتغلوا بقمع هذه الثورة الصغيرة وأما هو فانه سار فى سنة ٣٤٦ قبل الميلاد فى رأس جيش كثيف تحت قيادة قواد جريقية وفيه فرقة من مستأجرى الجريق مقدارها ١٠٠٠٠ مقاتل لاجل قصاص فنيقية والتغلب على مصر فحاصر صيدا وأخذ جزأ منها بالقوة وجزأ بالخديعة وهرب من الجريق محافظوها نحو ٤٠٠٠ نفس تحت قيادة منطور وانضموا الى الفرس ودخلوا فى خدمتهم وخضع الباقى من فنيقية وعاد أوخوص على مصر وفتحها وجعلها امرة ثانية تحت سلطنة مرزبان فارسى ومن هذه الاعمال الجليلة التى كان النصر والظفر منسوبا فيها المهارة القواد الجريقية وشجاعة مستأجرى الجريق الذين استخدمهم أوخوص فى عساكره صارت فارس فى موقع عظيم قوى وتجديدى ومع هذا فان جور أوخوص الوحشى جعله ألد الاعداء فى ديوانه حتى انه فى سنة ٣٣٨ قبل الميلاد قتله وزيره الاول الطواشى باغواس وقتل باغواس المذكور جميع أولاد أوخوص ماعدا ارصيص فانه كان طفلا صغيرا فأجلسه على تخت المملكة وضبط هو الحكومة فى يديه وفى سنة ٣٣٦ قبل الميلاد ارتاع باغواس من تهديدات هدده بها ارصيص فقام عليه باغواس وقتله لكنه لم يتجاسر على أن يتقلد تاج المملكة لنفسه خوفا من حصول قلقلة تقوم عليه من عموم المملكة فقدم الى كودومانوس وهو على ماقيل انه كان حفيد دارا الثانى تاج المملكة وجلس على التخت باسم دارا الثالث وكان أول شغل عمله هذا الملك الجديد أن أمر بقطع رقبة باغواس الطواشى فى سنة ٣٣٤ قبل الميلاد وكان دارا الثالث أو دارا ابن دارا أجل ملك جلس على تخت فارس الا انه ما كان مستحوذا على المهارة وحزم الرأى فى التدبيرات اللازمة لحفظ مملكته من الاخطار والقلاقل التى انفجرت فيها فى مبادى سلطنته وذلك انه من قبل جلوسه على التخت كان حصل الشروع فى الحرب المقدونى ومن عهد واقعة مرثون كان الحرب بين الجريس وفارس منظور الوقوع الا أن الذهب الفارسى كان له طاقة على توقيف هذا الحرب الى هذا الوقت الذى جلس فيه دارا الثالث على تخت فارس ولم يحصل لدارا أدنى تأثير مما كان حاصلا من اسكندر ملك مقدونيا من التهديدات واستصغر فى نفسه هذا الملك وقال انه ولد طائش العقل فرحان بشبابه وملكه فهما حصل عنده من الالتفات والاعتناء فى محاذرته من هذه المشاكل فلا بد من أن اسكندر يقهره بواسطة مهارة وحذاقة أعماله فى آخر أمره الا انه ترك الامور تجرى فى مجاريها فهدد دارا أشغال هذا الفاتح وسوى له طرائق التغلب على مملكته ولما رأى ماهو حاصل من المقدونيين من العصيان والتهديدات الجارية من تغلبهم على آسيا الصغرى جند قوة كبيرة فى نواحى نيصيا المقابلة المقدونيين وأرسل أسطولا قويا لمقابلة المقدونيين فى الهلسبون (الدردانيل) ومنعهم من عبوره ومع هذا فكانت هذه الاعمال على غير طائل وعبر اسكندر بوغاز الدردانيل فى فصل ربيع سنة ٣٣٤ قبل الميلاد وجند قوة مقدارها ٣٥٠٠٠ مقاتل على ساحل آسيا وأشار ممنون وهو قائد روديانى فى خدمة دارا على دارا أن يتجنب الحرب فى آسيا ويعبر بحر الارخبيل بجميع جيشه ويغير على مقدونيا ويرغم اسكندر بالعود والانسحاب من آسيا فرفض دارا هذا الرأى وكان ممنون من أمهر قواد الفرس وأحزمهم رأيا وتدبيرا فعقد مجلسا مع قواد الفرس ونواب الحكومة الفارسية فى آسيا الصغرى وكان هو قائد جميع ساحل آسيا الصغرى وأشار عليهم بعدم المخاطرات فى الحروب وقال انه يجب تخريب السهول حتى المدائن وتحريق كل مايحصل منه فائدة تعود على جيش اسكندر فى

المستقبل حتى يقحط الجيش ويلتزم اسكندر على العود الى أوروبا ثانيا فرفض المجلس رأيه هذا ومن بعد هذين الرأيين لم يبدعون رأيا وعزم الفرس على مقاتلة المقدونيين والجريق وصدهم عن التقدم والسير فى آسيا الصغرى ومازال اسكندر سائرا بجيوشه فى آسيا الصغرى يفتح فى ايالاتها حتى تقابل مع جيش الفرس فى نواحى غرانيقوس وهو نهر فى ايالة فريجيا وكان المرزبانات ونواب الحكومة الفارسية منتظرين حضوره فى الجهة الاخرى من النهر وعازمين مع الثبات وشدة البأس على صده ومنازعته عبور النهر وكان جيش الفرس مؤلفا من ٠٠٠٠١ مقاتل من المشاة وماينوف عن ٠٠٠٠١ فارس خيال وسار اسكندر فى هذا الوقت فى رأس جيشه الثقيل معبياعساكر المشاة فى صورة حذاءين والخيالة فى الاجنحة ولما وصل الى شواطئ النهر أشار برمنيو وهو أول قائد تحت يد اسكندر وعليه معتمده أن يعسكر فى هيئة تعبيته هذه حتى تجد العساكر لانفسهم اراحة ولا يعبروا النهر الا فى صباح اليوم الثانى لان العدو ربما يكون له طاقة على صدهم ومنعهم وكذا من الخطر الاكبر والضرر الاحمر تعديه نهر على مرأى من العدو خصوصا اذا كان النهر عميقا وواقف الجروف والشواطئ ومن هذا ربما يهزم عساكر خيالة الفرس المستعدين على الشاطئ المقابل فى تعبيتهم العساكر قبل وصولهم الى البر واستعدادهم لمقابلتهم فرفض اسكندر هذا الرأى وقال من العار والفضيحة علينا أننا بعد أن كابدنا عبورنا بوغاز الدردانيل وانتصرنا على عدونا ونلنا تعديتنا نخشى من تعديه مجرى ماء وكانت خيالة الفرس الكثيرة العدد مرصوصة فى طول الشاطئ ومشكلة مواجهة طويلة لمعارضة ومقابلة اسكندر فى وقت كده وسعيه فى التعدية وكذا كانت عساكر المشاة معسكرة خلف الخيالة وكان معظم المشاة من الجريق الموجودين فى خدمة دارا

واستمر الجيشان على مرأى من بعضهما على شاطئ النهر منتظرين حصول حركة فأما الفرس فكانوا منتظرين دخول المقدونيين فى النهر والهجوم عليهم حال وصولهم الى البر وأما المقدونيون فكانوا ينتخبون معبرا صالحا للتعدية النهر منه ومحاذرين من صد العدو اياهم ولما تم لاسكندر ذلك الانتخاب أمر بجلب حصانه فركبه وأمر أرباب دولته باتباعه وكان هو نفسه قائد الجناح الايمن وبرمنيو قائد الجناح الايسر وأمر الملك بسير فرقة قوية الى النهر فى الابتداء وتبعها هو مع الباقى من قواه وأمر برمنيو أن يتقدم بقوله شيأ فشيأ وساق العساكر الى النهر وضربت الطرمبيطه وزعقت البوقات والنفيرات وصرخ الجيش بصوت واحد

ولما شاهد الفرس الفرقة الاولى آخذة فى التقدم فى التعدية ابتدؤا فى رمى سهامهم وحرابهم عليهم ووجهوا الى محل قليل الانحدار من الشاطئ لاجل صد المقدونيين من العبور واشتغل الخيالة بالخيالة فى محاربة شديدة هؤلاء مجتهدون فى الطلوع على البر وهؤلاء مجتهدون فى صدهم من طلوعهم على البر فانجرح كثير من المقدونيين بما أنهم قليلو العدد وليس لهم مجال يخوضون فيه معامع الحرب وأخذتهم الهزيمة فى الابتداء بعد أن قتل منهم الصف الاول فوصل اليهم اسكندر وكان تابعا لهم على قرب وقواهم بعسكره وجعل نفسه فى رأسهم وأحيا أرواحهم بوجوده واقتحم اسكندر مع عسكره الفرس وشتت شملهم وتبعه سائر الجيش وعبروا النهر وهجموا من كل جهة على الفرس وهجم اسكندر على القسم الاعظم من خيالة العدو وكان فيه معظم القواد والحكام واشتبك القتال وعظم الولوال وكانت الحملة مهولة من طرف اسكندر وتضاربه الرجال كأنهم على الارض ولوانهم كانوا على ظهور الخيل واجتهد كل

واحد فى صدعدوه وكان سبيطر وهاطيس نائب حكومة يونيا وزوج بنت دارا ممتازا فوق جميع القواد بعلوّهمتـه وشجاعته ومعه أربعون من كبار الفرس كلهم أقاربه مشهورون بالحروب فكان هذا كلما توجه الى جهة زعزعها وأوقع الفشـل فيها وأزعجها فنظر اليه اسكندر ولما رأى من شجاعته ما يدهش العقل ضرب حصانه بمهمزه وتقدم اليه واشتبك الاثنان فى الحرب وكل منهما وجه مزراقه على الآخر وجرح بعضهما بعضا الا أن الجراحات كانت خفيفة فأخذت سبيطر وهاطيس الحدّة والغضب وكان السيف فى يده فطوّحه وأراد أن يضرب به اسكندر فضربه اسكندر بمزراقه فى وجهه فرماه تحت أقدامه وفى هذا الوقت حمل روزاسيس أخو هذا البطل على اسكندر وضربه ضربة شديدة على رأسه ببلطة فكسرت خودته وشجت رأسـه شجا خفيفا فاراد أن يضربه الثانية عنـدما ظهرت رأسه من خودته فضرب كليطوس روزاسيس على يده بسيفه فقطعها وانجى حياة مليكه ومن وقوع هذا الخطر لاسكندر استحيت أرواح عساكره وانصب العساكر الخفيفة من كل جهة على خيالة الفرس ورموا عليهم مطرا من السهام والرماح وحملوا عليهم حملة واحـدة بالحراب والمزاريق حتى صار لا طاقـة للفرس على الثبات لحملة المقـدونيين فشرعوا فى الفرار ولم يعقبهـم اسكندر بل عاد لاجـل الهجوم والغارة على المشاة

وقال بعض المؤرخين ان عساكر المشاة كانوا على قدم ثابت حال هجوم مشاة المقدونيين عليهم الا أنهم لما رأوا أن خيالة المقدونيين أحاطتهم فى هجومهم من كل جانب لم يحصـل منهم طول فى المقاومـة بل فروا جميعا وأما الجريسيون الذين كانوا فى خـدمة دارا فانهم التجؤا الى جبل ينتظرون ماذا يفعـل بهم اسكندر فاشعل فيهم نار الحرب وقتل منهم ٢٠٠٠ نفس وأسر الباقى وكان الذى قتل فى هذه المعركة من الفرس ٢٠٠٠٠ من المشاة و ٢٥٠٠ من الخيالة ومن المقدونيين قليل ولما حطت الحرب أوزارها وتشتت شمل الفرس أمر اسكندر بدفن المقتولين جميعا من الجيشـين على حد سواء وأصدر أمره بان كل من مات من المقدونيين ومن عساكره فى هذه الواقعة يرفع عن ابائهم وأولادهم كل صنف من أصناف العوائد والضرائب والخدمات العسكرية وأمر بوضع الذين أسرهم من الجريسيين فى الحديد وأرسلهم الى مقـدونيا يشتغلون فيها الاشـغال الضرورية للمملكة نظير خدمتهم لدارا وبهذه النصرة أصبحت اسيا الصغرى فى يد اسكندر ثم جمع دارا جيشين جديدين وفى فصل ربيع سنة ٣٣٣ قبل الميلاد جـدد العزم ثانيا على توقيف سير اسكندر وهجم على اسكندر وجيوشه بالقرب من مدينـة عصوص فقوبل من اسكندر بهزيمة حاطمة تشتت فيها جيشه واجبره على الهرب وأسرت زوجته وأمه وأولاده وعاملهم اسكندر بالشفقة الزائدة ورتب لهم الرواتب الكافية وسيأتى بمفصلات هذه الواقعة فى تاريخ اسكندر فى الجزء الثانى ان شاء الله تعالى رب العالمين

ولما طرد اسكندر دارا من آسيا الصغرى تغلب فى السنتين التاليتين على فنيقية ومصر وسوريا وأضاف هذه الممالك الى مملكته ثم سار متوجها الى الفرات لاجل اتمام فتح المملكة الفارسـية وكان دارا جمع قوة مملكته واستعد بكل ما يلزم له لوقوع واقعة نهائيـة فتقابل الجيشان فى السهل الاشورى الواسع الكائن فى شرقى نهر الدجلة وكانت الواقعة بالقـرب من اربل فانهزم الفرس وهربوا وهرب دارا أيضا الى مدينة اربل على مسـافة عشرين ميلا من محـل الواقعة فقبض عليـه قواده زاعمين أنهم يخلصونه من اسكندر ويحصـل لهـم بوجوده معهم الفوز والنجاح وأوثقوه فى الحـديد وأرغموه مصاحبتهم فى

التقهقر خلف اربل فأسرع المقدونيون فى السوق خلفهم ومنعوهم من الهرب فعادوا على الملك وأثخنوه جراحاً مهلكة وتركوه ملقى على قارعة الطريق يموت فكشف أحد العساكر المقدونية الملك المصبوغ بدمائه فاستغاث بالعسكرى فى أن يسقيه شربة ماء فأتاه بقدح من الماء شربه فشكر دارا كرم عدوه وقال له ان عدم مقدرته على مكافأته فيما فعل معه من صنيع العمل يضاف الى مرارة ساعة موته وأوصاه أن يعرض لاسكندر أن يصنع المعروف بقتل وابادة وتدمير من كان سبباً فى انصباغه بهذه الدماء ويأخذ بثأره منهم ثم خرجت روحه ووصل اسكندر من بعد موته بقليل وأسف كثيراً على موته وغطى جسمه ببرنسه وأمر بدفنه فى بذر كادى مع الاحتفال الملوكى وقرر جميع ما يلزم لتربية أولاد دارا وسنأتى بتفصيلات هذه الواقعة فى تاريخ اسكندر وكانت واقعة اربل ختام عاقبة المملكة الفارسية وأخضع اسكندر جميع ممالكها وأضافها الى مملكته

﴿ الكتاب العاشر ﴾

﴿ تاريخ المملكة الفارطية ﴾

﴿ الباب الاول ﴾

﴿ من ابتداء تشييد المملكة الفارطية الى سقوطها ﴾

وصف مملكة فارطية ـ وصف الفارطيين ـ قيام المملكة الفارطية ـ الملوك القديمة ـ الحروب مع سوريا ـ حملة انطيوقوس الاكبر ـ المعاهدة بين فارطية ورومة ـ انتشاب حرب رومة على فارطية ـ هزيمة قراصوص ـ عزم رومة على التغلب على فارطية ـ الحروب بين فارطية وجمهورية رومة ـ سلطنة أرصيص الخامس والعشرين ـ هزيمته بواسطة الامبراطور طراجان ـ الحرب بين ولوغيصيص الثالث ومرقوص عوريليوص ـ حرب آخر مع رومة ـ أرصيص الثلاثون ـ عصيان الفرس ـ سقوط المملكة الفارطية بغتة

تعادل فارطية الاصلية على وجه التقريب فى السعة والامتداد اقليم خورسان الفارسى الجديد وطولها من الشرق الى الغرب نحو من ٣٠٠ ميل وعرضها من ١٠٠ الى ١٢٠ ميلا فتكون مساحتها ٣٣٠٠٠ ميل مسطح وهذا الاقليم عبارة عن أراض جبلية فى الجهة الشمالية منه وأراض سهلة فى الجهة الجنوبية ولم يكن علوّ السلاسل الجبلية الموجودة فيه كبيراً جداً ومن النادر أن تزيد الارتفاعات فيها عن ٦٠٠٠ قدم ومعظم جبالها خالية جداً شنعة المنظر الا أن الوديان الكبيرة بعضها مشهور بالغنية والخصوبة الجيدة وتروى البلاد الجبلية بواسطة عدة أنهر خارجة من جبالها وأرض المفازة أو السهول الواقعة فى الذيول الجنوبية لهذه الجبال هى التى كانت مرعية عند القدماء بفارطية الاصلية أو الحقيقية وطولها نحو من ٣٠٠ ميل وخصوبتها تابعة لطرائق ريها وكانت المنطقة الخصبة فى الزمن القديم أعرض مما هى عليه الآن وكانت أعمال الرى حاصلة فيها بكثرة واعتناء تام الا انه لا يمكن مد السهل زيادة عن عشرة أميال خلف ذيل الجبال بما أنه من بعد هذه المسافة تبتدئ الصحراء المحلية وتكون الزراعة غير ممكنة وبمقارنة أرض فارطية بالاراضى المحيطة بها

تجد أنها بقعة جنة أو بستان وكانت مرعية عند ملوك الفرس بانها احدى الاقسام والجهات العظيمة عندهم وفى ممالكهم وكانت محدودة من جهة الشمال بخوارزم ومراغة ومن جهة الشرق بواسطة أريا ومن جهة الجنوب بواسطة سرتغية ومن جهة الغرب بواسطة اغريطية وهرقانية وموقع فارطية بهذه الحالة هو الذى جعلها دولة ذات شوكة قوية وكانت ذات محصولات وافرة فى داخل أرضها وكانت أرضها صالحة جدا للنتاج جنس قوى صلب من الناس والفارطيون هم قوم من الجنس الطورى مثل قبائل التركمان والتتار يقضون جميع عيشتهم على ظهور الخيل فيتحادثون ويجرون أشغالهم ويبيعون ويشترون حتى يأكلون وهم على ظهور خيلهم وعندهم تعدد الزوجات ويحجبون نساءهم من نظر الاجنبى ويعاقبون على الخيانة وعدم الذمة بأشد العقاب ولهم معاناة شاقة على الصيد وقل أن يأكلوا لحوما الاما استحصلوا عليه من الصيد وهم على حالة متوسطة من المأكول الا أنهم كثيروا الشرب وقليلو الكلام وقليلو الهدو والراحة أهل غارات وشرور فى بلادهم وفى الخارج والقليل من هذه الملة حر فى نفسه وما بقى أرقاء اقليلين منهم ممتازين بامتيازات مخصوصة عندهم وعادتهم الظعن والنزول وهى عادة باقية عندهم فى داخل بلادهم حتى فى وقت حصول الفلاح الداخلى لهذه المملكة وعندهم السماجة والفظاظة وعوائد بربرية مرتبطة بهم دائما أبدا حتى على القسم الاعظم من كبار ووجوه الامة والملك وأرباب دولته والامراء على العموم وهى عادة تزيل بهجة التمدن وصفاءه حتى ان تلك الاوصاف بينهم فى معاملتهم مع بعضهم ومع الامم الاجنبية وتلقب الفارطيون فى الازمان القديمة بالترك لانهم متحدون معهم فى الجنسية وكانوا حكاما على نفس هذه البلاد وكان الفارطيون فى عز علو درجتهم وشوكتهم أهل توحش وبربرية مكروهين فى الظاهر خائنين فى الحروب كسالى وغير مهذبى الاخلاق فى وقت السلم ومع ذلك كانوا أهل شجاعة واقدام ومحبة للحروب وحازوا كثيرا من الخصال والفضائل التى قربتهم لان يصيروا ملوكا وما خضعوا للرومانيين فى عز شوكتهم وعلو مجدهم واستمروا على استقلال أنفسهم الى حد سنة ٢٢٦ بعد الميلاد حتى سقطوا تحت أقدام مملكة فارس الجديدة وعجزت رومة عن طاقتها فى تصرفها مع هذه الامة الحربية العنيفة عندما سجد جميع الدنيا القديمة لطاعة الجمهورية والمملكة وبقيت فارطية مستقلة تحت حكم ملوك منها

وكانت فارطية قسما من أقسام المملكة الفارسية فى الايام القديمة وكانت محكومة بمرزبان وبمجرد سقوط مملكة فارس صارت قسما من مملكة اسكندر على ما كانت عليه فى سابق حالتها ولما مات اسكندر انتقلت تحت حكم سلقوس خليفة اسكندر على بلاد آسيا وصارت تحت حكم ملوك سوريا الى سنة ٢٥٥ قبل الميلاد وكانت السلطنة السلوسيدية انية الى هذا الوقت فى هدو وحال وراحة بال حتى سعى الفارطيون أول مساعيهم فى خطف قضيب السلطنة من السلوسيديين وتلقب ملوكهم بلقب الاشكانيانية أو ملوك الطوائف وعلى ما قيل ان سلاطينهم كانت عبارة عن رؤساء صغيرة يلقبون بالملوك يرجعون فى أحكامهم الى حكومة مركزية تحت رئيس يلقب بملك الملوك أو شاهنشاه واستمرت السلطنة الاشكانية نحوا من خمس قرون أو ٤٨٠ سنة والمدة التى كانت فيها هذه السلطنة احدى المدد المبهمة الغير معروفة عند مؤرخى الشرقيين حتى ان الفردوسى صاحب الشاهنامه لم يذكر عنهم شيأ واذا راعينا هذه المدة عند مؤرخى الرومانيين نجدها مشحونة بحوادث هذه الامة التى كانت متعاظمة فى نفسها ومغرورة فى ذاتها وأن الملوك الفارطية الذين ما أمكننا تيسر الحصول على أسمائهم من تاريخ

نفس بلادهم كانوا هم الملوك الذين ما قدرت الجيوش الرومانية وهم فى أعلى درجات مجدهم أن يخضعوهم ويجلبوهم تحت ناف مملكتهم

وقد وصف ميرخوند وكان أجل المشهورين من أهل بلاده هذه فى تسجيلاته السنوية بأن أصل الملوك الفارطية الملقبين بالارصيصانيين أو الاشكانانيين منسوبين الى أشك أو أشج من ذرية ملوكهم القديمة وكان رئيساً صغيراً نال مسعدة أهل بلاده بكونه أذاع انه استحوذ على العلم الفارسى الملوكى وهو درفش كابيان وكان عمه خلصه من المقدونيين عندما انهزم دارا وقتل ومن بعد أن قتل العامل أرطاحيش أو أبطحاحيش دعا رؤساء الاقاليم لينضموا اليه ضد العائلة السلوسيديانية ويكونوا فى جامعة واحدة لاجل خلاص بلادهم من الناف الاجنبى ومن هذا الاتحاد تسمت العائلة الاشكانيانية أو الارصيصانية بملوك الطوائف

وقال آخرون ان أرصيص قائد الثورة على المملكة السلوسيديانية كان قائداً من صيطيا كبير جماعة من صيطى دهاى أو ضاهاى منسوبة الى الضاغستانيين من شواطئ نهر أوخوس هاجر الى فرطيا ونال فى أراضيها درجة الارتقاء ومن المحتمل انه كان يوجد قرابة بين مهاجرى ضاهاى والسكان القديمة لهذا الاقليم حتى امتزج الجنسان ببعضهما وصارا أمة واحدة والظاهر أن كلا من الجنسين كان طورانيا فى الاصل وانقرض الجنس الضاهاى بالكلية حتى صرنا لا نسمع عنه شيأ فى حوادث التاريخ وان أرصيص لما أخذه الغضب والحنق الشديد من اساءة شديدة حصلت من حاكم الاقليم فى حق أخيه الاصغر طريداطيس لم يملك نفسه أن جمع قليلا من أحبابه وأصحابه وقتل الطاغية ولما رأى حزبه آخذا فى الزيادة أضمر فى نفسه على طرد المقدونيين وشرع فى مشروعاته هذه وتممها وجعل نفسه ملك فارطية وامتدت سلطنته سنتين صرفهما فى تقرير سلطنته على أهل فارطية وكان البعض منهم معارضا له فى سلطانه وخلفه أخوه طريداطيس أو أرصيص الثانى فى سنة ٢٥٣ قبل الميلاد وكان ساعده فى ثورته وصعد الملك الجديد على التخت وتلقب بلقب أرصيص الثانى وأهم حادثة حصلت فى مدة سلطنته هزيمة سلقوس قالينقوس وألزمه الاقرار والاعتراف باستقلال فارطية وخلفه ابنه أرصيص الثالث فى سنة ٢١٦ قبل الميلاد ومن بعد مضى سنتين من سلطنته أغار على ميديا وهدّد الحكومة السوريانية فى اغتصاب ميديا منها فسار اليه انطيوقوس الاكبر وطرده من ميديا وأغار على فارطية وأخذ عاصمتها وسار خلف أرصيص فى داخل هرقانية وهزمه فى واقعة دموية وقعت بينهما ومع هذا فان انطيوقوس وجد من المستحيل عدم خضوع هذه البلاد فقرر مع حزم الرأى صلحا أثبت فيه لارصيص ملك فارطية وهرقانية والصحيح أن هذه السلطنة نشرت أعظم أحكامها الى سنة ١٩٦ قبل الميلاد

ومات أرصيص الثالث فى سنة ١٩٦ قبل الميلاد وخلفه الملك الرابع الملقب بأرصيص الرابع وكانت مدة سلطنته خالية الوقائع والحوادث وفى سنة ١٨١ قبل الميلاد جلس أرصيص الخامس وهو فرعاطيس على التخت وفى سنة ١٧٤ قبل الميلاد ترك سلطنته لاخيه متريداطيس وتلقب بلقب أرصيص السادس وكان ملكا جليلا مهيبا ذا شجاعة واقدام فى الحروب تغلب على ميديا والسوس وفارس وبابل وبقطريا (أى بلخ) وأسس المملكة الفارطية وكان حدها الغربى نهر الفرات وكانت مدة سلطنة أرصيص السابع من سنة ١٣٦ الى سنة ١٢٧ قبل الميلاد وأرصيص الثامن من سنة

١٢٧ الى سنة ١٢٤ قبل الميلاد خالية من الوقائع والحوادث وكان متريداطيس الثانى أوأرصيص التاسع الملقب بالاكبر ملكا قوى الشوكة عالى الهمة ذا شجاعة واقدام فى معامع الحروب طرد القبائل الطورنيانيـة من ثغوره الشمالية وكسر شوكتهم وأذلهم ووسع المملكة الفارطية من جميع أطرافها باجراء حروب عديدة طويلة ومن ثم صارت فارطية هى المملكة الثانية من بعد رومة التى هى أقوى مملكة فى الدنيا القديمة وتسلطن من سنة ١٢٤ الى سنة ٨٩ قبل الميلاد ومن ابتداء هذه المدة صار تاريخ فارطية خاليا الحوادث والوقائع وغير محقق الاحوال حتى جلس على التخت فرغاطيس الثالث أوأرصيص الثانى عشر فجلس على التخت فى سنة ٦٩ قبل الميلاد فى الوقت الذى طردت فيه رومة متريداطيس الاكبر من مملكة بونطوس على سواحل البحر الاسود وشبكت أرمينية فى الحرب وتحالف مع فارطيـة المملكتان المتحاربتان الآن فارطية استمرت مدة من الزمن فى حيادة منهما ولما تقلد بومبى زمام القيادة الرومانية فى الشرق نجح فى كونه أدخل فرعاطيس فى محالفـة معه وأغار فرعاطيس على أرمينية واحتل طجرانيس ما تركه بومبى حال سيره للتغلب على مملكة بونطوس ولما تم مرغوب الرومانيين من التغلب على بونطوس عقدوا شروطا مع طجرانيس حتى انهم ساعدوه على فارطية سنة ٦٥ قبل الميـلاد وأما اقليم غورديانة الذى كان احتله فرعاطيس فان الرومانيين اغتصبوه منـه وأعطوه الى أرمينية فاعترض فرعاطيس مع بومبى وعاتبـه فى نقض ونكث هـذه الذمة فأصم الرومانيون اذانهم بشأن هـذا الاعتراض والعتاب ومن ثم عقد فرعاطيس شروطا مع طجرانيس وانتهى الحرب الذى كان بينهـما فى نحو سنة ٦٣ قبل الميلاد وفى سنة ٦٠ قبل الميلاد مات ملك الفارطيين مسموما والصحيح أن الذى سمه ولداه وبواسطة الحرب الذى أجرته رومة مع بونطوس استحوذت على كل سوريا وامتدت ممالكها الى الحد الغربى للمملكة الفارطية وهو نهر الفرات ثم وقع التباين والخلاف بين هاتين المملكتين الكبيرتين القاسمتين للدنيا القديمة واستمر هذا التباين عبارة عن مجرد مسائل الوقت

ثم ان متريداطيس الثالث أوأرصيص الثالث عشر خلف أباه ولما مات طجرانيس الاول فى أرمينيـة خلفه على التخت ابنـه الثانى فغار فى الوقت متريداطيس على أرمينية لاجل اعادة الوارث الحقيقى على تخته وكان صهره غير أن مساعيه صارت على غـير طائل وأغضب الملك المتسلطن فى أرمينية من جهته ومن بعد مضى بضع سنين خلع أمراء الفارطيين متريداطيس عن التخت وجعلوا أخاه ملكا مكانه فسار الى بابل وأقام فيها مدة من الزمن وأخيرا ضبط وقتل فى سنة ٥٥ قبل الميلاد

ولما صار عورود يس أوأرصيص الرابع عشر ملكا بدل أخيه فبمجرد جلوسـه على التخت انشـبك فى حرب مع رومة وكان يظهر من حروب فارطية مع بونطوس وأرمينية للرومانيين أن المملكة الفارطية أغنى وأقوى مملكة زيادة عن أى مملكة شرقية حتى انهم لغاية هذا الوقت ما فربوها ولا مسوها بسوء فانها فى الحقيقـة كانت هى الدولة الفـريدة التى ما خضعت مطلقا لرومة حتى ثار الحسد والغيرة والحمية فى رأس الجمهورية الرومانية من وجود مملكة قوية مهولة بهذه الحالة عدوة لها ومن ثم عقدت النية على حرب معها وأعلنت رومة عليها الحرب من دون أدنى حجة تقيمها عليها فى أى شئ من الاشياء فى سنة ٥٥ قبل الميلاد وفى سنة ٥٤ قبل الميلاد أغار قراصوص على فارطية فى رأس جيش كثيف جرار فهزمه عورود يس شر هزيمة وقتله شر قتلة وفى سنة ٥٢ وكذا فى سنة ٥١ قبل الميلاد عبر جيش فارطى قوى نهر الفرات تحت قيادة بخوروس بن عورود يس وولى عهده وجاس خلال الاراضى الرومانية

وخربها وتغلب مع المجلة على سوريا العليا واستشعرت صيليصيا وانطاكية بالبطش والانتقام الفارطى ولما ارتاب عورود يس من اطاعة ابنه له دعاه اليه وسحب جيشه من خلف الفرات ومن بعد مضى احدى عشرة سنة أى فى سنة ٤٠ قبل الميلاد عبر الفارطيو مرة أخرى نهر الفرات تحت قيادة بخوروس وأغاروا على سوريا بمساعدة ليبانوس الرومانى وكان التجأ الى سلطنتهم وهزم جيشا رومانيا كان متعرضا له فى طريقه تحت قيادة سيديوس ساقصه وتغلب على أنطاكية وابيا وصيدا وفنيقية وأخذ أورشليم ونهب كل هذه المدائن ووقعت سوريا وفلسطين وفنيقية فى أيدى الفارطيين ومن بعد هذا اتجهوا نحو آسيا الصغرى وأخضعوا جميع الساحل الجنوبى الى حد كاريا وفى هذه الجهة صدّهم الجيش الرومانى تحت قيادة ونطيديوس وهزمهم وقتل ليبانوس فى سنة ٣٩ قبل الميلاد

ولم يعش عورود يس زمناطويلا لمشاهدة هذه المصائب بل مات فى سنة ٣٧ قبل الميلاد وخلفه ابنه الثانى فرعاطيس الرابع أو أرصيص الخامس عشر وفى سنة ٣٦ قبل الميلاد أغار الرومانيون على فارطية تحت قيادة مارك انطونى ومن بعد أن نال أنطونى بعض مظفرات قليلة ذاق وبال هزيمة عظيمة وقعت عليه من الفارطيين وارتدنا كصا على عقبيه الى سوريا وماحصل من الفارطيين أدنى اجتهاد فى عبور النهر خلفه وكان لم يزل حدّا بينهم وبين الممالك الرومانية واكتفوا بحفظ ممالكهم وأما الرومانيون فانهم تحققوا جيدا من شوكة الفارطيين وقوتهم واقدامهم وصداقتهم فى الحروب

ومن ابتداء هذا الوقت الى مبادى القسم الاوّل من القرن الاوّل من بعد تاريخ المسيح كان تاريخ الفارطيين خاليا من الحوادث والوقائع وقليل الاهمية وما كان فيه الاحكاية تعاقب ملوك ودسائس فى العائلة الملوكية ووقوع مشاحنات فى أهلها شوّشت سلطنتهم وأقلقت داخلية بلادهم ثم ان الرومانيين ماشرعوا فى اجراء أى حرب رسمى على فارطية فى أثناء هذه المدة الا أنهم قوّوا الارتباكات والقلاقل الداخلية فى هذه المملكة وكدّروا عليها عيشتها وفى هذه المدة عصت أرمينية أيضا على فارطية بمساعدة الرومانيين وصارت خراجية لرومة وفى سنة ١٠٧ بعد الميلاد جلس خسرو أو أرصيص الخامس والعشرون على التخت وكان أول عمل عمله هو عود سلطنته على أرمينية فتولد من هذا أن جلب على نفسه انتقام رومة وبطشها وأسرع الامبراطور طراجان فى التغلب على أرمينية وجعلها ايالة رومانية من دون حصول أدنى مقاومة ثم سار فى رأس جيش قوى جرار على ميزوبوتاميه أى العراق وأشوريا وتغلب على مدائن هذه الجهات وأضافها الى ممالكه ثم انحرف الى نحو الجنوب وتغلب على سلوسيا وطسيقون وبابل ونزل منحدرا فى نهر الدجلة حتى وصل البحر واستحوذ على طاعة ميسان وهو اقليم من فارطية على الخليج الفارسى ومدّ فتوحاته الى جهة الشرق الى حد السوس والى هنا التزم الوقوف بسبب ما حصل من الثورات العديدة التى اشتعلت فى الممالك التى تغلب عليها وتولد من هذه القلاقل والاخطار انسحابه الى سوريا واستردت فارطية جميع ايالاتها ماعدا أرمينية وميزوبوتاميه وأشوريا لان طراجان كان وضع فيها قوى كافية لحفظها من الفارطيين ولما صار هرديان امبراطور رومة فى سنة ١١٧ بعد الميلاد تنازل عن جميع ما تغلب عليه طراجان وسحب جيوشه فى داخل خط الفرات ومن ثم استلمت فارطية حدودها الاولية وظلت مع رومة فى ارتباطات وعلاقات ودية الى أن مات خسرو فى سنة ١٢١ بعد الميلاد

ولما مات خسرو خلفه ابنه ولوغيصيص الثانى أو أرصيص السادس والعشرون فتسلطن من سنة

١٢١ بعد الميلاد الى سنة ١٤٩ واستمر في العلاقات الودية التي كان عقدها أبوه مع رومة ولم يحصل منه أدنى سعي في أخذ أرمينية من رومة ثم خلفه ولوغيصيص الثالث أو أرصيص السابع والعشرون والصحيح أنه كان ابنه وتسلطن هذا الملك من سنة ١٤٩ الى سنة ١٩٢ بعد الميلاد واستمر في مبادي أمره على صداقة رومة وفي سنة ١٦١ بعد الميلاد بمجرد جلوس الامبراطور مرقوص أوريليوس عزم على اغتصاب أرمينية من الرومانيين ونجح في مبادي أمره وتغلب على أرمينية وهزم جيشا رومانيا كان تحت قيادة سوريانوس نائب حكومة قبدوثيا وقتل قائده وعبر الجم الغفير من الفارطيانيين نهر الفرات ونهبوا سوريا وخربوها فاستعد الرومانيون استعدادا كبيرا تحت قيادة ويروس وطردوا الفارطيين من سوريا ومن أرمينية وساروا خلفهم حتى دخلوا بلادهم وأخذوا سلوسيا وطسيفون عاصمة المملكة الفارطية وبابل وحرقوا السراية الملوكية في طسيفون سنة ١٦٥ بعد الميلاد فعقدت فارطية صلحا تنازلت فيه عن ميزوبوتامية وأعادت أرمينية الى الرومانيين

وجلس ولوغيصيص الرابع أو أرصيص الثامن والعشرون على تخت أبيه في سنة ١٩٢ بعد الميلاد فاشتبك في حرب مع رومة من أجل مساعدته بصنيوس نجيرة في سنة ١٩٣ بعد الميلاد ودخل جيش روماني في مملكته وتغلب على سلوسيا وطسيفون وبابل ثم انسحب الجيش من دون حصول تلفيات كبيرة

ومات ولوغيصيص الرابع في سنة ٢١٣ بعد الميلاد تاركا عدة أولاد وقع بينهم منازعة ومخاصمة بشأن وراثة التخت وأخيرا جلس على التخت ولوغيصيص الخامس أو أرصيص التاسع والعشرون فتسلطن ثلاث سنوات وخلفه أخوه ارطابانيس أو أرصيص الثلاثون وهو آخر ملوك فارطية وامتدت سلطنته الى سنة ٢٢٩ بعد الميلاد ثم ان الامبراطور الروماني قرقالا كان حصل له منازعة شديدة مع سلفه فعزم على الزام ارطابانيس في الدخول في حرب معه وطلب ابنة ملك فارطية أن تكون زوجة له فرفض ارطابانيس طلبه هذا فعبر قرقالا الفرات في سنة ٢١٦ بعد الميلاد وسار من وسط ميزوبوتاميه الى نهر الدجلة وتغلب على اربل وجبر الفارطيين على القهقرة الى نحو الجبال وفي السنة التالية قتل قرقالا والذي قتله مقرنيوس وخلفه على تخت الامبراطورية وشرع مقرنيوس في استمرار الحرب فهزمه أرطابانيس مرتين والتزم على اشتراء الصلح بكونه دفع مبالغ عظيمة من النقود وسلم جميع مافتحه الرومانيون في شرق نهر الفرات الى فارطية ومن ثم عادت الحدود القديمة للمملكة الفارطية حتى عادت أيضا أرمينية تحت حكم فارطية مرة أخرى

وفي هذا الوقت لما ظهر السعد على المملكة وأعيد اليها كامل سطوتها وشوكتها انعاها ناعي الموت وانقضى نجمها مثل الذين خلوا من قبلها وذلك انه حصلت ثورة مهولة تحت قيادة اردشير بابكان بن ساسان قامت في الاقاليم الفارسية الموجودة في القسم الجنوبي من المملكة وهزم الفرس القوى الفارطية في ثلاث وقائع كبيرة وفي الثالثة قتل أرطابانيس وبهذه المظفرات استقبل الفرس أردشير بابكان باسم شاهنشاه أو ملك الملوك وصاروا أسيادا الممالك الفارطية وأقام أردشير بابكان على أطلال المملكة الفارطية مملكة فارس الجديدة الساسانية التي سنذكر تاريخها بعد هذا

وقد وضعت جدولا باسماء الملوك الاشكانيانية أو ملوك الطوائف مأخوذا من تاريخ العالم حسب ماذكر مؤرخو أوروبا أسماءهم

١ ارصيص الاول	١١ عورو ديس الاول	٢١ متريداطيس
٢ طريداطيس أخوه	١٢ متريداطيس الثانى	٢٢ دونيس الثانى
٣ أرصيص الثانى	١٣ فرعاطيس الرابع	٢٣ ولوغيصيص الاول
٤ بريباطيس	١٤ فرعاطيسيس	٢٤ ارطبابانيس الثالث
٥ فرعاطيس الاول	١٥ عورو ديس الثانى	٢٥ بخوروس الثانى
٦ متريداطيس الاول	١٦ وانونيس الاول	٢٦ خسرو
٧ فرعاطيس الثانى	١٧ أرطابانيس الثانى	٢٧ بارثوناسباطيس
٨ أرطابانيس الاول	١٨ طريداطيس	٢٨ ولوغيصيص الثانى
٩ باوخودوس الاول	١٩ بردانيس	٢٩ ولوغيصيص الثالث
١٠ فرعاطيس الثالث	٢٠ غوطارطيس	٣٠ ارطابانيس

وهذه أسماء ملوك الطوائف أو الملوك الاشكانيانية حسب ماهو مذكور فى كتاب زينة الطريق مدة سلطنة كل واحد منهم فأولهم اردوان بن أشك تسلطن ثلاثا وعشرين سنة ثم خسرو بن أردوان تسع عشرة سنة ثم بلاش بن أشر اثنتى عشرة سنة. ثم جودرز ثلاثين سنة ثم نرسى بن جودرز ثلاثين سنة ثم نرسى بن نرسى ثمانى عشرة سنة ثم اردوان أو أرطابانيس الذى قتله اردشير بابكان ولم يذكر سنى سلطنته والذى ذكره ابن الاثير فى الكامل أن أشك بن أشكان من ولد دارا وكان مولده ومنشؤه بالراى فملك السواد وهى مملكة فارطية ثم ملك بعده ابنه سابور ثم جودرز ثم بلاش أبو أردوان الذى قتله اردشير بابكان وذكر فى طبقات ملوك الفرس أن الطبقة الثالثة هى طبقة ملوك الاشكانية وهم على ما سبق ذكره ملوك الطوائف الذين استولوا على العراق والجبال كان أولهم أشك بن أشكان ملك اثنتين وخمسين سنة ثم ابنه سابور أربعا وعشرين سنة ثم ابنه جودرز خمسين سنة ثم ويجن بن بلاش احدى وعشرين سنة ثم جودرز بن ويجن تسع عشرة سنة ثم نرسى ثلاثين سنة ثم هرمزان تسع عشرة سنة ثم ابنه فيروز اثنتى عشرة سنة ثم ابنه خسرو أربعين سنة ثم أخوه بلاش أربعا وعشرين سنة ثم ملك ابنه اردوان خمسا وخمسين سنة وهو الذى قتله اردشير بابكان واختلاف مؤرخو الشرق فى تواريخ هؤلاء الملوك وأسمائهم اختلافا يفوق الحصر والعدد وذلك لعدم معلوميتهم بعدة تاريخ هؤلاء الملوك الذين أحرزوا قصب السبق فى ميادين الحروب أمام رومة فى وقت ما كانت فى أعلى درجات أوجها والله أعلم بالصواب. واليه المرجع والمآب

﴿ والى هنا تم الجزء الاول ويليه الجزء الثانى وأوله تاريخ مملكة فارس الاخيرة ﴾

(فهرست الجزء الاول من البحر الزاخر)

﴿بيان الخطأ الواقع فى هذا الكتاب وصوابه﴾

سطر	صحيفة	خطأ	صواب
٣٢	٦٩	٩٣٩	٨٣٩
٩	٧٦	نوا	وان
٣	٧٣	لليهود	اليهود
٢٠	٨١	المعلاملات	المعاملات
٢	١٢٥	حاكا	حاكما
١٣	١٢٧	مصرم	مصر
١٠	١٣١	المملكة	الملكة
٥	١٦١	المخناء	المحناء
١٦	١٩٣	القنابر	القنابل
٦	٢٤٥	ادلن	اقلن
٣١	٣١٤	وقوة	قوة

